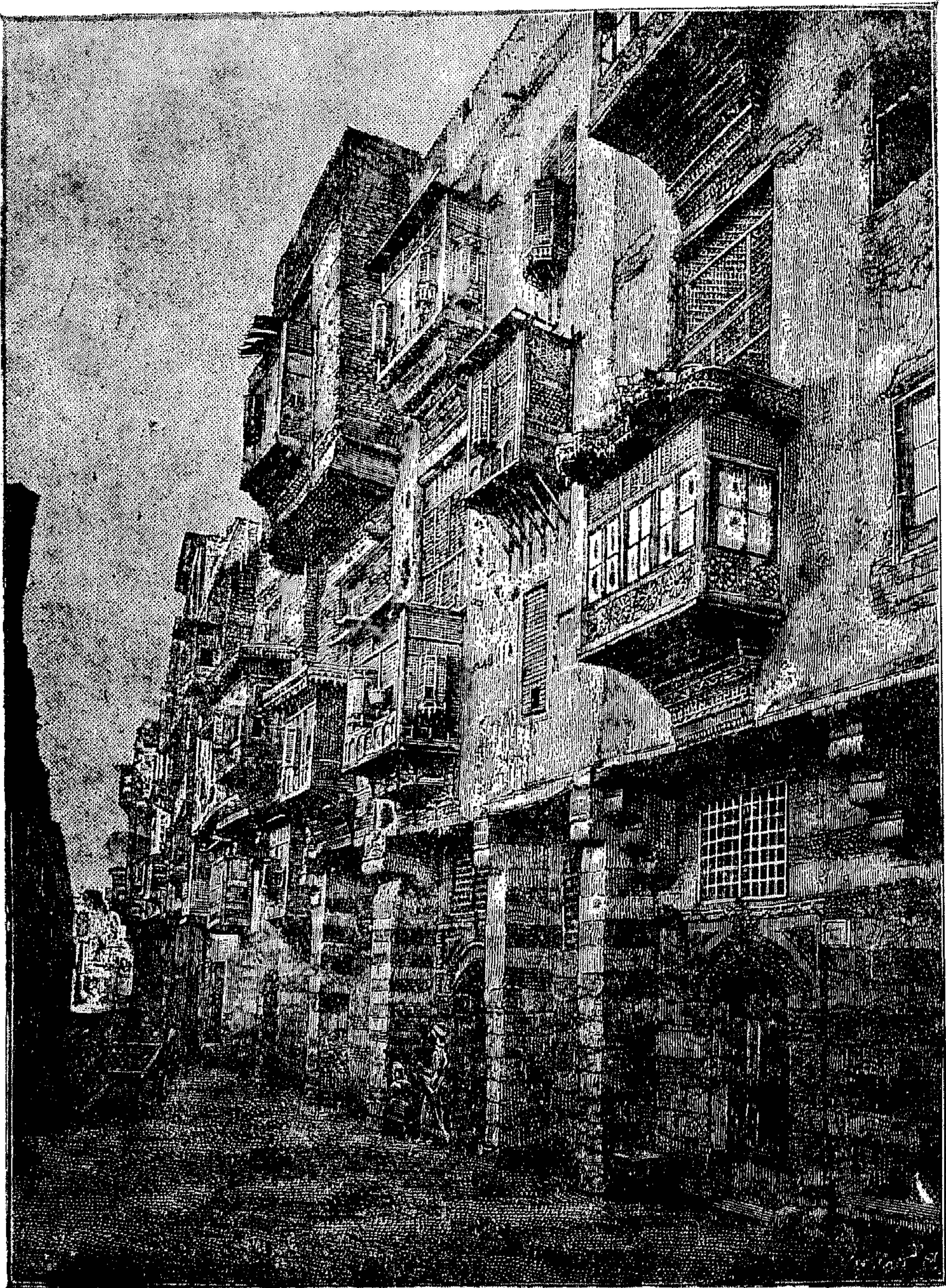


بلاّئع الزهور في وقائع الدهور



اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم اد. فريد الشافعي
استاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

كتاب الشعب

المختار من

بَدَائِعُ الزُّهُورِ فِي وَقَائِعِ الدُّهُورِ

تأليف

محمد بن أحمد بن إياش
الحنفى المصرى

كتب عربى
(أهداء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل ٥٣٠١٩



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

مطابع الشعب
١٩٦٠

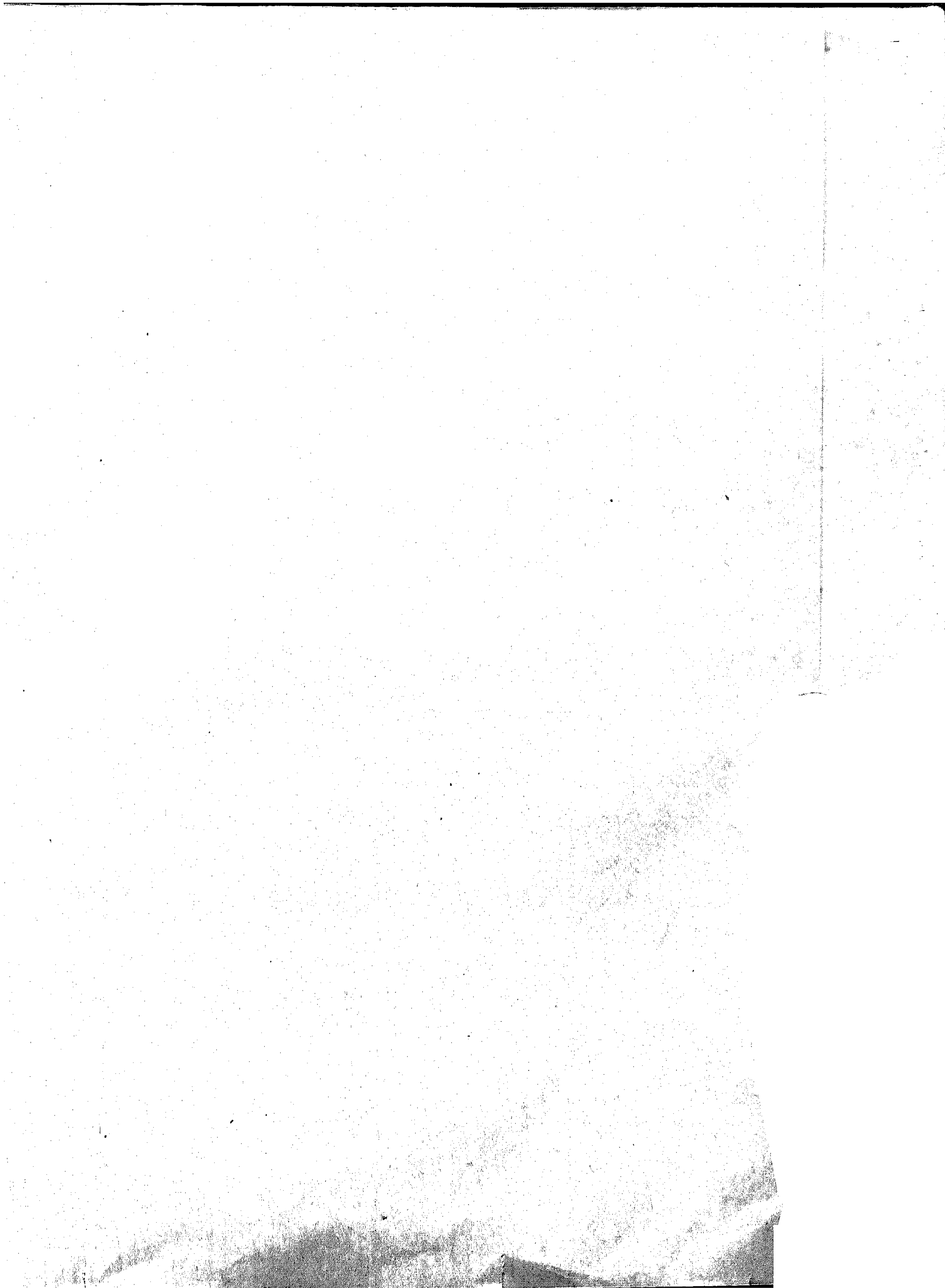




سيقع القارىء على فقرات يعجب فيها من تفكير القوم في
عصر ابن اياس . وقد أثبتناها ليعلم جيلنا ، وكل جيل يأتى
من بعده ، أن لكل جيل أوهامه وضلالاته ...

ولكى تثبت أقدامنا على السبيل السوى ، علينا أن نراجع
أفكارنا ... فنأخذ الطيب من الحق ، ونذر الخبيث من
الضلالات والأوهام ، حتى لا تسخر الأجيال القادمة من
أفكارنا حين تصبح تراثنا ...

كتاب الشعب



هو الذي كان يرمى الفتن بينه وبين الأمراء ، وهو الذي كان يحدث في القاهرة أبواب الظلم ، حتى يجلب لأستاذه الدعاء من كل أحد من الناس ، حتى كرهوه وتمنوا زواله وعود الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الديار المصرية .

وفي أثناء قتل السلطان لاجين حضر الى القاهرة الأمير بكتاش أمير سلاح ، وكان مسافرا مع طائفة من العسكر الى البلاد الشامية ، فلما أن حضر نزل اليه كرجي ونوغان اللذان قتلوا السلطان لاجين فقبض عليهما وقتلها شر قتلة ، وكان بين قتلها وقتل السلطان لاجين ليلة واحدة .

ثم ان الأمراء اجتمعوا في القلعة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا فوق الاتفاق منهم على عود الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، فأرسلوا اليه نجابا الى الكرك بالحضور فأبطأ عليهم وأقامت مصر بلا سلطان أحدا وأربعين يوما حتى حضر الملك الناصر من الكرك وعاد الى الملك .

قَوْدُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُون

عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة بالديار المصرية ، وهي السلطنة الثانية . دخل القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فلما دخل القاهرة زينت له زينة عظيمة ودقت له الكئوسات ، فلما طلع القلعة لبس خلعة السلطنة — وهي جبة سوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء وسيف بداوى متقلد به — وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشى الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، وفي ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعي رحمه الله هذين البيتين :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرسيه مثل ما عاد سليمان الى الكرسي
ثم ان الملك الناصر عمل الموكب ، وخلع على من سيذكر من الأمراء وهم : الأمير أقوش الأفرم واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير سلاار المنصوري واستقر به نائب السلطنة ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير ، واستقر به اتابك العساكر ، وأعيد الأمير منقر الأعسر الى الوزارة ، وخلع على الأمير حسام الدين لاجين وأعيد الى الاستدارية ، وأنعم على جماعة كثيرة من ممالك أبيه بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة أيضا من الممالك بالاقطاعات السنية ، وتم أمره في المملكة وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة .

سنة تسع وتسعين وستمائة (١٢٩٩ م)

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن غازان ملك التتار قد زحف على البلاد ووصل أوائل عسكره الى الفرات ، وهو في عسكر ثقيل لا يحصى .

وغازان هذا هو ابن أرغون ، بن ابغا ، بن هلاكو الذي أخرب بغداد ، وقتل الخليفة ، وجرى منه ما جرى .

وكان سبب مجيء غازان وزحفه على البلاد هو أن قفجق ، نائب الشام ، لما بلغه أن الملك المنصور لاجين أرسل بالقبض عليه أخذ أولاده وعياله وبركه وماله ، وخرج من الشام وتوجه هاربا الى القان غازان ، وحسن له أن الملك الناصر صغير ، وأن الأمراء والعسكر بينهم الخلف ، وأنه اذا زحف القان غازان على البلاد لا يجد من يرده عنها ... فعند ذلك جمع القان غازان عساكر عظيمة ، نحو مائتي ألف مقاتل .

فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت الأرض واجتمعت الأمراء بالقلعة وضربوا مشورة ، فوقع الاتفاق على أن الأتابكي بيبرس الجاشنكير يتوجه الى حلب ومعه خمسمائة مملوك قبل خروج السلطان ، فخرج الأتابكي بيبرس على جرائد الخيل مع العسكر . ثم خرج الملك الناصر محمد بعده في خامس عشر صفر ، وكان صحبته الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعة ، وكان قاضي القضاة الشافعي حينئذ شيخ الاسلام : تقي الدين ابن دقيق العيد . وخرج مع السلطان سائر الأمراء والعسكر ، فجد السلطان في المسير حتى وصل الى دمشق في ثامن ربيع الأول سنة تسع وتسعين وستمئة ، ثم خرج من دمشق فتلاقى مع جاليش غازان في مكان يعرف بسلمية قرب بعلبك ، فوقع بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك ، ونهب بركه وسائر برك العسكر ، ولم يبق معه من العسكر الا طائفة يسيرة .

ثم ان القان غازان زحف على ضياع الشام ونهب ما فيها وسبى أهلها . فلما بلغ أهل الشام ذلك خافوا على أنفسهم من غازان فيما فعله بأهل الضياع ، فتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق ، وخرجوا الى غازان يطلبون منه الأمان ، فخرج قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي ، والشيخ زين الدين الفارقي ، والشيخ تقي الدين ابن تيمية الحراني ، والقاضي نجم الدين ابن الصرصري ، والقاضي عز الدين بن تركي ، والشيخ عز الدين بن القلانسي ، والقاضي جلال الدين القزويني ، وغير هؤلاء جماعة من العلماء والصلحاء . فلما دخلوا على غازان ووقفوا بين يديه ، وقف الترجمان وتكلم مع القان غازان في

أمرهم وانهم جاءوا يطلبون الأمان منه ، فقال له غازان : « قل لهم اني قد أرسلت اليهم الأمان قبل حضورهم عندي » ... فرجعوا الى دمشق واجتمع في جامع بني أمية الجهم الغفير ، وقرءوا على الناس الأمان الذي أرسله القان غازان الى أهل دمشق . فلما قرء عليهم ذلك الأمان وسمعوه فرح الناس بذلك ، وحصل عندهم سكون بعد ما كانوا في اضطراب من أمر غازان .

ثم حضر الأمير قفجق الذي كان نائب الشام وهرب الى غازان ونزل بالميدان الأخضر وأرسل يقول لنائب قلعة الشام : « سلم الينا القلعة ولا تحوجنا الى أن نحاصرك وتغلب بعد ذلك » . فأرسل نائب القلعة يقول لقفجق : « ليس لك عندي جواب الا السيف . وكيف أسلم القلعة والملك الناصر على قيد الحياة ؟ » .

فلما بلغ غازان ذلك حاصر القلعة ، ونصب عليها المجانيق ، وأحرق البيوت التي حولها فلم يقدر عليها .

ثم بلغه أن الملك الناصر تراجع اليه العسكر وهو قاصد نحو الشام . فلما كان يوم الجمعة ثلثي عشر جمادى الأولى رحل غازان عن دمشق وترك بها أميرا من التتار يقال له الأمير قطلوشاه بيك ومعه عسكر من التتار ، وولى الأمير قفجق نائب الشام كما كان أولا ... هذا ما كان من أمر القان غازان .

وأما ما كان من أمر الملك وأمر عسكره فانه لما انكسر ودخل الى بعلبك أقام بها أياما ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية ، وجد في السير حتى وصل الى القاهرة ، فدخل على حين غفلة وطلع القلعة ، وقد نهب جميع ما كان معه من البرك وكذلك الأمراء والعسكر . فلما طلع القلعة فتح الزردخانه وفرق ما كان فيها من الملبوس والسلاح على العسكر ، ثم فتح خزائن المال وأنفق على

الأخبار من مصر

وما ورد فيها من الآيات العظيمة والأحاديث النبوية ، وما
نخصت به من الفضائل والمحاسن والعجائب دون غيرها من
البلاد ، وما قاله الشعراء في وصفها .

بالفواكه اليانعة والقرى العامرة ، حتى قيل ان
المسافر كان يسير من اسكندرية الى أسوان بلا
زاد ، بل يسير في ظل وأشجار وفواكه الى أن
يصل الى مدينة أسوان في قرى عامرة بالناس
لا يحوجونه الى زاد يحمله معه .

ذكر ما عد من فضائل مصر

قال أبو الريحان : « ولد بمصر من الأنبياء
موسى وهارون عليهما السلام ، وولد بها يوشع
ابن نون ، ودخل اليها عيسى بن مريم وأقام بقرية
بالصعيد يقال لها أهناس .

ودخل مصر من الأنبياء ابراهيم الخليل
عليه السلام ، ويعقوب ويوسف والأسباط
وارمياء ، ودخل اليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم
السلام . ودخل اليها من السادة التابعين جماعة ،
ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتي ذلك
في مواضعه .

وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذي أثنى
الله تعالى عليه في القرآن ، ومنهم آسية امرأة
فرعون التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه . ومن
أهلها سحرة فرعون الذين آمنوا في ساعة واحدة
مع كثرتهم .

اعلم — وفقك الله — أن مصر من أجل البلاد
قدرا .

قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال : « أليس
لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ،
أفلا تبصرون ؟ » .

وأما بالاشارة والاياء فمنها قوله تعالى :
« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام
كريم ؟ » . يعنى مصر .

وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله
صلى الله عليه وسلم : « اذا فتح الله عليكم بعدى
مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند
خسیر أجناد الأرض ، لأنهم في رباط الى يوم
القيامة » .

ذكر حدود أرض مصر ومسافتها

قال أبو الصلت أمية الأندلسى ان حد أرض
مصر في الطول من مدينة برقة الى عقبة ايلة ،
وذلك نحو من أربعين يوما . ومسافة حدها في
العرض من مدينة أسوان من أعمال الصعيد الى
العريش عند الشجرتين ، وذلك نحو من ثلاثين
يوما في مسافة العرض منها .

وكان اقليم مصر متصلا بالعبرة على شاطئ
النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالأشجار المثمرة

خمسة عشر من الحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد

عليها بالنار فتحاكى نار الطبيعة في حضانة الدجاجة
فيخرج منها الفرايج وهى من أعظم مأكول مصر ،
ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر .

وبها النارج والاترنج المدور ، قيل انه حمل
من أرض الهند وزرع بمصر بعد سنة ثلثمائة من
الهجرة ولم يكن بمصر قبل ذلك .

وكان بها نوع يقال له البنج وهو مثل اللوز
الأخضر ، وكان من محاسن مصر ولكن انقطع منها
فى سنة سبعمائة من الهجرة .

وكان بها الماسكة ومنافعها لا تنكر .

وبها الخوخ الزهرى الأحمر ولا يوجد الا بها .
وبها العسل النحل المصرى وهو أطيب من غيره
من الأشربة وله فضيلة دون غيره .

وبها نتاج الخيل والبغال والحمير تفوق على
غيرها من البلاد .

وبها الطرز الأسيوطية وكانت لا توجد الا بها .
وبها الثياب الديقية . كانت تعمل بمدينة
تنيس ، يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار .

وبها جلال الخيل والبراقع والطنافس لا تعمل
الا بها .

وبها المقاطع الشرب لا تعمل الا بدمياط ، ولها
خاصية دون غيرها .

وبها العرس والنس ، ولهما فضيلة لا تنكر فى
أكل الثعابين حتى قيل : لولا العرس والنس لما
سكنت مصر .

وبها البطيخ الصيفى ، ومنافعه لا تنكر . قيل

قال صاعد الفوئى فى كتاب طبقات الأمم :
« ليس فى بلد أعجوبة الا وفى مصر مثلها ... أو
أعجب منها » .

وقيل ان بمصر من الأنواع ثلاثين نوعا لا توجد
فى الدنيا :

فمنها معدن الزمرد والذبابى ، ولا يوجد فى
الدنيا الا بها . قيل يوجد فى نواحي البهنسا .

ومنها معدن الشب والملح ، ولا يوجد الا بها .

ومنها الأبنوس الأسود ، ولا يوجد الا بها .

ومنها مقاطع الرخام الملون الفستقى والسماقى
والدارورى وغيره من أنواع الرخام .

ومنها الأفيون وهو عصارة ماء الخشخاش ،
ومنافعه لا تنكر .

وبها دهن اليلسان ، ولا يوجد الا بها فى
أرض المطرية ، وهو الذى تتغالى ملوك النصارى
فى ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم .

وبها السمك الرعاد ، ونفعه للحمى اذا علق على
المحرم يرى .

وبها الحيات التى يعمل منها الدرياق ومنافعها
لا تنكر .

وفىها الاسقنقور ومنافعه لا تنكر .

وبها الحطب الصنط الذى هو سريع الاشتعال
بطيء الخمود .

وبها القمح اليوسفى .

وبها دهن السلجم .

وبها معامل التناير التى يعمل بها البيض ويوقد

نقلت زريعتيه الى مصر من بلاد الهند في أيام القبط .

وبها الرخام المرمر ، ومنافعه لا تنكر .

وبها القرط الذى تربط عليه الحبول في زمن الربيع .

وبها الكتان ، ومنافعه لا تنكر .

وبها الخيار شنبر ، ومنافعه لا تنكر .

ومن أجل منافعها ماء النيل المبارك وسرعة هضمه للأكل . قال بعض الحكماء ، « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حلاوة ماء النيل » .

وبها ماء العوسج ، ومنافعه لا تنكر .

ومن فضائل مصر أن الرخامة الخضراء الفستقية التى فى الحجر عند الكعبة أصلها من مصر ، بعثها الى مكة محمد بن طريف ، مولى العباس بن محمد ، فى سنة احدى وأربعين ومائتين من الهجرة ، وبعث معها رخامة أخرى فستقية وضعت على سطح الكعبة عند الميزاب . وقبل طولهما ذراع بالعمل وثلاث أصابع ، وعرضهما مثل ذلك . ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة .

قال المسعودى : « ان كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها » .

وقد قال الله تعالى فى حق قرى مصر : « وابعث فى المدائن حاشرين » .

قال القضاعى : « لم يكن فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر . ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد . ولو زرعت كلها لوقت بخراج الدنيا بأسرها » .

وهى أكثر البلاد كنوزا وعجائب وأنهارا ، ولا سيما ما فى بلاد الصعيد من البرابى ، وما

أودعت من العلوم والحكم والطلسمات وغير ذلك .

قيل سئل بعض الحكماء : « متى تطيب أرض مصر ؟ » . قال : « اذا اعتدل هواها ، وارتفع وبهاها ، وطاب مرعاها » .

وقال بعض الحكماء : « اذا بلغت زيادة النيل ثمانية عشر ذراعا وهبط ، كانت العاقبة فى ذلك حدوث وباء بالديار المصرية فى تلك السنة » .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى شبه جنة الفردوس فلينظر الى أرض مصر » . قيل قبل طلوع الشمس فى زمن ربيعها ، اذا اطردت أنهارها ، وغردت أطياريها ، وأينعت أزهارها .

وقد قال القائل فى المعنى :

ما مثل مصر فى زمان ربيعها

لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوى البلاد نظيرها

لما نظرت الى جمال وسيم

ووصف بعض الحكماء أرض مصر فقال :

« ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر كهرة صفراء ... »

فان أرض مصر فى شهر أيب ومسرى وتوت يركبها الماء فتصير الأرض بيضاء من افتراش الماء عليها ، وتصير ضياعها مثل الكواكب فى السماء فلا يصل اليها أهلها الا فى الزوارق .

وأما المسكة السوداء فان أرض مصر فى شهر يابه وهاتور وكيهك ينصرف عنها الماء فتصير مثل المسكة السوداء .

وأما الزمردة الخضراء فان أرض مصر فى شهر

طوبه وأمشير وبرمهاث يكشر فيها الزرع فتصير
الأرض خضراء مثل الزمردة .

وأما الكهرمة الصفراء فان أرض مصر في شهر
برمودة وبشنس وبؤنة يدرك فيها الزرع ويحصد
فتصير مثل السبيكة الذهب الصفراء .

وقد قيل في المعنى :

كل وقت بمصر أمر عجيب
نحن منه في السعد كالأغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ، ودر

حيث درنا ، وفضة في الفضاء

ومن محاسن مصر ... قال القضاعى : « ان مصر
يوجد بها في كل شهر من الشهور القبطية نوع من
الماكولات والمشروبات . فيقال رطب توت ، ورماني
بابه ، وموزهاثور ، وسبك كيهك ، وماء طوبه ،
ورميس أمشير ، ولبن برمهاث ، وورد برمودة ،
ونبق بشنس ، وتين بؤنه ، وعسل أييب ، وعنب
مسرى » .

ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التي
تجتمع في وقت واحد في أواخر فصل الشتاء ،
ولم يكن هذا يلد غيرها ، وهي : النرجس ،
والبنفسج ، والبان ، والورد النصيبى ، والزهر
(وهو زهر النارج) ، والياسمين ، والورد
الجورى ، ويعرف أيضا بالقحاني ، وهو آخر هذه
السبع زهرات التي تجتمع في وقت واحد .

أما النسرين — وان كان من أعظم الزهور
رائحة — فانه غير معدود في جملة الزهور السبع
التي تجتمع في وقت واحد ، لأنه يأتي في آخر أيام
الورد ... فلا يلحق النرجس ولا يلحق البنفسج ،
فلم يكن معدودا في جملة هذه السبع زهرات التي

تجتمع في وقت واحد لأجل تأخره عن بقية الأزهار .
وقد نظمتها في هذا المقطوع وهو قولى في المعنى :

ياطيب وقت بمصر فيه قد جمعت
سبع من الزهر تحويها البساتين

بنفسج نرجس زهر وبان لنا

ورد نصيبى وجورى وياسمين

وقيل ان الذى ينقطع من الفواكه والأزهار في
سائر البلاد في زمن الشتاء يوجد بمصر .

ومن محاسنها أن أهل مصر لا يحتاجون في زمن
الشتاء الى التدفئ بالنار كما تعانيه أهل الشام ،
ولا في زمن الصيف الى أن يدخلوا تحت الخيش من
شدة الحر كما تعانيه أهل مكة .

قال أبو الصلت : « أهل مصر خصوا بالأفراح
فيها دون غيرهم من جميع الأمم » .

وقيل ان أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هي
عادة غيرهم من الأمم ، كأنما حوسبوا وفرغوا من
الحساب .

وكان بمصر من الفلاسفة والحكماء القدماء :
هرمس وبقراط وجالينوس والينوس وفيداغورس ،
ولما ماتوا دفنوا بمصر . وكان بها من الحكماء في
دولة الاسلام الرئيس علاء الدين بن نفيس صاحب
كتاب الموجز ، والرئيس أبو على بن سينا .

ومما تفتخر به مصر على سائر البلاد أن سلطانها
خادم الحرمين الشريفين وله الميزة على سائر ملوك
الأرض كما قال القائل :

إذا البلاد افتخرت لم تنزل

مصر لها عز وتفضيل

وكيف لا تفخبر مصر وفي

أرجائها السلطان والنيل

ما قاله الشعراء في وصف مصر من كل معنى غريب

قال ابن الوردي رحمه الله تعالى :

ديار مصر هي الدنيا ، وساكنها

هم الأنام ... فقابلها بتقيل

يا من يباهى ببغداد ودجلتها

مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال الصلاح الصفدي :

من شاهد الأرض وأقطارها

والناس أنواعا وأجناسا

ولا رأى مصر ولا أهلها

فما رأى الدنيا ولا الناس

وقال الشيخ علاء الدين الوداعي :

و بمصر وساكنها

شوقي ، وجدد عهدى الخالى

وصف لنا القرط ، وشنف به

سمعى ، وما العاطل كالحالى

وارو لنا ياسعد عن نيلها

حديث صفوان بن عسال

وقال البها زهير :

يارعى الله أرض مصر ، وحيا

ما مضى لى بمصر من أوقات

حبذا النيل والمراكب فيه

مصعدات بنا ومنحدرات

هات زدنى من الحديث على النية

ل ، ودعنى من دجلة والفرات

وقال ابن فضل الله :

يحق لمصر أن تتيه اذا جرى

بها النيل وامتدت اليه عيون

فما مثله من زائر لقدومه

تقر عيون اذ تقر العيون

وقال ابن الصائغ الحنفى :

ارض بمصر فترك ارض

من كل فن لها فنون

ونيلها العذب ذاك بحر

ما نظرت مثله العيون

وقال الشهاب المنصورى :

تقول لنا مصر : أنا خير موطن

ولا ناس فى الأمصار أطرف من ناسى

فان تك أوقات السرور نضيرة

فلا تقطعوها فى الا بمقياسى

وقال رضى الله عنه :

اعملوا أهل مصر لله شكرا

وقليل من العباد الشكور

ان مصر أسقى الاله ثراها

بلد طيب ورب غفور

المقوقس

وأكرم حاطبا غاية الاكرام وبعثه بتلك الهدية ،
فلما وصلت الى النبي صلى الله عليه وسلم قبلها
منه ، واستسلم مارية فأسلمت على يديه ، ووهب
أختها شيرين الى حسان بن ثابت . وكانت البغلة
والحمار أحب دوابه اليه .

ولما دخل على مارية حملت منه بإبراهيم فعاش
ثمانية عشر شهرا ومات .

قال صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون بعدي
أرضا يذكر فيها القيروط . فاذا افتتحموها
فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم نسبا وصهرا » .
قال ابن شهاب : « كنى بالنسب عن هاجر ، أم
اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام ، فان
أصلها من مصر . وكنى بالصهر عن مارية القبطية ،
فان أصلها من مصر أيضا » .

واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو احدى
وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضي الله
عنه الديار المصرية في سنة عشرين من الهجرة
النبوية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وأرضاه .

كان اسمه جريج بن ميناى ، وقد أدرك نبوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت سنة
ست من الهجرة (٦٢٧ م) بعث اليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حاطب ابن أبى بلتعة رضى الله
عنه ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يدعوه فيه الى الاسلام . فلما دخل حاطب مصر
وجد المقوقس بشعر اسكندرية ، فتوجه اليه ، وكان
يصيف بمصر ويشتى بالاسكندرية ^١ . فلما دخل عليه
قال له كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما
أخذه قبله ووضع على رأسه ، ثم قرأه وعلم ما فيه
وقال لحاطب : « نعلم أنه نبي مرسل ، وقد أخبرنا
المسيح بذلك » .

ثم بعث مع حاطب الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم هدية عظيمة ، وهى ألف مثقال من
الذهب ، وعشرون ثوبا من قباطى مصر ، وجارية
تسمى مارية وأخرى تسمى شيرين ، وغلाम خصى
يسمى مابور ، وبغلة تسمى دلدل ، وحمار يسمى
غفيرا وقيل يعفور ، وعسل من عسل بنها .

(١) لعله بنى على ذلك .



عمرو بن العاص

وابتداء دولة الاسلام

قال الكندي : لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل جيشا الى مصر ، وكان أمير الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه فلما وصل الى مصر أقام يحاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وكان المقوقس في قصر الشمع ، وكان قصر الشمع مطلا على بحر النيل ، وكانت السفن ترسو تحته . فلما رأى المقوقس أن العرب أشرفوا على أخذ المدينة نزل في مركب من باب قصر الشمع وتوجه الى نحو الاسكندرية هاربا ، وكان يعلم أن العرب لا بد أن تملك مصر ، وسبب ذلك ...

قال أبو الحسن المسعودي : كان بقصر الشمع في الكنيسة المعلقة صنم من النحاس الأصفر راكب على جمل من النحاس الأصفر ، وهو زى العرب وعلى رأسه عمامة وفي رجله نعلان من جلد ، فكانت القبط والروم اذا تظالموا في شيء بينهم واعتدى بعضهم على بعض يتحاكمون عند ذلك الصنم النحاس ، ويقفون بين يديه فيقول المظلوم للظالم : « أنصفنى قبل أن يجيء هذا الرجل الأعرابى فيأخذ الحق لى منك ان رضيت أو لم ترض » . فكانوا يعنون بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه .

وقيل كان بالاسكندرية باب لا يزال مغلقا دائما وعليه أربعة وعشرون قفلا ، فعزم على فتحه المقوقس . فلما قوى عزمه على ذلك اجتمعت عليه القسيسون والرهبان وسألوه ألا يفتح ذلك الباب وأن يجعل عليه قفلا كما فعل من تقدمه من الملوك ، فلم ينته عن فتحه ، فقالوا له نحن نعطيك ما خطر

ببالك أنه فيه من المال ولا تفتحه ، فلم يسمع لهم شيئا وفتحه . فلما دخل فيه لم يجد به شيئا من المال ، ورأى على حيطانه منقوشا تصاویر العرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم في أوساطهم وهم على الابل . ورأى في صدر ذلك المكان كتابة بالقلم الرومى ، فأتى بمن قرأ ذلك الخط ، فاذا معناه : اذا فتح هذا المكان تملك العرب المدينة في تلك السنة التى يفتح فيها ... فكان الأمر كذلك ، وملك العرب المدينة في تلك السنة . وكان كل من ملك مدينة الاسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلا ، وهذه الأقفال بعدد من ملك المدينة من ملوك القبط .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فرغ من الصلاة : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتحت عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقيل : « ولم ذلك يا رسول الله ؟ » . فقال : « لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مصر كنانة الله فى أرضه ... ما كاد أهلها أحد الا كفاهم الله تعالى مؤنته » .

قال ابن المتوج : « لما فتح عمرو بن العاص مصر واستقر بها ، قصد التوجه الى مدينة الاسكندرية ، فتوجه اليها بمن معه من العربان ، فلما وصل اليها حاصر أهل المدينة أشد المحاصرة ، وكان المقوقس بها مقيما ، فلما أشرف على فتحها

أرسل المقوقس يسأله في الصلح وأن يجعل عليه الجزية .

قال ابن لهيعة : « وكان سبب فتح الاسكندرية أن عمرو بن العاص لما طال عليه أمر الحصار أتى إليه رجل يقال له ابن بسامة — وكان بوابا على باب المدينة — فقال لعمرو بن العاص : أتؤمنني على نفسي وعيالي وأنا أفتح لك الباب ؟ فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل عمرو ومن معه من المسلمين فملكوها وأسروا المقوقس .

فلما فتحت مدينة الاسكندرية أرسل بذلك إلى الخليفة وكتب إليه كتابا وهو يقول فيه : « أما بعد ، فاني قد فتحت مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها غير أنني قد وجدت بها اثني عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات في جوانب المدينة من بعد العصر ، ووجدت بها ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، ووجدت بها نحو ستمائة ألف يهودي وقد هرب أكثرهم إلى بلاد الروم من البحر ، وقد أوجبت الجزية على من بقي منهم غير النساء والصبيان ، فقررت على كل رأس منهم دينارين في كل سنة ، فكان الذي بقي نحو خمسين ألف يهودي .

فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « من كان في يدك من اليهود أو النصارى فخيرهم بين الاسلام ودينه . فان أسلم فهو من جملة المسلمين ... له مالهم ، وعليه ما عليهم . وإن لم يسلم فعليه الجزية عن كل رأس ديناران » .

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص تقليدا بولاية مصر وأرسله على يد معاوية بن خديج ، وذلك في سنة عشرين من الهجرة ، فكان أول من تولى على مصر نيابة عن الخلفاء .

قليل لما ملك العرب مدينة الاسكندرية جاءت الروم إلى قسطنطين بن هرقل ، وقالوا له : « أترك

الاسكندرية في أيدي العرب وهي مدينتنا الكبرى ؟ » . فتوجه قسطنطين إلى الاسكندرية في ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين ، فلما وصل إلى قرب الاسكندرية بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا فأغرقت تلك المراكب كلها بمن فيها من الرجال ولم ينج منهم أحد . وأما قسطنطين ملك الروم فألقته الريح بصقلية فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب فقالوا له : « قد أفنيت من بقي من عسكر الروم وجئت إلينا ، فلو دخلت العرب إلى بلادنا لم يجدوا من يردهم » . فاجتمع عليه أهل صقلية وقتلوه وكفى الله المؤمنين القتال . قال ابن وصيف شاه : « لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية أقام بها مدة ورجع إلى مصر ، فاجتمع رأيهم بأن يبنى هناك مدينة ظاهر قصر الشمع ، فابتدأ ببناء مدينة وسماها مدينة الفسطاط . وسبب تسميتها بمدينة الفسطاط أن عمرو بن العاص لما فتح مصر نزل بمن معه من العربان في الفضاء ونصب هناك فسطاطه ، فلما قصد التوجه إلى الاسكندرية أمر بنزع ذلك الفسطاط فوجدوا عليه عش يمامة وقد أفرخت عليه ، فقال عمرو بن العاص : « دعوا الفسطاط — يعني الخيمة — مكانه لا تهدوه احتراما لليمامة التي قد عششت عليه » .

فلما توجه إلى الاسكندرية وفتحها ، وقصد الرجوع إلى مصر قالوا له لما دخل إلى مصر : « في أي مكان تنزل ؟ » . فقال في مكان تركت به الفسطاط ، أي الخيمة . فلما بنى هناك هذه المدينة سميت مدينة الفسطاط بسبب ذلك . وكانت الفسطاط مدينة عظيمة جليلة بها عدة مساجد وحمامات وطواحين ومعاصر ، وكان أولها من حדרه ابن قميحة وآخرها عند الرصد . ولم تزل هذه المدينة عامرة ساكنة إلى دولة الفاطمية إلى خلافة

العاصد بالله ، فحرقت عندما استولى الفرنج على الديار المصرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى أخبار الدولة الفاطمية .

قال ابراهيم بن وصيف شاه : « ان فى سنة احدى وعشرين من الهجرة كان فتح مدينة دمياط على يد المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، وكان ملك هذه المدينة شخصا من القبط يقال له الهاموك خال المقوقس صاحب مصر . وكان للهاموك ولد يسمى شطا ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأسلم تلك الليلة ، ودلهم على مسالك المدينة فاستولوا عليها ليلا وملكوها فقاتل معهم شطا قتالا شديدا حتى قتل فى المعركة ، وكان قتله فى ليلة الجمعة فى النصف من شعبان من سنة احدى وعشرين من الهجرة ودفن خارج دمياط فى مكان قتل به ، وقبره يزار الى الآن رحمة الله عليه . »

قال ابن عبد الحكم : « لما استقر عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : « أيها الأمير ان لنيلنا سنة كل سنة لا يجرى الا بها . فقال لهم : « وما هى ؟ » فقالوا : « اذا كان ليلة اثنتى عشرة من شهر بؤنة من الشهور القبطية عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصبا أو رضا ، وجعلنا عليها الحلى والحلل ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم . فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال لهم : « هذا الأمر لا يكون فى الاسلام أبدا . فاقام أهل مصر شهر بؤنة وأيبب ومسرى وتوت من الشهور القبطية ، ولم يجر فيها النيل لا قليلا ولا كثيرا ، فهم أهل مصر بالجلاء ... »

« فلما أن رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأرسله على يد نجاب ، فلما وصل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص ، وأمره أن يلقها فى بحر النيل ، فلما وصلت الى عمرو بن

العاص فتح تلك البطاقة وقرأ ما فيها واذا فيها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك .

« أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك ... »

« فلما وقف عمرو على ما فى البطاقة ألقاها فى النيل كما أمره أمير المؤمنين عمر ، وقد ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون سابع عشر توت من الشهور القبطية ، وكان قد أجلى غالب أهل مصر من عدم جريان الماء . فلما أصبح الناس يوم عيد الصليب رأوا النيل زاد فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا فى دفعة واحدة . وقد قطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . »

وفى سنة ثلاث وعشرين من ولايته على مصر ابتداء ببناء جامع الكبير الذى بمصر — وهو المسمى به — وكان واقفا على قبلته نحو سبعين رجلا من الصحابة ، فهو أول جامع بنى فى الاسلام بمصر ، وهو جامع مبارك وفيه الدعاء مجاب ..

قال ابن وصيف شاه ان عمرو بن العاص سأل المقوقس وقال له : « لقد وليت على مصر احدى وثلاثين سنة فأخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر . فقال له المقوقس : « انى رأيت الذى يقوم بعمارة مصر حفر خلجانها ، واصلاح جسورها ، وسد ترعها ، ولا يؤخذ خراجها الا من غلالها ، ويحجر على عمالها من المثل ، ويمنعون من الرشا ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة على وزن الخراج . »

قال المسيحي :

« كان بمصر في الزمن الأول مائة وخمسون كورة ،
في كل كورة مدينة ، وكان لكل كورة ثلثمائة
وخمس وستون قرية . فلما خربت عند قدوم
بختنصر اليها ، ثم أعيدت بعد ذلك ، صار بها
خمس وثمانون كورة ، ثم انها تناقصت من بعد
ذلك الى أن كانت دولة عمرو بن العاص فصار بها
نحو أربعين كورة . وقد اشتملت على ألفين
وثلثمائة وخمس وتسعين قرية دون الكفور ، وذلك
عند ما خربت وتناقص خراجها فجباها عمرو بن

العاص فبلغ اثني عشر ألف ألف دينار . وكان
خراجها في زمن الفراعنة ستة وتسعين ألف دينار .
ثم ان عمرو بن العاص أقام على مصر الى أن
توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
وتولى من بعده الامام عثمان بن عفان ، فعزل عمرو
ابن العاص عن ولايه مصر وتولى عبد الله بن أبي
السرْح ، فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على
مصر في هذه المرة نحو ست سنين الا أشهرها ، ثم
عاد الى ولايته بمصر ثانيا كما سيأتي ذكر ذلك في
موضعه .



ولاية مصر لعمر بن العاص

عنه ، وأقام في ولايته عليها الى أن مات بها ودفن بها ، وقيل انه مات مسوما ، فلما بلغ الامام موته حزن عليه حزنا شديدا وقال : « لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الولاية زمن الأمويين

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . تولى على مصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وأقام بمصر حتى قتل . وكان سبب قتله أن محمد بن أبي بكر هذا كان من جملة من اجتمع على قتل الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو في داره يوم المقتلة فيما زعموا ، واستغفر الله من ذلك . فلما تولى محمد على مصر ثار عليه الشيعة بسبب ثار عثمان بن عفان ، وكان الذين ثاروا عليه من الشيعة معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاة وغيرهم من الشيعة ، فأتوا من الشام ، فلما دخلوا الى مصر خرج اليهم الأمير محمد بن أبي بكر رضى الله عنه وقاتلهم قتالا شديدا . وكان — مع صغر سنه — شجاعا بطلا ، فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض العسكر ، فلما قويت عليهم الشيعة تفرق عنهما العسكر ، فانكسر الأمير محمد وهرب واختفى في بعض الخرابات ، فلما حثوا في طلبه قالت لهم عجوز : « أتريدون الأمير محمد بن أبي بكر ؟ » . فقالوا لها : « نعم » . فقالت : « أتعطوني الأمان لأخى وأنا أدلكم عليه » . فقالوا لها : « نعم » .

قال الكندي : « كان عبد الله بن أبي السرح أخا الامام عثمان بن عفان من الرضاع ، فلما تولى على مصر رحل عنها عمرو بن العاص وأتى المدينة الشريفة ، فلما استقر ابن أبي السرح بمصر جبي خراجها في تلك السنة أربعة عشر ألف ألف دينار ، فلما وصل خراج مصر الى الامام عثمان بن عفان نظر الى عمرو بن العاص وقال : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » . فقال له : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ، وان هذه الزيادة اتت أخذها عبد الله ابن أبي السرح انما هي على الجماع » . فانه أخذ عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ، وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر في مبتدأ الاسلام .

وأقام عبد الله بن أبي السرح في ولايته على مصر الى أن مات في سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقيل انه مات بفلسطين ودفن بها ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو اثنتي عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفي في سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري — وكان من الصحابة — فأقام في ولايته على مصر نحو اثنتي عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفي في سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك بن الحارث النخعي بن الأشتر — وكان من الصحابة — فتولى على مصر في خلافة الامام على رضى الله تعالى

قد أعطينا الأمان لأخيك » . وكان أخوها يبيع
 الفجل في مدينة الفسطاط ، فدلّتهم على مكانه .
 فلما دخلوا عليه وجدوه قد كده العطش فقال
 لهم : « بالله استقوني شربة من الماء » . فقال له
 معاوية بن خديج : « لا سقاني الله ان سقيتك .
 أنسيت منك الماء لعثمان بن عفان وهو محصور
 في الدار ؟ » . فقال : « أكرموني لأجل أبي بكر » .
 فقال له معاوية بن خديج : « لا أكرمني الله ان
 أكرمتك . أنسيت ما فعلته يوم قتلة عثمان ؟ فلا
 أمان لك عندنا » . ثم تقدم اليه معاوية بن خديج
 وضرب عنقه بالسيف ثم جره برجله وطاف به في
 المدينة ، ثم أدخل جثته في جوف حمار ميت وأحرقه
 حتى صار فحما . فكانت قتلته في رابع عشر صفر
 سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . وكانت مدة ولايته
 على مصر خمسة أشهر ، وكان له من العمر لما قتل
 ثمان وعشرون سنة ، وكان مولده في عام حجة
 الوداع . وتوفي أبوه أبو بكر وله من العمر نحو
 ستين ونصف . قيل لما قتل الأمير محمد بن أبي بكر
 الصديق رضى الله عنه أخذ رأسه وجثته زمام الخادم
 ودفنها خارج مدينة الفسطاط وبنى هناك مسجدا ،
 وهو الى الآن يعرف بمسجد زمام ويزار الى الآن .

قال الكندي : « لما قتل الأمير محمد أرسل
 معاوية بن خديج قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه
 الى المدينة الشريفة . فلما وصل الى دار الامام
 عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا
 الفرح والسرور في ذلك اليوم . ثم ان نائلة زوجة
 عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال .

* ثم من بعده أعيد الأمير عمرو بن العاص
 الى ولايته بمصر ، وهي الولاية الثانية . تولاها
 في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ثمان وثلاثين
 من الهجرة . واستمر في ولايته الى أن مرض
 وسلسل في المرض ، فلما أشرف على الموت أحضر

ما كان جمعه من الأموال وقال لولده عبد الله ،
 وكان يقاربه في السن — قيل كان بين مولد عمرو
 ابن العاص وبين مولد ابنه عبد الله نحو ثلاث عشرة
 سنة — فقال عمرو لولده عبد الله : « اذا أنا مت
 فاردد هذه الأموال التي جمعتها الى أربابها » . فلما
 مات الأمير عمرو بن العاص أرسل معاوية بن أبي
 سفيان يقول لعبد الله : « نحن أحق بهذه الأموال
 التي جمعها عمرو لدفع العدو » . فأرسل من أخذها
 وأدخلها في بيت المال ، فقيل لعبد الله : « ما كان
 قدر ذلك المال ؟ » . فقال : « كان سبعة جرابا
 من جلد ثور كاملة » .

وكانت وفاة الأمير عمرو بن العاص في ليلة
 عيد الفطر في سنة ثلاث وأربعين من الهجرة . فلما
 كان يوم عيد الفطر أخرج نعشه الى الجامع ووضع
 في المحراب حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد
 صلاة العيد ، ثم حمل ودفن في مقابر الفسطاط
 على طريق الحاج . ومات رضى الله عنه وله من
 العمر نحو خمس وتسعين سنة ، وكانت مدة ولايته
 الثانية نحو ست سنين الا أشهر .

* ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن أبي سفيان ،
 أخو أمير المؤمنين معاوية . فلما تولى على مصر
 أقام بها مدة يسيرة دون السنة ومات ودفن بمصر .
 * ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن عامر الجهني ،
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورديفه ،
 وهو الذي تسند اليه الأحاديث عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم . تولى على مصر في سنة أربع
 وأربعين من الهجرة ، وأقام بها الى أن مات شهيدا
 في يوم النهروان رضى الله عنه ، فكانت مدة ولايته
 على مصر سنتين وثلاثة أشهر . وكانت وفاته في

(١) الذي في « شذرات الذهب » و « اسد الغابة » ان وفاة
 عقبة بن عامر سنة ثمان وخمسين . وفي صفحة ٣٠١ من الجزء
 الاول من خطط القريزي انه هزل من مصر سنة ٤٧ للهجرة .

سنة سبع وأربعين من الهجرة ، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار الى الآن بالقرافة .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن مخلد ، واستمر على ولايته بمصر حتى مات ، فكانت مدة ولايته خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير سعيد بن يزيد ابن علقمة الأزدي . تولى على مصر في سنة اثنتين وستين من الهجرة ، فكانت مدة ولايته سنتين .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن ابن جحدم القرشي . تولى في أيام عبد الله بن الزبير في سنة أربع وستين من الهجرة ، فلم تطل أيامه بمصر وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد العزيز بن مروان ، وهو أبو العبد الصالح عمر رضى الله عنه . قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان على مصر وقع بها الطاعون ، فرحل عبد العزيز عن مدينه الفسطاط وتوجه الى حلوان — وهى من قرى مصر — فأقام بها مدة ، وقيل ولد بها ابنه عمر ، فكانت أخبار المدينة تأتية في كل يوم الى حلوان بما يحدث في البلد من الموت وعدة من يموت بها وغير ذلك من الأخبار ، فلم نزل عبد العزيز مقيما بحلوان حتى طعن ومات بها فحملوه في نعش من حلوان الى مدينة الفسطاط وقد تغيرت رائحته ، وكان حول نعشه مجامر النار وهى مطلقة بالبخور حتى دخل الى مدينة الفسطاط فدفن بها . قال ابن عفير : « لما كان الأمير عبد العزيز بحلوان كان له في كل ليلة ألف جفنة تصف حول داره وهى ملانة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين بجراية الخبز . وكانت له مائة حلة كبيرة تحمل على عجل وفيها الطعام فيطاف بها على قبائل العرب التى حوله ، واستمر ذلك في كل ليلة الى أن مات » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الملك

ابن مروان ، فكانت ولايته على مصر في سنة ست وثمانين من الهجرة ، وكانت مدة ولايته نحو خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير قرة بن شريك العبسى . تولى على مصر في سنة تسعين من الهجرة ، فلم تطل ولايته الا أياما وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمى . تولى على مصر مرتين وطالت بها أيامه حتى مات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أيوب بن رجيل الأصبهى . تولى على مصر في سنة احدى ومائة من الهجرة في خلافة عمر بن عبد العزيز فأقام بها نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير بشر بن صفوان . تولى على مصر ثلاث مرات ثم عزل عنها في سنة ثمان وعشرين ومائة في خلافة مروان الحمار .

* ثم تولى من بعده الأمير حنظلة بن صفوان الفهمى أخو بشر ، وهو الذى نقلت قبائل بنى قيس الى مصر في أيامه ، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة ، ولم يكن قبل ذلك بمصر من بنى قيس أحد . واستمر الأمير حنظلة واليا على مصر حتى توفى في سنة تسع وعشرين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن عبد الملك ابن مروان فأقام في ولايته على مصر سبعة أشهر وخمسة أيام ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير الحر بن يوسف ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حفص بن الوليد العامرى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أخوه الوليد بن رفاعة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن بن خالد الفهمي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسان بن العتاهية التجيبي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حوثة بن سهل الباهلي ، وكان رجلا حليما قليل الغضب . قيل ان رجلا من العرب دخل عليه وهو قائم يريد الدخول الى حرمة ، فجاء اليه الرجل الأعرابي وحادثه في حاجة له ، فوضع الأعرابي نصل سيفه على رجل الأمير حوثة وطال معه في الحديث ، وجعل يغوص بالسيف في رجله حتى أدماها وهو صابر ، حتى فرغ الأعرابي من كلامه وخرج من عنده فدعا حوثة بمنديل ومسح به الدم عن رجله فقبل له : « لم لا نحييت رجلك من تحت سيفه أيها الأمير أو أمرته برفع سيفه عن رجلك ؟ » فقال : « خشيت أن أقطع عليه كلامه وهو في حاجته » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الحميد بن المغيرة بن سعيد الفزاري ، فأقام على ولاية مصر نحو سنتين ثم عزل عنها . قال ابن وصف شاه : « ان أرض مصر أجذبت ووقع بها الغلاء في زمن عبد الحميد بن المغيرة فرهن حلى نسائه عند التجار واشترى منهم قمحا وفرقه على الفقراء . فلما عزل عقب ذلك عن مصر وقف اليه التجار بسبب الرهن فأمر ببيعه حتى قضى ما كان عليه من الدين الذي للتجار وكان نحو عشرة آلاف دينار ، ثم رحل عن مصر والناس عنه راضون » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله بن مروان الحمار ، وهو آخر من تولى على مصر من عمال الخلفاء من بني أمية . ومما وقع للأمير عبيد الله هذا ... قال ابن وصيف شاه : « لما انتقلت الخلافة الى بني العباس ، وولى عبد الله السفاح ، توجه عبد الله بن علي العباسي الى الشام في طلب من بقي

من بني أمية ، ثم أرسل بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر ، فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهباً ثم أحضر اثني عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئا من القماش والفرش وغير ذلك ، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ، ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هاربا ، فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء ، فنزل في بعض تلك القصور ، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشاه وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ، ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : « امض الى ملك النوبة وخذ لي منه أمانا على نفسي من القتل » . فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة ، فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك : « أجئت اليه محاربا أم مستجيبرا ؟ » . فقال له الأمير عبيد الله : « رد عليه مني السلام وقل له : قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله » . فمضى ذلك القاصد بالجواب ، فغاب ساعة ورجع وقال له : « ان الملك قادم عليك في هذه الساعة » . فقال عبيد الله لغلمانه : « افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة » . وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه . فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه ، وقال له ان ملك النوبة قد أقبل ، فقام الأمير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وعليه بردان قد اتزر بأحدهما وارتمى بالآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع . فلما رآه الأمير عبيد الله

غايتهما منكم ، وأنا أخاف على نفسي ان أنزلتلك
عندى أن تحل بى تلك النعمة التى حلت بكم ،
والبلاء عام والرحمة مخصوصة . ثم قال له :
« ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت جميع
ما معك وقتلتك شر قتلة » . فلما سمع الأمير
عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة فى يومه
ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور
العباسى وبعث به الى بغداد ، فسجنه المنصور
حتى مات فى السجن . وهو آخر من تولى على
مصر فى دولة الخلفاء الأموية من العمال .

الولاية فى العهد العباسى

وأما من تولى على مصر من العمال فى دولة
الخلفاء العباسية فجماعة كثيرة ، أكثر ممن تولوا
فى دولة بنى أمية ، وكانوا يسمون عمال الخراج
بمصر . وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر فى
تقليدهم ، الخيل العربية ، والأثواب الديقية شغل
تنيس ، والمقاطع الشرب الاسكندرانية ، والطرز
الصعيدية ، وأجالات الخيل . وتشترط عليهم
ضيافة العسل النحل المصرى من عسل بنها ،
وتشترط عليهم البغال والحمير وغير ذلك من
الأصناف التى لا توجد الا بمصر .

✽ فكان أول من تولى مصر فى دولة الخلفاء
العباسية الأمير صالح بن على بن عبد الله العباسى ،
تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ،
فتولى على مصر مرتين .

✽ ثم تولى من بعده الأمير أبو عون عبد
الملك الأزدي ، فلم تطل أيامه بها .

✽ ثم تولى من بعده الأمير موسى بن كعب
— وهو أبو عيينة — تولى على مصر فى سنة
أحدى وأربعين ومائة فلم تطل أيامه بها ، وكانت
مدة ولايته على مصر دون السنة .

استصغر أمره واحتقره ، فلما قرب من المكان الذى
فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف
رجل من السودان فى أيديهم الحراب ، فلما دخل
ملك النوبة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر
بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة
على الأمير عبيد الله ، بادر الى يد الأمير عبيد الله
وقبلها ، فأشار اليه عبيد الله بأن يجلس على تلك
المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش
الفاخرة برجله ، فقال عبيد الله للترجمان : « لم لا
يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له ؟ » .
فقال له الترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة : « قل
للأمير : كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار
عبيد متكبر » . ثم انه جلس بين يدي الأمير
عبيد الله وجعل ينكت فى الأرض بأصبعه طويلا .
ثم انه رفع رأسه الى الأمير عبيد الله وقال له :
« كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأتتم أقرب
الناس الى نبيكم ؟ » . فقال له عبيد الله : « ان
الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا » . فقال
له ملك النوبة : « فكيف أتتم تلوذون الى نبيكم
بقراية وأتتم تشربون ما حرم عليكم من الخمر ،
وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، وتركبون
فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم
يفعل ببيكم شيئا من هذا . وبلغنا أنك لما وليت
على مصر كنت تخرج الى الصيد ، وتكلف أهل
القرى ما لا يطيقون ، وتفسدون الزرع على
الناس ، وتروم الهدايا والتقاد من أهل القرى ...
وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف
أو ثمانية » ... فصار ملك النوبة يعدد على الأمير
عبيد الله جملة ذنوب ، والأمير عبيد الله ساكت
لا يتكلم بحرف واحد ، ثم قال له ملك النوبة :
« فلما استحللتم ما حرمه الله عليكم ، سلبتم من
ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن الأشعث الخزاعي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده حميد بن قحطبة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن حاتم المهلبى . تولى فى سنة سبع وأربعين ومائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر وشرقت الأراضى من خسة النيل . وفى هذه السنة أخذ قاع النيل فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين أصبعا ولم يعهد مثل ذلك فى السنين الماضية . فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة اثنى عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فشرقت البلاد فى تلك السنة وحصل للناس الضرر الشامل ، ووقع الغلاء بمصر حتى ماجت المدينة بأهلها ومات الأمير يزيد بعد ذلك بمدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الرحمن فلم تطل أيامه بها ، ومات .

* فتولى من بعده الأمير محمد أخو عبد الرحمن عم عبد الله ، ثم عزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، وعزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده اللخمى فى أيام الخليفة المهدي فلم تطل أيامه بها وعزل عن ولاية مصر فى سنته ، ولم يستقم أمره بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن لقمان فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير واضح المنصورى فلم تطل أيامه .

* ثم تولى من بعده الأمير منصور بن يزيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يحيى بن داود فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير سالم بن سودة ، تولى أيضا فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى ، تولى على مصر فى سنة خمس وستين ومائة . وكان الرشيد قد زوجه بابنته غالية ، فلما تولى على مصر لم يستقم بها حاله فعزله الرشيد عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن مصعب مولى خشم ، تولى على مصر فى سنة سبع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أسامة بن عمرو المعافى ، تولى على مصر فى سنة تسع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير فضل بن صالح العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير على بن سليمان العباسى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده موسى بن عيسى العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن يحيى الأحمسى ، تولى على مصر سنة اثنتين وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن زهير الأزدي فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده داود المهلبى ، تولى على مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة هو والأمير محمد ابن زهير الأزدي سنة واحدة .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى . وفى أيامه توفى الامام الليث بن سعد

رضى الله عنه ودفن بالقرافة . وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين ومائة ، وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شعبان — وهي الولاية الثانية — فأقام بها حتى توفي في سنة ست وسبعين ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن المسيب الضبي فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسحق بن سليمان العباسي ، تولى على مصر في سنة سبع وسبعين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير هرثمة بن أعين في سنة ثمان وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الملك بن صالح العباسي ، تولى في سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فأقام دون الشهر ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدي العباسي ، تولى على مصر في سنة تسع وسبعين ومائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن عيسى العباسي ، تولى على مصر ثلاث مرات ، وأقام في آخر ولايته الى سنة ثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدي ثانيا ، فأقام في ولايته على مصر هذه الثانية نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن صالح العباسي ، فأقام على ولايته بمصر دون السنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن عيسى في سنة اثنتين وثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الليث بن الفضل الأسدي ، تولى على مصر في سنة أربع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* وتولى من بعده الأمير أحمد بن اسمعيل العباسي ، تولى على مصر في سنة تسع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن أحمد العباسي الذي يقال له ابن زينب ، تولى على مصر في سنة تسعين ومائة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسين بن جميل ، تولى على مصر في أواخر سنة تسعين ومائة ثم عزل عنها في مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك ابن دلهم الكلبي في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فلم تطل بها أيامه وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جانم حسن بن البجياج ، تولى على مصر في سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جانم بن هرثمة ابن أعين ، فأقام على ولاية مصر مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جابر بن الأشعث الطائي ، تولى على مصر في سنة خمس وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبادة بن محمد في سنة ست وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده المطلب بن عبد الله الخزاعي في سنة ثمان وتسعين ومائة . وفي أيامه توفي

القاضي بكار بن قتيبة الحنفى رضى الله عنه ، وكان الرشيد ألزمه أن يتولى القضاء بمصر فتولى القضاء على كره منه . وكانت له كرامات خارقة للعادة ، وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، ودفن بالقرب من باب الزعلة عند المجرة .

* ثم عزل المطلب عن مصر ، وتولى العباس
ابن موسى العباسي فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .
* ثم أعيد المطلب ثاني مرة فأقام مدة يسيرة
وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده السري بن الحكم في سنة
تسع وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن طاهر
الخرزاعي . وكان من حذاق العمال بمصر ، وهو
الذي نقل زريعة البطيخ العبدلي الى مصر ولم يكن
بها قبل ذلك منه شيء ، وكان ظهوره بمصر في سنة
مائتين من سني الهجرة في أيام عبد الله بن طاهر ،
واليه ينسب فيقال البطيخ العبدلي . وأقام عبد الله
ابن طاهر على ولاية مصر ثم عزل عنها .

* ثم أعيد السري بن عبد الحكم الى ولاية مصر
ثانيا وذلك في سنة احدى ومائتين فأقام بها مدة
ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده ابنه محمد بن السري ،
وفي أيامه توفي الامام الشافعي محمد بن ادريس
رضي الله عنه ، وكانت وفاته في ليلة الجمعة في سلخ
شهر رجب الفرد سنة أربع ومائتين من الهجرة
ودفن بالقرافة الكبرى مقابل تربة القاضي بكار .
وقيل مات بعلة البطن ومات وله من العمر أربع
وخمسون سنة . وكان مولده بمدينة غزة في سنة
خمسین ومائة ، وهي السنة التي توفي فيها الامام
أبو حنيفة رضي الله عنه .

قيل لما مرض الامام الشافعي أوصى بالآ
يغسله الا أمير البلد . فلما مات حضر محمد
ابن السري أمير البلد ، فقليل له : « ان الامام أوصى
بالآ يغسله الا أنت » . فقال : « هل توفي الامام
وعليه دين ؟ » . فقليل له : « نعم » . فحسبوا
ما عليه من الدين فاذا هو سبعون ألف درهم ،

فقضاها عنه محمد بن السري ، وقال هذا يغسل
اياهم ، وانما كنى عن الدين الذي عليه لأقضيه عنه .
وقيل ان الامام الشافعي أوصى اذا مات بأن
السيدة نفيسة رضي الله عنها تصلي عليه . فلما
مات أحضروا نعشه عندها فضربت لها ستارة وصلت
عليه من خلفها ، ثم حمل من عندها ودفن في تربته
كما تقدم ذكر ذلك .

وقيل ان الامام الشافعي رضي الله عنه لما ساح
في الأرض في طلب الحديث ، وقصد التوجه الى
نحو مصر ، أنشد في حلقة درسه قبل أن يدخل
الى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال :

وانى أرى نفسى تنشق الى مصر
ومن دونها عرض المهامه والقفور

فوالله ما أدري : أللغز والغنى
أساق اليها ، أم أساق الى قبري ؟
فكان الأمر كذلك ودفن بمصر ، وكانت وفاته في
أيام الخليفة المأمون .

وأما نسبه — رضي الله عنه — فهو : محمد
ابن ادريس بن عثمان بن شافع بن السائب ، متصل
النسب الى عبد مناف أحد أجداد رسول الله صلى
الله عليه وسلم ... فهو قرشي . وأما أمه فهي فاطمة
بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الامام علي
رضي الله عنه .

* وقد قال الكرمانى فيه هذه الأبيات :

الشافعي امام كل أئمة
تربو فضائله على الآلاف

لكننى أوتيت بدعا بارعا
في وصفه هو سيد الأوصاف

ختم النبوة والامامة في الهدى
بمحمد بنهما لعبد مناف

قيل ان أم الشافعي رضى الله عنه رأت في منامها وهي حامل أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ، ثم طار منه فانتشر في سائر الآفاق . فقصدت هذه الرؤيا على بعض المعبرين فقال لها : « سيخرج من بطنك مولود ويكون من كبار العلماء ، ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلاد ، ثم ينتشر علمه في سائر الآفاق » ... وكان كذلك .

وكان الامام — رضى الله عنه — حسن الخلق ، قليل الغضب ، سخي النفس . وقد غاصر الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وقرأ عليه الموطأ في المدينة الشريفة . وعاصره أيضا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ومما يحكى عن الامام الشافعي رضى الله عنه أنه قال : « كنت في المسجد جالسا ، واذا بلص قد سرق نعلى من غير علمى ، ثم مضى الى بيتي فقال للجارية ان الامام قد سرق نعله ، ولم يجد ما يمشى فيه ، فأرسلوا له نعلا حتى يجيء به الى البيت . فبينما أنا جالس في المسجد واذا بالجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعها نعل فقلت لها : وما هذا ؟ فقالت : قد جاء الينا رجل وقال لنا ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يجيء به الى البيت فأتوا اليه بنعل غيره . فعلمت ان القائل للجارية هو اللص ، فتعجبت من لطافة هذا اللص اذ لم يدعنى أجىء الى بيتى حافيا » .

ومن فضائل الامام الشافعي رضى الله عنه أن في مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر وهو بها ، ولا وقع في غيرها من البلاد في مدة حياته طاعون وذلك نحو من خمسين سنة ... نقل ذلك ابن حجر . ومن هنا نرجع الى أخبار أمراء مصر .

* ثم تولى من بعده محمد بن السرى أخوه

عبيد الله بن السرى ، تولى على مصر في سنة ست ومائتين من الهجرة .

وفي أيامه توفيت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت وفاتها في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين من الهجرة ، ودفنت بالمرافة . وكان لها كرامات خارقة ، وأسرار صادقة .

قال شمس الدين بن خلكان في تاريخه : هي نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضى الله عنه . وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الأمير حسن . وقيل كان لها أولاد من زوجها اسحق ابن جعفر الصادق رضى الله عنه . قال ابن خلكان ان الامام الشافعي رضى الله عنه حضر عندها وأخذ عنها الحديث . وبالجمل ان الدعاء عند قبرها مجاب . وقيل ماتت ولها من العمر نيف وسبعون سنة .

* ثم أعيد الأمير عبد الله بن طاهر الى ولايته على مصر ثانيا ، فأقام مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن يزيد الجلودى . تولى على مصر في سنة ثلاث عشرة ومائتين ، فأقام بها نحو سنة ثم عزل عنها .

* وتولى الأمير عمير بن الوليد التميمى ، تولى على مصر في سنة أربع عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد الأمير عيسى بن يزيد ثانيا ، ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبدويه بن جبلة . تولى على مصر في سنة خمس عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور

المراققى . وفى أيامه خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة المأمون ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، وطرّدوا العمال عن البلاد ، وكانت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تخرب عن آخرها ، وعظم الأمر حتى قدم الخليفة المأمون الى مصر وخمدت هذه الفتنة ، ومهد البلاد ، وعزل عيسى بن منصور المراققى عن مصر .

* ثم تولى من بعده الأمير نصر السعدى المسمى كيدر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .
* ثم تولى من بعده المظفر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور المراققى ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها فى سنة تسع عشرة ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو شهر ويومين وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده مالك بن كيدرة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده على بن يحيى الأرمنى فى سنة خمس وعشرين ومائتين ، ولم تطل أيامه بها .
* ثم تولى من بعده هرثمة بن نصر الجبلى .
* ثم تولى ابنه جانم .

* ثم تولى اسحق بن يحيى .
* ثم تولى من بعده الأمير عبد الواحد المسمى حوط . تولى على مصر فى سنة ست وثلاثين ومائتين فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عنيسة بن اسحق بن شمر . تولى على مصر فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين . وفى أيامه أتى بنو الأصفر الى ثغر دمياط ، وهجموا على

أهلها ، وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة ، فجاء الخبر الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر ، فنودى بالنفير عاما ، فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط ، وتحاربوا مع بنى الأصفر ، فانتصر عليهم عنيسة وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا ، ورجع عنيسة الى مدينة الفسطاط فأقام بعد ذلك مدة ومات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن عبد الله التركى ، وكان من الموالى . تولى على مصر فى أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر ، وهو الذى بنى المقياس الجديد فى جزيرة الفسطاط وأبطل المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى فى أيام خلفاء بنى أمية ، وصار العمل فى قياس النيل على هذا المقياس الجديد الى الآن . وكان بناؤه فى سنة سبع وأربعين ومائتين .

* ثم تولى من بعده مزاحم بن خاقان التركى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده ابنه أحمد ، ولم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أرخور التركى ، وكان من الموالى . تولى فى أيام المتوكل فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير محفوظ بن سليمان . تولى فى أيام المتوكل أيضا فكان يقول : « انى تأملت أرض مصر فوجدتها اذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا فقد وفى خراج مصر تاما ، وان زاد ماء النيل بعد ذلك ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من بطون الأراضى التى هى واطية ، واذا زاد خمسة عشر ذراعا ثم هبط حصل للناس الضرر الشامل واستسقى أهل مصر لذلك

وقع بها الغلاء . ولو أن أراضى مصر تزرع كلها
يفت بخراج الدنيا كلها بأسرها .

قال محفوظ بن سليمان أمير مصر : « تبقى على
خراج مصر في أيام المتوكل ثلثمائة ألف دينار ،
رسل فأحضرنى في الحديد . فلما وصلت الى
داد دخلت عليه بعد أن فرغ من صلاة الفجر وأنا
أعقل من الوهم ، فأصبت جالسا وفي يده درج
لتوب بماء الذهب . فلما أبصرنى قال : من أنت ؟
لت : عبدك محفوظ بن سليمان . فقال : ويحك !
ساعة دخلت على فيها ! فقلت : في ساعة خير
مير المؤمنين . فقال : هل تدري ما في هذا الدرج
ي في يدي ؟ فقلت : لا والله ياسيدي . فقال :
ما أنزل على دانيال عليه السلام . يقول الله
لى : « عند تناهى شدتى يكون فرجى ، وعند
ول بلائى يكون رجائى ، وفي مثلى فليطمع
بامعون » . اذهب يا محفوظ فقد وهبت لك
عليك من المال ووليتك على مصر ، فامض
سدا . وأمر بنزع قيودى وخلع على خلعة
ية » .

وقد قيل في المعنى :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صادق في السر والعلن

حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
إذا دعاه لكشف الهم والحزن

واستمر الأمير محفوظ بن سليمان في ولايته على
مصر حتى مات ودفن بها في سنة أربع وخمسين
ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أحمد بن محمد بن
المدير . فلما تولى على مصر أحدث بها أنواعا من
المظالم في جهات متعددة : منها أنه حجر على
الأطرون بعد ما كان مباحا للناس ، ومنها أنه قرر
على الرعاة ما كانوا يرعونه من المراعى في الفلاة ،
وصير عليهم قدرا معلوما ، ومنها أنه قرر على
صيادى السمك قدرا معلوما ، وأحدث أشياء كثيرة
من هذا النمط ... فهذه أول شدة لحقت أهل مصر
من المظالم . وقد انحط خراجها في هذه الأيام الى
الغاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار بعدما كانت
تجبنى في أبام خلفاء بنى أمية اثنى عشر ألف ألف
دينار بغير مكوس .

ثم صارت مصر تتزايد من هذه الأحوال
الفاسدة ، وقد آل أمرها الى الخراب ، حتى تولى
أمرها الأمير أحمد بن طولون ، واستقل بها ،
وانفرد وادعى بها الأمر لنفسه ... وذلك في أيام
محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل .



الزوجة الطولونية

قال إبراهيم بن وصيف شاه : « كان طولون والد الأمير أحمد أصله من ممالك الخليفة المأمون ، فولد له الأمير أحمد هذا ، فلما انتشأ طلع شجاعا بطلا عالي الهمة سعيد الحركات ، تولى على مصر في أواخر خلافة المتوكل في سنة خمس وخمسين ومائتين . ولما دخل مصر كان في أضيق حال ، يحتقره كل من يراه . قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له علي بن معبد البغدادي ، وكان في سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه ، فلما رآه في ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار قبلها ، ورأى بها موقعا ، وحظى ذلك الرجل عنده ، فكان لا يتصرف في شيء من الأمور الا برأى ذلك الرجل . وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية . »

قال ابن وصيف شاه : « لما تولى الأمير أحمد ابن طولون على مصر أخذ في أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها ، وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها الى الحراب ، وانحط خراجها في أيام من تقدمه من العمال . فلما حصلت العمارة والعدل عم الرخاء سائر أعمال الديار المصرية حتى بيع القمح في أيامه كل عشرة أرادب بدينار ، وعلى هذا فقس في جميع البضائع . ووصل خراج مصر في أيامه — مع وجود هذا الرخاء — أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار غير المكوس . »

قال ابن وصيف شاه : « فلما تم أمر الأمير أحمد

ابن طولون في ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها استكثر من يشتري الممالك الديالة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ يشتري عبيده أربعين ألفا من العبيد الزنج ، واستكثر من شناترة العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف انسان . فعند ذلك سطا على الخلفاء ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد بخراجها . فحاربه الخليفة المعتضد بالله أشد المحاربة فلم يقدر عليه ، فخضع له وأرسل يخطب ابنة ابنه الأمير خمارويه — وهي الست قطر الندي — فأصدقها مائة ألف دينار . وأتت من مصر الى بغداد في مخفة ، وكانت مدة توجهها من الديار المصرية الى بغداد ستة أشهر ، فكانت تمشي كما تمشي السحابة . فلما حضرت الى بغداد دخل عليها المعتضد بالله وزفت عليه ، وكان لهما مهم عظيم . وأحبها المعتضد بالله حبا شديدا ، وأقامت معه حتى مات . »

قيل ان النجوم تطايرت في السماء شرقا وغربا في أيام الأمير أحمد بن طولون وذلك سنة احدى وأربعين^١ ومائتين ، فارتاع الأمير أحمد من ذلك وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك فما أجابوا بشيء ، فصار الأمير أحمد متظيرا من ذلك فدخل عليه الشاعر المسمى بالجميل — وهو جالس في موكبه — وأنشده هذه الأبيات :

| | |
|---------------------|---------------------|
| قالوا تساقطت النجوم | م لحادث أبدا عسير |
| فأجبت عند مقالهم | بجواب محتك خبير |
| هذي النجوم الساقطا | ت رجوم أعداء الأمير |

(١) لعلها احدى وستين .

، الأمير أحمد بذلك ، وخلع على الشاعر
لمعة سنية .

بن وصيف شاه : « خرج الأمير أحمد بن
وما على سبيل التنزه الى نحو الأهرام ،
يسير اذ غاصت قوائم فرسه في الأرض ،
فذلك المكان ، فلما كشفه اذا هو مطلب
يوسفية ، فنقلها الى خزائنه على ظهور
لشكاير » .

حاله فأخذ في أسباب بناء الجامع المعروف
بنائه في سنة ستين ومائتين . قيل انه
بنائه مائة ألف دينار .

قضى ان الأمير أحمد بن طولون وضع
هذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر ،
الجبل يشرف على بحر النيل قبل حفر
كتين اللتين احدهما تعرف ببركة الفيل ،
تعرف ببركة قارون . وقيل ان جبل يشكر
ور باجابة الدعاء ، وسبب ذلك أن موسى
ثم ناجى ربه عليه في بعض الأوقات ، وهو
رك . قيل ان النمل دار على محراب هذا
وضعوا أساسه ، فبنوا على ذلك الخط
عه النمل المحراب ، ويسمى محراب النمل
ورئى النبي صلى الله عليه وسلم في
مرار يصلى في ذلك المحراب . فلما بنى
به هذا الجامع قرر به جماعة من العلماء
، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات ،
كل يوم راتب من الطعام والخبز — حتى
الفاكهة وغير ذلك — وكان هذا مستمرا
م . وأنشأ به مارستانا برسم الضعفاء ،
قبل ذلك بمصر مارستان غيره ، فكان
على هذه الرواتب والصدقات في كل يوم
بن دينار .

الأمير أحمد يرسل في كل سنة الى فقراء

بغداد مائة ألف دينار برسم الصدقات ، ويرسل
اليهم في كل سنة بكسوة الشتاء والصيف دائما في
مدة ولايته على مصر .

قال الشيخ أبو الحسن بن حماد ، وكان من
كبار العلماء : « كنت راقدًا في بعض الليالي في
منزلى ، واذا بالباب يدق في نصف الليل ، فنظرت
من الطاق ، واذا برجال ومعهم مشاعل ، فوقفوا
على باب منزلى ، فقلت : ما تريدون ؟ قالوا :
أبا الحسن ابن حماد ؟ فقلت : هاهو أنا . فقالوا :
امض فان الأمير أحمد قد طلبك في هذه الساعة .
فارتعدت أعضائي ، فخرجت معهم وركبت بغلتي
وأنا آيس من الحياة . فلما وصلت الى دار الأمير
أحمد دخلت وسلمت على حاجب الباب فقال لى :
ادخل وخذ في مشيك عن يمينك ، واحترؤ أن تقع في
البحرة . وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء .
فمشيت حتى بلغت ضوء الشمع ، فوقفت هناك
ساعة واذا بالأمير أحمد في قبة لطيفة وهو نائم
على ظهره وبين يديه شمعتان ، فوقفت طويلا ، فلما
علم بى قال : أبو الحسن ؟ فقلت : نعم . فقال :
ادخل . فدخلت ووقفت بين يديه فقال لى : اجلس
فجلست ، فقال لى : لأى شىء تصلح هذه القبة ؟
وكانت قبة لطيفة يجلس فيها نحو أربع أنفس ،
فقلت : تصلح للذكر وقراءة القرآن ومطالعة العلم
ومنادمة المحبين . فتبسم ثم قال : ما تقول في هذه
المسألة ؟ فقلت : يقول الأمير أيده الله بنصره . فقال :
ما تقول فيمن سلط على شىء ففعله ... فهل يعذب
عليه ؟ قال أبو الحسن : فعلمت أن المسألة ناشئة
عنه ، فقلت على الفور : لو كان كل مسلط معذبا
لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة .
فلما سمع ذلك استوى جالسا وقال : كيف قلت ؟
فقلت : لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت
أشد الناس عذابا يوم القيامة . ثم سكبت طويلا

وقال : انصرف الى منزلك . فخرجت من عنده وأنا لم أصدق بالنجاة . فلما خرجت من عنده تبغى الحاجب بكيس فيه مائة دينار ، وانصرفت الى منزلى وأنا أرعد من الخوف » .

قال ابن وصيف شاه : « كان راتب مطبخ الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ألف دينار تصرف فيما يحتاج اليه أمر الطعام والحلوى والفاكهة والسكر والشمع وغير ذلك . وكان منتهى حكمه من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب » .

قال جامع السيرة الطولونية : « كان بمدينة عين شمس — وهى التى تسمى الآن المطرية — صنم من الكيدان الأبيض على قدر خلقة الانسان المعتدل ، وكان محكم الصناعة يكاد أن ينطق ، فقصد الأمير أحمد أن ينظر اليه ، فنهاه عن ذلك بعض الكهان وقال له : أيها الأمير ، لا تنظر الى هذا الصنم فما نظر اليه أحد من ولاية مصر الا عزل عنها فى سنته . فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه الى مدينة عين شمس ، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم ، فأمر باحضار القطاعين فكسروه قطعاً ولم يبق له أثر . فلما رجع الأمير أحمد الى داره لم يقيم بعد ذلك سوى عشرة أشهر ، ثم مرض وتسلل فى المرض ، فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة الى الصحارى ، وفعلوا مثل ما يفعلون فى الاستسقاء ، فخرج الناس حفاة وعلى رءوسهم المصاحف ، وخرج اليهود وعلى رءوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رءوسهم الأناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم الألواح ، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء » .

فاستمر الأمير أحمد فى ذلك المرض حتى مات ، به ، فكانت وفاته فى سنة تسع وستين ومائتين ، فكانت مدة ولايته بمصر نحو اثنى عشرة سنة ،

وكان يقول فى مرضه : « رب ارحم من جهل مقدار نفسه وقد أبطره وغره حلمك يا أرحم الراحمين » . وكان الأمير أحمد ملكاً عادلاً فى الرعية كريماً سخياً ، منقاداً الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء . وكان يصلى على من يموت فى البلد — من فقير أو غنى — بنفسه ، ويحضر دفنهم ، ويجب فعل الخير ، كثير البر والصدقات ، وكان له اشتغال بالعلم وطلب الحديث ، وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ... حكم فى أيام ولايته من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب ، وعم العدل منه سائر الجهات حتى تخيروه على خلفاء بغداد . وكانت أفعاله جميلة ... غير أنه كان سفاكاً للدماء ، شديد الغضب ، سيئ الخلق ، قيل مات فى حبسه ثمانية عشر ألف انسان .

ولما مات الأمير أحمد دفن بالقرب من باب القرافة . قال بعض الثقات : كنت أرى شيخاً من أهل العلم يقرأ على قبر الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ، ثم رأيت ترك القراءة ورجع عن ذلك ، فسألته عن سبب ذلك فقال لى : كان للأمير أحمد على بعض احسان فأحببت أن أصله بعد موته بشئ من القرآن ، فرأيت فى بعض الليالى فى المنام فقال لى : يا فلان ، لا تبق تقرأ على قبرى شيئاً ، فانى ما تمر بى آية الا قيل لى أما سمعت هذه الآية فى دار الدنيا ... فهلا كنت تعمل بها ؟ وما رأيت أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب فى كتفهم لحوائج المظلومين عن الحكام . ثم أنشد يقول :

ولو أنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكننا اذا متنا بعشنا ونسأل بعد ذا عن كل شئ
مع أن الأمير أحمد كان فيه الخير ، وأبطل فى أيامه جملة مكوس كانت حدثت بمصر ، أيام أحمد بن المدير .

قال ابن وصيف شاه : « لما توفي الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا ، منهم سبعة عشر ذكورا وباقي ذلك اناث ، وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف دينار ، وخلف من الممالك المشتروات سبعة آلاف مملوك ، ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد ، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، وخلف من الجبال عشرة آلاف جمل ، ومن المراكب الحربية والشوانى ألف مركب ، وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق ، وخلف من التحف والفرش ما لا يحصى عدده ... وهذا خارج عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك » .

وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار بعد اسقاط المكوس — وهو نحو مائة ألف دينار — مع وجود الرخاء وانحطاط سعر الغلال في زمانه .

ولما مات رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

خذ القناعة من دنيائك وارض بها
واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرا وما جمعت
هل راح منها بغير القطن والكفن

ولما مات الأمير أحمد بن طولون تولى من بعده ابنه خمارويه .

الأمير خمارويه

تولى على مصر بعد أبيه الأمير أحمد ، ومشى على نظامه وطريقته ، واستكثر من الممالك وزاد في عسكره شناترة العرب الشجعان حتى بلغوا نحو عشرة آلاف انسان . وكان يحب الجياد من الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاسطبلات ، وكان

لها أنساب مثبتة في الدواوين كأنساب الناس المعروفة .

قال ابن وصيف شاه : « كان الأمير خمارويه مولعا بالعمارات وغرس الأشجار . قيل انه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ، ونقل اليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين ، حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والأشياء الغريبة التي لم تزرع قط بمصر ، ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقراً ، مثل « حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أشبه ذلك من الألفاظ ، ووكل بتلك السطور رجالا بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الأوراق ويخرج عن قالب الاعتدال في الأحرف حتى يستقيم الكلام في معناه . ثم اله ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر وطلاه بالذهب ، فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يقدر أحد أن ينظر اليها من شدة اتقاد ذلك النحاس المموه بالذهب ، وكان يسحق المسك والكافور وينثره على تلك الرياحين السطور ... » وصنع في ذلك البستان بحيرة كبيرة وملاها من الزئبق . وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير ، وكان له حركات تمتلىء بالريح ثم يسد فاه بجبل وي طرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه .

قال بعض المؤرخين ان خمارويه هذا كان يعتريه ضربان المفاصل ، وكان يضع ذلك حتى يجد له راحة وينام ساعة من الليل .

قال ابن وصيف شاه : « خرج خمارويه يوما

الى الفضاء على سبيل التنزه ، فلقية أعرابي فأخذ
بعنان فرسه وأنشد :

ان السنان وحد السيف لو نطقا
لحدثا عنك في الهيجاء بالعجب
أفريت مالك تعطيه وتبذله
يا آفة الفضة البيضاء والذهب

فلما سمع خمارويه هذه الأبيات قال لعلامه :
ادفع اليه ما معك في الخريطة . فوجد فيها
خمسمائة درهم فدفعها اليه . فقال الأعرابي :
زدني أيها الأمير فمثلك من يزيد . فقال خمارويه
للمماليك : اطرحوا عليه مناطقكم وسيوفكم ،
وكانت مسقطة بالذهب . فقال الأعرابي : ومن
يحمل لى ذلك ؟ فأمر له ببغل ، فحمل ذلك ومضى .
فلما رجع خمارويه الى قصره فرق على المماليك
سيوفا ومناطق عوضا عما أخذ منهم .

الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالي

واستمر خمارويه في ولايته على مصر حتى توفي
بها ودفن عند أبيه ، ثم تولى من بعده ابنه الأفضل
أمير الجيوش بدر الجمالي . وهو صاحب سوق
مرجوش .

قال القضاى : ان الأفضل هذا هو الذى حفر
خليج أبى المنجى ، وكان المتولى أمر حفر هذا
الخليج أبو المنجى شعيا اليهودى فعرف به من
يومئذ . وقال القضاى ان الأفضل هو الذى بنى
المسجد المظل على بركة الحبش المعروف الآن
بالرصد ، وانما سمي بالرصد لأنه كما قيل كان
فوقه صورة من النحاس الأصفر قدرها نحو
قنطار وهى مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض
بسبب تحرير الساعات لأجل وقت دخول الصلاة .
ولم ينسب الى الحاكم بأمر الله فى بنائه شئ وانما
هى اشاعة بين الناس فى نسبته الى الحاكم .

ومن الحوادث فى أيام الأفضل أنه فى يوم
الجمعة ثانى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ،
هاجت بالديار المصرية ريح سوداء ، واشتد
هبوبها ، وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار ،
فارتاع الناس من ذلك وتوجهوا الى المساجد
يبتهلون الى الله تعالى بالدعاء . فلم تزل تلك
الرياح عاصفة من العصر الى المغرب ، ثم بعد ذلك
سكن الريح وانجلت تلك الظلمة وعادت الناس
الى دكاكينهم بعد ما تركوها مفتوحة ومضوا الى
المساجد .

وفى أيامه توفى الشيخ بنان الجمال رضى الله
عنه ، وكان صاحب كرامات خارقة ، ودفن تحت
الجبل المقطم بالقرافة .

واستمر الأفضل فى ولايته على مصر حتى مات
بها ودفن فى المسجد الذى فى حارة برجوان .
وكانت وفاته فى سنة احدى وتسعين ومائتين .

هارون بن بدر الجمالي

ثم تولى من بعده ابنه هارون ، فلما تولى على
مصر لم يستقم أمره بها وعزل عنها ، فكانت مدة
ولايته على مصر ثمانية أشهر وأياما .

* ثم تولى من بعد الأمير شيبان من ولد
الأمير أحمد بن طولون ، وكان يكنى بأبى المناقب .
تولى على مصر فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ،
فلم تطل مدته بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى الدنوشرى ،
فلم تطل أيامه بها وعزل عنها . ومن الحوادث فى
أيامه أنه وقعت صاعقة عظيمة فى مدينة الفسطاط
فأحرقت عدة أماكن .

* ثم تولى من بعده أبو الحسن المسمى

بكاء الأعور . تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلثمائة ،
فأقام بها مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى تكين
التركى . تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى هلال
ابن بدر المصرى فى سنة تسع وثلثمائة ، ولم نطل
أيامه بها ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى أحمد
ابن كيغى ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد تكين التركى الى ولايته بمصر
ثالث مرة ، فكانت ولاية أحمد بن كيغى وعود
تكين فى سنة واحدة وهى سنة احدى عشرة
وثلثمائة . ولم تزل الأحوال مضطربة بمصر حتى
ابتدأت دولة الاخشيدية .



الزولات الاخشيديّة

بمصر ، فكانت مدة ولايته بها نحو عشرين سنة .
ولما مات الأمير أبو بكر رثاه الشاعر الماهر
أبو الطيب المتنبي بهذه الأبيات :

هو الزمان مشّت بالذي جمعنا
في كل يوم ترى من صرفه بدعا
لو كان ممتنع تغنيه منعته
لم يصنع الدهر بالاخشيدي ما صنعا
ذاق الحمام فلم تدفع عساكره
عنه القضاء ولا أغناه ما جمعنا
لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخر ومن نعماء لاتسعنا
يالحد طل ان فبك البحر محتبسنا
والليث مهتصرا والجود مجتسنا

يايومه لم يخص الفجع فيه لقد
كل الوري بردى الاخشيدي قد فجعا

* ولما مات الأمير أبو بكر تولى من بعده
خادمه أبو المسك كافور الاخشيدي . فلما تولى
على مصر مشى على طريقة أستاذه الأمير أبي بكر
وأطاعه أهل مصر . ثم انه استجدّ في عسكره
جماعة كثيرة من طوائف البربر . ومما وقع له أنه
كان جالسا في موكبه في يوم عيد فدخل عليه طائفة
من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور ،
فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرك كتفيه ،
ثم انه استدرك فارطه فصار يحرك كتفيه في كل
ساعة من الليل والنهار حتى مات ، وقال : هذا
مرض يعتريني . ولم يخرج عن ناموسه .

قال الكندي : ان أول من تولى بمدينة فرغالة
يسمى الاخشيدي ، فكان أول من تولى منهم
أحمد بن كيغلغ ، ومحمد بن طغج ، وأبو القاسم على ،
وأبو بكر بن محمد بن طغج ، وخادمهم كافور .
وأما أحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج فتوليا على
مصر كل واحد منهما مرتين ، ولم تطل أيامهما بها .
* وأما أبو القاسم على فانه تولى على مصر
في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وفي أيامه وقع
الغلاء بمصر واستمر تسع سنين متوالية . وسبب
ذلك أن النيل كان ينتهي في زيادته الى خمسة عشر
ذراعا وأربعة عشر أصبعا ، واستمر في كل سنة يزيد
هذه الزيادة الخسيصة الى سنة تسع وأربعين
وثلثمائة ، فوقع الغلاء بسبب ذلك في هذه
السنين .

* ثم توفي عقيب ذلك الأمير أبو القاسم على
الاخشيدي ، وتولى الأمير أبو بكر بن محمد
ابن طغج على مصر مدة طويلة نحو عشرين سنة .
وفي أيامه استقامت أحوال الديار المصرية ،
وانصلحت أحوال الناس ، واستكثر من العساكر
ورتب لهم الرواتب والجوامك في كل شهر ،
فبلغت عدة عساكره بمصر والشام نحو أربعمائة
ألف فارس ، وبلغ خراج مصر في أيامه ألفي
ألف دينار . قيل ان الوزير عمل لأولاده في ليلة
الغطاس فوائس شمع مزهر ، فكان مصروف
ذلك مائة وعشرين ألف دينار .

واستمر الأمير أبو بكر في ولايته على مصر
حتى توفي في سنة خمس وخمسين وثلثمائة ودفن

قيل وكانت علامة على مراسيمه « القلم بمدّه ،
والسيف بحده ، والعبد بسعده ، لا بأبيه
ولا بجده » .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه :
« كان راتب كافور الاخشيدى في مطبخه في كل
يوم ألفى رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل
لحم ضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ،
وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرين فرخ سمك كبار ،
وعشرين رميسا رضع ، وثلاثمائة صحن حلوى ،
وسبعة أفراد فاكهة ، وألف كور تفاح ، ومائة قرية
من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة أفراد
بقولات . وكان يحضر على سباطه الخاص
والعام » .

قيل وقعت زلزلة عظيمة بمصر في أيامه فخاف
الناس من ذلك ، وهربوا الى الجبال ، فدخل
محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو في موكبه
فأنشده قصيدة عظيمة منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها

لكنها رقصت من عدله طربا

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة
بألف دينار ، وهذه الجائزة التى هيجت المتنبي
حتى دخل الى مصر ومدح كافورا بقصائد سنينة
وهي ثابتة في ديوانه الى الآن .

قيل وقع حريق عظيم في أيامه بمصر ، وعملت
النار من سوق البزازين الى قيسارية العسل ،
ودخل الليل والنار على حالها ، فبات الناس على
وجل من ذلك ، فركب كافور وأمر المنادى ينادى
بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء
الناس بالقرب وفيها الماء فأطفأوا تلك النار ، فكان
عدة ما احترق في هذه الواقعة ألفا وسبعمائة دار
غير البضائع والأقمشة التى احترقت للناس .

وفي أيامه وقع الغلاء بمصر . وسبب ذلك أن
النيل بلغ في الزيادة الى اثنى عشر ذراعا وتسعة
عشر أصبعا ثم هبط ، فشرقت الأراضي ووقع
الغلاء ، وكان ذلك في سنة ست وخمسين
وثلاثمائة .

قال الكندى : « وكان من آثار عجائب القدماء
الى أيام كافور الاخشيدى حوض من رخام أخضر
مدور وعليه كتابة لا تقرأ بالقلم القديم ، وهذا
الحوض كان في بحر النيل عند طرا ، فاذا جلس
فيه واحد من الناس أو أربعة وحركوه يعدى بهم
من جانب الى جانب . فأخذه كافور من البحر
وألقاه في البر فبطل فعله من يومئذ » .

واستمر كافور الاخشيدى في ولايته على مصر
الى أن مات في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ودفن
بالقرافة الصغرى ، فكانت مدة ولايته على مصر
نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من تولى على مصر من
الأمراء .

قال ابن وصيف شاه : « تولى على مصر من
الأمراء اثنان وسبعون أميرا ، أولهم عمرو بن
العاص رضى الله عنه ، وآخرهم أبو المسك كافور
الأخشيدى ، ودفن غالبهم بمصر . ومن مبتدأ
ظهور الاسلام من حين فتحت مصر على يد عمرو
ابن العاص وأخذها من يد المقوقس عظيم القبط
لم ينفرد بملك مصر أحد من أمرائها ويستغل
خراجها له سوى الأمير أحمد بن طولون في مدة
ولايته عليها » .

ولما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار
المصرية غاية الاضطراب ، وطمع أهل القرى في
الجند ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، فعند ذلك
كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى — وكان
ببلاد الغرب — بأن يحضر الى الدمار المصرية ،
ويتسلم المدينة ويتولى عليها . فلما وقف المعز

على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلي ، ومعه مائة ألف من عساكر الغرب ، فكان دخول جوهر القائد الى مصر في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فلما دخل الى مصر لم تعجبه مدينة الفسطاط ، فأخذ في أسباب عمارة القاهرة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه : « لما أراد جوهر القائد أن يبنى سور القاهرة اختط أساس المدينة وجمع أرباب الفلك وأمرهم بأن يختاروا له مطلقا سعيديا حتى يضع فيه أساس المدينة ، فجعل على كل جهة من أساس المدينة ، قوائم من الخشب ، وبين كل قائمة منها جبلا وفيه أجراس من نحاس ، ثم وقفت الفلكية ينتظرون دخول الساعة الجيدة والطلوع السعيد حتى يضعوا فيه الأساس . وكان لهم

إشارة مع البنائين اذا حركوا تلك الأجراس يلقون ما بأيديهم من الحجارة اذا سمعوا حس الأجراس . فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة ، واذا بغراب وقع على تلك الحبال فتحركت تلك الأجراس فظن البناءون أن الفلكية قد حركوا لهم الحبال التي فيها الأجراس ، فألقوا ما بأيديهم من الحجارة في أساس السور ، فصاح عليهم الفلكية : لا لا ، القاهرة في الطالع . يعنون المريخ ، واسمه عندهم «القاهر» ، فقضى الأمر ... » . فكان كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه

ويأبى الله ألا ما يريد

وكان بناء سور القاهرة في سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة ، وبنى أولا بالطوب اللبن ، فلما فرغ بناء السور أرسل الأمير جوهر القائد يعرف المعز بفراغ بناء السور فقدم اليها .



الدولة الفاطمية

المعز لدين الله الفاطمي

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في نسبه :
« هو المعز أبو تميم معد بن المنصور اسماعيل
ابن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله المغربي
الفاطمي » . وكان مولده ببلاد الغرب بمدينة
أفريقية في يوم الجمعة تاسع عشر من شوال سنة
احدى وأربعين وثلثمائة . وهو رابع خليفة من
بنى عبيد الله ببلاد المغرب بمدينة أفريقية .
وفي سبب شرف هذه الفاطمية أقوال كثيرة .
فمن الناس من قد نسبهم الى فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ومن الناس من قد
نسبهم الى الحسين بن محمد بن أحمد بن قداح ،
وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا الأمر
عند أرباب التواريخ في نسبهم مشهور وأكثر
الاتفاق عليه .

قال الذهبي : « وكان قدوم المعز الى مصر في
سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين
وثلثمائة ، وقد انقرضت دولة الاخشيدية بموت
الأمير كافور » .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير : « لما دخل المعز
الى مصر دخل معه ألف وخمسمائة جمل موسوقة ذهباً
عيناً . وكان معه من القماش والتحف ما لا يسمع بمثله ،
فمن جملة ذلك كان معه قبة من البلور وهي
قطعتان يجلس فيها نحو أربع أنفس ، فكانت
إذا نصبت في الليلة المقمرة تخفى ضوء القمر من

شعاعها . وكان معه أربع خواب من البلور كل
خاية تسع قدر راوية من الماء ، وكان معه غير ذلك
من التحف والعجائب » .

قيل لما أراد المعز أن يتوجه الى مصر حمل معه
أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية ، فحملهم في
توايت من خشب ، فلما دخل الى مصر دفنهم
بالقرافة الكبرى .

قال ابن كثير : « لما دخل المعز الى مصر رأى
ما بناه جوهر القائد فلم يعجبه ، وعاب عليه
ما بناه ، وقال له : « لقد بنيت هذه المدينة في
وطيئة لا هي بحرية ولا هي جبلية » . وكان قصد
المعز لو بناها على شاطئ النيل » .

وقيل ان المعز سمي « القاهرة » أولاً
« المنصورية » ، فلما بلغه ما وقع للفلكية من
أمر القاهر غير اسمها فقال سموها « القاهرة » ،
فاستمرت من ذلك اليوم على هذا الاسم .

وقد قالت فيها الشعراء أشعاراً كثيرة :

لله قاهرة المعز لأنها

بلد تخصص بالمسرة والهنا

أو ما ترى في كل قطر منية

من جانبها فهي مجتمع المنى

وقال آخر فيها :

مصر لها الأفضال اذ لم تزل

على العدا منصوره ظاهرة

ما غولبت ، كلا ولا قوهرت

الا وكانت مصر والقاهرة

قال المسيحي : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وقال نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر الى الشام الى حلب الى الفرات الى مكة والمدينة الشريفة الى القدس والخليل ، وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة . وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر بلاد الشرق . وكان يخطب لكل خليفة منهما في الجهات التي تحت حكمه باسمه فقط .

ثم ان المعز استكثر من العساكر بمصر فكانوا ما بين كنانة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة ، وكانوا في العدد لا يحصون لكثرتهم حتى قيل : لم يطاء الأرض — بعد جيوش الاسكندر بن فليبيش الرومي الكبير — أكثر من جيوش المعز الفاطمي . ثم انه بنى قصر الزمرد مكان دار الضرب ، وكان جوهر القائد وزيره ومدير مملكته .

وجوهر هذا هو الذي بنى الجامع الأزهر ، وكان بناؤه في سنة احدى وستين وثلاثمائة . وكانت له في مصر حرمة وافرة ، وكان خراج مصر في أيامه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار . وكان خراج مصر قد انحط في أيام من تولى قبله من الأمراء فجدد الأمير جوهر ما فسد من عمارة القناطر والجسور وغير ذلك حتى استقامت أحوال الديار المصرية في أيامه .

ولما تولى المعز على مصر منع القبط مما كان يعمل في يوم النيروز من صب المياه على الناس في الطرقات ، وايقاد النار في تلك الليلة ، وكانوا يخرجون في ذلك عن الحد . ومنعهم أيضا مما

كان يعمل في ليلة الغطاس من النزول في المراكب وضرب الخيام على شاطئ بحر النيل عند المقياس ، فأشهر النداء بإبطال ذلك جميعه ، وهدد من يفعل ذلك بالشنق ، فرجع الناس عن ذلك في أيامه ، وكان يحصل من هذه الأفعال غاية الفساد بمصر في تلك الأيام .

قال المسيحي في تاريخه ان امرأة وقفت للمعز وهو في موكيه وأنشدت :

تعظمنا ريب الزمان كأننا

زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فقال لها المعز : « من أنت أيتها المرأة ؟ » .

فقلت : « أنا زوجة الأمير أبي بكر بن محمد بن طنج الاخشيدى صاحب مصر » . فقام اليها المعز ، وقال : « ما حاجتك ؟ » . فقالت : « انى قد أودعت بعلطاقا لى عند شخص يهودى ، فأقام عنده مدة ، ثم انى طلبته منه فأنكره ، فقلت له : خذ منه ما تختار من جواهره وأعطني الباقي ، فأبى وامتنع من الاعطاء ، وأنكر ذلك أصلا » . فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر البغلطاق الذى أودعته عنده زوجة الأمير أبي بكر الاخشيدى ، فأنكره ولم يعترف به ، فأمر بشنقه . فلما تحقق ذلك اعترف به فأمره المعز باحضاره ، فلما أحضره بين يديه تحير مما فيه من الجواهر والآلى . ثم انه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك البغلطاق درتين فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع هاتين الدرتين بألف وستمائة دينار ، فأخذ المعز ذلك البغلطاق من اليهودى وأمر بشنقه فشنق ، ثم دفع ذلك البغلطاق الى زوجة الاخشيدى فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية فأبى من قبول ذلك ، فأخذته وانصرفت وهى داعية له .

وكان المعز يحب العدل والانصاف بين الرعية ،

غير أنه كان رافضيا سبابا للصحابة في يوم الجمعة على المنابر . قال المسيحي : ان المعز كان يميل الى علم الفلك ، فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعاً شديداً في يوم كذا وكذا ، في شهر كذا وكذا ، ثم أشاروا عليه بأن يختفى في سرب تحت الأرض حتى تمضي عنه تلك القطوع . فاخترق في سرب نحو أربعة أشهر ، فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رفع الى السماء فكان الفارس من عسكره اذا نظر الى الغمام في السماء ينزل عن فرسه ويقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ... فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب وجلس على سرير ملكه وهم يحسبون أنه كان في السماء وأتى اليهم .

قال المسيحي : « كان للمعز أخت تسمى الست سيدة الملك ، قيل انها توفيت في خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق ، ومن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس وبيات ، ووجد لها مدهنا من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالاً لم يحص له ثمن ، ووجد لها من الشقق الحرير الأحمر ثلاثين ألف شقة » . قال بعض المؤرخين وكانت أخت المعز — مع وجود هذه السعة — أزهد الناس في الدنيا ، وكانت لا تأكل الا من ثمن غزلها دائماً حتى ماتت .

واستمر المعز في الخلافة حتى مرض وسلسل في المرض حتى مات ، فكانت وفاته في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان له من العمر لما توفي نحو احدى وأربعين سنة . وهو أول خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، ودفن عند سيدي زين العابدين جد السيدة نفيسة ، وتربته بين الكيمان عند حدره ابن قميحة . وكانت مدة خلافة المعز بمصر أربع سنين وشهراً ويومين .

وكان المعز رجلاً عادلاً عاقلاً حازماً لبيبا فصيحاً شاعراً وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :
ما بان عذرى فيك حتى عذرا
وبدا البنفسج فوق ورد أحمر
همت بقبلته عقارب صدغه
فاستل ناظره عليها خنجرا
ولما مات المعز تولى من بعده ابنه العزيز .

العزيز بالله

هو العزيز بالله ، أبو منصور ، نزار ، بن المعز لدين الله معد الفاطمي العبيدي ، وهو الثاني من خلفاء بنى عبيد بمصر .

بويح بالخلافة بعد موت المعز في سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان مولده بمدينة القيروان في سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، فلما تم أمره في الخلافة بمصر ، استقر بجوهر القائد مدبراً لأمر مملكته كما كان في أيام أبيه المعز .

وكان العزيز يحب العدل في الرعية ، وينصف المظلوم من المظالم ، وكان كريماً جواداً ممدوحاً ، فأحبه الرعية وصفا له الوقت بالديار المصرية . ثم انه استكثر في عسكره من المماليك الديالة والمصامدة والأتراك المغل . واستقر بالقاضي يعقوب ابن كلس وزيراً .

قيل لما تولى العزيز الخلافة دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فأنشده هذه القصيدة منها :

عمت خلافته مصراً فصار بها
كأنه الشمس فيها حلت الحملا
ان المعز الذى لا خلق يشبهه
الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا

فان مضى كافل الدنيا فصار لها
من بعده كافلا يغنى بما كفلا

أضحت ملوك بني الدنيا له خدما
وما حوت كل دار منهم نفلا

حكى المسبحى فى تاريخه أن العزيز لما تم أمره
بمصر استقر بشخص من النصارى عاملا بمصر على
سائر جهاتها ، وكان يقال له نسطروس ، واستقر
بشخص من اليهود عاملا على سائر جهات دمشق
وكان يقال له منشأ . فحصل من النصرانى لأهل
مصر غاية الظلم والأذى ، وحصل من اليهودى
لأهل دمشق غاية الظلم والأذى . فاتفق أن العزيز
ركب يوما وشق من القاهرة فزيت له ، فعمد بعض
الناس الى مبرة من حديد وألبسها ثياب النساء
وزينها بازار وشعرية ، وجعل فى يدها قصة على
جريدة وكتب فيها :

« بالذى أعز جميع النصارى بنسطروس ،
أعز جميع اليهود بمنشأ ، وأذل جميع المسلمين
ك... الا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم ؟ » .

فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة
ولها حاجة ، فطلب قصتها فلما قرأها اشتد به
الغضب ، وأمر بشنق ذلك النصرانى نسطروس
فشنق على باب القصر ، وأرسل بشنق منشأ
اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق ، واحتاط
على جميع أموالهما من صامت وناطق

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة سبع وسبعين
وثلاثمائة ولدت امرأة بمدينة تنيس جارية لها رأسان
ووجهان فى عنق واحد ، وكان أحد الوجهين أبيض
اللون والآخر أسمر اللون وفيه سهولة ، وكل وجه
منهما كامل الخلقة ، وهذان الوجهان فى جسد
واحد ، فكانت أم تلك المولودة ترضع كل واحد
منهما على انفراد ، فحملت هذه المولودة الى العزيز

من تنيس الى مصر حتى شاهدها فوجه لأمها شيئا
من المال ، ثم عادت الى تنيس فعاشت هذه المولودة
مدة يسيرة ثم ماتت .

وفى أيامه فى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة حدث
بمدينة تنيس فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول
حادث فيه أرعدت السماء وأبرقت ، وأظلم الجو
وظهر فى السماء أعمدة من نار تلتهب ، فأضاءت منها
الدنيا ، ثم اشتدت تلك الحمرة ، وجاءت عقب ذلك
ريح سوداء فيها غبار حار يأخذ بالأنفاس من شدة
حره ، فارتاع الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك ،
وصار يودع بعضهم بعضا ، فضج الناس الى الله
تعالى بالدعاء . ولم يزل على ذلك من بعد العشاء
الى طلوع الفجر حتى خمدت الريح وخمدت تلك
الأعمدة النار وزالت الحمرة من الجو . فلما لاح
الصباح طلعت الشمس وهى محمرة ، فأقامت على
ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت .

قال أبو القاسم عبد المجيد القرشى ان فى سنة
احدى وسبعين وثلاثمائة صيدت سمكة بمدينة
تنيس من البحر المالح فكان طولها من رأسها الى
ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ونصف ذراع ، وكان
عرضها خمسة عشر ذراعا ، وكان فتح فمها تسعة
وعشرين شبرا ، وكان لها يدان كل يد طولها ثلاثة
أذرع ، وكان لها عينان كعينى البقر ، ولسان كلسان
الثور العظيم ، وكانت ملساء وفى جلدتها غلظ .
فلما صيدت أمر والى تنيس بأن يشق بطنها ويحشى
ملحا ، فوضعوا فى جوفها مائة أردب ملح ، فكان
الرجل يدخل فى جوفها وهو حامل قفاف الملح قائما
غير منحن ، فأمر نائب تنيس بحملها الى القاهرة
حتى يشاهدها الخليفة العزيز فشاهدها وتعجب من
خلقتها .

وكانت مدينة تنيس هذه من أجل المدائن ،
وكانت بالقرب من دمياط . قال المسعودى : « كان

طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتي ذراع ، وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا ، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة جالوت برسم البضائع ، وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار ، وكانت تحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ، وكان بهذه المدينة النخل والكرم وسائر أصناف الأشجار . وكانت صحيحة الهواء كثيرة الطير والسماك ، وكان أهلها يدخرون بها ماء النيل في جباب فلا يفسد ولو أقام بها دهرا طويلا . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها . واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة في دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها ، واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن .

قال المسبحي ان في أيام العزيز نزار هذا ظهر السمك البلطي بالنيل ، ولم يكن به قبل ذلك منه شيء ، وهو من أسماك البحر المالح . وفي أيامه أيضا ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن منه قبل ذلك شيء ، وهو أيضا من أسماك البحر المالح هرب ودخل الى البحر الحلو . وانما سمي ليبسا لأنه يشبه البورى فالتبس به فسمى ليبسا .

واستمر العزيز بالله نزار في الخلافة بمصر حتى توفي ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وكانت مدة اقامته في الخلافة بمصر احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما ، وكان خيار بني عبيد قاطبة . ولما مات تولى من بعده الحاكم بأمر الله منصور .

الحاكم بأمر الله

هو الحاكم بأمر الله ، أبو علي منصور ، ابن العزيز نزار بن المعز معد الفاطمي العبيدي ، وهو الثالث من خلفاء بني عبيد الله بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه العزيز في يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة من الهجرة . وكان مولده بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة . فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية وسار في الناس سيرة حسنة ، وأخذ في أسباب بناء جامعته الذي هو داخل باب النصر ، وكان مبتدأ عمارته في سنة تسع وثمانين وثلثمائة . ولما تم أمره في الخلافة بمصر أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بأن يسكنوا بها ولا يخالطوا المسلمين في حاراتهم . ثم انه بعد مدة أمرهم بأن كلا منهم يدخل في دين الاسلام فخافوا

منه وأسلموا كلهم ، ثم أذن لهم بالعودة الى دينهم فارتد منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودي ، ثم انه أمر بهدم كنائسهم ، ثم انه أعادها كما كانت عليه أولا .

وفي أيامه توفي الأمير جوهر القائد وزير المعز ، فلما مات وجد له من الأموال ما لا يحصى . فمن جملة ذلك من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ، ومن اللؤلؤ الكبار والياقوت أربعة صناديق مجلدة ، ومن القصب الزمرد ألف قصبة ، ومن الثياب الديباج ورق تيس خمسة وسبعين ألف قطعة ، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهي مرصعة بالدر والياقوت ، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار . ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها . ووجد في داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون . ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ثلاثة آلاف معلقة . ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينية وبلور وفضة . ووجد عنده أربع قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب ، قيل كان يطبخ المسلوقة فيها . ووجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس ، ووجد عنده ثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور وصيني ... هذا كله خارج عن البغال والجمال والخيول والعييد والجواري والفرش والأملك والضياع وغير ذلك . ولما مات الأمير جوهر القائد دفن بالقرافة الكبرى . ثم ان الحاكم بأمر الله لما توفي الأمير جوهر القائد استقر بالأمير برجوان عوضه بالوزارة . وبرجوان هذا هو صاحب الحارة المنسوبة اليه ، وكان من أمراء الحاكم ، وكان الحاكم يخشى من سطوة برجوان ولا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا برأيه ، وصار معه

كالمحجور عليه فأقام على ذلك مدة طويلة فما أطاق ذلك ، فندب الى برجوان من قتله وهو خارج من الحمام .

فلما قتل برجوان احتاط الحاكم على موجوده فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد ، فمن جملة ذلك وجد له من الذهب العين مائتا ألف ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة خمسون اردبا ، ووجد له من القماش مائتان واحد وستون بقجة ، ووجد له ألف سروال من البعلبكي العال ، وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير أبيض ، ووجد له ألف قميص حرير اسكندري وألف منديل حرير شغل اسكندرية ، ووجد عنده من كل صنف من القماش ألف قطعة ، ووجد عنده من الجواهر اثنا عشر صندوقا ... هذا خارج عن الأملاك والضياع والخدم . ووجد عنده من البقر والأنعام والجاموس ما يباع لينة في كل سنة بثلاثين ألف دينار على يد أبي الحسن بن يزيد العامل . ووجد له من الحواصل والمناخات ما لا يحصى لكثرتة ، فصار الحاكم ينقل في موجود برجوان في كل يوم دفعتين من حارة برجوان الى قصر الزمرد الذي كان عند دار الضرب على مائتي جمل نقلتين في كل يوم نحو أربعين يوما .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : « لما قتل برجوان صار الحاكم ما على يده يد ، فعند ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع الا من المجانين الذين في عقلهم خلل .

« فمن ذلك أنه مر يوما بحمام الذهب الذي بمصر فسمع بها ضجيج النساء وهن في الحمام ، فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام ، فسدوه عليهن من وقته وساعته بالحجر الفص ، فاستمرت في الحمام حتى مات الجميع في الحمام ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيح .

« ومنها أنه منع الناس من بيع الزبيب ، وأمر بحرق الكروم وقطعها ، فقطع منها نحو مائة ألف كرم .

« ومنها أنه منع الناس من بيع العسل الأسود وكسر منه نحو اثني عشر ألف مطر .

« ومنها أنه منع الناس من أكل الملوخية وأكل القرع ، وكتب قسائم على الفلاحين ألا يزرعوا شبتا من الملوخية ولا القرع . وعلل تحريم الملوخية بكون أبى بكر الصديق كان يميل إليها ، وعلل تحريم القرع بكون عائشة بنت أبى بكر كانت تميل إليه ... وقيل انه طلع يوما على جماعة يأكلون ملوخية فضربهم بالسياط ، وطاف بهم فى القاهرة ، ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويلة .

« ومنها أنه نهى عن بيع السمك الذى لا قشر له ، ونهى عن بيع الرطب ، ونهى عن زرع الترمس .

« ومنها انه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها نحو ثلاثين ألف كلب .

« ومنها أنه صار يوقد الشمع فى مجلسه ليلا ونهارا ، ثم انه صار يجلس فى الظلام ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

« ومنها أنه أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل ، وجعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس فامتلأوا منه ذلك واستمروا عليه دهرًا طويلًا ، ثم انه مر فى بعض الأيام على شيخ يعمل فى التجارة من بعد العصر فوقف عليه وقال : « ألم أنهكم عن ذلك ؟ » . فقال له الشيخ : « يا أمير المؤمنين ، أما كان الناس يسهرون بالليل ؟ ... فهذا من جملة السهر » ... فتبسّم وتركه ، ثم أعاد الناس الى ما كانوا عليه فى الأول يتقاضون أشغالهم بالنهار .

« ومنها أنه كان يسب الصحابة ، وأمر بكتابة

ذلك على سائر أبواب المساجد والجوامع ، فأقام على ذلك مدة ، ثم انه أمر بمحو ذلك .

« ومنها أنه هدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها على ما كانت عليه قمامة . وكان يبنى عدة مدارس ويقرر بها المشايخ والصوفية ثم يقتلهم ويهدم تلك المدارس .

« ومنها أنه كان يعاقب جماعة من خواصه بسلب الألقاب ، فاذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة لا بدعوه بذلك اللقب فيصير ذلك الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه فيكون عنده ذلك عيدا .

« ومنها أنه أمر طائفة اليهود بأن يعملوا فى أعناقهم اذا خرجوا الى الأسواق قرم خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال ، وأمر النصارى بأن يعملوا فى أعناقهم صلبانا من حديد قدر ذراع ، وأمرهم بأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، وألا يركبوا بهيمة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه .

« ومنها أنه أمر الناس اذا ذكر اسمه الخطيب فى يوم الجمعة وهو على المنبر تقوم الناس صفوفًا اعظاما لذكره واحتراما لاسمه ، فكان يفعل ذلك فى سائر مملكته حتى فى الحرمين الشريفين وبيت المقدس .

« ومنها أنه كان يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر ، ويطوف فى أسواق مصر والقاهرة ، ويباشر حسبة البلد بنفسه ، وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يقال له مسعود ، فان وجد أحدا من السوق غش فى بضاعته أمر ذلك العبد مسعودا بأن

والحاكم واقف على رأسه . وقد صار مسعود هذا مثلا عند لطفاء أهل مصر اذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود ...

« ومنها أنه أبطل صلاة التراويح نحو عشر سنين ثم أعادها كما كانت أولا .

« ومنها انه كان يجب أهل العلم والصلحاء ثم يغضب عليهم ويقتلهم . وأقام يلبس الصوف مدة سبع سنين ثم ترك ذلك ولبس الحرير .

« ومنها أنه كان يركب على حماره الأشهب المدعو بالقمر فينزل عنه عند باب جامعه الذي عند باب النصر ويأخذ بيد من يختار من غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها الى الكلاب ويترك المقتول مكانه حتى يدفنه أهله ، وكان يعذب جماعة من خواصه بالنار ، وقتل جماعة كثيرة من العلماء منهم أبو أسامة — وكان من كبار العلماء — ومنهم جبارة اللغوى . قيل ان الشيخ جبارة هذا كان يعرف للكلب في اللغة ثلثمائة اسم في لغات العرب ، ومنهم الهروى وغير ذلك من العلماء .

« ومنها أنه كان عنده شجاعة واقدام مع جبن وادبار ، وكان يحب الكرم ويكثر من البخل ، وكان يحب فعل الخير ويتبعه بشيء من الشر ، ويحب العدل في الرعية ويتبعه بشيء من الظلم والجور . »

فكان كما قال القائل في المعنى :

أرى فيك أخلاقا حسنا قبيحة

وأنت لعمري كالذى أنا واصف

قريب بعيد ، باذل متمنع

كريم بخيل ، مستقيم مخالف

كذوب صدوق ، ليس يدري صديقه

أيقظوه من تخليطه أم يلاطف

فلا أنت ذو غش ، ولا أنت ناصح

وانى لفى شك لأمرك واقف

كذاك لسانى هاج لك مادح

كما أن قلبى جاهل بك عارف

قال القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه ان الحاكم بأمر الله كان يعبد الكواكب كما كان جده المعز ، وكان له اشتغال بأمر المطالب وله فى ذلك أخبار كثيرة .

حكى بعض المؤرخين ان رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار وسافر الى الحجاز ، فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأفكره ، فشكا ذلك الرجل أمره الى الحاكم ، فقال له الحاكم : « اقعد لى فى الشارع ، فاذا مرت بك فقم الى وتحدث معى » . فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث ، فمر به الرجل الذى عنده الجراب فرأى صاحب الجراب يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا ، فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه الى صاحبه وقال له : « تذكرت وديعتك وهامى » فوجده الرجل بختمه لم يفتح ، فمضى به ذلك الرجل الى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل ، فقال له الحاكم : « خذ جرابك وامض الى سبيك » . فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى كان عنده ذلك الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره .

قال ابن كثير : « وقع الغلاء بمصر فى زمن الحاكم فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فاجتمع الناس تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر فى أحوال الناس فقال لهم الحاكم : « اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود من مصر ، فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان » . ثم انه توجه الى جامع راشدة وتأخر هناك الى ما بعد العصر ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق الذى يمر عليه الحاكم ، فلما رجع من جامع راشدة وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت

أعين الناس ، فقرر مع أصحاب الغلال أن أحدا لا يدخر في بيته شيئا من الغلال ، وقرر معهم أسعار كل صنف من الغلال بثمان معين لا يزيد ولا ينقص ، فعند ذلك سكن الوهج الذي كانت فيه الناس ، ووقع الرخاء في مصر وسائر أعمالها ، وذلك من شدة رعب الناس من الحاكم ومن سطوته ... فكان كما قيل في المعنى :

صاحب أخا الشر لتسطو به

يوما على بعض صروف الزمان

قالرمح لا يهرب أنوبسه

الا اذا ركب فيه السنان

وفي هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وثلثمائة — توفى ابن زولاق صاحب تاريخ مصر ودفن بها .

ومن النكت المضحكة ما قيل ... كان في زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح . وسبب ذلك أنه كان له طرطور وفيه قرنان من قرون البقر ، فيضعه الى جانبه ، فاذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القاضى ذلك الطرطور الذى فيه القرنان ويتباعده وينطح الخصم الذى يجور على صاحبه ، فاشتهر أمره بين الناس بهذه الواقعة . فبلغ أمره الى الحاكم فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ما هذا الأمر الذى قد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتتنظر ماذا أقاسى من العوام ، فان كنت معذورا فيهم والا عاقبنى بما تختار » . فقال له الحاكم : « أنا غدا أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول » . فلما أصبح الحاكم أتى الى مجلس ذلك القاضى وقعد من خلف ستارة ، فأتى الى القاضى خصمان ، فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فاعترف المدعى عليه بها ، فأمره القاضى بدفع

ذلك الى صاحبه فقال المدعى عليه : « انى معسر فى هذا الوقت ، فقسطوا على ذلك على قدر حالى » . فقال القاضى للمدعى : « ما تقول ؟ » . فقال : « أقسطها عليه فى كل شهر عشرة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون خمسة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينارين » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينار » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فلا زال القاضى يدرجه حتى قال له : « تكون عشرة دراهم فى كل شهر » . وهو يقول : « لا أقدر على ذلك » . فقال له القاضى : « وما القدر الذى تقدر عليه فى كل شهر . فلعن أن يرضى به خصمك » . فقال المديون : « أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم فى كل سنة ، بشرط أن يكون خصمى فى السجن لثلاث يحصل معى هذا القدر ولا أجدر خصمى فيذهب منى » .

فلما سمع ذلك الحاكم لم يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضى : « انطح هذا النجس الشيطان والا فأنا أنطحه ... » . وكان الحاكم أحرق من القاضى .

وقال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخ الاسلام : « لا زال الحاكم بأمر الله يتزايد فى الظلم والجور ، واستخف بأهل مصر حتى أنه ادعى الربوبية من دون الله كما فعل فرعون ، فكان اذا مر فى الطرقات والأسواق يقول له جماعة من العوام : « يا واحد يا أحد ! يا محبى يا مميت ! » . وكانت جماعة من جهال العوام يسجدون له كلما رأوه ، ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه .

ثم انه ادعى فى وقت أنه يعلم علم الغيب ، فكان يقول لأمرائه ووزرائه : « يا فلان ، أنت فعلت فى بيتك البارحة ما هو كيت وكيت . وأنت يا فلان قلت

البارجة ماهو كيت وكيت » ... وكان ذلك باتفاق
يعتمده مع العجائز اللاتي يدخلن الى بيوت الأمراء
والوزراء وغير ذلك من أعيان أهل مصر . فلما زاد
الأمر في ذلك كتب اليه بعض الناس رقعة ورمى بها
وهو في معظم موكبه ، وكان في الرقعة هذه الأبيات :
بالجور والظلم قد رضينا

وليس بالكفر والحماقه

ان كنت أوتيت علم غيب

بين لنا كاتب البطاقه

فلما قرأ تلك الرقعة سكت عن الكلام في أمر
ما كان يدعيه من علم الغيب .

روى ابن كثير أن الفاطمية كانوا يدعون الشرف
ويقولون نحن أفضل من العباسية ، لأننا من ولد
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان
بعض العلماء الذين يتواجهون لهم أثبت لهم نسبا
فاسدا بأنهم من ولد الامام على رضى الله عنه وليس
بصحيح ، وانما هم من ولد ديسان بن سعيد —
وكان أصله مجوسيا — وقد وافق على ذلك جماعة
من العلماء ، مثل أبى حامد الاسفراينى ، والشيخ
أبى الحسن القدورى وغير ذلك من العلماء .

وكان الحاكم يذكر نسبه في كل جمعة وهو على
المنبر يخطب ، وكانت الناس ترفع اليه الرقاع في
أشغالهم وهو على المنبر ، فرفعت اليه رقعة فيها
مكتوب هذه الأبيات :

انا سمعنا نسا منكرا

يتلى على المنبر في الجامع

ان كنت فيما قلته صادقا

فانسب لنا نفسك كالطائع

وان ترم تحقيق ما قلته

فاذكر لنا بعد الأب السابع

أو لا دع الأنساب مستورة

وادخل بنا في النسب الواسع

فان أنساب بنى هاشم

يقصر عنها طمع الطامع

فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر
النسب .

واستمر الحاكم على ما ذكرناه من أمر هذه
الأفعال الشنيعة ، ومخالفته لأمر الشريعة ، حتى
قتل . وكان سبب قتله أن أخته ست النصر لما زاد
أخوها من هذه الفعال أراد قتلها ، فلما تحققت
ذلك — وكانت من النساء المدبرات — أخذت في
تدبير الحيلة على قتل أخيها ، فخرجت تحت الليل
وأتمت الى دار الأمير سيف الدين بن رواش ، وكان
أكبر أمراء الحاكم . فلما دخلت عليه اختلت به
وعرفته أنها أخت الحاكم فبالغ في تعظيمها ، فقالت
له : « أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من القتل
والجور وخراب البلاد ، وقد عول على قتلى
وقتلك » . فقال لها الأمير سيف الدين : « وكيف
الحيلة في قتله ؟ » . فقالت له : « الرأى عندي أنك
تندب اليه جماعة من العبيد السود يقتلونه اذا خرج
الى حلوان ، فانه ينفرد بنفسه في الطريق ، فيخرجون
عليه ويقتلونه . فاذا قتل تكون أنت المدبر للمسلكة
من بعده ، وتولى ولده عليا » . فاتفقا على ذلك ثم
مضت الى قصرها ، فلما أصبح النهار خرج الحاكم
على عادته الى نحو حلوان ، فأرسل الأمير سيف
الدين خلفه عشرة من العبيد السود الغلاظ الشداد ،
وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار وعرفه كيف
يقتله . فسبقه العبيد الى حلوان ، فلما وصل الحاكم
هناك نزل بالقصبة التي في حلوان بشرقى البلد ،
فخرج عليه أولئك العبيد فقتلوه هناك ، فلما أبطل
خبره على العسكر خرجت اليه جماعة من الجند
يلتسون رجوعه ومعهم جنائب الموكب بالسروج

الظاهر لدين الله

هو الظاهر لدين الله على ، بن منصور بن نزار ابن المعز معد ، وهو الرابع من خلفاء بني عبيد الله الفاطمية بمصر ، بويح له بالخلافة بعد أبيه الحاكم بأمر الله في شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وتلقب بالظاهر لدين الله . تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة ، وكانت عمته ست النصر أخت الحاكم هي القائمة بأمر دولته ، والأمير سيف الدين بن رواش .

وفي أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية ، واستولى على البلاد الشامية الأمير حسان شيخ عربان جبل نابلس ، وصار يستخرج خراجها لنفسه ، ونزع أيدي العمال عنها .

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة من خلافته توفيت ست النصر أخت الحاكم بأمر الله ، فظهر لها موجود عظيم من المال والجواهر والقماش والتحف لا يحصى لكثرتة ، ووجد لها أربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات ، فمنهن ألف وخمسمائة أبكار والبقية ثيبات ، ووجد عندها ثلاثون زيرا صينيا مملوءة من المسك السحيق ، وأما بقية الموجود فما ضبط لكثرتة .

ومن الحوادث في أيامه جاءت الأخبار من مكة أن رجلا أعجميا قد حضر الى مكة وجماعة من الأعاجم معه فأظهروا أنهم يريدون الحج ، فأقاموا في مكة مدة ، ثم غافلوا الناس في وقت القائلة ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وكسروه ثلاث قطع ، فأدركهم الناس وأمسكواهم فقطعوا أيديهم وصلبواهم على أبواب الحرم ، ثم ان الناس أعادوا الحجر الأسود الى مكانه ولصقوا ما كسر منه .

الذهب والكبايش ، فصاروا يخرجون الى حلوان في كل يوم ينتظرون رجوعه مدة سبعة أيام ، فلما أبطأ عليهم فوق السبعة أيام ، خرج الأمير مظفر الحاجب ومعه جماعة من العسكر — وكانت عساكر الحاكم ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك — فلما وصلوا الى آخر القصبة التي بحلوان وجدوا حماره الأشهب المدعو بالقمر ، وقد قطعت يداه ورجلاه ، وعليه السرج واللجام ، فتبعوا أثر الحمار فوجدوا ثياب الحاكم وكان عليه سبع جيب صوف بيض ورأوا فيها آثار ضرب السكاكين ، فلم يشكوا بعد ذلك في قتله . فلما رجعوا الى القاهرة أشيع قتل الحاكم .

وكان قتله في شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمسا وعشرين سنة وأياما ... ولم ينل أهل مصر من أفعاله مكرمة ، وصاروا معه في قمع سمسمة ، وصبروا على أذاه في هذه المدة وقد قاسوا منه أى شدة حتى فرج الله عنهم هذه الكربة العظيمة فكان كما قيل :

ودهر قطعناه بضيق وشدة

ونحن على ناز قيام على الجمر

صبرنا له حتى أزيل وانما

تفرج أيام الكريهة بالصبر

وفي هذه المدة قتل الحاكم من الناس ما لا يحصى عددهم من العلماء والفقهاء وغير ذلك .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : « ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجاهل المغفلين من وادى التيم من نواحي الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لا بد أن يظهر في آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وأنه هو المهدي لا محالة ، ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم » .

يحصل في تلك الليلة . وكان المعز لما قدم الى مصر ورأى ما يحصل في ليلة الغطاس من المفاسد العظيمة أمر بإبطال ذلك ، واستمر ذلك باطلا من سنة اثنتين وستين وثلثمائة الى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأمر الخليفة الظاهر بإعادة ذلك حتى يتفرج عليه . قال المسيحي : ان في الدولة الفاطمية كان رؤساء القبط يضربون في يوم خميس العدى خرايب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك . وكانوا يضربون من هذه الخرايب نحو خمسمائة مثقال ، فبطل ذلك جميعه من مصر من جملة ما بطل من القواعد القديمة .

واستمر الخليفة الظاهر لدين الله في الخلافة بمصر حتى توفي ، وكانت وفاته في يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر عشر سنين وتسعة أشهر^١ . ولما مات الظاهر لدين الله تولى من بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم .

المستنصر بالله

هو المستنصر بالله أبو تميم ، معد ، بن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بأمر الله ، وهو الخامس من بنى عبيد الله الفاطمي . بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر لدين الله في يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فتولى الخلافة بمصر وله من العمر سبع سنين وعشرون يوما . وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمانى عشرة وأربعمائة^٢ . وهو الذى خطب له البساسيري على منابر بغداد مع وجود خلفاء بنى العباس ، وهذا لم يقع لأحد من أقاربه من خلفاء بنى عبيد الله .

(١) الذى في المقرئى ان مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام ، وهو الصواب .
(٢) في المقرئى انه ولد في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠ .

وفي أيام الظاهر هذا أذن لأقباط مصر فيما كان يعمل في ليلة الغطاس بالديار المصرية ، وكان هذا الأمر قد بطل من أيام المعز كما تقدم ، وكان من أجل المواسم بمصر . وذلك أن ليلة الغطاس — وهى في الحادى عشر من شهر طوبه — تجتمع جماعة من المسلمين وجماعة من الأقباط النصارى عند شاطئ النيل قدام المقياس ، فتنصب هناك الخيام على جانبي النيل وتوضع فيها الأسرة لأعيان القبط من الرؤساء ، وكان البحر يتلىء بالمراكب والزوارق ، ويجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى ، فاذا دخل الليل تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع ، وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة ، وكان يشعل على الشطوط في تلك الليلة أكثر من ألف مشعل وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط في المراكب ، وكان ينفق في تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى في مآكل ومشارب ، وتتجاهر الناس بشرب الخمر ، وتجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعب من كل فن ، ويخرج الناس في تلك الليلة عن الحد في اللهو والفرجة ، ولا يغلق في تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وكانوا يهادون رؤساء الأقباط في تلك الليلة بأطنان القصب والبورى والحلوى القاهرية والكشرى والتفاح الفتحي والسفرجل والأترج والسنارنج والليمون المراكبى وطاقات النرجس وغير ذلك من الأنواع اللطيفة ، وكانوا بعد العشاء يغطسون في بحر النيل — النصارى مع المسلمين سوية — ويزعمون أن من يغطس في تلك الليلة يأمن من الضعف في تلك السنة . فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر ألا يختلط النصارى بالمسلمين عند الغطاس ، وكان في قصر جده المعز الذى يشرف على بحر النيل يتفرج على ذلك المهرجان الذى

ولما تم أمره في الخلافة استقر بالحسن بن على البازورى وزيرا ، وهو الذى جمع بين الوزارة وقضاية القضاة الشافعية ، ولم تقع هذه لمن قبله من الوزراء . فلما مات البازورى استقر بأبى نصر العلاجى وزيرا ، فقبض أبو نصر العلاجى على ابن الأنبارى وزير الحاكم بأمر الله فاعتقله بخزانة البنود وصادره وأخذ جميع أمواله ، ثم قطع رأسه ودفنها بخزانة البنود ، فما مضى قليل حتى قبض المستنصر على أبى نصر العلاجى ، واعتقله فى خزانة البنود وصادره وأخذ أمواله وأمر بقطع رأسه . فلما أرادوا أن يحفروا لأبى نصر العلاجى فى خزانة البنود ليواروا رأسه فيها ظهر من تلك الحفرة رأس فسألوا العلاجى عن ذلك فقال هذا رأس ابن الأنبارى وأنا قتلته ودفنته فى هذه الحفرة ثم أنشد يقول :

رب لحد قد صار لحد مرارا

ضاحكا من تراحم الأضداد

فقطعوا رأس العلاجى ودفنوها على رأس ابن

الأنبارى ... والجزاء من جنس العمل .

ومن الحوادث فى زمن المستنصر بالله : أنه فى سنة احدى وخمسين وأربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه الصلاة والسلام . وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية والنيل فى تلك السنين لم يبلغ فى الزيادة الا اثنى عشر ذراعا وأحد عشر اصبعاً ، وكان القاع ثلاثة أذرع واحد عشر اصبعاً . ففى هذه المدة أكلت الناس بعضها بعضاً ، ويبيع فيها القمح بثمانين دنارا كل أردب ، وبمائة وعشرين دينارا كل أردب . ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف فى زقاق القناديل بخمسة عشر دينارا ، وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنائير ، ويبيع كل قط بثلاثة دنائير ، وقيل كان الكلب يدخل الى الدار فيأكل

الطفل الصغير وهو فى المهد وأمه وأبوه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة . ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس . وصار الناس فى الطرقات اذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله . وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاب ، فاذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاب فى أسرع وقت ، فاذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه . وقيل ان الوزير ركب يوما على بغلة ودخل الى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانها وأكلت فى الحال ، فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب ، فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحدا من المشائيق ، وقد أكلوا من فوق الخشب ، ولم يبق منهم غير لعظام على الأرض .

قال المسبحى فى تاريخه : « كان بمدينة الفسطاط

حارة تسمى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين دارا ، كل دار تساوى فى الثمن ألف دينار ، فبيعت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز — كل دار برغيف — فسميت من يومئذ حارة الطبق » .

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى : « خرجت امرأة من مدينة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت : « من يأخذ منى هذا اللؤلؤ ويعطينى عوضه قمحا ؟ » . فلم تجد من يأخذ منها ذلك اللؤلؤ ويعطيها عوضه قمحا . فلما أعيت من ذلك ألقتة على الأرض وقالت : « اذا لم تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك » . ثم تركته ومضت ، فأقام ذلك اللؤلؤ مرميا على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجد من يلتقطه ، وكان كل أحد من الناس مشغولا بنفسه عن كل شئ » .

الآمر بأحكام الله

هو الأمر بأحكام الله ، أبو على المنصور ، بن المستعلى بالله أحمد ، وهو السابع من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويح بالخلافة بعد موت أبيه المستعلى بالله في تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة . ولما أن تولى الخلافة بمصر طاش وسار في الناس أقبح سيرة ، وصار يتجاهر بالمنكرات ، واشتغل باللهو والطرب وشرب الخمر ، فاضطربت أحوال الديار المصرية في أيامه ، وجاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس وغير ذلك من أعمال البلاد الشامية ، وأشرفوا على أخذ الديار المصرية ووصلوا إلى العريش ، وكان ملك الفرنج يسمى بردويل^(١) ، فلما وصل إلى العريش مرض هناك مرضا شديدا ومات ، فكتّم أصحابه موته خوفا من المسلمين ، وشقوا بطنه ورموا مزارينه ، ثم دفنوها بالعريش ، وقد صار الناس إلى الآن كلما مروا بالعريش رجموا ذلك المكان الذي دفنت فيه مزارين بردويل — ويسمى إلى اليوم سبخة بردويل — وأما جثته فحملت إلى القمامة التي ببيت المقدس ودفنت هناك .

وفي أيامه وقع الغلاء بمصر ، وتناهى سعر القمح إلى ثلاثين دينارا ثمن الأردب الواحد ، فأقام الأمر على ذلك نحو ستة أشهر ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحط سعر القمح عن ذلك القدر ، وكثرت الغلال في العرصات .

وكان القائم بتدبير أمور الديار المصرية المأمون البطايحي الوزير ، فساس الناس في هذه الغلوة أحسن سياسة ، ولم يحصل في الديار المصرية من

(١) هو « بلدوين » .

الخلافة ستين سنة وأربعة شهور ، وهذه المدة لم تتفق لأحد قبله من الخلفاء الفاطميين ولا العباسيين ، ولكنه قاسى في هذه المدة مشقات عظيمة شديدة كما قيل في المعنى والأمثال « من أراد البقاء في الدنيا فليوطن نفسه على المصائب » .

ولما مات المستنصر تولى من بعده ابنه أحمد المستعلى بالله .

المستعلى بالله

هو المستعلى بالله أحمد ، بن المستنصر بالله ، ابن الظاهر ، بن الحاكم ، وهو السادس من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويح بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله في ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

ومن الحوادث في أيامه أن الفرنج استولوا على بيت المقدس وملكوه ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وأسروا من الباقي نحو ألف إنسان ، وذلك في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا من قبة الصخرة أربعين قنديلا من الذهب والفضة ، وزن كل قنديل ألف درهم من الفضة ، وأخذوا التنور النحاس الكبير ، وأقاموا مالكين بيت المقدس نحو ثلاث سنين .

وفي أيام المستعلى كسفت الشمس ، وغاب جميعها ، وأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم وقت الظهر ، وأقامت على ذلك إلى آخر النهار حتى انجلى .

واستمر المستعلى في الخلافة بمصر إلى أن مرض ومات فكانت وفاته في يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين .

ولما مات تولى من بعده ابنه الأمر بأحكام الله .

الاضطراب كما حصل في أيام المستنصر مما تقدم ذكره .

قيل : هجم رجل في زمان الغلاء على بعض المغاربة وهو يأكل في رغيغ ، فلما رآه ستر الرغيغ منه ، فقال له ذلك الرجل : « أما سمعت الحديث : طعام واحد يكفي اثنين ؟ » فقال له المغربي : « ذلك في ضوء السراج ... إذا كان لواحد يكفي جماعة . وأما في هذا الرغيغ فلا أطعمك منه لقمة » . فمضى عنه الرجل ولم يطعمه شيئا .

وسبب هذا الغلاء أن النيل بلغ في الزيادة الى خمسة عشر ذراعا وأصعبا ثم هبط ، فشرقت البلاد ، وحصل للناس الضرر الشامل ، ورسم الخليفة للبطرك بأن يتوجه الى بلاد الحبشة بسبب توقف النيل ، ولم يفد توجه البطرك شيئا .

وفي سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ابتداء الأمر بأحكام الله في عمارة جامعته الذي بناه عند سوق مرجوش المسمى بجامع الأقمر ، وأنفق على بنائه مائتى ألف دينار ، وكان له صهر يج يمتلىء من مسارب الخليج الحاكمى .

وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة قبض الأمر على الوزير المأمون البطايحي ، وقتله ثم صلبه واحتاط على موجوده ، فظهر له من الأموال ما لا يحصى . فمن ذلك مائة صندوق ما بين ذهب عين ودراهم فضة وجواهر فاخرة ، ووجد عنده مائة بكرنية مملوءة من الكافور العنصوري ، وهذا الصنف عزيز الوجود . ووجد عنده ثلثمائة صندوق فيها قماش جسمه ما بين حرير وصوف ودق تنيس ودمياط ، ووجد عنده من العود القمارى مائة من وأشياء كثيرة لا تنحصر ، فحمل ذلك الى قصر الخلافة .

فلما قتل الأمر الوزير البطايحي لم يبق بعده

الا مدة يسيرة وقتل الآخر . وكان سبب قتله أنه توجه الى بر الروضة على سبيل التنزه ، فأقام هناك يوما وليلة ، فلما رجع الى القاهرة مر على جسر الروضة الذي كان بالقرب من الجزيرة الوسطى ، فلما عبر الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود ف ضربوه بالسكاكين تحت الليل — وكان سكران — فوقع عن فرسه فحملوه الى القاهرة وطلعوا به الى قصره فمات من وقته ، فكانت وفاته في ليلة الثلاثاء العشرين من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته بمصر نحو تسع وعشرين سنة وشهرين . ومات عن غير ولد فتولى من بعده ابن عمه المستنصر بالله .

الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ، ابن المستنصر بالله ، وهو الثامن من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد قتل الأمر بأحكام الله ، وكان الحافظ لدين الله رجلا حليما ، لين الجانب ، قليل الأذى ، فطمعت فيه الرعية ، واضطربت في أيامه أحوال الديار المصرية ، واستولت الفرنج على البلاد ، وكثر منهم الفساد ، وطمع الفلاحون في أهل مصر ، وامتنعوا من وزن الخراج ، وتعطل الأمر وما راج .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ان الشيخ أبا عبد الله الأندلسى دخل الى مصر في أيام الخليفة الحافظ — وكان الشيخ أبو عبد الله له يد طائلة في علم السيمياء — فأحضره الحافظ بين يديه وقال له : « أرنا شيئا من علم السيمياء » . فامتنع من ذلك ، فألح عليه ، فأراه مساحة القصر كأنها لجة ماء وفيها سفينة كبيرة وحولها شوانى حربية ،

فوقع بينهما الحرب والقتال ، فكانت بينهم السيوف تلمع ، وسحائب القسي تمطر ، والبنود تخفق ، والرءوس تهدر ، والدماء تسيل ... فلا يشك الناظر في حقيقة ذلك . ثم ان أصحاب السفينة سلموا الى أصحاب الشوانى فساروا بها والطبول تضرب والبوقات تزعق حتى غابوا عن الأبصار . ثم ذهبت تلك اللجة الماء التي كانت في القصر بأمواج تتلاطم كالجبال . فلما رأى الحافظ ذلك تعجب منه ، وكان حوله جماعة من خواصه فأشاروا عليه بقتل الشيخ أبى عبد الله ، وقالوا هذا يفسد عقول الناس ، فلم يوافقهم الحافظ على قتله . ثم قال للشيخ : « أرني شيئاً في هؤلاء الذين قد أشاروا بقتلك » . فقال له الشيخ : « مرهم يمضوا الى منازلهم » . فقال الحافظ لمن حوله : « انصرفوا الى منازلكم » . فلما انصرفوا صار كل من يركب دابته يراها في صفة الثور العظيم ، ولها في رأسها قرون طوال ، فتحيروا في ذلك ، ورجعوا الى الحافظ ، وذكروا له ما جرى لهم في دوابهم ، فضحك وقال لهم : « افدوا دوابكم منه » . فما منهم الا من أعطاه شيئاً حتى أطلق لهم دوابهم .

قيل ان الحافظ كان يشتكى بألم القولنج ، فصنع له الحكيم شبرماه الديلمى طبل باز من المعادن السبعة ، وهو مرصود في وقت معلوم ، فكان من خاصية هذا الطبل اذا ضرب عليه أحد خرج منه ريح ، وهذه الفائدة كانت لدفع القولنج ، وكان الحافظ يعتريه هذا المرض فصنع له ذلك الطبل بسبب القولنج .

قيل لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الديار المصرية استعرض حواصل الخلفاء الفاطمية فوجد ذلك الطبل في علبة ، فأخذه بعض الأكراد وضرب عليه بيده فخرج منه ريح فحقق

من ذلك ورمى الطبل من يده على الأرض فكسره ، فبطل فعله من حينئذ ، فندم على كسره صلاح الدين يوسف غاية الندم .

واستمر الحافظ بالخلافة بمصر حتى توفي ، فكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسائة ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه الظافر بالله .

الظافر بالله

هو الظافر بالله ، أبو المنصور اسماعيل ، بن الحافظ ، بن المستنصر بالله ، وهو التاسع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويغ بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ ، وكان له من العمر لما تولى الخلافة سبع عشرة سنة . وكان شاباً جميل الصورة ، حسن الهيئة ، وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، وكان يهوى ابن وزيره عباس ، وينزل اليه ويبيت عنده في غالب الأوقات ، وامتحن به غاية الامتحان . قيل انه أهدى في بعض الأوقات الى ابن الوزير صينية من ذهب فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار ، وفصوص من الياقوت الأحمر والأصفر والزمرد الدنانى ، وألف نافجة من المسك ، وعشرة آلاف دينار . ومن العجائب أن الوزير عباساً وولده نصراً لم ينفع فيهما شيء من ذلك ، وقتلا الظافر عقيب ذلك كما سيأتى ذكره في موضعه .

ومن الحوادث في أيام الظافر أن في سنة إحدى وخمسين وخمسائة وقع وباء عظيم بين أرض الحجاز واليمن ، وكان بينهما نحو من عشرين قرية ، فدخل الوباء في ثمانى عشرة قرية منها فأفناهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم انسان . فكانت مواشيهم سائبة لا قانى لها ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل الى تلك القرى ، وكل

من دخل الى تلك القرى هلك من وقته بالطعن ومات . وأما القرىتان اللتان حول تلك القرى فما عندهما شعور بما جرى على من حولهما من القرى مما أصابهم من الفناء والطعن ، ولم يمت من هاتين القرىتين طفل واحد ... فسبحان القادر على كل شيء .

ومن هنا نرجع الى أخبار الظافر بالله . قيل كثير الكلام بين الناس في حق الوزير عباس بسبب ابنه نصر ، فلما نزل الظافر الى بيت الوزير عباس على جرى عادته وبات عنده ، ندب اليه من قتله تحت الليل ورماه في بئر ... فلما أصبح الوزير طلع الى دار الخلافة ودخل الى القصر ، فقال لبعض الخدام : « أين أمير المؤمنين ؟ » . فقال له الخدام : « ان ابنك نصر يعرف أين هو ؟ » . ثم ان الوزير عباس دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير عيسى بن الظافر ، وأحضر القضاة وأرباب الدولة وقال : « ان أمير المؤمنين الظافر نزل البارحة في مركب فانقلبت به فغرق ومات . والرأى عندي أننا نولى الأمير عيسى الخلافة عوضا عن أبيه الظافر ، ونلقبه بالفائز بنصر الله » . وتراضوا على ذلك . ثم بعد ذلك شاع بين الناس أن الوزير عباس قد قتل الظافر ، فانقلبت الجند على الوزير عباس بسبب ذلك .

وكانت قتلة الظافر في ليلة الأحد ثانی صفر سنة تسع وأربعين وخمسائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأياما .

والظافر هذا هو الذي بنى الجامع المعروف الآن بجامع الفاكهاني ، وهو بالقرب من الشوايين .

الفائز بنصر الله

هو الفائز بنصر الله ، أبو القاسم عيسى ، بن الظافر ، بن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو العاشر من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويح بالخلافة بعد قتل أبيه الظافر بالله ، وكان سبب بيعته أن الوزير عباس لما قتل الظافر طلع الى القصر وأحضر القضاة والشهود وقال لهم ان الظافر نزل البارحة في مركب فانقلبت به فغرق ، ثم هجم الوزير على ابن الظافر وهو في دور الحرم وأخذه من عند أمه وحمله على كتفه ففزع منه واضطرب — وكان له من العمر ست سنين — فأحضره بين القضاة وولاه الخلافة ، واستمرت معه الطربة عمالة حتى كبر ومات بعد مدة وهو يضطرب في كل وقت .

فلما تم أمره في الخلافة وأطاعه الجند ، صار يخشى من الوزير عباس ولا يقر له قرار ، فاستعان على قتله بشخص يسمى طلائع بن رزيك — وكان متوليا على منية ابن خصيب — فجمع عسكرا عظيما من العربان وقصد التوجه الى القاهرة . فلما بلغ الوزير عباسا ذلك أخذ ما قدر عليه من الأموال والتحف وهرب نحو البلاد هو وولده نصر ، فكان كما قيل :

حكى غراب البين في شؤمه

لكن اذا جئنا الى الحق زاغ

فبينما هو في أثناء الطريق اذ خرجت عليه طائفة من الفرنج فأسروه ، وأخذوا ما كان معه من الأموال والتحف ، فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة احتاط الفائز على موجود الوزير عباس جميعه ، وولى الوزارة طلائع بن رزيك عوضا عن عباس ، فخلع عليه وتلقب بالصالح بالله ، فأطاعه الجند وأحبوه ، وكانت له حرمة وافرة في القاهرة . وهو

وكانت مدة خلافته بمصر خمس سنين وأشهر
ولما مات تولى من بعده ابن عمه عبد الله العاضد
بالله .

العاضد بالله

هو العاضد بالله ، أبو محمد عبد الله ،
ابن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو الحادى عشر
من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة
بعد موت ابن عمه الفائز فى رجب سنة خمس
وخمسين وخمسائة . قيل ان الخليفة المعز لما قدم
الى الديار المصرية قال لبعض علماء مصر :
« اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، حتى اذا تولى
منا أحد تلقب بها » . فكتب له ألقابا كثيرة
آخرها العاضد بالله ، فاتفق أن آخر من تولى
منهم تلقب بالعاضد بالله ، وبه انقرضت دولتهم .
ولم يكن لهم من المساوىء سوى أنهم كانوا
رافضة يسبون الصحابة فى كل جمعة على المنابر .
ولما أن تولى العاضد استمر الصالح ووزيرا ،
فأقام على ذلك مدة ومات ، فتولى عوضه فى
الوزارة شاور بن مجير السعدى .

ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج
استولوا على الديار المصرية ودخلوا براكبهم الى
بحر النيل ونزلوا على مدينة الفسطاط التى تقدم
ذكرها لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من
الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة
الفسطاط ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك
الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركبا
مشحونة بالمقاتلين . فلما رأى الخليفة العاضد عين
الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين
وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة
أموالا جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ... فعند

الذى بنى الجامع المنسوب اليه المشهور بجامع
الصالح الذى هو خارج باب زويلة ، وكانت
الوزراء تتلقب يومئذ كألقاب الخلفاء .

ثم ان الصالح هذا أرسل الى طائفة الفرنج
الذين أسروا الوزير عباسا يطلبه منهم ، وأرسل
السهم هدية ومالا نحو عشرة آلاف دينار ، فلما
وصل ذلك الى الفرنج أرسلوا الوزير عباسا
وولده نصرا الى الصالح وهما فى الحديد ، فلما
دخلا القاهرة كان يومهما يوما مشهودا لم يسمع
بمثله ، فأمر الفائز بأن يصلب الوزير عباس وولده
نصر على باب القصر ، فصلبا وأخذ الفائز بثأر
أبيه الظافر قبل العصر ، فكان كما قيل فى الأمثال :
« الموت فى طلب الشار ، خير من الحياة فى
العار » .

وفى أيام الفائز هذا نقلت رأس الحسين رضى
الله عنه من عسقلان الى القاهرة ، وذلك فى سنة
تسع وأربعين وخمسائة . وسبب ذلك أن رأس
الحسين كانت بعسقلان ، فلما تولى الفرنج على
عسقلان خاف المسلمون على رأس الحسين
فأحضروها الى القاهرة فى علبة ، وبنى لها الفائز
هذا المشهد ودفنها به . قيل ان رأس الحسين
نقلت الى ثلاثة أماكن قبل أن تحضر الى القاهرة
بمدة .

وفى أيام الفائز استعرضت عساكر القاهرة ،
فكانت نحو خمسين ألف مقاتل على أجناس
مختلفة ، وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة
بالرجال والسلاح بسبب الجهاد ، وهذا مع وجود
تلاشى أمر الخلفاء الفاطمية وضعف شوكتهم .

واستمر الفائز فى الخلافة بمصر حتى مرض
ومات ، وكانت وفاته فى يوم الجمعة سابع رجب
سنة خمس وخمسين وخمسائة ، وتوفى وله من
العمر احدى عشرة سنة وأشهر ، ومات بالطعن ،

ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق مدينة
الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها ، فأذن له
الخليفة في حرقها ، فجمع الوزير العبيد
وأحرقوها . وكانت هذه المدينة من أجل المدائن ،
وقد أنشأها عمرو بن العاص في مبتدأ الاسلام
عند فتح مصر ، وقد تقدم ذكر ذلك عند فتوح
مصر . فلما قدم المعز من الغرب وبنى القاهرة
تلاشى أمر مدينة الفسطاط .

وكانت القاهرة في غاية العمارة والتحصين ،
فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول الناس الى
القاهرة قيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط
الى القاهرة عشرة دنائير كل ثقله ، وصارت النار
عمالة في مدينة الفسطاط واحدا وخمسين يوما حتى
صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى
الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر .

قال عبد الله بن عبد الحكم : « وكان ذلك
سببا لخراب مدينة الفسطاط ، وصارت من يومئذ
كيمافا يوجد فيها الأعمدة الرخام الأبيض الى
الآن . وكان أولها من حدره ابن قميحة وآخرها
عند الرصد ، وكان حرقها وخرابها في سنة أربع
وستين وخمسائة » .

وقال ابن المتوج ان الخليفة العاضد لما استولى
مرى ملك الفرنج على مصر أرسل العاضد الى
الملك العادل نور الدين الشهيد صاحب دمشق
بأن يرسل الى أهل مصر نجدة ويدركهم قبل أن
تملك الفرنج المدينة ، فأرسل نور الدين الشهيد
الى مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب هو
واخوته ، فلما قدموا الى مصر تسامع بهم الفرنج
فرحلوا عن مصر . ولما رحلوا قويت شوكة
بنى أيوب بمصر ، فخاف منهم العاضد ، فخلع

الوزير شاور بن مجير الدين السعدى من
الوزارة ، وولى أسد الدين شيركوه أخا أيوب
عم صلاح الدين يوسف عوضا عن السعدى .

ثم ان أسد الدين صلب الوزير ابن مجير الدين
السعدى على باب القاهرة لكونه أشار بحرق
مدينة الفسطاط ، ثم ان أسد الدين لما تم أمره في
الوزارة تلقب بالمنصور — وكانت الوزراء تتلقب
بمثل ألقاب الخلفاء — فلما تولى الوزارة أقام
حرمة مصر الى الغاية ، وهابه الناس ، فأقام في
الوزارة مدة يسيرة ومات فجأة على حين غفلة .

فلما مات أسد الدين شيركوه تولى من بعده
الوزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب وتلقب
بالناصر . فلما تولى صلاح الدين بن أيوب على
مصر ضعفت شوكة الخليفة العاضد ، ومالت
الجند الى صلاح الدين يوسف . ثم ان نور الدين
الشهيد أرسل يقول له : « اقطع الخطبة من مصر
عن اسم العاضد » . فلما قطع الخطبة عن اسمه
حصل له قهر عظيم ، وصار مع صلاح الدين
كالمحجور عليه ... لا يتصرف في الأمور الا بعد
مشورة صلاح الدين ، فما أطاق العاضد ذلك ،
فقليل انه ابتلع فص ألماس فمات من يومه .

وكانت وفاته في يوم الاثنين عاشر المحرم سنة
سبع وستين وخمسائة من الهجرة ، وكانت مدة
خلافته بمصر اثنى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ،
وبه انقطعت دولة بنى عبيد الله الفاطمى عن
الخلافة بمصر ، وبه ختمت أخبار الخلفاء الفاطمية
من بنى عبيد الله .

وقد قامت دولة الخلفاء الفاطمية بمصر مائتين
وثمانيا وستين سنة .

الزُّوْلَةُ الرَّابِعَةُ

يثبوا على بسبب ذلك . فأرسل نور الدين الشهيد يقول لصلاح الدين ثانيا : « لا بد من ذلك » .

فلما رأى صلاح الدين أن نور الدين الشهيد مصمم على ذلك ، جمع أعيان أهل مصر وذكر لهم ما قاله نور الدين الشهيد ، فقالوا له : « وكيف يكون ذلك ؟ » . فقال شخص من أبناء العجم يسمى الأمين ، وكان من أهل العلم : « أنا أفتح لكم باب هذا الأمر » .

فلما كان يوم الجمعة ثاني المحرم سنة سبع وستين وخمسائة ، صعد ذلك الشخص الأعجمي إلى المنبر قبل صلاة الجمعة ، ودعا إلى الخليفة المستضيء بالله العباسي خليفة بغداد . فلما صعد المنبر ودعا إلى المستضيء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا . فلما كان ثاني جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة العاضد من الخطبة ، وأن يدعوا باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي ، ففعلوا ذلك .

فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد إلى فص من الألباس فابتلعه ، فمات من يومه ودفن . فكانت وفاته في عاشر المحرم كما تقدم .

فلما مات العاضد أرسل نور الدين الشهيد إلى صلاح الدين تقليدا بولاية مصر نيابة عنه . قيل لما استولى صلاح الدين يوسف على حواصل الخلفاء الفاطمية استعرض ما فيها من السلاح والأموال ، فأرسل إلى نور الدين ما استحسنته من السلاح الفاخر والتحف ، وصار

الملك الناصر

كان أولهم الملك الناصر ، أبا المظفر يوسف ، ابن أيوب ، بن شادي ، بن مروان الكردي . وكان أصلهم من آذربيجان من بلاد الكرج ، ولكن أصلهم أكراد .

وكان مولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت في سنة اثنتين وثلاثين وخمسائة . وكان أبوه أيوب في خدمة زنكي أبي نور الدين الشهيد ، فلما توفي زنكي صار أيوب وأولاده في خدمة نور الدين الشهيد ، ثم ارتقى نور الدين حتى بقي صاحب البلاد الشامية .

فلما تلاشى أمر الخليفة العاضد ، واستولت الفرنج على الديار المصرية ، أرسل يطلب من نور الدين الشهيد نجدة بسبب الفرنج ، فأرسل إليه أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف . فلما توفي أسد الدين تولى من بعده في الوزارة أيام العاضد صلاح الدين يوسف . فلما توفي العاضد تولى من بعده على مصر صلاح الدين يوسف نيابة عن نور الدين الشهيد بتقليد منه .

وكان سبب موت العاضد أن نور الدين الشهيد لما أرسل إلى صلاح الدين يقول له : « اقطع الخطبة عن اسم العاضد بالله » ... أرسل صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد : « إن أهل مصر لا يطاوعوني على ذلك ، وأخشى أن

بعد ذلك يبيع ما فضل من السلاح وغيره نحو
عشر سنين غير ما اصطفاه لنفسه .

ثم ان صلاح الدين صار مستوليا على مصر
نيابة عن نور الدين الشهيد حتى توفي نور الدين
محمود بن زنكى . وكانت وفاته في سنة تسع
وستين وخمسماية ، ودفن بدمشق في جامع
الكلاسة ، وكان يلقب بالملك العادل ، وهو
المجاهد الم رابط فاتح بيت المقدس من أيدي
الفرنج ، وفاتح الثغور الاسلامية من البلاد
الشامية ، وهو الذي تعصب لبني العباس ورد لهم
الخطبة بمصر وأعمالها ، وأبطل ما كان يخطب
باسم الفاطمية .

قال الهروي ان في سنة تسع وثلاثين وخمسماية
انخفضت المغارة المدفون فيها ابراهيم الخليل عليه
السلام ، فنزل اليها جماعة فوجدوا فيها ابراهيم
واسحق ويعقوب عليهم السلام ، وقد بليت
أكفانهم ، وهم مستندون الى حائط المغارة وعلى
رءوسهم قناديل من ذهب وفضة . فلما بلغ نور
الدين ذلك أمر بأن تجدد لهم أكفان جدد ، وأن
يسد عليهم ما انخفض من المغارة .

فلما توفي نور الدين الشهيد انفرد صلاح الدين
يوسف بمملكة الديار المصرية والبلاد الشامية ،
وصفا له الوقت ، فأزال ما كان بمصر من العساكر
الملفقة — وكانوا ما بين صقلية وكدانة ومصامدة
وأرمين وشناترة العرب والعبيد السود — فمحا
تلك الطوائف جميعها ، واتخذ بمصر عساكر من
الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم اثني عشر ألف
فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من
الحروب .

ثم ان صلاح الدين يوسف لظر في أحوال
الرعية ، وأمر باستقاط المكوس جميعها التي
حدثت في أيام الفاطمية ، وكتب بذلك مساميح

بخط القاضي عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان
الانشاء ، وقرئت على المنابر في الجوامع بعد صلاة
الجمعة ، وكان قدر ما أبطله من المكوس في كل
سنة ما ينوف عن مائة ألف دينار . فلما قرئت تلك
المساميح ضج له الناس بالدعاء وأحبته الرعية
فكان كما قيل :

دولته للأنام عيسد
باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل في الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذي عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة في حماه

تمشي مع الذئب والضياعم
قال ابن الأثير : « لما كانت سنة اثنتين وسبعين
 وخمسماية ، أمر الملك الناصر صلاح الدين بن
أيوب ببناء سور القاهرة بالحجر الفص المنحوت ،
وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش
الخصي الحبشي » . فأبطل السور القديم الذي
كان قد بناه الأمير جوهر القائد في أيام المعز
الفاطمي كما تقدم .

وكان جوهر القائد بنى السور أولا بالطوب
للبن في سنة إحدى وستين وثلثمائة عندما قدم
من القيروان ، وآثار السور القديم باقية عند
الباب المحروق الى الآن .

قال ابن الأثير ان دور السور الذي بناه صلاح
الدين يوسف تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثة
آلاف ذراع بالعمل ، وجعل عليه هذه الأبواب
المصنعة بالحديد . وكانت عدة أبواب القاهرة
خمسة عشر بابا غير ما في السور من الأبواب
الصغار ، وكان باب زويلة يسمى باب الفاضل ،

وانما باب زويلة القديم الذى فى الغرابيين عند
سام بن نوح وآثاره باقية الى الآن .

قال ابن الأثير ان صلاح الدين يوسف هو
الذى بنى قلعة الجبل وصارت دار المملكة ، وبطل
أمر قصر الزمرد الذى كان فى القاهرة مكان دار
الضرب . ولكن مات صلاح الدين ولم يتم بناء
قلعة الجبل وانما أتم بناءها الملك الكامل محمد
ابن أخى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وهو
أول من سكن بقلعة الجبل من بنى أيوب .

ومن النكت اللطيفة أنه كان بدمشق خان يسمى
بخان ابن الزنجارى ، وكان يفعل فيه من أنواع
الفسوق مالا يوصف شرحه . فلما بلغ الملك الناصر
صلاح الدين يوسف أخبار ذلك الخان أمر بهدمه
فهدم وبني مكانه جامعا وسماه جامع التوبة ، وولى
خطبته والامامة الى شخص يسمى العماد الواسطى
— وكان يتهم بشرب الراح وحب الملاح —
فكتب بعض اللطفاء قصيدة عن لسان حال هذا
الجامع ، ورفعها الى الملك الناصر صلاح الدين
يوسف ، وكان شرح هذه القصة فى هذه الأبيات :
يا مليكا أوضح الحق لديننا وأبانه
جامع التوبة قد قلدى منه أمانه
قال : قل للملك لنا صر أبقى الله شأنه
يا صلاح الدين يامن حمد الناس زمانه
لى خطيب واسطى بعشق الشرب ديانه
ويحب المرد طبعنا ويعنى بالجمعانه
فانا فى كل حال لم أزل بالسكرخانه
فاستمع قصة حالى زادك الله صيانته
فلما وقف صلاح الدين على هذه الأبيات أمر
بعزل العماد الواسطى عن خطبة الجامع ، وولى
عليه شخصا من أهل الصلاح والخير .

قال المسبحى ان فى أيام صلاح الدين يوسف
نزل الفرنج على ثغر مدينة دمياط فخرج اليهم
صلاح الدين فى عساكر كثيرة من مصر ، وتوجه
الى دمياط ، فتقاتل مع الفرنج أشد القتال ،
وكانوا نحو مائتى مركب ، فأقام صلاح الدين
يحاصر الفرنج على دمياط نحو خمسة وخمسين
يوما فانكسر الفرنج وانهزموا نحو بلادهم مدبرين
وانتصر عليهم صلاح الدين .

فلما رحل الفرنج الى بلادهم توجه صلاح الدين
من هناك الى الشام فأقام بها مدة . قيل لما دخل
صلاح الدين الى دمشق نزل بالميدان الكبير فجاءت
اليه أرباب الملاعب من المصارعين والمتأففين وغير
ذلك ، وكان فيما جاء اليه رجل أعجمى فتكلم معه
بأن يريه أعجوبة فى صنعة الشعبة ، فأذن له فى
ذلك ، فنصب خيمة لطيفة فى الميدان بين يدي
السلطان صلاح الدين وأخرج من كنه كبة خيط
فربط طرف ذلك فى يده ، ثم حذف تلك الكبة
الخيط فى الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن
الأبصار ، ثم سقطت بين الناس احدى رجليه
وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت الى الخيمة ،
ثم سقطت احدى يديه ودخلت الى الخيمة ، ثم
سقطت اليد الأخرى ودخلت الى الخيمة . ولم
تزل أعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقط
الرأس وصار يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة
ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سوى كما
كان يمشى على أقدامه ، فقبل الأرض بين يدي
الملك الناصر ... فبهت الناس من ذلك ، ثم ان
الرجل دخل الخيمة ثانيا قدام الناس فقال رفيقه
للحاضرين : « ادخلوا الخيمة فتشسوا فيها » ..
فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا فيها أحدا ،
ثم فكوا الخيمة ونصبوها فى مكان آخر فخرج
منها ذلك الرجل وهو يمشى على أقدامه كما دخل ،

فتعجب منه الناس ومن كان حول الملك الناصر من
الأمرء .

ثم ان الأمير سنقر الأخلاطى حنق من ذلك
الرجل الذى صنع هذه الشعبذة فقام اليه بالسيف
وضرب عنقه بين الناس ، وقال للملك الناصر ان
مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسا من عند أحد
من الفرنج ، ثم أراد الأمير سنقر أن يقتل رفيقه
فاستجار بالملك الناصر وزعم أنه لا يعرف شيئا مما
كان يعمل رفيقه ، فقال له الملك الناصر : « اخرج
من دمشق في هذه الساعة ، ولا تقم بها فيقتلوك »
فخرج من وقته .

قال ابن كثير ان الملك الناصر صلاح الدين بن
أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة
النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بها أحد من
الخدام قبل ذلك ، وكان سبب تقريره للخدام أن
بنى حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطمية ، وأظهروا
العصيان ، وصاروا يجهرون عند الأذان بقولهم :
« حى على خير العمل » ، وهو مذهب الشيعة ..
فلما تولى مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب استمال بنى حسن ، وأغدق عليهم الأموال
والهدايا حتى أذنوا له أن يجعل على المدينة الشريفة
جماعة من قبله ، فقرر بالمدينة الشريفة أربعة وعشرين
خادما خصيا ، وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال
له بدر الدين الأسدى ، ووقف على مجارى المدينة
الشريفة بلدين من أعمال الصعيد — وهما نقادة
وقبالة ، وهما الى الآن جاريتان فى أوقاف
الحرمين — وكان شيخ الحرم النبوى اذا قدم من
المدينة على الملوك يقومون له ويجلسونه الى جانبهم
ويتبركون به لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة ..
واستمر الأمر على ذلك الى أيام الملك الأشرف
برسبای .

ومما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف
بالديار المصرية من آثار الخير ، خاقاه سعيد
السعداء التى بالقرب من باب النصر وأنشأ
المدرسة السيوفية التى بالقرب من باب الزهومة ،
وأنشأ مارستانا كان عند دار الضرب القديم ،
وأنشأ المدرسة التى بجوار الامام الشافعى
— وكانت ساحة — وهو الذى أقام بمجد السادة
الشافعية وقدمهم على غيرهم من المذاهب ، وأنشأ
المدرسة الصلاحية التى بالقدس الشريف عندما
استخلص بيت المقدس من يد الفرنج ، وله غير
ذلك من الآثار الحسنة أشياء كثيرة بالديار المصرية
وبالبلاد الشامية ، واستخلص بلادا كثيرة كانت
تحت يد الفرنج من البلاد الاسلامية .

واستمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف
قائما بأمور الديار المصرية حتى سافر الى البلاد
الشامية فى أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .
فلما دخل الى الشام أقام بها مدة يسيرة ومرض
ومات ، فكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين
 وخمسمائة . ومات وله من العمر احدى وسبعون
سنة .

ولما مات دفن بدمشق بمدرسة مجاهد الدين ،
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية أربعاً وعشرين
سنة بما فيها من أيام محمود بن زنكى الشهيد .
ولما مات صلاح الدين يوسف خلف من الأولاد
سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه ، ولم يخلف فى
خزائنه لاذها ولا فضة ، ولم يخلف قرية ولا بستانا
ولا ملكا ولا ضيعة ، وأتقذ جميع ما فى الخزائن
على التجاريد والغزوات حتى فتح البلاد التى
كانت بيد الفرنج .

ولما مات تولى من بعده ابنه العزيز عثمان .

الملك العزيز بالله

هو الملك العزيز بالله ، عماد الدين أبو الفتح ، عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو الثاني من ملوك بني أيوب بمصر . بويع له بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بعهد من أبيه له . وكان أصغر اخوته ، وكان أخوه الأفضل أكبر منه . فلما توفي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ولى ابنه الأفضل على دمشق ، وولى ابنه المظفر غازي على حلب ، وولى ابنه العزيز عثمان على مصر .

وكان مولد العزيز بمصر في جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسائة ، وولى ملك مصر وله من العمر نحو سبع وعشرين سنة . فلما مات أبوه صلاح الدين وقع الخلاف بين الاخوة ، ووثبوا على بعضهم ، ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس في مصر أقبح سيرة ، وقد أخطأت فيه فرائسة أبيه الناصر بما كان يرجوه فيه فكان كما قيل في المعنى :

أملتهم ثم تأملتهم

فلاح لى أن ليس فهم فلاح

طال وقوفى بفنا ربهم

بغير نفع فالرواح الرواح

فأعاد المكوس التى كان أبطلها أبود صلاح الدين ، وزاد في شناعتها ، وتجاهر بالمعاصي والمنكرات حتى غلا سعر العنب في أيامه لكثرة من يعصره ، وحملت أواني الخمر جهارا من غير انكار

وحملت بيوت المزاراة وأماكن الحشيش ، وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة حتى صار يأخذ من أرباب هذه الجهات في كل يوم ستة عشر دينارا حماية للسلطان ، فلم يقدر أحد أن يعارض أماكن الفسوق في أيامه فيما يفعلون ، وصارت طاحون الحشيش عمالة في كل يوم في حارة المصامدة ، وكذلك بيوت المزاراة في الكباش في مكان يقال له الغور .

قال القاضى الفاضل ان في أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل ، وتشحطت الغلال في وقت ميسورها والقمح في الجرون ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصي والفسوق .

ومن الحوادث في أيامه أن دارا كانت في فم السد تعرف بدار ابن مقشر ، وكان يحصل في أجرتها في اليوم واللييلة ما لا يتحصل من أجره مثلها في مدة سنة كاملة ، وذلك بسبب الفرجة يوم فتح السد اذا أوفى النيل . فلما أن كانت سنة احدى وتسعين وخمسائة أوفى النيل على جرى عادته فأكرت الناس تلك الأماكن التى في دار ابن مقشر بسبب الفرجة حتى ما بقى فيها مايسع قدم انسان . فبينما الناس محتبكة بها للفرجة اذ سقطت تلك الدار على من فيها من الناس فماتوا جميعا ، وكان بها ما ينوف عن خمسمائة نفس من نساء ورجال وصغار وكبار ، فأقاموا يستخرجون من فيها من الأموات ثلاثة أيام ، فوجدوا بها شخصا يعرف بأبى البقا وفيه بعض نفس ، فطلع من تحت الردم وقد كاد أن يفارق الدنيا . فلما شم الهواء عوفى وعاش بعد ذلك مدة طويلة ، ثم طلع الى سطح داره في بعض الأيام ونزل وهو مستعجل فزلت رجله من ثلاث درج من سلم السطح فمات من وقته وساعته .

قال ابن المتوج : « جاء رجل من بلاد العجم الى القاهرة فأوحى الى الملك عثمان بأن الهرم الصغير الذى فى الجزيرة — وهو المكسو بالحجر الصوان — تحته مطلب ، فوجه اليه الملك العزيز جماعة من الحجارين ليهدموه ، فأقاموا فى هدمه نحو شهر ولم يهدموا منه الا اليسير ، فأتفق على هدمه فى هذه المدة مالا جزيلا ، فلما أعياه ذلك تركه . وآثار ذلك النقب فيه الى الآن ، وقد نزعوا عنه بعض الحجارة الصوان .

سنة خمس وتسعين وخمسمائة (١١٩٨ م) :

فيها خرج الملك العزيز الى نحو الفيوم يتصيد على سبيل الفرجة ، فلاح له ظبى فساق خلفه فكبا به الفرس فدخل قربوس السرج فى صدره فمات من وقته ، فحمل الى القاهرة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه .

وكانت وفاته فى يوم الخميس العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة سلطنته فى الديار المصرية نحو سبع سنين وأشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه محمد .

الملك المنصور

هو الملك المنصور محمد ، بن الملك العزيز عثمان ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن أيوب ، وهو الثالث من ملوك بنى أيوب . بويج بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز فى العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو عشرين سنة . وكان القائم بأمور دولته الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو صاحب الحارة المنسوبة اليه — فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة وأحبته الرعية ، ودعوا له بطول البقاء .

وفى أيامه توفى القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وهو أول من أظهر التورية فى الشعر . قال الأسعد بن مماتى : « كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حدة ظاهرة خلف ظهره ، وكان يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس » . وقد هجاه ابن عنين الشاعر بسبب حديثه بهذه الأبيات :

حاشا لعبد الرحيم سيدنا ال
فاضل ماذا تقول السفل

يكذب من قال ان حديثه
فى ظهره من عبيده جبل
هذا قياس فى غير سيدنا
يصح أن كان يحبل الرجل

ومن النكت اللطيفة قول الأسعد بن مماتى : دخلت يوما على القاضى الفاضل ، فرأيت الى جانبه أترجة بديعة الخلقة ، فجعلت أنظر الى تلك الأترجة فقال لى الفاضل : أراك تطيل النظر الى هذه الأترجة . فقلت : أتعجب من شكلها وبديع خلقتها . فقال لى الفاضل : ولها نسبة أيضا فيما بها من الاحتداب . فقلت : الله الله يا مولانا .

ثم انى ارتجلت بيتين من الشعر وهما هذان :

للحسن ، بل لله ، أترجة
قد أذكرتنا بجنان النعيم
كأنها قد جمعت نفسها

من هيبة الفاضل عبد الرحيم
فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد
توهمه منى .

قال الأسعد بن مماتى : ثم انى ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابى ، فقال لى : احمد الله اذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبهما له ... فربما

خفت عليه في اللفظ فيقرؤها « من هيئة »
نزل عبد الرحيم ... فيزداد حنقا من ذلك .

واستمر الملك المنصور في السلطنة مدة يسيرة ،
لبت عليه أعمامه من أجل السلطنة ، وجرى بينهم
الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

وآخر الأمر خلع الملك المنصور من السلطنة ،
جن بقلعة الجبل واستمر مسجوناً إلى أن مات
لسجن ، فكانت مدة سلطنته بمصر تسعة أشهر
ما .

ولما خلع الملك المنصور تولى من بعده عم أبيه
ير أبو بكر بن أيوب .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الأمير
م الدين أيوب بن شادى ، وهو الرابع من ملوك
، أيوب بمصر . بويح بالسلطنة بعد خلع ابن ابن
يه المنصور محمد في شوال سنة خمس وتسعين
تمسمائة . وكان العادل هذا في أيام أخيه الناصر
لاح الدين يوسف قد استولى على عدة من بلاد
رق . وكان العادل هذا مسعوداً في جميع
كاته ، يحب الغزو في سبيل الله ، خفيف
كائب ، صبوراً على الجهاد . وكان مولده بمدينة
بك في سنة أربع وستين وخمسمائة . وكان أصغر
أخيه صلاح الدين يوسف . فلما تولى السلطنة
صر مشى على نظام الملوك القديمة في الحرمة
إفرة وثفاذ الكلمة . قيل انه كان يشقى بمصر
صيف بالشام . وكانت مملكة مصر والشام في
مه مضبوطة لا يختل شيء من نظامها . واستمر
أمر على ذلك ...

نة سبع وتسعين وخمسمائة (١٢٠٠ م) :
فيها توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء ، وثبت

على اثني عشر ذراعاً وأصبع واحد ، ثم هبط ولم
يزد بعد ذلك شيئاً من الأصابع فاضطربت أحوال
الديار المصرية ، وأكلت الناس بعضها بعضاً .
واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ، ولم
يزد غير عشرة أذرع ثم هبط ، فوقع القحط بالديار
المصرية وعمدت الأقوات في سائر أعمال مصر ،
فصار الناس من شدة الجوع يأكلون القلط
والكلاب والحمير والبغال والخيول والجمال حتى
ما بقى بمصر دابة ، فصار الناس إذا قوى أحدهم
على صاحبه يذبحه بيده ويأكله ، وصار الرجل
يذبح ابن جاره ويأكله ولا ينكر ذلك عليه ،
ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع ... وهذا
كله بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش
والطيور . وقد تنهى سعر القمح في السنة الثالثة
إلى مائة دينار كل أردب ... ولا يوجد .

ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل
مصر نحو الثلثين .

قال أبو شامة المؤرخ ان الملك العادل أبا بكر
ابن أيوب كف من ماله في مدة يسيرة ممن مات من
الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف إنسان ، غير من
مات من أهل المدينة فلم يحص لهم عدد حتى قيل
كان النيل إذا طلع لم يجد من يزرع الأراضي ،
فكانت الترك تخرج بنفسها يحرثون ويزرعون
بأيديهم ، ويبدرون في الأرض الغلال لعدم وجود
الفلاحين .

وقيل فقد من الأطباء في تلك السنة جماعة
كثيرة ... يدعونهم إلى المريض فإذا حصلوا عندهم
في الدار يذبحونهم ويأكلونهم . وكذلك النساء
الغواسل ... يدعونهن إلى الأموات فيذبحونهن
ويأكلونهن ، حتى قيل ان رجلاً استدعى بطيب فلما
مضى معه الطبيب جعل ذلك الرجل يكسر من ذكر
الله تعالى بطول الطريق ، فسكن روع ذلك الطبيب

شاه أرمن هذا بديع الحسن والجمال ، وهو
ممدوح القاضي كمال الدين بن النيبه في جميع
قصائده حيث يقول من قصيدة :

يا طالب الرزق ان سدت مذاهبه
قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت
وقال في ختم زجل :

والشفق أحمر وأصفر رايات شاه أرمن
ذا ملك بحال جمالو ما خلق وليس يخلق

وفي أيام العادل أبي بكر توفي مؤيد الدين -
صاحب لامية العجم - الطغرائي . وكان شاعرا
ماهرا ، وله شعر جيد . وكان كاتب الملك مسعود
صاحب حماء . فلما كات الواقعة بين الملك مسعود
وبين أخيه الملك محمود شاه ، انكسر الملك مسعود
وولى هاربا ، فكان أول من أسر من جماعة الملك
مسعود مؤيد الدين الطغرائي . فلما مثل بين يدي
الملك محمود شاه - وكان بينه وبين الطغرائي
عداوة بسبب مملوكه فريد الحسن - أمر بقتل
الطغرائي على يد ذلك المملوك الذي كان يهواه ،
فرمى عليه بالنشاب فقتله . وقيل عفا عنه ومات
الطغرائي عقيب ذلك من الرجة .

الملك الكامل

هو الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، بن الملك
العادل أبي بكر بن أيوب ، وهو الخامس من ملوك
بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه
العادل في يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة
خمس عشرة وستمائة . وكان الملك الكامل أكبر
أخوته .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه ان
الملك الكامل استولى على الديار المصرية نحو من
أربعين سنة ، نصفها في حياة أبيه الملك العادل ،

بعد ما كان على وجل ، فلما وصلا الى الدار فاذا
هى دار خربة ، فارتاع ذلك الطبيب فخرج اليه
رجل من الخربة وقال للرجل الذى جاء بالطبيب :
« وهل مع هذا البطء العظيم جئت الينا
بصيد ؟ » ... فلما سمع الطبيب ذلك ولى هاربا ،
وما خلص الا بعد جهد عظيم .

واستمر الأمر على ذلك مدة ثم سكن الحال ،
وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وظهرت الغلال ، وانحط
سعر القمح حتى صار مرميا لا يجد من يشتريه ،
وتراجع سعر كل شئ ، وانصلح الوقت وطاب ،
ورجع الماء الى مجاريه فكان كما قيل في المعنى :

إذا ما رماك الدهر يوما بنكبة

فهيبى لها صبرا وأوسع لها صدرا

فان تصاريف الزمان كثيرة

فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

ثم ان الملك العادل استمر في السلطنة بمصر حتى
خرج الى نحو الشام لتفقد الأحوال ، فمرض هناك
ومات ودفن بدمشق ، فكانت وفاته في جمادى
الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وكانت مدة
سلطنته بمصر ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر .

وكان العادل هذا رجلا طويلا جسيما ، مدور
الوجه ، شرها في الأكل ، يأكل الخروف وحده .
وكان يحب من يأكل معه مثل آكله .

ولما مات الملك العادل خلف من الأولاد ثلاثة ،
وهم :

الملك محمد الكامل ، فاستمر بعد أبيه العادل
على مملكة الديار المصرية .

وابنه الملك المعظم عيسى ، فاستقر بعد أبيه
العادل على مملكة البلاد الشامية .

وابنة الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، فاستقر
بعد أبيه على مملكة البلاد الحلبية . وكان موسى

ونصفها مستقل بها بمفرده . وكان كثير الغزوات ،
ويحب الجهاد ، وفتح في أيامه فتوحات كثيرة من
البلاد الشامية والمصرية .

وكان الملك الكامل يكثر من الإقامة في العباسية ،
ويقول : « هذه أحسن من مصر ، فاني اذا أقمت
بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ،
والوحش من الفضاء ، ويصل الى خبر القاهرة في
يومه مع النجباء في كل يوم مرتين » . وكان من
حبه للعباسية أنشأ بها البساتين والمنابر برسم
الحرم والسراري .

وفي أيامه توفي الشيخ الصالح أبو الحسن
الدينوري ، وكان من كبار العلماء الأولياء ، وله
كرامات خارقة ، ودفن بالقرب من الجبل المقطم ،
وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ست عشرة
وسمائة .

ومن الحوادث في أيامه أن شخصا مغربيا دخل
الى الديار المصرية ، وكان من علماء فن السيميا ،
فأظهر لشخص من الأعيان بستانا خارج القاهرة من
أحسن ما يكون ، كثير الأشجار من أصناف الفواكه
المثمرة ، وفيه خمس سواق دائرة ، وعدة ثيران
واقفة برسم السواقى ، وخوله واقفة من حول هذا
البستان . فلما رآه ذلك الرجل أعجبه فاشتراه من
المغربى بألف دينار وقبضه الثمن ، وأشهد عليه
المغربى بتسليم ذلك البستان بقاض وشهود ... ثم
مضى ذلك المغربى الى حال سبيله وبات ذلك الرجل
في البستان الذى اشتراه ، فلما أصبح وجد نفسه
بين الكيمان ولم ير شيئا من ذلك البستان الذى
باعه له المغربى ، فصار يسأل من الناس : « هل
كان قبل ذلك اليوم هنا بستان ؟ » . فيقولون :
« ما سمعنا بهذا قط » . فصار الرجل متعجبا من
ذلك ، وشاع أمره بين الناس فلما بلغ الملك
الكامل ذلك طلب المغربى فلم يجده وأخذ الألف

دينار ومضى الى حال سبيله . وهذه الواقعة من
الغرائب .

وقال بعض المؤرخين ان ملوك اليمن أهدت الى
الملك الكامل محمد شمعانا من نحاس يخرج منه
عند طلوع الفجر شحص من نحاس لطيف الحلقة
يخاطب الملك قائلا : « صبحك الله بالخير ... قد
طلع الفجر » ، أو صفير هذا معناه . وكان هذا
الشمعدان من صنعة الميقاتية ، فأقام في حواصل
الملوك الى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون
ثم فقد .

وفي أيام الملك الكامل هذا توفي الشيخ زكى
الدين العوضى ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد .
وكان سبب موته — كما قيل — أنه كان في خدمة
الملك المظفر محمود صاحب حماء ، وكان قبل أن
يلى حماء وعد الشيخ زكى الدين العوضى أنه اذا
تولى حماء يعطى الشيخ زكى الدين ألف دينار .
فلما تولى حماء كتب اليه الشيخ زكى الدين هذه
الآيات :

مولاي هذا الملك قد نلت

برغم مخلوق من الخالق

والدهر منقاد لما شئت

فذا أوان المود الصادق

فعند ذلك دفع اليه الملك المظفر الألف دينار
التي وعده بها ثم ان الملك المظفر صار يرسل
الشيخ زكى الدين في الأسفار الى بعض أشغاله
فصرف الألف دينار على الأسفار ولم يبق منها
شيء ، فبلغ الملك المظفر أن الشيخ زكى الدين قال
في معنى ذلك شعرا :

ان الذى أعطوه لى جملة

قد استردوه قليلا قليل

فليت لهم يعطوا ولم يأخذوا

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بحبسه ، فحبس ،
فبلغه عنه أنه قال وهو في السجن هذا البيت من
قصيدة :

أعطيتني الألف تعظيماً ومكرمة
يا ليت شعري ! أم أعطيتني ديتي ؟
فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بخنقه ، فخنق
وهو في السجن ، ودفن تحت الليل .

سنة ثمان عشرة وستمئة (١٢٢١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الفرنج جاءوا الى ثغر
دمياط في مائتي مركب ، واستولوا على مدينة
دمياط وملكوها . فعند ذلك اضطربت أحوال
الديار المصرية ، ونادى الملك الكامل في القاهرة
بأن التفرع عام ... فاجتمع من العساكر نحو عشرين
ألف مقاتل ، فعند ذلك خرج الملك الكامل من
القاهرة ومعه تلك العساكر فتوجه الى دمياط ،
ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ، واجتمع
هناك السواد الأعظم من الخلائق ، وصار الملك
يحاصر الفرنج في دمياط ، وقد حصن الفرنج
سور دمياط ، وجعلوا الجامع الكبير كنيسة .
فلما دام الحصار بينهم وقع الغلاء بين عسكر
السلطان الكامل حتى عدت الأقوات وبلغ
الرغيف الخبز ثقله فضة ، وبيعت بيضة الدجاجة
بدينار ، وصار السكر في مقام الياقوت الأحمر ...
فكانت الخيول والبهايم تأكل من أوراق الشجر
في مدة هذه المحاصرة . وكانت المحاصرة في ثغر
دمياط ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وقد
أسرف الافرنج في القتل والنهب والأسر .

وسير الملك الكامل السعاة الى سائر البلاد
يستحث الناس الى الحضور لأجل دفع الفرنج عن
الديار المصرية . قيل كان في مدة هذه المحاصرة يمشى
في ركاب الملك الكامل شخص يسمى شمائل
— وكان من جملة الجندارية — فكان يسبح في
البحر تحت الليل ، ويأتى الملك الكامل بأخبار

الفرنج ، فحظى بذلك عند الملك الكامل . فلما
انتصر على الافرنج ولى شمائل المذكور القاهرة ،
وصار مقربا عنده ، واليه تنسب خزنة شمائل ،
وهي عبارة عن سجن يحبس فيه أصحاب الجرائم .
ولما طال حصار الملك الكامل على دمياط أنشأ
هناك قرية وسماها « المنصورة » ، وبنى بها
الأسواق والفنادق والحمامات ، ولا زالت تتزايد
في العمارة الى الآن .

ثم ان الملك المظفر محمود — صاحب حماه —
خضر في عسكر كثيف عند الملك الكامل ليعاونه
به على دفع العدو ، فاجتمع هناك من العساكر نحو
أربعين ألف مقاتل ، فجرى بينهم من القتال
ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، فلما طال الأمر
على الافرنج أيقنوا بالهلاك ، وأرسلوا يطلبون من
الملك الكامل الأمان على أنهم يتركون دمياط
ويرحلون عنها الى بلادهم ، فاتفق الحال على أن
كلا من الفريقين يعطى رهائن من أقاربه ، وعلى
أن كلا من المسلمين يطلق من عنده من الأسارى ،
وعلى أن الافرنج يطلقون من عندهم من الأسرى
من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
أيوب ... فحلف الملك الكامل والافرنج على ذلك ،
ووقع الصلح على ذلك . فأرسل ملك الافرنج
عشرين ملكا من عنده رهنا الى الملك الكامل ،
وأرسل الملك ابنه الأمير نجم الدين مع جماعة من
الأمراء الى ملك الافرنج ... فعند ذلك سلم
الافرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، وأطلقوا من
كان عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر
صلاح الدين يوسف . وكذلك أطلق الملك الكامل
من كان عنده من الافرنج الأسرى .

قيل لما سلم الفرنج مدينة دمياط الى المسلمين ،
جاء عقيب ذلك الى الافرنج نجدة من البحر نحو
مائتي مركب . وكان من جميل صنع الله تأخيرها
الى حين تسلم المسلمون دمياط ، لأنها لو جاءت

قبل ذلك لتتقوا بها على المسلمين ، وأبوا عن الصلح . فلما تسلم الملك الكامل مدينة دمياط كان يوم دخوله اليها يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، وعمت البشائر سائر الآفاق . وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما ، والملك الكامل معهم في جهاد ليلا ونهارا ، لا يكل من الحروب في هذه المدة . وكانت هذه النصر في سنة تسع عشرة وستمائة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان في مدة المحاصرة حضر الى الملك الكامل أخواه — وهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى شاه أرمن صاحب حلب وماردين — فلما حصلت هذه النصره أحضر الملك أخويه واجتمعوا في القصر الذي أنشأه الملك الكامل في المنصورة ، وكان مبتدأ عمارة المنصورة في سنة عشرين وستمائة ، فلما اجتمعوا في القصر أحضروا سفرة الشراب بعد أن مد لهم سباط عظيم هناك . فلما جلسوا الى المنادمة بعد ما قاسوا من الافرنج أهوالا عظيمة كما قيل في المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
أحضر الملك الأشرف موسى جارية تغنى على عود ، فحركت العود وأنشدت تقول :

ولما طغى فرعون عكا بسحره
وجاء ليسعى بالفساد الى الأرض
أتى نحوه موسى وفي يده العصا

فأفرقهم في اليم بعضا على بعض
فطرب الملك الأشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى ، وأسرها في نفسه ، ثم انه أرسل خلف الراجح الحلبي الشاعر وأمره بأن يجيب عن ذلك المعنى بشيء — والراجح الحلبي هذا أقدم من الصفي الحلبي — وقد قال ابن نباتة في معنى ذلك هذين البيتين :

يا سائلي عن رتبة الحلبي في
نظم القريض رواضيا بى أحكم
للشعر حليان ذلك راجح
ذهب الزمان به ، وهذا قيم
ثم ان الراجح الحلبي نظم هذين البيتين ودفعهما الى الملك الكامل ، فأمر الملك الكامل بإحضار جارية تضرب بالعود ، فحضرت في اليوم الثاني وأخذت العود وغنت عليه بهذه الأبيات :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى في عصرنا وتجددا
ألا ان موسى قد أتانا وقومه
وعيسى جميعا ينصرون محمدا
فلما سمع الملك ذلك طرب له ، وأمر لكل جارية بخسمائة دينار ، وأجاز الراجح الحلبي بجائزة سنية .

ثم ان الملك الكامل دخل الى القاهرة في موكب عظيم ومعه أخواه الملك الأشرف موسى والملك المعظم عيسى ، فأقاموا في القاهرة مدة يسيرة وتوجها الى بلادهما .

ثم ان الملك الكامل أخذ في أسباب بناء مدرسته الكاملية التي بين القصرين ، وكانت تسمى دار الحديث . قيل لما أن حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك صنما كبيرا من ذهب ، فأمر الملك الكامل بأن يسبك ذلك الصنم وينفق على بناء هذه المدرسة ، فبنيت من وجه حل .

وهو الذي أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الامام الشافعي رضى الله عنه ، وبنى المجرة من بركة الحبش الى تربة الامام الشافعي رضى الله عنه تجرى بالماء في أيام النيل وهى باقية الى الآن . وبنى الحوض على الطريق السالكة عند تربة الامام الشافعي رضى الله عنه . ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الامام الشافعي داخل القبة .

وتوفى في أيامه القاضي كمال الدين ابن النبيه ،
وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، وهو الذى مدح
بنى أيوب بقوله من قصيدة :

دمتم بنى أيوب فى نعمة

تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لا زلتم ملوك الورى

شرقا وغربا وعلى الضمان

وكان الملك الكامل سعيد الحركات فى أفعاله ،
كثير الجهاد والغزوات والفتوحات .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة فى ثانى جمادى
الأولى توفى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض
رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الصغرى تحت
العارض بالجبل المقطم . وكان مولده بالقاهرة
فى رابع ذى القعدة سنة سبع وسبعين وخمسائة ،
فكانت مدة حياته أربعاً وخمسين سنة وستة أشهر
وأياماً . ولما مات دفن تحت رجلى شيخه الشيخ محمد
البقال رحمة الله عليه ، وكان أصله من حماة ، وإنما
سمى بابن الفارض لأن والده الشيخ شمس الدين
كان من كبار أهل العلم ، وقد انفرد فى علم
الفرائض ، فسمى لذلك الفارض . وكان الشيخ
شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله عنه فريد
عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى
الغراميات لم يسبق اليه . وقد عاصر من العلماء
الشيخ أبا القاسم المنفلوطى ، والشيخ صفى الدين
ابن أبى المنصور ، والشيخ شمس الدين الأيكى
شيخ خانقاه سعيد السعداء ، والشيخ سعد
الدين الحارثى الحنبلى المحدث ، والقاضى أمين
الدين بن الرقاقى ، والشيخ جمال الدين
الأسيوطى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى
رضى الله عنه ، والشيخ برهان الدين الجعبرى ،
والقاضى شمس الدين بن خلكان ، والشيخ شهاب
الدين بن الخيمى ، وكان له نظم لطيف ، وكان

يطارح به ابن الفارض — والشيخ نجم الدين بن
اسرائيل ... وغير ذلك جماعة كثيرة من العلماء
والصوفية ، ولم ينكر عليه أحد منهم فى حالاته
ولا نظمه ، وكانوا معه فى غاية الأدب .

ومما وقع للشيخ شرف الدين عمر بن الفارض
أنه كان مقيماً بجامع الأزهر ، فأراد يوماً أن يتوجه
الى جامع عمرو بن العاص الذى فى مصر العتيقة ،
فأحضروا الى الشيخ مكاريا ليركبه الى جامع
عمرو ، فقال أصحاب الشيخ للمكارى : « كم لك
من هنا الى جامع عمرو ؟ » . فقال المكارى :
« خلوا الشيخ يركب معى على الفتوح » . فقال
الشيخ : « نعم نركب معك على الفتوح » . فركب
معه الشيخ وتوجه الى جامع عمرو . فلما كان فى
أثناء الطريق لقي الشيخ بعض أعيان الناس فترجل
له عن فرسه فسلم عليه ثم أرسل الى الشيخ مائة
دينار مع غلامه ، فقال الشيخ : « ادفعوا هذه المائة
الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » .
فدفعوا المائة دينار الى المكارى ، فبعث اليه بمائة
دينار أخرى غير المائة الاولى ، فقال الشيخ :
« ادفعوها الى المكارى ، فانا ركبنا معه على
الفتوح » . فلما وصل الشيخ الى جامع عمرو
نزل عن الحمار وصار يعتذر الى المكارى فى
التقصير ، وقال : « لو دخل الينا أكثر من ذلك
لدفعناه اليك » .

ثم ان الملك الكامل قصد التوجه الى دمشق
لتفقد الأحوال ، فخرج من القاهرة وتوجه الى
دمشق ، فلما دخلها أقام بها مدة ثم مرض ومات
هناك ودفن بدمشق . وكانت وفاته فى العشرين
من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، فكانت مدة
سلطنته بمصر نحواً من عشرين سنة .

ولما مات تولى من بعده ابنه العادل أبو بكر .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبي بكر ، بن نجم الدين أيوب ، وهو السادس من ملوك بني أيوب بمصر . بويج بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد . تولى الملك في سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وكان سبب سلطنته أنه لما توفي أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل أبو بكر هذا نائبا عن أبيه بمصر لما أن توجه الى دمشق . فلما توفي هناك الملك الكامل ، وجاءت الأخبار بموته الى القاهرة ، اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بمصر على أن يسلطنوا الأمير أبا بكر بن الملك الكامل عوضا عن أبيه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده الملك العادل أبي بكر . فلما بلغ أخاه نجم الدين ، وكان نائبا بحلب ، أن أخاه تسلطن بمصر — وكان العادل أصغر من أخيه نجم الدين — شق ذلك على نجم الدين وحضر من حلب الى الديار المصرية في أسرع مدة . فلما دخل الى مصر وثب على أخيه الملك العادل وحاربه وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر . وصار العسكر معهم فريقين : مع كل أخ فريق .

ودام الأمر على ذلك ثم قويت شوكة الأمير نجم الدين على أخيه العادل فخلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات ، كما سيأتى ذلك في موضعه ، فكانت مدة ولايته على مصر سنة وشهرين وأياما . ولما خلع تولى من بعده أخوه نجم الدين .

الملك الصالح

هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبي بكر ، بن نجم الدين بن أيوب ، وهو السابع من ملوك بني أيوب بمصر . بويج بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك العادل أبي بكر في يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتولى الملك وله من العمر نحو أربع وثلاثين سنة . وكان مولده في سنة ثلاث وستمائة بمصر في قلعة انجيل . فلما تم أمره في السلطنة وأطاعه الجند أخذ في أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشترى الممالك حتى ضاقت بهم القاهرة ، وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين ، فضج منهم الناس . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
ترك بدولته ... يا شر مجلوب !

قد أخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة في الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية . وجعل حول تلك القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج اذا طرقوا البلاد فتكون هذه المماليك على أهبة ، فينزلون في الحال في الشوانى ويتوجهون الى قتال الفرنج ، وكان عدتهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة ، ولهم الرواتب والجوامك عمالة بسبب ذلك . وآثار هذه القلعة باقية في الروضة الى الآن .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان طائفة من هذه المماليك خرجوا من القاهرة هاربين من السلطان

في سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فتوجهوا الى نحو التيه ، فتأهوا به نحو خمسة أيام ، فلاح لهم في اليوم السادس سواد فقصده فاذا هو مدينة عظيمة ولها سور ولها أبواب وهي مبنية بالرخام الأخضر ، فدخلوا اليها وطاقفوا بها ، فوجدوا بها أسواقا ودورا ، ووجدوا فيها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج — فشربوا منه ، ووجدوا في بعض الدكاكين التي في أسواقها دنائير من الذهب وعليها كتابة بالقلم القديم ، فأخذوا تلك الدنائير وخرجوا من المدينة فساروا ليلة كاملة ، فلما أصبحوا وجدوا طائفة من العرب هناك فحملوهم الى مدينة الكرك فأخرجوا تلك الدنائير التي معهم الى بعض الصيارفة فاذا عليها مكتوب اسم موسى عليه السلام . وقيل ان هذه المدينة بنيت في زمن موسى وكان يقال لها المدنة الخضراء من مدائن بنى اسرائيل ، وقد طمست بالرمال ، فتارة تنقص عنها الرمال فتظهر ، وتارة تطمها ... فلاحت الى هؤلاء الممالك وقت تناقص الرمل عنها .

وفي سنة أربع وأربعين وستمائة أنشأ الملك الصالح نجم الدين مدينة على أطراف الرمل وسماها الصالحية ، وأنشأ بها الأسواق والفنادق والمساجد ، فتزايدت في العمارة وصارت مدينة على أفرادها .

وهو الذي أنشأ المدرستين تجاه باب الصاغة ، وهي : النجمية ، والصالحية قلعة العلماء .

ومن الوقائع في أيامه أن الأمير شهاب الدين بن يغمور والى القاهرة أمر بشنق عشرين رجلا كانوا يقطعون الطريق على الناس ويقتلون من يظفرون به ، فلما شنقهم أمر الخفراء بحفظهم ، فلما جاء الليل عدهم الخفراء فاذا هم تسعة عشر مشنوقا ... فخاف الخفراء من الأمير شهاب الدين أن يسألهم

عنه ، ففعدوا على الطريق ينتظرون من يمر بهم فيشنقونه عوضا عن ذلك الرجل ، واذا بشخص قد مر بهم فقاموا اليه وأمسكوه وشنقوه مع جملة المشائيق . فلما لاح الصباح أتى الأمير شهاب الدين وعد المشائيق فاذا هم أحد وعشرون رجلا فقال للخفراء : « ومن هذا الرجل الزائد الذي معهم ؟ » . فبهتوا ... فقال لهم : « ما شأنكم ؟ » . فقالوا : « يا أيها الأمير ، قد عددناهم في الليل فرأيناهم ناقصين واحدا ، فمر بنا في الليل هذا الرجل فأمسكناه وشنقناه معهم » . فقال لهم الأمير شهاب الدين : « أروني هذا الرجل المسكين الذي وقع لكم » . فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق وله مدة وهو محث في طلبه ولا يقدر على تحصيله . فلما رآه سر به وتعجب من هذه الواقعة غاية العجب .

ثم ان الملك الصالح صفا له الوقت ، وكثرت مماليكه ، وطالت أيامه في السبلطنة ... فعند ذلك تعرض لقتل أخيه الملك العادل أبي بكر الذي كان في السجن بقلعة الجبل فقتله في ثالث شوال سنة أربعين وستمائة ودفن عند الامام الشافعي رضى الله عنه . فلما قتل الملك الصالح أخاه العادل أقام بعد قتله أياما يسيرة ، ثم ابتلاه الله تعالى بأكلة طلعت له في وجهه فرعته الى آخره ، واستمر عيلا وثقل المرض عليه .

سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن ريدا فرنسيس ، ملك الافرنج ، أتى الى ثغر دمياط في مائتي مركب مشحونة بالرجال ، غير من أتى في البر من المقاتلين . وكان ريدا فرنسيس هذا قد استولى على غالب بلاد الأندلس وسبى أهلها ، وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ، ونهب أموالهم .

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا .

وكانت طائفة هذه الافرنج غير الطائفة التي جاءت في أيام الملك الكامل محمد كما تقدم ذكر ذلك . فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر بأشهار النداء في مصر والقاهرة بأن النفير عام ، ولا يتأخر صغير ولا كبير ، فان العدو قد استولى على البلاد ، ووصلت بوادره للمنصورة ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت بأهلها .

ثم ان ملك الافرنج ريذا فرسيس لما أحاط بشعر دمياط أرسل كتابا الى نائب دمياط يهدده فيه ويحذره ، وذكر له ما جرى على أهل الأندلس من القتل والسبي . فلما سمع أهل دمياط بذلك هربوا تحت الليل . فلما أصبح الافرنج وجدوا أبواب المدينة مفتحة وليس فيها أحد من الناس ، فظن الافرنج أن ذلك مكيدة من المسلمين ، فتمهلوا حتى ظهر لهم أن ما في المدينة أحد من المسلمين ، فدخلوا من غير مانع وملكوها .

فلما سمع الملك الصالح بذلك نادى في مصر والقاهرة بالرحيل ، فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء ، وخرج الملك الصالح في محفة ، فانه كان مريضا على غير استواء . فلما وصل الى نحو المنصورة نزل بها ، وأمر بجمع العربان من سائر النواحي ، فاجتمع من العالم ما لا يحصى .

ثم ان الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه وشنق معه نحو خمسين أميرا بسبب خروجهم من دمياط بغير إذن من السلطان ، فعز ذلك على الأمراء وقصدوا أن يقتلوا الملك الصالح هناك فأشار بعض الأمراء بعدم ذلك ، وقال هذا غير صواب ... فصار القتال بين المسلمين والافرنج : كل فرقة تقتل من الأخرى ، وأسر جماعة كثيرة . هذا والسلطان كل يوم يتزايد في المرض حتى أيست منه الأطباء .

فلما كانت ليلة الأحد رابع عشر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة كنم موته خوفا من الافرنج أن يطمعوا في أخذ البلاد من أيدي المسلمين ، فحمل السلطان بعد أن مات في زورق تحت الليل وجيء به الى قلعة الروضة فدفن بها . وقيل نقل بعد ذلك الى مقام الامام الشافعي رضى الله عنه ودفن عند أقاربه داخل القبة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما .

ولم يشعر أحد من الناس بموته ، فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها انها يخط السلطان الصالح . وكانت الأمراء تجتمع في الموكب ويظهرون أن السلطان مريض ، وكانت الأطباء تدخل على جاري العادة في كل يوم ، وكان طبق المزاور يدخل في كل يوم ويخرج على جاري العادة ، والمراسيم في كل يوم رائحة من المنصورة الى القاهرة في الاشتغال ، ولم يعلم أحد بموت الصالح في القاهرة ... وكان القائم بتدبير هذه الأمور الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير فارس الدين اقطاي في هذه المدة ، حتى حضر توران شاه ابن الملك الصالح .

وكان توران شاه في حصن كيفا ، فلما سلسل الملك الصالح في المرض أرسلوا خلف ابنه توران شاه من حصن كيفا ، فأبطأ عليهم حتى مات أبوه . فلما حضر الى المنصورة - وقد جاء في عسكر عظيم من الأكراد من عساكر حصن كيفا - أشيع موت الملك الصالح ، وتسطن ابنه توران شاه عوضه .

مدبرين ، والله تعالى ناصر الناصرين ، وما النصر
الا من عند الله العزيز الحكيم

قال الشاعر :

لله در فوارس يوم الوغى
تهوى الحيطة لا اليهم تنتمى

ذرعوا الفوارس بالرماح ، وفصلوا
بالمرهفات ، وخيطوا بالأسهم

فبلغ عدة من استشهد في هذه الواقعة من أمراء
السلطان سبعة وستين أميراً غير المماليك ، وقتل
من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الافرنج
على فارسكور ما يزيد على اثنى عشر ألف انسان ،
وأسر من ملوكهم سبعة ، وغنم منهم المسلمون
من السلاح والقماش والخيول شيئا كثيرا لا يحصى
... حتى قيل بيع في عسكر السلطان كل سيف
بنصفين فضة ، وكل فرس بعشرة أنصاف ، وكل
درع بثمانية أنصاف .

وأما ملك الافرنج ريذا فرنسيس ، وأكابر
أمرائهم ، فانهم قد انحاشوا الى تل عال هناك ،
وأرسلوا يسألون الأمان من السلطان ، فأرسل اليهم
بعض الأمراء فقبض عليهم وفيدهم وسجنهم .

وأما ملك الافرنج فسجنه السلطان في دار القاضي
فخر الدين بن لقمان كاتب السر — وكانت في
المنصورة — ووكل به طواشي يسمى صبيح الفاطمي
فكان يضربه ليلا ونهارا ، ويقرره على الأموال .
واستمر في السجن وهو مقيد هو وأخوه وأقاربه ،
وقد قرر عليه السلطان مالا يورده ، فأرسل الى
بلاده ليحضر الأموال التي قد قررت عليه .

فلما حصلت هذه النصرة أرسل السلطان الملك
المعظم توران شاه بالبشارة الى القاهرة بأخذ مدينة
دمياط ، وقد توجه بهذه البشارة الأمير شهاب الدين
ابن يغمور والى القاهرة ، فدخلها وهو لا لبس لبس

الملك المعظم توران شاه

هو الملك المعظم توران شاه ، بن الملك الصالح
نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، وهو
الثامن من ملوك بني أيوب بمصر . بويع بالسلطنة
بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب في
مستهل شهر المحرم الحرام سنة ثمان وأربعين
وستمئة ، وكانت ولادته بعد موت أبيه بأربعة
أشهر . فلما نولى نودى باسمه في القاهرة وزينت
له ودقت له الكئوسات سبعة أيام ، وتلقب بالملك
المعظم ، ونودى بين العساكر في الوطاق بالدعاء
للسلطان الملك المعظم توران شاه والترحم على الملك
الصالح نجم الدين أيوب ، فلبس توران شاه خلعة
السلطنة بالمنصورة ، وقبل له الأمراء الأرض ،
وخطب باسمه على المنابر .

فلما تحقق الافرنج موت الملك الصالح طمعوا
في أخذ مصر وزحفوا الى فارسكور ، فاجتمع سائر
الأمراء وتحالفوا على الجهاد في سبيل الله تعالى .
فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم سنة ثمان
وأربعين وستمئة (١٢٥٠ م) ركب الأمير بيبرس
البندقدارى والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء ،
وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين
وغير ذلك وفي أيديهم المقاليع والحجارة ، وهجم
المماليك البحرية وفي أيديهم السيوف والدبابيس
والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحملوا
على الافرنج حملة واحدة ... فكانت ساعة تشيب
منها النواصي ، وقد تاب من هول ذلك اليوم
العاصي ، فانكسر الافرنج أبخس كسرة ، وولوا

(١) في « حسن الحاضرة » : ان توران شاه ملك مصر في
ذى القعدة سنة ٦٤٧ ، وقتل في يوم الاثنين سابع عشر المحرم
سنة ٦٤٨ .

ملك الافرنج : اشكر لاط مخمل أحمر بفرو سنجاب
وقلنسوة ذهب . فزنت له القاهرة ، وكان يوما
مشهودا لم يسمع بمثله ... بعد أن كان الافرنج
أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، واستولوا على
غالب الضياع ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا أهلها .

قيل لما ملك المسلمون مدينة دمياط أشار الأمراء
على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل اليها
الهدادين فهدموها عن آخرها ، ولم يبق منها سوى
الجامع الكبير ووقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن
شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من
يومئذ خرابا وصار مكان بيوتها أخصاصا من القش
على شاطئ بحر النيل يسكن فيها جماعة من
الصيادين ، وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك
الى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس
البندقدارى ، فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها
جماعة من البنائين والحجارين . وكان ابتداء عمارتها
في سنة خمسين وستمائة (١٢٥٢ م) ، فجدد بناء
سورها ، وأمر بردم فم البحر الذى تدخل منه
مراكب الافرنج فردموه من القراييص التى كانت
هناك من الهدم القديم ، فامتنت المراكب الكبار
من الدخول الى بحر النيل من يومئذ .

ثم ان الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد
التى كانت من البر الى البر ... قيل ان هذه
السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم
بطلت ، فأمر باعادتها كما كانت .

ومن هنا نرجع الى أخبار ملك الافرنج ريذا
فرنسيس ، فانه لما اعتقل بدار القاضى فخر الدين
ابن لقمان كاتب السر التى كانت بأرض المنصورة ،
وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى ، صار يضربه
في كل يوم خمسمائة عصا ، فاستمر على ذلك الى
أن تولى الملك المعز أيبك التركمانى ، فأرسل اليه

فرنسيس يقول له بأن يشتري نفسه منه بمائتى ألف
دينار غير التقادم ... فأفرج الملك المعز عنه وعن
أخيه وأقاربه ، وحلفوه أيمانا عظيمة بأنه ما بقى
يتعدى على بلاد المسلمين ، ولا يفسد فى البحر
والبر . فلما حلف أذن له الملك المعز بالتوجه الى
بلاده ، فسار واستمر فى بلاده وأرسل الى الملك
المعز ما قرره له من الأموال .

وأقام على ذلك الى أن قتل الملك المعز أيبك
وتولى من بعده ابنه الملك المنصور على ، فجاءت
الأخبار من البلاد بأن فرنسيس المذكور جمع
العساكر ، وصنع مراكب كثيرة ، وقصد العود الى
أخذ مدينة دمياط . فلما بلغ المنصور ذلك جمع
الأمراء وضربوا مشورة ، فاقتضى الرأى أن يرسلوا
اليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد له والخط
عليه ، فكتب اليه صاحب جمال الدين بن مطروح
مطالعة وضمنها هذه الأبيات :

قل للفرنسيس اذا جثته

مقال نصح من قتل فصيح

أجرك الله على ما جرى

من قتل عباد لدين المسيح

أتيت مصرا تبتغى ملكها

تحسب أن الزمر بالطبل ريح

فساقك الحين الى عسكر

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم

بسوء تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا ترى منهم

الا قتيلا أو أسيرا جريح

وفقك الله لأمثالها

لعل عيسى منكم يستريح

ان كنت عولت على عودة
لأخذ ثأر أو لعقد صحيح

دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشي صبيح

فلما وصلت هذه المطالعة الى فرنسيس
وسمع هذه الأبيات ، رجع عن التوجه الى مصر ،
وتذكر ما قد جرى عليه من الطواشي صبيح
وما قاسى من ضربه له .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك المعظم توران
شاه ... قيل لما حصلت هذه النصره لتوران شاه
ظن أن الوقت قد صفا له فتحول من المنصورة الى
فارسكور ، فنصب له هناك برجا من الخشب على
شاطئ البحر ، ثم أحضر الأسارى من الافرنج
وضرب أعناقهم بين يديه بالسيف ، ثم قذفهم في
البحر ، ثم شرع يقرب جماعة من حاشيته ممن
حضر معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف
السنية ، وأبعد ممالك أبيه الملك الصالح ، وأرسل
الى شجرة الدر زوجة أبيه يعدها بكل سوء ،
فأرسلت شجرة الدر تقول للأمراء والمماليك
البحرية اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل
ما يمكن .

وكان توران شاه عنده خفة ووهج في أموره ،
فكان اذا سكر يصف الشموع في الليل قدامه ،
ويأخذ السيف بيده ، ويضرب به تلك الشموع
ويقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية ... » .
وكان أحق جاهلا ، لا يدري ما يضره وما ينفعه
كأنه خشبة ، وكان كما قال فيه القائل :

يا جامعا لخصال قبيحة ليس تحصى

نقصت عن كل فضل فقد تكاملت نقصا

لو أن للجهل شخصا كنت للجهل شخصا

فلما بلغ ممالك أبيه ذلك أضمرها له السوء
وقد تغيرت خواطرهم عليه .

فلما كان يوم الاثنين تاسع المحرم سنة ثمان
وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) جلس الملك المعظم
توران شاه في الموكب والأمراء بين يديه ، وكان
قد أمر رءوس النواب أن يقفوا قدامه بعضى ، وهى
ملبسة بالذهب في أيام المواكب ، فلما مضى الموكب
وحضر السباط جلس الملك المعظم على السباط
كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة من المماليك
البحرية وبأيديهم السيوف فضربوه على أصابعه
فقطعوها ، فقام وهرب ودخل ذلك البرج الخشب
وأغلق عليه باب البرج ، فأطلقوا في البرج النار ،
فخرج منه السلطان وألقى نفسه في البحر وصار
يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو
يقول : « خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن
كيفا » ... فلم يغثه أحد وبقي على ذلك حتى قتل
في ذلك اليوم المقدم ذكره ، فمات حريقا قتيلا
غريقا ، فطلعوا به من البحر فبقى مرميا على شاطئ
البحر ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم دفن في بعض جروف
البحر ولم يعلم له قبر .

ثم ان المماليك نهبوا جميع ما كان في الوطاق
من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، واستمر
السباط في ذلك اليوم ممدودا حتى تخطفتة
الكلاب ولم يع أحد له ، فكانت مدة سلطنة الملك
المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين
أيوب نحو أربعين يوما ، ولم يدخل الى مصر ولا
جلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، ولا حكم
بالقاهرة ، فكانت قتلته في يوم الاثنين كما تقدم .

وهو آخر من تولى السلطنة بمصر من بنى
أيوب ، وبه انقرضت دولة بنى أيوب ، وكانت مدة
دولتهم — من حين تولى الملك الناصر صلاح الدين
يوسف الى أن قتل الملك المعظم توران شاه —
نحو ست وثمانين سنة الا أشهرها ، وزالت دولتهم
كأنها لم تكن بمصر .

قيل لما قتل توران شاه رجعت الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وطلعوا الى قلعة الجبل ، فوقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة شجرة الدر عوضا عن توران شاه ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة معها ... فسلطنوها وتحالفوا على ذلك ، وهذا لم يقع قط بالديار المصرية ، ولا سمع بأن امرأة قد تسلطت بها .

شجرة الدر

هى شجرة الدر ، زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى أم ولده خليل ، فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب ، وقع الاتفاق على سلطنتها ، فتسلطت فى ثانى شهر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب .

فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف السنية على الأمراء ، وفرقت الاقطاعات الثقال على الممالك البحرية ، وأغدقت عليهم بالأموال والخيول ، وأرضتهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت الناس عنها راضية ، وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة ، وكان لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورتها فيما تريد ، وكانت تكتب على المراسيم فى العلامة بخطها « والدة خليل » .

فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر ، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

قال الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى : « فلما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد ، أن أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد لأمرء مصر : أعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ؟ وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار ، وهددهم وأمرهم بالرجوع عن ذلك ... » . وقد قال القائل :

النساء ناقصات عقل ودين
ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله
تعالى من النساء نبيا

فلما بلغ شجرة الدر ذلك خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير كره لها ، فكانت مدة سلطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر الا أياما . وكانت تدبر أمور المملكة بالديار المصرية فى حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، فسلطنوها لحسن تدبيرها للأمور ، وسياستها للرعية ، وجعلوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر ومشاركها فى أحوال المملكة ، فكان لا يتصرف فى شئ من الأمور الا برأيها ... فلما خلعت نفسها من السلطنة أشار القضاة والأمراء بأن يولوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى السلطنة ، وأن يتزوج بشجرة الدر فتزوج بها ، ثم تولى السلطنة بعد خلع شجرة الدر ، فكان أول من تولى من ملوك الترك .

دولة الأتراك

المعز أيبك التركمانى

الشريك ، وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة على الدنانير والدراهم باسمهما ، فلم يسع أيبك الاحتمال .

واستمر أيبك ويوسف المذكور شريكين فى السلطنة حتى قويت شوكة المعز أيبك ، وأنشأ له ممالك ، وأقام له عصابة ، فعزم رأيه على أن يقبض على الأمير فارس الدين أقطاي — وكان رأس الممالك الصالحة — فطلبه وقت الظهر ، فلما طلع الى القلعة أكنن له كميناً وراء قاعة الأعمدة وقرر معهم اذا مر بهم الأمير فارس الدين يقتلونه من غير معاودة . فلما مر بهم ووصل الى باب قاعة الأعمدة وثب عليه الممالك المعزية ، فأذاقوه كأس المنية .

فلما قتل الأمير فارس الدين أمر الملك المعز أيبك بغلق باب القلعة . فلما شاع بين الناس قتل الأمير فارس — وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة — ركب سائر خشداشيينه — وكانوا نحو سبعمائة انسان — فلما أن طلوعوا الى الرميطة وأحاطوا بالقلعة ، رمى اليهم الملك المعز برأس الأمير فارس الدين أقطاي من فوق سور القلعة ، فلما تحقق خشداشيينه قتله انقضوا خائبين ، وخرجوا على حمية ، نحو البلاد الشامية ، وهم الأمير بيبرس ركن الدين البندقدارى ، والأمير قلاون الألفى ، والأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، والأمير سكن ، والأمير برمق .

فلما قصدوا أن يخرجوا الى البلاد الشامية ، وجدوا أبواب القاهرة مغلقة ، فتوجهوا الى باب

كان أولهم المعز أيبك التركمانى الصالحى النجمى ، كان أصله من ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب فأعتقه ، ثم صار أميراً فى حياة أستاذه الملك الصالح ، ثم بقى أتابك العساكر بعد قتل الملك المعظم توران شاه ثم بعد خلع شجرة الدر . تولى الملك بالديار المصرية فى يوم السبت تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) وركب بشعاره وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى ، وجلس على سرير الملك وجميع الأمراء قبلوا الأرض بين يديه ولقبوه بالملك المعز .

فلما تم أمره فى السلطنة تقلب عليه الممالك الصالحة ، وقالوا لا بد لنا من واحد من ذرية بنى أيوب نسلطنه — وكان المتكلم يومئذ من الأمراء الأمير بلباي الرشيدى ، والأمير فارس الدين أقطاي ، والأمير بيبرس ركن الدين البندقدارى ، والأمير سنقر الرومى وغير ذلك جماعة من الممالك البحرية — فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز أيبك بأن يحضروا بشخص من بنى أيوب ، يقال له مظفر الدين يوسف من أولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق — وكان عند عماته ببلاد الشرق — فأرسلوا خلفه ، فلما حضر من البلاد سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف . وكان له من العمر نحو عشرين سنة ، فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك التركمانى من السلطنة ، بل صار معه مثل

القراطين ، فأحرقوه بالنار وخرجوا منه هاربين ، فسمى من ذلك اليوم باب القراطين . فلما بلغ المعز هروبهم أمر بالحوط على موجودهم . فلما خمدت تلك الفتنة ، وتشتت الأمراء الذين كان يخشى منهم المعز ، فعند ذلك قبض على الملك الأشرف يوسف الذى كان شريكه فى السلطنة وسجنه بالقلعة ، وانفرد بالسلطنة وحده .

سنة أربع وخمسين وستمائة (١٢٥٦ م) :

فيها أرسل الملك المعز أيبك يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فلما بلغ ذلك شجرة الدر تغيرت على المعز أيبك وتغير هو أيضا عليها ، لأنها كانت تمن عليه فى كل وقت وتقول له : « لولا أنا ما وصلت أنت الى السلطنة » ... وكانت قد منعت من الاجتماع بزوجه أم ولده الأمير على ، حتى انها ألزمته بطلاقها منه بالثلاث . وكانت شجرة الدر تركية الجنس ، صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة ، سكرانة من خمر العجب والتهيه كما قيل فى المعنى :

كتب القتل والقتال علينا

وعلى الغايات جر الذبول

فلما صار أيبك معها فى غاية الضنك حق منها يوما ونزل الى مناظر اللوق وهو غضبان ، وكانت مناظر اللوق مكان الأزيكية الآن ، وكانت مطلة على بحر النيل . فلما نزل أيبك من القلعة أقام بمناظر اللوق أياما وهو غضبان ، فأرسلت اليه شجرة الدر وهى تتلطف به حتى سكن غضبه وقام وطلع الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يده على غير عادة منها ، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له سوء فندبت له خمسة من الخدام الخصى الروم وقالت لهم : اذا دخل الى الحمام فاقتلوه . فلما

طلع الى القلعة اصطلى مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الى الحمام ، فلما صار هو وشجرة الدر بها دخل عليه أولئك الخدام وبأيديهم السيوف ، فقام أيبك وقبل شجرة الدر واستغاث بها ، فقالت للخدام : « اتركوه » ... فأغلظ عليها بعض الخدام فى القول ، وقال لها : « ان تركناه حيا فلا يبقى عليك ولا علينا » ... فقتلوه فى الحمام خنقا ، وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما مات حملوه وأخرجوه من الحمام وأشاعوا أنه قد أغمى عليه من الحمام فوضعه على فراش الحمام ، وكان ذلك فى ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين الناس ، فركب ابنه الأمير على والمماليك المعزية ، فلما طلغوا الى القلعة وتحققوا قتله شرعوا فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى القرافة . ثم قبض ابنه على شجرة الدر ، وسلمها الى أمه فأمرت جواريتها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال ، فضربنها بها حتى ماتت وفارقت الدنيا ... فكانت كما قيل فى الأمثال :

واقنع اذا حاربت بالسلامة

واحذر فعلا توجب الندامة

فالتاجر الكيس فى التجارة

من خاف فى متجره الخسارة

فلما ماتت شجرة الدر سحبوها من رجلها ورموها من فوق السور الى خندق وهى عريانة ، فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن حتى قيل أن بعض الحرافيش نزل الى الخندق تحت الليل وقطع دكة لباسها لأنها كانت من حرير أحمر ، وقيها كرة من لؤلؤ ، ونافجة مسك ... فسبحان من يعز ويذل كما قيل فى المعنى :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم بعد ثلاثة أيام حملت ودفنت بتربتها التي
يتريق السيدة نفيسة بجوار بيت الخلفاء .

وكانت شجرة الدر أصلها من جوارى الملك
الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها في أيام أبيه
الملك الكامل محمد فحظيت عنده واستولد منها
ابنه خليلاً ثم أعتقها وتزوج بها . وكانت معه في
البلاد الشام مدة طويلة لما كان مستولياً على
الشام ، فلما قدم إلى الديار المصرية وتسلطن ،
عظمت شجرة الدر في دولة أستاذها الملك
الصالح ، وصارت تدبر أمور المملكة عند غياب
الملك الصالح في الغزوات .

وكانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها
معرفة تامة بأحوال المملكة . وقد نالت من العز
والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها . وقد
أقامت في السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وخطب
باسمها على منابر مصر وأعمالها ، ونفذت
مراسيمها في الآفاق بعاملتها ، وكانت علامتها على
المراسيم « والدة خليل » . وكانت كثيرة البر
والصدقات ، ولها أوقاف على جهات خير
وصدقة . وكانت قتلها في يوم الثلاثاء الخامس
والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وخمسين
وستمائة (١٢٥٨ م) .

وأما الخدام الذين قتلوا المعز أيك التركماني
فهرب بعضهم إلى بلاد الشرق ، وصلب بعضهم
على باب القلعة وأقام أياماً . وكان الملك أيك
التركماني رجلاً عاقلاً حليماً نظر في مصالح الرعية
في أيامه . وكان كفواً للسلطنة ودفع العدو ، وكان
يحب الجهاد في سبيل الله تعالى مع الأفرنج .
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد

الشامية سبع سنين ، منها مدة انفراده بالسلطنة
خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكانت مدة الأشرف
يوسف الذي هو من بني أيوب الذي شارك أيك
في السلطنة سنة وأشهرًا .

وأيك هذا هو أول ملوك الترك . ولما قتل
تولى من بعده ابنه نور الدين على .

ومن الأبيات اللطيفة التي تتضمن أسماء ملوك
الترك والجراكسة — دون أسماء أولادهم —
من تولى السلطنة بالديار المصرية ، وهم على
الترتيب من مبتدأ دولتهم إلى الآن ، وهي هذه :

أيك ، قطز ، يعقبا بيرس ذو الكمال
بعد قلاون بعد كتبغا المفضل
لاجين ، بيرس ، برقوق شيخ ذوالأفضال
ططر ، برسباي ، جقمق ذو العلا ، اينال
وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال
تمريغا ، قاييتباي الفحل ذو الاقبال
وقانصوه ، جنبلا ط عنهما أقوالى
وبعدهم جاء طو من باي بالاقبال
وقانصوه بعده ذا مظهر الأحوال

الملك المنصور

هو الملك المنصور ، نور الدين على ، ابن الملك
المعز أيك التركماني الصالحى ، وهو الثانى من
ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى
السلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز أيك التركماني
يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة
خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) ، وكان له
من العمر لما تولى السلطنة إحدى عشرة سنة ،
وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير علم الدين
سنجر الحلبي ، وكان الوزير يومئذ شرف الدين
ابن صاعد الفائزى ، وكان قد وزر لأبيه المعز

أيضاً ، وكان اسمه هبة الله ، وكان أصله من أبناء القبط ، فأسلم في دولة الملك الكامل محمد ، وما زال يرقى الى أن بقى وزيراً بالديار المصرية في دولة الملك المعز أيبك التركماني ، ثم وُزر لابنه الملك المنصور على .

فلما تم أمر الملك المنصور على في السلطنة ، استقر بالأمر سيف الدين قطز المعزى ، نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس ، صعب الخلق ، فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله ، وصادره وأخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة ، وخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير ، واستقر به وزيراً عوضاً عن هبة الله .

ومن الحوادث في أيام الملك المنصور على هذا أن في سنة ست وخمسين وستمائة ، في خامس جمادى الآخرة ، جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه قد ظهر في التاريخ نار بوادي شطا شرقي المدينة ، وأنها يخرج منها شرر يأكل الحجارة . وقيل انه قبل ظهور هذه النار بخمسة أيام وقع بالمدينة زلزلة عظيمة ، وسمعوا أصواتاً من السماء مزعجة . ولم تزل هذه النار مستمرة ليلاً ونهاراً نحو شهر ، فكان طول هذه النار أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال ، فصارت تأكل الحجارة حتى تصير مثل الفحم الأسود . قال الشيخ عماد الدين ابن كثير : « أخبرني الشيخ صدر الدين علي التميمي الحنفي ، قال : أخبرني والدي الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة البصري أنه رأى وهو بالبصرة صفحات أعناق الابل في الليل المظلم من ضوء تلك النار التي ظهرت بالمدينة » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ان أهل المدينة لما رأوا تلك النار قد زاد أمرها تضرعوا الى الله تعالى ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ،

وتصدقوا بالأموال على الفقراء ، ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم تلك النار بعد ما أقامت نحو شهر وهي تفور . وفي ذلك يقول القائل :

بحر من النار تجرى فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض ارساء
منها تكاثف في الجو الدخان الى
أن عادت الشمس منه وهي دهماء
يرمى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
فيها آية من معجزات رسو
ل الله قد ظهرت والقوم أحياء

يشير الناظم الى ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء منها أعناق الابل بيمرى » رواه في آخر كتاب الفن في باب خروج النار .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في تاريخه : ان في دولة الملك المنصور على بن أيبك هذا ، كان استيلاء هلاكو على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخراب بغداد وقتل أهلها . ثم قصد التوجه الى حلب وأخذ البلاد الشامية ، فعدى من الفرات في عسكر لا يحصى عدده . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى من هلاكو ، وقد أرسل ابنه في عسكر عظيم الى حلب ، وقد استولى على نائب ضياع حلب .

فلما تحقق الأتابكي قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع سائر الأمراء والقضاة ومشايخ العلماء — وكان المشار اليه في ذلك المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه ، وكان من أكابر علماء الشافعية ، وقد تلقب بسلطان العلماء —

فأعتقلوه ببرج السلسلة بشجر دمياط ، فأقام في
البرج الى أن مات هناك ، ودفن بشجر دمياط بعد مدة
طويلة وهو في البرج ، فكانت مدة سلطنته بالديار
المصرية سنتين وثمانية أشهر ، وكانت أيامه كلها
قتن وشور .

ومن الحوادث في أيامه أن في سنة ست
 وخمسين وستمائة ، في رابع شهر رمضان ، وقعت
احدى المسلتين اللتين بأراضى المطرية . يزعم
الناس أنهما مسلتا فرعون ، وكاتتا اثنتين ، فلما
وقعت احدهما وجدوا في قلنسوتها نحو مائتى
قنطار نحاس أصفر ، ووجدوا في داخل تلك
القلنسوة عشرة آلاف دينار كل دينار وزنه
أوقية من الذهب الأكسير الجيد ، فحمل الى
الخزائن الشريفة ... ذكر ذلك الشيخ شمس
الدين محمد بن ابراهيم الجزرى في تاريخه كما
شرح هناك .

وأما من توفي في أيام الملك المنصور على ابن الملك
المعز أيبك التركمانى من الأعيان فهم : الشيخ زكى
الدين عبد العظيم المنذرى ، والشيخ القطب
العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة والحقيقة
الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، ودفن
بصحراء عيذاب من أعالي الصعيد الأعلى . وتوفي
الشيخ شعلة شيخ القراءات ، وتوفي الفاسى
المغربى المالكى ، وتوفي الشيخ سعد الدين بن
العربى صاحب النظم الرقيق ، وتوفي الصرصرى
صاحب الديوان اللطيف ، وتوفي ابن الأبار
المؤرخ ، وغير ذلك من أعيان العلماء وأعيان
الناس .

ومن انشاء المعز أيبك المدرسة المعزية المطلة
على بحر النيل عند رحبة الحناء عند مصر
العتيقة .

فلما تكامل ذلك المجلس من الأمراء وأعيان الدولة
والقضاة ومشايخ العلماء قام مدع في ذلك المجلس
وذكر هيئة سؤال في أمر هلاك واستيلائه على
البلاد ووصوله الى حلب ، وأن بيت المال خال
من الأموال ، وقد وصل العدو ، وطمع في أخذ
البلاد ، والسلطان صغير السن ، وضاعت مصالح
الرعية ، وأن الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير
تحشاه الناس ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج
الى المساعدة بشئ من أموال الرعية لاقامة الجند
وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك ... فأجاب
الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه في
ذلك المجلس وقال : « اذا طرق العدو البلاد وجب
على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من
أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على
تجهيزه العسكر لدفع العدو ... لكن بشرط
ألا يبقى في بيت المال شئ من السلاح والسروج
الذهب والفضة والكبايش الزركش وأسقاط
السيوف الفضة وغير ذلك ، وإن كلا من الجند
يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوى
في ذلك بقية العامة وقت القتال . وأما أخذ
أموال التجار والرعية - مع وجود ما في بيت المال
من السلاح والقماش - فلا يجوز ، لأنه من باب
أخذ أموال الرعية بغير حق » .

ثم ان الأمراء تكلموا مع القضاة في اقامة
سلطان كبير لدفع العدو ، فوقع الاختيار من
الأمراء والقضاة على خلع الملك المنصور على ابن
الملك المعز أيبك التركمانى ، وأن يسلطنوا الأتابكى
قطز . فعند ذلك خلعوا الملك المنصور على من
السلطنة وولوا الأتابكى قطز .

وكان الملك المنصور على طائش العقل ، يلعب
بالحمام مع أولاد الغلمان ، وكانت أمه تدبر أحوال
السلطنة . فلما خلعه من السلطنة أرسلوه وهو
مقيد الى ثغر دمياط وأرسلوا معه اخوته وأمه ،

الملك المظفر

هو الملك المظفر ، سيف الدين قطز المعزى ، وهو الثالث من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وكان أصله من ممالك المعز أيك التركمانى ، ورقى في دولة أستاذه الملك المعز ، ثم صار في دولة ابن أستاذه الملك المنصور على أتائبك العساكر . فلما خلع الملك المنصور على ، وقع الاختيار على سلطنة الأتابكى قطز المعزى ، فتسلطن في يوم السبت سابع عشر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة (١٢٥٩ م) . فلما تسلطن وتم أمره في السلطنة قبض على جماعة من خشداشيينه من الأمراء والخدام وأرباب الدولة وغير ذلك من الأعيان وأرسلهم الى الجبوس بشجر دمياط والاسكندرية . فلما فعل ذلك استقامت أموره في السلطنة ، وصفا له الوقت ، وأنشأ له عصابة من الأمراء ، فخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض اليه جميع أمور المملكة ، وانحصرت فيه الكلمة .

ثم جاءت الأخبار بأن جاليش عسكر هلاكو ملك التتار قد وصل الى أطراف دمشق ، ونهبوا البلاد وقتلوا العباد وأطلقوا فيهم الزناد ، وكان ذلك في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) . فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت وماجت بأهلها ، وقد بلغهم ما فعله هلاكو في بغداد وقتله للخليفة المستعصم بالله ، وما جرى منهم في حق أهل بغداد من القتل والنهب وخراب البلاد كما تقدم .

ثم ان أميرا من أمراء هلاكو الذين وصلوا الى دمشق يقال له كتبغا حضر الى الملك قطز ، وصحبته

أربعة من التتار ومعهم كتاب من عند هلاكو ، وكان مضمونه : من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ... ونعت فيه نفسه بألفاظ معظمة ، وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على أهلها منه ... وأرسل يقول : « يا أهل مصر أتنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلوني أبدا فتندموا » .

وشرع يذكر في كتابه أشياء كثيرة من هذه الألفاظ الفاحشة اليابسة ، فلما أن سمع الملك المظفر قطز مضمون ما في كتاب هلاكو أحضر الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر هلاكو ، فقال الأمراء : نجمع العساكر من سائر البلاد ونخرج اليه ونقاتله أشد ما يكون من القتال .

ثم ان الملك المظفر قطز نادى في القاهرة بأن النفير عام الى الغزو في سبيل الله تعالى . ثم انه عرض العساكر ، وأرسل خلف عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى . ثم انه أخذ في أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر و أنثى دينارا واحدا ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهرا واحدا ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان ، وبرز خيامه الى الريدانية .

فلما كان أواخر شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل وهو في موكب عظيم . فلما نزل بالريدانية ،

امر بتوسط كتبغا فويزيك — أمير هلاكو — ومن كان معه من التتار ، ثم رحل من الريدانية ونزل بمنزلة الصالحية ، وأقام بها الى أن تكامل العسكر ، ثم رحل من الصالحية ، وجد في السير الى أن وصل الى عين جالوت من أرض كنعان ، فتلاقى هناك عسكر هلاكو وعسكر السلطان قطز ، فكانت بينهما ساعة تشيب فيها النواصي ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده ، فكانت الكسرة على التتار ، فكسروهم وشتتوهم الى بيسان ، وكان ذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الأولى ، فقتل من التتار نحو النصف ، وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك .

فلما جرى ذلك توجه السلطان قطز الى نحو الشام ، فدخلها في موكب عظيم ، وجلس للحكم ، فخلع على الأمير سنجر الحلبي واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير علاء الدين ابن صاحب الموصل واستقر به نائبا ، ثم انه أخذ في أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدي أولاد بني أيوب — وكان غالبها في أيديهم — فمهد البلاد الشامية والحلبية وولى من يختار من عصبته من الأمراء . ثم بعد ذلك قصد التوجه نحو الديار المصرية . فلما خرج من دمشق ووصل الى قريب من أرض الصالحية ، اتفق الأمراء على قتله فكان كما قيل في الأمثال :

لا تغترر بالحفظ والسلامه
فانما الحياة كالمدا
والعمر مثل الكأس والدهر القدر
والصفو لا بد له من الكدر

وكان المشار اليه في ذلك الوقت من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري . فلما السلطان قطز الى القرين ، ركب السلطان الفضاء ، فرأى أربابا فساق خلفه وساق معه — وكان فيهم الأمير بيبرس البندقداري — ساق دنا منه الأمير بيبرس ليقبل يده — السلطان قطز قد أنعم عليه بجارية مليحة من التتر — فظن قطز أنه جاء يقبل يده بسبب ذلك فلما مد يده اليه قبض عليه وضربه بالسيف ، و عليه بقية الأمراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتا على الأرض ، ثم ساقوا وهم شاهرون سب الى أن وصلوا الى الوطاق ، فجلس الأمير يد على مرتبة السلطان قطز ، وأخذ المملكة بالة فشق ذلك على جماعة من المماليك الأمراء السلطان قطز قتل من غير ذنب ، وكان خيار الترك ، وله اليد البيضاء في قيامه لدفع التتار البلاد الشامية وقد أشرفوا على الدخول الى المصرية .

وكان قتل الملك المظفر قطز في اليوم الخ عشر من ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستة ودفن هناك في مكان قتله بالقرين . وقيل نقل ذلك ودفن في مدرسته التي بالقرب من الشيخ خلف . وكانت مدة سلطنته سنة الا ثم تولى من بعده الأمير بيبرس البندقداري

الملك الظاهر

هو الملك الظاهر ، ركن الدين بيبرس ، العلا البندقداري الصالحى النجمي . وهو الرابع ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، ثم بعد قتل الملك المظفر قطز في يوم السبت الخ عشر من ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستة وتلقب بالملك القاهر أبى الفتوحات .

فلما تلقب بالملك القاهر عز ذلك على جماعة من العلماء ، فقال صاحب زين الدين بن الزبير : « ما تلقب أحد بهذا اللقب فأفْلَح . ولقد تلقب به جماعة من الملوك فلم تطل أيامهم » . فلما سمع ذلك ترك ذلك اللقب وتلقب بالملك الظاهر بيبرس . وكان أصله تركي الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الضائع ، ثم بعده اشتراه منه الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري . فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب واحتاط على موجوده ، أخذ بيبرس من جملة الموجود . ثم ان الملك الصالح أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

وكان بيبرس هذا شجاعا بطلا ، أظهر في يوم وقعة الافرنج التي كانت في المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه من الشجاعة ما لا يسمع بمثله ... فلا زالت الأقدار تساعد حتى بقى أتابك العساكر في أول دولة الملك المظفر قطز . فلما قتل قطز بقى بيبرس سلطانا كما تقدم ، فلما جلس على مرتبة السلطان قطز قبل له الأمراء الأرض وحلفوا ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يشبوا عليه ، وذلك الحلف على المصحف الشريف . ثم أحضر خلعة وخلع على الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه .

فلما تم أمره في السلطنة قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فدخل القاهرة في الليل ، وطلع الى قلعة الجبل . فلما طلع النهار نادى المنادى في مصر والقاهرة : « ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقداري » .

وكانت القاهرة قد زينت لقدم الملك المظفر قطز ... فلما تحقق الناس قتل الملك المظفر قطز ، حزنوا عليه لأنه قتل من غير موجب ، وكانت له

الراية البيضاء في قبامه لدفع العدو عن البلاد ، وكان التتار قد أشرفوا على الدخول الى مصر .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب بقلعة الجبل ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأتابكي فارس الدين أقطاي المستعرب واستمر أتابك العساكر كما تقدم ، وخلع على الأمير لاجين الدرفيل واستقر به دوادارا كبير ، وخلع على الأمير بلباي الرشيدى واستقر به دوادار ثانيا ، وخلع على الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى واستقر به أمير أخور كبيرا ، وخلع على الأمير أيك الأفرم الصالحى واستقر به أمير جاندار .

وأنعم على الأمير بدر الدين اليسرى الشمسى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بدر الدين بكتوت المعزى الجوكندار بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير عز الدين بيدغان — المعروف بسم الموت — بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بلبان الهارونى بتقدمة ألف .

وخلع على الأمير جمال الدين أقوش النجيبى واستقر به استادار العالية ، وخلع على الأمير ركن الدين اياجى ، والأمير سيف الدين بكجى واستقر بهما حجابا ، ثم فصل صاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة ، واستقر بالصاحب بهاء الدين بن حنا وزيرا بالديار المصرية . والصاحب بهاء الدين بن حنا هذا هو الذى بنى مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيل ، واشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال وأودعها في ذلك المكان الذى أنشأه على بحر النيل ، وصارت الناس يقصدون ذلك المكان بسبب الزيارة في كل يوم أربعاء .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب ، وخلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه جميع أحوال

المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تذكرته ان الأمير بيليك هذا كان أصله من ممالك الظاهر بيبرس ، اشتراه صغيرا ورباه من حين كان الملك الظاهر أمير عشرة ، واستمر فى خدمته الى أن بقى الملك الظاهر سلطانا فخلع على الأمير بيليك واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وصار ينفذ الأمور من غير مشورة السلطان .

قيل ان التاجر الذى باع الأمير بيليك الى الملك الظاهر بيبرس كان فى سعة من المال والتجارة ، فدارت عليه الدوائر حتى افتقر وصار من جملة الحراقيش ، فلما دخل الى القاهرة قال له التجار ان مملوكك بيليك الذى بعته للملك الظاهر بيبرس قد صار عزيز مصر ، وأقبلت عليه الدنيا ، فلو أنك تدخل اليه وتذكر له حالك وما صرت اليه من الفقر فعسى ينعم عليك بشيء من الدنيا تستعين به على جور الزمان ... فكتب قصته ورفعها الى الأمير بيليك ، وكان من مضمون تلك القصة هذان البيتان :

قد صرت ، من بعد عز ، فى الهوان وقد
جار الزمان بضيق نلت منه أذى
والآن أقبلت الدنيا عليك كما

ترضى : فلا تنسنى ... ان الكرام اذا
فلما قرأها الأمير بيليك قال : « من رفع هذه
القصة ؟ » . ف قيل له : « هذا التاجر الذى
باعك للسلطان » ... فلما رآه قام اليه واعتنقه
وأجلسه الى جانبه ، فشكا اليه التاجر ما قد جنى
عليه الزمان بجوره ، فأنعم عليه الأمير بيليك بعشرة
آلاف دينار وخلعة وفرس .
ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الظاهر بيبرس .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم باحضار الممالك
البحرية الذين كانوا منفيين فى البلاد ، ثم أرسل
عدة مكاتبات الى سائر من فى البلاد من النواب
وأخبرهم بما قد جدد الله تعالى له من الملك ، وطلب
منهم بذل الطاعة ، فأجابوه بالسمع والطاعة .

ثم ان الملك الظاهر لما ثبت فى السلطنة أراد أخذ
خواطر الرعية بالأفعال المرضية ، ليمحو ما جناه من
السيئات ، وتعود مكانها الحسنات ... فأبطل جميع
ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم
عند خروجه الى تجريدة التتار ، وكتب به مساميح ،
وقرئت على منابر مصر والقاهرة ، فطابت اليه نفوس
الرعية ، وضجوا له بالأدعية السنية ، فطابت به
مصر ورق الهواء ، ومشى الذئب والشاة سواء .
وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر

الا الذى فى عيون الغيد من حور

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن
نائب الشام سنجر الحلبي الذى كان الملك المظفر
قطز ولاه نيابة الشام قد خرج عن الطاعة ، وأظهر
العصيان ، وجمع أمراء دمشق وقبلوا له الأرض ،
وركب فى دمشق بشعار السلطنة وتلقب بالملك
المجاهد ، وكتب بذلك الى سائر أعمال البلاد
الشامية ، وخطب باسمه على منابر دمشق وأعمالها .
وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبي هذا ، لما
ثقل أمره على الناس فى دولة الملك المنصور على
ابن أيبك التركمانى ، قبض عليه الملك المظفر قطز
قبل أن يلى السلطنة وسجنه مدة فى الاسكندرية ،
ثم أفرج عنه واستقر به نائب الشام . فلما قتل
الملك المظفر قطز وتولى الملك الظاهر بيبرس ، كما
تقدم ، أظهر الأمير سنجر العصيان وتسلمن بالشام .
فلما بلغ الظاهر بيبرس ما وقع من الأمير سنجر كتب
اليه كتابا يوبخه فيه بقبائح فعله ، وأمره بالرجوع

عن ذلك ، فعادت الأجوبة بالمخالفة وعدم الطاعة ، وقد وافقه على العصيان جماعة من النواب ، واضطربت أحوال البلاد الشامية والحلبية في أوائل دولة الملك الظاهر بيبرس ... منها ما أفسده عسكر هلاكو من نهب البلاد وقتل العباد ، ومنها عصيان النواب وسلطنة سنجر . واضطربت أحوال الملك الظاهر في أوائل دولته ، ووئب عليه المماليك المعزية ، فقبض على جماعة من الأمراء المعزية والمماليك ، وقتل منهم جماعة ، ونفى منهم جماعة ، حتى صفا له الوقت من الكدر وأمن الحذر .

سنة تسع وخمسين وستمائة (١٢٦١ م) :

في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب حضر من بغداد الى الديار المصرية شخص من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد . وهو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي الهاشمي . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى تلقيه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام أحمد العباسي ، وكان الامام أحمد هذا أسمر اللون ، وأمه أم ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ، ونزل الامام أحمد عن فرسه ، واعتنقا ثم ركبا ومرا في القاهرة ، ودخلا من باب النصر ، فزينت له القاهرة ، وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام أحمد مع السلطان الى القلعة ، فأنزله السلطان في قاعة الأعمدة ، فأقام بها أياما .

ثم ان الملك الظاهر قصد أن يثبت نسبا للامام أحمد بأنه من ذرية بنى العباس ، فان الخلافة كانت شاغرة من حين قتل الخليفة المستعصم بالله في سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان قدوم الامام أحمد الى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الأشهر .

فأمر الملك الظاهر بعقد مجلس في قاعة الأعمدة ، وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الأولياء وسائر الأمراء وأرباب الدولة ، وكان في صدر المجلس المشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام رضى الله عنه .

فلما تكامل المجلس ، تأدب الملك الظاهر مع الامام أحمد ، وجلس بين يديه بغير مرتبة . ثم ان السلطان أمر باحضار العربان الذين حضروا صحبة الامام أحمد من بغداد — وكان فيهم طواشي من بغداد — فشهدوا كلهم بين يدي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن بنت الأعز بأن الامام أحمد هذا هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، المتصل بالنسب الى العباس رضى الله عنه ... فثبت ذلك على يدي قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وسجله على نفسه وحكم بصحة ذلك .

فلما ثبت نسب الامام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة ، وفوض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها وما سيفتح عليه من البلاد الكفرية .

فلما كان يوم الجمعة أمر السلطان الامام أحمد بأن يخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع ، فخطب الامام أحمد خطبة بليغة ، وأثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي رد الخلافة لبني العباس .

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة خرج الملك الظاهر الى نحو أرض المطرية ، وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسي والأمراء بين يديه . ثم ان القاضي فخر الدين بن

لقمان كاتب السر الشريف نصب له هناك منبراً وصعد عليه ، وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر . فلما فرغ من قراءته أحضروا للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة ، وهي جبة سوداء بطوق ذهب ، وعمامة سوداء بعذبة ذهب ، وسيف بداوى متقلد به حمائل . فلما لبس خلعة السلطنة ركب فرساً برز بسرج ذهب وكنوس ، ودخل القاهرة من باب النصر ، ومر بالمدينة وقد زينت له ، وهو لا لبس شعار السلطنة كما تقدم ، والأمراء جميعهم مشاة بين يديه ، والصاحب بهاء الدين بن حنا حامل التقليد على رأسه حتى طلع إلى القلعة . وكان يوماً مشهوداً لم يسمع بمثله . ثم إن السلطان كتب إلى سائر أعمال مملكته يأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة المستنصر بالله أحمد ، وهو أول خليفة بايع الملوك الترك بمصر . ثم إن السلطان أخذ في أسباب تجهيز الامام أحمد وعوده إلى بغداد ، فأقام له برك عظيم ، وعين معه عسكرياً ، فكان جملة ما أنفقه الملك الظاهر على تجهيز الامام أحمد من المال مائة ألف دينار وستين ألف دينار .

فلما انتهى شغل الامام أحمد ، ودع السلطان ونزل من القلعة ، فنزل السلطان معه إلى المطرية وسائر الأمراء ، فودع السلطان الامام أحمد وعاد إلى القلعة ، وسار الامام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية . فلما وصل إلى الفرات بلغ قرابغا أمير التتار الذي استخلفه هلاكو على بغداد مجيء الامام ومعه عساكر السلطان ، فخرج إليه قرابغا في عسكر ثقيل من التتار ، فتلاقى العسكران على مكان يسمى الأنبار ، فحمل عسكر السلطان على التتار فكسروهم كسرة قوية ، وهرب التتار ... فلما دخل الليل هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا بهم

فما نجا منهم الا من طال عمره ، ونهبوا ما كان معهم من سلاح وخيول ومال . وأما الامام أحمد فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر . فمن الناس من يقول انه قتل تحت الليل وقت الكبسة ، ومن الناس من يقول انه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقام عندهم أياماً ومات ... والله أعلم . وكانت هذه الواقعة في أواخر سنة تسع وخمسين وستمائة .

فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما جرى للامام أحمد ، تأسف الملك الظاهر بيبرس على ذلك غاية الأسف ، وراح ما صنعه في البارد ، فكان كما قال الشاعر في المعنى وأجاد :

أنفقت كنز مدائحي في ثغره

وجمعت فيه كل معنى شارد

وطلبت منه جزاء ذلك قبلة

فأبى ، وراح تغزلى في البارد

سنة ستين وستمائة (١٢٦٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن شخصاً من ذرية بني العباس يقال له الامام أحمد أيضاً قد وصل إلى الديار المصرية ، فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج إلى تلقيه ، فلاقاه من الريدانية ، وصعد به إلى القلعة وأنزله بالبرج الكبير الذي بالقلعة . وكان هذا الامام أحمد الثاني مستخفياً عند جماعة من العرب في قرية من أعمال بغداد ، فسبقه الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر إلى مصر . فلما قتل الامام أحمد حضر إلى مصر ، فعقد له الملك الظاهر مجلساً ثانياً ، وجمع فيه القضاة ، وفعل به كما فعل أولاً . وكان قد حضر معه الأمير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العربان ، فشهدوا بين يدي قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بأن هذا الامام أحمد هو ابن علي ، بن أبي بكر ، ابن الخليفة المسترشد ، ابن الخليفة المستظهر ، ابن الخليفة المقتدي ، ابن محمد

الذخيرة العباسي الهاشمي ... فثبت ذلك على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وحكم بصحة ذلك .

ثم ان القضاة بايعوا الامام أحمد بالخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله ، وثبت نسبه ، وتولى في ذلك المجلس الخلافة .

ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانيا ، وبايع أعيان الدولة على قدر طبقاتهم ، ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها ، وينقش على الدنانير والدرهم اسمهما ، وأن يقدم اسم الخليفة في الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه .

ثم انه أسكن الامام أحمد في مناظر الكباش التي أنشأها الأمير أحمد بن طولون ، وكانت مناظر الكباش مطلة على بحر النيل . ورتب له ما يكفيه في كل يوم هو وعياله ، وأمره بأن يصعد الى القلعة في أول كل شهر ويهنئ السلطان بالشهر ... فهو أول خلفاء بني العباس بمصر ، وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر ، فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد الى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس ، وهذا من جملة فضائله .

وقد ورد في بعض الأخبار أن الخلافة لا تزال في بني العباس حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فتنتقطع بعد ذلك . قال بعض الشعراء في حق الملك الظاهر بيبرس :

ياأسد الترك ، وياركنهم

ويا آخذ الثأر بعد المخافه

كسرت الطغاة ، جبرت العفاة

قطعت الفرات ، وصلت الخلافة

ثم ان الملك الظاهر — لما استقرت الخلافة بمصر — جعل لكل مذهب من المذاهب قاضيا كبيرا

وتحت يده نواب ، وكان قبل ذلك في الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعي . وكان يولى من تحت يده نوابا من المذاهب الثلاثة . وآخر من كان يفعل ذلك قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي ، فأبطل ذلك الملك الظاهر بيبرس ، وقرر لكل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا ، فهو أول من قرر القضاة أربعة ، وجعل لمصر نوابا وحدها ، وللقاهرة نوابا وحدها ، وكان ذلك في أواخر سنة ستين وستمائة .

سنة احدى وستين وستمائة (١٢٦٣) : فيها رتب السلطان لعب القبق . وفيها وقع الغلاء بمصر ، وشح النيل حتى عدت الأقوات ، فأمر السلطان بجمع الحرافيش كلهم — وكانوا نحو ألفي حرفوش — ففرقهم على الأمراء ، وأخذ لنفسه منهم جانباً ، وأضاف لولده الملك السعيد منهم جانباً ، وأضاف الى الأمير بيليك نائب السلطنة منهم جانباً ، ورسم لكل واحد منهم في كل يوم برطل خبز ونصف رطل لحم ، وأمرهم ألا يسألوا بعد ذلك أحدا من الناس .

وفيها كانت وفاة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي شيخ الشيوخ بحماة ، وكان مولده في سنة ست وثمانين وخمسائة ، ووفاته سنة احدى وستين وستمائة ، فكانت مدة حياته خمسا وسبعين سنة . وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله في الغزل :

سبخان مورثه من حسن يوسف ما
لم يبق في الحجر لي والصبر من حصص
أقام للشعراء العذر عارضه
فكم لهم في ديب النمل من قصص

سنة اثنتين وستين وستمائة (١٢٦٤) : وفيها حضر الى الملك الظاهر بيبرس جماعة من

تسوق لها عز الفتوح جنائبا
وأول هاتيك الجنائب سيس

سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧ م) :
فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة ، وأمر
بأحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها
من الخمر وأراقها ، ومنع الخانات من الخواطي
... وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، وبرزت
المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات
الشامية ، فظهرت في أيامه سائر البقاع ، ومنع
الناس من ذلك غاية الامتناع .

ثم أحضروا اليه في أثناء هذه الواقعة شخصا
يسمى ابن الكازروني ، وهو سكران ، فأمر
بصلبه فصلب بعد حد عظيم في مستحقه ، وعلقت
الجرة والقدح في عنقه . فلما عاين أرباب المجون
والخلاعة ما جرى لابن الكازروني امتثلوا أمر
السلطان بالسمع والطاعة ، وقد قال القائل :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه
خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي :
ألا تب ، فإن الحد قد جاوز الحد

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال ، صاحب
كتاب طيف الخيال : « لما قدمت من الموصل الى
الديار المصرية ، في الدولة الظاهرية ، سقى الله من
سحب الأنعام عهدا ، وأعذب مشارب وردها ،
فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو
والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسنة .
وهزم أمر السلطان ، جيش الشيطان . وتولى
الخوان والى القاهرة اهراق الخمر ، وأحراق
الحشيش وتبديد المزور ... وشاعت بذلك
الأخبار ، ووقع الإنكار ، واختفى المسطول في
الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذى ، وصلب
ابن الكازروني وفي رقبتة نباذية ... فدعاني بعض

ملوك الشرق بهنثونه بالسلطنة ، فمنهم الملك الصالح
اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ،
وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب
الجزيرة ، وأخوه الملك المظفر ... فلما قدموا على
الملك الظاهر أكرمهم وأقرهم على ما بأيديهم من
الممالك التي في الشرق .

وفيها ختن السلطان ولده الملك السعيد محمدا ،
ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من كان
له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختن مع ابن
السلطان ... فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم
نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا ، خارجا
عن أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم
بكسوة على قدر مقام أبيه . وأما أولاد الحرافيش
فرسم لكل واحد منهم بكسوة ، ومائة درهم ،
ورأس غنم ، واستمر المهم عمالا في القلعة سبعة أيام .

سنة أربع وستين وستمائة (١٢٦٦ م) :
فيها سافر السلطان الى الشام ، وتوجه من هناك
الى صفد فافتتحها ، وعمر بها البرج الكبير ، ورجع
الى الديار المصرية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى مدينة سيس .
وكان باش العساكر الأمير عز الدين بيدغان المعروف
بسم الموت ، والأمير قلاون الأتقي ، وجماعة من
الأمراء والمماليك السلطانية ... فخرجوا من القاهرة
في موكب عظيم وتوجهوا الى نحو بلاد الشمال .
فلما وصلوا الى مدينة سيس وحاصروها أعلن أهلها
بالأمان ، ثم توجهوا الى قلعة اياس ففتحوها عدة
قلاع كانت بيد الأرمن ، ثم رجع الأمراء الى الديار
المصرية وهم في غاية النصر بهذه الفتوحات العظيمة
التي فتحت على أيديهم . وقد هنا بهذه الأبيات
بعض الشعراء الأمير بيدغان عند عودته :

بقيت مدى الدنيا جمالا لدولة
لها منك سهم في اللقا ورسيس

أصدقائي الى محله ، وأنزلني من عياله وأهله .
واعتذر الى عن تقصيره في الاكرام ، اذ لم يأتني
بمدا م . وقال قد غلب على ظني أن أبا مرة ١ قد
مات ، وعد من الرفات ... فقم بنا نكيه ، ونصف
الحالة ونرثيه . فابتدأت وقلت ، في معنى هذه
الواقعة التي وقعت :

مات يا قوم شيخنا ابليس
وخلا منه ربه المائوس
ونعاني حدى به اذ توفى
ولعمري مماته محدوس
هو لو لم يكن كما قلت ميتا
لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر ، اذ عط
ل منها الراوق والمجريس ؟
ومواعينها تكسرن ، والخم
سار من بعد كسرهما محبوس

أين عيناه تنظر المزر قد أو
حش منه الماجور والقادوس ؟
وعجين البقول قد بددوه
وهو بالترب خلطه مبسوس
والقناني مكسرات كما قد
كسرت في دجى الليالى الكئوس
وذوو القصف ذاهلون ، وقد كا
دت على سيلها تسيل النفوس
وفتى قائل : لقد هان عندي
بعد هذا في شربها التجريس
كم خليج يقول : ذا اليوم يوم
— مثل ما قيل — قمطير عبوس !
ارحلوا هذه بلاد عفاف
وسعود الخلاع فيها نحوس

(١) ابو مرة : كنية لابليس .

من لنا بعد ذلك الشيخ الف
وسمير ومؤنس وأنيس
لا ترى بعده فتى ضاحك الس
من وكل يبدو له تعيس
فسأبكيه أرمدا العين حتى
لشفائي يعيش جالينوس
قال ابراهيم المعمار : لما وقعت على قصيدة
الشيخ شمس الدين بن دانيال قلت : لو أنى
أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون ،
بهذا الزجل المصون :

منعونا ماء العنب ياسين
رب سلم لم يمنعونا التين
هات قل لى اذا منعنا الراح
وحرمننا من الوجوه الصباح
يش نبقى نستجلب الأفراح
والخليع كيف فراه يعيش مسكين

على ماء ذا العنب بكى الراوق
والشمع صار بعبرتو مخنوق
والوتر بات من الغروب للشروق
من أنيه تسمع له في الليل حنين

ولقد هان حضرة المحضر
وتلون ذا الزهر وتغير
وبغيظه ريحانا اتصر
وعلى وجهه صلب اليسمين

والندامى جميعهم في شتات
حزنوا كأن مات لهم أموات
هذا قاعد يكي على ما فات

وذا يندب وذا الآخر حزين

ولمى صاحب زمان معى كان طبيب
جانى وقال لى مشتاق أنا يا أديب
لجريه لو انها من زيب
أرى قلبى يرتاح لهذا الحين

فقصدنا « المنية » الى « شبرا »
ما لقينا رحنا « طنان » لخر
وفى « قلوب » قالوا ولا نظرا
درنا من « مرصفا » الى « شين »

وصعدنا قبلى ذا البلدان
ونبشنا « طموه » « لدير شعران »
ما أمر الطريق الى « حلوان »
أخرب الله « طره » على « التين »

قد تعبنا مما نجد السير
ولا أصبنا فى ذا السفر من خير
جئنا عند المسا لواحد دير
فوقفنا نزعق للشيخ أبو مرتين

وتقول له : يا أبونا قد جئناك
على جره بحياة رهاينناك
ويميتك ربى على دينناك
وانا ندرى انه أحسن دين

لانا نضحك عليه وتهزر
حتى لا يكبح ويتخنزر
ووهبنا من بيننا منزر
ووقفنا نخطبه باللين

فدخل غاب زمان ونحن وقوف
واتو تدروا ايش وقفة الملهوف
وانا ندعو ذاك الدعا الموصوف
انه يفتح وأخى يقول آمين

بعد ساعة الا وهو قد رد
جا يقول : بالله رآكم حد ؟
ونصيب من وراه شيخ يرعد
ومعه جرة اذ يصيح يا أسين

كم ندور فما لقيت عندى
الا هذه وأظنها دردى
قمت متمدد من الفرع يدى
ونصيح له من الظما أروين

أخذت نكب منها قنينه
جبتها كالمسك رقتينه
سودا ملانه للطينه
قلت معبار دى نحسه للطين

فرجعنا ايش رجعة المكسور
قلت كيف العمل فقال ندور
فى المقيلات وتقتنع بالمزور
ولا نرجع من ذا السفر متخيبن

حين قطعنا الاياس من الخمار
جئنا نسعى له أشن المزار
قال نشرب ما عجبن فقلت فشار
فما ذا الكعك أصل من ذا العجين

وأنا مالى عنه سوى ابن الكروم
والشراب المعتق المعلوم
تبعه لو يصير بأقصى الروم
ولو انا ندخل لقسطنطين

ولا نهوى الا الشراب القديم
ومعشوق جديد يكون لى نديم

تنفق المال على ايش يسمى عديم
وأنا ممكن في غاية التمكن

أرخوا بالله توبة المعمار
واكتبوها بالتبر طول أعمار
قولوا من هجرة النبي المختار
سبعماية سنة خمس وأربعين

انتهى ما أوردناه مما قالت الشعراء في هذه
الواقعة ، ومن هنا لرجع الى أخبار التاريخ .

سنة ست وستين وستمئة (١٢٦٨ م) :

فيها توجه السلطان نحو الشام ، وحاصر مدينة
أنطاكية ، ففتحها في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان
من السنة المذكورة . ثم توجه الى بغراس ففتحها
ورجع الى الديار المصرية وهو في غاية النصر
وزينت له القاهرة .

سنة سبع وستين وستمئة (١٢٦٩ م) :

فيها حج السلطان الى بيت الله الحرام ، فخرج
من القاهرة في ثالث شوال ، وتوجه الى غزة ،
فأخذ الاقامات التي كان عباها له نائب الشام ، ثم
توجه من غزة الى الكرك ، ثم توجه من الكرك الى
المدينة الشريفة ، فزار قبر النبي صلى الله عليه
وسلم ، ثم توجه من هناك الى مكة فدخلها في
خامس ذي الحجة . وكان في تلك السنة الوقفة
يوم الجمعة ، وكان ولد السلطان السعيد محمد
توجه صحبة المحمل بالحاج المصري ، فلما قضى
حجه رجع الى الشام ورجع ابنه الملك السعيد
صحبة المحمل مع الركب المصري .

سنة ثمان وستين وستمئة (١٢٧٠ م) :

فيها رجع السلطان الى القاهرة وأقام بها الى
شهر شعبان ، ثم توجه الى زيارة بيت المقدس

والخيل عليه السلام ، فزارهما ورجع الى الديار
المصرية .

سنة تسع وستين وستمئة (١٢٧٠ م) :

فيها أرسل صاحب طرابلس مقدمة عظيمة
للسلطان ، وأظهر الطاعة ، فقبلها السلطان وأقره
على ما كان بيده من البلاد .

وفي هذه السنة رتب السلطان خيل البريد ،
بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية ، فكانت أخبار
البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين . وقيل
انه أنفق على ذلك جملة مال حتى تم له ترتيب
ذلك ، وكان خيل البريد عبارة عن مراكز بين
القاهرة ودمشق ، وفيها عدة خيول جيدة ، وعندها
رجال يعرفون بالسواقين ، ولا يقدر أحد يركب من
خيل البريد الا بمرسوم سلطاني . وكان عند كل
مركز ما يحتاج اليه المسافرين من زاد وعلف وغير
ذلك ... وهذا كله لأجل سرعة مجيء أخبار البلاد
الشامية وغيرها من البلاد . وقيل ان الملك الظاهر
بيبرس هذا كان يعمل موكبا بمصر وموكبا بالشام ،
وكانت خيل البريد مرصودة بسبب ذلك ، حتى
لقد قال القائل في المعنى :

يوما بمصر ، ويوما بالشام ، ويو

ما بالفرات ، ويوما في قرى حلب

واستمر هذا الأمر باقيا بعد الملك الظاهر
بيبرس مدة طويلة ، ثم تلاشى أمره قليلا قليلا حتى
بطل في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق عندما
قدم تيمورلنك الى الشام وأخرب البلاد الشامية ،
وذلك في سنة ثلاث وثمانمئة ... فعند ذلك بطل أمر
خيل البريد مع جملة ما بطل من شعائر مملكة
الديار المصرية .

سنة سبعين وستمئة (١٢٧١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار قد تحركوا على
البلاد ، ووصلوا الى الفرات ، وملكوا البيرة ،

فخرج اليهم السلطان ومعه سائر الأمراء . وكان جاليش العسكر الأمير قلاون الألفى والأمير يسرى ... فتلاقوا مع التتار على الفرات ، فكان بينهم وقعة عظيمة ، فقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأسر منهم جماعة كثيرة . فلما دخل السلطان الى البيرة خلع على نائبها وأقره على حاله ، وفرق جملة من المال على من بها من الرعية لأنهم قاتلوا التتار قتال الموت حتى كسروهم كسرة قوية ، فأقام السلطان في البيرة أياما ثم رجع الى الشام ، فأقام بها شهرا ثم توجه الى الديار المصرية فدخلها في موكب عظيم ، وزينت له وحملت القبة والطير على رأسه .

سنة احدى وسبعين وستمائة (١٢٧٢ م) :

فيها هجم الوباء على الديار المصرية ، ومات في تلك السنة مالا يحصى من الخلائق من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار ، وأقام نحو ستة أشهر .

سنة اثنين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ م) :

فيها كان النيل شحيحا ، ووقع الغلاء وقلت الغلال في سائر أعمال الديار المصرية .

وفي هذه السنة توفي الشيخ عبد العظيم ابن الجزار الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، وكان مولده في سنة احدى وستمائة ، ووفاته في سنة اثنين وسبعين وستمائة ، فكانت مدة حياته احدى وسبعين سنة . وعاصر الشيخ أثير الدين أبا حيان المغربي ، والشيخ قطب الدين القسطلاني ، وغيرهما من العلماء .

ومن شعره الرقيق قوله في نفسه :

من منصفى من معشر

كثروا على وأكثروا

صادقتهم ، وأرى الخرو
ج من الصداقة يعسر
كالخط سهل في السطو
ر ومحوه يتعذر
واذا أردت كشطته
لكن ذاك يؤثر

سنة ثلاث وسبعين وستمائة (١٢٧٤ م) :

فيها زوج السلطان ولده الملك السعيد محمد بنت الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، وكان له مهم عظيم أقام سبعة أيام بالقلعة ، وكان يظن أنه اذا زوج ابنه بنت الأمير قلاون الألفى يكون له من بعده عونا على قلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ، فسطا الزمان عليه وأخذ من الجانب الذى يركن اليه .

سنة أربع وسبعين وستمائة (١٢٧٥ م) :

فيها جرد السلطان الى نحو بلاد النوبة . وسبب ذلك أن ملك النوبة دخل مدينة أسوان ونهب ما فيها وأحرقها . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى استأدار العالية ، والأمير عز الدين أيك الأفرم أمير جاندار ، وجماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فلما وصلوا الى النوبة تقاتلوا مع ملك النوبة على أسوان ، فانكسر ملك النوبة وهرب ، وقتل من عسكره جماعة كثيرة ، وأمسك أخوه وأولاده وأقاربه ، وغنم منهم عسكر السلطان غنائم كثيرة من جوار وعبيد وخيول وغير ذلك .

سنة خمس وسبعين وستمائة (١٢٧٦ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار زحفوا على البلاد ، فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتار فكسروهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتار يقال له ابغا . فلما انكسر ملك التتار

هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين ، فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل من الفريقين نحو مائة ألف انسان ، فانكسر ابغا ملك التتار وهرب فتبعه السلطان الى نحو زبيد ، ثم رجع من هناك السلطان الى قيسارية وحاصر أهلها ، فأرسلوا يطلبون من السلطان الأمان ، فأرسل لهم الأمان على يد الأمير بيسرى ، فسلموا المدينة فدخلها السلطان . وكان يوم دخوله الى المدينة يوما مشهودا ، فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين ، وحكم بين الناس ، وأقام بها أياما ثم رحل وتوجه الى دمشق .

سنة ست وسبعين وستمائة (١٢٧٧ م) :

فيها دخل السلطان الى حلب ، فتوعك جسده وأخذته الحمى وسلسل في المرض ، فأسقاء الحكماء دواء مسهلا ، فأفرط في الاسهال وثقل في المرض ، فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق ، فمات في بعض ضياع دمشق . فلما مات كنم موته عن العسكر ، وحمل في محفة الى أن دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر شهر الله المحرم سنة ست وسبعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ستين سنة .

وكان ملكا عظيما جليلا مهيبا ، كثير الغزوات ، خفيف الركاب ، يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف . وكان مشهورا بالفروسية في الحرب ، وله اقدام وعزم وقت القتال ، وله ثبات عند التقاء الجيوش في الحرب . وكان يلقب بأبى الفتوحات لكثرة الفتوحات في أيامه . وكان له موكب بمصر وموكب بالشام كما تقدم ذلك عند خيل البريد . وكان رنكه سبع ... اشارة لشجاعته وقوة بأسه . وكان كريما سخيا على الرعية ، باسط اليد ، يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوحات على الرعية حتى يرغبهم في القتال وقت الحرب . وكان محبا لجمع الأموال ، كثير المضادرات للرعية لأجل الغزوات

والتجاريد ، وينفق ذلك على العسكر . وكان مهيب الشكل ، حسن الوجه ، طويل القامة ، مستدير اللحية ، الغالب في لحيته البياض . وكان مبجلا في موكبه ، كفوا للسلطنة ، منقادا للشريعة ، يحب العلماء والصالحين ، ويحب فعل الخير ، وله بر ومعروف وآثار ، ولا سيما رده الخلافة لبنى العباس بعدما كادت أن تنقطع عنهم ، فردها لهم كما تقدم ذلك . وقد أنفق على ذلك جملة مال حتى صارت الخلافة بمصر .

وكان خيار ملوك الترك بمصر وفي ذلك أقول :

تاريخه في الملوك أضحى

يحير العرب والأعاجم

فاكتبه بالتبر لا بجبر

وانسب لأفعاله العظام

اختاره الله من امام

لقمع أهل الفساد صارم

قد أظهر العدل في الرعايا

وأبطل الجور والمظالم

له بقلب الملوك رعب

أغنى عن السمر والصوارم

فالله يرحمه كل حين

ما دام هذا الوجود قائم

قيل لما توفي الملك الظاهر ببيرس كنم الأمير بيليك ، نائب السلطنة ، موته خوفا من التتار لئلا يرجعوا الى البلاد ، ثم احتاط على خزائن المال والبرك السلطاني ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ، فكانت المحفة تمشى في الموكب وقدامها الجنائب وهو يظهر أن السلطان مريض . ورتب حضور الأطباء على العادة ، فكان لا أحد يجسر أن يقرب الى المحفة . واستمر الأمر على ذلك حتى دخل الى مصر القاهرة ، وطلع قلعة الجبل ... فعند ذلك

أشيع موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد .
وقد رثاه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر
كاتب السر الشريف بهذه الأبيات :

الله أكبر ، انها لمصيبة
منها الرواسي ، خيفة ، تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الداء
يا تطيب ... فكل قعر منزل !
الظاهر السلطان من كانت له
من على كل الورى وتطول
لهفى على آرائه تلك التى
مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد
غفلت ... وكانت قبل ذا لا تغفل
ما للرمال تخولتها رعدة
لكنها ، اذ ليس تعقل ، تعقل
سهم أصاب وما رمى من قبله
سهم له فى كل قلب مقتل
أنا ان بكيت دما فعذرى واضح
ولئن صيرت فائى أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع
منهلة فى أوجه تتهلل

وكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بيبرس بالديار
المصرية والبلاد الشامية سبع عشرة سنة وشهرين
ونصف شهر .

ولما مات خلف من الأولاد عشرة : ثلاثة ذكور ،
وهم الملك السعيد محمد ، والملك العادل سلامش ،
وسيدى خضر ولكنه لم يتسلطن . وخلف من البنات
سبعاً . وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه فهى
قيسارية وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف
وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين
و حصن عكا وصافينا والمرقبة وحلب وبانياس

وطرسوس ، وكانت هذه البلاد بأيدي الافرنج .
وأما ما فتحه من بلاد الشرق فهى مدينة سيس ،
أخذها بالأمان ، ودركوش وتلميش وكفر دنين
ورعيان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة .

وأما الذى صار اليه من بلاد المسلمين فهى دمشق
وبعلبك وقلعة الصيبة وقلعة شيزر وعجلون وبصرى
وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل
ياشر وصهيون وقلعة الكهف والقدموس والخوابى
والكرك والشوبك وبيت المقدس ومدينة الخليل
عليه السلام .

وأما ما افتتحه من بلاد السودان فهى النوبة
وأعمالها ، وافتتح قلعة العميدين من أعمال برقة ،
وافتح عدة جزائر من أعلى الجنادل .

وأما ما أنشأه من العماير فى البلاد فهو ما جرده
فى الحرم الشريف النبوى ، وجدد عمارة قبة
الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل
عليه السلام .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية وأعمالها ، فمن
ذلك قناطر شبرامنت بالجيزة ، وعمر سور مدينة
الاسكندرية ، وجدد بناء المنار الذى بها ، وعمر
منارا بشعر رشيد ، وردم فم بحر دمياط بالقراييص
حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج ، وعمر الشوانى
وأعادها الى ما كانت عليه بالصناعة ، وحفر بحر
أشموم طناح ، وعمر القلاع التى ببلاد الشرق التى
كان هلاكو ملك التتار قد أخرجها ، وعمر مدرسة
بدمشق .

وأما ما أنشأه فى القاهرة من العماير فهى المدرسة
التى بين القصرين بجانب المدرسة الصالحية ، وعمر
الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج
الحسينية وأنفق عليه جملة مال من وجه حل من
الغنائم التى كانت تفتح عليه من بلاد الافرنج
وغيرها من البلاد — وكان هذا الجامع ساحة يلعب

الملك السعيد

هو الملك السعيد أبو المعالي محمد ، بركة خان ، ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلاني البندقداري الصالح النجفي ، وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الظاهر . وكان مولده في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) وانما سمي بركة خان على اسم جده لأبيه . فلما تسلطن وجلس على سرير الملك كان القائم بتدبير دولته الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة ، فحلف الأمراء ، وتم أمره في السلطنة ، ومشى على نظام أبيه ، واستمر على ذلك مدة يسيرة .

ثم ان الأمير بيليك نائب السلطنة مرض وسلسل في المرض حتى مات ... وكان أميراً دينا خيرا كثير البر للفقراء والمساكين . فلما مات كثر عليه الحزن والأسف . فلما انقضت أيامه طاش الملك السعيد واستبد برأيه ، فقبض على جماعة من أمراء والده ، وهم الأمير سنقر الأشقر والأمير يسرى ، وكانا جناحي والده . ثم استقر بالأمير آق سنقر الفارقاني نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيليك ، فأقام في نيابة السلطنة مدة يسيرة ، ثم قبض عليه ، وسجنه بشعر الاسكندرية ، ثم أرسل بخنقه فخنق ودفن في السجن .

ثم ان الملك السعيد استقر بالأمير كوندك نائب السلطنة عوضا عن الأمير آق سنقر الفارقاني .

سنة سبع وسبعين وستمائة (١٢٧٨ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام خامر وخرج عن الطاعة ، فجرد اليه الملك السعيد وخرج بنفسه . فلما دخل الى الشام نزل بالقصر الأبلق الذي أنشأه

فيها المماليك القبق — وجدد عمارة الجامع الأزهر ، وأعاد فيه الخطبة بعد ما أقام وهو خراب من أيام الحاكم بأمر الله ، وعمر القصر الأبلق بدمشق ، وعمر خانا بالقدس الشريف ، وجدد حفر خليج الاسكندرية وبأشر حفره بنفسه ، وأنشأ ضيعة على قم وادي العباسية وسماها الظاهرية .

وأخبار الملك بيبرس كثيرة في عدة مجلدات ، ولكن الذي ذكرناه هنا من أخباره هو الصحيح . وغالب أخباره فيها الزيادة والنقصان وهي موضوعة .

ومن انشائه بالديار المصرية القناطر التي على بحر أبي المنجى شعيا . ومن انشائه قناطر السباع التي بالقرب من ميدان الجبل ، ومن انشائه البرج الكبير الذي بقلعة الجبل عند ظريب التبر .

قال الشيخ شمس الدين بن الوردي في ذلك : الملك الظاهر أخباره تشنف الراحل والقاطن تأملوا آثاره وانظروا ما فعل الظاهر بالباطن وأما من توفي في أيامه من أعيان العلماء فهم : شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه من أكابر علماء الشافعية ، وكان يلقب في أيامه بسلطان العلماء ، وكانت له كرامات خارقة ، ودفن بالقرافة الصغرى . وتوفي الامام أبو شامة وكان من كبار العلماء ، وتوفي قاضي القضاة الشافعي ابن بنت الأعز ، وتوفي الشيخ أبو الحسن ابن بنت الأعز ، وتوفي الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وتوفي القرطبي صاحب التذكرة ، وتوفي الشيخ ناصر الدين الطوسي ، وتوفي اللورقي وكان من كبار العلماء ، وتوفي غير هؤلاء من العلماء والأعيان جماعة كثيرة .

والده بدمشق فخامر عليه هناك جماعة من الأمراء — وقد بلغهم عنه أنه يريد قبض جماعة منهم — فلما تحققوا ذلك خرجوا من دمشق وتوجهوا الى المرج الأصفر وأقاموا هناك . فلما بلغ الملك السعيد ذلك أرسل اليهم بعض الأمراء ليمشى بينهم وبين السلطان بالصلح ، فأبوا عن ذلك وانفصل المجلس وكلهم مانع .

فلما عاد الجواب بالمنع ركبت خوند أم الملك السعيد — وكانت سافرت مع ولدها الملك السعيد الى الشام — فلما تغير خاطر الأمراء على السلطان ركبت خوند بنفسها وتوجهت اليهم في مكان يسمى الكسوة خارج دمشق . فلما اجتمعت بهم مشى بينهم بالصلح فأبوا من ذلك ، فرجعت من عندهم والمجلس مانع .

ثم ان الأمراء الذين خامروا قصدوا أن يتوجهوا نحو الديار المصرية ، فلما بلغ الملك السعيد ذلك رحل من دمشق ، وأخذ من بقى معه من العسكر والأمراء وقصدوا التوجه الى القاهرة ، فجمع معه من عربان جبل نابلس جماعة كثيرة ، والتف عليهم جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس . فلما وصل الى غزة أنفق عليهم الأموال ، فأخذوا منه النفقة ، وتسحب من عنده العربان وعسكر دمشق وطرابلس ، ولم يبق معه من العسكر المصرى الا القليل .

فلما خرج من غزة جد في السير حتى دخل المطرية . فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجيء السلطان على حين غفلة خرجوا اليه على حمية ، وكان من لطف الله تعالى في ذلك اليوم ضباب عظيم ، فستر الله تعالى الملك السعيد حتى طلع القلعة ونجا بنفسه . فلما بلغ الأمراء أن السلطان

طلع القلعة رجعوا من المطرية وحاصروا السلطان وهو بالقلعة . فلما رأى من كان حول السلطان أن حاله قد تلاشى صاروا يتسحبون من القلعة وينزلون الى الأمراء الذين في الرميلة .

واستمر الحرب سائرا بين الأمراء وبين الملك السعيد سبعة أيام . فلما رأى الملك السعيد عين الغلب أرسل الى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، فمشى بينه وبين الأمراء وقال : « ايش آخر هذا الحال ؟ وما قصدكم ؟ » فقالوا قصدنا يخلع نفسه من السلطنة ويمضى الى الكرك ويقيم بها . فرجع الخليفة الى السلطان وأخبره بذلك ... فخلع نفسه من الملك ، وشهد عليه القضاة بالخلع وخرج الى الكرك من وقته . وكان للتسفر عليه الأمير بيدغان الركنى المعروف بسم الموت .

وكانت مدة سلطنة الملك السعيد بالديار المصرية سنتين وشهرا وأياما ، وهو صاحب الحمام التي بالقرب من سوق الغنم .

سنة ثمان وسبعين وستمائة (٢١٧٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الملك السعيد قد توفي الى رحمة الله تعالى ، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة في ميدان قلعة الكرك ، فتقنطر به الفرس ، فانكسر ضلعه فمات من يومه . وكانت وفاته في أول هذه السنة ، ثم دفن هناك ، وقيل نقل بعد ذلك الى دمشق ، ودفن على أبيه الملك الظاهر بيبرس .

وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة ، حسن الشكل ، كريما على الرعية .

وإذا خلع الملك السعيد من السلطنة تولى بعده أخوه سلامش .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين سلامش ، ابن الملك الظاهري بيسر البندقدارى ، وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويغ بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد ، وكان له من العمر لما تسلطن سبع سنين ونصف ، وكان يعرف بابن البدوية . وكان جلوسه على سرير الملك فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وكان القائم بتدبير مملكته قلاون الألفى وكان يخطب له وللعادل سلامش على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة باسمهما ، وكان فى الحقيقة قلاون هو السلطان ، والسلطان ليس له الا مجرد الاسم ، والأمر كله لقلاون .

وكان الأمير بيسرى يشارك قلاون فى أمور السلطنة ، ولكن كان الأمير بيسرى مغرما بحب الصيد والخروج الى السرحات ، وكان الأتابكى قلاون يمهّد لنفسه فى الباطن ، وأرسل بعزل النواب عن البلاد الشامية ، وولى من يثق به من خشداشينه . ثم انه قبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وأرسلهم الى السجن بغير الاسكندرية . فلما صفا له الوقت خلع الملك العادل سلامش من السلطنة ، وأرسله الى قلعة الكرك ، وأرسل معه أخاه سيدى خضرا فأقاما فى الكرك مدة ثم نقلهما الملك الأشرف خليل بن قلاون الى القسطنطينية فكانت مدة سلطنة الملك العادل سلامش بالديار المصرية خمسة أشهر وأياما .

ولما خلع سلامش من السلطنة تولى من بعده قلاون .

الملك المنصور قلاون

هو الملك المنصور سيف الدين قلاون ، أبو المعالى الألفى ، الصالحى النجمى ، وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الأحد ثاوى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور .

وكان أصله من ممالك آق سنقر الكاملى ، ثم قدمه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية ، فأعتقه فى أثناء سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما تم أمره فى السلطنة أنعم على جماعة من خشداشينه بتقادم ألوف — وهم : طرنطاي ، وكتبغا ، ولاچين ، وقفجق ، والشجاعى ، وأبيك الخازندار ، وطقصو ، وطغريل الايغانى ، وبلبان الطباخ ، وأقوش الموصلى ، وسنقر جركس وازدمر العلائى ، وقلجق وايدمر الطباخ ، وقيران الشهابى ، ومحمد الكورانى ، وابراهيم الجاكى — ثم أمر بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بغير الاسكندرية ، منهم الأمير أبيك الأفرم ، فخلع عليه واستقر به نائب السلطنة وأقام فى النيابة مدة يسيرة ، ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ، ولزم بيته .

ثم ان السلطان خلع على مملوكه طرنطاي واستقر به نائب السلطنة عوضا عن أبيك الأفرم ، وخلع على الأمير سنقر الأشقر واستقر به نائب الشام . فلما أن دخل الى الشام خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، ثم انه تسلطن هناك وقبلوا له الأرض بدمشق وتلقب بالملك الكامل ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم فلت عنه الناس واضمحل أمره وقصده

أمراء الشام أن يقبضوا عليه فهرب إلى صهيون .
سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار أن ملك التتار زحف على البلاد ، وأرسل أخاه منكوتمر في جاليش العسكر ، وقد وصلوا إلى حلب وملكوا ضياعها وأشرفوا على أخذ المدينة . فلما بلغ الملك المنصور قلاون الألفى ذلك خرج بنفسه ، هو والأمراء ، على جرائد الخيل . فلما وصل إلى غزة جاءت الأخبار بأن منكوتمر أخا أبغا — لما بلغه مجيء السلطان — نهب البلاد ، وأحرق الضياع ، وقتل الرعية ، وآذى البرية ... ثم رجع إلى بلاده .

فلما بلغ السلطان رجع من غزة إلى القاهرة ، فجاءت الأخبار بأن التتار رجعوا إلى حلب وأفحشوا في حق الرعية أعظم ما فعلوا في الأول ، فخرج إليهم السلطان ثانيا ، وجد في السير فتلاقى مع عسكر التتار على المرج الأصفر ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وذلك في أوائل سنة ثمانين وستمائة ، فكانت النصر للملك المنصور قلاون ، فتقنطر منكوتمر أخو أبغا إلى الأرض ، فأحاط به التتار حتى حملوه وهربوا به ، فوقع النهب في عسكر التتار وولوا منهزمين ، وقد غنم منهم عسكر السلطان ما لا يحصى من سلاح وخيول وقماش وغير ذلك ... وكانت هذه الواقعة من الوقعات المشهورة .

ثم إن السلطان قصد التوجه إلى نحو القاهرة ، فدخلها في موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ومشى الأمراء بين يديه حتى طلع القلعة .

سنة إحدى وثمانين وستمائة (١٢٨٢ م) :

فيها صفا الوقت للسلطان ، فقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير يسرى ، والأمير بكتوت الشمسى ، والأمير كشغندى ، وجماعة كثيرة من

الممالك السلطانية ومن خشداشينه ، وشرع في إنشاء ممالك ، وأنعم عليهم بتقادم ألوف ، وبالاقتاعات السنية .

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور قلاون بخوندا شلون بنت الأمير شنكاي ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وزقت عليه .

وفي هذه السنة توفي مجير الدين محمد بن تميم الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وليلة بت ألقى في غياها

راحا تسل شبابى من يد الهرم

ما زلت أشربها حتى نظرت إلى

غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

وفيها توفي الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد .

فمن ذلك قوله في معذر وقد ضمن المثل السائر :
صدوا وقد دب العذار بخده

ما ضرهم لو أنهم جبروه

هل ذاك غير نبات خد قد حلا

لكنهم لما حلا هجروه

سنة اثنتين وثمانين وستمائة (١٢٨٣ م) :

فيها ابتداء السلطان الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التي بين القصرين والمدرسة ، وأضاف إلى ذلك قاعة القطينين وسماها البيمارستان المنصورى .

وقيل انتهى منها العمل في مدة عشرة أشهر على ما نقله المؤرخون ، وجعل لها في كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليها أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك ، وشرط في وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد ، فكان كما قال القائل :

تمشى الملوك على آثار غيرهم

وأنت تخلق ما تأتى وتبتدع

فهو من حسنات الزمان ... تحتاج اليه الملوك ،
ويفتقر اليه الغنى والصعلوك .

قيل : وكان سبب بناء البيمارستان هذا أن الملك
المنصور قلاوون أمر مماليكه بأن يضعوا السيف في
العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم ،
فانهم خالفوا أمره في شيء فعله بجهلهم ، فأمر
بقتلهم ، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتل في هذه
المدة ما لا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح
وربما عوقب من لم يجن .

فلما زاد الأمر عن الحد ، طلع القضاة ومشايخ
العلم الى السلطان وشفعوا فيهم ، فعفا عنهم ،
وكف عنهم القتل . فلما جرى ما جرى ، وراق
خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبني هذا
البيمارستان ، وجعل له جملة أوقاف على رواتب
بر وإحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لا يفعله
غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل
الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى .

سنة ثلاث وثمانين وستمائة (١٢٨٤ م) :

فيها خرج السلطان الى نحو البلاد الشامية ،
فوصل الى حصن المرقب ، ونصب المجانيق ،
وحاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما ، فطلب أهله
الأمان ، فأخذ بالأمان ، ثم رجع الى الديار
المصرية .

سنة أربع وثمانين وستمائة (١٢٨٥ م) :

فيها أرسل السلطان الأمير طرناى نائب
السلطنة الى حصار سنقر الأشقر الذى كان نائب
الشام ، وأظهر العصيان وتسلطن هناك كما تقدم .
فلما وصل الأمير طرناى الى نحو صهيون حاصر

سنقر الأشقر أشد المحاصرة ، فلما رأى سنقر
الأشقر عين الغلبة ، أرسل يطلب من الأمير طرناى
الأمان ، فأجابه الى ذلك . فلما وثق منه بالأمان
نزل اليه من قلعة صهيون ، فحلف له الأمير
طرناى أنه اذا توجه الى السلطان لا يشوش
عليه ، ولا يحصل منه الا كل خير ... فأخذ عياله
وأولاده وتوجه صحبة الأمير طرناى الى نحو
الديار المصرية . فلما بلغ السلطان مجيء سنقر
الأشقر خرج الى تلقيه . فلما وصل الى مسجد
التين بالقرب من المطرية ، تلاقى هو وسنقر الأشقر
هناك . فلما وقعت عين سنقر الأشقر على السلطان
نزل عن فرسه ، ونزل السلطان أيضا ، وتعانقا .
فبكى سنقر الأشقر وطلب الأمان من السلطان ،
فأعطاه منديل الأمان فوضعه على رأسه . ثم ركبا
وتوجها الى القلعة فى موكب عظيم ، وسنقر الأشقر
راكب الى جانب السلطان . فلما طلعا الى القلعة ،
خلع عليه ونزل الى مكان قد أعد له ، ونزل معه
سائر الأمراء الى ذلك المكان ثم انصرفوا ، وكان
ذلك فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول من سنة
أربع وثمانين وستمائة .

سنة خمس وثمانين وستمائة (١٢٨٦ م) :

فيها قبض السلطان على مملوكه الأمير علم
الدين سنجر الشجاعى ، وصادره واحتاط على
موجوده ، واستصفى أمواله بعد أن عصره
بالمعاصير حتى كسر رجله ، وخلعه من الوزارة ،
ثم خلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيدرا
المنصورى ، واستقر به وزيرا عوضا عن سنجر
الشجاعى .

وفى هذه السنة توفى الشيخ محبى الدين بن
قرناص الحموى ، وكان من فحول الشعراء وله
شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أيا حسنها روضة قد غدا
جنونى فنونا بأفنانها
أتى الماء فيها على رأسه
لتقيل أقدام أغصانها

سنة ست وثمانين وستمائة (١٢٨٧ م) :

فيها توعك المقام العلائى نور الدين على ، ولد
السلطان الملك المنصور قلاون ، وكان والده
المنصور ولاء السلطنة في أيام حياته ، وركب
بشعار السلطنة وجلس على سرير الملك وقبل له
الأمراء الأرض ، وجلس الى جانب والده قلاون .
وكان سبب سلطنته أن الملك المنصور قلاون كان
كثير الأسفار الى نحو البلاد الشامية ، فسلطن
ولده نور الدين عليا ولقبه بالملك الصالح ليكون
عوضه في مصر اذا سافر الى البلاد الشامية ،
فأقام على ذلك مدة في حياة والده ثم ان الملك
الصالح عليا مرض مرضا شديدا بجمى الكبد
حتى أشرف على الموت .

سنة سبع وثمانين وستمائة (١٢٨٨ م) :

فيها ثقل على الملك الصالح على المرض وتقل
الدم . فلما كانت ليلة الجمعة رابع شهر شعبان
سنة سبع وثمانين وستمائة ، توفي الملك الصالح
على الى رحمة الله تعالى . فلما مات حزن عليه
والده الملك المنصور حزنا شديدا ، وكان الأمراء
جلوسا على باب الستارة ينتظرون ما يكون من
أمره . فلما وقع الصراخ في دور الحرم دخل الأمير
طرنتاي نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف
الرأس وكلوته مرمية على الأرض وهو يبكي
ويصيح . فلما رآه الأمير طرنتاي على هذه
الحالة رمى الآخر كلوته عن رأسه ، ثم ان بقية
الأمراء دخلوا على السلطان ، وألقى الكل كلوتاتهم
عن رعوسهم وأقاموا على ذلك ساعة ، ثم ان الأمير
طرنتاي النائب أخذ كلوته السلطان في يده وقبل

الأرض هو والأمير سنقر الأشقر الذى تسلطن
بدمشق ، وناولها للسلطان ، فدفعه وقال : « ايش
بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ؟ » ... ثم صبروا له
ساعة ، وقام الأمراء جميعا كلهم وقبلوا الأرض
ووضعوا كلوته السلطان على رأسه .

واستمر الغزاء قائما في تلك الليلة . فلما
أصبحوا يوم الجمعة أخذوا في أسباب تجهيزه ،
فأخرجوه وصلوا عليه عند باب الستارة ، ثم
نزلوا به من باب المدرج ، فأراد السلطان أن
يمشى في الجنازة فمنعه الأمراء من ذلك . فكان له
مشهد عظيم ، وذلك في يوم الجمعة قبل الصلاة ،
فمشت قدامه الناس قاطبة الى تربة والدته
خوند خاتون التى في طريق السيدة نفيسة بجوار
المدرسة الأشرفية ، فدفن هناك .

فلما أصبح يوم السبت نزل السلطان الى زيارة
قبر ولده وجلس عنده في ذلك اليوم ، واستمر
الميت ممتدا سبعة أيام .

ولما مات السلطان الملك الصالح على ، خلف
ولدا ذكرا يسمى الأمير موسى ، وهو صاحب
الربع الذى في الغرابيين . ومات الملك الصالح
وله من العمر نحو عشرين سنة . وكان والده
قلاون أشركه في السلطنة من سنة تسع وسبعين
وستمائة ، واستمر على ذلك حتى مات في سنة
سبع وثمانين وستمائة ، فكان أكبر أولاد قلاون .
قال ابن خلكان ١ : لما مات السلطان الملك الصالح
كتب القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر كاتب
السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاون
الى نائب الشام وغيره من النواب مطالعات ،
ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده ، فقال

(١) انظر هذا : فان ابن خلكان توفى سنة ٦٨١ والملك الصالح
توفى سنة ٦٨٢ .

عن لسان والده : « نحمد الله تعالى على حزن
حزنا به بالصبر أجورا فاخرة ، فكان قصدنا أن
نجعله ملكا في الدنيا فاختر الله تعالى أن يكون
ملكاً في الآخرة » .

وفي هذه السنة توفي الشيخ ناصر الدين
ابن النقيب ، وكان من أعيان شعراء مصر ، وله
شعر جيد في نوع التورية ، فمن ذلك قوله :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغرد عند ما يقع الندى

سنة ثمان وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) :

فيها في ثالث عشر صفر خرج السلطان على حين
غفلة الى نحو البلاد الشامية ، وتوجه نحو
طرابلس ، وحاصر أهلها ونصب على سورها
المجانيق ، واستمر يحاصرها أربعة وثلاثين يوما
ففتحتها بالسيف عنوة في يوم الثلاثاء رابع عشر
ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائة ،
فوردت البشائر الى الديار المصرية بفتح مدينة
طرابلس وجبيل . ثم ان السلطان عاد الى الديار
المصرية فزينت له وحملت على رأسه القبة والطير ،
وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله .

وفيها جاءت الأخبار بأن ملك النوبة هجم على
مدينة أسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها ،
فجرد اليه الأمير أيبك الأفرم ، فلما أن وصل
الى هناك هرب منهم ملك النوبة ، فتبعه العسكر
والأمير عز الدين أيبك الأفرم الى آخر بلاد
النوبة ، فغنموا منهم أشياء كثيرة — من عبيد
وجوار وخيول وغير ذلك — ورجع العسكر الى
الديار المصرية وهم في غاية النصر .

وفي هذه السنة توفي الشيخ ظهير الدين بن
البارزي الدمشقي ، وكان عالما فاضلا وله شعر
جيد ، فمن ذلك قوله :

يذكرني وجد الحمام اذا غنى
لأنا كلينا في الهوى نعشق الغصنا

سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠ م) :

فيها عزم السلطان الى العود الى السفر ليحاصر
مدينة عكا . فخرج من القاهرة في ثامن عشر شوال
من السنة المذكورة ، فلما نزل بالريداية وأقام بها
حتى يتكامل خروج العسكر ، وجد في جسده
توعكا وحمى ، فصار الأمر في كل يوم يتزايد
عليه حتى ثقل في المرض . وكان الملك المنصور
قلاون لما مات ولده الملك الصالح على ، عهد من
بعده الى ولده خليل ولقبه بالأشرف . فلما سلسل
السلطان ، اضطربت الأحوال ، وصار ولده خليل
ينزل اليه من القلعة في كل يوم ويتفقد أحواله ثم
يرجع الى القلعة . وكانت الأمراء يدخلون على
السلطان في كل يوم صحبة الحكماء . فلما زاد
الأمر على السلطان وتغير حاله منع الأمير طرنطاي
الأمراء من الدخول على السلطان .

فلما تحقق الأمراء موت السلطان جاءوا الى
الأمير طرنطاي النائب وقالوا له : « أنت تعلم
ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفس من
أيام والده . وقد صار الأمر اليه والسلطان ما بقي
يرجى . ومتى صار الحكم اليه ولده فهو قاتلك
لا محالة ... فبادر اليه وأمسكه قبل أن يمسك
ونحن كلنا عصبتك » ... فسكت الأمير طرنطاي
ساعة وقال : « كيف أمسك ابن أستاذي أو
أقتله ؟ فإيش يشاع على بين الناس ؟ ولكن أنا
مملوك السلطان ومملوك ولده . فان رضيتني
وأبقاني على حالي كان الفضل له ، وان قتلني
صرت شهيدا من جملة الشهداء » .

ثم ان السلطان قلاون دخل في النزع ، فجلس
الأمير طرنطاي عند رأسه حتى مات وغبضه بيده .

فلما أصبح الصباح جاءت الأمراء على العادة فلم يمكنهم من الدخول على السلطان . ثم انه أرسل خزائن المال والأطلاب التي كانت مع السلطان برسم السفر . ثم ان الأمير طرناى أرسل عرف ولد السلطان الملك الأشرف خليل أن والده قد مات ، وأشار عليه أنه يقيم في القلعة ولا ينزل ، ووكّل به مقدم الممالك .

ثم ان الأمير طرناى حمل السلطان قلاون وهو ميت في محفة وطلع به الى القلعة بعد المغرب ، فغسله وكفنه ونزل به في تابوت بعد العشاء والأمراء والقضاة وأعيان الناس مشاة قدامه . وكثر عليه الحزن والأسف من الناس الى أن وصلوا به الى البيمارستان ، فصلوا عليه هناك ودفن داخل القبة التي بين القصرين . وكانت وفاته يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ، ودفن في ليلة الأحد ، وكانت مدة توعكه تسعة عشر يوما . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، فمات وكأنه لم يكن ... فكان كما قيل في المعنى :

كل ابن أنثى وان طالت سلامته

يوما على آلة حديد محمول

ولما مات الملك المنصور قلاون خلف من الأولاد ثلاثة ذكور ، وهم : الأشرف خليل ، والناصر محمد ، والأمير أحمد ولد بعد وفاة أبيه .

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ، مربع القامة ، درى اللون . وكان قليل الكلام بالعربى ، وكان شجاعا بطلا مقداما في الحرب ، وكان مغرما بمشترى الممالك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر ألف مملوك ، وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان الذى بين القصرين ، ولا سيما ما فعله

فيه من وجوه البر والصدقات ووقف الأوقاف الجليلة ، وشرط في وقفه ما لم يشترطه أحد من الملوك قبله ولا بعده ، وقد كفاه ذلك شرفا في الدنيا والآخرة .

ومن محاسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة التي كانت تلبسها العسكر في الدول القديمة . قيل كانت كلواتهم من الصوف الأزرق الغميص ، وهى مضرية عريضة بغير شاش . وكانت الممالك تربى لهم ذوائب من الشعر خلفهم ويجعلونها في أكياس حرير أحمر أو أصفر ، وكانوا يشدون في أوساطهم بنودا بعلبكية عوضا عن الحوائص ، وكانت خفافهم برغالى أسود ، وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالى أسود ، وهى كبار يسع الصولق الواحد نصف وية قمح ، وكان لهم في ذلك الابزيم معلقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة ، وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم . وكانوا يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان . فلما تولى الملك المنصور قلاون أمر العسكر أن يغيروا هذه الملابس الشنيعة ، ويدخلوا في الهيئة المطبوعة وكانت خلع المقدمين من العنتابى ، فأمر لهم بالخلع المخمل الأحمر والأخضر بالفرو السمور . وهو أول من أسكن الممالك في أبراج القلعة وسماهم الممالك البرجية .

وأما ما افتتحه الملك المنصور قلاون في أيامه من الفتوحات فهو المرقب وجبله من بلاد الافرنج ، وفتح طرابلس الغرب ، واللاذقية ، وجبيل ، والكرك والشوبك ... كانت بيد أولاد الملك بيبرس البندقدارى فأخذها منهم .

وأما ما أبطله في أيامه من المظالم ، فهو أنه كان من قديم الزمان وظيفة تسمى ناظر الزكاة — وهو من يأخذ ممن عنده مال زكاته — فان مات ذلك

جماعة ، والشيخ شمس الدين ابن خلكان المؤرخ ،
والشيخ ناصر الدين ابن المنير ، والشيخ جمال
الدين الشريشى شارح مقامات الحريري ، وتوفى
ابن النحاس النحوى ، وتوفى علاء الدين ابن
النفيس شيخ الأطباء ، وتوفى غير ذلك من أعيان
الناس ومن العلماء جماعة كثيرون .

ولما توفى الملك المنصور قلاون تولى من بعده
ابنه الأشرف خليل .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف ، صلاح الدين خليل ، ابن
الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى ، وهو الثامن
من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى
الملك بعهد من أبيه قبل وفاته ، وجلس على سرير
الملك بعد وفاة أبيه قلاون ، وذلك فى يوم الأحد
سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ،
وكان مولده فى سنة ست وستين وستمائة . فلما
قام بشعائر السلطنة نزل من القلعة الى الميدان
الذى تحت القلعة . وكان سبب نزوله الى الميدان
أن الأمراء تخلوا من طلوعهم الى القلعة ، فلم يطلع
منهم أحد الى القلعة ، فنزل السلطان — وهو
بشعائر الملك — فجلس هنالك على كرسى ،
واستحلف له سائر الأمراء ، فلما حلفوا له خلع فى
ذلك اليوم على الأمير علم الدين سنجر الشجاعى
واستقر به وزيرا كما كان فى أيام والده .

وكان الأشرف خليل كفؤا للسلطنة ، وجاء فيها
كما ينبغى فى الحرمة والعظمة والشهامة ، وفيه
يقول القائل محمد بن غانم الشاعر :
مليكان قد لقبنا بالصلاح
فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك فى فضله
ولكن خليل هو الأشرف

الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيتم ذلك القدر
المقرر عليه فى الدفاتر باقيا يؤخذ من أولاده أو من
ورثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد ... فأبطل
الملك المنصور قلاون ذلك الى يومنا هذا وسطر
فى صحائفه .

ومما أبطله من المظالم أيضا أنه كان يؤخذ مال
من أهل مصر للمبشرين اذا حضروا يبشرون بفتح
حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك ، وكان
يجبى من أهل مصر على قدر طاقتهم فى السعة ،
فأبطل ذلك .

وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك
ثمن الحلوى والفاكهة والشوى ، برسم السباط
الذى يوضع فى المقياس يوم الوفاء ، فأبطل ذلك
عن الناس جميعه ، وجعل مصروفه من بيت المال ،
وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط .

وكان من أجل ملوك الترك قدرا ، وأعظمهم
أخبارا وذكرًا .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ومشايخ
الاسلام ، فمن ذلك الامام العلامة محبى الدين
النووى الشافعى رضى الله عنه ، وهو صاحب
كتاب المنهاج . قال الشيخ شمس الدين الذهبى :
ان الشيخ محبى الدين توفى وله من العمر نحو
أربعين سنة ، ودفن بنوى وهى بلده . وقد رثاه
الشيخ زين الدين ابن الوردى المعرى بهذه
الآيات :

لقيت خيرا يا نوى
ووقيت من ألم النوى
فلقد نوى بك عالم
لله أخلص ما نوى
وعلا علاه بفضل
فضل الحبوب على النوى
وتوفى أيضا الشيخ برهان الدين الشافعى ابن

فلما تم أمره في السلطنة ، وتلقب بالملك الأشرف ، عمل الموكب ، ثم قبض على الأمير طرنطاي نائب السلطنة ، وكان بينه وبين الأمير طرنطاي عداوة قديمة من أيام والده . وكان الشجاعى يكره الأمير طرنطاي ، فحسن للسلطان القبض عليه ، فقبض عليه في ذلك اليوم وحمل الى الاعتقال ... فكان الأمر كما قالته الأمراء للأمير طرنطاي : ان الأشرف خليلا يقبض عليه . فلما قبض عليه ندم الأمير طرنطاي الذى ما قبض على الأشرف خليل قبل أن يتسلطن ، كما قيل في المعنى :

احذر من الناس ، ولا

معترك الشك تجل

في قلب ليث بت ... وخف

ان بت في قلب رجل

فأقام الأمير طرنطاي بالسجن في القلعة ثلاثة أيام ، ثم ان السلطان أمر بقتله فخنق وهو في السجن ، فغسلوه وكفوه وصلوا عليه ودفن تحت الليل في القرافة الصغرى .

ثم ان السلطان رسم للشجاعى بأن يختاط على موجود الأمير طرنطاي ، فنزل الشجاعى الى بيت طرنطاي ، ورسم على مباشره ، وقبض على جميع من كان من حاشيته ، وقبض على نسائه وسراريه ، وأحضر لهم المعاصير وعصرهم وقررهم على الأموال والذخائر ... فكان الشجاعى ينزل في كل يوم الى بيت الأمير طرنطاي ويقرر جماعته ونسائه ويعاقبهم أشد العقوبة ، فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله ، فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير بيدرا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير طرنطاي النائب .

فلما قتل الأشرف خليل الأمير طرنطاي صفا له

الوقت ، فأرسل خلف القاضى شمس الدين بن السلوس — وكان بالحجاز من أيام الملك المنصور قلاون — بالحضور ، وحشاه بخط يده بالقلم العريض بين السطور وهو يقول : « يا شعير ! جد السير ، جاء الخير » ... وكان الأشرف خليل كثيرا ما يحشى في مراسيمه بقلم العلامة .

وحشى أيضا مرسوما وأرسله الى دمشق لما أمر باسقاط ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل من باب الجابية من القمح خمسة دراهم من المكس ، فرسم بابطال ذلك وكتب في مرسومه بين السطور : « وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ، ونستجلب بذلك الدعاء الينا من الخاصة والعامة » ... فهو أول سلطان حشى في مراسيمه بين السطور بخطه بيده .

فلما حضر شمس الدين ابن السلوس من مكة الى القاهرة ، خلع عليه واستقر به وزيرا مستشار المملكة ، وفوض اليه أمر السلطنة جميعها ، وأحال الناس في أشغالهم عليه ، وفصل الشجاعى من الوزارة . وكان حضور شمس الدين ابن السلوس من مكة في ثالث عشر المحرم مستهل سنة تسعين وستمائة ، وقد حضر صحبة مبشر الحاج على الهجن ، وجد المسير حتى حضر الى مصر .

قيل : وكان أصل ابن السلوس هذا من دمشق ، وكان تاجرا بها ، فحضر في بعض السنين الى مصر ، وكان له خط جيد ، فسعى عند الأشرف خليل — وهو أمير في أيام والده قلاون — فجعله ناظر ديوانه ، وصار يستأجر له مواضع كثيرة في البلاد الشامية ، فيتحصل منها كل سنة جملة من المال ، فحظى ابن السلوس عند الأشرف حتى صار نديمه ولا يصبر عنه ساعة واحدة ، واحتوى على عقله ومملك له ... فلما بلغ الملك المنصور قلاون ذلك ، أمر بنفى ابن السلوس الى مكة ،

فأقام بها الى أن مات المنصور قلاون وتسلطن ابنه خليل ، فأرسل نحو ابن السعلوس نجابا مطردا كما تقدم . فلما حضر واستقر به وزيرا فوض اليه جميع أحوال المملكة ، فكان يركب ، ومعه جماعة من الأمراء الرؤوس النواب والمماليك السلطانية في كل يوم حسبما رسم له السلطان بذلك ، وكانت القضاة الأربعة تركب قدامه في أيام الموكب ، وعظم أمره حتى صارت القصص تقرأ عليه ، وينفذ أمرها من غير مشورة السلطان ، فأظهر من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره ، وانفرد بالكلمة في مصر دون غيره ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وصار يجتمع بالسلطان في الليل في خلوة ويقضى أشغال الناس من سهلها لصعبها ، كما قيل في المعنى :

ملك اذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوكة يمينى

سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) :

فيها جرد السلطان وخرج بنفسه هو والعساكر الى حصار مدينة عكا وكانت بيد الافرنج . فلما وصل الى عكا حاصر أهلها أشد المحاصرة ، ونصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا ، وحاصرها مدة أيام فأعطاه الله النصر وفتحها بالسيف في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . فلما افتتحها هدم سورها وقلعتها . وكانت عكا بيد الافرنج ، وكانوا يقطعون على المسافرين الطريق ، ويأخذون أموال التجار ، ويقتلون كل من لقوه من المسلمين . فلما فتح الملك الأشرف خليل مدينة عكا توجه من هناك الى جبتي وبيروت ، فافتتحها في تلك السنة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه : ان عكا كانت من أحسن المدائن في العمارة والبناء الفاخر . فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خرابا من يومئذ ، وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الأبيض الذى على المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، وكان هذا الباب على كنيسة ، فنقل الى القاهرة فأخذه الملك الناصر ابن قلاون ووضع على باب مدرسته التى أنشأها بجانب البيمارستان . قيل لما فتحت عكا قتل في مدة المحاصرة من الأمراء اثنا عشر أميرا ، وقتل بها العزى نقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب سويقة العزى سميت به . وقتل يوم الفتح من المماليك السلطانية نحو مائة وعشرين مملوكا .

ثم ان الملك الأشرف خليلا لما فتح عكا رجع الى الديار المصرية وهو في غاية النصر والعظمة ، فدخل من باب النصر ، وشق في المدينة وزينت له . وكان يوم دخوله يوما مشهودا والأمراء مشاة بين يديه ، والأمير بيدرا نائب السلطنة حامل القبة والطيح على رأسه ، ولعبوا بالغواشي الذهب بين يديه . وكان القضاة الأربعة وأرباب الوظائف راكبين بين يديه ، وكان له موكب عظيم . فلما وصل الى البيمارستان ثنى عنان فرسه ونزل وزار قبر والده قلاون ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، فخلع على الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض الموكب .

ومن غرائب الاتفاق أن الشيخ شرف الدين الأبوصيرى - ناظم البردة - رأى في منامه ، قبل مسير الملك الأشرف خليل الى حصار عكا في شوال سنة تسع وثمانين وستمائة ، كأن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا
وأشبعوا الكافرين صكا

وساق سلطاننا اليهم
خيلا تدك الجبال دكا

وأقسم الترك منذ سارت
لن يتركوا للفرنج ملكا

فلما اتبه الشيخ شرف الدين من منامه أخبر
بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه . فلما توجه الأشرف
خليل الى عكا فتحها الله على يديه ، فكان الأمر
كما قال الهاتف في منامه ، وأخذت عكا . وفي ذلك
يقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر — كاتب
السر الشريف — هذين البيتين :

يا بني الأصفر قد حل بكم

نقمة الله التي لا تنفصل

نزل الأشرف في ساحلكم

فأبشروا منه بصاك متصل

ولما رجع الملك الأشرف من هذه الغزوات ، عظم
في نفسه ، واستخف بالأمرء ، فأخذ في أسباب
لقبض على جماعة منهم ، فقبض على الأمير حسام
الدين لاجين السلحدار ، وكان نائبا . فلما رجع
مع السلطان الى الديار المصرية بعد فتح عكا قبض
عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة صنفد ، ثم
أمسك الأمير سنقر الأشقر الذي كان قد تسلطن
بدمشق كما تقدم ، وقبض على الأمير طقصو ،
وقبض على الأمير جرمك ، ثم قبض على أميرين
ما يحضرني اسماهما ثم أرسل خلف الأمير لاجين
الذي كان في السجن بقلعة صنفد ، فلما حضر أكملهم
سبعة من الأمرء وسجنهم بقلعة الجبل في برج
الحية . فلما كانت ليلة الأحد أمر بخنق هؤلاء
الأمرء جميعهم ، فخنقوا في البرج تحت الليل .
فلما أخرجوهم ليدفنوهم وجدوا الأمير لاجين نائب

الشام فيه بعض نفس ، فأخبروا السلطان بذلك ،
فعطف عليه وأمر بأن يفرج عنه ، فكان كما قيل :
« الحى مالو قاتل ، ولو قتل ما مات » ... وكيف
يموت وقد كتب الله له في اللوح المحفوظ أن يكون
سلطانا بمصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ؟
فلما عوفي الأمير لاجين أنعم عليه السلطان بتقدمة
ألف .

ثم ان السلطان أمر بالافراج عن الأمير بيسرى ،
وكان في السجن بشعر الاسكندرية . وكان سبب
ذلك أن السلطان لما حضر من السفر ومر بالمدينة ،
 واجتاز أمام قصر بيسرى الذى كان تجاه المدرسة
الكاملية ، وقف له أولاد الأمير بيسرى تحت القصر
وقبلوا له الأرض — وكانوا ستة أولاد ذكور صغار
وفيههم من هو رضيع — فقال السلطان : « من
هؤلاء ؟ » . فقال له الأمرء : « هؤلاء أولاد
مملوكك بيسرى » ... فرق لهم السلطان ، وقال
لهم : « يحصل الخير ان شاء الله » . فلما طلع
القلعة وجرى لهؤلاء الأمرء ما جرى ، أفرج عن
الأمير بيسرى وأنعم عليه بتقدمة ألف .

سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢ م) :

فيها توجه السلطان الى نحو الشام ، فأقام بها
مدة أيام ، ثم توجه الى نحو حلب ، ثم توجه من
حلب الى قلعة الروم وحاصر أهلها ونصب حول
المدينة ثلاثة وعشرين منجنيقا ، ففتحها بالسيف في
يوم السبت حادى عشر رجب من سنة احدى
وتسعين وستمائة ، وكانت قلعة الروم كرسى مملكة
الأرمن . ثم رجع السلطان الى نحو الديار المصرية ،
وطلع قلعة الجبل .

سنة اثنتين وتسعين وستمائة (١٢٩٣ م) :

فيها خرج السلطان على حين غفلة على الهجن ،

سنة عشرين وستمائة ، فكانت مدة حياته اثنتين
وسبعين سنة ، وكان له نظم ونثر فائق ، فمن ذلك
قوله :

ان كانت العشاق من أشواقهم
جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم : ياليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :
فيها توجه الملك الأشرف خليل الى نهر البحيرة
على سبيل التنزه ، فخرج من القاهرة في ثالث
المحرم ، فلما وصل هناك ضرب خيامه في مكان
يعرف بالحمامات — وهو غربى تروجه — فأقام
هناك مدة .

ثم انه قصد أن يتوجه الى نهر الاسكندرية ،
فأرسل صاحب شمس الدين ابن السعلوس الى
نهر الاسكندرية ليجهز الاقامات لأجل قدوم
السلطان . فلما دخل ابن السعلوس الاسكندرية ،
وجد غلمان الأمير بيدرا النائب بنهر الاسكندرية
وقد استولوا على بهار الأمير بيدرا وأدخلوه في
الحواصل — وكان أعظم من بهار السلطان —
فحصل بين ابن السعلوس وبين الأمير بيدرا
تشاجر ، فأرسل ابن السعلوس يكتاب السلطان
بما جرى من غلمان الأمير بيدرا وما رأى عنده
من البهار وما قاله غلمان بيدرا ، وزاد على كل
كلمة عشرة ، وأغلظ في القول ... فلما سمع
السلطان ما في مكتبة ابن السعلوس ، غضب
على الأمير بيدرا أشد الغضب ، وأضر له
العطب ، فكان كما قال القائل :

يا ناقلا الى قول حاسدى
لا ينبغي نقل الذى لا ينبغي

فلما خرج من القاهرة توجه الى نهر الكرك ،
فاستقر بالأمير اقوش نائبا . ثم توجه من هناك
الى دمشق ، فعرض عليه العسكر بدمشق ، وعين
جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ليتوجهوا
الى نهر سيسى . فلما وصلوا الى سيسى أرسل
صاحب سيسى يطلب الأمان ، فأرسل الأمراء
يكاتبون السلطان بذلك ، فعاد الجواب من
السلطان : « ان كان صاحب سيسى يسلم هذه
الثلاث قلاع — وهى قلعة البهنسا وقلعة مرعش
وتل حمدون — فأعطوه الأمان . وان لم يسلم هذه
الثلاث قلاع فحاصروه » ... فلما وصلت مراسيم
السلطان بذلك سلم صاحب سيسى تلك القلاع
الثلاث ، وحصل الصلح ، ورجع العسكر من
سيسى .

ثم ان السلطان أقام بدمشق الى مستهل رجب ،
ثم توجه من هناك الى نهر حمص ، فأضافه الأمير
مهنا بن عيسى ثلاثة أيام بلياليها . ثم ان السلطان
بدا له أن يقبض على الأمير مهنا بن عيسى وعلى
اخوته ، فقبض عليهم وولى الأمير على بن حديثه
عوضا عن الأمير مهنا بن عيسى .

ثم ان السلطان رجع الى دمشق ، ورسم للأمير
بيدرا النائب بأن يأخذ العسكر ويتوجه الى
القاهرة . فأخذ الأمير بيدرا في أسباب التوجه الى
القاهرة ، وأخذ معه الأمراء والعسكر ، ورجع الى
مصر ، وأقام السلطان بدمشق على سبيل التنزه ،
ثم توجه الى الديار المصرية ودخل القاهرة في موكب
عظيم وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله . وزينت
له القاهرة بالزينة الفاخرة ، وسار في الموكب مثل
العروس ، حتى طلع القلعة وجلس على سرير المملكة
أحسن جلوس .

وفي هذه السنة توفي القاضى محيى الدين بن
عبد الظاهر كاتب السر الشريف ، وكان مولده في

لا تؤذنى فى حجة النصيح فما

أسمعنى السوء سوى مبلغى

ثم ان السلطان أرسل خلف الأمير بيدرا وقت الظهر . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد القبض عليه وتوعده بكل سوء ، فتلطف به الأمير بيدرا فى الكلام حتى خرج من بين يديه ، فاجتمع بالأمرء من خشداشينه واتفق رأيهم على الوثوب على السلطان .

ثم ان السلطان قصد أن يتصيد ويخلو بنفسه ، فأعطى الأمرء والعسكر دستورا بأن يتوجهوا الى القاهرة الى حين يعود السلطان ، فمضى الأمرء والعسكر الى القاهرة ، ولم يبق مع الملك الأشرف سوى بعض ممالك جمدارية . فلما كان يوم السبت خامس المحرم ركب السلطان وانفرد وحده — وليس معه سوى أمير شكار شهاب الدين بن الأشل — فلما بلغ ذلك الأمير بيدرا رجع من أثناء الطريق وقال هذا وقت انتهاز الفرصة ... قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة

تصير ان لم تنتهزها غصه

وان رأيت النصر قد لاح لك

فلا تقصر واحترز أن تهلكا

فأرسل الأمير بيدرا خلف خشداشينه — وهم الأمير قرا سنقر ، والأمير لاجين ، والأمير بهادر ، والأمير آق سنقر ، وجماعة من الخاصكية — فشدوا فى أوساطهم تراكيش وسيوفا ، وركبوا خيولهم ، ثم ساقوا خلف السلطان ، فوجدوه منفردا وحده وليس معه سوى أمير شكار وبعض ممالك جمدارية ... فلما رآهم السلطان قاصدينه — وكانوا نحو عشرة من الأمرء — أحس بالشر ، وظهر له منهم الغدر . فلما أن وصلوا اليه عاجلوه بالحسام قبل الكلام . فكان أول من ابتدأه

بالحسام الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فضربه بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاجين وقال له : « ويلك ! الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه الضربة ؟ » . ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه ضربة فوقع الى الأرض ... فجاء الأمير بهادر ، رأس نوبة النواب ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف فى دبر السلطان وأخرجه من حلقه ، وصار كل واحد من الأمرء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان ، ثم تركوه ميتا فى المكان الذى قتل فيه ، ثم ردوه الى الوطاق .

وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فوقع رأيهم على أن يولوا الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فحلف له الأمرء ، ثم قبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأمجد ، وقيل بالملك الرحيم . ثم فكوا الوطاق وتوجهوا الى القاهرة ، فأركبوا الأمير بيدرا تحت العصائب السلطانية ، ثم شرعوا فى مسك جماعة من الأمرء . منهم الأمير يسرى ، والأمير بكتمر السلحدار ، وغير ذلك من الأمرء .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمرء الذين كانوا بالقاهرة ، ركبوا خيولهم على حمية سائر الأمرء والممالك السلطانية ، فلما عدوا من الجيزة ووصلوا الى الطرانة تلاقوا هم وييدرا هناك ، فوقع بينهم على الطرانة واقعة عظيمة ، فانكسر بيدرا ، وسار يتسحب من كان معه من الممالك ويجىء عند الأمير كتبغا . وكان بيدرا قد جمع معه من عربان الجيزة جماعة كثيرة ، فلما رأوا بيدرا قد انكسر رجعوا الى البحيرة مطرودين . وكان بيدرا لما انكسر توجه نحو الجبل فتبعه جماعة من الممالك السلطانية ، فقبضوا عليه ، وأتوا به عند الأمير كتبغا . فلما رآه ممالك الأشرف قطعوه قطعا بالسيف ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل واحد منهم يقطع منه قطعة ويأكل منها ، ثم حزوا رأسه وحملوها على

رمح ، وقصدوا التوجه الى القاهرة فطافوا برأس بيدرا في المدينة ثم علقوها على باب بيته . فلما رأى من كان مع بيدرا من المماليك والأمراء أنه قتل ، هربوا واختفوا .

ثم ان الأمير سنجر الشجاعى نادى النواتية من شاطئ البحر بأن لا أحد من النواتية يعدى بمملوك من عسكر بيدرا ، ولا بأحد من حاشيته ... هذا ما كان من أمر الأمير بيدرا .

وأما ما كان من أمر الأشرف خليل بعد قتله ، فانه أقام بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفن ، وهو مطروح في البرية ، وقد أكلته الذئاب حتى قال فيه الشاعر هذا المعنى :

ألم تر أن الليث حقا تناهشت

ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا

ثم ان والى تروجة ، أيدمر الفخرى ، حمل الأشرف خليلا على جمل وأتى به الى القاهرة ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه في مدرسته التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها .

وكان الملك الأشرف حسن الوجه ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسد ، كبير الوجه ، شديد البأس ، مهيبا في أعين الناس ، كفؤا للسلطنة ، عارفا بالملكمة . وكان بطلا شجاعا مقداما على القتال ، لا يكل من الحروب ليلا ولا نهارا ، وكان مسعودا في حركاته ، ولو طال عمره لكان يفتح غالب بلاد العراق ... ولا يعرف في أبناء الملوك من يناظره في العزم والشجاعة والإقدام ، وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ في ترجمته .

وكان يميل الى شرب الراح والى السماع الطيب ، وكان كثير الانهماك على اللذات ، وكان عنده معرفة بصناعة الانشاء والتوقيع ، وكان يتعاضد حتى كان يكتب في علامته على المراسيم

والمربعات حرف الخاء فقط ، اشارة الى الحرف الأول من اسمه . ومنع الموقعين أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب « الزعيمى » ، وكان يقول : « من زعيم الجيوش غيرى ؟ » .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر الشريف ، قبل موته : « ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف خليل . ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة ، فما علم على مرسوم قط الا وقرأه جميعه ، وفهم ما فيه ، بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة في صنعة التوقيع ونرى فيها الصواب منه » .

ولكنه كان من مساويه أنه نفى الملك العادل سلامش وأخاه سيدى خضر — وهما أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى — كانا في الكرك ، فنفاهما الأشرف خليل الى القسطنطينية ، وقد تخيل من اقامتهما في الكرك ، فأرسل الأمير عز الدين أيبك الموصلى فأخذهما من الكرك وأمهما معهما ، وتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية ، ثم أرسلهما من البحر المالح الى القسطنطينية ، فلما وصلا الى هناك أكرمهما الأشكرى صاحب القسطنطينية ، وأحسن اليهما ، ورتب لهما ما يكفيهما من النفقة في كل يوم .

وأما سلامش فأدركته المنية هناك فمات . فلما مات صبرته أمه في تابوت الى أن اتفق عودها الى القاهرة فحملته معها وهو ميت ، فدفنوه بالقرافة . ومات سلامش وله من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة .

وأما سيدى خضر فانه عاد الى مصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

ومن مساوي الأشرف خليل أنه خلق سبعة من الأمراء المقدمين في ليلة واحدة كما تقدم . وكان سفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا من الأمراء وغيرهم .

ومن مساويه أيضا أنه كان يسمع الكلام في حق الناس بالباطل من وزيره ابن السعلوس ، وكان ذلك سببا لزوال ملكه . ولكن كان عنده العدل في حق الرعية ، ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوق ، ولا يراعى في ذلك أحدا . وكان منقادا للشريعة ويحب العلماء ، وكان اذا ظهر له الحق لا يوالس عليه ، وفيه يقول بعض الشعراء :

يا أيها الملك الذي سطواته

حلمت بها الأعداء في يقظاتها

ملك تصر له الملوك بأنه

انسان أعينها وعين حياتها

شتت شمل المال بعد وفوره

وجمعت شمل الناس بعد شتاتها

وكانت قتلة الأشرف خليل يوم السبت بعد العصر خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر ثلاثون سنة ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وأما فتوحاته التي افتتحها في أيامه من المدن فهي مدينة عكا وصيدا وبيروت وعثليث وبهنا وقلعة الروم ومرعش وتل حمدون وصور . وأما ما أنشأه من العمارات فهي قاعة الأشرفية التي بقلعة الجبل ، والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وله غير ذلك من الآثار .

وقيل بلغت عدة الممالك السلطانية في أيامه اثني عشر ألف مملوك .

وتوفي في أيامه أبو جلنك الحلبي الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . ومما وقع له أنه دخل حلب ودمشق فامتدح القاضي كمال الدين ابن الزملكانى الشافعى بقصيدة سينية وجلس على الباب ينتظر الجائزة ، فأرسل له

القاضي رقعة بأن يصرف له رطلان من الخبز ، فغضب أبو جلنك ومضى ... ثم بعد مدة دخل أبو جلنك الى بستان من منتزهات دمشق فأقام فيه يومه ، ثم سأل عن ذلك البستان ف قيل له ان البستان لقاضى القضاة كمال الدين ابن الزملكانى المشار اليه ، فكتب أبو جلنك الحلبي على بعض حيطان ذلك البستان هذين البيتين :

لله بستان حللنا دوحه

في جنة قد فتحت أبوابها

والبان تحسبه سنايرا رأت

قاضى القضاة فنفتت أذناها

فهجا القاضي بأحسن عبارة وألف اشارة .

ولما قتل الأشرف خليل ، وجرى للأمير بيدرا ما جرى ، وقع رأى الأمراء على سلطنة محمد ابن قلاون أخى الأشرف خليل فسلطنوه ولقبوه بالملك الناصر ، وكان القائم في ذلك الأمير كتبغا .

الملك الناصر

هو الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسلطن بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو تسع سنين ودخل في العاشرة ، وكان مولده سنة أربع وثمانين وستمائة . وكانت أمه أشلون بنت الأمير شنكاي ، فلما أن تسلطن خلع على الأمير كتبغا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيدرا ، وخلع على الأمير سنجر الشجاعى واستقر به وزيراً عوضا عن الأمير شمس الدين بن السعلوس ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير واستقر به استادارا وكاشف الكشاف ... وفي ذلك اليوم

طافوا برأس بيدرا على رمح ، ثم علقوها على باب القلعة .

ولما تولى الملك الناصر واستقر أمره ، قبض الشجاعى على جماعة من الأمراء ممن كانوا سببا فى قتل الأشرف خليل ... فقبض على الأمير قفجق السلحدار ، والأمير قرمش السلحدار ، والأمير بورى السلحدار ، وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير لاجين چركس ، والأمير مغلطاي المسعودى ، والأمير كردى الساقى وهو صاحب الحمام الذى فى المدابع .

فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم فى البرج الذى فى القلعة . ثم انه قبض على جماعة من المماليك السلطانية وسجنهم بخزانة شمائل ، ثم ان الأمير بيبرس الجاشنكير تولى عقوبة هؤلاء الأمراء وصار يقرهم على من كان سببا فى قتل الأشرف خليل . ثم رسم الأمير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمروا على الجمال ، وطافوا بهم فى القاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، ثم وسطوهم فى سوق الخيل ومضى أمرهم .

ثم ان الشجاعى قبض على صاحب شمس الدين بن السلوس الذى رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، فاحتاط الشجاعى على موجوده جميعه ، وصادر عياله وغلمانة وحاشيته ونساءه وأقاربه ، واستصفى أموالهم جميعها حتى صادر سائر أصحابه ، فذهبت أمواله ، وزال سلطانه ، واختفى سعده ، وظهر عكسه ، وظفرت به أعداؤه ، وتولى الدهر عنه وما دعاه ، فكان كما قيل :

لا تفرحن بخير جاء من غلط

فللزمان اساءات واحسان

وكن من الدهر ان يصحو على حذر

فما تقدمت الا وهو سكران

ومن النكت اللطيفة ... قيل ان صاحب شمس الدين بن السلوس لما أن رقى وبلغ من العلو ما بلغ فى دولة الأشرف خليل ، أرسل ابن السلوس يطلب أقاربه الذين كانوا بدمشق ، فكلهم أجابوه الى الحضور الا شخصا من أقاربه يقال له زين الدين ، فانه أبى الحضور وخاف على نفسه ولم يوافق على الدخول الى مصر ، وكتب الى ابن السلوس فى رقعة وهو يقول هذين البيتين :

ثبت ياوزير الملك ، واعلم

بأنك قد وطئت على الأفاعى

وكن بالله معتصما فالى

أخاف عليك من نهش الشجاعى

فكان القول بالمنطق ... فما كان عن قريب حتى قتل الأشرف خليل ، وتسلم الشجاعى ابن السلوس ، واستصفى أمواله وعاقبه حتى مات تحت العقوبة كما تقدم .

ثم ان سنجر الشجاعى لما رأى أن الوقت قد صفا له وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، استخف بالسلطان الملك الناصر محمد لصغر سنه ، فحدثته نفسه بالسلطنة ، فصار يرمى الفتن بين الأمراء وبين الأمير كتبغا نائب السلطنة ، فصار مع الأمير كتبغا فريق من العسكر ، وفريق مع الشجاعى ... فكان الشجاعى يذل الأموال على جماعة من المماليك البرجية حتى قيل انه أنفق عليهم فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، واتفق معهم بأن كل من قتل أميرا وجاء برأسه من عصبة الأمير كتبغا يأخذ بيته وبركه واقطاعه . فلما بلغ ذلك الأمير كتبغا اجتمع بأعيان خشداشيينه وألبسهم آلة الحرب ووقفوا فى سوق الخيل . فلما علم الشجاعى بذلك أغلق باب القلعة وعلق السنجق

السلطاني ودق الكؤوسات حربى ، هم صار ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، وصار الأمير كتبغا يحاصر القلعة وقطع عنها الماء ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر من صفر نزل المماليك البرجية من القلعة على حين غفلة ووقعوا مع الأمير كتبغا واقعة قوية حتى كاد الأمير كتبغا أن ينكسر . ثم كسرت عصبة الأمير كتبغا فاجتمع معه الأمير يسرى ، والأمير بكتاش أمير سلاح ، والأمير بكتوت العلاني ، والأمير أيبك الموصلى ، والأمير آق سنقر ، والأمير بلبان الحسنى ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأمراء الأربعة عشر والعشراوات والمماليك السلطانية ... فوقعوا مع المماليك البرجية واقعة قوية ، فانكسر المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة منهزمين ، وليس لهم من ناصر ولا معين .

ثم ان خوند أشلون ، أم الملك الناصر محمد ، أرسلت خلف الأمير كتبغا من باب السلسلة ، وتحدثت معه من أعلى السور ، وقالت له : « ايش قصدك حتى تفعله ؟ ... ان كان قصدك أن يخلع ابنى من السلطنة فافعل » . فقال الأمير كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك . وانما قصدنا القبض على الشجاعى واخماد الفتنة » ... فانفصل الأمر على ذلك .

فلما سمع من كان من عصبة الشجاعى ما جرى صاروا ينزلون من القلعة ويجيئون الى الأمير كتبغا ، فلا زالوا على ذلك حتى لم يبق عند الشجاعى الا القليل . فلما رأى الشجاعى عين الغلب أرسل يطلب الأمان من الأمير كتبغا ، فلم يعطه كتبغا أمانا ولا وافقه بقية الأمراء على ذلك .

ثم ان الشجاعى دخل الى السلطان فى صورة أنه يستشير فيما يكون هذا الأمر وما يفعل فى

ذلك ، فقال له السلطان : « يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه ؟ » . فقال له الشجاعى : « هذا كله لأجلك يا ابن أستاذى ... فانهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا » . فقال له السلطان : « يا عمى ، أنا أعطيك نيابة حلب واخرج اليهم فى هذه الساعة لتستريح منهم » . فلم يوافق على ذلك الشجاعى وأغلظ على السلطان فى القول ، فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج .

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه ، وقطعوا رأسه ووضعوها فى فوطة حرير ، وكان الذى قتل الشجاعى شخصا من المماليك يقال له بهاء الدين أقوش . فلما خرج برأس الشجاعى الى باب القلعة رآه بعض المماليك البرجية الذين هم من عصبة الشجاعى ، فقالوا له : « ما معك فى هذه الفوطة ؟ » . فقال : « خبز سخن أرسله السلطان الى الأمراء ليعلموا أن عندنا الخبز كثير » . فتركوه حتى مضى ونزل من القلعة ... ولو علموا أن معه رأس الشجاعى لقتلوه شر قتلة

فلما نزل الى الرملة رمى برأس الشجاعى بين يدى الأمير كتبغا . فلما رأى الأمراء رأس الشجاعى توجه كل واحد منهم الى بيته ، وخمدت الفتنة ، ولم يبق شر بينهم .

ثم ان الأمير كتبغا رسم بأن يطوفوا برأس الشجاعى فى مصر والقاهرة ، فطافوا بها وهى على رمح ، والمشاعلية تنادى عليها ، وكان أكثر الناس من أهل مصر والقاهرة يكرهون سنجرا الشجاعى ، فصاروا يعطون المشاعلية شيئا من الفضة ويأخذون منهم الرأس ويدخلون بها الى دارهم ، ولا يزالون يصفعونها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه ، وطافوا بها فى الحارات والأزقة حتى طافوا بها فى حارات زويلة ، وصار اليهود يدخلون بها الى

بيوتهم ، ولم يزالوا يصفعونها بالنعال حتى اشتفوا منها ، وربما كانوا يبولون عليها ، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية حتى قيل كان مع المشاعلية برنية خضراء يحصلون فيها الفضة التي تدخل عليهم من الناس ، فقيل انهم ملأوا البرية ثلاث مرات فضة ... ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع ، وهى من الغرائب .

قيل كان سنجر الشجاعى هذا رجلا طويلا عريضا ، كامل الخلقة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، مهيب الشكل ، قاسى القلب ، مظلم الصورة ، عسوفاً كثير الأذى ، اذا ظفر بأحد لا يرحمه ، ولا يراعى فى الأنام خليلاً ... فلما أن قتل لم يرث له أحد من الناس فكان كما قال القائل :

لا تفعل الشر فتسمى به
وافعل الخير تجاز عليه
أما ترى الحية من شرها
يقتلها من لا تؤاسى عليه

فلما قتل الشجاعى وخمدت الفتنة ، طلع الأمراء عند السلطان وجمعوا الممالك البرجية ، وكانوا يسكنون فى أبراج القلعة ، فرسم الأمير كتبغا بأن ينزلوا من القلعة ويسكنوا فى الأبراج التى فى سور القاهرة خلف البرقية ، فسكنوا بها — وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمئة مملوك — فرتب لهم الأمير كتبغا ما يكفيهم فى كل يوم ، وشرط عليهم أنهم لا يركبون ولا يخرجون من الأبراج .

ثم ان الأمير كتبغا قبض على جماعة من الأمراء الذين كانوا من عصبة الشجاعى ، وهم : الأمير بيبرس الجاشنكير أستاذار العالية ، وقبض على الأمير اللقانى أمير أخور كبير ، وقيدهم وأرسلهم

الى السجن بئر الاسكندرية . ثم أفرج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا مسجونين بالبئر المذكور ، وهم : الأمير قفجق السلحدار ، والأمير عبد الله حامل الخبر ، والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاجين جركس ، والأمير مغلطاي المسعودى ، والأمير كردى الساقى ، والأمير عمر شاه السلحدار ... فلما حضروا خلع عليهم وأعادهم الى وظائفهم واقطاعاتهم .

سنة أربع وتسعين وستمئة (١٢٩٤ م) :

فى يوم عاشر المحرم ثار جماعة ممالك الأشرف خليل تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة وهجموا على اصطبلات الناس . فلما طلع النهار أرسل الأمير كتبغا فقبض على من فعل ذلك من الممالك ، وقطع أيديهم ، وصلب على باب زويلة منهم جماعة ووسط منهم جماعة ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك . فلما جرى ذلك اجتمع الأمراء وضربوا مشورة وقالوا قد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن ، وطمع الممالك فى حق الرعية ، ومن رأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع الممالك عن هذه الأفعال . فعند ذلك وقع الاتفاق من الأمراء على خلع الملك الناصر محمد ، وأن يولوا كتبغا ، فخلعوا الملك الناصر من السلطنة وولوا كتبغا ، فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرة أحد عشر شهرا وأياما .

الملك العادل كتبغا

هو الملك العادل كتبغا ، بن عبد الله المنصورى ، وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك الناصر محمد

ابن قلاون في حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين
وستمئة ، وتلقب بالملك العادل ، ونودى باسمه في
القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء .

وكان أصله من سبایا التتار ، أخذه الملك
المنصور قلاون في وقعة حمص الأولى ، وذلك في
سنة تسع وخمسين وستمئة ، فصار من جملة ممالك
السلطان قبل أن يلى السلطنة ، فلما تسلطن جعله
أمير عشرة ، ثم بقى مقدم ألف . فلما قتل الأشرف
خليل وتولى أخوه محمد جعله نائب السلطنة ثم بقى
سلطانا . فلما تم أمر كتبغا في السلطنة استقر بالأمير
لاجين نائب السلطنة عوضا عن نفسه . وكان الأمير
لاجين ممن تواطأ على قتل الملك الأشرف . فلما تولى
أخوه محمد هرب الأمير لاجين — وكان من عصابة
بيدرا — فاختفى لاجين مدة طويلة نحو سنة ،
فكان مقيما في خزانة أحمد بن طولون . ثم ان
الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن
قلاون ، فقبله به ، فرضى عليه السلطان ، وأنعم
عليه بتقدمة ألف . فلما تسلطن كتبغا جعله نائب
السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ،
وجعل الأمير بهادر حاجب الحجاب .

ثم ان الأمير كتبغا لما ثبت أمره في السلطنة
صار يقرب خشداشيته وينعم عليهم بتقادم ألوف
وبالاقطاعات السنية ، وقويت شوكته وراج أمره
في السلطنة وصار له عصابة .

سنة خمس وتسعين وستمئة (١٢٩٥ م) :

فيها أجذبت البلاد وشح النيل ، وقد وصل الى
اثنى عشر ذراعا ثم هبط ، فشرقت الأراضي ووقع
الغلاء والقحط بالديار المصرية ، وشحط سعر
القمح الى مائة وسبعين درهما كل أردب ، وكذلك
الفول ، وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم ،
وبيع كل فروج بخمسة عشر درهما ، وبيعت
البيضة الواحدة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة

والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين
درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا
الكلاب والحمير والبغال والخيول والجمال ، ولم
يبق عند أحد شيء من الدواب ... حتى قيل صار
يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة
دراهم . فلما طال الأمر على الناس أرسل الله
تعالى اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيئا
كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال
بدرهمين . وقد عم هذا الغلاء سائر البلاد ... حتى
البلاد الشامية ، حتى مكة والمدينة وسائر أعمال
الديار المصرية .

ثم أعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس
يتساقطون موتى في الطرقات ... قيل مات في هذه
السنة من الناس نحو الثلث ، حتى كفن الملك
العادل كتبغا من ماله في مدة يسيرة من مات من
العربان على الطرقات نحو مائتين وسبعين ألف
انسان ، فجافت منهم الحارات والأزقة ، وصار
الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا في الحال . وفي ذلك
يقول ابن المعمار :

يا طالبيا للموت قم واغتتم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

ثم كشف الله عن الناس هذه الكربة ، وتراجع
الأمر قليلا قليلا ، وانحطت الأسعار ، وانصلح
الحال كما كان أولا ، وزالت تلك الشدة العظيمة
فكان كما قيل :

قل لمن يحمل هما ان هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرات كذا تفنى الهموم
وفي هذه السنة — وهى سنة خمس وتسعين
وستمئة — توفى الشيخ الزاهد الناسك سيدى

ثم لما سمعت باسمك فيه
قلت نعم المولى ونعم النصير
ومن هنا نرجع الى أخبار كتبنا .

سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م) :

فيها سافر السلطان الى البلاد الشامية بسبب
تمهيد البلاد ، فلما دخل الشام صلى بها الجمعة ،
ثم في يوم السبت لعب في ميدان دمشق بالكرة وأقام
بها أياما وعزل من عزل وولى من ولى ، ثم قصد
التوجه الى الديار المصرية . فلما رحل من دمشق
ووصل الى وادى فجمة ، وقع بين الأمير لاجين
نائب السلطنة وبين جماعة من الأمراء كلام فبادر
الأمير لاجين وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم
الأمير بنجاص العادلى ، والأمير بكتوت الأزرقى ،
وكانا جناحى الملك العادل كتبنا . فلما بلغه ذلك
رجع الى دمشق في نفر قليل من العسكر .

فلما رجع كتبنا الى دمشق احتوى الأمير لاجين
على خزائن المال ، وركب تحت العصائب
السلطانية ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ...
هذا ما كان من أمر الأمير لاجين .

وأما ما كان من أمر الملك العادل كتبنا فانه لما
رجع الى دمشق ، أقام بها ثلاثة عشر يوما وهو
بقلعة دمشق ، وقد أطاعه أهلها وتعصبوا له ، فما
مضى قليل حتى جاءت الأخبار من القاهرة بأن
لاجين قد تسلطن بمصر وتلقب بالملك المنصور ،
فعند ذلك انحل برم الملك العادل كتبنا وانصرف
عنه الناس .

فلما كان يوم الخميس ثامن ربيع الأول من
السنة المذكورة ، وصل الى دمشق الأمير حسام
الدين لاجين استادار العالية ، وعلى يده مراسيم
لقضاة دمشق وللأمراء ، فاجتمعوا بدار السعادة
وقرأوا مراسيم السلطان لاجين على القضاة والأمراء

فتح الأسمر رحمة الله عليه . وهو فتح بن عثمان
الأسمر التكرورى المراكشى ، قدم من مراكش الى
دمياط على سبيل التجريد ، وكان يسقى في دمياط
الماء في الأسواق احتسابا من غير أن يأخذ من أحد
شيئا ، وكان يلزم الصلاة في المسجد مع الجماعة ،
وكان لا يرى الا وقت الصلاة ، واذا سلم الامام
عاد الى انعكافه . واستمر على ذلك حتى توفى في
ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين
وستمائة ، ودفن بشجر دمياط بجوار مسجد الفتح
وقبره يزار الى الآن ، وقد قيل فى المعنى :

لعمرك ما دمياط الا حبيبة
تهيم الورى منها بأحسن منظر
لها ناظر منها يصول بأبيض
ويطعن من فتح القوام بأسمر

وفي هذه السنة أيضا كانت وفاة الشيخ سراج
الدين الوراق ، الشاعر الماهر ، وكان من فحول
الشعراء وله شعر جيد . وكان مولده في سنة
خمس عشرة وستمائة ، ووفاته في سنة خمس
وتسعين وستمائة ، فكانت مدة حياته نحو ثمانين
سنة . ومن شعره لنفسه قوله :

واخجلتى وصحائفى سودا غدت
وصحائف الأبرار فى اشراق !
وموبخ لى فى القيامة قائل :
أكذا تكون صحائف الوراق ؟

ومما وقع للسراج الوراق أن الشيخ نصير
الدين الحمامى قال له : « قد عملت قصيدة فى
الصاحب تاج الدين السبكى ، وأشتهى أن تشنى
عليها اذا قرئت بحضرتك » ... فلما أنشدها النصير
الحمامى بحضرة الشيخ سراج الدين أنشأ على
الفور ارتجالا وهو يقول :

شاقنى للنصير شعر بديع
ولشلى فى الشعر نقد بصير

بأن يحضروا الملك العادل كتبغا ويشهدوا عليه بالخلع من السلطنة ، فقام قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعى — هو والأمير لاجين الاستادار — ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعة دمشق ، وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهد على نفسه بالخلع .

ثم فى يوم الاثنين وصل الى دمشق الأمير قفجق المنصورى ، وقد استقر نائب الشام . فلما دخل دمشق نزل بدار السعادة ، وأرسل خلف العادل كتبغا وقال له : « ان السلطان المنصور لاجين يسلم عليك ، ورسم لك بأن تتوجه الى مدينة صرخد ويرتب لك ما يكفيك » ... فقال : « السمع والطاعة ! » .

وخرج من يومه الى صرخد وهو معزز مكرم ، ومعه عياله ومماليكه وغلماؤه وبركه ، وتوجه الى صرخد فأقام بها ... فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والديار الشامية الى أن خلع من السلطنة نحو سنتين الا شهرين .

فلما توجه الى صرخد أقام بها الى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة فى المرة الثانية أنعم على الملك العادل كتبغا بمملكة حماة وأعمالها . وكان الملك الناصر يميل الى كتبغا دون أبيه ، فاستمر كتبغا فى حماه الى أن مات ، وكانت وفاته فى يوم عيد النحر من سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بحماه ، ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بسفح جبل قاسيون . وكان كتبغا رجلا قصير القامة ، أجرد اللحية ، أسمر اللون ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان ديننا خيرا سليم الباطن . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

ومن صفاء باطنه أنه قرب الأمير لاجين وشفع فيه من القتل عند الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان لاجين ممن تعصب على قتل الأشرف خليل . ولما أن تسلطن كتبغا استقر بالأمير لاجين نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور السلطنة جميعها . وكان لاجين فى قلبه الغدر لكتبغا حتى وثب عليه وخلعه من السلطنة وجرى عليه ما جرى . وكان لاجين يظهر المحبة لكتبغا وهو فى الباطن بخلاف ذلك كما قيل فى المعنى :

والخل كالماء : يبدى لى ضمائر
مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر

الملك المنصور

هو الملك المنصور حسام الدين لاجين ، ابن عبد الله المنصورى ، وهو الحادى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويح بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا ، وذلك فى نصف شهر صفر سنة ست وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ودقت له الكئوسات .

وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون . فلما تم أمره فى السلطنة خلع على خشداشيينه ، وهم الأمير قرا سنقر المنصورى ، واستقر به نائب السلطنة عوضا عن نفسه ، وأنعم على مملوكه منكوتر بتقدمة ألف ، ثم خلع على الأمير سنقر الأعسر واستقر به وزيرا .

ثم أخذ فى أسباب عمارة جامع أحمد بن طولون وكان خرابا بغير سقف مدة مائة وسبعين سنة ... وكان لاجين ، لما قتل بيدرا وجرى ما تقدم ذكره ، اختفى فى جامع أحمد بن طولون فى المئذنة مدة طويلة حتى شفع فيه العادل كتبغا عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فلما ظهر ورضى عليه الناصر محمد نذر فى نفسه ان صار سلطانا ليعمرن جامع

أحمد بن طولون كما كان . فلما صار سلطانا عمره ورتب في سطح الجامع دكة بسبب الميقاتية لتحرير الوقت ، ووقف على ذلك أوقافا كثيرة الى الآن تصرف للميقاتية ، وأحيا رسوم هذا الجامع بعد ما كانت قد درست .

ومن محاسن الملك المنصور لاچين أنه أرسل خلف أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذين كانوا بالقسطنطينية من حين تفاهم الملك الأشرف خليل بن قلاون ، فأحضرهم الى مصر . فأما سلامش ابن الملك الظاهر فانه أدركته المنية في القسطنطينية ، فأتوا به — وهو ميت — في سحلية ، ودفن بالقرافة الصغرى . وكان يسمى ابن البدوية ، وكان جميل الصورة ، مليح الشكل . وأما أخوه سيدى خضر فانه أقام بالقاهرة مدة ثم طلب من السلطان لاچين دستوراً بأن يحج ، فأذن له في ذلك ، فسار الى الحجاز وحج ورجع الى مصر ، وأقام بها مدة ومات ودفن مع أخيه سلامش ، وبه انقرضت أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

ثم ان السلطان لاچين قبض على الأمير قرا سنقر — نائب السلطنة — وسجنه ، واستقر بمملوكه منكوتر نائب السلطنة ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، ولم يكن منكوتر أهلاً لذلك .

سنة سبع وتسعين وستمائة (١٢٩٧ م) :

فيها رآك السلطان البلاد المصرية ، وهو الروك الحسامى . وكان ابتداء ذلك في سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكان المتكلم في ذلك شخصا من المباشرين يقال له التاج الطويل ، فشرع في كتب قوائم بمساحة البلاد وأسمائها .

وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة قراريط للسلطان ، ومنها عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات ، ومنها

عشرة قراريط للجند كلهم ... فرسم السلطان للمباشرين بأن يكفوا الأمراء بعشرة قراريط مع الأجناس ، وزاد الذين قد تشكوا من الأجناس قيراطا ، وبقي للسلطان ثلاثة عشر قيراطا ، فشكا الجند وضجوا من ذلك . وكان المتكلم في ذلك الأمير منكوتر النائب ، فصار يقابح الأمراء والجند أنحس مقابحة ، وعادى سائر العسكر بسبب ذلك ... فنفرت قلوبهم عن السلطان لاچين ، وتمنى كل أحد زواله ، وكثر الدعاء عليه من الناس ، وكان مملوكه منكوتر من سيئات الدهر ، أظلم خلق الله تعالى وأنحسهم .

فلما كان ثامن رجب من السنة المذكورة فرقت المثالات بما تقرر عليه المال مع الأمراء والجند وهم غير راضين بذلك .

ثم لما مضى أمر ذلك أشار الأمير منكوتر على السلطان بأن يقبض على جماعة من الأمراء فقبض على جماعة منهم الأمير ايلبك الحموى وغيره من الأمراء ، ثم أرسل بالقبض على قفجق نائب الشام ، فلما بلغه ذلك خرج من الشام هاربا وخرج معه الأمير بكتير الأوبكرى والأمير نزار وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بدمشق . فلما خرجوا من دمشق توجهوا الى القان الأكبر غازان ملك التتار ، وكان هذا سببا للفتنة العظيمة التى وقعت بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة سأل الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله السلطان بأن ينعم له في أن يحج ، فأنعم له في ذلك ، ورسم له بألف دينار فأخذها وحج في تلك السنة ، ثم عاد مع الحجاج الى القاهرة .

سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٨ م) :

فيها توجه السلطان الى القصر الكبير ، وكان صائما ، وكان ذلك يوما شديدا الحر فجلس في القصر

الى وقت الفطور وهو يلعب بالشطرنج ، وكان عنده القاضي حسام الدين الرازي الحنفى ، وامامه محب الدين ابن العسان ، وشيخ العرب يزيد . فلما جلس فى القصر الى وقت المغرب بلغ ذلك جماعة من المماليك الأشرفية - وكان فى قلبهم من السلطان لاجين شئ لأنه كان من جملة من تواطأ على قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل - فقالوا هذه ليلة الفرصة ، فاتفقوا مع جماعة من المماليك البرجية بأن يهجموا على السلطان بعد العشاء وهو فى القصر .

وكانت تلك الليلة نوبة شخص من السلحدارية يقال له نوغان الكرمانى ، فاتفق معه شخص يقال له كرجى - وهو مقدم المماليك البرجية - على أن يدخل المماليك ، ويهجموا عليه بعد العشاء ويقتلوه . فلما دخل وقت المغرب أفطر السلطان فى القصر واستمر يلعب فى القصر الى وقت العشاء ، فتقدم كرجى مقدم المماليك البرجية الى الشبهة ليصلحها ، فرمى الفسوطه على النجاة والسلطان منكب على الشطرنج وهو لا يدري ما خبىء له فى الغيب ، فالتفت اليه السلطان وقال له : « غلقت أبواب الأطباق على المماليك البرجية ؟ » فقال له : « نعم » . فشكره وأثنى عليه .

وكان المماليك البرجية واقفين بالسيوف فى دهليز القصر ، فلما فات وقت العشاء تقدم كرجى الى السلطان وقال له : « ياخجهم ، أما تصلى العشاء ؟ » فقال له السلطان : « نعم » . وقام ليصلى العشاء فضربه كرجى بالسيف على كتفه فهدله ، فقام السلطان ليأخذ النجاة فلم يجدها ، فقبض على كرجى ورماه الى الأرض فجاء اليه نوغان الكرمانى وأخذ النجاة وضرب بها السلطان على رجله ضربة قوية فقطعها ، فصاح عليه القاضي حسام الدين الرازي : « ويلكم ! كيف تقتلون أستاذكم ؟ » .

فانقلب على ظهره السلطان ووقع الى الأرض ميتا ، فتركوه مكانه ومضوا وأغلقوا عليه باب القصر ، وتركوا عنده الامام والقاضى حسام الدين الرازي . ثم ان كرجى توجه تحت الليل الى الأمير منكوتر النائب - وكان ساكنا بدار النيابة بالقلعة - فدق عليه الباب وقال له : « ان السلطان يدعوك » . فأنكر ذلك ، وقال لكرجى : « لعلك قتلت السلطان » . فقال له كرجى : « نعم قتلناه وجئنا اليك تقتلك يانحس » . وكان بين كرجى وبين الأمير منكوتر حظ نفس من قديم الزمان .

ثم ان كرجى أحرق الباب ودخل على منكوتر وقبض عليه وتوجه به الى الجب الذى بالقلعة فحبسه به ، وكان بالجب جماعة من الأمراء مسجونون ، وكان منكوتر سببا لسجنهم كما تقدم . فلما رأوا منكوتر دخل عليهم قتلوه شر قتلة ... هذا كله جرى فى القلعة تحت الليل وأهل المدينة لم يشعروا بشئ من ذلك ، فلما طلع النهار شاعت الأخبار فى المدينة بما جرى .

ثم ان الزمام شرع فى تجهيز السلطان ، فغسل وكفن ونزل من القلعة فى تابوت هو والأمير منكوتر ودقنا بالقرافة الصغرى ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين بالديار المصرية الى أن قتل سنتين وشهرين وأياما ، وكانت قتلته فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

وكان رجلا طويل القامة ، أشقر اللون واللحية ، أزرق العينين ، مهيب الشكل ، وكان موصوفا بالفروسية ، شجاعا بطلا ، وكان دينا خيرا أبطل فى أيامه من المكوس التى كانت بالديار المصرية أشياء كثيرة ، ولم يكن من سيئاته سوى مملوكة منكوتر

العسكر ... فأعطى كل مملوك ثمانين ديناراً ،
وجماعة منهم أعطاهم خمسة وسبعين ديناراً ،
وجماعة منهم خمسة وستين ديناراً ، وأعطى مماليك
الأمراء كل واحد خمسين ديناراً ثم أنفق على
عسكر الشام الذين حضروا بصحبته ، فأعطى كل
واحد منهم عشرة دنانير ذهباً ، وعشرة أراذب
شعيراً ، وعشرة أراذب قمحاً . ثم أنفق على سائر
الأمراء والمقدمين والطبلخانات والعشراوات لكل
واحد منهم على قدر مقامه . وكان القائم في تدبير
مملكته الأمير سار نائب السلطنة والأتابكي
بيبرس الجاشنكير .

ثم ان الملك الناصر قصد العود الى
محرابة غازان ، فبرز بخيامه في الريدانية ،
وخرج من القاهرة ثانياً . وكان صحبته الخليفة
الامام أحمد والقضاة الأربعة وسائر الأمراء
والعساكر . فلما أقام في الريدانية تشكى العسكر
وتعلبوا عليه فأنفق عليهم نفقة ثانية لترفع
أحوالهم ، ثم رحل من الريدانية وجد في السير ،
فتقدم في جاليش العسكر الأمير سار نائب
السلطنة ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير فلما
وصل الجاليش الى دمشق تلقاهم الأمير ققجق
وأظهر الطاعة للسلطان وبأس الأرض ، واجتمع
بالأمراء وأشعار عليهم بأن السلطان يرجع الى
القاهرة ولا يدخل دمشق ، وسيجيئه الأمر كما
يختار .

فعند ذلك رجع السلطان الى القاهرة ، وكان
رجوعه اليها في ثامن عشر شهر رمضان من سنة
تسع وتسعين وستمائة .

ومن النكت اللطيفة أن الملك المنصور قلاوون
— أستاذ الأمير ققجق المذكور — خرج يوماً الى

نحو المطرية في أيام النيل على سبيل التنزه ومعه
جماعة من الأمراء من أخصائه ، فانشرح السلطان
في ذلك اليوم وذبح خروفاً سمينا بيده ، فلما حضر
السماط قادموا ذلك الرميس بين يديه فقطعه بيده ،
ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه وتركه ساعة
حتى جف ، ثم لوحه على النار قليلاً قليلاً ، ثم
أخرجه ونظر في لوح الكتف ساعة وأطال التأمل ،
ثم ثقل عليه وألقاه من يده وظهر في وجهه الغضب
... فسأله بعض الأمراء عن ذلك — بعد ما سكن
غضبه — فقال : « ان وليتم ققجق بعدى نيابة
الشام يحصل منه غاية الفساد . فلا تخرجوه بعدى
من مصر لئلا تتعبوا من أمره » . فكان الأمر كما
قاله الملك المنصور قلاوون . والمملوك لهم فراسة في
الأمر قبل وقوعها كما قيل في المعنى :

يرى العواقب في أثناء فكرته

كأن أفكاره بالغيب كهان

لا طرفه منه الا تحتها عمل

كالدهر لا دولة الا لها شان

ولم يزل الأمير ققجق ممقوتا في دولة الملك
المنصور قلاوون حتى مات قلاوون وتسلطن خليل
ولده ، الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فاستقر
بالأمير ققجق نائب الشام . فلما ظهر له منه عين
العصيان أرسل بالقبض عليه فهرب ققجق الى
القان غازان وحسن له بأن يزحف على البلاد كما
تقدم من أخباره .

قال القاضي محيي الدين بن فضل الله : « حكى
لى الأمير ققجق ، بعد أن جرى ما جرى ، ورجع
الى القاهرة ، وتلاقى عسكر السلطان مع عسكر
غازان فكاد غازان أن يشكر وهم بالهرب ، فطلبنى
ليضرب عنقى ، لأنى كنت السبب فى مجيئه الى
دمشق ، فلما حضرت بين يديه قال لى : ما هذا

الحال ؟ فقلت : ما ثم الا الخير والسلامة ... فأنا
أخبر بعسكرنا فان لهم أول صدمة ثم يولون عن
القتال . فالتان يصبر ساعة فما يبقى قدامه أحد
منهم . فصبر ساعة فكان ما قاله صحيحا . ولما
انكسر عسكر مصر أراد أن يزحف عليهم بما معه
من العسكر فقلت في نفسي : متى زحف عليهم لم
يبق منهم أحد . فقلت له : القان يصبر ساعة فان
عسكر مصر لهم حيل وخداع ، وربما يكون لهم
كمين وراء الجبل فيخرج علينا فننكسر . فسمع
لى ، ثم وقف ساعة حتى أبعدتهم عنا ولم يبق منكم
أحد قدامه ... فلو زحف عليكم ما بقى منكم
أحد . فلو لا أنا ما سلم منكم أحد » .

فكان الأمر كما قيل :

ولو شئت قابلت المسىء بفعله

ولكننى أبقيت للصالح موضعا

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الناصر محمد
ابن قلاون .

ثم في هذه السنة وصل الخبر من البحيرة بأن
قد اختلفت طائفتان من العرب — وهما جابر
ومرديس — ونهبوا ضياع البحيرة ، وأحرقوا
الجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وعين
لهم السلطان تجريدة ... فكان باش العساكر الأمير
بيبرس المنصورى أمير دوا دار كبير ، وصحبته
جماعة من الأمراء نحو عشرين أميرا ، ما بين
طلبخانات وعشراوات ، فخرجوا من القاهرة على
الفور ، وجدوا في السير الى أن وصلوا الى
تروجه ، ووقعوا مع العرب فكسروهم وهربوا الى
الجبال حتى لم يبق منهم أحد ، فأحاط العسكر
بجمالهم وأغنامهم وأولادهم ونسائهم ، ثم عاد
الأمراء الى القاهرة وهم في غاية النصر ... فخلع
السلطان على الأمير بيبرس خلعة ، ونزل الى بيته
في موكب عظيم .

سنة سبعمائة من الهجرة النبوية (١٣٠٠ م) :
فيها كان خليفة الوقت الامام أحمد الحاكم بأمر
الله ، وسلطان العصر الملك الناصر محمد ابن الملك
المنصور قلاون ، وقاضى القضاة من الشافعية شيخ
الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد .

وأما الأمراء أرباب الوظائف : فالأمير سلالر
المنصور نائب السلطنة ، والأمير بيبرس الجاشنكير
أتابك العساكر المنصورة ، والأمير بيبرس
المنصورى دوا دار كبير ، والأمير سنقر الأعسر
وزير ، والأمير لاجين استادار ، والأمير عز الدين
أيدمر تقيب الجيوش المنصورة ، والأمير أقوش
الشمسى حاجب الحجاب ، والأمير ناصر الدين
ابن الشيخ واليا بالقاهرة . وبقية الأمراء لم
نذكرهم هنا خوف الاطالة ولكن سيأتى ذكرهم في
مواضعه .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، فالقاضى
محيى الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف ،
والقاضى بهاء الدين بن الحلى ناظر الجيوش
المنصورة ، والقاضى كريم الدين بن السديد ناظر
الخواص الشريفة .

وكان شاعر الوقت يومئذ الشيخ صدر الدين
ابن الوكيل ، كان من فحول الشعراء وله شعر
جيد ، فمن شعره ونظمه الرقيق قوله من قصيدة
خيرية :

عناصر أربع في الكأس قد جمعت
وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ولار هواء أرضها قدح
وطوقها فلك والأنجم الحجب
وان أقطب وجهها حين تبسم لى
فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وفي أثناء هذه السنة جاءت الأخبار بحركة التتار وقد وصل أوائلهم الى الفرات ، فجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة في ذلك الخبر ، فقال السلطان للأمراء : « أنتم تعلمون أنى رجعت مكسورا من التتار تلك المرة ، ولهب جميع بركى ، وذهبت الأموال ... والآن لم يبق في بيت المال لا دينار ولا درهم ، فمن أين أنفق على العسكر ؟ » .

فاتفق رأى الأمراء على أن يوزعوا النفقة على المباشرين وأعيان التجار ومساكين الناس ، ثم ندبوا الى ذلك الأمير سنقرا الأعسر وزير الديار المصرية فشرع في استخراج الأموال من الناس ، فتحصل من ذلك فوق مائتى ألف دينار . ثم ان السلطان أنفق على العسكر وخرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية . فلما أن وصل الى غزة جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب كسر التتار كسرة قوية ، ورجعوا الى بلادهم هاربين . فلما بلغ السلطان رجع الى القاهرة من غزة ، وكان سبب رجوعه ... قيل ان العسكر تغلبوا عليه هناك وقصدوا منه نفقة ثانية من قلعة التبن والشعير ، فانه كان لا يوجد .

ثم ان السلطان عين من الأمراء بكتسر السلحدار وجماعة من الأمراء بأن يتوجهوا من غزة الى حلب ويقيموا بها الى أن يظهر ما يكون من أمر التتار . ثم ان السلطان رجع الى القاهرة ، ودخل في موكب عظيم ، وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك الأمر .

سنة احدى وسبعمائة (١٣٠١ م) :

فيها توفي الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وكانت وفاته في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى من سنة احدى وسبعمائة ، وكان قدومه من بغداد في سنة تسع وخمسين وستمائة ، وذلك

في دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وأقام في الخلافة نيافا وأربعين سنة ، وهو أول خلفاء بنى العباس بمصر . ولما مات دفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وبنيت له هناك قبة .

ولما مات الامام أحمد تولى من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ، وهو ثانى خلفاء بنى العباس بمصر واليه تنسب الخلفاء الى الآن بمصر .

سنة اثنتين وسبعمائة (١٣٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أميرا من أمراء القنان غازان ، يقال له قطلوشاه ، قد دخل الى حلب على حين غفلة من أهلها ومعه طائفة من عسكر التتار ، وذكروا أن بلادهم قد اضمحلت هذه السنة وقصدتهم الاقامة بحلب حتى يشتروا لهم مغلا ... وكل ذلك حيل وخداع .

ثم بعد أيام دخل منهم جماعة نزلوا بالمرعش ، فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان بذلك فلما جاء هذا الخبر عين السلطان جماعة من الأمراء المقدمين عدتهم ستة من الأمراء ، وعين ألف مملوك من المماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة على الفور مسرعين . فلما وصلوا الى غزة تواترت الأخبار بوصول غازان الى الرحبة ، وأن نائب الرحبة تلطف به وأرسل له بالاقامة مع ولده ومنعه من محاصرة المدينة .

فلما أن بلغ السلطان ذلك أحضر الأمير سلالر النائب ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، وضربوا مشورة في ذلك ، فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن يتمكن العدو من البلاد ، فنادى السلطان في جميع أماكن القاهرة للعسكر بالرحيل من كبير وصغير .

ثم ان السلطان أحضر جماعة من عربان الشرقية ومن عربان الغربية ، ونادى بالنفير عاما ، وخرج

مسرعا على جرائد الخيل ، وكان معه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعسكر من كبير وصغير . فلما رحلوا من الريدانية تقدم الأتابكي ببيرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر قدام السلطان . فلما وصلوا الى الشام جاءت الأخبار بأن جاليش غازان قد وصل الى قرب حماة ، فأرسل الأتابكي ببيرس يستحث السلطان في سرعة الحضور ، فجدد السلطان في السير حتى وصل الى الشام في مستهل شهر رمضان من السنة المذكورة . ثم ان السلطان لم يقيم بالشام ، وبرز الى قتال عسكر غازان ... فكان مع السلطان من العساكر المصرية والشامية وعربان جبل نابلس نحو مائتي ألف انسان ، وكان مع غازان مثل ذلك أو أكثر . فتلاقى العسكران على مرج راهط تحت جبل غباغب ، فكان بين الفريقين هناك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلا فيما تقدم من الزمان ، فكانت النصره يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاوون على القان غازان ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وأسر من عسكر غازان نحو الثلث ، وقتل من أمراء مصر الأمير حسام الدين لاچين استادار العاليه ، والأمير أوليا بن قرمان ، والأمير سنقر الكافورى ، والأمير أيدير الشمسى المقشاش ، والأمير أقوش الشمسى الحاجب ، والأمير عز الدين نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير علاء الدين بن التركمانى ، والأمير حسام الدين على بن ساخل ، والأمير سيف الدين بهادر الدكاجكى ... هؤلاء غير من قتل من أمراء دمشق الشام وحماه وحلب وطرابلس وغزة وغير ذلك من الأمراء . وقتل من المماليك السلطانية والأمراء نحو ألف وخمسمائة مملوك ، هذا خارجا عن العربان والمشاة والعبيد والغلمان وغير ذلك .

فلما دخل الليل حالت الظلمة بين العسكرين ، فالتجأ عسكر غازان الى أعلى الجبال ، وباتوا يوقدون النيران ، وبات عسكر السلطان محدقين بهم كالحلقة . فلما لاح الصباح من يوم الأحد رابع شهر رمضان عاين عسكر التتار الهلاك من العطش والجوع ، فصاروا يتسحبون في الأودية أولا بأول ، فحصل عسكر السلطان عليهم فصيروهم رميا ، وأسروا منهم ما شاءوا ، فامتلات من قتلاهم القفار ، وضجوا كما قال فيهم القائل :

مشوا متسابقي الأعضاء فيهم

لأرجلهم بأرؤسهم عشار

إذا فاتوا السيوف تناولتهم

بأسسياف من العطش القفار

فلما وصلت هذه النصره للملك الناصر محمد ، أرسل الأمير بكتوت الفتاح بأخبار هذه النصره الى الديار المصرية ، ثم ان السلطان رحل من المكان الذى وقعت فيه الواقعة ودخل الى دمشق وصحبته الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الأربعة ، فنزل بالقصر الأبلق . وكان يوم دخوله الى دمشق يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، وزينت له دمشق زينة عظيمة ، فأقام بدمشق أياما ثم قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فوصل الى القاهرة في ثالث عشرى شوال من سنة اثنتين وسبعمائة ، فدخل الى القاهرة وكان يوما مشهودا ، والأسارى من عسكر التتار قدامه وهم فى جنازير حديد ، وصناجق غازان منكوسة ، وطلائعه معكوسة . فشق السلطان من القاهرة وطلع الى القلعة . وقد غنم العسكر من التتار — لما انكسروا — أشياء كثيرة من خيول وسلاح وقماش وغير ذلك من الغنائم . وكانت هذه النصره على غير القياس ، فان غازان كسر الملك الناصر قبل ذلك كسرة قوية ، ونهب جميع ما كان معه ومع العسكر من خيول

وسلاح وبرك وغير ذلك كما تقدم ، فكان كما
قيل في المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا

ويوم نساء ويوم نسر

ومن الحوادث في هذه السنة أن في الثالث
والعشرين من ذي الحجة وقعت زلزلة عظيمة
بالديار المصرية وسائر أعمالها ، وكانت قوة عملها
بشعر الاسكندرية ، فهدمت سورها والأبراج .
وهدمت جانب المنار ، وقاض ماء البحر المالح حتى
غرقت البساتين . وأما بالديار المصرية فهدمت أكثر
جدران الجامع الحاكمي ، وهدمت مئذنة المدرسة
المنصورية ومئذنة جامع الظاهر الذي في الشوايين ،
وهدمت مئذنة جامع الصالح الذي عند باب
زويلة ، وهدمت جانباً من حيطان جامع عمرو بن
العاص . وقد تشقق من هذه الزلزلة الجبل
المقطم ، وخرج الناس الى الصحراء وظنوا أنها
القيامة . وأقامت الزلزلة تعاود الناس مدة عشرين
يوماً ، وسقطت الدور على الناس ، وهلك تحت
الردم من الناس ما لا يحصى . وقيل ان شخصاً كان
يبيع اللبن فسقطت عليه داره فظن الناس أنه قد
مات ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها ، فلما
شالوا عنه الردم ، وجدوا فيه الروح وقد تصلبت
عليه الأخشاب فسلم ، وكان معه جرة فيها لبن
فوجدت معه كما هي سالمة وفيها اللبن .

وكانت هذه الزلزلة في قوة الحر ، فجاء
عقبها ريح أسود فيه سموم ، فلفح حتى أغشى
على الناس منها .

وقيل كانت هذه الزلزلة متصلة الى دمشق
والكرك والشوبك وصفد وغالب البلاد الشامية ،
وفي ذلك يقول بعضهم :

زلزلت الأرض فخاف الورى

وابتهلوا الى العزيز الحكيم

فليذكروا مع خوفهم قوله
زلزلة الساعة شيء عظيم

سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣ م) :

فيها خرج الأمير بيبرس الدوادار لعمارة
ما انهدم من الأبراج والأسوار بمدينة الاسكندرية
بسبب ما حصل من الزلزلة ، فكان عدة ما سقط
من الأبراج سبعة عشر برجاً وستاً وأربعين
مئذنة .

ثم ان جماعة من الأمراء التزموا بترميم ما انهدم
من الجوامع بالديار المصرية بسبب الزلزلة ،
وصرفوا على ذلك من أموالهم شيئاً كثيراً .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار بموت القان
غازان الذي جرى منه ما تقدم ذكره ، فكان غازان
هذا من أولاد هلاكو الذي جرى منه في بغداد
ما جرى . وقيل ان غازان مات مسموماً ... ستمه
زوجته في منديل الفرش . وكان موته بالقرب من
همدان ، وحمل الى تبريز ودفن بها . وكان أخذ
في أسباب جمع عساكر ، وقصد بأن يزحف على
البلاد الشامية ، وكفى الله المؤمنين القتال . وفي
ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعي :

قد مات غازان بلا علة

ولم يمت في السنة الماضية

بل شنعوا في موته فاشنى

حيا ولكن هذه القاضيه

سنة اربع وسبعمائة (١٣٠٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب دقلة
من أعمال الصعيد ، وكان صحبتته هدايا جميلة من
رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك ، فخلع عليه
السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة .

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة الشافعي شيخ
الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى .

وكان عالماً فاضلاً بارعاً في العلوم ، وكان من طلبة
الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وكان له نظم
وقيق ، فمن ذلك قوله في نوع الجناس التام :

تهيم نفسي طرباً عند ما
أستلحح البرق الحجازياً
ويستخف الوجد عقلي وقد
لبست أثواب الحجا زياً
ياهل ترى أقضى منى من منى
وأنحر البدن المهارياً
وأرتوى من زمزم فهي لى
ألد من ريق المهـا رياً

سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥ م) :

فيها ابتداء الأتابكي بيرس الجاشنكير بعمارة
خاقاه التي برجة باب العيد قبالة الدرب الأصفر ،
وكتب له الشيخ شرف الدين بن الوجيه ختمة
مكتوبة بالذهب في سبعة أجزاء في ورق قطع
البغدادى بقلم الشعر ، فصرف على أجرة نسخها
ألفاً وسبعمائة دينار . وكتبها برسم هذه الخاقاه
التي أنشأها ، فكانت هذه الختمة من محاسن
الزمان ، وأودعها بها .

سنة ست وسبعمائة (١٣٠٦ م) :

فيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت
الغلال واشتد سعرها ، وهاجت الناس على بعضها ،
وعز الخبز من الأسواق ، وبلغ ثمن الرغيف درهم
فضة ، فأقام الأمر على ذلك مدة يسيرة ، ثم تراجع
الحال قليلاً قليلاً إلى أن انحط السعر ، وظهرت
الغلال .

وفيها توفي الشيخ الزاهد العارف بالله تعالى
سيدى يافوت العرشي رضى الله عنه ودفن بنواحي
الاسكندرية . وفيها توفي الشيخ زين الدين

الفارقي ، وتوفي الشيخ صدر الدين بن الوكيل
صاحب الأشعار اللطيفة ، وتوفي الشيخ ضياء الدين
الطوسي شارح الحاوى .

سنة سبع وسبعمائة (١٣٠٧ م) :

فيها وقع بين السلطان وبين الأمير سار نائب
السلطنة ، وثار بينهما الفتنة وكثر القيل والقال ،
ودبت بينهما عقارب التشاحن .

ثم انه في يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ،
وقبض في ذلك اليوم على جماعة من الخاصكية
الذين هم من عصبة الأمير سار النائب — وهم :
يلبغا التركمانى ، وخاص ترك العلائى ، وبكتمر
الفارسي — فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا إلى
القدس ، فعز ذلك على الأمير سار .

وفيها أظهر صاحب اليمن — وهو الملك المؤيد
هزين داود — المخالفة للسلطان ، ومنع ما كان
يرسله في كل سنة من الهدايا والتقادم إلى السلطان ،
فعز ذلك على الملك الناصر ، وعين له تجريدة ،
وشرع في عمارة مراكب تسمى جلبات ، وعين جماعة
من الأمراء والمماليك السلطانية . فلما شرع في ذلك
دخل الشتاء فأهمل هذا الأمر وبطل .

سنة ثمان وسبعمائة (١٣٠٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بحركة التتار . فلما
بلغ السلطان ذلك عين تجريدة وبها جماعة من
الأمراء المقدمين وهم : الأمير جمال الدين أقوش
الموصلى المسمى قتال السبع ، وهو صاحب الغيطة
المنسوب إليه ، والأمير شمس الدين السدكز
السلحدار . وعين جماعة من الأمراء والطلبخانات
والعشراوات والمماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن
يتقدموا ويقيموا في مدينة حلب إلى أن يصير من
أمر التتار ما يكون . فلما شرعوا في أمر السفر ،
وهموا بالخروج إلى حلب ، جاءت الأخبار من عنه

فائب حلب بأن التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم ، فبطل أمر التجريدة .

ثم ان السلطان أظهر أن يحج في تلك السنة ، وعي له سنيحا عظيما . فلما كان في يوم السبت خامس عشر شهر رمضان من السنة المذكورة خرج السلطان من القاهرة ، وصحبته جماعة من الأمراء ، وهم الأمير عز الدين أيدير الخطيرى استادار العالية ، وهو صاحب الجامع الذى فى ببولاق ، والأمير حسام الدين لاجين قرا أمير مجلس ، والأمير آل ملك الجوكندار ، والأمير بلبان المحمدى أمير جانداز ، والأمير أيبك الرومى ، والأمير بيبرس الأحمدى ، وغير ذلك من الأمراء والطلبخانات والعشراوات والماليك السلطانية . فخرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الصالحية فعيد بها عيد الفطر ، ثم رحل وأظهر أنه يقيم بالكرك الى أن يخرج المحمل من القاهرة ، فرحل من الصالحية وتوجه الى الكرك فدخل اليها فى يوم الأحد عاشر شهر شوال .

فلما دخل المدينة زينت له زينة عظيمة . ولما وصل الى خندق قلعة الكرك وقف حتى مدوا له جسرا من الخشب ليعبر عليه . فلما عبر عليه ومشى تكاثرت حوله الماليك ، فانكسر ذلك الجسر من تحت أرجلهم بعد أن تقدم فرس السلطان بخطوتين ، فسقط الماليك المشاة فى الخندق ، فانصدع منهم جماعة كثيرة ، ومات منهم واحد فى تلك الساعة .

فلما طلع السلطان الى قلعة الكرك وأقام بها ، جمع الأمراء الذين كانوا معه وصرح لهم بما كان عنده من السكين فى خساطره من الأمير سيار والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، ورسم الى الأمراء الذين توجهوا معه الى الكرك بأن يرجعوا الى القاهرة ، وأنه قد اختار الإقامة بالكرك .

ثم ان السلطان رسم لنائب الكرك بأن ينزل من القلعة هو وجماعته ، فتحول فى الحال ونزل من القلعة بمن كان معه من الرجال ، واستقر السلطان بقلعة الكرك . وكان السلطان قرر مع الأمراء الذين بمصر أنه اذا خرج المحمل من القاهرة يلاقيهم من العقبة ، وكان قرر معهم أن حرىم السلطان يتوجهون صحبة المحمل وهو يلاقيهم من هناك . فلما كان سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة وصحبته حرىم السلطان — وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير جمال الدين خضر بك ابن نوكبة — فلما وصل الحاج الى العقبة أرسل السلطان فأخذ عياله من هناك والسنيح ومضوا الى الكرك .

فلما وصلوا الى هناك رسم السلطان للأمراء بالعود الى الديار المصرية ، وأعاد صحبتهم خزائن المال والجنايب والعصائب السلطانية والحجن والكبابيش الزركش التى كانت معه برسم سفر الحجاز ، وكتب مع الأمراء مرسوما يتضمن أن السلطان رغب عن الملك ، واختار الإقامة بالكرك ، وأن الأمراء الذين بالقاهرة يختارون لهم من يولونه سلطانا .

ثم ان الملك الناصر محمد خلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، فمضى الأمراء من عنده .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرى شوال دخل الأمراء الذين كانوا صحبة السلطان فى الكرك الى القاهرة ، فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر بحجى الأمراء على حين غفلة ركبوا جميعا وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فقرءوا عليهم مرسوم السلطان بأنه قد رغب عن الملك وأشهد على نفسه بالخلع واختار الإقامة بالكرك .

فلما سمع الأمراء ذلك ضربوا مشورة مع بعضهم وقالوا : « ان راددنا السلطان فى العود الى

الملك المظفر

هو الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري ، وهو الثاني عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويج بالسلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ، وتلقب بالملك المظفر ، فركب بشعار السلطنة من الايوان الأشرفي ، وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشيت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، والأمراء قبلوا له الأرض ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وذلك في يوم السبت بعد العصر الثالث والعشرين من شهر شوال من سنة ثمان وسبعمائة .

فلما تم أمره في السلطنة خلع على الأمير سلار واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على صاحب ضياء الدين النشائي واستقر به وزيرا ، وخلع في ذلك على جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين حتى قيل انه خلع في ذلك اليوم ألفين ومائتي خلعة ، ما بين كوامل سمور ومتمرات وغير ذلك .

سنة تسع وسبعمائة (١٣٠٩ م) :

من الحوادث فيها أن النيل توقف عن الزيادة واستمر الى آخر مسرى ، ودخلت أيام النسيء وهو على ذلك ، ثم نقص فضج الناس وماجوا في بعضهم ، وتشحطت الغلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وضج العوام .

ثم ان السلطان رسم بكسر السد من غير وفاء ، لأن النيل كان نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية . ولم يخلق المقياس لذلك ، لأن التخليق لا يكون الا بالوفاء .

فلما كان السابع والعشرون من توت نقص النيل جملة واحدة ، فكان منتهى الزيادة في تلك السنة

الملك نخشي ألا يسمع ... ويطمع العربان في البلاد الى أن يعود الجواب اليها بما يكون » ... ثم انفضوا ولم ينتظم لهم حال .

فلما كان وقت الظهر من ذلك اليوم ركب سائر الأمراء وطلعوا الى القلعة ، واجتمعوا في دار النيابة ، وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا ، وكانت الكلمة يومئذ مجمعة بين سلار نائب السلطنة وبين الأتابكي بيبرس الجاشنكير ، فطال بينهما الجدل في أمر السلطنة .

فأما الأمير سلار فامتنع من السلطنة بكل ما يمكن ، وحلف على ذلك بالطلاق الثلاث من نسائه .

فلما جرى ذلك وقع الاختيار على سلطنة الأتابكي بيبرس الجاشنكير . وأما الأمير سلار فبقى نائب السلطنة على عادته . ثم تحالف سائر الأمراء على ذلك وأنهم يكونون كلمة واحدة .

ثم أحضروا خلعة السلطنة والفرس الى بيبرس الجاشنكير ، وتولى السلطنة . فكانت مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاون في هذه المرة — وهي السلطنة الثانية — عشر سنين وأياما .

قيل وكان سبب توجه الملك الناصر الى الكرك أنه كان مع سلار النائب وبيبرس الجاشنكير كالمحجور عليه ، لا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا باختيارهما ، حتى قيل انه طلب خروفا وميسا بدريا فمنع من ذلك ، وقيل له حتى يجيء القاضي كريم الدين كاتب الأمير بيبرس الجاشنكير ... فغضب السلطان من ذلك ، وأظهر أنه يريد الحج في تلك السنة ، فلما خرج من القاهرة توجه الى الكرك وأقام بها كما تقدم ، وأخذ عياله من العقبة .

وسيعود بعد ذلك الى الملك كما سيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر اصبعاً ، فشرقت البلاد بسبب ذلك . وقد قال النصير الحمامي في هذه الواقعة :

ان عجل النوروز قبل الوفا
عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمهم ما جرى
وما جرى من نيلهم ما كفى
ثم ان العوام صنعوا كلاماً ولحنوه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وغيرها ، وهو هذا :
سلطاننا ركين ونائبو دقين
يجينا الماء من اين

هاتوا لنا الأعرج يجي الماء يدحرج
وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين ، فسماه العوام « ركين » .

وكان الأمير سالار أجرد ، في حنكه بعض شعرات ، لأنه كان من التتر ، فسماه العوام « دقين » .
وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون به بعض عرج ، فسماه العوام « الأعرج » .

فلما فشا بين الناس هذا الكلام بلغ السلطان بيبرس ، فرسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلاثمائة انسان ، فضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم في القاهرة ، ورسم بقطع السنة جماعة منهم .

ثم ان السلطان بيبرس بلغه عن بعض الأمراء أنهم كاتبوا الملك الناصر وهو بالكرك ، فقبض على جماعة منهم ونفاهم الى نجر الاسكندرية ، وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ونفاهم نحو قوص ، وكانوا نحو ثلاثمائة انسان ، فلما وقع ذلك من الملك المظفر نفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام ، واختار كل أحد من الناس عود الملك الناصر محمد .

ثم صار جماعة من المماليك الناصرية يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى الملك الناصر بالكرك ،

ويتركون بيوتهم وأولادهم . فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك أرسل الى الملك الناصر محمد ، الأمير مغلطاي والأمير قطلوبغا ويدهما كتاب الى الملك الناصر ، مضمون تلك المطالعة تهديد الملك الناصر ووعيده بكل سوء ، وأرسل يقول له : « ان لم ترجع عن مكاتبتك الى الأمراء ، والا جرى عليك كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري ونفيهم الى القسطنطينية ... وأنت تعلم ذلك فلا تحوجنا الى أن نفعل ذلك كما فعل أخوك الأشرف خليل بأولاد الظاهر بيبرس » كما تقدم . فلما وصلت مطالعة الملك المظفر الى الملك الناصر محمد اشتد غضبه على الأمير مغلطاي وقطلوبغا اللذين أرسلها الملك المظفر ، وضرب الأمير مغلطاي بالمقارع لأنه أغلظ عليه في القول ، ثم اعتقله هو والأمير قطلوبغا في الحب .

ثم ان الملك الناصر أرسل مكاتبة الى نائب حلب والى نائب طرابلس ، والى نائب صفد ، والى نائب حماة ، يقول لهم فيها : « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر ، وتركتم لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيّق الأماكن ليستريح خاطري من النكد ... فما تراجعوا عني ، وأرسل المظفر يهددني بالنفي الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس البندقداري ، وأرسل يطلب مني ما لا أقدر عليه . وأنتم تعلمون ما لوالدي الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية . وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال . فاما أنكم تكفون عني أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون علي ، واما أني أتوجه الى بعض بلاد التتار وألتجئ اليهم قبل ما يرسلني الملك المظفر الى بلاد الكفار » .

ثم أرسل الملك الناصر الى النواب مطالعة الملك المظفر التي أرسلها له بالتهديد ، وكان الذي توجه الى النواب بمطالعة الملك الناصر شخصاً يسمى

تاج الدين أوزان من أبناء العجم . فلما وصلت هذه المضالعات الى النواب أخذتهم الحمية على ابن أستاذهم ، وتعصبوا له ، وأرسلوا يقولون له : « متى أردت أن تتحرك الى التوجه الى مصر فنحن منوع يدك وممالكك أيك » ... فلما عاد الجواب الى الملك الناصر بذلك أخذ في أسباب التوجه الى مصر ، فخرج من الكرك ومعه جماعة من العربان ، فلما وصل الى البرج الأبيض من أعمال البلقاء أرسل نائب الشام أقوش الأفرم يعرف الملك المظفر بذلك ، وكان نائب الشام هذا من عصبة المظفر ، فلما وقف الملك المظفر على مطالعة نائب الشام وتشاور مع الأمير سلار النائب عينوا الى الملك الناصر تجريدة ، وعينوا بها من الأمراء الأمير سيف الدين بلغار — صهر الملك المظفر — والأمير عز الدين أيك البغدادى ، والأمير شمس الدين الدكر السلحدار ، والأمير أقوش الذى كان نائب الكرك ، وعين معهم ألفى مملوك من المماليك السلطانية .

ثم ان الملك المظفر أنفق على العسكر المعين للتجريدة ، فجهزوا أمرهم في سبعة أيام ، ثم خرجوا من القاهرة يوم السبت تاسع رجب من سنة تسع ومبعمائة . فلما نزلوا بالريدانية أقاموا هناك يوما وليلة ، ثم عادوا الى القاهرة . وكان سبب عود الأمراء أن ورد كتاب من عند نائب الشام بأن الملك الناصر تسلم الشام ودخل اليها في موكب عظيم وزينت له ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وأن جميع النواب دخلوا تحت طاعته ومشوا في ركابه ، وهم : نائب طرابلس ، ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب حمص ، وكل نائب بعسكر ... فدخل الى الشام في موكب عظيم ، وكان الأمير بهادر — المعروف بالحاج بهادر — حامل القبة والطير على رأسه الى نزوله بالقصر ببيدان دمشق ، فحضر اليه السنجرى نائب قلعة دمشق بسماط عظيم . ثم ان الملك الناصر خلع على الأمير أقوش

الأفرم ، وأقره نائب الشام على عادته ، وخلع على الأمير استدمر كرجى وأقره نائب طرابلس على عادته ، وخلع على الأمير قمر الساقى وأقره نائب حمص على عادته ، وخلع على نائب حماة وأقره على عادته ، ثم حضر الأمير قرا سنقر المنصورى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فخلع عليه وأقره على عادته في نيابة حلب .

ثم لما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر في ذلك اليوم على منابر دمشق ، فلما بلغ الملك المظفر يبىرس ذلك كله اضطربت أحواله ، وضافت عليه الأرض بما رحبت ، ونسى حلاوة اللحم بمرارة الأشنان ، وقد قال القائل في المعنى :

يا طالب الدنيا الدنية ، انها

شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت في يومها

أبكت غدا ... تبا لها من دار !

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان دخل المقر السيفى سلار النائب ومعه جماعة من الأمراء الى الملك المظفر يبىرس ، وقالوا له : « يامولانا السلطان ، ان غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا الى الملك الناصر ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن رأى أن ترسل الى الملك الناصر لتسأله في مكان تتوجه اليه أنت وعيالك فلعله أن يجيبك الى ذلك . وان لم تبادر الى هذا والا دهمتك العساكر وهجموا عليك وأنت هنا » . فقال له المظفر : « ومن يتوجه الى الملك الناصر بهذه الرسالة ؟ » . فأشار عليه الأمراء بالأمير يبىرس الدوادار الكبير والأمير بهادر آص ، فكتب معهما الملك المظفر كتابا الى الملك الناصر وهو يترفق به فيه ، ويسأله أن ينعم عليه بمكان يتوجه اليه هو وعياله : اما الكرك ، واما صهيون ، واما حماة .

ثم ان الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة ، وخلع

نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، وجهر ذلك
الاشهاد على يد الأمير بيبرس والأمير بهادر آص ،
وخرجا من يومهما وتوجها الى الشام .

ومن عجائب الاتفاق أن الساعة التي خلع فيها
الملك المظفر نفسه من الملك كانت هي الساعة التي
ركب فيها الملك الناصر من الشام وخرج قاصدا
نحو الديار المصرية ، ودام فيها الملك الناصر في
السلطنة مدة طويلة الى أن مات على فراشه كما
سيأتى ذكر ذلك في موضعه . فلما توجه الأميران
المذكوران الى الملك الناصر برسالة الملك المظفر ،
أقام الملك المظفر بعد ذلك أياما وهو على جمرة
نار ، لا يقر له قرار . ثم دخل خزائن بيت المال ،
وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال والسلاح
والتحف ، وعين معه من المماليك الذين هم من
مشترياته سبعمائة مملوك ، وأخذ صحبتته الأمير
بكتوت الفتاح ، والأمير أيدير المعروف
بالحظيري ، والأمير قجماس .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان
نزل الملك المظفر من القلعة بعد العشاء من باب
القرافة ، وأخذ معه من الأسطبل السلطاني ثلاث
طوائل خيل من الخيول الخواص . فلما بلغ العوام
نزوله من القلعة اجتمعوا ، ووقفوا له عند باب
القرافة ، ورجوه بالحجارة والمقاليح ، وسبوه سبا
قبيحا ... فلولا أنه شعلهم بشيء من الفضة نثرها
عليهم والا كانوا قتلوه لا محالة ، فانه كان قد
أفحش في حق العوام وشوش على جماعة منهم كما
تقدم ذكر ذلك .

فلما خلص منهم توجه من بركة الحبش الى نحو
أطفيح ، وقصد التوجه الى نحو أسوان .

فلما أصبح الصباح أشيع هروب الملك المظفر
ونزوله من القلعة . فلما جرى ذلك دخل الأمير
سلار النائب ، وختم على خزائن بيت المال ، وأطلق
من كان مسجوناً من الأمراء في الأبراج بالقلعة .

ثم انه أرسل يكاتب الملك الناصر بما جرى من أمر
الملك المظفر بيبرس ، وأرسل كتاباً بهذه الواقعة
على يد الطنبغا الجمدار .

ولما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر
على منابر القاهرة قبل دخوله اليها .

هذا ما كان من أخبار الملك المظفر بيبرس ...
وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لما خرج من
الشام ووصل الى غزة لاقاه الأمير بيبرس الدوادار
والأمير بهادر آص اللذان أرسلهما الملك المظفر ،
فقدما اليه مطالعة الملك المظفر والخلع الذي أشهد
به على نفسه . فلما رأى ذلك الملك الناصر فرح
وقال : « الحمد لله الذي صان دماء المسلمين عن
القتال ! » . وخلع على ذينك الأميرين الخلع
السنية .

ثم ان الملك الناصر كتب أماناً وأرسله الى الملك
المظفر على يد الأمير بيبرس والأمير بهادر آص ،
وعادا الى مصر فوجدا الملك المظفر توجه الى
أطفيح . فلما رأيا ذلك أرسلوا له ذلك الأمان وهو
في أطفيح ... فكانت مدة غيبة الأميرين سبعة أيام
ذهاباً وإياباً الى أن عادا بالجواب .

ثم ان الملك الناصر خرج من غزة ، وجد في
السير فوصل الى بركة الحاج في سلخ شهر رمضان
فعيد هناك ، فخرج اليه الأمير سلار النائب وقبل له
الأرض ، وكذلك سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر
والقضاة الأربعة وأعيان الناس . ثم ان الملك الناصر
صلى صلاة العيد هناك ، وطلع الى القلعة في
موكب عظيم ، وحملت القبة والطير على رأسه ،
وفرشت تحت حوافر فرسه الشقق الحرير من بين
الترب الى أن طلع الى القلعة وجلس على سرير
الملك ... وقد قال القائل في المعنى :

فاستبشرت مصر وهناً بعضها
بعضاً بعودته الى الأوطان

عُودُ الْمَلِكِ النَّاصِر

عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ،
وهى السلطنة الثالثة .

فلما كان يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع
وسبعمائة ، فيه عمل السلطان الموكب ، وطلع الى
القلعة الخليفة المستكفى بالله سليمان ومعه القضاة
الأربعة ، وبايع الملك الناصر بالسلطنة ، ولبس
خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء وعمامة سوداء
بعذبة زركش وسيف بداوى متقلد به — فجلس
على سرير الملك وجميع الأمراء من كبير وصغير
قبلوا له الأرض وهو جالس فى الايوان الأشرفى .
ثم خلع على سائر الأمراء والنواب الذين حضروا
معه خلع الاستمرار ، وخلع على الخليفة المستكفى
بالله سليمان والقضاة الأربعة وأرباب الدولة من
أصحاب الوظائف

ثم فى ذلك اليوم قبل الأرض الأمير سلالر
النائب ، وطلب من السلطان أن يعفيه من النيابة ،
وأن يقيم بالشوبك لأنها كانت جارية فى جملة
اقطاعه ... فأجابه السلطان الى ذلك ، وخلع عليه
خلعة السفر وخرج من يومه الى الشوبك ، فكانت
مدة نيابته بالديار المصرية احدى عشرة سنة وأياما .
وكان مستحقا للسلطنة أكثر من المظفر بيبرس
الجاشنكير ، ولكن كان سلالر قانعا بالنيابة . وهو
نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، كثير المال ... ففنع
بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

إذا منعتك أشجار المعالى

جناها الغض فاقنع بالشميم

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى ، وخلع على
الأمير بكتمر الجوكندار واستقر به نائب السلطنة
عوضا عن سلالر . ثم ان السلطان أرسل الأمير

بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص الى الملك المظفر
بيبرس ، وكان قد توجه نحو اخميم من أعمال
الصعيد . فلما اجتمعا به تلفظا معه فى القول حتى
استخلصا منه ما كان أخذه من بيت المال من
الأموال والتحف ، وكذلك ما كان أخذه من
الخيول الحواص ، وأخذوا منه ما كان معه من
الماليك ، ثم قالوا له ان السلطان يقول لك :
« امضى الى الكرك وأقم بها ، وهو يرسل اليك من
هناك عيالك وأولادك » . فقال الملك المظفر :
« السمع والطاعة » . ورحل من يومه وتوجه من
هناك من طريق السويس .

ثم ان الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص
رجعا الى القاهرة ومعهما الأموال والخيول
والماليك الذين كانوا مع المظفر . فلما حضروا الى
الملك الناصر وبلغه توجه المظفر من جهة السويس
الى الكرك ، أرسل اليه الأمير استدمر كرجى وهو
فى أثناء الطريق ، فقبض عليه وأحضره الى الأبواب
الشريفة ، فطلع الى القلعة فى الليل ، وذلك فى ليلة
الخميس رابع عشر ذى القعدة . فلما طلع الى القلعة
أودعه السلطان فى البرج .

فلما كان صبيحة يوم الخميس وقت الظهر فى
خلوة ، مثل بين يديه ووبخه بالكلام ، وعدد له
ما وقع من القبائح فى حقه ، ثم أمر بحنقه بين يديه
فخنق بوتر حتى مات وقضى نجه ، وذلك فى يوم
الخميس رابع عشر ذى القعدة من سنة تسع
وسبعمائة . فلما مات أرسله السلطان الى زوجته ،
وأمر بأن يدفن فى تربة بالقرافة فدفن هناك مدة ...
ثم ان بعض الأمراء تداخل على السلطان بأن ينقل
ويدفن فى خانقاه التى أنشأها عند الدرب الأصفر
بالقرب من خانقاه سعيد السعداء ، فكانت مدة
سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بالديار
المصرية أحد عشر شهرا وأياما .

وكان يبيرس مليح الشكل ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، وافر العقل ، حسن السيرة ، وكان كفؤا للسلطنة ، كثير البر والخير والمعروف والصدقات .

سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير بكتمر الناصري الحاجب واستقر به وزيرا .

ثم ان السلطان بلغه أن أخا الأمير سلال النائب وجماعة من الأمراء الذين هم من عصبة الأمير سلال يقصدون الوثوب على السلطان . فلما تحقق ذلك بادر وقبض على أولئك الأمراء الذين نقل عنهم أمر الوثوب — وكانوا نحو أربعة عشر أميرا — وقبض معهم على أخى الأمير سلال وأودعهم السجن .

ثم ان السلطان أرسل يكاتب سلال بما وقع من أخيه ، وأرسل الى سلال بالحضور الى القاهرة ليزول أمر القال والقييل من بين الناس . ثم ان السلطان أرسل في هذه الرسالة الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، وأمره ان لم يجيء سلال طوعا يقبض عليه ويحضره كرها ، فأخذ سنجر الجاولي مراسم السلطان وتوجه الى سلال — وكان مقيما بالكرك وقيل بالشوبك — فلما وصل اليه الجاولي أجاب الى الحضور . فلما حضر الى الأبواب الشريفة ، أودعه السلطان في السجن بالقلعة ، فأقام به أياما وأشيع موته . وكان أصله من مماليك الملك الصالح على بن قلاون ، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار قلاون .

وقيل لما سجن الأمير سلال بعث اليه السلطان بطعام ، فلما وصل اليه الطعام ومثل بين يدي سلال أبى أن يأكل ، وردده على السلطان وأظهر الحمق . فلما بلغ السلطان ذلك منع عنه الأكل والشرب ، فأقام على ذلك أياما ، فلما تزايد به الجوع أكل

أخفأه وهو في السجن . ولما بلغ السلطان ذلك رق له وأرسل من يقول له ان السلطان قد رضى عليك ، ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع .

وكان سلال مربوع القامة ، غليظ الجسد ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، له بعض شعرات في حنكه ... وكان من التتار ، وكان شديد البأس ، صعب الخلق ، قوى الغضب . وكان لطيف الذات في ملبسه ، واليه ينسب السلاوي الى الآن والمناديل السلاوية . وقد اقترح أشياء كثيرة في الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب ، وهي منسوبة اليه الى اليوم . وكان كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف ، وكان في سعة من المال والعيال مما لا يحصى لكثرتة .

ولما مات سلال تولى أمر دفنه الأمير سنجر الجاولي ، ودفنه في مدرسته الجاولية التي عند الكباش . ثم ان السلطان احتاط على موجوده فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله في خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبي : « وقفت على قوائم بخط القاضي جمال الدين بن الغورية تتضمن ما قد اشتملت عليه تركة الأمير سلال النائب — وذلك أول ما ضبط في أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة عشر وسبعمائة — فمن ذلك صناديق افرنجي مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ، منها فصوص ياقوت أحمر كهرمان رطلان ، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمرد بابي عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم » .

ثم في يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب
العين خمسة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة
ألف ألف درهم ، ومن الفصوص المختلفة رطلان ،
ووجد له متسوغ من ذهب — ما بين خلاخيل
وأساور — ووزن أربعة قناطير مصرى . ووجد عنده
مئات فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوت فضة
الوزن ستة قناطير .

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشره وجد له من الذهب
العين خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة
ثلاثمائة ألف وثلاثون ألف درهم . ووجد عنده
مئات فضة للصناجق ، وقطريات فضة ثلاثة
قناطير .

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره وجد عنده من
الذهب العين ألف ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة
ألف درهم . ووجد عنده أقيية حرير عمل الدار
ملون بفرو سنجاب ... العدة أربعمائة قباء . ووجد
عنده من السروج الذهب مائة سرج ، والكل بمياثر
زركش على مخمل أحمر . ووجد له — عند صهره
الأمير موسى — ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها .
ووجد له من الشقق الحرير الطرد وحش وغيره
ألف شقة . ووصل صحبته من الكرك من الذهب
العين مائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمائة ألف
درهم . ومن الخلع الملونة ثلثمائة خلعة . ووجد
عنده من الخيام ست عشرة نوبة ، وحزكات خشب
بنشاء أملس أحمر مرقوم مزركش . ووجد عنده
من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ،
ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجبال
مائة وعشرون قطارا ... هذا كله خارج عما وجد
له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون
والمراكب والعبيد والخدم والماليك والجواري
 وغير ذلك . ووجد عنده من الأغنام والأبقار
 ما لا يحصى . ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف

أردب في الشون ... ومع هذا كله مات من شدة
الجوع في السجن بالقلعة ! ثم بعد أيام ظهر له
مخبأة في داره ظهر فيها أكياس ذهب لا يعلم لها
عدد ، ووجد له في بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة
فيها ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد .

قليل كان متحصل الأمير سار هذا في كل يوم
من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحماياته
مائة ألف دينار . ومن العجائب أن الأمير سار أقام
في نيابة السلطنة بمصر إحدى عشرة سنة ... فكيف
حوى هذه الأموال العظيمة في هذه المدة اليسيرة
والذى يظهر لى أما أنه كان قد ظفر بكنز من
كنوز القدماء ، وأما أنه كان أخذ هذه الأموال
والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه
الملك الناصر الى الكرك — وقد كانت مفاتيح بيت
المال بيد سار لا يمكن منها الملك الناصر بشيء —
ولكن لما مات سار رجع كل شيء لأصله ، وقد
قليل في المعنى :

اجمع وأنت من الدنيا على حذر
واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل
محصى عليك وما خلفت موروث

وفي هذه السنة ، وهى سنة عشر وسبعمائة ،
كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن دانيال
الحكيم ، وهو صاحب كتاب طيف الخيال . وكان
شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله في
حرفته :

ياسائلى عن حيرتى فى الورى
وضيغى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم اتفاقه
ياخذه من أعين الناس

وفيهما توفي الشيخ شمس الدين السروجي ،
شارح كتاب الهداية ، وكان من كبار الحنفية .
وتوفي التوريزي محدث مكة .

سنة احدى عشرة وسبعمائة (١٣١١ م) :

فيها عظم أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون حين
جاءت الأخبار من افريقية ببلاد الغرب أنه قد
خطب باسمه فيها على المنابر . وكان سبب ذلك أن
صاحب افريقية — وهو أبو يحيى اللحياني —
قدم على الملك الناصر في هذه السنة ، وقال له :
« أرسل معي عسكريا الى افريقية ، فاذا فتحت
المدينة وملكتها ألتم للسلطان بأن أقيم نفسي بها
نائبا عن السلطان » ... فعين معه السلطان تجريدة
نحو مائة مملوك ومعهم أمير عشرة ، فلما توجهوا
نحو افريقية تسامعت بهم العربان وأهل النواحي ،
فالتفت عليهم جماعة من العربان والمغاربة ، فعظم
أمر أبي يحيى ومشى على بلاد تونس وغيرها من
البلاد ، فحاصر مدينة افريقية حتى فتحها ، ودخل
اليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية والعساكر
المصرية ، فطرد من كان بها وملكها وخطب فيها
باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون كما قرر معه ،
واستمر بها ورجع العسكر الى القاهرة وذلك في
شهر رجب من السنة المذكورة .

ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان خلع
على الأمير كراي المنصوري ، واستقر به نائب
الشام ، فأقام بها مدة يسيرة ، وأرسل فقبض عليه
وأعاد الأمير أقوش الأفرم الى نيابة الشام وكان
بالكرك . ثم ان السلطان قبض على الأمير بكتمر
الجوكندار نائب السلطنة بمصر وسجنه ، وخلع
على الأمير بيبرس الدوادار المنصوري واستقر به
نائب السلطنة عوضا عن بكتمر الجوكندار .
وفيهما جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام

والأمير قرا سنقر المنصوري هربا من الشام وتوجها
الى نحو بلاد التتار ، وقد بلغهما أن السلطان يروم
القبض عليهما فهربا من أجل ذلك .

سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (١٣١٢ م) :

فيها حضر رسل صاحب اليمن وصحبته هدايا
عظيمة ، فقبلها السلطان وأكرم قصاده .
وفيهما حضر ملك النوبة الى الأبواب الشريفة
وصحبته هدايا عظيمة ، فمن جملة ذلك ألف رأس
رقيق وخمسائة جمل وخمسائة بقرة خيسية .
وفيهما قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار
الذي استقر نائب السلطنة وسجنه واستقر بالأمير
أرغون الدوادار الناصري في نيابة السلطنة بمصر
عوضا عن بيبرس الدوادار ، ثم خلع على الأمير
تنكز الحسامي واستقر به نائب الشام عوضا عن
أقوش الأفرم . قيل لما تولى الأمير تنكز نيابة
الشام جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة
حلب — وكانت في قديم الزمان نيابة حلب أكبر
من نيابة الشام — ثم خلع على الأمير سودون
الناصرى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير
ققجق المنصوري .

وفيهما عمر السلطان الناصر جامع المسمى
بالجديد الذي عند موردة الحلفاء ، وكان النيل
يجرى من تحته صيفا وشتاء . قيل لما أراد عمارة
هذا الجامع نقل حجارتها من صنم كان عند قصر
الشمع يقال له السرية . قيل كان مقابل ذلك الصنم
الذي عند الأهرام في بر الجيزة الذي يقال له
أبو الهول . قيل عمل من ذلك الصنم قواعد
للأعمدة الكبار التي في الجامع .

وفيهما عمر السلطان سور الميدان الكبير الذي
تحت القلعة ، وابتدأ بعمارة الميدان الكبير الذي
عند موردة الجبس بالقرب من خليج أروى .

وفيها حضر مملوك نائب حلب وأخبر السلطان
بأن التتار قد تحركوا على البلاد ، فلما تحقق
السلطان ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم فعبوا
حالهم في سبعة أيام ، ثم خرج السلطان من القاهرة
في أوائل شهر رمضان وقصد التوجه الى حلب
بسبب التتار ، فلما وصل الى غزة وردت عليه
الأخبار بأن التتار بلغهم مجيء السلطان فخافوا
ورحلوا عن مدينة الرحبة وتوجهوا الى بلادهم ،
وقد كسرهم نائب الرحبة كسرة قوية . فلما تحقق
السلطان ذلك قوى عزمه بأن يسافر من هناك الى
الحجاز الشريف ، وقد سميت هذه التجريدة
« الكذابة » ... ثم ان السلطان رد جماعة من
الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وأخذ معه بعض
أمراء ومماليك سلطانية وتوجه من هناك الى الحجاز
الشريف . فلما قضى حجه رجع من هناك الى الشام
وأقام بها الى أوائل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة
وسبعمائة ، فدخلها ثالث عشر صفر ، وكان يوم
دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة
زينة عظيمة ، وحملت على رأسه القبة والطيور ،
وفرشت له الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ،
ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع الى القلعة ، وكان
له موكب عظيم وهذه هي الحجة الأولى .

وفي أثناء السنة - وهي سنة اثنى عشرة
وسبعمائة - كانت وفاة الشيخ نصير الدين الحامى
وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن
ذلك قوله :

كدت حمامى بغيثك التى

تكدر فيها العيش من كل مشرب

فما كان صدر الحوض منشرجا بها

وما كان قلب الماء فيها بطيب

وقال فى المعنى :

لى منزل معروفه ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب
وفى هذه السنة توفى أبو جبار شارح
« الشاطبية » ، وكان من أعيان العلماء .

سنة ثلاث عشرة وسبعمائة (١٣١٣ م) :

فيها سافر السلطان الى نحو بلاد الصعيد لتهديد
البلاد ، فان العربان كانوا قد زادوا فى الفساد .
فلما توجه السلطان هناك ضيق عليهم حتى رحلوا
الى الجبال ، فماتوا من الجوع والعطش ، فأمر
منهم نحو النصف وحملهم الى القاهرة فى مراكب
وهم فى الخشب ، فسجن منهم جماعة واستعمل
منهم جماعة آخر فى حفر الجسور وهم فى جنازير
حديد .

ولما عاد السلطان من بلاد الصعيد أقام عند
الأهرام فى بر الجزيرة أياما على سبيل التنزه - وكان
ذلك فى شهر رمضان - فلما قرب عيد الفطر طلع
الى القلعة وعيد بها .

وفى هذه السنة شرع السلطان فى روك البلاد
الشامية - وهو الروك الناصرى - فأمر باحضار
كتاب الجيوش الشامية ، وحضر نائب غزة وجماعة
من الأجناد الشامية والغزاوية ، وتكلموا فى ذلك
وكتبوا المثالات والمناشير وأرسلوها على يد الأمير
قجليش السلحدار . ولما وصل الى الشام ساءم
الأوراق والمناشير الى نائب الشام ففرقها على
العساكر الشامية .

وفى هذه السنة تحولت سنة اثنى عشرة وسبعمائة
الخراجية ، الى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية .

سنة أربع عشرة وسبعمائة (١٣١٤ م) :

فيها شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق الذى

بقلعة الجبل ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة
في بعضها ، وهي خمس قاعات وثلاثة مراقد .

قال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمدا هذا
أكمل عبارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة في عشرة
أشهر ، فلما انتهى العمل جمع فيها سائر الأمراء
حتى القضاة الأربعة ، وقرأ فيها ذلك اليوم ختمة ،
ومد بها سباطا عظيمًا ، وملاً الفسقية التي في القصر
الكبير سكرا بماء ليمون ، فأكل من ذلك السباط
الخاص والعام ، وأحضر السلطان للأمراء القنز
فشربوا منه ، ووقف رؤوس النواب على الفسقية
يملاؤن السكر للناس بالطاسات . وخلع السلطان
في ذلك اليوم على المعلمين والمهندسين والمرخين
والتجارين والفعلة نحوًا من ألفين وخمسمائة خلعة ،
ما بين متترات وكوامل وخلع وأقبية وغير ذلك ،
وفرق من الأموال على الفقراء في ذلك اليوم نحو
خمسین ألف دينار ، وكان ذلك اليوم يعرف
بالسلطاني ... ذكر ذلك صاحب كتاب زبدة الأفكار
في أخبار الملك الناصر .

سنة خمس عشرة وسبعمائة (١٣١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن تنكز نائب الشام جمع
سائر النواب وتوجه الى نحو ملطية ، فحاصر أهلها
ومن كان بها من الأرمن ، فطلبوا منه الأمان ،
ففتحتها بالأمان في يوم الاثنين الثاني والعشرين من
المحرم من سنة خمس عشرة وسبعمائة .

وفي هذه السنة رآه السلطان الملك الناصر
محمد بن قلاوون البلاد المصرية — وهو الروك
الناصرى بعد الروك الحسامي — فزاد عن الروك
الحسامي في مواضع وتقص في مواضع .

وفي هذه السنة — وهي سنة خمس عشرة
وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد
ابن العفيف ، وكان مولده سنة اثنين وستين

وستمائة ، فكانت مدة حياته ثلاثًا وخمسين سنة .
وكان شاعرا ماهرا ، رقيق الشعر والنظم ، وله
شعر جيد ، فمن تغزلاته اللطيفة قوله :

ياساكنا قلبى المعنى وليس فيه سواه ثانى
لأى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان

سنة ست عشرة وسبعمائة (١٣١٦ م) :

فيها جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب
بأعلى بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، فخرج
في هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك ،
فتوجهوا الى بلاد البجاة وجاوزوا الأقاليم الثلاثة
فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة ، فرجعوا الى
القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر في هذه
التجريدة الذرة والماء من الحفائر ، وكانت العرب
في الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح .

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ علاء الدين
ابن المظفر الكندي الشهير بالوداعي ، وكان مولده
سنة أربعين وستمائة ، ووفاته سنة ست عشرة
وسبعمائة ، فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة .
وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك
قوله :

لقد سح الزمان لنا بيوم
غدا فيه السمي مع السمي
تجبعنا كأنا ضرب خيط
على في على في على

سنة سبع عشرة وسبعمائة (١٣١٧ م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى نحو مدينة
أحد ، فطرقوها على حين غفلة ، فهرب أهلها منها ،
فملكها عسكر مصر من غير محاصرة .

وفي هذه السنة توجه السلطان الى غزة ، وتوجه
من هناك الى زيارة بيت المقدس فزاره ، ثم توجه

الى زيارة الخليل عليه السلام فزاره ، ثم رجع الى الديار المصرية وذلك فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

وفى هذه السنة وفى النيل فى التاسع والعشرين من أيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع ، فكسر بعد العصر خوفا من قوة عزم الماء .

وفىها أمر السلطان بتوسعة الجامع الذى فى القلعة ، فوسعه وبنى به المثانة الخضراء ، وزخرفه بالرخام الملون وبنى به القبة الخضراء ، وقيل انتهت منه العمارة فى أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

سنة ثمانى عشرة وسبعمائة (١٣١٨ م) :

ففىها جرد السلطان العسكر الى نحو برقة بسبب فساد العربان لأنهم قد منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجمالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون الى نحو بلاد الغرب .

وفى هذه السنة أجرى السلطان ماء النيل من البحر الى قلعة الجبل ، وعمل مجراة جارية على قناطر مبنية بالحجر ، وركز للمياه آبارا ، وجعل عليها سواقي نقالة فى عدة أماكن .

وفى هذه السنة عمر السلطان الحوش الكبير الذى بالقلعة وزرع به بستانا ، ونقل اليه الأشجار والرياحين من سائر الأماكن حتى من البلاد الشامية ومن مكة ، وطلع فيه الكادى وجوز الهند وغير ذلك من الفواكه .

وفى هذه السنة قوى عزم السلطان على أن يحج فى تلك السنة — وهى الحجة الثانية — فعين معه جماعة من الأمراء المقدمين اثنى عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات ثلاثين أميرا . وحج مع السلطان فى تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وحج صحبة

السلطان من المباشرين القاضى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الشريف ، والقاضى فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين ناظر الخواص الشريفة ، وغير ذلك من المباشرين ... فخرج السلطان من القاهرة فى تاسع ذى القعدة ، فجد فى السير حتى دخل الى مكة قبل الصعود بثلاثة أيام ، فكنس مكان الطواف ومسحه بيده ، ثم صعد الى الجبل وقضى مناسك الحج ورجع الى مكة وأقام بها أباما وفرق على الفقراء الذين بمكة جملة من المال ، وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة .

ثم توجه الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل المدينة الشريفة وهو ماش على أقدامه حافيا . فلما دخل المدينة فرق على الفقراء خمسين ألف دينار ، ثم توجه الى نحو القاهرة فدخلها فى أوائل صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا .

سنة تسع عشرة وسبعمائة (١٣١٩ م) :

ففىها تزوج السلطان بنت أربك خان صاحب الموصل ، فحضرت من بلاد الشرق الى مصر فى محفة مرقومة بالذهب ، فطلعت الى القلعة وكان لها مهم عظيم ، ودخل عليها السلطان وحظيت عنده .

وفى هذه السنة كالت وفاة الشيخ شهاب الدين محمود أبى الشاء . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد ونثر رقيق ، فمن شعره قوله :

لقد سلبوا نومي ولم تدر مقلتي

وقد سلبوا قلبي ولم تشعر الأعضاء

وطلقت نومي والجفون حوامل

فمن أجل ذا فى الخد أبقت لنا فرضا

سنة عشرين وسبعمائة (١٣٢٠ م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى مدينة سيس ، فطردوا من كان بها من الأرمن وملكوها ، وأقاموا بها نائبا من قبل السلطان ثم رجعوا الى القاهرة وهم في غاية النصر .

وفي هذه السنة توفي قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١ م) :

فيها حجت خوند زوجة الملك الناصر — وهى خوند طغاي أم ولده أنوك — فحج معها القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، وكان أمير المحمل في تلك السنة الأمير قجيلش أمير سلاح وجماعة من الأمراء العشراوات ، فخرجت من القاهرة في ثامن شوال ، وحجت في محفة مرقومة بالذهب ، وسافر صحبتها الكتوسات والعصائب السلطانية ، فحجت ورجعت الى القاهرة في عاشر المحرم ، فنزل السلطان الى تلقيها ، فتلقاها من بركة الحاج ، ودخلت في موكب عظيم والأمراء مشاة قدام محفتها حتى طلعت الى القلعة .

وفي هذه السنة جرد السلطان العساكر الى قلعة اياس ومدينة سيس ... وذلك أنه لما رحل عنها عسكر السلطان ورجعوا الى القاهرة رجعت اليها الأرمن وطردوا النائب الذى كان فيها من قبل السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليها تجريدة عظيمة كان بها من الأمراء الأمير طرجى أمير مجلس ، والأمير ألماس حاجب الحجاب — وهو صاحب الجامع الذى بالقرب من سوق الغنم — والأمير بهادر آص ، والأمير سنجر الجمقدار ، والأمير كجكر العلمى ، والأمير أقوش الأشرفى ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، وألفان من المماليك السلطانية . ولما وصلوا الى سيس

حاصروها أشد المحاصرة حتى هرب من كان بها من الأرمن ، وقتلوا من أهلها ما لا يحصى عدده ، وفتحوها بالسيف ، وأخربوا سورها وتركوها خاوية على عروشها ، وزال عنها زخرفها ونقوشها ، وجعلوا بها نائبا قد رماه الدهر فى النوائب . وعن لسان نائب سيس يقول بعض الشعراء :

قالوا اجعلوا فيها لنا نائبا

جيوش سيس ... قلت رأى تعمس

لو أن ذا الحاكم فى سلطنة

ما تركوننى أبقي بسيس

ثم رجع العسكر المصرى الى القاهرة وتركوا

نائب سيس تحت مكتوبه .

وفي هذه السنة رسم السلطان الملك الناصر بعبارة ميدان المهارة الذى عند قناطر السباع ، وأنزل أمير أخور كبير لعمارته ، فعمره بالطوب اللبن وانتجز العمل منه فى أسرع مدة .

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة (١٣٢٢ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على القاضى كريم الدين ابن السديد — ناظر الخواص الشريفة — فقبض عليه وعلى ولده ، وقد كان نال من العز ما لم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد ، وكان الملك الناصر قد صير له التصرف فى الخزائن والأموال من غير حرج ، فكانت الأمراء والأعيان يركبون فى خدمته ، وينزلون معه الى بيته . ولما تغير خاطر السلطان عليه احتاط على موجوده ، واستصفى أمواله وذخائره ولم يترك له لا قليلا ولا كثيرا ، وصادر نساءه وغلماؤه وحاشيته ، ثم بعد ذلك نفاه الى نحو الشوبك هو وولده .

ثم ان السلطان خلع على القاضى تاج الدين ابن عبد الوهاب واستقر به ناظر الخواص الشريفة عوضا عن كريم الدين . ثم ان السلطان نقل القاضى

كريم الدين من الشوبك الى أسوان من أعمال بلاد الصعيد ، فتوجه من هناك وهو مقيد بالحديد وسجن هناك في أسوان ، فأقام في السجن مدة يسيرة ومات ... قيل انه عمد الى خشبة وعمل فيها حبلاً وخنق به نفسه ، فمات وهو في السجن بأسوان . فلما مات أحضر السلطان ولده وعاقبه وقرره على الأموال والذخائر فأظهر مخبأة في دهليز بيته فوجد فيها من الذهب العين مائتى ألف دينار ، ومن النصوص والتحف ما لا يحصى ... هذا بعد ما أخذه السلطان منه في المصادرة أولاً وثانياً ، فكان كما قيل في المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن

ما عشت بالتقريب منهم واثقا

فالغيث غيثك ان ظمئت وربما

ترمى بوارقه اليك صواعقا

وحكى بعض المؤرخين عن القاضى كريم الدين هذا أنه شرب في بعض الأيام دواء ، فجمع وردا كان في القاهرة ففرش منه في داره ما قدر عليه حتى في دهاليز بيت الخلاء وعلى الملاقي ، وداس منه الناس ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، ثم ان العبيد والغلمان أخذوا ما فضل من ذلك الورد فباعوه بخمسة آلاف درهم . وكان القاضى كريم الدين له بر ومعروف ، وأنشأ جامعاً بجزيرة أروى ، وأنشأ خانقاه بالقرافة الصغرى ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة . وفيه يقول ابن نباتة :

يا كريم ما موافق الاسم للفعـ

ل وأنسى في الفضل كل قديم

لا تخف نبوة الحوادث فالله

كريم يجب كل كريم

وقيل مات القاضى كريم الدين وله من العمر نحو من ستين سنة .

سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) :

فيها ابتداء الملك الناصر محمد بن قلاون بعمارة خانقاه سرياقوس . قيل ان الملك الناصر رأى النبى صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأشار عليه أن يبنى في هذا المكان خانقاه ، فبنى هذه الخانقاه . فلما كملت قرر بها الصوفية ، ووضع في هذه الخانقاه أربعة مكتوبة بالذهب مثل الربعة التى في خانقاه بكتمر التى بالقرافة ، وجعل فيها حضورا ، وقرر الشيخ مجد الدين الأقصرائى شيخا بها وكان من كبار العلماء . فلما كملت العمارة نزل السلطان هناك وعمل بها وليمة عظيمة ، وحضر فيها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء .

ثم ان السلطان عمر حول هذه الخانقاه البيوت الجليلة ، ورغبوا في سكنها ، وصارت مدينة على انفرادها ، وتزايدت في العمارة ، وبنى بها الملك الأشرف برسباى مدرسة عظيمة وجعل فيها خطبة ، وبنى فيها عدة مساجد ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاون قرر بهذه الخانقاه جماعة آفاقية قاطنين بها ليس لهم حرفة ، وفي ذلك يقول المعمار :

قد صار في الخانقاه عرف

من فعلهم وهو شر عادة

لا يدفعون النصيب فيها

الا لمن يترك الشهادة

سنة اربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة موسى ملك التكرور وصحبته هدايا جليلة الى السلطان . وسبب توجهه الى مصر أنه قصد الحج في تلك السنة فحج ورجع الى بلاده .

وفي هذه السنة رسم السلطان بحفر الخليج الناصرى . وسبب ذلك أن الخليج القديم ، المسمى بخليج الذكو ، كان قد تلاشى أمره وعمى ، فأمر

السلطان بحفر هذا الخليج ، وجعل مبدأه من عند
موردة الجبس الى أن أوصله بالخليج الحاكمى من
عند زقاق الكحل ، ثم وزع حفره على جماعة من
الأمراء بالقصبة الحاكمية . وسبب ذلك أن الأمراء
الذين تعاونوا على حفره كان لهم بلاد تنتفع بالرى
من هذا الخليج ، فوزع السلطان حفره عليهم ،
فاحتفلوا به وحفروه حتى نبع الماء من أرضه ، وانتجز
منه العمل فى مدة شهرين . فلما أخذوا فى اسباب
حفره أرادوا أن يوصلوه بالخليج الحاكمى من كوم
الريش ، فأشار عليهم شخص من الصالحين يقال له
الشيخ على الرطلى بأن يمشوا به من بركة قرموط ،
فعطفوا به من عند القنطرة العسراء ومشوا به الى
الخليج الحاكمى وطلعوا من قبالة زقاق الكحل .
والى الشيخ على الرطلى تنتسب بركة الرطلى ،
وكان هذا المكان قديما يعرف بأرض الطبالة . فلما
مشى هذا الخليج الناصرى بالماء جاء أحيا من خليج
الذكو وأكثر مياهها . قيل لما أوفى النيل فى تلك
السنة ودخل الماء الى الخليج الناصرى كان له يوم
مشهود ، ونزل السلطان واجتمع الأمراء يوم كسر
سدده ، وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن أبى
حجلة المغربى :

ولرب أقطع قال لى بيتا وقد

كسر الخليج وجاء كالطوفان

أجرى لنا السلطان بحرا ثانيا

مالى بشكر نوالهن يدان

وفى هذه السنة ابتداء الأمير بكتمر — حاجب
الحجاب — بحفر بركته المعروفة الآن ببركة الرطلى ،
وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، وعمل لها
جسرا بينها وبين الخليج . وأرض البركة جارية الى
الآن فى وقف الأمير بكتمر الحاجب .

وفى هذه السنة برزت المراسيم الشريفة الى نائب
حلب بأن يروك البلاد الحلبية كما فعل فى البلاد

الشامية ، فخرج أمير من الأمراء العشراوات ومعه
جماعة من المباشرين بسبب ذلك ، فتوجهوا من
القاهرة الى حلب وراكوا البلاد الحلبية حكم البلاد
الشامية ، فجميع البلاد المصرية والشامية والحلبية
الآن فى الروك الناصرى .

سنة خمس وعشرين وسبعمائة (١٣٢٥ م) :

فيها رسم السلطان بإبطال الضرب بالمقارع من
سائر أعمال مملكته ، وكتب بذلك مراسيم شريفة
وقرئت على منابر مصر والشام بإبطال ذلك .

وفى هذه السنة وقع الغلاء بمصر وسائر أعمالها ،
وتشحطت الغلال وماجت الناس على بعضها .

وفى هذه السنة أجرى السلطان عين ماء بمكة
— وهى العين المعروفة بعين بازان — فحصل لأهل
مكة بها غاية النفع ، وهى الى الآن جارية يعم
نفعها أهل مكة .

سنة ست وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦ م) :

فيها عمل السلطان الموكب ، وقبض على الأمير
طشتمر المعروف بحمص أخضر ، وقبض على الأمير
قطلوبغا الفخرى . فأما الأمير طشتمر حمص أخضر
فشفع فيه الأمراء ، فأفزع عنه السلطان من يومه
وأما الأمير قطلوبغا الفخرى فأرسله السلطان الى
دمشق بطلا . واستمر طشتمر ممقوتا عند السلطان
فانه كان شديد البأس ظالم الصورة ، وفيه يقول
المعمار رحمه الله تعالى :

لما طغى طشتمر واعتدى

تفائل الناس بأفوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تزل مصر بأفوالها

وفى هذه السنة عمرت القرية المعروفة بالنجيرية
من أعمال الغريبة ، وكان سبب انشائها أن الأمير

جليلة وتقادم عظيمة ، فأكرمه السلطان غاية
الاکرام ، وأقام بالقاهرة أياما ثم توجه الى بلاده .

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨ م) :

فيها برزت المراسيم الشريفة ببناء قناطر على
الخليج الناصري الذي حفره السلطان الملك الناصر ،
فبنى قنطرة عند الميدان الكبير بموردة الجبس ،
وبنى قنطرة تعرف الآن بقنطرة قديدار . قيل ان
الأمير قديدارا كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ،
وبنى قنطرة بظاهر باب البحر ، وبنى قنطرة عند
بركة قرموط تعرف الآن بقنطرة العسرا ، وبنى
قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب
كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة
عند زقاق الكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة ...
فهذه القناطر من انشاء الملك الناصر محمد بن
قلاون .

سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٩ م) :

فيها حفر السلطان الملك الناصر البركة الناصرية
المنسوبة اليه المجاورة للميدان الكبير ، وأجرى
اليها الماء من الخليج الناصري .
وفي هذه السنة أخرج السلطان ولده الأمير أحمد
الى مدينة الكرك ورسم له بأن يقيم بها ، فعفى له
سنيحا عظيما وتوجه الى هناك .

سنة ثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠ م) :

فيها عمر السلطان القصر الكبير الذي في الميدان
عند البركة الناصرية ، وعمل تحته بستانا عظيما ،
وكان ينزل هناك ويقيم معه الحريم ، ويوكب من
هناك المواكب الجليلة ، ويطلع الى القلعة والأمراء
بين يديه بالشاش والقماش والعسكر مشاة بين
يديه حتى يطلع الى القلعة .

وفي هذه السنة رسم السلطان بهدم الايوان

شمس الدين سنقر السعدى - ثقيب الجيوش
المنصورة - كانت هذه الأرض في اقطاعه جارية ،
فعمر بها الأمير سنقر السعدى جامعا وطاحونا
وخانا ، ثم تزايدت في العمارة وسكن بها جماعة
كثيرة من الصالحين ، فبلغ خراجها في كل سنة
خمس عشرة ألف دينار ، فبلغ ذلك الملك الناصر ،
فأخذها من الأمير سنقر السعدى وصارت من جملة
بلاد السلطان ، وتزايدت في العمارة حتى صارت
بلدا كرسيا .

سنة سبع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٧ م) :

فيها توفي الأمير سنقر السعدى - ثقيب
الجيوش - عند حدة البقر المسماة بالسعدية .

وفي هذه السنة أمر السلطان باحضار القاضي
محيى الدين بن فضل الله العمري - كاتب سر
الشام - فلما حضر الى الأبواب الشريفة خلع عليه
السلطان ، واستقر به كاتب السر الشريف بمصر .
وهو الذى يقول فيه الشيخ جمال الدين بن نباتة :

يا سائلى عن كاتب السر الذى

يعزى علاه الى أب أواه

هذاك غيث الله محيى الأرض من

بعد الممات ، وذاك فضل الله

ومما يحكى عن القاضي محيى الدين هذا أنه
كان اذا دخل على الملك الناصر في وقت العلامة
يجمع ما فيها من الرمل الذى يتناثر من العلامة
بحضرة السلطان ، فيجمع ذلك كله ولا يرمى منه
شيئا ، ويضعه في مرملة التى لنفسه ، ويقول :
« هذا رمل سعيد لا يرمى منه شيء » . فكان اذا
كتب شيئا رمله من ذلك الرمل الذى جمعه من
العلامة بحضرة السلطان .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب حماة
- وهو الملك المؤيد عماد الدين - وصحبته هدايا

الأشرفى الذى كان بالقلعة ، فهدمه وبناء على هذه الصفة الموجودة الآن ، وعقد فوقه هذه القبعة العظيمة ، وكان يعمل فيه الموابك العظيمة ، وتجتمع به الأمراء ويكثر فيه الزحام من العسكر حتى قال فيه بعض الشعراء رحمه الله :

ما كان يكفى حر ذا الـ

يوان حتى ازداد قبـه

فكاننى فيه خـرو

ف قد شوى من تحت كبـه

وفى هذه السنة هدم السلطان دور الحرم التى كانت بالقلعة وأنشأها عمارة جديدة وتباهى فى بنائها .

وفى هذه السنة حضر الى الأبواب المقر السيفى تنكز نائب الشام يزور السلطان ، فأنزله فى الميدان الكبير عند الناصرية ، وبالح فى اكرامه وتعظيمه . وأحضر صحبته تقادم عظمة الى السلطان والأمراء ما بين خيول وفراش وقماش وغير ذلك .

سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (١٣٣١ م) :

فيها رسم السلطان بأن يعمل باب للكعبة الشريفة جديد من الخشب السنط الأحمر ، فعمل وصفحوه فوق الخشب بصفائح الفضة ، فكان زنتها ثلاثين ألف درهم . فلما قلع الباب العتيق وزنوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها ستين رطلا ، فأنعم بها الملك الناصر على بنى شيعة خدام البيت الشريف ، فتقاسموه بينهم . وهذا الباب كان عمله الخليفة العباسى الملقب بالمقتفى بالله فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢ م) :

فيها شرع السلطان فى التوجه الى الحجاز الشريف ، وهى الحجة الثالثة ، فيها خرج من القاهرة فى سابع شوال . وكان سبب هذه الحجة أن

السلطان لما عمل هذا الباب الجديد للكعبة قصد أن يوضع على باب الكعبة بحضرته ، فحج فى تلك السنة ، وكان بصحبته الملك الأفضل محمد ابن الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وكان مع السلطان من الأمراء الأمير بكتمر الساقى وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر ، والأمير أيدير الخطيرى ، والأمير جنكى ابن البابا — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير بيرس الأحمدي ، والأمير بهادر المعزى ، والأمير ايدغمش — وهو صاحب الخوخة المنسوبة اليه — والأمير قطز أمير آخور كبير ، والأمير طقزدمر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — والأمير سنجر الجاولى ، والأمير قوصون ، والأمير صوصون ، والأمير طائر بغا ، والأمير بشتاك العمرى — وهو صاحب الجامع المنسوب اليه — والأمير أقبغا آص الجاشنكير ، والأمير طقتمر الخازن — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير تمر الموسوى ، والأمير أيدير أمير خازن دار ، والأمير مسعود حاجب الحجاب ، والأمير صاروجا تقيب الجيوش المنصورة — وهو صاحب الجامع الذى عند بركة الرطلى — وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ... فكانت عدة من حج مع السلطان من الأمراء فى تلك السنة اثنين وسبعين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك ، فكانت مدة غيبة السلطان فى هذه السفرة الى الحجاز ذهابا وايابا أربعة وخمسين يوما لا غير .

ومما وقع للسلطان الملك الناصر فى هذه الحجة أن صهره الأمير بكتمر الساقى الأتابكى لما حج معه هو وولده الأمير أحمد ، فلما قضوا حجهم ورجعوا مرض الأتابكى بكتمر فى أثناء الطريق ، فلما وصل الى عيون القصب ثقل عليه المرض فمات هناك ودفن بعيون القصب ، وكانت وفاته فى ثانى المحرم

من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . ثم مرض ولده الأمير أحمد أيضا ومات بنخل ودفن بها ، ثم بعد مدة نقل الأتابكى بكتمر وولده الأمير أحمد الى القاهرة ودفنا هناك فى الخانقاه التى أنشأها بالقرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم . وكان الأمير بكتمر أصله من ممالك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، فلما مات الملك المظفر أخذ الملك الناصر محمد من جملة موجوده ، فحظى بكتمر عند الملك الناصر حتى جعله ساقيا ، ثم صار يرقى فى دولة الملك الناصر حتى بقى أتابك العساكر . ثم ان الملك الناصر زوج الأتابكى بكتمر بأخته بنت الملك المنصور قلاوون . وكان الملك الناصر ينزل الى بيت الأتابكى بكتمر وينفرد عنده وينام فى بعض الأوقات حتى يتفرج على بركة الفيل ، فان الأمير بكتمر كان ساكنا فى البيت الذى بالقرب من المدرسة الجاولية ، فصار الأتابكى بكتمر صاحب الحل والعقد فى دولة الملك الناصر ، ولا يتصرف الملك الناصر فى شئ من الملكة الا بعد مشورة الأتابكى بكتمر ، وكان لا يهدى للملك الناصر شئ من التقدم الا ويهدى للأتابكى بكتمر مثله أو أحسن منه ، فكثرت أموال الأتابكى بكتمر حتى قيل : كان فى اسطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سائس ، وتحت يده كل سائس طوالة خيل من الخيول الخاص ، وحوى من الأموال والجواهر والتحف ما لم يحوه قبله أحد من الأمراء ، فلما ثقل أمره على الملك الناصر لم يتمكن من القبض عليه ، فلما حج معه بلغ الملك الناصر أن الأتابكى بكتمر يقصد قتله فى طريق الحجاز ويتسلطن هناك ، فبادر اليه الملك الناصر ودرس عليه من سقاء سما هو وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر فماتا وهما فى أثناء الطريق راجعين كما تقدم ذكر ذلك .

قال بعض المؤرخين : لما مات الأتابكى بكتمر

بعيون القصب احتاط الملك على موجوده الذى كان معه بطريق الحجاز فوجد معه خمسمائة تشريف ما بين خلع أطلس ومتمرات وكوامل وغير ذلك ، ووجد معه عدة قيود وجنازير فى خوشخانات ... فعند ذلك تحقق الملك صحة ما نقل عن الأتابكى بكتمر فى أمر أنه قصد قتل السلطان هناك .

وكان الأتابكى بكتمر يغلب على السلطان فى القول اذا رأى منه الجور فى حق الرعية ، وكان يحجر عليه فى ذلك ، وكان السلطان يرجع الى قول الأتابكى بكتمر فى غالب الأمور ولا يخالفه فى شئ اذا أصر عليه .

وكان صفة الأتابكى بكتمر : أبيض اللون مشربا بحمرة ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، وافر العقل ، حسن العبارة فى كلامه ، عليه سكينه ووقار . وكان قليل الأذى فى حق الرعية ، وله بر ومعروف ... فمن ذلك أنه أنشأ خانقاه فى القرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم ، وقرر بها صوفية وحضورا ، ووقف عليها أوقافا كثيرة ، ووضع بها ربعة عظمة مكتوبة كلها بالذهب ، قيل ان مصروفها نحو ألف دينار ، وهى موجودة الى الآن . وكان بهذه الخانقاه حمام وفرن وطاحون وساقية وجنيئة ، وكان بها جماعة من الصوفية قاطنون بها ، وكان له آثار كثيرة بمصر والشام .

فلما مات الأتابكى بكتمر قرب السلطان الأمير قوصون ورقاه . قيل انه أنعم عليه بزرذخانة الأتابكى بكتمر ، فقوم ما فيها من السلاح وغيره فكان بنحو ستمائة ألف دينار . ثم ان السلطان زوج الأمير قوصون باحدى بناته . ولم يزل قوصون يرقى فى أيام الملك الناصر حتى فاق على الأتابكى بكتمر فى أيامه . قيل وقع يوما بين الأتابكى بكتمر وبين الأمير قوصون تشاجر فقال قوصون للأتابكى بكتمر : « أنا ما ثقلت من الأطباق

الى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال فأنعم على السلطان باقطاعه وبركه وبيته ، وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده لما قال له السلطان : معنى هذا المملوك ، قال التاجر : هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذنى السلطان برضاى ، ولم أقعد فى طبقة ، ولم أكن تحت حكم أغا ، ولم أبع مثل بقية الممالك ... » .

فلما سمع الأمير بكثر ذلك سكت عنه ولم يجبه عن ذلك بشئ .

وفى أثناء هذه السنة — وهى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة — حضر الى الأبواب الشريفة الأمير مهنا ابن الأمير عيسى من عربان آل فضل ، وأحضر معه تقادم عظيمة للسلطان ، فخلع عليه وأقره على حاله شيخ آل فضل .

سنة أربع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٤ م) :

ففيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى تنكز نائب الشام ، وكان يزور السلطان فى كل سنة مرة ، وصحبته الهدايا والتقادم . فلما حضر أنزله السلطان فى الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية ، وبالح السلطان فى اكرامه وتعظيمه ، وكان ذلك آخر اجتماعه بالسلطان وهو فى عزه وعظمة وقد تناهى سعده ، فأقام بالقاهرة ثم توجه الى الشام ، فخلع عليه السلطان خلعة عظيمة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والأمراء فى خدمته حتى رحل من القاهرة .

سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٥ م) :

ففيها أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين

فى السجن بشعر الاسكندرية ، وهم : الأمير بيبرس حاجب الحجاب ، والأمير تمر الساقى ، والأمير غانم بن أطلس خان ، والأمير طغلق ، والأمير بلاط اليونسى ، والشيخ على الأوجاقى ، والأمير بلزعى ، والأمير بنجاص ، والأمير لاجين الغمري ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير كچلى ... فلما حضر هؤلاء الأمراء الى القاهرة خلع عليهم السلطان ثم أعادهم الى اقطاعاتهم وقبض على جماعة من الأمراء نحو ذلك وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية .

وفى هذه السنة رسم السلطان بعنارة قنطرة على بحر أبى المنجا عند شيبين القناطر .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطرردوا من كان بها من المسلمين ، فرسم السلطان لنائب حلب بأن يتوجه اليهم ومعه العساكر الحلبية ، فخرج اليهم فى سابع عشر شهر رمضان ، فحاصر من كان بها من الأرمن ، وأحرق الضياع التى حولها ، وأسر جماعة من الأرمن نحو ثلاثمائة انسان . فلما بلغ ذلك من كان من الأرمن بقلعة اياس ، ثاروا على من كان عندهم فى المدينة من المسلمين ، وحشروهم فى فندق ، وأحرقوا ذلك الفندق ، فاحترق فيه من المسلمين نحو ألفى انسان ما بين رجال ونساء وصغار ، وذلك فى يوم العيد ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

سنة ست وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٦ م) :

ففيها رسم السلطان للمقر السيفى تنكز نائب الشام بعنارة قلعة جعبرة ، فتوجه اليها تنكز وعمرها فى أسرع مدة ، ورتب بها الرجال الحرسية ، وجعل لها نائبا مقيما بها ، وأودع فيها السلاح ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان .

وفى هذه السنة توجه الأمير أزدمر الشسى

— نائب بهنسا — الى قلعة درنده وحاصر أهلها ،

فطلبوا منه الأمان فأمّنهم ، فسلموه القلعة فأقام بها نائباً من قبل السلطان . ثم توجه الى قلعة النقيير فحاصرها ، ففعل أهلها مثل ما فعل أهل قلعة درندة ، وأقام بها نائباً من قبل السلطان .

وفي هذه السنة وقع الغلاء بالديار المصرية ، فبيع القمح كل أردب بسبعين درهماً ، وعدم الخبز من الأسواق ، وماجت الناس على بعضها ، فرسم السلطان بفتح شونه ففتحوها وباعوا منها فانحط السعر الى أن صار الأردب بثلاثين درهماً . ولما أن دخل شهر رمضان كثر فيه القمح حتى ما بقي أحد يشتريه ولا يقلبه ، وسكن وهج الناس .

ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان الملك الناصر تغير خاطره على الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ، ورسم له بأن يتحول من مناظر الكباش ويسكن بقلعة الجبل ، فتحول من يومه وطلع الى القلعة هو وعياله ، فأنزله السلطان في البرج الكبير الذي أنزل فيه الظاهر بيبرس البندقداري الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله عند قدومه من بغداد ، فاستمر الخليفة المستكفي بالله ساكناً في البرج ، ومنعه السلطان من الاجتماع بالناس ومن النزول الى المدينة ، فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر . ثم ان بعض الأمراء تشفع فيه فرسم له السلطان باعادته الى مناظر الكباش كما كان أولاً .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى سيس بسبب فساد الأرمن .

وفيها حضرت الى الأبواب الشريفة الحرة زوجة ملك الغرب طالبة الحج ، فأهدت الى السلطان هدية جليلة ، ومن جملتها أعجوبة وهو ثور أصفر فاقع اللون كامل الخلقة ، وفي وسط ظهره من الجانب الأيسر كتف طالع من رءوس أضلاعه ، وهو

بمرفق وذراع وحافر مفروق مثل حوافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ويجبي عليه — كما يفعل بالسباع — وهو بحبل من حرير أصفر .

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) :

فيها قبض النشو — ناظر الخواص الشريفة — على ابن فضيل شيخ مدينة ملوى ، وكان له دواليب ومعاصر ، وكان يزرع في كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده في حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ، ومثلها قطر نبات ، ومثلها غسل أسود ... هذا كله خارج عن العبيد والجواري والغلال وغير ذلك . فحمل جميعه الى الحواصل السلطانية ، وأقام ابن فضيل في الترسيم مدة ، ثم أفرج عنه السلطان ، وخلع عليه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى .

سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٨ م) :

فيها رسم السلطان للخليفة المستكفي بالله سليمان بأن يتوجه هو وأولاده وعياله الى نحو مدينة قوص من أعمال بلاد الصعيد وأن يقيم بها ، فخرج من يومه — هو وعياله وأولاده — فشق ذلك على الناس وتأسفوا غاية الأسف على ذلك ، وفي ذلك يقول الشيخ زين الدين ابن الوردى :

أخرجوكم الى الصعيد لأمر

غير مخز في ملتي واعتقادي

لا يغيركم الصعيد وكونوا

فيه مثل السيوف في الأغمار

قيل : وكان سبب تغيير خاطر السلطان على الخليفة المستكفي بالله أنه رفعت قصة الى الملك الناصر وعليها خط الخليفة سليمان ليحضر محمد بن قلاوون الى مجلس الشرع أو يوكل ، فشق ذلك على الملك الناصر وبقي في خاطره شيء من الخليفة

سليمان حتى نفاه الى قوص ، فأقام بها الى أن مات في شهر شعبان سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة خلافته بمصر خمسا وثلاثين سنة وسبعة أشهر .

فلما نفاه السلطان الى قوص أقامت مصر بلا خليفة أربعة أشهر والسلطان يتروى فيمن يوليه الخلافة . وكان الخليفة المستكفي بالله لما توجه الى مدينة قوص عهد الى ولده أحمد ، وثبت عهده على يد قاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول ، فلم يمض الملك الناصر ذلك العهد لما فى نفسه من الخليفة سليمان ، فجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك ، فلما رأى القضاة ذلك العهد تمسكوا بحكم قاضى قوص ، فانفض المجلس ولم يول السلطان أحمد بن المستكفي بالله وصمم على عدم ولايته ، ثم ولى ابراهيم أخا المستكفي بالله على حين غفلة ، ولقبوه بالوائق بالله . وكان ذميم السيرة ... قال قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر فى تاريخه : « ان العوام كانت تسمى ابراهيم هذا لما تولى الخلافة « المستعطى بالله » لقدارة نفسه وسوء تدبيره » .

سنة تسع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٩) :

فيها ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، وكانت تحتال على النساء والأطفال وتخنقهم وتأخذ ثيابهم ، فشاع أمرها بين الناس ، فلا زالوا يحتالون عليها حتى أمسكوها وشنقوها على باب زويلة ، وكان لها يوم مشهود لما علقت للشنق .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على النشوي — ناظر الخواص الشريفة — وسلمه للأمير بشناك الناصري حاجب الحجاب يعاقبه . فلما تسلمه عاقبه حتى مات تحت العقوبة ، واستصفى أمواله . وكان

السلطان قد قرب النشو عنده فى أعلى المراتب ، وأمن من قبله ، فكان كما قال الامام على كرم الله وجهه : « من أمسى من الدنيا وهو على جناح أمن أصبح منها وهو على قوادم خوف » . فلما مات النشو استقر السلطان بصهر النشو فى نظارة الخاص ، فجاء أظلم من النشو ، وفيه يقول المعمار :

قد أخلف النشو صهر سوء

قبيح فعل كما تروه

أراد للشر فتح باب

فأغلقوه وسمروه

سنة أربعين وسبعمائة (١٣٤٠ م) :

فيها توفى أنوك ولد الناصر محمد بن قلاون ، وكان بديع الجمال مليح الشكل ، وكان السلطان يحبه دون سائر اخوته ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، فتأسف عليه السلطان أسفا شديدا . وقد رثاه صلاح الصفدى رحمه الله حيث قال :

مضيت وكنت للدنيا جمالا

وجرعت النجوم الزهر فقدك

ومن عجب الليالى فيك ألا

يموت أبوك يا أنوك بعدك

وكان الفأل بالمنطق .

وفيها توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى . وكان عالما فاضلا ناظما للشعر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

فسر لى عابر مناما فصل فى قوله وأجمل

وقال : لا بد من طلوع فكان ذاك الطلوع دمل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى : « كنت

بدمشق فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، والشيخ

فتح الدين بن سيد الناس بمصر ، فكتبت اليه
وأنا بدمشق أقول له :

كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الد
ين يجنى الآداب وهى طرية
يا لها غربة بأرض دمشق
أعوزتنى الفواكه الفتحية

وفى هذه السنة تغير السلطان على المقر السيفى
تنكرز نائب الشام ، فأرسل الأمير بشتاك الناصرى ،
والأمير يلغا اليحياوى ، وصحبتهم جماعة من
المماليك السلطانية ، ثم كتب مراسيم الى أهل دمشق
على يد هؤلاء الأمراء بأن يكونوا لهم عوناً على
القبض على تنكرز نائب الشام . وكان تنكرز هذا
أصله من مماليك الملك المنصور حسام الدين
لاچين ، وتولى الملك الناصر فأخذ تنكرز من جملة
موجود لاچين ، فصار من مماليك الناصر محمد ،
ثم جعله خاصكياً ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى
أمير طبخانات ، ثم بقى مقدم ألف ... كل ذلك فى
دولة الملك الناصر محمد . ثم جعله نائب الشام فى
سنة اثنتى عشرة وسبعمائة عوضاً عن الأمير أقوش
الأفرم . واستمر تنكرز فى نيابة الشام ثمانيا وعشرين
سنة ، فعظم أمره ، وكثرت أمواله ، وكان له عند
السلطان منزلة عظيمة حتى كان يكاتبه فى المراسيم
« أعز الله أنصار المقر الكريم العالى » . وزاده فى
الألقاب عن العادة ، وكان السلطان لا يفعل شيئاً
من أمور المملكة حتى يرسل ويشاور تنكرز عليها .
وكان تنكرز يزور السلطان فى كل سنة مرة
وصحبته الهدايا الجليلة والتقادم العظيمة ، ويقوم
بمصر أياماً ، ثم يخلع عليه السلطان خلعة ويتوجه
الى الشام .

واستمر تنكرز على ذلك حتى أوقعوا بينه وبين
السلطان ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأرسل

السلطان بالقبض عليه . فلما وصل اليه بشتاك
الناصرى والأمير يلغا اليحياوى ، قالوا له .
« ان السلطان رسم لك بأن تحضر الى القاهرة حتى
يزوج ابنته بابنك » . فقال تنكرز : « أنا لى شغل
فى هذا الشهر ، ولكن امضوا أنتم الى القاهرة
وأنا أحضر أنا وولدى بعدكم » . فأغلظوا عليه فى
العبارة ، وأغلظ هو أيضاً عليهم ، فأرسلوا كاتبوا
السلطان بذلك ، وأثخنوا جراحات تنكرز عند
السلطان . فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد
حنقه على تنكرز ، وعين اليه الأمير طاجار الدوادار
الكبير بالقبض عليه . ولو أن تنكرز حضر الى
السلطان صحبة الأمير بشتاك والأمير يلغا ما حصل
له من السلطان الا كل خير .

فلما وصل الأمير طاجار الدوادار قال لتنكرز :
« قم احضر عند السلطان والخيرة لك » . فقال له
تنكرز : « امض أنت وأنا بعد ثمانية أيام أحضر
عند السلطان » . فرجع الأمير طاجار عند السلطان ،
وما أبقى ممكناً فى حق تنكرز من الأذى .

فلما سمع السلطان ذلك عين الى تنكرز تجريدة
ثقيلة من القاهرة ، ورسم للنواب كلهم أن يمشوا
على تنكرز . فلما وصلت التجريدة الى الشام ،
ومشت على تنكرز جماعة من النواب ، حاصروه وهو
بالشام ، فطلب منهم الأمان ، ونزل اليهم فقبضوا
عليه وقيدوه ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة
سنة أربعين وسبعمائة .

ولما أمسك تنكرز احتاطوا على موجوده من
صامت وناطق ، فالذى قد ضبط من الذهب العين
ثلثمائة ألف دينار وستون ألف دينار ، ومن الفضة
النقدية ألف ألف درهم وخسمائة ألف درهم ،
ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ
الكبار ثلاثة صناديق ، ووجد عنده من الطراز

الزركش والحوائص الذهب والخلع الأطلس مائة وخمسون بقجة ، ومن القماش الصوف وغير ذلك خمسمائة بقجة ، ووجد عنده من الفراش والبرك والأواني ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا ، ووجد له ودائع عند الناس مائتا ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم ، وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم في كل سنة بمائة ألف دينار .

فلما وصل تنكز الى القاهرة حمل موجوده الى الخزائن الشريفة ، ورسم له بالتوجه الى السجن بشجر الاسكندرية ، فسجن بها . ولما سجن أقام بالسجن أربعين يوما وهو مقيد ، ثم ان السلطان رسم بخنقه ، فأرسل اليه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة فخنقه بالسجن وغسله وصلى عليه ودفنه بشجر الاسكندرية ... فذهب ماله ، وتخلي عنه سلطانه . وقد قيل :

لا فهم في الدنيا لمستيقظ
بلمحها بالفكرة الباصرة

ان كدرت عيشته ملها
وان صفت كدرت الآخرة

قيل : « ثلاثة لا يؤمن اليها : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا منك ، والمرأة وان طالت صحبتها » .

ثم ان تنكز أقام مدفونا بشجر الاسكندرية مدة يسيرة ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه بأن ينقل ويدفن في مدرسته التي أنشأها بدمشق ، فرسم السلطان بنقله وهو ميت الى دمشق في أواخر سنة أربعين وسبعمائة . وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدي :

الى دمشق نقلوا تنكزا
فيالها من آية ظاهرة

في جنة الدنيا له جنة
وروحه في جنة الآخرة

وقال فيه أيضا رحمه الله تعالى :

في نعل تنكز سر أراده الله ربه
أتى به نحو أرض يجبهما وتجه

وكانت صفة تنكز : أسمر اللون ، خفيف العوارض طويل القامة ، حسن الشكل ، وافر العقل ، شديد الرأي ، حسن السياسة . وكان ديناً خيراً ، كثير البر والخير ، وله معروف وآثار للخير بمصر والشام ، وكان طاهر الذيل عن ... غير أنه كان صعب الخلق شديد الغضب ، اذا غضب على أحد لم يرض عنه أبدا .

وكانت مدة لياسته بدمشق ثمانيا وعشرين سنة ، وهذا لم يتفق لنائب قبله . وكانت أهل دمشق عنه راضية في مدة ولايته .

سنة إحدى وأربعين وسبعمائة (١٣٤١ م) :

فيها توفي القاضي محيي الدين بن فضل الله العمري كاتب السر الشريف . فلما توفي استقر ولده القاضي شهاب الدين بن فضل الله عوضه ، فجاء في المنصب أعظم من والده . وكان عالما فاضلا ، وله نظم ونثر ، وألف كتابا في صنعة الانشاء ، وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين في الانشاء ، وصار عمدة الموقعين ، وبه يقتدون . وقد قال منشي في المعنى :

يا طالب الانشاء خذ علمه

عنى ، فعلى غير منكور

ولا تقف بباب غيري فما

تدخله الا بدستور

وفي هذه السنة تزايدت عظمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكثرت ممالكه حتى صار راتبه ورواتب ممالكه كل يوم من اللحم الضاني ستة وثلاثين ألف رطل . وبالف في مشترى الممالك حتى

قبل بلغت مشروعاته اثني عشر ألف مملوك . وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والأقبية المفتوحة ، واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والأقبية القاقم . وهو أول من رتب المواكب في القصر على هذا الترتيب الحسن ، ورتب شرب السكر بعد السباط في القصر والأمراء مجتمعون ، ورتب وقوف الأمراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك أرباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت أيامه في السلطنة — بخلاف من تقدمه من الملوك — وصفا له الوقت ، وصار غالب الأمراء والنواب مماليكه ومماليك والده قلاون ، ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه ، حتى قيل قد تزادت في أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمار مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمار والانشاء .

قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد في تاريخه : « لقد وقفت على تاريخ الملوك السالفة ، فما سمعت لأحد من الملوك بما للمالك الناصر محمد بن قلاون من المواقع الحسنة . فانه خطب له في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته من كبير وصغير . »

وفيه بقول الشيخ صفي الدين الحلبي :

الناصر السلطان قد خضعت له
كل الملوك ... مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة
ويعد راحات الفراغ متاعا
ترجي مكارمه ويخشى بطشه
مثل الزمان ... مسالما ومحاربا
فاذا سطا ، ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ، ملأ العيون مواهبا

ولم يزل الملك الناصر قائما على سرير ملكه حتى مرض وسلسل في المرض ومات على فراشه في ليلة الخميس العشرين من ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . ومات وله من العمر ثمان وخمسون سنة ، ودفن في يوم الخميس المذكور على والده قلاون داخل القبة التي أنشأها قلاون بين القصرين . وكانت له جنازة مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

وقد رثاه بعض الشعراء رحمه الله بهذه الأبيات :

حكم المنية في البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نار
طبت على كدر ، وأنت تريدها
صفوا من الأقدار والأكدار
واذا رجوت المستحيل فانما
تبنى الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم ، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال سار
جاورت أعدائي ، وجاور ربه
شتان بين جواره وجواري

وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد هذا بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاثا وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما ، وذلك دون خلعه من الولاية نحو أربع سنين وأيام .

ولما مات خلف من الأولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات ، فالذى تولى السلطنة من أولاده بعده ثمانية ، وهم : سيدي أبو بكر ، وسيدي أحمد ، وسيدي كجك ، وسيدي شعبان ، وسيدي اسماعيل ، وسيدي حاجي ، وسيدي حسن ،

وسيدى صالح ... فهؤلاء تولوا السلطنة كما سيأتى . وأما من لم يل السلطنة فثلاثة ، وهم : سيدى رمضان ، وسيدى حسين ، وسيدى يوسف . وأما من توفى من أولاده فى حال حياته من الذكور فأربعة ، وهم : سيدى ابراهيم ، وسيدى محمد ، وسيدى أنوك ، وسيدى على ... فهذا مجموع ما جاءه من الأولاد الذكور دون البنات .

وأما فتوحاته التى فتحها فى أيامه فأمد وملطية ، ودرنده ، وقلعة اياس ، وبهنسا ، والمرعش ، وتل حمدون ، وقلعة النقىر ، وقلعة نجبية ، والهارونية ، وكاورا ، واسفندكار ، وغير ذلك من الفتوحات . وحج فى أيامه ثلاث حجج ، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام ثلاث مرات ، وسافر الى حلب والشام عدة مرار .

وأما نوابه بالديار المصرية فالأمير كتبغا ، والأمير سار ، والأمير بكتمر الجوكندار ، والأمير بيبرس الدوادر المنصورى ، والأمير أرغون الناصرى مملوكه .

وأما وزرائه بالديار المصرية : فالأمير سنجر الشجاعى ، والصاحب تاج الدين بن حنا بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والصاحب فخر الدين الخليلى تولى الوزارة فى أيامه مرتين ، والأمير سنقر الأعسر ، والأمير أيبك البغدادى ، والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى ، والأمير أيبك الأشقر ... وهو أول من تسمى مدبر المملكة . وتولى شخص يسمى ابن عطاء ، وتولى شخص يسمى بدر الدين محمد بن التركمانى ، وتولى الصاحب أمين الدين بن الغنام ، تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات ، والأمير بكتمر الحاجب ، والأمير مغلطاي الجمالى ... فهؤلاء وزرائه .

وأما قضاته الشافعية : فالشيخ تقي الدين

ابن دقيق العيد ، والشيخ بدر الدين بن جماعة المقدسى ، والشيخ جمال الدين الزرعى ، والشيخ جمال الدين القزوينى ، والشيخ عز الدين بن جماعة .

وأما كتاب سره : فالقاضى شرف الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين بن الأثير ، والقاضى شهاب الدين محمود أبو الشاء ، والقاضى محبى الدين بن فضل الله ، وولده القاضى شهاب الدين صاحب كتاب الانشاء فى صنعة التوقيع .

وأما نظار جيوشه : فالقاضى بهاء الدين بن الحلى . وتولى شخص يسمى الفخر - وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه - تولى فى أيامه مرتين . وتولى القاضى قطب الدين بن شيخ السلامية ، والقاضى شمس الدين بن التاج ، والقاضى مكين الدين بن قزوينة ، وهو صاحب الغيط المنسوب اليه . وتولى شخص يسمى حمال الكفاة ... فهؤلاء نظار جيوشه .

وأما نظار خواصه : فالقاضى كريم الدين بن السديد ، وتولى شخص يسمى النشو ، ثم تولى صهر النشو .

وأما دوادراته : فالأمير عز الدين أيمن الناصرى ، والأمير أرغون الناصرى ، والأمير رسلان ، والأمير الجاى الناصرى ، والأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ، والأمير بغا ، والأمير طاجار الناصرى .

وأما ما أنشأه فى أيامه من البناء فهو القصر الكبير الأبلق والقصران اللذان يليانه ، وعمر الايوان الكبير وعقد فوقه القبة العظيمة ، وعمر الجامع الكبير الذى بالقلعة ، وعمر الجامع الجديد المطل على بحر النيل عند موردة الحلفاء ، وأنشأ الخانقاه التى بسرياقوس ، وعمر الحوش الكبير الذى بالقلعة ، وعمر دور الحرم التى بالقلعة ، وعمر المجرة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ،

وفي الجبل ان الملك الناصر محمد بن قلاوون
كان من أجل الملوك قدرا وأعظمهم نهيا وأمرأ ،
وأكثرهم معروفا وبرأ ، وقد جبلت القلوب على
محبتة سرا وجهرا .
ولما مات تولى من بعده ابنه المنصور أبو بكر .

الملك المنصور

هو الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ، ابن
الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهو الثالث عشر
من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، بويح
بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه له . وكان في
أولاده من هو أكبر منه ، ولكن الملك الناصر
اختار من بين أولاده هذا ، فقدمه عليهم ، وعهد
له من بعده ، فهو أول من تسلطن من أولاد محمد
ابن قلاوون .

لبس شعار الملك ، وجلس على سرير الملك في
يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة احدى
وأربعين وسبعمائة ، وله من العمر نحو عشرين
سنة . وقبل الأمراء له الأرض بالقصر الكبير .
فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وخلع على
من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طقزدمر
صاحب القنطرة التى على الخليج الحاكمى ،
واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع
على الأمير قوصون وهو صاحب ...^١ واستقر به
أتابك العساكر ، وخلع على الأمير طشتير المعروف
بخص أخضر واستقر به دوادارا كبيرا على عادته .
ثم دبت عقارب الفتن بين قوصون والأمير طاجار ،
وصار العسكر فرقتين : فرقة مع الأمير قوصون ،
وفرقة مع الأمير طاجار الداوادر . ولم يخضع
أحدهما لصاحبه .

(١) كذا في الاصل .

وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة ، وعمر
الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية ، وبنى
القصر الكبير وميدان المهارة الذى عند قناطر
السباع ، وحفر الخليج الناصرى من موردة
الجيسى الى زقاق الكحل . ومن انشائه الدهيشة
المظلة على الحوش السلطاني وهى من محاسن
الزمان . وأنشأ عدة قناطر كما تقدم ، وحفر البركة
الناصرية المنسوبة اليه وأجرى اليها الماء من
الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار وقناطر
شيبين وقناطر أبو صوير وقناطر اللبيني ، وعمر
الجسر الذى بشرامنت ، وعمر جسرا بالفيوم ،
وجدد عمارة الرصد ، وجدد عمارة جامع راشده
الذى عند دير الطين ، وجدد عمارة مشهد السيدة
نقيسة رضى عنها ووضع به المحراب على التحرير
الصحيح ، وعمر زاوية الشيخ رجب التى تحت
القلعة ، وعمر الاصطبل السلطاني ، وجدد عمارة
الطبخانات السلطانية ، وعمر زريبة بغير دمياط ،
وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وأما ما أبطله في أيامه من وجوه الظلم فهو
ضمان الغواني . وكان عبارة عن أخذ مال من
النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة في
القاهرة تقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة
تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القدر
المعين عليها ، لما قدر أكبر من في مصر يمنعها عن
البغاء وعمل الفاحشة . وكان يحصل من ذلك
لنساء الأكابر وبناتهم غاية الفساد ولا يقدر أحد
يمنعهن من ذلك ، فأبطل الناصر ذلك وسطر في
صحائفه الى يوم القيامة ... وكان يتحصل من هذه
الجهة جملة مال كثير .

وأبطل أيضا في أيامه ما كان يؤخذ ممن يبيع
ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل
ذلك جميعه ... وكان يتحصل من ذلك جملة مال .

ثم ان الأمير طاجار الدوادر حسن للسلطان أن يقبض على الأتابكى قوصون وهو في الخدمة بالقصر الكبير ، فأسر السلطان ذلك الى بعض الخاصكية ، وكان السلطان من طبعه الخفة والوهج ، فتوجه ذلك الخاصكى الذى أسر اليه السلطان الى الأمير قوصون ، وذكر له ذلك ، وأخبره بما قد عزم عليه السلطان من مسكه . وقد قيل فى المعنى :

إذا المرء أفشى سره بلسانه

ولام عليه غيره فهو أحق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه

فصدر الذى يستودع السر أضيق

فلما تحقق الأتابكى قوصون ذلك اجتمع بالأمير أيدغمش أمير أخور كبير وجماعة من الأمراء ، وذكر لهم ذلك ، فاتفقوا على خلع الملك المنصور أبى بكر . فلما كان يوم الموكب امتنع الأتابكى قوصون عن طلوع القلعة ، فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم . ثم ان الأتابكى قوصون طلع القلعة فى ذلك اليوم بعد انفضاض الموكب بعد الظهر على حين غفلة ، وقبض على السلطان الملك المنصور أبى بكر وأرسله الى السجن بمدينة قوص ، وأرسل معه أخويه — وهما سيدى يوسف وسيدى رمضان — فكانت مدة الملك المنصور أبى بكر فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وكان خلعه فى شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .

ثم ان الأتابكى قوصون قبض على الأمير طاجار الدوادر ، والأمير بشتاك الناصرى ، وجماعة من الأمراء ، وأرسلهم الى السجن بشجر الاسكندرية ، ثم قبض على جماعة من المماليك السلطانية . فلما وصل الملك المنصور الى قوص ، أرسل الأتابكى قوصون الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى البحر ، فقتله وقطع رأسه وأرسلها

الى الأمير قوصون فى الدس ، وكنتم موت الملك المنصور عن الناس ، ولكن أشيع ذلك ... فهذا أول ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان ذلك من أكبر ذنوب الأتابكى قوصون ، وبه زال أمره .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف علاء الدين كچك ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من أولاد محمد بن قلاون . ولى السلطنة بعد قتل المنصور أبى بكر .

تولى الملك وجلس على سريرته فى يوم الاثنين حادى عشرى صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر سبع سنين أو أقل ، فتصرف فى الأحكام صغيرا ، وأوتى — على صغر سنه — ملكا كبيرا ، فكان سابورى الولاية ، صغير السن الى الغاية . وأما تسميته بكچك فهو لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير ، فان والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير ، والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها .

ثم ان الأتابكى قوصون عمل بالموكب ، وأجلس السلطان على تخت المملكة ... وأحضر خلعة ولبسها ، واستقر نائب السلطنة وأتابك العساكر ، ثم تحول وسكن فى دار النيابة بالقلعة ، وتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختاره ، فنفى الأمير طقزدمر نائب السلطنة الى دمياط ، وقبض على جماعة من الأمراء ، وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وظن أن الوقت قد صفا له . فكان اذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد السلطان كچك والقلم فى يده ، ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير .

وكان الأمر كله بيد قوصون ، والسلطان معه مثل العصفور بيد النسر ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وتعطلت البلاد الشامية ، وعصت النواب ، ووقع الخلاف بين الأمراء بمصر ، ووقفت أحوال الرعية ، وحصل للناس غاية الأذى . وقد قال القائل بالمعنى :

سلطاننا اليوم طفل ، والأكابر في خلف ، وبينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يضع من مسته مظلمة أن يبلغ السؤل ، والسلطان مابلغا ؟

ثم ان الأتابكى قوصون صار يمسك في كل يوم جماعة من المماليك السلطانية ، وأرسل الى الطنبغا نائب الشام بالقبض على طشتير حمص أخضر نائب حلب . فلما بلغ طشتير ذلك توجه الى الكرك ، وأخذ الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون لأنه كان مقيما بالكرك من أيام والده الملك الناصر كما تقدم . فلما خرج الأمير أحمد من الكرك تسامعت به النواب ، فجاء اليه الأمير قطلوبغا الفخرى نائب طرابلس ، وحضر نائب حماه ونائب صفد وقصدوا التوجه الى مصر ، وأن يسلطنوا الأمير أحمد عوضا عن أخيه الملك كجك ، وأن يقبضوا على الأتابكى قوصون . فلما خرجوا من الكرك توجهوا الى نحو الشام ليقبضوا على الطنبغا نائب الشام لأنه كان من عصابة قوصون ، فأرسل الطنبغا يطلب من النواب الأمان وأن يكون معهم تحت طاعة الأمير أحمد بن الناصر . فلما خرج النواب على حمية قاصدين الديار المصرية وبلغ ذلك الأتابكى قوصون ، أراد أن يقبض على الأمير أيدغمش أمير أخور كبير . فلما بلغ الأمير أيدغمش ذلك ركب هو والأمير آق سنقر والأمير يلبغا الحيأوى وجماعة من الأمراء وطلعوا الى الرملة وأحاطوا بالقلعة .

ثم ان الأمير أيدغمش نادى للعوام بأن ينهبوا بيت الأتابكى قوصون ، ونادى للعسكر أن كل من لم يكن له فرس فليحضر الى الاسطبل السلطاني ويأخذ له فرسا ... فطلع اليه العسكر قاطبة ، ففرق عليهم في ذلك اليوم عدة خيول من الاسطبل السلطاني . فلما تحقق الأتابكى قوصون أن الركة عليه جلس بالقلعة وحصنها . ثم ان العوام دخلوا بيت قوصون وأحرقوا بابه ، ونهبوا ما في اسطبله من الخيول والبغال ، ونهبوا حواصله وما كان فيها من برك ونحاس وسلاح وصينى وسكر وغير ذلك وقوصون ينظر اليهم من شباك ، فقال لبعض الأمراء الذين فى الاسطبل : « يامسلمين ، أما تحفظون هذا المال الذى تنهبه العوام ؟ .. اما أن يكون لى أو للسلطان » ، فقالوا له : « الذى معك من الأموال والتحف يكفى السلطان ... وهذا شكرانه للعوام من عندك » .

ثم ان العسكر صاروا كلما رأوا أحدا من مماليك قوصون ، أو من حاشيته فى الطرقات ، قتلوه شر قتلة . واستمر الحال على ذلك الى العصر من ذلك اليوم ، فأرسل قوصون يطلب الأمان من الأمير أيدغمش ، وقد تسحب من كان عنده من الأمراء والمماليك ، فهاجم عليه الأمير أيدغمش وقبض عليه وقيده وسجنه بالزردخانه . فلما تحقق العوام مسك قوصون نهبوا خاناته التى هى خارج باب القرافة ، وجامعه الذى بالقرب من بركة الفيل . ثم ان الأمير أيدغمش صار يمسك من كان من عصابة قوصون من الأمراء والخاصكية ، ثم أرسل الأتابكى قوصون تحت الليل الى ثغر اسكندرية وهو مقيد فسجن بها ، فعمد أهل مصر وصوروا صورة قوصون فى العلاليق وقد سمروه ، وفى ذلك يقول المعنار :

شخص قوصون رأينا في العلاليق مسمر
تعجبنا منه لما جاء في التسمير مكر

وكان الأتابكي قوصون أميرا عظيما مليئا مهيبا ،
وصار في دولة الملك الأشرف كچك صاحب الحل
والعقد بالديار المصرية ، وتصرف في أمور المملكة
بحسب ما يختاره من ذلك .

فلما أمسك قوصون وسجن ، خلع الأشرف
كچك من السلطنة ، ودخل الى دور الحرم ، وصار
الأمراء والعسكر ينتظرون قدوم الأمير أحمد من
الكرک حتى يتسلطن ، فخطب باسمه في القاهرة
قبل حضوره ، وتلقب بالملك الناصر الى أن حضر
وتولى السلطنة كما سيأتى ذلك في موضعه ...
فكانت مدة سلطنة الملك الأشرف كچك بالديار
المصرية الى أن خلع خمسة أشهر وأياما ، فلم تكن
الا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم . وأقام
في الأسر والاعتقال بدور الحرم الى أن مات على
فراشه في دولة أخيه الملك الكامل شعبان ، كما
سيأتى ذلك في موضعه .

ولم يتسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن
قلاون أصغر منه سنا .

الملك الناصر شهاب الدين

هو الملك الناصر ، شهاب الدين أحمد ، ابن
الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الخامس عشر
من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو
الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .
دخل القاهرة وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه
كچك ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء
الأرض في يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنتين
وأربعين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك ،

وتم أمره في السلطنة — وكان أكبر اخوته سنا ،
وأرجحهم في العين وزنا ، فهو ليثهم الغالب ، وشهابهم
الثاقب — ولكن خابت فيه الظنون ، وقيل معلم
مجنون ، فوقع منه أمور لا تقع الا ممن أصيب في
عقله ... وذلك أنه أمر بقتل سبعة من الأمراء الذين
كانوا في السجن بشفر الاسكندرية .

فلما فعل ذلك نفرت منه قلوب العسكر . ثم
انه خلع على الأمير طشتمر حمص أخضر واستقر
به نائب السلطنة بمصر ، وخلع على الأمير قطلوبغا
الفخرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا ،
وخلع على الأمير أيدغمش أمير أخور واستقر به
نائب حلب عوضا عن الأمير طشتمر حمص أخضر ،
واستقر بجماعة من الأمراء في وظائف من أمسك
منهم وسجن ... فاستمر الأمر على ذلك نحو ثلاثة
وثلاثين يوما .

ثم انه قبض على الأمير طشتمر حمص أخضر
وقيده وسجنه بالقلعة ، ثم انه أرسل جماعة من
المماليك السلطانية خلف الأمير قطلوبغا الفخرى
الذى استقر به نائب الشام وقبض عليه وهو في
أثناء الطريق وقيده — وكان هذان الأميران سببا
في سلطنته — فما شكره أحد من الناس على ذلك .

ثم انه أقام في السلطنة الى سلخ ذى القعدة من
سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتوجه الى السفر ،
فخرج في يوم الاثنين ومعه جماعة من الأمراء
والعسكر ، فلم يعلم أحد أين يريد . فلما خرج
من القاهرة توجه قاصدا نحو الكرك الذى هو
محط رحاله وبغية آماله . وكان لما أضمر على
التوجه الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية
وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال الجزيلة
والتحف الجليلة ، فوصل الى الكرك يوم الثلاثاء
من ذى الحجة ، فعمل عيد النحر بها . وكان لما
توجه الى السفر أخذ الأمير طشتمر حمص أخضر

معه وهو مقيد في محفة ، ثم أحضر الأمير قطلوبغا
الفخرى بين يديه وهو مقيد لما وصل الى الكرك ،
فأمر باعتقاله في قلعة الكرك هو والأمير طشتير .

سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (١٣٤٢ م) .

في خامس المحرم اجتمع الأمراء في سوق الخيل ،
وقالوا : « ان أحوال الملكة ضائعة ، والسلطان
لا يلتفت لشيء من ذلك . فأرسلوا كاتبوه في
الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم
يحضر فولوا غيره » . فكتبوا كتابا عن لسان
الأمراء كلهم ، وأرسلوه على يد خاصكى يقال له
طقتير الصلاحى ، فأخذ الكتاب ومضى الى الكرك
فوصل في حادى عشر المحرم . فلما اجتمع بالسلطان
وقرأ ما في الكتاب كتب للأمراء جواب ذلك الكتاب
الذى أرسلوه وهو يقول فيه : « ان الشتاء قد
دخل ، وانى قد اخترت الإقامة بالكرك الى أن
يسوى الشتاء وبعد ذلك أحضر الى مصر » . ثم
أخرج الأمير طشتير حمص أخضر والأمير قطلوبغا
الفخرى من السجن ، ووسطهما بالسيف في ميدان
قلعة الكرك بحضرة ذلك الخاصكى طقتير
الصلاحى ... وهذا الأمر لا يقع الا من المجانين
الذين في عقولهم خلل ، مع أن هذين الأميرين كانا
سيبا لسلطته ، ولكن :

لا تفعل الأعداء في جاهل

ما يفعل الجاهل في نفسه

ومما قاله ابراهيم المعمارى في الأمير طشتير
حمص أخضر :

| | |
|------------------|--------------------|
| جنت بالملك لما | أتاك بالبسط ماجن |
| وقد أمنت الليالى | ياحمص اخضرو داجن |
| وقوله فيه أيضا : | |
| أوردت نفسك ذلا | ورد النفوس المهانة |

وبالدنا حزت مسالا ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب ياحمص اخضرم لانه
وقال فيه بعض الشعراء :

طوى الردى طشتيرا بعد ما
بالغ في دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى
أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا حمصا أخضرا
تعجبوا بالله كيف اندرس

وقال فيه آخر :

لما رجعت اليينا
من بعد ذا البعد والبين
خلناك تحنو علينا

يا حمص اخضر بقلبين

فلما رجع طقتير الصلاحى من عند الملك الناصر
أحمد الى القاهرة ، وأخبر عن هذين الأميرين وما
جرى عليهما ، فعند ذلك نفرت منه قلوب العسكر
قاطبة . فلما قرأوا كتابه وعلموا أنه اختار الإقامة
بالكرك ، ضربوا مشورة فيمن يولونه السلطنة ،
فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه اسماعيل ابن الملك
الناصر محمد ، فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة ،
وولوا اسماعيل .

وكانت مدة سلطنة الناصر أحمد بالديار المصرية
شهرين واثنى عشر يوما لا غير ، وأقام بالكرك حتى
قتل كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وكانت سلطته كالحلم في المنام ، كما قيل
في ذلك :

فلم يقيم الا بمقدار أن
قلت له أهلا أخى مرحبا 1

الملك الصالح

هو الملك الصالح علاء الدين ، أبو الفداء اسماعيل ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد في يوم الخميس ثاني عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فلما جلس على سرير الملك وتم أمره في السلطنة خلع على الأمير آق سنقر السلاري واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير أيدغمش واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير طقزدمر واستقر به نائب حلب ، وقبض على الأمير الطنبغا المارديني — وهو صاحب الجامع الذي في البرادعين — وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية . ثم عزل من عزل وولى من ولى ، فما اختلف عليه اثنان ، ولا قيل هذان خصمان ، فسار في الناس سيرة حسنة ، وبسط العدل ، وأكثر في الرعية من البذل ، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وبذل لهم الألف بعد الألف .

سنة أربع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير آق سنقر نائب السلطنة ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، ثم خلع على الحاج آل ملك واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آق سنقر السلاري .

والأمير آل ملك هذا هو صاحب الجامع الذي في الحسينية . وكان الأمير آل ملك له بر ومعروف ، ولما تولى نيابة السلطنة أمر بهدم خزانة البنود التي

كانت سجنا يجسون فيها أصحاب الجرائم ثم صارت حارة يسكن فيها طائفة من الأرمن ، ويجتمع فيها طائفة من المناحيس والمقامين فيحصل منهم غاية الفساد ، فهدمها وبني مكانها مسجدا فلم يصل أحد فيه لما قد تقدم فيه من الفساد وسفك الدماء ، وكثرة من به من القتل مدفونا ، فصار هذا المسجد مقفلا دائما لا يصلى فيه أحد من الناس ، وبقي مهجورا . وقد قال فيه بعض الشعراء :

أنا مسجد سميت بيت عبادة

عارى الملابس ليس في حصير

هجر المؤذن والجماعة جانبي

وجفاني التهليل والتكبير

الشمع في خلل المساجد مشعل

وفناء ربى مظلم مهجور

ما جاء في القرآن في عبارة

واليوم للشيطان في عبور

هل مبلغ عنى الأمير شكائتي

فلعله يرثى لمن هو بور

سنة خمس وأربعين وسبعمائة (١٣٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى أخيه الناصر أحمد وهو في الكرك ، فحاصروه أشد المحاصرة فلم يقدروا عليه ، والسلطان يخرج له تجريدة بعد تجريدة وهو لا يمل من القتال ، وقد حصن قلعة الكرك فلم يقدروا على أخذها ، واستمر على ذلك حتى نفذ جميع ما كان عنده من المال والغلال ، ف ضرب ما بقى عنده من السروج الذهب والكبايش وخط مع الذهب النحاس ، فكان الدينار الذي ضربه يساوي عسة دراهم فضة ، وأنفق ذلك على العسكر الذين هم بقلعة الكرك ، وقد هلكوا من الجوع والعطش والعري ، فلما طال عليهم الأمر تفرقوا

من حوله وقد أقاموا معه في المحاصرة نحو ثلاث سنين .

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشرى صفر ، طلب الملك الناصر أحمد من العسكر الأمان ، ونزل اليهم فقيدهم وأرسلوا يعلمون السلطان الملك الصالح بذلك ، فأرسل اليه الأمير منجك اليوسفى فقطع رأسه وأحضرها الى القاهرة في علبة . وكانت قتلته في أواخر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة . وكان الناصر أحمد أشجع اخوته ، وأحسنهم شكلا ، وأكبرهم سنا ... لكنه كان سىء التدبير ، قليل المعرفة ، الغالب عليه الجهل وقوة الرأس وقلة الثبات في الأمور . وقيل لما وضعوا رأسه بين يدي أخيه الملك الصالح سجد لله شكرا وأمر بدفنها .

سنة ست وأربعين وسبعمائة (١٣٤٥) :

فيها مرض السلطان وسلسل في المرض الى أن مات يوم الخميس حادى عشرى ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرا ونصفا . وكان خيار أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وله بر ومعروف على جهات خير ، فمن ذلك أنه وقف ضيعة تسمى بيسوس وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة الشريفة . وكان يحب العدل والانصاف بين الرعية ، وساس الملك في مدة ولايته أحسن سياسة ... ولم يزل على ذلك الى أن مات على فراشه — بخلاف اخوته — فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله :

مضى الصالح المرجو للبأس والندى

ومن لم يزل يلقي المنا بالمنايح

فياملك مصر ، كيف حالك بعده

إذا نحن أثينا عليك بصالح ؟

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى في تاريخه

ان الملك الصالح اسماعيل هذا كان — على مذهب بعض الخلفاء — يميل الى حب الجوارى المولدات الحبش والسود ، وكان يحب من يمدح له في ذلك ، فكانت الشعراء يكثرون له في معنى ذلك . قال بعضهم :

يكون الخال في خد قبيح

فيكسوه الملاحه والجمالا

فكيف يلام معشوق على من

يراه كله في العين خالا ؟

وقال آخر في أسماء الجوارى :

إذا زار الحبيب على اشتياق

فقد زال العنا وقت الصباح

وان وافتك خمر مع نسيم

فقد دام السرور بالانشراح

ومثله في المعنى :

بدا السعد لى حين زار الحبيب

وجاء الهنا ودام السرور

وجاءت نسيم بتفاحه

مباركة من غزال نصور

الملك الكامل

هو الملك الكامل شعبان ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . وهو السابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويح بالسلطنة بعد موت أخيه الملك الصالح اسماعيل بعهد منه له . وكان شعبان هذا هو أخا الملك الصالح اسماعيل شقيقه ، جلس على سرير الملك ، ولبس شعار السلطنة في يوم الخميس حادى

عشري ويبيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ،
وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته :
طلعة سلطاننا تبدت

بكامل السعد في الطلوع
واعجب لهاتيك كيف أبدت

هلال شعبان في ربيع

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وقبض
على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير آل ملك نائب
السلطنة ، فأقام بالقلعة في البرج أياما ثم أفرج عنه
وولاه نيابة صفد ، فخرج من يومه ، فلما وصل
إلى العريش أرسل بالقبض عليه وقيده وأرسله إلى
السجن بشجر الاسكندرية . ثم عمل الموكب وخلع
على الأمير ارقطاي واستقر به نائب السلطنة عوضا
عن آل ملك . ثم قبض على الأمير قماري استادار
العالية وأرسله إلى السجن بشجر دمياط . ثم أرسل
بالقبض على الأمير طقزدرم نائب الشام وسجنه
بالكرك . وخلع على الأمير يلغا اليخاوي واستقر
به نائب الشام عوضا عن طقزدرم .

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف كچك أخو
السلطان ، وكان مقيما بدور الحرم من حين خلع
من السلطنة إلى أن مات .

سنة سبع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٦ م) :

فيها طاش الملك الكامل شعبان ، وصار يخرج
الاقطاعات بمال معلوم ، وصار يصادر أرباب
الوظائف من المباشرين ويأخذ أموالهم قهرا ...
فتقلقت منه الناس .

وفيها جاءت الأخبار بأن يلغا اليخاوي — نائب
الشام — خامر وأظهر العصيان ، فجمع السلطان
الأمراء وشاورهم في أمر نائب الشام ، فوقع
الاتفاق على أن السلطان يرسل الأمير منجك
اليوسفي لكشف الأخبار ، فتوجه الأمير منجك

نحو الشام من يومه ، ثم إن السلطان عرض العسكر
وقصد التوجه إلى الشام بسبب عصيان النائب .
ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان طلب
أخويه : الأمير حاجي ، والأمير حسينا ، فأرسل
إليهما الساقى سرور الزيني ، فقال لهما : « امضيا
كلما السلطان » . فقالا : « نحن اليوم ضعاف
وقد شربنا الدواء » . فلما رد الجواب على السلطان
بذلك أرسل إليهما الأمير الزمام صواب الطولوني ،
فقال لهما : « امضيا كلما السلطان والخيرة لكما » .
فقالا له مثل ما قال لسرور الزيني . فلما رد الجواب
على السلطان بذلك ، اشتد غضبه على أخويه ،
وأرسل خلف الأمير أستدر الكاملي والأمير
قطلوبغا الكركي ، فلما حضرا قال لهما : « إلى
طلبت أخي حاجي وأخي حسينا فأيا عن الحضور
إلى » ، فقال الأمير أستدر الكاملي للأمير أرغون
العلائي زوج أم السلطان : « ادخل أنت إليهما
وأخرجهما » . فدخل الأمير أرغون وأخرجهما
غصبا وهما يتباكيان . فلما حضرا بين يدي السلطان
قبلا له الأرض وقالا له : « يامولانا السلطان ،
لا تؤاخذنا فإنا كنا شربنا دواء » . فقال لهما
السلطان : « كذبتما ... ما أتتا إلا مخامران
على » . فأخرج الأمير حاجي ختمة كانت معه
وحلف عليهما أنه ما امتنع عن الحضور إلا لكونه
كان ضعيفا وشرب الدواء ، فلم يصدقه السلطان
في ذلك . ثم جاءت أمهاتهما ، وحلفن للسلطان ،
وكشفن رءوسهن له وقلن : « والله ما امتنعا عن
الحضور إلا لكونهما شربا الدواء » ... فلم يقبل
منهن السلطان ذلك ، وقال لهن : « أتتن نساء
قليلات العقول » . ثم أمر بإدخال أخويه إلى موضع
في الدهيشة ، ورسم عليهما السلطان بجماعة من
الخدم ، فباتا تلك الليلة في الدهيشة ، فلما أصبح
الصباح طلب السلطان عشرين فص حجر مسقط ،

وحملى جبر وجبس ، وقصد أن يدخل أخويه في مكان عقد تحت الدهيشة ويبنى عليهما بالحجر ، ويجعل ذلك المكان قبرا لهما .

فلما كان يوم الاثنين ، ثالث عشرى شهر جمادى الأولى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، دخل بعض الخاصكية على السلطان وقت صلاة الصبح وأخبره بأن الأمير ملكتمر الحجازى قد لبس آلة الحرب هو ومماليكه وتوجهوا الى قبة الهواء التى تحت القلعة — وكان السلطان قد عول على القبض عليه أيضا — فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، فأرسل الى زوج أمه أرغون العلائى وقال له : « ما الخبر ؟ » . فقال له : « ان ملكتمر الحجازى ، وأرغون شاه ، وجماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وتوجهوا نحو قبة الهواء » .

فلما تحقق السلطان ذلك فتح باب الزردخانه ، وفرق منها الملبوس ، وأمر بشد الخيول ... فلم يجد أحدا عنده من المماليك غير بعض مماليك صغار كتابية ، فركب السلطان ووقف على باب السلسلة ، ودقت الكنوسات حريبا ، ثم مشى الى الطبلخانات ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء والعسكر فلم يطلع اليه أحد ، فبقى واقفا ساعة حتى طلعت الشمس . ثم مشى وقصد نحو قبة الهواء — ولم يكن معه من الأمراء سوى الأمير أرغون العلائى زوج أمه ، والأمير أستدر الكاملى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير جوهر السجرنى مقدم المماليك ، وبعض مماليك صغار تحت الصنjq — فتقدم الى آخر الصورة فبرز اليه الأمير أرغون شاه ، والأمير قرا بغا القاسمى ، والأمير آق سنقر ... وضربوا عليه يرك ، ووقع بينهما القتال ، فبرز الأمير يلبغا أروس الى الأمير أرغون العلائى زوج أم السلطان فضربه

بطبر على وجهه فسقط عن فرسه الى الأرض ، فقبضوا عليه وأسروه .

فلما رأى ذلك من كانوا حول السلطان تسحب أكثرهم من حوله ولم يبق معه أحد الا القليل من المماليك ، فزحف عليه الأمراء ، فهرب فى أربعة مماليك صغار ، وتوجه نحو باب السلسلة .

فلما ولى السلطان مهزوما قبضوا على من معه من الأمراء المقدم ذكرهم . فلما توجه الى نحو باب السلسلة وجده مقفلا ، فصار يسأل بعض الأوجاقية فى أن يفتح له الباب حتى يطلع الى القلعة وهو سائق . فلما دخل الحوش أراد أن يقتل أخويه حاجى وحسينا ، فلم يفتح له الخدام باب الدهيشة ، فرجع الى بيت أمه واختفى فيه ، وكانت أمه ساكنة بالقلعة .

هذا ما كان من أمر الملك الكامل شعبان بعد كسرتة . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين وثبوا على السلطان ، فانهم لما انكسر السلطان وولى مهزوما ، قبضوا على الأمراء الذين كانوا معه وشكوههم فى زناجير . وأما مقدم المماليك جوهر السجرنى فانه كان واقفا تحت الصنjq فقطعوه بالسيوف ، ثم ساقوا الى الرملة وطلعوا من السلسلة الى القلعة ، فوققوا على باب الستارة وقالوا للخدام : « أين ابن أستاذنا سيدى حاجى ؟ » فقالوا لهم : « فى الدهيشة هو وأخوه سيدى حسين » فدخلوا الحوش ، وطلعوا الدهيشة ، وأخرجوا سيدى حاجى وقبلوا له الأرض وقالوا له أنت سلطاننا ...

ثم انهم طلبوا الملك الكامل شعبان فلم يجدوه ، فقال لهم بعض الخدام : « قد اختفى فى بيت أمه » . فهجموا عليه فى بيت أمه فلم يجدوه ، فأمسكوا الجوارى وأرادوا توسيطهم ، فأقروا بأنه فى بيت الأزيار ، فهجموا عليه فوجدوه واقفا

بين الأزيار وقد ابتلت أثوابه بالماء ، فقبضوا عليه
ومضوا به الى الدهيشة وسجنوه فى المكان الذى
كان به أخواه .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى ، حكى لى
الأمير ستبغا — استدار الصحبة — قال : « هيانا
السماط على أن الملك الكامل شعبان يأكل منه ،
ثم أفردنا منه شيئا لسيدى حاجى وسيدى حسين
اللذين كانا فى السجن بالدهيشة ، فخرج الى
السماط سيدى حاجى وجلس فى صدره وأكل
منه ، ثم دخلنا بالطعام الذى كنا أفردناه لسيدى
حاجى وأخيه حسين الى الملك الكامل شعبان فأكل
منه وهو فى السجن الذى كان فيه أخواه ... » .
فسبحان القادر على كل شيء ... ان فى الليل
والنهار عجائب . وقد قال القائل :

لا تأمنن للدهر وهو مسالم
سلس القياد فقد يكون محاربا
واحذر قلبه ، ولا تعجب له
ان أركب الماشى وأمشى الراكبا
وقال آخر :

كم حاربتنى شدة بجيشها
فضاق صدرى من لقاءها وانزعج
حتى اذا آيست من زوالها
جاءتنى الألفاظ تسعى بالفرج

ثم ان الملك الكامل أقام محبوسا فى المكان
الذى فى الدهيشة ثلاثة أيام ، ثم ان أخاه حاجى
أرسل اليه من يخنقه وهو فى السجن فخنق ،
وكانت قتلته فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة
سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفا . ولما مات
دفن مع والده داخل القبة التى بين القصرين .
وكانت صفة الملك الكامل شعبان : أشقر

اللون ، أزرق العينين ، وافر الأنف ، مجدر
الوجه ، يميل الى الصفرة ، شديد الخلق ، سىء
التدبير . وكانت أمه رومية ... فجمع بين قبيح
الشكل والفعل . قال الصلاح الصفدى :

بيت قلاون سعاداته
فى عاجل كانت بلا آجل

حل على أملاكه للردى
دين قد استوفاه بالكامل

الملك المظفر

هو الملك المظفر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد
ابن قلاون . وهو الثامن عشر من ملوك الترك
وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السادس من
أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويى
بالسلطنة — بعد قتلة أخيه الملك الكامل شعبان
— فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة
سبع وأربعين وسبعمائة ، وفيه يقول الشيخ جمال
الدين بن نباتة المصرى :

يا امام الورى ، مضى نصف عام
لم أئل فيه من وصولى ربع

سنة ، ان غفلت عنى فيها
كسرتنى ، وكيف لا وهى سبع ؟

وكان مولد حاجى هذا فى سنة اثنتين وثلاثين
وسبعمائة . ولد بالطريق عند عود أبيه الملك الناصر
من الحجاز — وهى الحجة الثالثة — فلما بشر به
سماه حاجى .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة أراد أن يقبض
على جماعة من الأمراء ، فرسم لنقيب الجيوش
المنصورة بأن يدور على الأمراء المقدمين ويعلمهم
بأن السلطان رسم بأن يعمل الموكب فى القصر

دمشق فتقاتل معهم وقتل ، فقطعوا رأسه وأحضرت
الى القاهرة ، فرسم السلطان بأن تعلق على باب
زويله .

ثم ان الأمير شجاع الدين عزلوا تزايد ظلمه في
حق الرعية ، وصار يرمى الفتن بين الأمراء ... فلما
بلغ السلطان ذلك قبض عليه وسجنه ، فوقع منه
كلام في حق السلطان ، فلما بلغه أمر بقتله فخنق
تحت الليل ودفن في القرافة . فلما بلغ العوام ذلك
توجه منهم جماعة الى قبره ، ونشوا عليه ،
وأخذوا كفيه ، وأحرقوا عظامه ... فلما بلغ
السلطان ذلك رسم لوالى القاهرة بأن يقبض
على من فعل ذلك ، فقبضوا على جماعة من
العوام ، وضربوهم بالمقارع ، وقطعوا أيديهم
وطافوا بهم القاهرة .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان ،
وصل من الشام موجود يلغا اليحياوى ، وكان
من جملة ذلك من الذهب العين خسون ألف
دينار . فلما وصل ذلك الى الخزائن الشريفة ،
أنفق السلطان جميعه على طيور الحمام — وكان
مولعا بلعب الحمام ، فعمل لها خلاخيل ذهب في
أرجلها وألواح ذهب في أعناقها ، وصنع لها
مقاصير من خشب الأبنوس وطعمها بالعاج
والأبنوس ، وأقام بها غلمانا يكلفونها — فصرف
ذلك المال جميعه عليها ...

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة في
ترجمته للملك المظفر حاجى : « وقد اشتغل بلعب
الطيور عن تدبير الأمور ، والتهى عن الأحكام
بالنظر الى الحمام ... فجعل السطح داره ،
والشمس سراجها ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان
هواه ، وخالف من نهاه . وخرج في ذلك عن
الحد ، وصار لا يعرف الهزل من الجد ... » .

ثم ان السلطان صار يستخف بالأمراء ولا يبيت

وتجتمع سائر الأمراء ... فدار عليهم نقيب الجيوش
وأعلمهم بذلك . فلما طلوعوا الى القلعة واجتمعوا
في القصر ، دخل عليهم جماعة من المماليك
السلطانية بعد المغرب فقبضوا على جماعة منهم .
قيل ان الأمير آق سنقر — لما أرادوا أن يقبضوا
عليه — جرد سيفه وقصد نحو السلطان ليقتله ،
فأمسكه الأمير شجاع الدين عزلوا والأمير كجلى ،
وأخذوا سيفه من يده . ثم قبضوا على الأمير
ملكتر الحجازى ، والأمير قرايغا القاسمى ،
والأمير أيتمس عبد الغنى ، ونزلار الغمري ،
والأمير صمغار ... فكانت ساعة تشيب فيها
النواصى .

ثم ان السلطان أمر بتقييدهم فقيدوا ، وأرسلهم
الى السجن بئغر الاسكندرية ، وأما الأمير آق
سنقر والأمير ملكتر الحجازى ، فحبسهما
السلطان في البرج الى الليل ، وأمر بخنقهما
فخنقا ودفنا تحت الليل ومضى أمرهما . وكان
هذان الأميران ميبا لسلطنة المظفر حاجى وقتل
أخيه الملك الكامل شعبان ، وكانا يظنان أنهما في
دولة الملك المظفر حاجى يصيران صاحبي الحل
والعقد في أمور المملكة ، فجاء الأمر اليهما بخلاف
ذلك ... فكان الأمر كما قيل :

ربما يرجو الفتى نفع فتى

خوفه أولى به من أمـهـ

ورب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع في ذلك
اليوم على خمسة عشر أميرا ، وأنعم عليهم
بالاقتاعات السنية ، وقرر منهم جماعة في وظائف
وأقام له عصبة من الأمراء .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام
يلبغا اليحياوى هرب ، فتبعه جماعة من عسكر

عندهم في القصر في ليالى الموكب ، فعند ذلك تغيرت عليه خواطر الأمراء — ولا سيما ما قد أنفقه على الحمام من المال الذى جاءوا به من موجود نائب الشام — فدخل الأمير جبغا على السلطان وقت الظهر وخلا به وعنفه على تلك الأمور التى يفعلها ، وقال له ان الأمراء والعسكر قد تغير خاطرهم على السلطان بسبب ذلك .

فلما سمع السلطان ذلك غضب ، وقام من وقته وطلع الى الحمام وذبحها جميعا ، وأخرب تلك المقاصير ، وأرسل يقول للأمير جبغا : « انى قد ذبحت الحمام الذى كان عندى جميعه . وأنا ان شاء الله تعالى أذبح في هذا القرب خياركم كما ذبحت الحمام ... » . فلما سمع الأمير جبغا ذلك قام من وقته ودخل الى نائب السلطنة ، وذكر له ما قاله السلطان ، فاتفق رأى الأمراء قاطبة على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الأحد ثانى عشر رمضان ، وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وخرجوا الى قبة النصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بشد الخيول ، ودق الكتوسات حريبا ، وزعق النفير ، وركب تحت الصنjq ومعه جماعة من الأمراء العشراوات نحو ثلاثة أنفس ، وبعض مماليك صغار ، ومقدم المماليك الأمير عنبر . ثم ان السلطان خرج من باب السلسلة ، ومشى الى رأس الصوة ، ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، فوقف ساعة ثم مشى بين الترب فوقف هناك .

وأرسل خلف الأمير شيخو العسمرى فجاء من بيته ، فبعثه السلطان الى الأمراء الذين في قبة النصر وهو يقول لهم : « ايش قصدكم حتى نعرف سبب ركوبكم علينا من غير موجب ؟ » . فلما توجه الأمير شيخو من عند السلطان بهذه الرسالة ، اجتمع

بالأمراء الذين في قبة النصر وبلغهم ما قاله السلطان فقالوا له : « امض الى السلطان وقل له ينزل عن الملك ويكف هذا القتال عن العسكر » . فلما رجع الأمير شيخو الى السلطان ، وبلغه ما قالت له الأمراء ، قال السلطان : « كيف أنزل عن الملك ؟ ... والله ما عندى لهم الا السيف » .

فرجع اليهم الأمير شيخو بهذا الجواب ، فزحفوا اليه ، وأشاروا بالحرب عليه . فثار بينهم غبار الحرب الوارد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد . وكان رأس الفتنة الأمير يلبغا أروس ، فجاء من وراء السلطان وضرب عليه يرك بمن معه من العسكر ، فصار من كان مع السلطان من المماليك يتسحبون قليلا قليلا ، فلم يبق معه الا القليل من المماليك ، فتقدم اليه الأمير يلبغا أروس وضرب السلطان بطبر كان معه ، فلم تؤثر فيه الضربة ، فنزل الأمير يلبغا أروس عن فرسه ، وأمسك لجام فرس السلطان . وتكاثر عليه العسكر فقلعوه من قربوس السرج ، وأخذوه وهو حاسر الرأس ، ومضوا به الى الأمير أرقطاي نائب السلطنة . فلما رآه نزل عن فرسه ، ورمى على انسلطان قباءه ، وقال : « أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذى ، ولكن امضوا به الى السجن في القلعة » . فأخذ الأمير يلبغا أروس ومضى به الى تربة في الباب المحروقى فخنقه هناك ، ودفن من وقته ، ولم يشعر به أحد . وكان له من العمر نحو عشرين سنة . وكان مليح الشكل ، صبيح الوجه ، شجاعا بطلا ، لا يهاب الحرب ، ولا يخاف الضرب . وقد قال فيه الصلاح الصفدى رحمه الله :

أيها العاقل اللبيب تفكر
في المليك المظفر الضرغام
قد تمادى وازداد في البغى حتى
كان لعب الحمام جد الحمام

فكانت مدة سلطنة الملك المظفر هذا بالديار المصرية سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، ولكن قتل في هذه المدة اليسيرة جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم . وكان سفاكا للدماء على صغر سنه . وفيه يقول الصفدي :

خان الردي للمظفر وفي الثرى قد تعقر
فكم أباد أميرا على المعالي توفر
وقاتل النفس ظلما ذنوبه ما تكفر
فلما قتل المظفر حاجي طلع الأمراء الى القلعة
وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فاختلفوا في ذلك : فطائفة من الأمراء يقولون سيدي حسين ، وطائفة منهم يقولون سيدي حسن ... فوقع الخلاف بينهم في ذلك .

وكان سيدي حسين مجرما سفاكا للدماء ، فنفر منه العسكر لشدة بأسه ، ووقع القاتل والقتيل بين الأمراء ، وأقامت مصر يومين بغير سلطان والناس يدعون الى الله باصلاح أحوال المسلمين . ثم في اليوم الثالث وقع الائتلاف من الأمراء على سلطنة سيدي حسن ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .

الملك الناصر أبوالمحسن

هو الملك الناصر أبو المحاسن حسن ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاوون . وهو التاسع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

بويغ بعد قتل أخيه حاجي ، فتولى الملك وله من العمر ثلاث عشرة سنة . وكان مولده في سنة ست

وثلاثين وسبعمائة . تسلطن في يوم الثلاثاء في رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

قبل لما أخرجوه من دور الحرم جلس على باب الستارة وأحضروا له خلعة السلطنة . وكان اسمه أولا « سيدي قماري » لحسنه . فلما أرادوا أن يسلطنوه قال للأمراء : « أنا لا أسمى الا بسيدي حسن » . فقال الأمراء : « على بركة الله تعالى » . فألبسوه خلعة السلطنة ، وأركبوه من باب الستارة الى الأيوان ، وجلس على سرير الملك ، ودقت له الكؤوسات ، ونودي بأسه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بولايته . فلما كان يوم الاثنين عمل الموكب ، وخلع على الأمير يلبيغا أروس واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير أرقطاي ، ثم خلع على الأمير أرقطاي واستقر به نائب حلب ، ثم خلع على الأمير أرغون شاه واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير منجك اليوسفي واستقر به وزيرا واستادارا بالديار المصرية ، وخلع على جماعة كثيرة من أرباب الوظائف من الأمراء والمتعممين وغير ذلك .

ثم فرق الاقطاعات على المماليك السلطانية وأرضاهم بكل ما يمكن . ثم عينوا الأمير استبغا المحمودي السلحدار بأن يتوجه ببشارة ولاية السلطان الى دمشق ، فأخذ في أسباب السفر الى دمشق . وفيه يقول ابن أبي حجلة :

غدا سلطاننا ملك البرايا
رعاه الله يعدل في الرعايا
حواصل عدل والده حواها
وأخرج من زواياها الخبايا
فبهلا في التسادي والأيادي
فقد حزت النهاية في العطايا

وفي هذه السنة - وهي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (١٣٤٧ م) - احترق بحر النيل احترافا زائدا مما يلي بر مصر ، فاتفق رأى الأمراء بأن يسدوا البحر مما يلي بر الجزيرة ، فرسموا للأمير منجك اليوسفى وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك ، ففرض منجك على كل دكان ببصر والقاهرة درهمى فضة ، وأخرجوا مراسيم شريفة الى كاشف الشرقية بأن يفرض على كل نخلة فى البلاد درهمين من الفضة ، فاجتمع من ذلك مال جزيل ، فأخذ منجك ذلك المال واشترى به مراكب ووسقها حجارة كبارا وغرقها فى البحر مما يلي بر الجزيرة ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وطغى عليهم الماء ، فقبضوا على منجك ورسوموا عليه بسبب ما أخذه من البلاد من المال فصادروه ، وأخذوا أمواله وعزلوه من الوزارة .

سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير جبغا واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير أحمد شاد الشرنجناؤه واستقر به نائب صفد .

ومن الحوادث فى هذه السنة ان الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد ^١ ، فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم مائتوف عن عشرين ألف جنازة . وقد ضبط فى شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس ، فكان نحو تسعمائة ألف انسان ... ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطوائع المشهورة فى صدر الاسلام .

قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبى :

(١) هو وباء « الموت الاسود » الذى اجتاح المعمورة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وقد بدأ فى أواسط آسيا ، ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ، ومنها نقلته إحدى السفن الى جنوا وسائر أنحاء أوروبا . وانتقل من أرمينيا الى إنجلترا عام ١٣٤٨ ، فقضى على نصف سكانها . وقضى فى الصين على ثلاثة عشر مليونا .

« ان الطوائع المشهورة فى مبتدأ الاسلام خمسة ، وهى :

« طاعون شيرويه .

« وطاعون عمواس - كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقع بالشام وأعمانها فى سنة ثمان عشرة من الهجرة - وعمواس بفتح العين اسم قرية بالشام .

« وطاعون الجارف ، وقع فى زمن عبدالله بن الزبير فى سنة سبع وستين من الهجرة . قيل مات فيه فى ثلاثة أيام فى كل يوم سبعون ألفا ، ومات فيه لأنس بن مالك رضى الله عنه فى ثلاثة أيام ثلاثة وثمانون ولدا . وكان فى شهر رمضان قوة عمله .

« وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط . قيل انه ابتدأ بالعذارى الصغار فسمى طاعون الفتيات .

« وطاعون جاء فى سنة احدى وثلاثين ومائة من الهجرة يسمى طاعون قتيبة ، مات فيه ألف ألف وستمائة وخمسون ألف انسان ، ومات عقيقه المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه .

ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة ، لأنه عم البلاد قاطبة ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم من مسلم وكافر ، وكانت قوة عمله فى بلاد الفرنج ، وأقام دائرا فى البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقلة الجالب من البلاد ، وبلغ ثمن الراوية من الماء اثنى عشر درهما بالقاهرة ، وسبب ذلك موت الجمال . وبلغ طحن الاردب القمح خمسة عشر درهما .

ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت كل وية قبح بمائتى درهم ، وكادت مصر تخرب فى تلك السنة . ووقع الطاعون

أيضا في القتل والكلاب والوحوش . ولقد شوهده
شيء كثير من الوحوش وهى مطروحة في البرارى
وتحت أبطها الطواغيت ، وكذلك الخيل والجمال
والحمير وسائر الحيوان ، حتى الطيور مثل النعام
وغير ذلك . وفي ذلك يقول الصالح الصفدى :

لما افترست أصحابى يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا بل كنت سبعا يقينا
وقواه أيضا :

دارت من الطاعون كاس الفنا
فالنفس من سكرته طافحة
قد خالف الشرع وأحكامه
لأنه يثبت بالرائحة
وقونه أيضا :

لا تتق بالحياة طرفة عين
في زمان طاعونه مستظير
فكان القبور شعلة شمع
والبرايا لها مرائش تطير
وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :
يقولون شم الخل في زمن الوباء
وفاقا لما قال الأطباء يا خلى
فان قلت للطاعون تسطو على الورى
يقول : نعم ... أسطو وأتفك في الخل
وقال ابراهيم المعمار :

يا طالب الموت قم واغتتم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا
وقوله أيضا :

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأجنة
بيعت الأنفس فيه كل انسان بجنة

ومن مجونه قوله :

قلت لمن بالحشيش مشتغل :
ويحك ، ماتخشي هذه الكتب !
فالناس ماتوا بكبة ظهرت
فقال : انى أعيش بالكبة
وقال بعضهم :

ترونا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ظبية صدفت لذئب
فلما غاب عادت راتعات
وقال آخر :

نراع بالموت ساعة ذكره
ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها
وما كنت منه فهو شيء محبب

قيل لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية ،
أمر بعض العلماء بأن الناس يخرجون قاطبة الى
الدعاء برفعه ، فخرج الناس قاطبة الى الصحراء
وفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء ، فلم يفد ذلك
شيئا ، بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ،
ودخل الى مكة ، ولم يعهد هذا قط في سوى هذه
السنة ... نقل ذلك ابن حجر في كتاب « بذل
الماعون في أخبار الطاعون » .

سنة خمسين وسبعمائة (١٣٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أرغون شاه نائب الشام
قتل تحت الليل . وسبب ذلك أن الأمير جينغا نائب
طرابلس دخل الى دمشق في جماعة كثيرة من عسكر
طرابلس . وكان أرغون شاه نائب الشام مقيما
بالقصر الأبلق الذى بدمشق ، فدخل عليه الأمير
جينغا نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه

وقيده وسجنه بقلعة دمشق . فلما أصبح الصباح طلب الأمير جبغا القضاة والأمراء بدمشق ، وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه نائب الشام ، فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا أن ذلك صحيح .

ثم ان الأمير جبغا اختلط على موجود أرغون شاه جميعه . فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشر ربيع الأول من تلك السنة ، فيها وجدوا أرغون شاه النائب مذبوحا وهو في السجن ، فأحضر الأمير جبغا القضاة وكتب محضرا في شأن ذبح أرغون شاه بأنه وجد في السجن مذبوحا ولا يعلم من فعل ذلك . ثم فشا الكلام بين الناس بأن ذلك من فعل الأمير جبغا ، فكثر القال والقليل في حق جبغا بأنه هو الفاعل لذلك جميعه ، فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه ، فهرب جبغا وتوجه الى نحو المزه — وهى من أعمال دمشق — فلم يتبعه أحد من عسكر الشام وخافوا عقبى ذلك .

ثم ان الأمير جبغا توجه الى طرابلس بعد ما جرى منه ما جرى .

ثم ان أمراء دمشق كاتبوا السلطان بما وقع من الأمير جبغا . فلما وصل الخبر الى السلطان أنكر ذلك ، وحلف على مصحف أنه لم يكن له علم بذلك . ثم عاد الجواب الى الأمراء بدمشق بأن السلطان ليس له علم بما جرى من الأمير جبغا ، ثم رسم لعسكر دمشق بأن يحاربوا الأمير جبغا ويعشوا عليه في أى مكان كان ، فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو في طرابلس ، فانكسر الجبغا وقبضوا عليه ودخلوا به الى الشام ... وكان يوم دخوله الى الشام يوما مشهودا لم يسمع بمثله . وكان في مراسيم السلطان التى جاءت الى دمشق : « ان ظفرتهم بالجبغا فاشنقوه على باب دمشق » . فلما ظفروا

به شنقوه وعلقوه على باب القلعة كما رسم السلطان ، فأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى دفن بعد ذلك ، فكان كما قيل : ليس المغر بمحمود ولو سلما .

سنة احدى وخمسين وسبعمائة (١٣٥٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن شخصا من التتار يسمى هندو أغار على مدينة سنجار وملكها ، فأرسل السلطان له تجريدة فحاصروه فطلب من العسكر الأمان ، ثم رحل عن سنجار وعاد اليها النائب الذى من قبل السلطان ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم سالمون .

وفيها توجه الأمير طاز أمير حاج بالمحمل الشريف . فلما وصل الى مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن — وكان قد حج في تلك السنة — فلما سعدوا الى الجبل وقعت بينهما فتنة عظيمة فانكسر الملك المجاهد صاحب اليمن وقبض عليه الأمير طاز وقيده وأحضره صحبه الى القاهرة .

وفيها جمع السلطان الملك الناصر حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ورشد نفسه ، واستعذر الأوصية فأعذروا له في ذلك . ثم بعد أيام قبض السلطان على جماعة من الأمراء — منهم الأمير يلغا أروس ، والأمير منجك اليوسفى — وأرسلهم الى السجن بالاسكندرية .

وفيها أبطل السلطان ما أحدثه النساء من القيصان التى خرجت في كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش ، فأشبهوا المناداة في القاهرة بإبطال ذلك فرجعت النساء عن ذلك .

سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (١٣٥١ م) :

فيها عاد الحجاج الى القاهرة ، فطلع الأمير طاز

الملك الناصر حسن في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان مولده بقلعة الجبل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وأمه خوند قطلو ملك بنت الأمير تنكز نائب الشام . وكان سبب سلطنته أن الملك الناصر لما خلع من السلطنة تعصب الأمير طاز وسلطن الملك الصالح ، فجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك الصالح ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضح له الناس بالدعاء .

فلما تم أمر سلطنة الملك الصالح صار الأمير طاز صاحب الحل والعقد ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له في السلطنة غير مجرد الاسم فقط ... فوقع بين الأمراء الخلف ، وأضمر السوء للأمير طاز ، ودبت بينه وبينهم عقارب الفتن ، فوثب عليه جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجهوا إلى القصر . فلما بلغ الأمير طاز ذلك أركب السلطان ونزل به من القلعة في جماعة من الأمراء ومن المماليك السلطانية ، ودقت الكؤوسات حريبا ، وزعق النفير ، ومشى السلطان تحت الصنجق ، ونودي في القاهرة : « من وجد مملوكا من ممالك الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاي ، فيقتله حيث وجد في أى مكان كان » ... فقتل في ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك ، وأخذوا خيولهم وقماشهم وسلاحهم .

ثم زحف السلطان والأمير طاز بمن معه من الأمراء والعسكر ، وتوجهوا إلى قبة النصر ، فوقع بينهم القتال عند خليج الزعفران وقرب المطرية ، فكان بين الأمراء واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة من المماليك .

ثم إن الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاي انكسرا وهربا في بعض بساتين المطرية ، فقبضوا

إلى القلعة وصحبته الملك المجاهد صاحب اليمن . فلما تمثل بين يدي السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود إلى بلاده وهو مكرم ، وأرسل معه السلطان الأمير قشتمر المنصوري ليوصله إلى بلاده . فلما وصل إلى ينبع أراد الملك المجاهد أن يقتل الأمير قشتمر ويهرب من هناك ، فقبض عليه الأمير قشتمر ورجع به إلى القاهرة ، فتغير عليه خاطر السلطان بسبب ذلك ، فقيده وأرسله إلى السجن بقلعة الكرك .

وفيها — في يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة — وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا له آلة الحرب ، وطلعوا إلى الرميّة ، ووقفوا بسوق الخيل . وكان رأس الفتنة الأمير طاز المنصوري ، والأمير بيغا الشمسي ، والأمير سفر الناصري ... فحطم الأمير طاز — ومعه جماعة من الأمراء — فطلعوا إلى القلعة وهم راكبون إلى الحوش السلطاني ، فقبضوا على السلطان الملك الناصر حسن وسجنوه بالقلعة في مكان داخل دور الحرم ، فأقام به إلى حين عوده إلى السلطنة كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

فكانت مدة سلطنة الملك الناصر حسن في هذه المرة بالديار المصرية ثلاث سنين وتسعة أشهر ، وهي السلطنة الأولى . ثم تولى من بعده أخوه صالح .

الملك الصالح صلاح الدين

هو الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو تمام العشرين من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، بويع بالسلطنة بعد أخيه

عليهما في أواخر النهار ، فرسم السلطان بسجنهما في خزانة شمائل ، ثم أرسلهما الى السجن بشعر الاسكندرية . ورسم بالافراج عن الأمير شيخو العمري والأمير منجك اليوسفي — وكانا بالسجن بشعر الاسكندرية — فأفرج عنهما وحضرا الى الأبواب الشريفة وطلعا الى القلعة ، فأنعم السلطان على الأمير شيخو في ذلك اليوم بتقدمة ألف ، وكذلك الأمير منجك اليوسفي .

ثم ان السلطان أرسل بالافراج عن الأمير بيغا أروس — وكان بالسجن في قلعة الكرك — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب حلب . ثم خلع على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية .

وفي هذه السنة توفي ابن اللبانة الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد . ومن لطائف قوله :

هلا ثناك على قلب مشفق
لترى فراشا في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى
وبقيت كالنفس الذي لا يلحق
لو في يدي سحر وعندي هذه
لجعلت قلبك كل يوم يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الهوى
فترق لى مما تراه وتشفق
وفيها توفي الامام العالم العلامة شيخ الاسلام
شمس الدين بن قيم الجوزية وكان له مصنفات
كثيرة في العلوم الجليلة .

سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة (١٣٥٢ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير بيغا أروس قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، وكذلك الأمير بكلمش نائب طرابلس ، وكذلك

الأمير أحمد نائب حماه ، وكذلك الأمير الطنبغا برقاق نائب صفد — فأرسل نائب الشام الأمير أرغون الكاملى يخبر السلطان بما قد جرى من النواب .

ثم بعد ذلك بأيام يسيرة جاءت الأخبار بأن نائب حلب وصل الى الشام وحاصر المدينة . فلما رأى نائب الشام عين الغلبة هرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزه فأقام بها ، فأرسل يعلم السلطان والأمراء بذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن بيغا أروس لما دخل الى الشام وقف تحت القلعة ومعه من تقدم ذكرهم من النواب ، فاستعرض هناك العسكر الشامى والعسكر الحلبى ، فكان مع الأمير بيغا أروس من النواب والأمراء نحو ستين أميرا — غير العساكر الحلبية والشامية ، وغير ما التف عليه من العربان والعشائر — فتقويت شوكته . فلما فرغ من العرض نزل عند قبة بيغا ، وأرسل الى نائب قلعة دمشق — وهو الأمير أياجى — بطلب منه أميرا كان مسجوناً بقلعة دمشق ، فأرسل اليه الأمير أياجى يعتذر له عن ذلك بأن هذا في سجن السلطان ولا أقدر على اطلاقه من السجن الا بمرسوم السلطان .

ثم ان نائب قلعة دمشق حصن القلعة تحصينا عظيما ، وركب عليها المكاحل والمدافع ، وأرسل يقول لأهل المدينة : « لا تفتحوا دكانا ولا سوقا ، ولا تبيعوا على عسكر حلب شيئا » .

فلما بلغ الأمير بيغا أروس ذلك اشتد به الغضب ، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ، ويقطعوا الأشجار . فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكنا من الأذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش . وجرى على أهل

دمشق من يبيغا أروس ما لم يجر عليهم من
عسكر غازان لما أن دخل الى دمشق .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى السلطان علق
الجاليش وتجهز للخروج الى دمشق . ثم عين
الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — وعين
محمد بن بكتمر الساقى ، والأمير قمارى الحموى
بأن يخرجوا الى الصعيد قبل خروج السلطان
لحفظ البلاد من فساد العربان وصون الغلال ،
فخرجوا من يومهم .

ثم ان السلطان خرج من القاهرة قاصدا نحو
البلاد الشامية ، فطلب طلبا عظيما ، وخرج معه
من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طاز ، والأمير
شيخو العمري ، والأمير صرغتمش ، والأمير
أستدر العمري ، وأخوه الأمير طاز ، والأمير
جر دمر ، والأمير قرابغا ، والأمير بنجاص ،
والأمير قجا السلحدار ، والأمير طشتمر القاسمى ،
والأمير سنقر المحمدي ، والأمير قطلوبغا الذهبى ،
وبقية الأمراء المقدمين ، وكان مع السلطان
الطبلخانات والعشراوات نحو ثمانين أميرا .

ثم ان السلطان ترك في القاهرة الأمير قبلاى
نائب السلطنة ، ومعه ثلاثة أمراء لصون المدينة .

ثم خرج السلطان من القاهرة في يوم الثلاثاء
سابع شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ،
وكان صحبته القضاة الأربعة ، والخليفة الامام
أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفى بالله ابن
الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسائر العسكر
قاطبة ، فكان وصول السلطان الى دمشق في شهر
رمضان ، فنزل بالقصر الأبلق الذى في الميدان ،
وصلى الجمعة في جامع بنى أمية . وكان الأمير
يبيغا أروس لما بلغه وصول الملك الصالح الى
دمشق رحل عنها . ثم ان السلطان طلع الى قلعة
دمشق وأقام بها ، وأمر جماعة من الأمراء

والعسكر بأن يتوجهوا خلف الأمير يبيغا ومن معه
من النواب ، فخرجوا اليهم وتقاتلوا معهم .

فلما كان ثالث شهر شوال جاءت الأخبار من
عند السلطان بأنه قد انتصر على الأمير يبيغا
أروس ، وانكسر يبيغا وهرب الى بلاد التراكمه ،
وقبض على جميع من كان معه من النواب
والعسكر ودخلوا بهم الى دمشق وهم في جنازير
وقيود ، وكان لهم في دمشق يوم مشهود لم
يسمع بمثله .

ثم ان السلطان جلس في القصر الأبلق بالميدان ،
 واجتمع الأمراء عنده في القصر ، ودخل العسكر
الى الميدان ، ثم أحضروا النواب بين يدي
السلطان فعاتبهم على ما فعلوا ، ثم أمر بتوسيطهم
فوسطوا ستة من الأمراء وهم : الطنبغا برقاق
نائب صفد وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ،
والأمير طنبغا الأوجانى المعروف بحلاوة ، والأمير
مهدى العلائى شاد الدواوين بحلب ، والأمير
استبغا التركمانى ، والأمير الطنبغا شاد
الشرنجاناه ، والأمير شادى أخو الأمير أحمد نائب
حماه . ثم أراد أن يوسط الأمير بكتمر السعيدى ،
فشفع فيه الأمراء فحبس بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان قصد أن يتوجه نحو الديار
المصرية ، فخرج من الشام — بعد ما عزل من عزل
وولى من ولى — وسار حتى دخل القاهرة في
أواخر شوال من السنة المذكورة ، فكان يوم
دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له
وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له
الشقق الحرير من باب النصر الى القلعة ... وهو
في غاية العز والنصرة ، والأمراء مشاة بين يديه ،
ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، ونثروا عليه
الذهب والفضة ، وضح له الناس بالدعاء .

وكان محبا للرعية قليل الأذى . فلما استقر

بالقلعة ومضى عليه أيام يسيرة قبض على صاحب
علاء الدين بن زنبور ، وكان قد عظم أمره ونمت
أمواله ، واجتمع فيه من الوظائف السنية ما لم
يجتمع في غيره ، فكان وزيرا وناظر الجيوش
المنصورة وناظر الخواص الشريفة ... فتعاضد
على الناس بقوة البأس .

فلما قبض عليه السلطان ضربه ضربا شديدا ،
وقيده ونفاه الى قوص ، واحتاط على موجوده
من صامت وناطق ، فكان كما قيل في المعنى :

ومباشر السلطان شبه سفينة

في البحر ترجف دائما من خوفه

ان أدخلت من مائه في جوفها

أدخلها ، وماءها ، في جوفه

قال قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة رحمة
الله عليه : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من
موجود صاحب علاء الدين بن زنبور ، وهو :
قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمئة
قطعة . منها مفري بسمور ووشق وسنجاب
وقاقوم ألفا قطعة ، جنداب بوجهين ستمئة قطعة .
جبينات خمسة آلاف قطعة . أوالي ذهب وفضة
زنتها نحو ستين قنطارا . صناديق ضمنها فصوص
ملون ما بين ياقوت والماس وعين هر وحب
لؤلؤ كبار وزن ذلك نحو قنطارين وكسور .
صناديق ضمنها لؤلؤ حب ، فاعتبروه بالكيل فكان
نحو أردبين بالمصرى . صناديق ضمنها ذهب عين
جملته ستمئة ألف دينار . حوائص ذهب ستة
آلاف حياصة . كلوتات زركش ستة آلاف
كلوته . ووجد له ودائع عند الناس في أماكن
عدتها ستة وثلاثون مكانا ما يعلم ما في الصناديق
التي وجدت بها . ووجد له فضة نقرة محررة
بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصرى . حواصل
فيها شاشات ، العدة ثلثمائة ألف شاش . حواصل

فيها بسط رومى وسقاعة من سائر الألوان خمسة
وثلاثون ألف قطعة . أنطاع كبار وصغار ثلاثون
ألف نطع . ومن الخيول والبغال والجمال عشرون
ألف رأس . ووجد له في خبية تحت سلم سبعمائة
ألف دينار . ووجد له عبيد وجوار سبعمائة
رأس ، ومن المالك الروم خمسون مملوكا ، ومن
الخدام الخصى مائة رأس . ووجد له في حاصل
نحو من ثلاثين ألف قطعة صيني ما بين لازورد
وأخضر وشفاف . ووجد له من النحاس الأصفر
المكفّت والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف
قطعة . ووجد له من الأملاك والضياع والمستقات
سبعة آلاف مكان قومت بثلثمائة ألف دينار .
ووجد له من المعاصر خمسة وعشرون معصرة ،
وبها من القنود السكر ما لا ينحصر وزنه . ووجد
لأولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع . ووجد له
في حاصل من السروج الذهب والفضة والكبايش
الزركش والبدرات وعدد الخيل ، قوموا ذلك
بثلاثين ألف دينار . ووجد له مخازن فيها بضائع
وبهار قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار . ووجد
له من المراكب ستمئة مركب . ووجد له من
البساتين والغيطان مائتا بستان . ووجد له من
السواقي في البلاد ألف وأربعمائة ساقية . ووجد
له من الأبقار الحلابة والأغنام السياق ثلثمائة ألف
رأس . ووجد له من الغلال — ما بين قمح
وشعير وفول — ما لا ينحصر كيله . ووجد له
ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال
وغير ذلك مما لا ينحصر قدره . والذي ضاع له
عند الناس والعلمان ونحو ذلك شيء لا ينحصر .
وكان له أربع نسوة ومائتا سرية ... وهذا الموجود
لم يسمع بمثله ولا عند الخلفاء .

وآخر الأمر أنهم أخذوا ماله جميعه ونفى الى
قوص ، فأقام بها الى أن مات ودفن بقوص ، ولم

يعلم له مكان قبر ، وزالت الدنيا عنه كما زالت
عن غيره ، كما قيل في الأمثال : « المال كالماء ...
من استكثر منه غرق فيه » .

وقال بعضهم :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واختر لنفسك منها راحة البدن
وانظر لمن قد حوى ما سمعت به
هل ناله غير بعض القطن والكفن
وقال الزمخشري رحمه الله :

وقائلة أرى الأيام تعطى
لناس الناس من رزق خبيث
وتمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذي أصل الحديث
رأت جل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفي هذه السنة توفي الشيخ الامام العالم
العلامة زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى
المعري الكندى ، وكان من أعيان علماء الشافعية
وله مصنفات كثيرة ، منها « كتاب البهجة » وغير
ذلك . وكان فريداً عصره ووحيداً دهره ، وله نظم
ونثر ، رضى الله عنه .

قال الشيخ عماد الدين اسماعيل بن كثير في
تاريخه ان الشيخ زين الدين بن الوردى دخل الى
الشام - وكان ضيق المعيشة ، رث الهيئة ، ردىء
المنظر - فحضر الى مجلس القاضي نجم الدين
ابن حصرى من جملة الشهود ، فاستخفت به
الشهود وأجلسوه في طرف المجلس ، فحضر في
ذلك اليوم مبايعة مشترى ملك ، فقال بعض
الشهود : « أعطوا المعري يكتب هذه المبايعة » ...
على سبيل الاستهزاء به . فقال الشيخ زين الدين :
« أكتبه لكم نظماً أو نثراً ؟ » ... فتزايد استهزاؤهم

به فقالوا له : « بل اكتب لنا نظماً » . فأخذ ورقة
وقلماً وكتب فيها هذا النظم اللطيف ، وهو :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى
محمد بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق
كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعة
بكورة الغوطة وهي جامع
بشجر مختلف الأجناس

والأرض في البيع مع الغراس
وذرع هذى الأرض بالذراع
عشرون في الطول بلا نزاع
وحدها من قبله ملك التقى
وجابر الرومى حد المشرق
ومن شمال ملك أولاد على

والعرب ملك عامر بن جهيل
وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومى
بيعا صحيحا ماضيا شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا
بشمن مبلغه من فضة

وازنة جيدة مبيضة
جارية للناس في المعاملة
ألفان ، منها النصف ألف كاملة

وسلم الأرض الى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لأحد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بآئعه المذكور

وأشهدا عليهما بذلك في

رابع عشر رمضان الأشرف

من عام سبعمائة وعشرة

من بعد خمسة تليها الهجرة

والحمد لله وصلى ربي

على النبي وآله والصحب

يشهد بالمضمون من هذا عمر

ابن المظفر المعري اذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه ، ووضع الورقة بين

يدي الشهود ، تأملوا هذا النظم مع سرعة

الارتجال ، فقبلوا يده واعتذروا له من التقصير

في حقه ، واعترفوا بفضيلته عليهم .

ثم ان الشيخ قال لبعض الشهود في المجلس :

« سد في هذه الورقة بخطك » فقال له : « ياسيدي

أنا ما أحسن النظم » . فقال له : « ما اسمك ؟ » .

فقال له : « أحمد بن رسول » ، فكتب الشيخ

عنه وهو يقول :

قد حضر العقد الصحيح أحمد

ابن رسول وبذلك يشهد

وتوفي في هذه السنة الشيخ شمس الدين

الذهبي المؤرخ . وتوفي الشيخ أثير الدين أبوحيان

المغربى — وكان مالكي المذهب ، فلما دخل الى

مصر تقلد بمذهب الشافعى رضى الله عنه —

فسئل عن ذلك فقال : « بحسب البلدة » ... وكان

عالما فاضلا ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . ومن شعره

اللطيف قوله :

بدر تم له على الخد خال

في احمرار ينشق منه الشقيق

كتب الحسن بالمحقق معنى

ولكن عذاره تعليق

سنة أربع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٣ م) :

فيها توفي الخليفة الامام الحاكم بأمر الله تعالى

أحمد ، ابن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ،

ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد . فلما مات تولى

من بعده ابنه أبو بكر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان له مشهد عظيم ، وصلى عليه السلطان

الملك الصالح .

وفيها حضروا برأس الأمير بكلمش نائب

طرابلس ، ورأس الأمير ببيغا أروس نائب حلب ،

ورأس الأمير أحمد نائب حماه — وكانوا هربوا

من الملك الصالح لما توجه الى الشام كما تقدم .

فلما هرب أولئك النواب توجهوا الى بلاد

التركماني ، فقطعوا رؤوسهم وأرسلوهم الى

السلطان ، فرسم بأن يعلقوا على باب زويلة ،

فعلقوا عليه ثلاثة أيام .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد

بأن العربان أظهروا الفساد وعصوا ونهبوا جميع

الغلال وقتلوا العمال . وكان كبير العربان شخصا

يسمى ابن الأحذب ، شيخ قبيلة عرك ، فاجتمع

عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الأحوال وخرج

اليهم السلطان بنفسه وسائر الأمراء قاطبة . وكان

جاليش العسكر الأمير طاز ، والأمير شبحو

العمرى ، والأمير صرغتمش الناصرى . فلما

تقدموا أمام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة

عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقيل مات من العربان

نحو النصف ، وانكسر شيخهم ابن الأحذب ،

وصار الأمير شيخو يقطع رأس كل من رآه من

الفلاحين يقول دكيك ، حتى بنى من رؤوس العربان

مساطب وموادن على شاطئ البحر . ثم ان الأمراء

مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة

سنة خمس وخمسين وسبعمائة (١٣٥٤ م) :

فيها توفي القاضى شهاب الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية والبلاد الشامية . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . وصنف كتابا فى صناعة التوقيع وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين ، وبه يقتدون .

ومما وقع للقاضى شهاب الدين هذا أنه رثى نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ، ووجدنا فى دواته بعد موته :

قلت لأقلامى : اكتبى وانطقى

فقلت الأقلام : واسوأأتاه

وشقت الألسن من حزنها

وولولت ، واسود وجه الدواء

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الاثنين ثانى شوال وثب جماعة من الأمراء على الملك الصالح . وكان الأمير طاز قد توجه الى نحو البحيرة ليتصيد ، فاغتنم الأمراء هذه الفرصة ، فركب فى ذلك اليوم الأمير شيخو العبرى وجماعة من الأمراء وهجموا على السلطان الملك الصالح وخلعوه من الملك وسجنوه بدور الحرم من يومه ، وزال ملكه كأنه ما كان . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية — الى أن خلع من السلطنة — ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما . وكان ملكا عظيما دينيا خيرا حسن السيرة ، ساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وكانت أيامه كلها خيرا وعدلا ، وكان قليل الأذى كثير الخير . ولما خلع من السلطنة اشتور الأمراء فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون أخى الملك الصالح ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج . ثم رجع الأمراء والسلطان الى الديار المصرية ومعهم ألف رأس من أكابر العربان ، وقد غنموا منهم غنائم كثيرة من خيول وجمال وأغنام وسيوف ودرق وغير ذلك .

فلما دخل السلطان الى القاهرة كان له يوم مشهود . فلما طلع الى القلعة رسم بتوسيط الأسرى من العربان ، فوسطوا نحو سبعمائة انسان .

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا .

ثم ان ابن الأحمد كبير العربان شيخ العرك الذى قد هرب أرسل يطلب من السلطان الأمان بأن يقابل ، فأرسل له السلطان أمانا ، فحضر الى الأبواب الشريفة ، فخلع عليه السلطان خلعة ، وأقره على عادته شيخ العركى كما كان ، وتوجه الى بلاده . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

ما هادن السلطان أعداءه الا لأمر فيه اذلالهم

حتى له تكثر أموالهم وللسبا تكثر أطفالهم

وفى هذه السنة خلع السلطان على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب حلب عوضا عن بييغا أروس . فلما توجه الأمير أرغون الى حلب جرد الى قراجا بن ذو الغادر أمير التركمان ، وكان ذنب قراجا أنه وافق بييغا أروس على العصيان . فلما وصل اليه الأمير أرغون هرب منه ، فتبعه الأمير أرغون الى أطراف بلاد الروم ، فقبض عليه وأرسله الى السلطان . فلما حضر الى القاهرة ومثل بين يدي السلطان أمر بتسديره ، فسمروه على جبل وطاقوا به مصر والقاهرة ، ثم وسطوه فى الرميلى بسوق الخيل ثم دفنوه .

عُودُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ حَسَنَ

وهي السلطنة الثانية . فلما خلع الملك الصالح صالح من السلطنة وقع الرأي على عود الملك الناصر حسن ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه ، وذلك في يوم الاثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك هنأه الشيخ جمال الدين بن نباته بهذه الأبيات وهي قوله :

عد على النصر والسعادة يامن

رفع الله في السلاطين شأنه

أنت سبهم لله ما كان يخلي

منه أوطان مصر وهي كنانه

قال الشيخ شهاب الدين بن حجلة التلمساني ان الملك الناصر حسن وافق والده في سبعة أشياء وقعت له :

أولها — أنه وافقه في اللقب ، لأن والده تلقب بالناصر وهو أيضا تلقب بالناصر .

الثاني — أنه ترك الملك وعاد اليه ، ووالده ترك الملك وعاد اليه .

الثالث — أنه جلس على سرير الملك في المرة الأولى في رابع عشر الشهر ، ووالده جلوسه في المرة الأولى كان في رابع عشر الشهر .

الرابع — أنه لما عاد الى الملك جلس على سرير الملك في ثاني شوال ، ووالده كذلك .

الخامس — أنه وزر له متعمم ورب سيف ، ووالده أيضا وزر له متعمم ورب سيف .

السادس — أنه أقام مدة بلا وزير ، ووالده أقام مدة بلا وزير .

السابع — أنه أقامت مصر في أيامه مدة بلا نائب سلطنة ، ووالده أيضا أقامت مصر في أيامه مدة بلا نائب سلطنة .

وهذا من غريب الاتفاق ...

فلما عاد في هذه المرة غاب كالبدر في سحابه ، ورجع كالسيف المسلول من قرابه ، فخضعت له الرقاب ، وضرب بين الظلم وقلعته بسور له باب ، وأنشده الدهر « بغيرك راعيا عبث الذئاب » ...

فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي سيف الدين شيخو العمري الناصري ، واستقر به أميرا كبيرا — وهو أول من سمي بأمير كبير — ولبس لها خلعة وصارت من يومئذ وظيفة مستقلة . ثم خلع على المقر السيفي عز الدين أزدمر العمري واستقر به أمير سلاح بالديار المصرية — والأمير أزدمر هذا هو جد والد مؤلف هذا التاريخ ، وكان جد والده لأمه — ثم خلع على الأمير صرغتمش ، واستمر رأس نوبة النواب على عادته ... فصار الأمير شيخو والأمير صرغتمش في دولة الناصر حسن صاحبي الحل والعقد ومدبري المملكة ، وكانت عظمة الأتابكي شيخو في دولة الملك الناصر حسن .

ثم ان الأمير طاز ، الدوادار الكبير ، حضر عقيب ذلك من البحيرة — وقد تقدم أنه توجه للصيد — فلما حضر قبضوا عليه وقيدوه ، وسجنوه بالقلعة هو وأخوه ، فأقام في السجن أياما . ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأفرج عنه وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، فخرج اليها من يومه .

وفي هذه السنة خلع على القاضي تقي الدين السبكي ، واستقر به قاضي القضاة الشافعية بدمشق . فلما توجه الى دمشق وخرج من القاهرة قال فيه ابراهيم المعمار :

مصر للسبكي قالت سر فلا عدت اليها
عدت بالرحمن ربي منك ان كنت تقيما
وفيها خلع على القاضي علاء الدين بن فضل الله

سنة سبع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٦ م) :

فيها من الحوادث أن ربحا وقع عند جامع قوصون على ثلاثين نفسا من نساء ورجال ، فمات منهم ثلاثة وعشرون انسانا ، وسلم منهم سبعة ، فقليل ان السبعة الذي سلموا من الردم سافروا في ذلك الشهر الى نحو بلاد الصعيد في مركب ، فهبت عليهم ريح شديدة ففرقت بهم المركب ولم يسلم منهم أحد ... فمن لم يمت بالسيف مات بغيره .

وفي هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته التي في سوق الخيل تجاه القلعة ، وكان مكانها قصر يبيغا اليحياوى نائب الشام ، فهدمه وبني مكانه هذه المدرسة التي لم يعمر مثلها في الاسلام . وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنو شروان في الطول والعرض . وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به . وقيل ان بعض الناس كان مسافرا في البحر المالح في شهر رمضان فرأى قنديل هلال مئذنة هذه المدرسة من البحر المالح . وقيل ان أخشاب أساقيل العمارة قومت بمائة ألف دينار ... وبالجيلة ان بناء مدرسة السلطان حسن دال على أفعاله ، وعلى علو قدر همته بين الملوك المصرية ، وقد قال فيه ابن أبي حجلة :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا ،

يوما ، على الأنساب تشكل

نبني كما كانت أوائلنا

تبنى ، ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها في يوم الجمعة القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وملئت الفسقية التي بصحن المدرسة سكراباء الليمون ، ووقف رعوس

العمرى ، واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية على عادته ، وفيه يقول المعمار أيضا :

لابن فضل الله فضل غير الناس ووفى
كيف لا وهو على علم السر وأخفى

سنة ست وخمسين وسبعمائة (١٣٥٥ م) :

فيها أنشأ المقر السيفي شيخو جامعا و خانقاه بالصليية الضولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعا ودكاكين . ولما كملت عمارة الخانقاه قرر بها شيخا يحضر في كل يوم من بعد العصر وصوفية يحضرون معه . وكان الشيخ الذي قرره ، شيخ الاسلام الشيخ أكمل الدين الحنفى ، وكان من أكابر علماء الحقية ، وقد خضعت له الناس لفضله وزهده ، وكان بارعا في العلوم ، وفيه يقول ابن أبي حجلة التلساني :

شيخ تقدم في العلوم لأنه

ان عد أرباب الفضائل أول

ما قيل هذا كامل في ذاته

الا وقلت الشيخ عندي أكمل

ثم ان شيخو أوقف على هذه الخانقاه والجامع أوقافا كثيرة ، وشرط في وقفه محاسن جميلة ، وجعل النظر على تلك الأوقاف لمن يكون رأس نوبة النواب بالديار المصرية ، ولشيخ الخانقاه المشاركة معه في النظر . وقرر للصوفية الحبز والطعام في كل يوم ، والحلوى والعجمية في كل شهر ، وغير ذلك من الجوامك والمرتبات للصوفية ، وجعل في الخانقاه تدريسا وقراءة سبع في كل يوم . قال في معنى ذلك ابن أبي حجلة :

ومدرسة للعلم فيها مواطن

فشيخو بها فرد وإثاره جنح

لئن بات فيها للقلوب مهابة

فواقفها ليث وأشياخها سبع

النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ،
ونزل السلطان وصلى بها الجمعة ، وخلع على
البنائين والمهندسين الخلع السنية ، وأنعم على
الفيلة لكل واحد عشرة دنانير ، وقال الشيخ
جمال الدين ابن نباتة في المعنى :

امام الورى ، هنتت بالجامع الذى

وجدت الى ميناء سعدا موافقا

دعا حسنه أهل الصلاة لقصده

فلا غرو ان جاء المصلى سابقا

وقيل ان السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة
وجد فى الأرض مالا مدفونا فصرفه على عمارة هذه
المدرسة ، فعمرت من وجه حل . وقيل لما حفروا
أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب
قيل كان البحر هناك ...

ومن الحوادث فى هذه السنة أن هبت ريح
عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة
شديدة ، وهدمت الرياح عدة أماكن ، وقلعت
الأشجار من الأرض بعروشها ... واستمر ذلك من
أوائل النهار الى أن طلع الفجر ، فسكن الريح ،
وأمرت السماء ، وأسفر الجو .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بغداد بأن
القان حسن صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله
نعالى ، وتولى أويس ابنه عوضا عنه .
وفىها توفى الشيخ شهاب الدين بن عقيل ،
والحافظ العلامة مغطاي .

سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) :

ففىها قتل الأتابكى شيخو العمرى أمير كبير .
وسبب ذلك أن شخصا من المماليك السلطانية
يسمى قطلوقجاء السلحدار غافل الأتابكى شيخو
وهو فى الايوان فى يوم الموكب ، فضربه بالسيف
فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع الأتابكى الى الأرض

مغشيا عليه . فلما جرى ذلك قام السلطان من
مجلسه وهو مرعوب ، فطلع ممالك الأتابكى
شيخو وصهره الأمير خليل بن قوصون الى القلعة ،
وحملوا الأتابكى شيخو على جنوبه ونزلوا به الى
بيته فوجدوا به بعض رفق ، فخيظوا جراحاته ،
وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان .
فلما بات فى تلك الليلة فى بيته نزل له السلطان
ثانى يوم يسلم عليه ، فنزل عن فرسه ودخل الى
الأتابكى فى المكان الذى كان به ، فلما سلم عليه
السلطان صار يحلف له أن ذلك لم يكن بعلمه ولا
له خبر بما جرى ، ثم ان السلطان أحضر ذلك
المملوك الذى ضرب شيخو وقال له : « هل أغراك
على ذلك أحد من الأمراء ؟ » ، فقال : « لا والله
ما أغرانى أحد على ذلك ، وإنما قدمت للأمير شيخو
قصة بسبب اقطاع ، فأخرج ذلك الاقطاع لشخص
من جماعته ، فتغير خاطرى منه ، ففعلت ذلك من
قهرى منه » ... فرسم السلطان بتسمير ذلك
المملوك قطلوقجاء الذى ضرب شيخو ، فسمروه
وطافوا به فى القاهرة ، ثم وسطوه فى الرميعة قدام
ممالك شيخو ، وكان عدة ممالك شيخو سبعمائة
مملوك .

ثم ان شيخو استمر ملازم القراش وهو عليل
حتى مات يوم الجمعة سادس عشرى ذى القعدة
سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وقد استمر عيلا فى
الفراش ثلاثة أشهر وأياما . وكانت جنازته
مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه وحضر
دفنه ، ودفن فى خانقائه التى فى الصليبة داخل
القبة ، وطلعوا بجنازته من بيته الذى عند حדרه
البقر فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ، ورجعوا
بالجنازة من رأس الصليبة الى خانقائه التى دخل
بها السلطان قدام نعشه ماشيا حتى دفن ، فكثر
عليه الأسف والحزن من الناس .

واتفق أن في ذلك اليوم زلزلت الأرض زلزلة خفيفة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا — وذلك في وسط قلب الصيف — فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة :

بروحى من أبكى السماء لفقده
بغيث ظنناه نوال يمينه
وما استعبرت الا أسى وتأسفا
والا فماذا القطر في غير حينه ؟

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :
لما أفلت عن المنازل أظلمت
تلك الديار ، وغاب عنها المشفق
وتقول مصر : لفقد شيخو شفى

أرق على أرق ومثلى يارق
وكان شيخو أميرا خيرا دينا ، كثير الخير قليل الأذى ، وله بر ومعروف ولا سيما هذه الخانقاه والجامع الذى فى الصليية ، وما قرر فيهما من وجوه الخير والاحسان .

سنة تسع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٨ م) :

فيها تزايدت عظمة المقر السيفى سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب ، وصار فى رتبة الأتابكى شيخو ، صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، فأرسل بالقبض على الأمير طاز نائب حلب من غير علم السلطان ، وأرسله من هناك الى السجن بشعر الاسكندرية ، فانه كان بينه وبين الأمير طاز حظ نفس من أيام الملك الصالح ، وكان الأتابكى شيخو يردده عن الأمير طاز . فلما مات شيخو قضى منه الأمير صرغتمش أربه . وقيده ونفاه الى الاسكندرية .

فلما جرى ذلك خلع السلطان على الأمير منجك اليوسفى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طاز . ثم ان الأمير صرغتمش أشار بضرب فلوس

جدد : كل فلس بدرهم ، وشىء بدرهمين ، وشىء بمشقال ... فثقل أمر ذلك على الناس ، وتضرر منه السوق . وغلت سائر البضائع بسبب ذلك ، ووقف حال الناس . وقد قال بعض الشعراء :

أميرنا أكرم من حاتم
لا يمنع السائل من فلسه

تقضى به حاجة من رame
فخذ طوعا واخشا من بأسه

ومن الحوادث فى هذه السنة : رفعت قوائم إلى الأمير صرغتمش من ديوان الأقباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور ، فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع الى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى ، وكتب بذلك مبيعات ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، ففرقت عليهم تلك المبيعات الشريفة ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق .

ثم ان السلطان رسم بهدم الكنائس والديور . وكان فى شبرا كنيسة عظيمة على شاطئ بحر النيل ، وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد وفى داخله أصبع بعض من هلك من عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان هذا الأصبع مقيما بتلك الكنيسة دائما ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين ... فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية أخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ويسمونه عيد الشهيد ، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل اليه سائر النصارى من جميع القرى ، وتخرج عامة أهل مصر من غنى

وصعلوك ، وينصبون الخيام على شاطئ البحر النيل بشبرا وفي الجزائر ، ولا يفي مغن ولا مغنية ، ولا رب ملعوب ولا ماجن ولا خليع الا ويجتمع هناك ، فيجتمع عالم لا يحصى عددهم ، وتصرف هناك أموال لا تنحصر ، ويتجاهرون هناك بالمعاصي والفسوق وشرب الخمر ... وربما كان يقتل في ذلك اليوم جماعة من الناس ولا يوجد ما يمنع من ذلك لا من وال ولا من حاجب . وكان أهل مصر يستعدون لذلك اليوم في كل سنة دائما من قديم الزمان ، حتى قيل كان يساع بشبرا في مدة ثلاثة أيام بألف دينار خمر ، وكان فلاحو شبرا لا يغلقون خراج أطيانهم الا بما يبيعونه على الناس في يوم عيد الشهيد . وكان أعيان القبط والمباشرين ، وأعيان الناس من المسلمين والأمراء ، يكرزون المراكب حتى ما يبقى في البحر مركب ، ويوقدون فيها الشمع والقناديل في الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . وكان الناس يستعدون أن النيل لا يزيد الا بالقاء هذا الأصبع فيه ، فقام الأمير صرغتمش في ابطال ذلك قياما عظيما ، وأرسل الحجاب والأمير علاء الدين بن الكوراني الوالي الى شبرا ومنع الناس من نصب الخيام على شاطئ البحر ، وأشهر النداء هناك بمنع ذلك ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ... وكان ذلك من أجل متفرجات مصر لم يسمع بمثله في اللهو والقصف والفرجة .

ثم ان الأمير صرغتمش أمر بهدم تلك الكنيسة فهدموها ، وأحضروا ذلك الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد الى ما بين يدي السلطان الملك الناصر حسن . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول جلس السلطان في الميدان الذي تحت القلعة ، وأحضر ذلك الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد وأمر بحرقه بحضرة الأمراء ، ورسم بأن

يذروا رماد ذلك الأصبع في بحر النيل ، ففعلوا ذلك . وبطل من يومئذ أمر عيد الشهيد وما كان يحصل فيه من المفاسد العظيمة ، وزاد النيل في تلك السنة زيادة عظيمة لم يسمع بمثلهما ، وزال من ظن الناس أن النيل لا يزيد الا بالقاء ذلك الأصبع فيه ، وبطلت السيئة في تلك السنة على يد المقر السيفي صرغتمش رأس نوبة النوب وأتابكي العساكر ، واطر ذلك في صحيفته الى يوم القيامة كما قيل في المعنى :

للخير أهل لاترا لوجوههم تسعى اليه
طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه

سنة ستين وسبعمائة (١٢٥٩ م) :

فيها توفي الأمير تنكربغا المارديني أحد الأمراء المقدمين ، وكان صهر الملك الناصر حسن . فلما مات أنعم السلطان باقطاعه على مملوكه يلغا العمري الناصري ، ثم خلع عليه وجعله أمير مجلس ... وهذا كان أول عظمة الأمير يلغا العمري .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفي تسحب حتى خرج من مصر واختفى ولم يعلم له خبر ، فعاقب السلطان جماعته بسبب ذلك ، وحبسهم الى أن ظهر الأمير منجك كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .

فلما اختفى الأمير منجك خلع السلطان على الأمير بيدمر الخوارزمي واستقر نائب حلب عوضا عن الأمير منجك . فلما توجه الأمير بيدمر الى حلب جرد الى نحو سيس وحاصر أهلها ، فطلبوا منه الأمان ، فأخذها بالأمان ، وكذلك المصيصة . وفتح في تلك السنة عدة قلاع ، ثم رجع الى حلب .

وفيها ركب السلطان الملك الناصر حسن ، ومهر

بالقاهرة وزينت له . فلما وصل الى البيمارستان
نزل عن فرسه ودخل فزار قبر أبيه قلاون ، ثم
دخل الى الضعفاء والمجانين وتفقد أحوالهم ، ثم
ركب وطلع الى القلعة ، وضع له الناس بالدعاء
حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا .

سنة احدى وستين وسبعمائة (١٣٦٠ م) :

فيها ثقل أمر الأمير صرغتمش على السلطان
وخشى منه ، فأشار بعض الأمراء على السلطان
بأن يتقبض عليه من قريب ، وقال له : « ان لم
تبادر وتقبض عليه ، والا قبض هو عليك » ...
فبادر السلطان وقبض عليه ، فكان كما قيل في
المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته

مع التواني وكان رأى لو عجلا

فلما كان يوم الاثنين حادى عشرى شهر رمضان
من السنة المذكورة قبض السلطان على الأمير
صرغتمش وهو فى الموكب بالايوان . فلما سمع
ماليك صرغتمش بذلك لبسوا آلة الحرب وطلعوا
الى الرملة — وكانوا نحو ثمانمائة مملوك —
ووقفوا فى سوق الخيل ، فوثب عليهم المماليك
السلطانية ورموهم بالنشاب ، فتفرقوا وانكسروا .

ثم ان الزعر وجماعة العوام نهبوا بيت
صرغتمش ، ونهبوا سبط خاناته التى بالقرب من
حدرة الفيل ، ونهبوا جميع قناديلها وحوائج
الأعجام الصوفية الذين كانوا بها ، ودكاكين
الصليبة ضيقة لذلك ، وصاروا يمسكون حاشية
صرغتمش وغلماناه ، وينهبون بيوتهم ... واستمر
هذا الأمر من أول النهار الى ما بعد العصر .

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم قيدوا
الأمير صرغتمش ، وأرسلوه الى السجن بثغر
الاسكندرية ، وأمسكوا معه جماعة من الأمراء

ممن كانوا من عصبته — وهم الأمير طشتمر
القاسى حاجب الحجاب ، والأمير طقبا صاووق ،
والأمير جركس الرسولى ، وغير ذلك من الأمراء —
وأرسلوهم الى الاسكندرية .

ثم ان الأمير صرغتمش أقام فى السجن نحو
ثلاثة شهور وأشاعوا فى القاهرة موته . قيل انه
خنق وهو فى السجن . وكان أميرا عظيما مهيبا ،
وكان فى سعة من المال ، وقد أخذ بغتة من حيث
لا يشعر كما قيل فى المعنى :

وان امراً دنياء أكبر همه

لمستمسك منها بجبل غرور

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى
قد أمسك ، فلما حضر بين يدى السلطان كان
عليه بشت عسلى وعلى رأسه مئزر صوف أبيض ،
فوبخه السلطان بالكلام ، ثم عفا عنه ورسم له
بامرة أربعين فى الشام ويكون به طرخانا ، فخلع
عليه وخرج الى الشام من يومه وسافر .

سنة اثنتين وستين وسبعمائة (١٣٦١ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان حسن ، وتناهى
أمره فى العلو ، وكثرت ممالكه ، فأهدى اليه
بعض ملوك اليمن خيمة عظيمة غريبة الشكل ،
بها هيئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة
غريبة ، فتوجه السلطان الى بر الجيزة ، ونزل
بكوم برا ونصب هناك تلك الخيمة المقدم ذكرها ،
فكان أهل القاهرة يخرجون ويتوجهون الى نحو
كوم برا حتى يتفرجوا على تلك الخيمة ، وفيها
يقول ابن أبى حجلة :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة

فأمسيت منها باهتا أتعجب

لسانى بالتقصير فيها مقصر

وان كان فى أطنابها بات يطنب

وقال فيها أيضا عفا الله عنه :

إذا ما خيمة السلطان لاحت
فقل في حسنهما نظما ونثرا

وان رفعت ورمت النصب منها
فصف أطنا بها وهلم جرا

ثم ان السلطان طابت له الإقامة هناك ، فأقام
نحو ثلاثة شهور — وكان زمن الربيع — وكان
بالقاهرة أوخام وموت ، فأقام السلطان هناك
حتى تذهب تلك الأوخاب عن المدينة ، فكان
هناك في أرغد عيش ، وعنده في كل ليلة مغاني
عرب وخیال ظل وحرارة نفض ... وهو لا يدري
ما خبيء له في الغيب من الحوادث ، فكان كما
قيل :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

فلما أقام السلطان هناك هذه المدة ، وكان
بعض الأمراء يرمى بين السلطان وبين الأمير يلبغا
الفتن ، وكان الأمير يلبغا من مماليك السلطان
حسن ، فحسنوا للسلطان الفتك به ، فدبت بينه
وبين السلطان عقارب الفتن . فلما كانت ليلة
الأربعاء تاسع جمادى الأولى وهو في الخيام ،
أحس الأمير يلبغا بذلك فخرج من الخيام ، فلما
كبس عليه السلطان لم يجد بالخيام أحدا — وكان
الأمير يلبغا قد أكن للسلطان كميناً — فلما رجع
خرج عليه ذلك الكمين فوقع مع السلطان واقعة
عظيمة ، فقتل من مماليك السلطان جماعة ،
وانكسر السلطان وغرق عسكره ، فهرب تحت
الليل وعدى من طرا ، وطلع الى القلعة فتبعه
الأمير يلبغا .

فلما طلع السلطان الى القلعة لم يجد معه من
المماليك الا القليل ، ولم يكن معه من الأمراء

سوى الأمير ثمان تمر العمري والأمير أيدير
الدوادر الكبير وبعض مماليك صغار ، فلم يجد
السلطان للمالिक خيولا يركبونها لأن الخيول
كانت في الربيع . فلما أسفر النهار حطم الأمير
يلبغا وطلع الى الرميّة وحاصر السلطان وهو في
القلعة . فلما رأى السلطان عين الغلبة نزل من
القلعة — هو والأمير أيدير الدوادر — ولبسوا
زى العرب ، وقصد السلطان بأن يتوجه نحو الشام
ليستنجد بالأمير بيدير الخوارزمي نائب الشام .

فلما نزل السلطان من القلعة ووصل الى المطرية
قبض عليه وعلى الأمير أيدير الدوادر جماعة من
العربان وأحضرهما الى الأمير يلبغا . فأما الأمير
أيدير فقيده ، وأرسلوه الى السجن بشعر
الاسكندرية ، وأما السلطان حسن فكان آخر
العهد به ... قيل انه خنق ورمى في البحر ولم
يعرف له مكان قبر ، ولم يدفن في مدرسته داخل
القبة التي بها . وكانت قتلته في ثاني عشر جمادى
الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمئة . وكان ملكا
شجاعا ، بطلا ، مقداما مهيبا ، نافذ الكلمة ، وافر
الحرمة ، عالى الهمة . وكان محبا للرعية ، غير أنه
كان كثيرا ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال .
وكان له من العمر لما مات نحو سبع وعشرين
سنة ، وقد دارت لحيته . وكان عربى الوجه ،
أشقر اللحية ، أشهل العينين لأن أمه كانت رومية
الجنس . وكان نحيف الجسد ، معتدل القامة ،
وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح ،
مولعا بحب الملاح ، لا يمل من شرب الراح
وسماع الغناء ليلا ولا نهارا ، حتى قيل فيه :

لما أتى للعاديات وزلزلت
حفظ النساء وما قرا للواقعة

فلأجل هذا الملك أضحى لم يكن
وأتى القتال وفصلت بالقارعة

لو عامل الرحمن فاز بكهفه
وبنصره في عصره للسابعة

من كانت الأنعام من أحزابه
عطط به الدخان نار لامة

أراد الناظم بقوله « عطط » الإشارة الى مخن
كان اسمه عطط ، وأشار بالدخان الى اسم
مشيب كانا يغنيان بالديار المصرية والبلاد
الشامية ...

وكانت مدة سلطنته عشر سنين ونصفا .
فالسلطنة الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام ،
والسلطنة الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيام .
ولما مات السلطان حسن خلف من الأولاد
عشرة ذكور ، وهم : سيدي أحمد ، وسيدي
علي ، وسيدي قاسم ، وسيدي اسكندر ،
وسيدي موسى ، وسيدي يحيى ، وسيدي
شعبان ، وسيدي يوسف ، وسيدي اسماعيل ،
وسيدي محمد . وخلف من البنات ستا .

وكان في أيامه من أولاد الناس ثمانية أمراء
مقدمي ألوف ، وهم : عمر بن أرغون النائب ،
واستبغا بن بكتمر الأبو بكرى ، ومحمد بن
الحسنى ، ومحمد بن آل ملك نائب السلطنة ،
وموسى بن أرقطاي النائب ، ومحمد بن طرغاي ،
ومحمد بن بهادر آص ، وموسى بن الأزكشى .
وكان من أولاد السلطان حسن ثلاثة أمراء
مقدمين ، وهم : سيدي أحمد ، وسيدي علي ،
وسيدي قاسم .

وكان في أيامه من أولاد الناس أمراء طبلخانات
وعشراوات كثير ، وكان منهم نواب في البلاد
الشامية : ييسر الخوارزمي نائب الشام ،
والعلائى على بن قشتمر نائب حلب ، وابن صبيح

نائب صفد . وكان قصد الملك الناصر حسن
إنشاء أولاد الناس في أيامه .

وهو آخر من تولى الملك من أولاد الملك
الناصر محمد بن قلاون . وكان مجموع من تولى
من أولاد محمد بن قلاون ثمانية . وكان الناصر
حسن كفوا للسلطنة .

ولما قتل تولى من بعده ابن أخيه المظفر حاجى .
وأما من توفي في أيامه من الأعيان فهم :

الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك
الناصر محمد بن قلاون ، أخو الملك الناصر
حسن . وقد تقدم أنه لما خلع من السلطنة استقر
مقيما بدار الحرم الى أن مات في سنة احدى
وستين وسبعمائة في دولة أخيه حسن ، ودفن في
تربة عمه الملك الصالح على بن قلاون داخل القبة
التي أنشأها بجوار المدرسة الأشرفية التي بطريق
السيدة نفيسة .

وتوفي في أيامه الشيخ بهاء الدين بن عقيل من
أعيان العلماء ، وتوفي الحافظ العلامة مغلطاي ،
وتوفي الشيخ أبو امامة من أعيان العلماء ، وتوفي
ابن النقاش من كبار علماء الشافعية ، وغير ذلك
من أعيان العلماء جماعة كثيرة .

وتوفي في أيامه أيضا الشيخ صفى الدين الحلبي
صاحب شرح البديعية . وكان شاعرا ماهرا ، وله
شعر جيد في ديوان لطيف كله غرر ومحاسن .
ومن لطائف قوله :

من شاء يملك حفظ صحة جسمه
ويفوز طول حياته بدوامها

فليجعل غداءه من أربع
لاقبل التغير في أقسامها :

من لحم ساعته ، وخبز نهاره
وطعام ليلته ، وقهوة عامها

الملك المنصور محمد

هو الملك المنصور محمد ، ابن الملك المظفر حاجي ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو الحادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويغ بالسلطنة بعد قتل عمه الملك الناصر حسن فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر أربع وعشرون سنة . وكان القائم فى أمور تدبير مملكته المقر السيفى يلبغا العبرى ، فاستقر به أتابك العساكر . وكانت عظمة الأمير يلبغا فى أيام الملك المنصور ، فخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، ثم رسم بالافراج عن كان مسجولا من الأمراء بئغر الاسكندرية — وهم : الأمير طاز الناصرى نائب حلب ، والأمير جركتير الماردينى ، والأمير قطلوبغا المنصورى ، والأمير طشتير القاسمى ، والأمير ملكتير المحمدى ، والأمير أقتير عبد الغنى ، والأمير بكتير المؤمنى وهو صاحب سبيل المومنين المصلاة الآن ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا بنخاص — فلما حضروا الى القاهرة وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم وأنعم لهم بتقادم ألوف ، وفرق عليهم الاقطاعات السنية . فلما فعل ذلك وتم أمره فى السلطنة أقام مدة يسيرة وهو نافذ الكلمة وافر العقل ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركزن الى الدنيا وان كبرت

فصفوها لك مزوج بتكدير

ثم جاءت الأخبار من الشام بأن ييدير الخوارزمى نائب الشام أظهر العصيان ، وخرج

عن الطاعة ، وملك قلعة دمشق ، وقتل نائب القلعة ... وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب .

فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وعلق السلطان الجاليش ، وأخذ فى أسباب الخروج الى الشام . فلما كان ثانى شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمائة خرج الملك المنصور محمد من القاهرة قاصدا نحو الشام ، وخرج صحبته الأتابكى يلبغا العبرى وسائر الأمراء ، فلما وصل السلطان الى الشام أرسل له أمانا ، فلما نزل من القلعة وقابل السلطان قبض عليه الأتابكى يلبغا وقيده وأرسله الى الاسكندرية . ثم ان السلطان خلع على الأمير على الماردينى واستقر به نائب الشام عوضا عن ييدير الخوارزمى ، واستقر بالأمير قطلوبغا الأحمدى نائب حلب ، ثم رجع السلطان والأتابكى يلبغا الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم .

سنة ثلاث وستين وسبعمائة (١٣٦٢ م) :

فيها توفى الامام الخليفة المعتضد بالله أبو بكر ابن المستكفى بالله ، وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات عهد بالخلافة الى ولده محمد ، فولاه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله .

وفيه تزوج الأتابكى يلبغا بخوند طولو — زوجة أستاذ الملك الناصر حسن — وما كفاه أنه قتله ، بل تزوج بامرأته زيادة على ذلك .

سنة اربع وستين وسبعمائة (١٣٦٣ م) :

فيها توفى سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون . وهو والد الملك الأشرف شعبان ،

وكان الملك المنصور هذا لما خلع من السلطنة
 قنع من الدنيا بأرغد العيش من شرب الخمور
 وسماع الزمور ، وكان راضيا بما فيه من ذلك ،
 واستغنى بذلك عن السلطنة كما قيل في المعنى :
 كل الملوك تسلطونا بالملك والسلاح
 وأنا قنعت منه بالراح والمسالخ

الملك الأشرف أبوالمعالى

هو الملك الأشرف ، أبو المعالى زين الدين
 شعبان ، ابن الأمجد مجد الدين حسين ، ابن الملك
 الناصر محمد بن قلاوون ، وهو الثانى والعشرون
 من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويغ
 بالسلطنة فى يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان سنة
 أربع وستين وسبعمائة ، وتلقب بالملك الأشرف ،
 ولبس خلعة السلطنة ، وجلس على سرير الملك ،
 ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ،
 وضح له الناس بالدعاء .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو اثنتى عشرة
 سنة ، وكان مولده فى سنة أربع وخمسين
 وسبعمائة ، وكان الأشرف شعبان مليح الشكل
 بديع الجمال ، تولى الملك بعد خلع ابن عمه محمد
 المنصور بن المظفر حاجى . وقد تعصب لسلطنته
 الأتابكى يلبغا العمري ، وفيه يقول بعض الشعراء :

بالملك الأشرف المفدى

شعبان فزنا بكل فضل

من وطن الكون والرعايا

بطى ظلم ونشر عدل

وفيه يقول خلف الغبارى من زجل :

حب قلبى شعبان موفق رشيد

وجمالو أشرق ، ومالو حدود

وأبوه الحسن ، وعمه الحسن

وارث الملك من حدود الحدود

وهو آخر من توفى من أولاد الملك الناصر محمد
 ابن قلاوون . مات ولم يل السلطنة ، فانه كان
 عنده خفة ووهج وصعصة . فلما قتل السلطان
 حسن لم يوافق الأتابكى يلبغا على سلطنته ،
 واختار محمد ابن الملك المظفر حاجى فولاه كما
 تقدم . وكانت وفاته يوم السبت رابع ربيع الآخر
 من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الثلاثاء
 رابع شعبان طلع الأتابكى يلبغا الى القلعة وقبض
 على السلطان الملك المنصور محمد ، وخلعه من
 السلطنة ، وأدخله دور الحرم متحفزا به ، وولى
 سيدى شعبان ابن سيدى حسين المقدم ذكر وفاته ،
 فكانت مدة سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك
 المظفر حاجى بالديار المصرية سنتين وأربعة أشهر
 لاغير .

واستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصباح
 لايفيق من السكر مائة ، وعنده جوقة جوارى
 مغنيات نحو عشر من الجوارى ينفون بالطارات
 عند الصباح والمساء ، وكانت هذه عادة رؤساء
 مصر تغنى عندهم الجوارى المغنيات ، وآخر من
 كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين
 محمود الاستادار ، ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل
 من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية .

ثم ان الملك المنصور أقام على ذلك وهو مختف
 فى دور الحرم الى أن مات فى ليلة السبت تاسع
 الحرم سنة احدى وثمانمائة فى دولة الظاهر
 برقوق ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين
 سنة ، ودفن فى تربة جدته أم آية خوند طغلى عند
 الباب المعروق ، وخلف من الأولاد نحو خمسة
 ذكور وإناث ، واستمرت هذه الجوقة المغنيات
 بعده دائرة فى القاهرة يعرفن بمغالى المنصور .

(١) لا يستقيم هذا مع قول المؤلف ان عمره كان اربعا وعشرين

سنة فندميايته عام ٧٦٢ هـ .

سل لحظك صارم لقتل العدا
وانت منصور طول المدى والسنين

زعم السعد بين يديك شوايش
فرح القلب بعد ما كان حزين

ونصب لك كرسي على المملكة
وظهر لك نصره بفتحو المبين

والعصايب من حولك اشتالت
خفقت في الركوب عليك البنود

فاحكم احكم في مصرقا سلطان
فجميع الملاح لحسنك جنود

فلما تم أمر الأشرف شعبان في السلطنة أقر
الأتابكي بيلغا أميرا كبيرا على عادته ، واستقر
بالأمير قشتمر المنصوري في نيابة السلطنة على
عادته كما كان ، ثم عمل الموكب وجلس على
سرير الملك وخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم : المقر السيفى طنبغا الطويل ، واستقر به
أمير سلاح عوضا عن الأمير أزدر العبرى
الناصرى الشهير بالخازندار جد والد مؤلفه ،
واستقر بالأمير أزدر المذكور نائب طرابلس ،
وخلع على الأمير عشقتمر الماردنى ، واستقر به
أمير مجلس على عادته . وخلع على الأمير أرغون
الشهير بالأسعدى ، واستقر به دوادرا كبيرا .
وخلع على الأمير أرغون الأرقى ، واستقر به رأس
نوبة النوب . وخلع على الأمير طيغا العلائى ،
واستقر به حاجب الحجاب .

ثم عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر
من الأمراء — وهم أرباب الوظائف — وهم :
المقر السيفى منكلى بغا الشمسى ، واستقر به
نائب الشام . وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا
الأحمدى بأن يكون نائب حلب على عادته .
ثم خلع على الأمير قشتمر المنصوري ، واستقر به

نائب صفد . وخلع على الأمير عمر شاه — وهو
صاحب القنطرة — واستقر به نائب حماه . وخلع
على الأمير عمر بن أرغون النائب ، واستقر به
نائب غزة . ثم فرق الاقطاعات على جماعة من
الماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء
عشراوات ، ثم أُنفق على العسكر وأرضى الجند
بكل ما يمكن ، فاستقام أمره في السلطنة وتعدت
أحكامه .

سنة خمس وستين وسبعمائة (١٣٦٤ م) :

فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا
الأحمدى نائب حلب . وخلع على الأمير
طشقتمر الماردنى ، واستقر به نائب حلب عوضا
عن قطلوبغا الأحمدى . ثم خلع على الأمير خليل
ابن قوصون ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن
الأمير طشقتمر الماردنى .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن
نائب دمشق منكلى بغا الشمسى فتح باب كيسان
الذى بدمشق ، وكان هذا الباب مقفلا من أيام
نور الدين فاقتضى رأى فتح الباب بسبب من
ير من المسافرين ، فجمع النائب القضاة الأربعة
وأعيان دمشق واستشارهم في ذلك فأشاروا
بفتحه ففتح . ثم ان النائب بنى القنطرة عند هذا
الباب فحصل بها منفعة للمسافرين وغيرهم .

وفي هذه السنة رسم السلطان بإبطال الوكلاء
من أبواب القضاة والحكام بالديار المصرية
وببلاد الشامية ، فامثلوا ذلك . وقد قال
بدر الدين بن حبيب :

يقول ذا الحق الذى قاله

خصم الد ولسان كليل

ان صيروا أمر وكيلى سدى

فحبى الله ونعم الوكيل

سنة ست وستين وسبعمائة (١٣٦٤ / ٦٥ م) :

فيها توفي الملك الصالح ابن الملك المنصور غازي صاحب مارددين . وكان ملكا عظيما جليلا عادلا في الرعية . وقد أقام في مملكة مارددين نحو أربع وخمسين سنة ، وعاش من العمر إحدى وسبعين سنة . فلما جاءت الأخبار بذلك تأسف السلطان لموته .

وفيها توفي نور الدين الأسعدي الشاعر . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

دب العذار بخدّه ثم انثنى
فكأنه من وجتيه مروع

نمل يحاول نقل حبة خاله
فتمسه نار الخدود فيرجع

وفي هذه السنة - في ربيع الآخر - أسلم أبو الفرج المقسي القبطي ، وتلقب بشمس الدين ، وقرر في استيفاء الممالك ، وهو من أجداد تاج الدين المقسي ناظر الخواص الشريفة .

سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥ / ٦٦ م) :

فيها رسم السلطان لنائب حلب بأن يأخذ العساكر الحلية ويتوجه الى حصار قلعة خرت برت من أعمال ديار بكر ، فسار اليها وحاصرها نحو من أربعة أشهر ، فطلب أهلها الأمان ونزلوا طائعين ، فأرسل نائب حلب يعلم السلطان بذلك ، فأرسل اليه السلطان خلة بأن يستقر بنيابة قلعة خرت برت على عادته ويحلفه أيما عظيما بأنه لا يرجع يخامر ولا يعصى السلطان .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من ثغر اسكندرية بأن صاحب قبرص قد وصل الى ثغر الاسكندرية في سبعين مركبا من المراكب الحربية مشحونة بالمقاتلين ، فطرقوا المدينة يوم الجمعة ثالث عشر

صفر ، فخرج اليهم نائب الاسكندرية وجماعة من أهل البحيرة فوقعوا معهم واقعة عظيمة ظاهر باب البحر ، فانكسر نائب الاسكندرية وهرب وهرب العربان الذين كانوا معه ، فدخل الفرنج الى المدينة ، ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين ، وحرقوا باب رشيد .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة كان السلطان ، هو والأتابكي يلبغا ، في وادي العباسية يتصيدون ، فلما بلغتهم هذه الأخبار رجعوا الى القاهرة ونودى في العسكر قاطبة بأن السلطان يصلى الظهر ويركب فلا يتأخر أحد من المماليك السلطانية . فلما صلى السلطان الظهر ركب وعدى الى بر الجيزة - وكان النيل في قوة الزيادة - فقاسى العسكر مشقة زائدة في التعدية .

ثم ان السلطان سار الى الطرانة ونزل هناك ، وعين الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح ، والأمير خليل بن قوصون أمير مجلس ، والأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوكنداي آخا طنبغا الطويل ، وعين معهم ألف مملوك ، ورسم بأن يتقدموا جاليش العسكر ... فلما وصلوا الى ثغر الاسكندرية وجدوا الفرنج رحلوا من الثغر وتوجهوا نحو بلادهم بعد ما جرى منهم ما جرى من القتل والنهب وغير ذلك .

فلما بلغ السلطان رجوع الفرنج الى بلادهم رجع الى القاهرة هو والأمراء ، وأرسل مرسوما الى الأمراء الذين تقدموا الى الاسكندرية بأن يقيموا هناك ، ويعمروا ما فسد من المدينة ويظمنوا أهل البلد حتى لا يرجع اليهم الفرنج .

ثم ان السلطان خلع على الأمير بكتمر الشريف - أحد مقدمي الألف - وجعله نائب ثغر الاسكندرية . وهو أول من تولى نيابة ثغر

الاسكندرية من الأمراء المقدمين ، وكان قبل ذلك يتولاها جماعة من الكشاف ومن أولاد الناس ... فظهرت من يومئذ حرمة ثغر الاسكندرية ، وزال عنها أولئك النواب الأصغر ، فخرج اليها الأمير بكتمر انشريفى فى برك عظيم ، وممالك كثيرة ، وحرمة وافرة . وقد قال بعض الشعراء فى النائب المنفصل على لسان حال الاسكندرية هذين البيتين :

اسكندرية قالت يا نائبي صن دماكا
لقد تغير ثغرى واحتجت فيه سواكا

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة يرثى ثغر الاسكندرية فيما جرى عليه من الفرنج فى هذه الواقعة :

ألا فى سبيل الله ما حل بالثغر
على فرقة الاسلام من عصبه الكفر

أناها من الافرنج سبعون مركبا
وضاقت بها العربان فى البر والبحر

وصير منها أزرق البحر أسودا
بنو الأصفر الباغون بالبيض والسر

أتوا نحوها هجما على حين غفلة
وباعهم فى الحسب يقصر عن فتر

فكم من فقير عاش فيها من الغنى
وكم من غنى مات فيها من الفقر

نشرت دموعى يوم فرط نظامهم
فيا ليت شعرى من يبلغهم ثبرى

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح خرج نحو وادى العباسية على سبيل التنزه ، فأقام هناك أياما يتصيد ، فأرسل اليه الأتابكى يلبغا خلعة مع جماعة من الأمراء ومرسوما سلطانيا بأن يستقر نائب الشام ويتوجه من هناك . فلما أوصل اليه ذلك الأمراء — وهم الأمير

أرغون الأسعدى الدوادار ، والأمير طيبغا العلائى حاجب الحجاب ، والأمير أرغون الأرقى رأس نوبة النوب ، والأمير أروس المحمودى استادار العالقة — تحدثوا معه فى أمر نيابة الشام ، فأبى الأمير طنبغا الطويل لبس الخلعة وأظهر العصيان ، والتف عليه أولئك الأمراء الذين توجهوا اليه ، ووافقوه على العصيان ، وتوجهوا الى القاهرة ليتفقوا مع الأتابكى يلبغا . فلما وصلوا الى خانقاه سرياقوس ، بلغ الأتابكى يلبغا ذلك فطلع الى القلعة ، وأركب الملك الأشرف شعبان ونزل به من القلعة ، ووقفوا تحت القلعة ودقت الكؤوسات حريبا ، ونادوا فى القاهرة : « من أطاع الله والسلطان يركب ويجىء تحت الصنجق السلطانى » ... فركب العسكر قاطبة وطلعوا الى الرملة ، فوقف السلطان ساعة حتى تكامل العسكر ، ومشى تحت الصنجق السلطانى وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك ، وذلك فى يوم السبت سابع ربيع الأول من السنة المذكورة .

هذا ما كان من أمر السلطان والأتابكى يلبغا . وأما ما كان من أمر الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح والأمراء الذين معه ، فانهم ركبوا من العباسية واستمروا سائقين طول الليل حتى وصلوا الى المطرية ... فتعبت خيولهم ، وتشتتت غلمانهم ، فتلاقوا مع عسكر السلطان على قبة النصر ، وكان بينهما هناك واقعة عظيمة ، فانكسر الأتابكى يلبغا وولى مدبرا . وكان الأتابكى يلبغا قد أكن كميناً من العسكر عند فم وادى السدرة . فلما ولى الأمير يلبغا مهزوما خرج ذلك الكمين من وادى السدرة على الأمير طنبغا الطويل ومن معه فانكسروا كسرة عظيمة ، وقبض على الأمير أرغون الأسعدى الدوادار والأمير أروس المحمودى الاستادار ، والأمير كوكندى أخى طنبغا الطويل ،

وجماعة كثيرة ممن كانوا معهم من الأمراء . ثم قبض على الأمير طنبغا في أثناء ذلك اليوم من تربة في باب القرافة . فلما تكامل الأمراء قيدهم الأتابكي يلبغا في تلك الليلة وأرسلهم تحت الليل الى السجن بغير مدينة الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء عوضا عن قبض عليهم ممن تقدم ذكرهم كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وفيهما توفي الملك المجاهد سيف على صاحب بلاد اليمن ، وتولى من بعده ابنه عباس وتلقب بالملك الأفضل .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة الأمير جبار بن مهنا أمير آل فضل من عربان الشام ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته ... وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذ السلطان وحلم عليه .

سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٢٦٦ / ٦٧ م) :

ففيها فرق السلطان اقطاعات الأمراء الذين كانوا قد ركبوا مع الأمير طنبغا الطويل فنفاهم وأخرج اقطاعاتهم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات . وفيها أرسل المقر السيفى منكلى بغا نائب الشام يسأل السلطان في الحضور الى مصر زائرا ليرى وجه السلطان . فلما حضر الى القاهرة أحضر صحبته تقادم كثيرة للسلطان حتى للأمراء والأتابكي يلبغا ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، وجعل حلب أكبر من الشام كما كانت على القاعدة القديمة ، وعين معه عسكريا يقيمون بحلب عنده .

ثم ان السلطان خلع على الأمير أقتسر عبد الغنى واستقر به نائب الشام عوضا عن منكلى بغا .

ومن الحوادث في هذه السنة أن الأتابكي يلبغا رسم بعمارة مراكب أغربة بسبب تجريدة تتوجه الى بلاد الفرنج ، فان جماعة من الفرنج صاروا يعبثون في البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وأنشأ مائة غراب ، ورسم للأمير طنبغا العلاني بأن يكون شادا على عمارة هذه الأغربة ، فأنشأ عمارتها في الجزيرة الوسطانية ، فلما كملت عمارتها نزل السلطان والأتابكي يلبغا الى الجزيرة الوسطى يتفرجان على القائها في البحر ، فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا . فآلقوا الأغربة قدامه في البحر والطبل عمال والنفط ، وزينت الأغربة بالصناجق والسلاح ، ولعبوا بها في البحر ذهابا وإيابا والسلطان ينظر الى ذلك .

فلما انقضى ذلك اليوم عدى السلطان من هناك الى بر الجزيرة وصحبته الأتابكي يلبغا ، فتوجه الى نحو الطرانة فأقام بها أياما وهو في أرغد عيش . فبينما هو على ذلك اذ وثب ممالك الأتابكي يلبغا عليه هناك .

وسبب ذلك أن الأتابكي يلبغا ضرب بعض ممالكه هناك بالمقارع وقطع أنفه ، فتعصب عليه جماعة من خشداشينه ووثبوا على أستاذهم .

فلما كانت ليلة الأربعاء سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ركب ممالك يلبغا وكبسوا عليه وهو في الخيام ، فهرب تحت الليل وهو في زى فلاح ، فعدى من بولاق التكرور وطلع الى الجزيرة الوسطى ، ثم توجه الى بيته الذى في الكبش . فلما طلع النهار طلب الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجه الى الجزيرة ونادى أن لا أحد من النواتية يعدى

بأحد من المماليك الى بر مصر ، ومنع المراكب من التعدية ، وجعل الأمراء الذين معه كل واحد في مكان ... فأقام جماعة منهم في بولاق ، وجماعة في مصر العتيقة ، وجماعة في دير الطين . وكان معه من الأمراء الأمير طنبغا العلائى حاجب الحجاب ، وكان معه استاداره والأمير آينبك البدرى وكان أمير أخوره ، والأمير أقبغا جركس وكان دواداره . واجتمع عنده جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية .

هذا ما كان من الأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر ممالك يلبغا فانهم لما علموا بهروب أستاذهم جاءوا الى السلطان الملك الأشرف شعبان وقالوا له : « قم واركب معنا » ... فأبى السلطان ذلك . فقالوا له : « ان لم تركب معنا والا نقتلك » ... فقام وركب معهم ، وجاء الى بر انبابة فلم يجد مركبا يعدى فيه ، فأقام في بر انبابة يوم الأربعاء ويوم الخميس .

ثم ان الأتابكى يلبغا طلع الى القلعة ، وطلب سيدي أنوك — أخا السلطان الأشرف شعبان — وأخرجه من دور الحرم بالغصب ، وأجلسه على سرير الملك ، وقبلوا الأرض أمامه ولقبوه بالملك المنصور ، ونودى باسمه في القاهرة .

فلما كان الجمعة ركب الأتابكى يلبغا وركب سيدي أنوك الذى تسلطن معه ، وجمع العسكر ... فصار الملك الأشرف شعبان في بر انبابة والأتابكى يلبغا في الجزيرة الوسطى وهما يتراميان بالنشاب والمكاحل النفط حتى حال بينهما الليل .

ثم ان الملك الأشرف شعبان طلب شخصا من النواتية يسمى محمد لبطة — وكان رئيسا على المراكب في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون — فقال له السلطان : « قصدى أن تعدينى الى ذلك

البر » فقال له : « نعم أنا عدى بك » . ثم انه أحضر ثلاثين غرابا من الأغربة التى كانت عمرت بسبب التجريدة ، فكسروا بروقها وعمروها بالمقاديف ، وعدى بالسلطان والعسكر من الوراق وهم راكبون خيولهم ، فطلعوا من جزيرة الفيل ، وذلك في يوم السبت .

فلما طلع السلطان من جزيرة الفيل ، توجه على خليج الزعفران وخارج من بين الترب وطلع الى القلعة ، فتسامعت به الناس والعسكر ، فصاروا يتسحبون من عند الأتابكى يلبغا ويطلعون الى السلطان في القلعة ، فلم يبق عند الأتابكى الا القليل من العسكر ، فرجع الأتابكى يلبغا من الجزيرة ، وطلع الى الرملة بمن بقى معه من العسكر ، فوقف بسوق الخيل ساعة فلم يجرى اليه أحد من العسكر ، فتلاشى أمره وولى سعده وبدأ عكسه .

فلما رأى اذبار نفسه نزل عن فرسه وصلى ركعتين في وسط الرملة قدام باب الميدان ، ثم حل سيفه وأعطاه للأمير طنبغا حاجب الحجاب ، ثم ركب فرسه وتوجه الى بيته الذى في الكيش ، فرجعه العوام وسبوه سبا فاحشا لأنه كان يبغيض العوام ويسلط ممالكه عليهم ، فما وصل الى بيته الا بعد جهد كبير ، فأقام في بيته ذلك اليوم ، وأرسل اليه السلطان بعض الأمراء وقت المغرب فأخذه وطلع به الى القلعة هو والأمير طنبغا ، فسجنوه بها الى ما بعد العصر ، فهجمت ممالك يلبغا عليه ، وأخرجوه من السجن ونزلوا به من باب المدرج وهو ماش مشحطط بينهم . فلما وصلوا به الى رأس الصوة عند الحوض تقدم اليه مملوك من ممالكه يقال له قراتر وضربه بالسيف فرمى رأسه عن جثته ، وأخذ بقية ممالكه الرأس

ووضعوها في مشعل ، ونزلوا بها من الصليبة ،
وتوجهوا بها الى بيته الذي في الكبش .

فلما طلع النهار أحضروا الرأس بين يدي السلطان
— وكان الأتابكي يلغا له خلف أذنه سلعة — فلما
رأوا ذلك لم يشكوا في قتله ، ثم صار جسده
مرميا في الصوة على الأرض والناس ينظرون اليه ،
حتى أخذ رأسه وجثته الأمير طشتمر الدوادار
ودفنه في تربة عند الباب المحروق ومضى أمره ،
فكانت قتلته في ليلة الأحد تاسع ربيع الآخر سنة
ثمان وستين وسبعمائة ، وفيه قال بعض الشعراء :

أتاك على يدك الموت لما

ظهرت بما نهاك الشرع عنه

فلا تعتب سواك على الذي قد

بليت به فدود الخل منه

وقال آخر :

بدا شقا يلغا وعدت

عداه في سفنه اليه

والكبش لم يفده وأضحت

تنوح غربانه عليه

وقال آخر :

حواشي يلغا كانوا زناة

فلا تعجب اذا رجموا جهارا

ولا عجب اذا سكروا بحرب

فأهل الكبش ما برحوا سكارى

وكان الأتابكي يلغا أميرا عظيما جليل القدر ،

في سعة من المال ، وافر الحرمة ، نافذ الكلمة .

وكان في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب الحل

والعقد بالديار المصرية ، والسلطان معه مثل اللولب

يديره كيف شاء . وقد تزايدت عظمته في تلك

الأيام حتى بلغت ممالكه ما يزيد عن ثلاثة آلاف

مملوك . وكان من ممالكه أربعة مقدمو ألوف غير

العشراوات . وكان راتب سماطه ضريبة كل صحن
عشرة أرطال لحم ضاني ، فيقال صحن يلغاوى ،
واليه تنسب الطرز العراض اليلغاوية الى الآن ،
وأشياء كثيرة منسوبة اليه في آلة الحرب الى
الآن ... لكنه كان سييء الخلق ، سفاكا للدماء ،
قتل جماعة كثيرة من الأمراء ومن ممالكه من غير
ذنب ، ولا سيما قتله لأستاذه السلطان حسن .
وقيل انه غضب يوما على « مثقال » مقدم الممالك
فضربه ستمائة عصا وسط القصر الكبير . وكان
من سيئاته جور ممالكه على الناس بالأذى ، لكنه
رأى في مبتدأ أمره من العز والعظمة ونفاذ الكلمة
ما لا يراه غيره من الأمراء قبله ولا بعده ، وكان
كما قيل :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما

وأنت ناه لهذا الدهر أمره

فالعمر كالكأس تستجلى أوائله

لكنه ربما مجت أواخره

قيل كان الأتابكي يلغا اذا طلع الى القلعة تركب
ممالكه ويصطفون من بيته الذي في الكبش الى
باب المدرج ويشق هو بينهم حتى يطلع الى القلعة ،
وكانت ممالكه نحو ثلاثة آلاف مملوك . وقيل
ان الوزير « قروينه » كان يحمل الى يلغا في كل
يوم ألف دينار برسم سماطه .

ولما قتل يلغا اضطربت أحوال القاهرة ، فطلع
الأمراء الى القلعة وقبضوا على الأمراء ممن كان
من عصابة الأتابكي يلغا — وهم الأمير قرابغا
البدرى ، والأمير يعقوب شاه ، والأمير طيغا العلائي
حاجب الحجاب ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات
والعشراوات — فقيدوهم وأرسلوهم الى السجن
بشعر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على من يذكر
من الأمراء وهم : المقر السيفي أستدمر الناصري

واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا العمري ،
 وخلع على المقر السيفي قشتمر المنصوري واستقر
 به حاجب الحجاب عوضا عن طيغا العلائي ، وخلع
 على المقر السيفي أيدير الشامي واستقر به دوادارا
 كبيرا وأضاف إليه نظر الأحباس مع الدوادارية ،
 فكان أول من تكلم في نظر الأحباس من الدوادارية .
 وفيها قبض السلطان على صاحب فخر الدين
 ابن قروينه وسلمه الى الأمير قرابغا الصرغتمشي ،
 فلا زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل انه
 أحرق أصابعه بالنار وأحمى له خوذة في النار
 وألبسها له حتى مات .

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رجب من
 سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٦ / ٦٧ م) ، ثارت
 فتنة بين الأمراء فلبسوا آلة الحرب وطلعوا الى
 الرملة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك السلطانية
 والتقوا معهم فكسروهم ومسكوا منهم جماعة من
 الأمراء ، منهم الأمير قرابغا الصرغتمشي ، والأمير
 برمش العلائي ، والأمير أينبك البدرى ، والأمير
 ايسان الرجبي ، والأمير قرابغا العزى ، والأمير
 مقبل الرومى . فلما قبضوا عليهم طلعوا بهم الى
 القلعة فرسم السلطان بتقييدهم وارسالهم الى
 السجن بغير الاسكندرية .

فلما جرى ذلك عز على بقية الأمراء فركبوا
 أجمعين ، وثار فتنة عظيمة ، ولبسوا آلة الحرب
 وطلعوا الى الرملة ، فنزل السلطان الى الحراقة ،
 ودقت الكنوسات حريبا ، وأرسل السلطان يقول
 للأمراء : « ايش سبب هذه الفتنة ؟ » فقالوا :
 « سلمونا الأمير أستدر أمير كبير » ... وكان
 أستدر هذا لما قتل يلبغا استقر عوضه أميرا كبيرا
 وسكن في بيته الذي في الكبش ، والتف عليه
 جماعة من ممالك يلبغا ، ومشى على نظام يلبغا
 في الحرمة والشهامة .

فلما أرسل الأمراء الذين قد ركبوا يقولون
 للسلطان : « أنت أستاذنا ، وما نموت الا تحت
 أقدامك . ولكن سلموا لنا أستدر ، فانه هو الذي
 يرمى الفتن بيننا وبين السلطان » ... فلما سمع
 الأمير ذلك نزل هو وجماعة من الأمراء الذين كانوا
 في القلعة عند السلطان والمماليك السلطانية من باب
 الدرفيل ، وجاءوا من وراء القلعة ، وطلعوا من
 رأس الصوة ، فلم يشعر الأمراء الذين في سوق
 الخيل الا وقد دهاهم الأتابكي أستدر هو ومن
 معه من العسكر ، واجتمع معه الجم الغفير من الزعر
 والعوام ، وبأيديهم المقاليع بالحجارة . فلما رأى
 الأمراء الذين في سوق الخيل ذلك هربوا أجمعين
 ولم يثبت منهم أحد ، ودخل في قلوبهم الرعب
 فانهزموا من سوق الخيل ، ولم يثبت من الأمراء
 غير الأمير الجاى اليوسفى والأمير أرغون شاه تتر ،
 فوقعوا مع الأتابكي أستدر ومن معه من ممالك
 يلبغا واقعة عظيمة كانت من أول النهار الى ما بعد
 الظهر ، فلم يطلع اليهم أحد من الأمراء ، ولا
 ساعدتهم . فانكسر الأمير الجاى ، والأمير أرغون
 شاه تتر وهربا ، وانتصر عليهم الأتابكي أستدر
 ومن معه من ممالك يلبغا .

ثم ان الأتابكي أستدر كبس على الأمراء الذين
 انكسروا وقبض عليهم من بيوتهم — وهم : الأمير
 چركس أمير سلاح ، والأمير أيدير الشامى
 الدوادار ، والأمير الجاى اليوسفى ، والأمير
 قطلوبغا ، والأمير أرغون شاه تتر ، والأمير طيغتمش
 النظامى ، والأمير قجماس الطازى ، والأمير أقطاي
 اليلبغاوى ، والأمير اقبا الأحمدي ، وغير ذلك
 جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات —
 فقيد الأمراء المقدمين وأرسلهم الى السجن بغير
 الاسكندرية ... فكان عدة من قبض عليه من
 الأمراء المقدمين في هذه الحركة ثمانية أمراء ، ومن

الأمراء الطبلخانات وغير ذلك من العشروات نحو
أحد عشر أميرا .

ثم ان بعض الأمراء قال للأتابكى أستقدم :
« اقبض على السلطان وتسلطن أنت » ... فأبى
من ذلك وأبقى السلطان على حاله . فلما راقى مدة
الفتنة عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر
من الأمراء ، وهم : المقر السيفى ، والطنبغا المنجكى
واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى
والطنبغا اليلبغاوى واستقر به رأس نوبة النوب ،
وخلع على المقر السيفى بيرم الغزى قطقطاى
واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن أيدير الشامى ،
وخلع على المقر السيفى سلطان شاه واستقر به
حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير قطلقتمر العلائى
واستقر به أمير جاندار .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أزدمر
العمرى الناصرى الشهير بالخازندار — وهو جد
مؤلفه كما تقدم — وكان السلطان ثقله من نيابة
طرابلس الى نيابة حلب ثم أرسل خلفه ، فلما حضر
الى القاهرة خلع عليه واستقر به أمير سلاح عوضا
عن الأمير قطلوبغا جركس . وكان الأمير أزدمر
هذا تولى أمير سلاح أيضا فى دولة الملك الناصر
حسن فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بعد قتلة
الأتابكى شيخو العمرى . وكان شيخو وأزدمر
خشداسين من فرد تاجر . فلما كانت دولة الملك
الأشرف شعبان أحضر الأمير أزدمر وأعاده كما
كان . ثم ان السلطان أنعم على جماعة حاشيته
بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات ، واستقام
أمر السلطان فى هذه الحركة وزال عنه جماعة من
الأمراء المتمردين الذين كان يخشى هو منهم .

وفى هذه السنة — وهى سنة ثمان وستين
وسبعمائة — كانت وفاة العلامة الشيخ جمال الدين
محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن حسن بن

صالح بن على بن نباتة الفارقى المصرى الجدامى
تعمده الله برحمته . وكان من فحول المولدين واه
شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء . وكان
مولده فى سنة ست وثمانين وستمائة . وكان منشؤه
بمنشية المهرانى بزقاق القناديل ، وكانت مدة حياته
اثنتين وثمانين سنة ، وتوفى فى سنة ثمان وستين
وسبعمائة كما تقدم . ومما وقع للشيخ جمال الدين
هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى
لم يسبق اليه ، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى
ويأخذه عنه وزنا وقافية وينسبه الى نفسه ، كما
قيل فى المعنى :

وفتى يقول الشعر الا أنه

فيما علمنا يسرق المسروقا

قال الشيخ جمال الدين : « فلما طال على الأمر
فى ذلك ، جمعت كتابا فيما قلته وسرقه منى ونسبه
الى نفسه ، وسميت هذا الكتاب « خبز الشعير » ،
لأنه مأكول مدموم ... فمن جملة ذلك انى قلت
فى هذا المعنى :

بروحى عاطس الأنفاس ألى

ملى الحسن حالى الوجنتين

له خالان فى دينار خد

تبساع له القلوب بحبتين

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت

عليه شامة شرط المحبة

كأن الحسن يعشقه قديما

فقطبه بدینار وجبة

قال الشيخ جمال الدين : « فلما وقفت على
هذا المعنى قلت : لا اله الا الله ... سرق الشيخ
صلاح الدين الصفدى — كما يقال — من الحبطين
حبة » .

سنة تسع وستين وسبعمائة (١٣٦٧/٦٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها ، فخرج اليهم الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس ، وكانوا ثلاثة ملوك — وهم : صاحب قبرص ، وصاحب رودس ، وصاحب الاستبار — فجاءوا في مائتى مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة ، فطسع الفرنج في أخذ المدينة . ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس ، فوقعوا معهم ، فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفى انسان . فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم ، فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ، ورحلوا عن ساحل طرابلس .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى ، اضطرب السلطان من ذلك والأمراء ، وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة ... وكان في تلك السنة بالقاهرة فناء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة في كل يوم اثنا عشر ألف جنازة ، وكان أكثر عمله في الأطفال والغرباء . وقد قيل في المعنى :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حياة ، وأن نشتاقي فيه الى النسل

وقال آخر :

نحن بنو الموت فما بالنسا
نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا
على زمان هن من كسبه

سنة سبعين وسبعمائة (١٣٦٨/٦٩ م) :

في يوم الجمعة سادس صفر ، بعد صلاة الجمعة ، ركب جماعة من مماليك يلبغا ودخلوا الى بيت

الأتابكى ، فقال لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فقالوا : « قصدنا نسك خمسة من الأمراء ، وهم الأمير أزدمر أمير سلاح المعروف بالخازندار ، والأمير بيرم العزى الدوادار ، والأمير جركتمر المنجكى أمير مجلس ، والأمير يلبغا القوصونى أمير أخور كبير ، والأمير كبك الصرغتمشى الجوكندار » ... فركب معهم الأتابكى أستدر ومسك هؤلاء الأمراء من بيوتهم .

فأما الأمير أزدمر أمير سلاح فانه قيد وأرسل الى قلعة الصيبية فسجن بها . وأما بقية الأمراء فقيدوا وأرسلوا الى السجن بغير الاسكندرية .

ثم ان الأتابكى أستدر الناصرى قصد القبض على السلطان ، فتعصب له جماعة من الأمراء ، فطلعوا الى القلعة ، ونزل السلطان الى الأسطبل ، وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطاني ، ودقت الكؤوسات حربيا ، فطلع اليه غالب العسكر ، فاجتمع تحته في الرميلة الجهم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع والحجارة ... وكل هذا بغض في الممالك الذين قد التفوا على الأتابكى أستدر ، وكانو مماليك يلبغا ، وقد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء في الحمامات ، ويخطفون قماش الناس من الأسواق ، فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس قاطبة .

فلما ركب الأتابكى أستدر ومماليك يلبغا ، توجهوا من وراء القلعة كما فعلوا تلك المرة . فلما زحفوا وأقبلوا من عند الصوة لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع ، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب الممالك ومن كان معهم من الأمراء ، فانكسر مماليك يلبغا أنجس كسرة ، وهرب الأتابكى أستدر من رأس الصوة ، وكان يظن أنه ينتصر

كما وقع له تلك المرة ، فكان كما قيل في المعنى :
أتطمع أن يبقى السرور لأهله

وهذا محال أن يدوم سرور

وتقضى الليالي باجتماع وفرقة

ويحدث من بعد الأمور أمور

فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد أمسك الأتابكي
أستدمر وجماعة معه من الأمراء ممن كان من
عصبته ، وقد أمسكوا من بين الترب ، فصار
العوام يقبضون على كل من يروونه من ممالك
يلبغا ويعروونه ويقتلونه شر قتلة ، واستمروا على
ذلك الى آخر النهار .

فلما أمسك الأتابكي أستدمر ومن معه من
الأمراء مثلوا بين يدي السلطان ، فأراد أن يقيد
الأتابكي أستدمر ، ويرسله الى السجن بثغر
دمياط ، فشفع فيه الأمراء وعرفوا السلطان بأن
الأتابكي أستدمر مع ممالك يلبغا تحت الضنك ،
ولا يقدر على ردهم ، فرسم السلطان للأتابكي
أستدمر أن ينزل الى بيته ، وأرسل معه الأمير
خليل بن قوصون — وكان الأمير خليل بن
قوصون ابن عم السلطان الملك الأشرف شعبان —
فلما نزل الأمير خليل مع الأتابكي أستدمر الى
بيته ، اتفق معه على العصيان ، وتحالفا على ذلك .
فتسامع بهم بقية الأمراء والممالك الذين كانوا
قد اختفوا فجاءوا تحت الليل الى الأتابكي أستدمر
حتى ضاق بهم المكان من الازدحام لكثرتهم .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر صفر من سنة
سبعين وسبعمائة ، ركب الأتابكي أستدمر والأمير
خليل بن قوصون وجماعة من الأمراء الذين من
عصبة الأتابكي أستدمر ، فطلقوا الى الرملة ووقفوا
بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى المقعد المثل
على الرملة وعلق الصنجق ، ودقت الكؤوسات
حريريا ، فحصل في ذلك اليوم واقعة عظيمة بين

الفريقين ، وظن السلطان أنه مأخوذ لا محالة ،
فكان كما قيل في المعنى :

ولا ترج الا الله في كل حالة

ولا تعتمد يوما على غير فضله

فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى

وخيرته فيها على رغم أنفه

فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وكسر الأتابكي
أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء
الذين ركبوا مع أستدمر ، فنهب العوام بيوتهم ،
وصاروا يمسكون ممالك يلبغا من الاصطبلات
ويودعونهم في الحبوس ، ثم قيدوا الأتابكي
أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء
الذين ركبوا مع أستدمر وأرسلوهم الى السجن
بثغر الاسكندرية . وأما ممالك يلبغا فنفوا منهم
وغرقوا منهم جماعة ، وهرب منهم جماعة الى بلاد
المشرق ، وانتصر عليهم السلطان الملك الأشرف
شعبان . وقد قال المعمار :

مسلطاننا دامت له عزة

ونصرة من أجل هاتين

دسر كبشين ومن سعه

ما انتطحت في ذاك شاتين

وقال الشيخ شهاب الدين بن العطار :

هلال شعبان جهرا لاح في صفر

بالنصر حتى أرى عيدا بشعبان

وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا

رجما وما التطحت في الكبش غزان

ثم ان السلطان ، لما خمدت الفتنة ، رسم
بالافراج عن من يذكر من الأمراء ممن كان
مسجوناً بثغر الاسكندرية ، وهم : الأمير يلبغا
آص ، والأمير الجاي اليوسفي ، والأمير ملكشتر
الشيخوني الخازندار ، والأمير أيدير الخطائي .

ما أفرج عنهم وطلعوا الى القلعة خلع على الأمير
بغا آص المنصوري واستقر به أتابك العساكر
وضا عن أستدر الناصري ، وخلق على الأمير
جاي اليوسفي واستقر به أمير سلاح عوضا عن
أمير أزدر العمري الناصري الخازندار ، وكان
أمير الجاي اليوسفي زوج أم السلطان الملك
شرف شعبان . وأنعم على الأمير أيذر الخطائي
قدمة ألف ، وأنعم على الأمير ملكتمر الشيخوني
خازندار بتقدمة ألف .

والأمير ملكتمر هذا هو الذي عمر الجامع
يخضر الذي عند فم الحور بين الغيطان .

ثم استمر الحال ساكنا مدة يسيرة ، وقبض
لسلطان على يلبغا آص المنصوري ، وعلى
لأمير ملكتمر الشيخوني . وسبب ذلك أنه قد
لغ السلطان أن يلبغا آص لما حضر الى القاهرة
لتف عليه جماعة من الأمراء ، وقد عول على
لركوب على السلطان . فلما تحقق السلطان ذلك
ادر اليه وقبض عليه وعلى الأمير ملكتمر
قيدهما وأعادهما الى السجن بئر الاسكندرية .
وفي ذلك يقول ابن العطار :

يلبغا آص تولى جمعة

فبغى واختار حربا وادعى

ويج من جاء لحكم زائرا

ثم ما سلم حتى ودعا

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفي
منكلي بغا الشمسي نائب حلب ، فلما حضر خلع
عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن
يلبغا آص . ثم أرسل خلف الأمير على المارديني
نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب
السلطنة بالديار المصرية وكان من خيار الأمراء .
وفي هذه السنة توفي الملك المنصور غازي

صاحب ماردین ، وتولى من بعده ابنه الملك
الصالح محمود .

ومن الحوادث في هذه السنة : جاءت الأخبار
من دمشق أنه قد نزل بها جراد عظيم لم يسمع
بشله . وقد أتى هذا الجراد من مكة الى
دمشق ، فأكل الأشجار وسد أعين المياه ، وكان
معظم أمره في قرى دمشق مثل حوران وعجلون .
فلما كان يوم الجمعة دخل الجراد الى جامع
بنى أمية حتى ملأ صحن الجامع وصار يترامى
على الخطيب وهو فوق المنبر حتى شغله عن
الخطبة ، ثم كثر حتى جافت منه القرى والبلدان ،
فوخم منه الناس حتى صاروا يشمون منه القطران
من كثرة رائحته الكريهة ، ثم تناقص من بعد ذلك
حتى ارتفع عن البلاد الشامية .

سنة احدى وسبعين وسبعمائة (١٣٦٩ / ٧٠٠ م) :

فيها خلع على المقر السيفي قشتمر المنصوري ،
واستقر به نائب حلب عوضا عن منكلي بغا
الشمسي ، ثم رسم بالافراج عن الأمير أزدر
العمري الناصري — جد مؤلفه — وقد تقدم أنه
نفي الى الصبيية في وقعة الأتابكي أستدر بسبب
مما ليك يلبغا ، فأقام بالسجن في الصبيية مدة ثم
رسم بالافراج عنه ليوليه نيابة الشام عوضا عن
الأمير على المارديني . فلما وصل الأمير أزدر الى
العريش مرض هناك ودخل الى القاهرة وهو عليل ،
فأقام مدة يسيرة ومات الى رحمة الله تعالى ودفن
بالقرافة الصغرى ، بالقرب من زاوية الشيخ
أبي العباس البصير رضى الله عنه .

وكان الأمير أزدر هذا أميرا جليلا ديننا خيرا له
بر ومعروف وآثار ، فمن ذلك أنه لما كان نائب
حلب أنشأ خانا بها يعرف بخان سراقب . ولما كان
نائب طرابلس أنشأ حوزا وسيلا على الدرب

السلطاني في قرية من أعمال جبل نابلس تسمى قرية حلمة بنى سعد ، وله أوقاف على الحرمين الشريفين والذرية ، وكان قليل الأذى كثير الجود كما قيل :
وليس سحيق المسك ريا حنوطه

ولكنه ذاك الثناء المخلف

وولى من الوظائف أمير سلاح بالديار المصرية مرتين ، وولى نيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وغير ذلك من الوظائف . وكانت وفاته — أى الأمير أزدمر أبو ذقن — فى يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر سنة احدى وسبعين وسبعمئة . ولما توفى الأمير أزدمر خلع السلطان على المقر السيفى منجك اليوسفى ، واستقر به نائب الشام عوضا عن الأمير أزدمر العمرى ، وكان قد عين له نيابة الشام .

وفى خلع السلطان على الأمير الكز الكشلاوى واستقر به وزيرا واستادارا .

وفى توجه السلطان الى بر الجيزة ونزل عند الأهرام على سيل التنزه ، فأقام هناك سبعة أيام ثم رحل من هناك وتوجه الى البحيرة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى ثغر الاسكندرية — وكان ذلك فى أيام النيل — فحصل للعسكر مشقة عظيمة بسبب المخايض فى الطريق . فلما دخل السلطان الى مدينة اسكندرية دخل من باب رشيد ، والأمراء مشاة بين يديه من باب رشيد الى باب البحر ، وفرش له نائب الاسكندرية الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ونثر على رأسه الذهب والفضة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، ودخلت عليه التقادم والهدايا ، ثم رحل من الاسكندرية ورجع الى القاهرة وطلع الى القلعة . ومن الحوادث فى هذه السنة أن جماعة من العوام وقفوا تحت القلعة ، ومنعوا الأمراء عن الطلوع الى القلعة ، وصاروا يرمون الناس ،

فأرسل اليهم السلطان بعض الأمراء وهو يقول لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فأرسلوا يقولون للسلطان : « تسلمنا علاء الدين بن كبك شاد الدواوين ووالى القاهرة » ... فوقفوا تحت القلعة الى ما بعد العصر ، وحصل منهم غاية الفساد ، فرسم السلطان للماليك بأن ينزلوا اليهم ، فنزلوا ورموهم بالنشاب ، فتشتتوا وهربوا من الرميطة ، فأمسكوا منهم جماعة وأودعوهم فى الحبس ، وقتل منهم جماعة بالنشاب وهرب الباقون فارين على وجوههم ، وغلقت فى تلك الليلة المدينة قاطبة ، ولم يقد وقوفهم فى الرميطة شيئا ، فكان كما قيل فى المعنى :

سل السيف عن أهل الفخار وفرعه

فانى رأيت السيف أصدق مقولا

ثم ان السلطان نادى للعوام بالأمان والاطمئنان ، وعزل عنهم والى القاهرة ، وولى الأمير حسين ابن الكورانى واليا على القاهرة عوضا عن بكتمر السيفى .

وفى جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب قشتمر المنصور قد قتل هو وقلد محمد . وسبب ذلك أن شخصا من آل فضل يسمى الأمير جبار وقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، فخرج اليه نائب حلب مع العساكر الحلبية ، فتقابل مع الأمير جبار ، فقتل نائب حلب فقتل هو وقلده فى المعركة .

ثم ان السلطان خلع على الأمير عشقتمر الماردينى — وهو صاحب الخاقاه التى فى باب القرافة — واستقر به نائب حلب عوضا عن قشتمر المنصورى ، وأرسل خلعة الى الأمير زامك من آل فضل بأن يكون عوضا عن الأمير جبار بن مهتا ، فخرج الأمير عشقتمر وتوجه الى حلب .

ثم ان السلطان عمل الموكب وأنعم على من يذكر

من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : الأمير بشتاك الكريمي ، فخلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير خليل بن قوصون . وأنعم على الأمير بهادر الجمالي بتقدمة ألف . وأنعم على جماعة من الخاصكية بأمریات طبلخانات وعشراوات .

وفي هذه السنة حجت خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، فخرجت من القاهرة في موكب عظيم في محفة زركش والأمراء مشاة قدامها . وخرج صاحبها العصائب السلطانية والكثوسات ، وحج معها الأمير بشتاك رأس نوبة النوب ، والأمير بهادر الجمالي ومائتا مملوك من المماليك السلطانية .

سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة (١٣٧٠ / ٧١ م) : فيها رجعت خوند أم السلطان من الحجاز الشريف ، ووصلت الى القاهرة في سادس عشر المحرم ، فخرج اليها السلطان ولاقاها من البويب . وكان يوم دخولها يوما مشهودا حتى طلعت الى القلعة .

وفي هذه السنة توفي الأمير على المارديني الناصري نائب السلطنة بمصر ، وكان أميرا دنا خيرا كثير البر والصدقات ، قليل الأذى ، كثير الخير ، قريبا من الناس . تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ، ومات والناس راضون عنه ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس . ولما مات خلع السلطان على الأمير طشتمر العلائي واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الأمير على المارديني الناصري .

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١ / ٧٢ م) :

فيها رسم السلطان بأن السادة الأشراف قاطبة يجعلون في عمائمهم شطفات خضر حتى يمتازوا عن

غيرهم ، وتعطيها لقدرهم ، فنودي لهم في القاهرة بذلك ، فامتثلوا أمره المتدارك . وفي هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين بن جابر الأندلسي :

جعلوا لأبناء الرسول علامة
ان العلامة شأن من لم يشمر

نور النبوة في كريم وجوهمهم
يعنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب :
عمائم الأشراف قد تميزت
بخضرة رقت وراقت منظرا

وهذه اشارة أن لهم
في جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال الشيخ شمس الدين بن المزين :
أطراف تيجان أتت من سندس

خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها
شرفا لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة :
لآل رسول الله جاء ورفعة
بها رفعت عنا جميع النوائب

وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
إذا ما بدوا للناس تحت العصائب

وفي هذه السنة عزل السلطان قاضي القضاة الشافعي بهاء الدين السبكي ، وأرسل خلف الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب بيت المقدس ، فلما حضر خلع عليه وولاه قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن بهاء الدين السبكي . وكان الشيخ برهان الدين هذا ابن أخي قاضي القضاة عز الدين بن جماعة المقدسي .

سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٢ / ٧٣ م) :
فيها توفي الأتابكى منكلى بغا الشمسى ، وكان
من خيار الترك . ولما توفي خلع السلطان على المقر
السينى الجاى اليوسفى واستقر به أتابك العساكر
بمصر عوضا عن منكلى بغا الشمسى بحكم وفاته .
وفيها أنعم السلطان على ولده الأمير على
بتقدمة ألف .

وفي هذه السنة كانت وفاة خوند بركة أم
السلطان الملك الأشرف شعبان ، وكانت ذات حسن
وجمال ، وذات دين وخير ولها بر ومعروف . وهى
التي أنشأت المدرسة التى بالتبانة ، ورتبت بها
دروسا للمذاهب الأربعة ، وحضورا فى كل يوم
للسوفية ، ومكتبا للأيتام ، وحوضا وسبيلا . ولما
ماتت دفنت بهذه المدرسة وحزن عليها السلطان
حزنا شديدا . وكانت ذات عقل ورأى سديد . وقد
رثاها الشهابى بن الأعرج بقوله :

فى الثان والعشرين من ذى قعدة

كانت صبيحة موت أم الأشرف

قاله يرحمها ويعظم أجرها

ويكون فى عاشوراموت اليوسفى

فكان الفأل بالمنطق ... كما يقال :

لا تنطقن بما كرهت فربما

نطق اللسان بحادث سيكون

سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣ / ٧٤ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء سادس شهر الله المحرم وثب
على السلطان الأتابكى الجاى اليوسفى زوج أمه ،
ولبس آلة الحرب ، وطلع الى الرملة هو ومماليكه .
وكان سبب ذلك أنه قد حصل بينه وبين السلطان
حظ نفس بسبب ميراث أم السلطان ، فحنق
الأتابكى الجاى من السلطان فوثب عليه . ثم ان
السلطان نادى للعسكر والأمرأ بأن يركبوا

ويحاربوا الأتابكى الجاى ، فركب جميع الأمراء
والعسكر وطلعوا الى الرملة ، ووقعوا مع الجاى
واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة ، وآخر الأمر
انكسر الأتابكى الجاى وهرب نحو بركة الحبش ،
ثم طلع من عند الجبل الأحمر وأتى الى قبة النصر
فأقام بها ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يكون
نائب حماه ويخرج من هناك ... فأبى الجاى من
ذلك وأقام بقبة النصر الى يوم الخميس وهو لا لبس
آلة الحرب ، فنادى السلطان للعسكر والأمراء بأن
يتوجهوا اليه بقبة النصر ويحاربوه ، فتوجهوا اليه
وحاربوه ، فانكسر الجاى ثانيا وهرب الى نحو
شبرا ، فساقوا خلفه فأدركوه فرمى نفسه فى البحر
وهو راكب فرسه ، فغرق الجاى ومات وطلع فرسه
من بر انبابه من عند الوراق ، وقبض العسكر على
مماليكه وخيوله وسلاحه وأحضروهم بين يدى
السلطان وحكوا له ما جرى .

ثم ان السلطان أرسل جماعة من الغطاسين الى
نحو شبرا فغطسوا هناك وطلعوا بالجاى ، فأحضروا
له تابوتا ، وأتوا به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه
وصلوا عليه ، ودفنوه بمدرسته التى أنشأها فى
سويقة العزى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة عاشر
المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما فولوا
عليه .

وكان الأتابكى الجاى أميرا جليلا مهيبا ، كثير
البر والصدقات ، يحب فعل الخير ... ولو أنه حضر
بين يدى السلطان وهو فى قيد الحياة ما كان يحصل
له من السلطان الا كل خير ، فانه كان زوج أمه ،
وكان له على السلطان تربية قديمة ، ولكن كان
ذلك مقدرًا عليه .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السينى أيدير
نائب طرابلس ، فلما حضر خلع عليه واستقر به

أتابك العساكر عوضا عن الجاي اليوسفى ، فأقام
أيديمر فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفى
الى رحمة الله تعالى فأرسل السلطان خلف المقر
السيفى منجك اليوسفى نائب الشام ، فلما حضر
خلع عليه السلطان واستقر به أتابك العسكر عوضا
عن أيديمر ، وأضاف اليه نيابة السلطنة مع
الأتابكية ، وفوض اليه أمور الملكة قاطبة من
الديار المصرية والبلاد الشامية ، ورسم له بأن
يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من
أربعمائة دينار الى ستمائة دينار ... وكانت عادة
نواب السلطنة من قديم الزمان ألا يخرجوا من
الاقطاعات أكثر من أربعمائة دينار الى ما دون .
وفيهما خلع السلطان على مملوكه الأمير أرغون
شاه الأشرفى واستقر به رأس نوبة النوب .

وفيهما جاءت الفرنج الى رشيد ، فخرج اليهم
الأتابكى منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم
وهربوا منهم الى بلادهم ... وفى ذلك يقول ابن
أبى حجلة :

أمنجك سل فى الأعداء بترك
ولا تنترك من الافرنج بترك
تداركت المعالى بالعوالى
ولكن فضل جودك ليس يدرك

وقد آنت مصر حين قالت

تولى الله حيث حللت نصرك

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل توقف
عن الوفاء ، ثم هبط ونقص أصبعين ، فضج الناس
لذلك وماجت مصر وتشحطت الغلال وامتنع الخبز
من الأسواق ، فرسم السلطان للناس بأن يخرجوا
ليستسقوا . فلما كان يوم الخميس ثانى ربيع الآخر
من السنة المذكورة ، خرج الناس قاطبة الى
الصحراء ، واجتمع هناك الجهم الغفير من العلماء

والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال
وطائفة اليهود وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة
محمد المنوكل على الله والقضاة الأربعة ، ولم يزل
السلطان معهم ، ثم توجهوا من وراء قبة النصر
ونصبوا هناك منبرا وصعد اليه قاضى القضاة
الشافعى ، وهو الشيخ شمس الدين بن
القسطلانى ، وخطب خطبة بليغة فى الامتسقاء ،
ولما حول رداءه كشف عن رأسه ودعا الله تعالى ...
وكان ذلك اليوم يوما مشهودا تسكب فيه العبرات .
ولما رجع الناس وباتوا تلك الليلة هبط الماء
جملة واحدة ، وتزايد سعر الغلال وبلغ ثمن كل
اردب مائة وعشرين درهما ، ومن الشعير كل اردب
بثمانين درهما ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز الكشكار
أربعة دراهم ، وبلغ الرطل اللحم الضانى درهماين
ونصفا كل رطل ، واللحم البقرى كل رطل بدرهم
ونصف ، وبلغ ثمن البيض عشرة دراهم كل
واحدة ، وبلغ ثمن الراوية الماء خمسة دراهم .
ومات تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف ،
وغلا سعر كل شئ من أصناف البضائع . وجاء عقيب
ذلك فناء عظيم حتى بلغ ثمن البطيخة الصيفى مائة
درهم ، والرمانة ستة عشر درهما ، وصار القمح
كل يوم يتزايد سعره .

فلما اشتد الأمر وشرقت البلاد رسم السلطان
للأتابكى منجك بأن يجمع الحرافيش الذين فى
القاهرة ويفرقهم على الأمراء وأعيان التجار ففعل
ذلك ، ورسم السلطان بأن يعطوا لكل فقير رغيفين
وما يشاكل ذلك من الطعام ... واستمر الأمر على
ذلك نحو سنة ، ولم يتراجع السعر ولم ينحط عن
ذلك حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز
النخال والذرة ، واستمر الحال على ذلك .

سنة ست وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤ / ٧٥ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب خرج الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتح مدينة سيس ، وكانت في أيدي الأرمن . فلما جاءت الأخبار بذلك فرح السلطان ، وأمر بدق الكاسات سبعة أيام ، وزينت القاهرة سبعة أيام ، وأرسل نائب حلب صاحب سيس ، وهو أسير ومقيد — وكان اسمه تكنور — فرسم السلطان باعتقاله ، ورتب له في كل يوم ما يكفيه من النفقة وهو في السجن . وقد هنا بعض الشعراء السلطان بقصائد في فتح مدينة سيس حيث قال :

الملك الأشرف سلطاننا

أيده الله بعز نقيس

ساق الى نحو العدا أدهما

وجاء النصر على أخذ سيس

وفيها جاءت الأخبار من بغداد بأن القان أويس صاحب بغداد قد توفي الى رحمة الله تعالى ، وتولى من بعده ابنه حسين ، وكانت مدة ملكة القان أويس على توريث وبغداد تسع عشرة سنة .

وفيها كانت وفاة الأتابكي منجك اليوسفي . وكانت وفاته في يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن في خانقاه التي أنشأها في رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، ومات وله من العمر نحو سبعين سنة . وكان أميراً جليلاً عظيماً كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف بمصر والشام ، وقد تولى نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة السلطنة بمصر وأتابك العساكر بالديار المصرية .

سنة سبع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٥ / ٧٦ م) :

أقول : وهذه السنة عزيزة الوفوع ، لأنه قد اجتمع فيها ثلاث سباع ، فهي سبع وسبعون

وسبعمائة ، وهذا غير ممكن أن يتفق مثلها من سنى الهجرة النبوية من الأعوام القابلة ، ولم يتفق مثلها في مبتدأ الاسلام غيرها من السنين .

ففيها ختن السلطان أولاده وأقام لهم مهرجاناً في القلعة سبعة أيام ، وكان ذلك تاسع المحرم . وفيها كملت عمارة السلطان التي أنشأها في رأس الصوة تجاه الطبلخانات . ولم يحدث في هذه السنة من الحوادث شيء ، وكان غالب الناس يتطير منها فلم يحصل فيها الاخير .

سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (١٣٧٦ / ٧٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان المغاني من سائر أعمال مملكته ، وكان ذلك عبارة عن مال كثير مقرر على سائر المغاني من رجال ونساء يؤدونه في كل سنة الى الخزائن الشريفة ، فأبطل ذلك . ومن جملة ما أبطله ضمان القراريط ، وكان عبارة عن أن الشخص اذا باع ملكاً يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرون درهماً ، فأبطل ذلك وصار في صحيفته الى يوم القيامة .

وفيها توعك السلطان وأقام في الفراش منقطعا مدة ، ثم شفى وخرج الى الموكب .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يحج في هذه السنة ، فأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج في هذه السنة فلم يسمع ، وأخذ في أسباب عمل البرق . فلما كان يوم السبت ثاني عشر شوال خرج السلطان من القاهرة ، ونزل من القلعة في موكب عظيم وطلب ، وخرج من الميدان الذي تحت القلعة . وقد اشتمل الطلب السلطاني من الهجن على عشرين نوبة بقماش زركش ، وخمس عشرة نوبة بقماش حرير ملون ، ونوبة هجن ملبسة خليفتي ، ونوبة هجن ملبسة أبيض برسم الاحرام . وكان في الطلب مائتا فرس ملبسة بركشتونات مخمل ملون وشي

قولاذ مكفت بالذهب ، وفيه كجاوتين زرکش ، وكان فيه عشر محفات زرکش برسم الحریم ، وكان فيه ستة وأربعون زوجا محایر مخمل ملون برسم السراری والعیال ، وكان فی السنیح خمسائة جمل محملة سكرًا وحلوی وفاكهة وغير ذلك برسم ما یحتاج الیه المطبخ ، وكان فیہ قطاران من الجمال محملة أشجارا مزهرة فی طینها وهی فی صنادیق خشب مزفته .

فلما انتهى أمر الطلب خرج السلطان من الميدان فی موكب عظیم ، وقدامه سائر الأمراء من كبر وصغیر ، وكان له یوم مشهود . ولما نزل من القلعة توجه الى نحو بركة الحاج علی العادة . فلما أقام هناك خلع علی الشیخ ضیاء الدین الغنوی واستقر به شیخ مدرسته التی أنشأها برأس الصوة ، وقرر بها حضورا من بعد العصر وصوفیة . وكانت هذه المدرسة من محاسن الدنیا فی الزخرفة والبناء ، وقد هدمت هذه المدرسة فی دولة الملك الناصر فرج ابن برقوق كما سیأتی ذكر ذلك فی موضعه .

ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ، وكان صحبته من الأمراء المقدمین تسعة ، وهم : المقر السیفی أرغون شاه الأشرفی ، والمقر السیفی صرغتمش الأشرفی أمیر سلاح ، والمقر السیفی یلبغا السابقی أمیر مجلس ، والمقر السیفی بهادر الجمالی أمیر أخور كبر ، والمقر السیفی صراى قمر المحمدی رأس نوبة النوب ، والمقر السیفی طشتمر العلائی الدوادار ، والأمیر مبارك شاه الطازی ، والأمیر قطلقتمر العلائی الطویل ، والأمیر بشتاك العمری ومن أمراء الطبلكانات خمسة وعشرون أمیرا .

ثم ان السلطان جعل المقر السیفی أقتمر بن عبد الغنی — نائب السلطان — مقیما بالقاهرة ، وجعل الأمیر أیدمر الشمسی نائب الغیبة ، ورسم للأمراء المقیمین بالقاهرة بأن یطلعوا الى القلعة فی كل یوم

اثین وخیس ، ویعطوا الخدمة للأسیاد — أولاد السلطان — فصار الأمراء بعد توجه السلطان یطلعون الى القلعة ویجلسون علی باب الستارة ، ویخرج الیهم ابن السلطان الأمیر علی — وكان أكبر أولاد السلطان — فیجلس مع الأمراء ساعة لطیفة علی باب الستارة ، ویحضر لهم السكر فیشربون ویصرفون ، واستمروا علی ذلك مدة سیرة .

وكان السلطان الملك الأشرف شعبان لما قصد التوجه الى الججاز الشریف ضبط أمور المملكة قبل خروجه ، وأخذ معه من الأمراء من كان یخشى أمره ، وترك بالقاهرة من الأمراء من كان یركن الیه ، وظن أن الأمور قد استقامت له واقتدى بما فعله من رأیه كما قیل :

یا حاسبا لأمر تعتریه ، لقد

حسبت شیئا وغابت عنك أشياء

فلم یتم بذلك مراده ، وجنى علیه اجتهاده ، كما قیل :

اذا لم یکن عون من الله للفتی

فأول ما یجنى علیه اجتهاده

فلما رحل السلطان من بركة الحاج ، ورجع كل أحد الى بیته — وكان یوم السبت ثالث ذی القعدة — وثب جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرمیلة . وكان القائم فی ذلك الأمیر طشتمر المحمدی المعروف باللفاف أحد الأمراء العشراوات ، والأمیر قرطای الطازی أحد رءوس النوب ، والأمیر أستندمر الصرغتمشی ، والأمیر اینبك البدری — ولم یکن فیهم أمیر مقدم ألف .

فلما طلعا الى الرمیلة التف علیهم جماعة كثيرة من الممالیک السیفیة وممالیک الأسیاد ، فهجموا

كلهم وصلعوا الى القلعة ووقفوا على باب الستارة ودفوا الباب ، فخرج اليهم الأمير مثقال الجمالى الزمام ، والأمير جليان اللالا ، والأمير قطلوبغا جركس اللالا ، فقالوا للممالك : « ما الخير ؟ » ، فقالوا : « قد سمعنا أن السلطان لما وصل الى العقبة وثب عليه الممالك وقتلوه . فأخرجوا إلينا الأمير على حتى نسلطنه » ... ولم يكن لهذا الكلام صحة ، ولكن كان الفأل بالمنطق كما يقال فى المعنى :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

فلما سمع الأمير الزمام ذلك توقف ساعة ، فأغلف عليه الممالك فى القول ، وعينوا له القتل . فلما رأى منهم الجدد دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير على ابن الملك الأشرف شعبان ، فجلس على باب الستارة ساعة ، ثم توجه الممالك الى الأمير أيدير الشمسى نائب الغيبة وأحضروه الى القلعة ، فلما حضر أخذوا الأمير عليا ، وتوجهوا به الى الايوان الكبير ، وأجلسوه على سرير الملك ، وقبلوا له الأرض ، ثم أرسلوا خلف من كان فى القاهرة من الأمراء فطلعوا الى سوق الخيل ، فطلبوهم ليطلعوا القلعة فأبوا من ذلك ، فركبوا الأمير عليا ونزلوا به الى باب السلسلة ، وجلس فى الحزاة التى فى الاسطبل السلطانى ، ونادى لسائر الأمراء بأن يطلعوا الى باب السلسلة ، فطلعوا فحلفوهم ، وقبلوا للأمير على الأرض ، ولقبوه بالملك المنصور .

ثم ان الممالك أمسكوا فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء العشراوات وهم : الأمير طشتير الصالحى ، والأمير بلاط السيفى الجاى ، والأمير حطط اليلبغاوى أحد رؤوس النوب ... فلما قبضوا

عليهم سجنوهم بالقلعة ثم قالوا لوالى القاهرة : « ناد فى المدينة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور على » ... فنزل الوالى ونادى بذلك فى القاهرة ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث ذى القعدة من السنة المذكورة .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك ، والناس مائية فى بعضهم ، اشتاعت الأخبار بين الناس بأن شخصا من الممالك السلطانية قبض على شخص من الممالك الذين كانوا فى الحجاز يقال له فازان اليرقشى من جملة الأمراء الأخورية ، وكان صحبة السلطان ، فوجدوه فى المدينة وهو متنكر ، فقبضوا عليه وأحضروه الى الأمير أيدير الشمسى نائب الغيبة ، فسأله عن سبب ذلك وحضوره الى القاهرة ، فمنع فى الكلام ، وتلجلج بلسانه ، فعراه الأمير أيدير وأراد توسيطه ، فقال له : « امهلنى حتى أخبرك بما جرى هناك » ... فألبسه أثوابه وقال له : « احك » . فقال : « لما وصل السلطان الى العقبة دخلها فى يوم الثلاثاء وأصبح فى يوم الأربعاء ، وقف عليه جماعة من الممالك السلطانية وطلبوا منه العليق ، فقال لهم اصبروا الى الأزل ، فرجعوا وهم على غير رضا منه . فلما مد السماط لم يحضر من الممالك السلطانية أحد ، فظهر للسلطان منهم الغدر . ثم ان الممالك توجهوا الى جماعة من الأمراء — منهم الأمير طشتير العلائى الداودار الكبير ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير صراى تمر المحدى ، والأمير قطلقتير العلائى الطويل — فاتفقوا معهم على الوثوب على السلطان ...

« فلما كان يوم الخميس ركب هؤلاء الأمراء على السلطان ، والتف عليهم جماعة كثيرة من ممالك الأسياد ، فلما تحقق السلطان ذلك ركب هو وجماعة من الأمراء — منهم الأتابكى أرغون

شاه الأشرفي ، والأمير صرغتمش الأشرفي أمير سلاح ، والأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب ، والأمير بيبغا السابق ، والأمير يلبغا الناصري ، والأمير أرغون كنتك — فركب هؤلاء الأمراء مع السلطان ووقعوا مع المماليك هناك واقعة عظيمة ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وانكسر السلطان ومن معه من الأمراء وهربوا الى نحو عجرود .

فلما سنع الأمير الشمسي بذلك ركب ، هو والأمير أستدر الصرغتمشي ، والأمير طولو ، وجماعة من الأمراء السلطانية ، وتوجهوا الى نحو بركة الحاج ، فتلاقوا هم والأمراء الذين كانوا بصحبة السلطان في العقبة . فلما تلاقوا معهم لم يجدوا السلطان صحبتهم ، ولا الأتابكي أرغون شاه ، ولا الأمير يلبغا الناصري ... فوقعوا هناك في بعضهم وقتلوا الأمراء الذين حضروا من العقبة ، وقطعوا رؤوسهم ودخلوا بها الى القاهرة ، وعلقوها على باب القلعة .

هذا ما كان من أمر الأمراء . وأما ما كان من أمر السلطان الملك الأشرف شعبان فانه لما هرب بعد الكسرة من العقبة قال له محمد بن عيسى شيخ العائد : « آخذك وأتوجه بك من هنا الى غزة فتقيم بها حتى تتسامع بك العساكر ، وتجتمع عليك العرب ، وترجع الى القاهرة ، وتأخذ الملك بالسيف » ... فوافقه السلطان على ذلك ، فبنيه الأتابكي أرغون شاه من ذلك .

ثم انه دخل الى القاهرة وهو مختف ، فبات تلك الليلة في تربة في الصحراء الى آخر الليل ، ثم قام من هناك الى حارة الجودرية واختفى عند امرأة يقال لها آمنة زوجة ابن المشتولي — وكانت من عيال أم السلطان — فخافت من عقبى ذلك على نفسها من القتل ، فان الأمير أيدير الشمسي نائب السلطنة نادى في القاهرة : « كل من وجد

السلطان الملك الأشرف شعبان في بيته ولا يقربه ، يشنق على باب بيته » ... فلما سمعت آمنة المذكورة ذلك توجهت الى الأمير أينبك البدرى وقالت له : « ان السلطان مختف عندي في البيت » .

فلما سمع الأمير أينبك بذلك أرسل معها مائة مملوك ملبسة ، ومعهم أمير يقال له الطنبغا السلطاني ، فتوجهوا الى الجودرية وكبسوا على بيت آمنة زوجة ابن المشتولي . فلما أحاطوا بالبيت هرب السلطان وطلع الى سطح البيت ، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه أحدا ، فطلعوا الى السطح فوجدوا السلطان مختفيا في الباذنج — وهو بطاق القميص — فقبضوا عليه ، والذي كان خائفا منه وقع فيه ، كما قيل في المعنى :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا

فلما دهنتي لم تزدني بها علما

فلما قبضوا على السلطان نهبوا جميع ما كان في البيت ، ثم أركبوا السلطان فرسا وهو مغطى الوجه ، فطلعوا به الى القلعة بعد المغرب ، وتسلمه الأمير أينبك البدرى . ولما دخل الليل خلا الأمير أينبك بالسلطان وبات في تلك الليلة يعاقبه ويقرره على الأموال والذخائر .

فلما كانت ليلة الثلاثاء دخل چركس — مملوك الأتابكي الجاي اليوسفى ، وكان في قلبه من السلطان من أيام أستاذة الجاي شيء — فتسلم السلطان وخنقه بوتر حتى مات ، ثم وضعه في قفة وكسر ظهره وخيط بلاسى وأرسله تحت الليل على حمار ورماه في بئر عند باب الزغلة .

وكانت قتلته في ليلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة . ومات وله من العمر نحو أربع وعشرين سنة . وكان مولده في سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية أربع عشرة سنة

وشهرين ويوما . وزال عنه الملك كأنه لم يكن .
فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير . وقد قيل
في المعنى :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض

على الماء خاتته فزوج الأصابع

ثم ان الملك الأشرف شعبان لما رموه في البئر
كما تقدم ، أقام فيها أياما فظهرت رائحته وطف
على الماء ، فمر به بعض الطواشية ، فلما تحقق
أنه السلطان صبر حتى دخل الليل ، وأحضر له
تابوتا وطلعه من البئر وجعله فيه وأتى به الى
مدرسة والدته التي في التبانة ، فغسله هناك وكفنه
وصلى عليه ، ثم دفنه في القبة التي تجاه
المدرسة .

وكان الملك الأشرف شعبان من محاسن الزمان
في العدل والحلم ، وكان ملكا هينا لينا محبا
للناس منقادا للشريعة ، ويعب أهل العلم ويحسن
لهم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء
والمساكين ، وكان محسنا لأقاربه وأبناء عمه بخلاف
من تقدمه من بنى قلاون . وكانت الدنيا في أيامه
هادئة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية
وفساد العرب . وساس الناس في أيام دولته أحسن
سياسة ، وكانت الناس راضية عنه حتى مات
رحمه الله . وقد قال فيه القائل :

للك الملك الأشرف السلطان سيدنا

مناقب بعضها يبدو به العجب

له خلائق بيض لا يغيرها

صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

ولما مات الأشرف شعبان خلف من الأولاد ستة
ذكور وسبع بنات . فأما المذكور فسيدي على الذي
تسلطن بعده ، وسيدي أمير حاج الذي تسلطن بعد
أخيه على ، وسيدي قاسم ، وسيدي محمود ،

وسيدي اسماعيل ، وسيدي أبو بكر . وولد له
بعد موته سيدي أحمد الذي من خوند سمراء .
وأما فتوحاته من المدن فمدينة سويس ، ومدينة
منجار ، ومدينة دوركي .

وأما ما أنشأه في القاهرة من العمارات فالمدرسة
التي كانت في رأس الصوة تجاه الطبلخانات
السلطانية ، والقاعة الأشرفية التي بالقلعة داخل دور
الحرم . وله غير ذلك آثار كثيرة وتذكارات .

وكان في أيامه جماعة كثيرة من أولاد الناس
طبلخانات وأمرأ عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فالأمير على بن منجك
اليوسفي ، والأمير أحمد بن يلغا العمري ، والأمير
عبد الله بن بكتمر الحاجب ، والأمير موسى بن
دندار ، والأمير قرطقا بن صوصون ، وأمير حاج
ابن مغلطاي ، والأمير محمد بن تنكز بغا .

وأما من كان منهم من أمراء العشراوات فمنهم
الأمير أبو بكر بن سنقر الجمالي ، والأمير أحمد
ابن محمد بن قطلوبغا المحمدي ، ومحمد بن سنقر
المحمدي ، والأمير خضر بن عمر بن أحمد ابن
الأتابكي بكتمر الساقى .

وكان من أولاد الناس في أيامه جماعة كثيرة
لواب في البلاد الشامية .

وبالجملة ان الملك الأشرف شعبان كان آخر
بنى قلاون في الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة ، وكان
عارفا بأحوال أمور المملكة ، حسن التدبير ، ماشيا
على القواعد المرضية ، مستجلبا لخواطر الرعية .
وكان حسن الشكل ، سخي النفس ، شجاع
القلب ... ولكن خافه الدهر ، وسطا عليه بالقهر ،
فماجله المنون ، وخابت فيه الظنون .

هذا ما كان من أمر الملك الأشرف شعبان بعد
رجوعه من العقبة . وأما ما كان من أمر الأمراء
الذين خامروا على السلطان في العقبة ، فانه لما

هرب السلطان من هناك اجتمعوا ودخلوا على
ال خليفة المتوكل على الله محمد - وكان قد سافر
صحبة السلطان هو والأربعة قضاة - فقالوا له :
« تسطن ... أنت أحق بالسلطنة » . فامتنع من
ذلك غاية الامتناع ، وطال بينه وبين الأمراء الجدل
فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا مع الحجاج
الأمير بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، فتوجه
صحبة المحمل مع الحجاج وساروا ركبا واحدا .
ثم ان الأمراء أخذوا الخليفة والقضاة الأربعة
وقصدوا التوجه الى الديار المصرية ، وصحبته
حريم السلطان الملك الأشرف شعبان . ثم ان
القضاة سألوا فضل الأمراء أن يزوروا بيت
المقدس ، فأنعموا لهم بذلك ، وأرسلوا معهم
جماعة من المماليك السلطانية ، فتوجهوا من هناك
الى بيت المقدس .

فلما وصل الخليفة والأمراء الى عجرود جاءت
الأخبار بما جرى فى القاهرة من قتل السلطان
وسلطنة ولده الأمير على .

ومن غريب الاتفاق أن اليوم الذى خامر فيه
المماليك وركبوا على السلطان فى العقبة ، وافق
اليوم الذى ركب فيه الأمراء بالقاهرة وسلطنوا
سيدي عليا ابن السلطان . فلما سمعوا ذلك
ووصلوا الى بركة الحاج جاءت الأخبار بذلك الى
القاهرة ، وتوجه اليهم جماعة من الأمراء والمماليك
السلطانية ، فوقعوا معهم عند المطرية ، فانكسر
الأمراء الذين جاءوهم من القاهرة ، وساق خلفهم
الأمير قطلقتمش العلانى الطويل الى رأس الصوة ،
فتكاثروا عليه المماليك السلطانية حتى أمسكوه
وحضروا به الى نائب السلطنة فلم يشوش عليه ،
ثم دخل الأمير طشتير الدوادار الكبير واختفى فى
تربة فى الباب المحروق ، فتم عليه الغلمان ، فجاءوا
اليه وقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه الى نعر

الاسكندرية ، وقبضوا معه على جماعة من الأمراء
ونفوهم الى الاسكندرية ، وخمدت الفتنة وسكن
الاضطراب ، واستمر سيدي على سلطانا كما
سيذكر ذلك فى موضعه .

ولما مات الأشرف شعبان رثاه القيم خلف
الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال :

عن منازل طالع القلعة
كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريخ

كسوف شمس انتقل شعبان

صار محرما يوما لما
صفر المنزل من الأشرف
وادخر منار بيعى عيش
وجسادين فتكهم أسرف

ورجب فيه الملك شعبان
دور المحمل ولا أشرف

رمضان صاموا وفى شوال
شال وذى القعدة بدا الحرمان
فيه جرت سيره لذى الحجة
ماجرت فى سائر الأزمان

قد فهمنا أصل ذى النوبة
بسباع ما جا من الأخبار
فى حصار شعبان وفى ضربوا
نوبتين والخنق بالأوتار
ولذا صار قلبنا موصول

بالهموم والعقل منا طار

وخروج السهم لو تشيب
فى القصب من داخل الأبدان

والسيوف غنت لرقص الخيل
والأنامل هزت العيدان

للحجاز لما نوى الأشرف
ورحل مع جملة العشاق

خامرت فيه من العسكر
ولرصد الغدر جو أجواق

قتلوه شره وتاريخو
للعراق والأصبهان الساق

وقد أضحي في الرمال مدفون
والذى ييه في طرب فرحان

صار محير والحمام في الدوح
ناح لفقدو باختلاف ألحان

الذخائر ذاهبة حين صار
واسطة عقد الجيوش غائب

والعقيق كنواقد اتخضب
بالدما حين هربو كارب

وسلوك الدر والياقوت
عقدها اتفرط من التيجان

وأصبح الجوهر يتيم بعدو
ودموع المين عليه مرجان

ذى الذى كان الملك ايدو
وايدهم في فرد زبديه

جوه بمسلة غدر مدفونه
وخيلول في السر مخفيه

وقلوب بالقلب مغسومه
وكبود بالغين مشويه

وأمرور مزورة لكن
قبل ما امقوه الهوان ألوان

طبخوا القدره وقد صاروا
حولها مستجمعين اخوان

في آتابك مصر كنت اعهد
قوم عزيزين جبر للمكسور

منهم أرغون وضرغتمش
والشهير بالسابقى المنصور

والأمير بشتاك مع الأفرم
بأمر من لو الحكم والمقدور

جا القضا عاجل خد الخمسة
وقد أضحي عزهم منها

هكذا الدنيا وقد قالوا
في المثل ما عزشى الا وهان

جياك بنصو ذ الملك لما
جا يصيب دستو عليه مقلوب

وأخذ فيكو سريع شامات
وانكشف رخو وصار مغلوب

هكذا في وقعة الدنيا
دست هذى المملكة المنصوب

ذا يكن راكب فرس عزوا
عاليه فرحان يعود في احزان

والذى في الحاشية بيدق
يتنقل حتى يصر فرزان

مصر وادى تيه وصارت غاب
وسكنوا ابراج حوت رفعه

وأماراتهم الذين كانوا
في هنا من قبل ذى الوقعه

للملك خلان وهم غزلان
وأسود وأقمار لهم طلعه

خفيت الأقمار من الأبراج
وخلا المسكن من الخلان

وعن الغاب غابت الآساد
وأقفر الوادى من الغزلان

ضم الأشراف قبر ليت شعرى
هو لقنديل نور ضياه جامع

أو صدف فيه خالص الجوهر
أو فلك فيه غاب قمر طالع

أو نقول غاب فيه أسد ضارى

أو جفير جواه حسام قاطع

أو كناس فيه أحسن الغزلان
أو حمى فيه أقرس الفرسان

أو جسد فيه روح من الأرواح
أو سواد مقلة وفيه اسنان

نسألك يا الله بجاء موسى
وبعيسى وأحمد المحبوب

غيث الأشراف واوهبوا رحمة
وعليه أفرغ صبر أيوب

فارق اذكرنا فراق يوسف
مثل ما أورثنا حزن يعقوب

والخيل منا غدا قائل
لخيلو حين يراه لهفان

في سفين الحزن بعدو نوح
واجر دمك في الحدود طوفان

نصر شعبان هم بالكامل
لعلى والحكم للقادر

نسألك يا حق يا عادل
كن لجيش المسلمين ناصر

وارزق العالم عمل صالح
واصلح الباطن مع الظاهر

واحمد الفتنا وطننا
لا تشتنا من الأوطان

وانصر المنصور على واعفو
عن أبيه الأشراف السلطان

يا من امسى مثل ما أصبح
في فرح بالجاء وكنز المال

قط لا تركن لذى الدنيا
واحذر احذر حالها ان حال

كم عزيز ذلته صار يطلب
جاء يجيه ماجاه ومالو مال

فالبس البس حلة التقوى
قبل لبسك شقة الأكوان

لا تفرك زينة الدنيا
كل ما تنظر عليها فان

آخر الثامن مع السبعين
بعد تاريخ سبعاية عام

يا غبارى قلت في الأشراف
نظم شاع في أقاليم مصر والشام

وانت في فن الزجل قيم
بدروج تشهد بها الحكام

وبتنظم النثر من فكرك
كم، وكم صنت من ديوان
والبديع لك صارت الفرسان
فيه رجال والقيمة أدوان
وفي أيامه توفي الشيخ نور الدين علي بن سعيد
المغربى الأندلسي، وكان من فحول الشعراء وله
شعر جيد، فمن ذلك قوله:

وا طول شوقى الى ثغور
ملاى من الشهد والرحيق
عنها أخذت الذى تراه
يعذب من شعري الرقيق

الملك المنصور على

هو الملك المنصور على، ابن الملك الأشرف
شعبان، ابن الملك الأمجد حسين، ابن الملك الناصر
محمد، ابن الملك المنصور قلاوون، وهو الثالث
والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار
المصرية. بويع بالسلطنة عند ما حضر أمير المؤمنين
المتوكل على الله من العقبة فبايعه بالسلطنة، ولبس
خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك، وجميع
الأمراء قبلوا له الأرض، وتلقب بالملك المنصور،
ونودي باسمه في القاهرة، وضج له الناس بالدعاء،
فلبس خلعة السلطنة من باب الستارة، وركب لابسا
شعار الملك والأمراء مشاة بين يديه، والقبة والطير
على رأسه، حتى وصل الى الايوان وجلس على
سرير الملك ساعة، ثم دخل الى القصر الكبير ومد
السماط في القصر وجلس عليه وهو لابس شعار
الملك — وكانت هذه عادة قديمة أن السلطان يوم

يتولى يمد في القصر سماطا ويجلس عليه وهو
بشعار الملك — فلما فرغ من الأكل خلع على المقر
السيفى أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى واستقر به
نائب السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير
أقتمر عبد الغنى، وخلع على المقر السيفى طشتمر
المحمدى الشهير باللفاف واستقر به أتابك العساكر
بمصر، وكان طشتمر المحمدى هذا أمير عشرة
فبقى أتابك العساكر في يوم واحد عوضا عن
الأتابكى أرغون شاه الأشرفى، وأنعم عليه ببركه
وماليكه، وكان ذلك في يوم الأحد سادس
ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وكان
السلطان الملك المنصور له من العمر يومئذ نحو
سبع سنين وأشهر.

فلما كان يوم الاثنين سابعه، عمل السلطان
الموكب، وخلع على من يذكر من الأمراء، وهم:
الأمير قرطاي الطازى، واستقر به رأس نوبة
النوب، ورسم له برك الأمير صرغتمش الأميرى
الأشرفى. وخلع على الأمير أستدر الصرغتمشى
الناصرى، واستقر به أمير سلاح. وخلع على الأمير
قطلوبغا البدرى، واستقر به أمير مجلس عوضا
عن ييلغا السابقى. ثم خلع على الأمير طشتمر
العلائى، واستقر به نائب الشام، ورسم له بأن
يخرج من القاهرة في يومه. وخلع على الأمير اياس
الصرغتمشى، واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن
طشتمر العلائى. وخلع على الأمير آينبك البدرى،
واستقر به أمير أخور كبيرا عوضا عن الأمير بهادر
الجمالى. وأنعم على الأمير بلاط السيفى الجاى
بتقدمه ألف، وكذلك الأمير دمرداش اليوسفى،
وكذلك الأمير يلغا النظامى، وكذلك الأمير الطنبغا
السلطانى.

وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بأمرىات
طبلخانات وأمرىات عشراوات.

فأما الأمراء الطبلخانات فهم بيقجا الجمالى ، وقطلوبغا البشيرى ، وقطلو بك النظامى ، وأحمد ابن التركمانى ، وقطلو تجاه أخو أينبك البدرى ، وتربغا البدرى ، والطنبغا المعلم اليلبغاوى ، وبلكتمر المنصورى ، ومقبر الرومى ، واستبغا الدارمى ، وأطلمش الطازى ، وأربغا السيفى جبغا ، وإبراهيم بن قلقتمر العلائى ، وعلى بن أقتمر عبد الغنى ، واستبغا النظامى ، وماتمور القلمطارى ، وأطلمش الأرغونى .

وأما العشراوات فمنهم : محمد بن قرطاي الطازى ، وخضر بن الطنبغا السلطانى ، ومحمد بن شعبان بن يلبغا العمرى ، وتكا الشمسى ، واستبغا المحمودى ، وطبيح المحمدى ، وتلكتمر المنجكى ، وأقبغا السيفى الجاى ، وچركس السيفى الجاى — وهو الذى خنق الملك الأشرف شعبان — ومقتمش السيفى يلبغا ، وطوغان العمرى الشاطر ، وخليل بن أستمر العلائى ، ورمضان بن صرغتمش الناصرى ، وأخوه حسن ، ويوسف بن شادى ، وخضر الرسولى ، وقطلوبغا أمير علم ، وسودون العثمانى شاد الزردخاناه ، وأستمر الشرفى ، ومنكلى بغا الطرخانى ، ومغلطاي الشرفى .

ثم نفى جماعة من الأمراء ، وأفرج عن جماعة منهم ممن كان فى السجن بشجر الاسكندرية من أيام الأشرف شعبان .

سنة تسع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٧ / ٧٨ م) :

ففيها فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر صفر عمل المقر السيفى قرطاي الطازى رأس لوبة النوب وليمة ، فأهدى اليه المقر السيفى أينبك أمير أخور ششن ، وعمل له فيه بنجا مرقدا ، فلما شرب منه الأمير قرطاي تبنج ونام حتى طلعت الشمس ، فركب الأمير أينبك البدرى ولبس آلة الحرب وطلع الى الرميلى هو ومماليكه ، والتف

عليه جماعة من الزعر والعياق ، فلما طلع النهار نزل السلطان المنصور الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلى ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حريبا ، فطلع بقية الأمراء واجتمع المماليك السلطانية ، فأقام الحرب بينهم عمالا الى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر .

فلما طار البنج من رأس الأمير قرطاي وصحا من سكره ، ركب واجتمع بالأمراء فأشاروا عليه بأن يرسل فيسأل فضل السلطان فى ذلك بأن يكون نائب حلب ، فأرسل يسأل السلطان فى ذلك ، فأرسل له السلطان خلعة بأن يكون نائب حلب ، ورسم له بأن يخرج من يومه ، فخرج وتوجه الى فعو سرياقوس ... فلما أن خرج الأمير قرطاي أمسك السلطان جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير قرطاي . ثم ان الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة أشار على السلطان بأن يقبض على الأمير أينبك البدرى .

فلما كان يوم الثلاثاء الثانى^١ والعشرين من صفر ركب الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة ليسير نحو المطرية ، فأرسل اليه الأمير أينبك البدرى هناك جماعة بخلعة وقال له : « توجه من هناك الى دمشق واستقر نائب الشام ، وان رجعت الى بيتك فى هذا اليوم قتلتك » ... فما وسع الأمير أقتمر الا الطاعة ، وتوجه من هناك الى الشام . فلما توجه الأمير أقتمر الى الشام ، عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير أينبك البدرى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف ، وقبض على الأمير طشتمر اللفاف ونفاه الى القدس بطلا ، ثم أفرج عن الأمير أقتمر عبد الغنى وأعادته الى نيابة السلطنة كما كان أولا عوضا عن الأمير أقتمر الصاحبى

(١) كذا فى الاصل . وهو يعنى « الثالث » .

الشهير بالحنبل ، وخلع على الأمير الطنبغا السلطاني واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير قطلوبغا البدرى ، وخلع على الأمير دمرداش اليوسفى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير قرطاي الطازى ، ثم نفى جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وأنعم على جماعة كثيرة من غيرهم باقطاعاتهم ، وخدمت هذه الفتنة .

ثم ان الأتابكى أئبىك البدرى وقع بينه وبين الخليفة المتوكل على الله أمور ، وخلعه من الخلافة وولى زكريا بن ابراهيم بن عم المتوكل على الله من غير مبايعة ولا عهد ، وتلقب زكريا بالمعتصم بالله ، وكانت ولايته من نوع التعصب على المتوكل ، واستمر الحال ساكنا .

ثم ان الأتابكى أئبىك أسكن جماعة من مماليكه فى مدرسة السلطان حسن ، وأسكن جماعة من مماليكه أيضا فى مدرسة الأشرف شعبان التى كانت فى رأس الصوة ، وصار يتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختار من ذلك . وكان له ولد صغير فأعطاء مقدمة ألف .

ولم يزل على ذلك حتى جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن النواب جميعا خامروا وخرجوا عن الطاعة . فلما تحقق الأتابكى أئبىك ذلك علق من يومه الجاليش السلطاني على الطبلخانات ، وعين الأمراء والعسكر الى التجريدة نحو بلاد الشام . ثم انه عرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج مسرعا على جرد الخيل ، وأخذ معه السلطان الملك المنصور عليا فى محفة ، وخرج فى تاسع عشر ربيع الأول من السنة المذكورة وتوجه الى هناك .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى السابع والعشرين من تموز من الشهور الرومية ، أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا شديدا برعد وبرق

حتى سال المطر كالغدران . ولما أراد السلطان أن يخرج الى التجريدة فصل الخليفة زكريا من الخلافة ، وولى محمدا المتوكل كما كان أولا ، وأخذ معه فى التجريدة ، فكانت مدة الخليفة زكريا فى الخلافة عشرين يوما لا غير ، وأعيد المتوكل الى الخلافة كما كان . فكانت خلافة زكريا كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم .

فلما رحل السلطان من القاهرة ووصل الى بليس رجع الى القاهرة على حين غفلة . وكان سبب ذلك أن الأمير قطلوفجاء — أخا الأتابكى أئبىك البدرى — كان فى الجاليش قدام العسكر ، فبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية قصدوا أن يكبسوا عليه ليقتلوه ، فهرب تحت الليل هو وثلاثة من الأمراء ودخلوا الى القاهرة . فلما تحقق أئبىك ذلك ، وأن العسكر قد انقلبوا عليه ، أخذ السلطان الملك المنصور عليا ورجع الى القاهرة فطلع السلطان الى القلعة وقد ماجت المدينة وكثر القال والقال بين الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر من السنة المذكورة رجع الأمراء والعسكر الذين كانوا صحبة السلطان فدخلوا الريدانية ، وهم على حمية ، فلبسوا آلة الحرب من وقتهم واجتمعوا فى سوق الحيل . وكان العسكر جميعهم مقلوبا على الأتابكى أئبىك البدرى . فلما تحقق أئبىك أن الركبة عليه ، نزل من القلعة هو وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية فوقعوا مع العسكر الذين فى الرميعة ، فكان بينهم واقعة عظيمة حتى جرى الدم مثل الماء ، فانكسر الأمير قطلوفجاء أخوه الأتابكى أئبىك ، وقبضوا عليه . فلما رأى الأتابكى أئبىك ذلك ساق فرسه وهرب من باب القرافة وتوجه الى نحو الكيمان التى بمصر العتيقة ، فساق خلفه الأمير أيدير الخطائى مع جماعة من الأمراء والمماليك

السلطانية فأدركه ، فنزل عن فرسه ورمى ملابسه بين الكيمان وهرب وهو ماش فاخفى هناك .

فلما هرب أينبك طلع الأمراء الى باب السلسلة ، وصار المتحدث يومئذ في أمور الملكة المقر السيفى قطلقتمر العلأى الطويل ، فملك باب السلسلة وأقام بها ، فاجتمع الأمراء وضربوا بينهم مشورة ، وطلعوا الى باب السلسلة ، وقبضوا على الأمير قطلقتمر العلأى وقيدوه .

ثم في صبيحة يوم الأحد ظهر الأتابكى أينبك في مكان في كوم الجارج ، فأرسل الأمير يلبغا الناصرى فقبض عليه وقيدوه ، وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن العطار المصرى رحمه الله :

من بعد عز قد ذل أينبكا

وانحط بعد السمو من فتكا

وراح يبكى الدماء منفردا

والناس لا يعرفون أين بكى

فلما توجه أينبك الى السجن جرى له ماجرى ، واتفق مع الجماعة من الأمراء .

وأينبك هذا هو صاحب الدرب الذى في السبع سقايات .

ثم ان جماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وافتتنوا في بعضهم ، وكان رأس الفتنة الأمير برقوق العثمانى ، والأمير بركة الجوبانى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير بورى الحلبي الأحمدي — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير أقبغا أمن الشيخونى ... فاتفق هؤلاء الأمراء مع جماعة من الأمراء ، فانكسر منهم طائفة وهم : الأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير تمرباى الحسينى ، والأمير قطلوبغا الشعبانى ، والأمير

دمرداش اليمان تمرى العلم ، والأمير أستدمر العثمانى ، والأمير يجمان العلأى أمير مشوى ، والأمير استبغا التلكى . فلما انكسر هؤلاء الأمراء ، قبضوا عليهم وقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بشعر اسكندرية .

ثم ان الأمير يلبغا الناصرى أقام في باب السلسلة ، وملك الاسطبل السلطانى ، وصار يحكم فيه بين الناس . فاستمر على ذلك سبعة أيام فلم يطق ذلك الأمير برقوق والأمير بركة ، فهجموا على الأمير يلبغا الناصرى وقت الظهر ، وأنزلوه من باب السلسلة الى بيته فأقام به .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على المقر بركة واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير الطنبغا السلطانى .

ثم أرسل خاصكيا مطردا على جرد الخيل ليحضر المقر السيفى طشتمر نائب الشام ، فلما حضر خرج السلطان الى تلقيه وسائر الأمراء ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أينبك البدرى .

ولما أن حضر الأمير طشتمر نائب الشام حضر صحبته جماعة من الأمراء الذين كانوا بدمشق وهم : الأمير تمرباى الدمرداش ، والأمير تغرى برمش العلأى ، والأمير سودون الشيخونى ، والأمير طقتمش اليلبغاوى . فلما حضروا أنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف ، وخلع على الأمير تمرباى الدمرداش واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير دمرداش اليوسفى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا مسجونين بشعر الاسكندرية ، وهم : الأمير سودون المنجكى ، والأمير قطلوبغا

البدرى ، والأمير الطنبغا السلطاني ، والأمير اياس
الصرغتمشي ، والأمير قطلو بغا البشيرى ، والأمير
أصبغا الناصرى الصارمى — وهو صاحب الحوض
المنسوب اليه — وغير هؤلاء جماعة كثيرة ممن
كان منفيًا فى البلاد الشامية وغيرهم .

وفيهما — فى ثالث عشر شوال — توجه الأمير
بلاط السيفى الجاى أمير حاج الى نحو الربيع
بشبرمنت . فلما أقام هناك أرسل اليه السلطان
خلعة ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس يستقر بها
فأجاب بالسمع والطاعة ، وخرج من هناك
من يومه . فلما وصل الى غزة رسم له بأن يقيم فى
القدس بطالا .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير
يلبغا الناصرى واستقر به أمير سلاح عوضا عن
بلاط السيفى الجاى .

وفيهما ثارت فتنة بين ممالك الأتابكى طشتمر
وبين ممالك الأمير الزينى بركة الجيوبانى ،
فلبسوا آلة الحرب وتقاتلوا فى الرملة أشد القتال .
فلما طال الأمر بينهم ركب الأتابكى طشتمر بعد
العصر وطلع الى باب السلسلة عند المقر السيفى
برقوق أمير أخور كبير . فلما طلع اليه قبض عليه
وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية هو
وأمير حاج بن مغلطاي .

فلما مضى ذلك عمل السلطان الموكب وخلع على
المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أتابك
العساكر بمصر عوضا عن طشتمر العلأى ، وخلع
على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أمير
أخور كبير عوضا عن برقوق . ثم ان الأتابكى
برقوق قبض على الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ،
وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على المقر

السيفى اينال اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا
عن يلبغا الناصرى .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى ليلة الأحد
الخامس والعشرين من ذى الحجة وقع حريق بظاهر
باب زويلة عند باب دار التفاح ، فاحترق دار التفاح
والربع الذى كان حوله ، ووصلت النار الى
البراذعين ثم الى الموازين ، ولولا سور القاهرة
لاحترق نصف المدينة فى تلك الليلة . فلما زاد الأمر
ركب الأمير بركة والأمير أيتمش البجاشى ، والأمير
قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير تغرى برمش
حاجب الحجاب ... فاجتمعوا هناك هم ومسايلكمهم
وأخذوا السقائين من بيوتهم وصاروا يطفئون النار
وهى لا تزدد الا وهجا واشتعالا ، فأقامت النار
وبات الناس على وجل من ذلك ، وأعيوا عن
اطفائها ، فأقامت على ذلك يومين بلياليهما والناس
مائية على بعضها . وفى ذلك يقول الشيخ شهاب
الدين بن العطار فى المعنى :

أرتنا دار تفاح بليلى

حريقا وقده أمسى عظيما

ونالت بعد ذاك النور نارا

وكانت جنة فغدت جحيما

وقال الشيخ زين الدين بن حبيب الحلبي :

يباب زويلة وافى حريق

أزال معانى الحسن المصون

ودمر كل عال من بناء

وصير كل عال مثل دون

وعبرة عبرة الرائي أجسرى

يقينا كالعيون من العيون

وما برح الخلائق فى ابتهاال

لمحي الأرض من بعد المنون

الى أن قال فى لطف خفى

وفضل عناية : يا نار كونى

فاحترق في ذينك اليومين أكثر من خمسمائة دار
ودكان ، حتى لطف الله تعالى وانطفأت النار .

سنة ثمانين وسبعمائة (١٣٧٨ / ٧٩ م) :

فيها - في سادس ربيع الأول - قبض الأتابكي
برقوق على جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير الطنبغا
العلائي ، والأمير قطلوبغا أمير علم ، والأمير استبغا
النلكي ، والأمير بلك الأحمدي ، والأمير غريب
الأشرفي ، والأمير جوبان الطيدمري ، والأمير ثمان
تمر العثماني ، والأمير فرطقا بن صوصون ، والأمير
يجمان العلائي أمير مشوى ، والأمير أقبغا بلشون
... فلما قبض على هؤلاء الأمراء قيدهم وأرسلهم
الى السجن بشعر الاسكندرية .

ومن الحوادث في هذه السنة أن في يوم الاثنين
رابع عشر شعبان ركب الأتابكي برقوق ليسيير
نحو المطرية ، وكان الامير بركة الجوباني مسافرا
في اقطاعه نحو البحيرة ، فاغتنم الأمير اينال اليوسفي
أمير سلاح هذه الفرصة ، فركب هو ومماليكه ،
ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، فتسامعت
به جماعة من الأمراء ، فركبوا وطلعوا الى الرميلة .
وكان الذين ركبوا مع الأمير اينال اليوسفي هم
الأمير سودون جركس المنجكي ، والأمير سودون
النوروزي ، والأمير صضلان الجمالي ، والأمير
جمق الناصري ، والأمير حطط ، وغير ذلك من
المماليك السلطانية ... فاجتمعوا في الرميلة .

ثم ان الأمير اينال اليوسفي حطم وطلع الى باب
السلسلة وجلس في الحراقة التي في الاصطبل ، ثم
انه فتح زردخانه الأتابكي برقوق وأخرج ما فيها
من السلاح ، ووجد بعض مماليك صغار من مماليك
برقوق فألبسهم آلة الحرب وأوقفهم على سور باب
السلسلة فقال الأمير سودون المنجكي للأمير اينال :
« دعني آخذ معي جماعة من المماليك وأخرج الى

برقوق وأقاتله حتى أن يرجع » ... فلم يوافقه الأمير
اينال على ذلك ، ولو فعله لكان صوابا .

فلما بلغ الأتابكي برقوق ذلك ، رجع من أثناء
الطريق ، ودخل الى بيت الأمير أيتش البجاشي ،
فقام الأمير أيتش وفتح زردخانه وألبس مماليكه
ومماليك الأتابكي برقوق ، وخرجوا على حمية ،
وطلعوا الى الرميلة ، فوقعوا مع الأمير اينال
اليوسفي والأمير سودون المنجكي وبقية الأمراء
واقعة قوية ، وقتل فيها جماعة من المماليك
السلطانية .

ثم ان برقوق حاصر باب السلسلة ، فلما رأى
مماليك برقوق الذين أقعدهم الأمير اينال على سور
باب السلسلة أستأذهم يحاصر باب السلسلة رموا
الأمير اينال بالنشاب وهو جالس في الحراقة ،
فجاءت نشابة في رقبة الأمير اينال فتأثر لها ، فقام
من وقته وهرب من باب الاصطبل الذي في باب
القرافة ، فاختفى هناك في بعض الترب ، فطلع
الأتابكي الى باب السلسلة وملكه ، وانقض ذلك
المجمع .

ثم في أواخر النهار قبض بعض المماليك على
الأمير اينال اليوسفي والأمير سودون المنجكي
وأحضرهما بين يدي الأتابكي برقوق ، فقيدهم
وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية . وفي ذلك
يقول ابن العطار :

قد ألبس الله برقوقا مهابته

نهار الاثنين في عز وتمكين

وراح اينال مع سودون وانكسرا

وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

وقوله أيضا فيه :

بغى اينال واعتقد الأمانى

تساعده فما نال المؤمل

ومد لأخذ برقوق يديه

ولم يعلم بأن الخوخ أسفل

وكان الأمير اينال صاحب الأمير بركة ، ولما جرت هذه الحركة كان الأمير بركة غائبا في البحيرة كما تقدم ، فلم يجد له اينال من ناصر ولا معين على ما جرى له . وفي ذلك يقول شهاب الدين بن العطار رحمه الله :

ما بال اينال أتى في مثل هذى الحركة
مع علمه بأنها خالية من بركة

ثم ان السلطان عمل الموكب وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير سودون جركس المنجكي والأمير سودون النوروزي ، والأمير صصلان الجمالي ، والأمير جمق الناصري ، والأمير قماري الخازندار ... فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بئر الاسكندرية ، فهذا ما كان من حوادث سنة ثمانين وسبعمئة .

سنة احدى وثمانين وسبعمئة (١٣٧٩ / ٨٠ م) :

فيها - في يوم الأربعاء سابع عشر صفر - أرسل الأمير بركة يقول للأتابكي برقوق ان الأمير أيتمش البجاشي ألبس مماليكه آلة الحرب ، وهو قاصد الركوب ، فاضطرب الأتابكي برقوق من ذلك وأرسل الى بيت أيتمش يكشف عن ذلك الخبر ، فلم يجد لهذا الكلام صحة ولا خبرا .

فلما بلغ الأمير أيتمش ذلك ركب وطلع الى الأتابكي برقوق في باب السلسلة . ثم ان برقوق أرسل يطلب الأمير بركة بأن يطلع الى باب السلسلة ويحقق ما ذكره في أمر أيتمش ، فأبى الأمير بركة من الطلوع الى برقوق ، فترددت بينهم الرسل ، والأمير بركة يمتنع من الصلح مع الأمير أيتمش . ثم ان الأتابكي برقوق أرسل الى الشيخ أكمل الدين الحنفي شيخ الخانقاه الشيخونية ، والى

الشيخ أمين الدين الخلوتي بأن يركبا ويتوجها الى الأمير بركة ويسعوا في الصلح بين الأمير بركة وبين الأمير أيتمش البجاشي ، فتوجه الأمير أيتمش صحبة الشيخين ودخلوا الى بيت الأمير بركة ، فما وسع الأمير بركة الا أنه خلع على الأمير أيتمش خلعة نخ ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فطلع الأمير أيتمش وقبل يد الأتابكي برقوق ، وخمدت الفتنة التي كانت .

فلما كانت ليلة الجمعة تاسع عشر صفر ركب جماعة من الأمراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميطة . وسبب ذلك أن الأمير بركة ألبس مماليكه آلة الحرب وقصد الركوب . فلما تحقق الأمراء ذلك ركبوا قاطبة ، وطنعوا الى الرميطة واضطربت الأحوال ، فعند ذلك أرسل الأتابكي برقوق خلف القضاة الأربعة ورسم لهم بأن يتوجهوا الى بيت الأمير بركة ، ويسعوا بينه وبين الأمراء في الصلح واخماد الفتنة ، فأصلح القضاة بينهم ، وتحالفوا وزال ما كان في خواطرهم من الحقد ، وطلعوا الى القلعة في يوم السبت ولعبوا الكرة والصولجان ، وأقاموا على ذلك مدة يسيرة والأمر مبنى على السكون .

فلما كان يوم الاثنين سابع ربيع الأول ركب الأتابكي برقوق ليسيير نحو المطرية ، وركب معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصيته . فلما رجعوا ، طلع الأتابكي برقوق الى باب السلسلة ، ورجع الأمراء الذين كانوا معه الى بيوتهم .

ثم ان الأتابكي برقوق جاءه ولد ذكر من سرية فسماه محمدا ، فلما كان يوم سابعه عمل له الأتابكي برقوق عقيقة ، واستدعى سائر الأمراء فلم يتأخر عنه أحد من الأمراء غير الأمير بركة الجوباني فانه لم يطلع اليه - وكانت قد دبت بينهما عقارب

الفتن — وكان الأمير بركة صاحب الأتابكى برقوق
صحية مؤكدة لا يعرف أحد ما بينهما ، فلا زال
الأمراء يرمون بينهما الفتن حتى أوقعوا بينهما ،
وصار كل منهما عدوا لصاحبه ، كما قيل : « سئل
بعض الحكماء : كيف يمكن أن يبقى الصديق عدوا
ولا يمكن أن يبقى العدو صديقا ؟ فقال : لأن
تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب ، وتكسير
الزجاج أسهل من تصحيحه اذا كان مكسورا » ...

فلما تخلف الأمير بركة عن الطلوع الى الأتابكى
برقوق ، مد السباط ، وأكل الأمراء ونزلوا الى
بيوتهم ، فقبض الأتابكى في ذلك اليوم على ثلاثة
من الأمراء ممن كان من عصابة الأمير بركة — وهم :
الأمير قرا دمر داش الأحمدي ، والأمير طيح المحمدي
والأمير أقتمر العثماني — وأمسك معهم أخا الأمير
بركة ، وهو صراي الرحبي الطويل .

ثم ان الأتابكى برقوق ألبس مماليكه آلة الحرب
وأوقفهم على سور باب السلسلة ، ونزل الأمير
نزلار العمري وهو سائق الى مدرسة السلطان
حسن ، فدخلها مع مماليك الأتابكى برقوق ، فطلعوا
الى سطح المدرسة ، ورموا بالنشاب على الأمير
بركة وهو جالس في مقعده ... وكان الأمير بركة
ساكنا في بيت شيخو الذي عنده باب الرميطة .

فلما رأى الأمير ذلك ركب وخرج من الباب
الكبير الذي بحجرة البقر هو ومماليكه لأبسین آلة
الحرب — وكان معه بعض أمراء — فمر بالمدينة
وخرج من باب الفتوح وتوجه من هناك الى نحو
قبة النصر . ولما خرج الأمير بركة من بيته نادى
الأتابكى برقوق للعوام بأن يذهبوا بيت الأمير بركة ،
فأحرق العوام باب بيت بركة ، ودخلوا اليه ،
ونهبوا جميع ما كان فيه حتى أخذوا رخامه وأبوابه
وشبابيكه .

ثم ان الأمير بركة أقام في قبة النصر ذلك اليوم
فاجتمع عنده طائفة كثيرة من خشداشينه .

ثم ان الأتابكى برقوق عين الأمير ألان الشعباني
والأمير أيتمش البجاشي ، والأمير قرطاي التركماني
وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ، وتوجهوا
الى الأمير بركة في قبة النصر وقت الظهر ، فوقعوا
هناك معه واقعة قوية ، فكسرههم الأمير بركة
وسحبهم الى تحت القلعة فحال بينهما الليل عن
القتال .

فلما أصبحوا يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع
الأول نزل السلطان الملك المنصور على الى باب
السلسلة ، وجلس في المقعد المطل على الرميطة ،
وعلق الصنجق السلطاني ودقت الكاسات حربى ،
فاجتمع الأمراء والمماليك السلطانية ... فلما كان
وقت القائلة بعد الظهر أرسل الأمير بركة يقول
للأتابكى برقوق : « ايش أنت قاعد تعمل ؟ اما أن
تجيئني أو أنا أجيئك الى الرميطة » ... فأرسل يقول
له الأتابكى برقوق : « اختر أنت في أى مكان
نلاقيك ، ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء وتخدم
هذه الفتنة عن المسلمين » .

فلما سمع ذلك الأمير بركة حنق ، وكان السلطان
أرسل اليه خلعة وهو في قبة النصر بأن يستقر نائب
طرابلس ويتوجه من هناك ، فلم يوافق الأمير بركة
على ذلك ، واستمر القال والقال بينهما عمالا .

ثم ان بعض خشداشين الأمير بركة أشار عليه
بأن يركب في ذلك الوقت ويحطم الى الرميطة ، فان
العسكر الذين مع برقوق مقيلون في هذا الوقت
في بيوتهم ، والرميطة خالية من العسكر ، وكان
ذلك اليوم شديد الحر ... فركب الأمير بركة في
ذلك الوقت وقسم العسكر الذين معه فرقتين ، وأمر
فرقة أن تمنى من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة
تمنى الى الرميطة .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل جماعة من
الأمراء والمماليك السلطانية الى الفرقة التي فيها
الأمير بركة ، فلاقوه بين الترب فوقعوا معه هناك
واقعة قوية من بعد الظهر الى قرب المغرب ، فانكسر
الأمير بركة وهرب ، وتفرق من كان معه من
العسكر من شدة الحر .

ثم ان طائفة من المماليك سجدوا الأمير بركة حتى
تقنطر من على فرسه ، فقام وهرب وهو ماش حتى
اختفى .

وأما الفرقة التي أرسلها من تحت الجبل الأحمر
فانه كان فيها الأمير يلغا الناصري أمير سلاح ،
فتوجه اليه الأمير أيتش البجاشي ووقع معه ،
وتقدم اليه الأمير أيتش وضربه بطبر كان معه على
وجهه فسقط الى الأرض مغشيا عليه وانكسر من
كان معه من العسكر ، فذهب الزعر العسكر الذين
كانوا مع يلغا ، وقتل من المماليك الذين كانوا
معه ما لا يحصى ومن الغلمان كذلك ، فأخذ الأمير
أيتش صنجق يلغا الناصري وطبلخاته وأتى بهما
الى الأتابكى برقوق ، وقبض على جماعة كثيرة من
المماليك السلطانية ممن كان راكبا مع الأمير بركة .
وجرح في هذه الواقعة من العسكر والغلمان ما لا
يحصى .

وقيل : لما هرب الأمير بركة اختفى في بستان
حتى دخل الليل — وكان معه شخص من الأمراء
العشراوات يقال له أقبغا ميوان — فتوجه الأمير
بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد
المقدس ، وكان مقيما في جامع المقس الذي في باب
البحر ، فاخفى بركة عنده ، فلما طلع النهار أرسل
الأمير بركة يعرف الأتابكى برقوق بأنه في جامع
المقس عند الشيخ محمد المقدس ، فأرسل اليه
الأتابكى برقوق في ساعته الأمير الطنبغا الجوباني ،
والشرفي يونس دوادار الأتابكى برقوق . فلما

دخلا عليه أخذاه وأركباه على فرس وطلعا به الى
القلعة ، فلما طلع قيده وأرسلوه الى السجن بشعر
الاسكندرية . وفي ذلك يقول ابن حبيب الحلبي :
يا ويحها من حالة وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة فيها أزلت بركة
وقال القيم خلف الغباري :

مصر صارت بعد انقباض في انشراح
وقلعها مزخرف والقصور
يا الهى احفظ لنا برقوق
واحرس الجند وانصر المنصور

جعل الله لكل وقعة سبب
وتقول لك سبب هذه الوقعة
بركه راد يعمل على أيتش
والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق
فأرسلوا له اخلع عليه خلعه

وبقى بعض ما بقى في النفوس
والليل ما اشتفى بغسل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين
وايش يفيد الحذر مع المقدور

أصلحوا بينهم نهار جمعه
وصفى ودهم وطابوا الجميع
جا أيتش عصابة الأمير برقوق
وبقى كل أحد لأمر مطيع
فمسك في نهار الاثنين طيح
ودمرداش الدوادار سريع

بركه حين سمع بذلك طلب
قبلة النصر خوف من المقدور
كان حذر حتى وقع في الشرك
والمثل قال ما يقع الا العذور

ولما وقعت هذه الفتنة أقامت أبواب مصر هي والأسواق مغلقة ثلاثة أيام حتى أمسكوا بقية الأمراء الذين ركبوا مع الأمير بركة ، وهم : الأمير قرا كشك اليلغاوى ، والأمير أيدير الخطائي ، والأمير سودون الطيقتري ، والأمير يلبغا المنجكي ، والأمير قرا بلاط الأحمدى ، والأمير قرا بغا أبو بكري ، والأمير تهربغا الشمسي ، والأمير كرك القرمي ، والأمير قطلو بك النظامي ، والأمير أقبغا صيوان ، والأمير طولوتغنو الأحمدى ، والأمير تنكز العشاني ، والأمير غريب الأشرفي ، والأمير الطنبغا الأرغوني ، وأمير حاج بن مغلطاي ، والأمير طوجي الحسني ، ويوسف بن شادي ... فلما أمسك هؤلاء الأمراء قيدوا وأرسلوا إلى السجن بغير الاسكندرية ، وأرسلوا طائفة منهم إلى نجر دمياط ، وطائفة منهم إلى قوص ، وراقت هذه الفتنة وخمدت .

ثم ان السلطان أفرج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا بالسجن معتقلين ، وأنعم عليهم باقطاعات من نفى من الأمراء عوضا عنهم ، واستمر الحال ساكنا .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من الشام بأن نائب الشام ييدير الخوارزمي خامر وخرج عن الطاعة ، ولما أن خامر قبض عليه عسكر دمشق وقيدوه وسجنوه بقلعة دمشق وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وأنه أخرج بركة وعياله من الشام وقصد الهرب إلى نحو بلاد التركمان ، فقبضوا عليه وسجنوه بقلعة دمشق إلى أن يفعل فيه السلطان ما يريد . فلما بلغ الأتابكي برقوق ذلك أرسل يطلب ييدير الخوارزمي إلى القاهرة ، وعين لذلك خاصكيا .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير ألان الشعباني ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن

يلبغا الناصري ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوباني واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير بركة الجوباني ، وخلع على الأمير ألان بغا العشاني واستقر به دوا دارا كبيرا ، وخلع على الأمير الطنبغا المعلم واستقر به رأس نوبة النوب ثاني .

ثم ان السلطان عمل الموكب الثاني وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم : الأمير چركس الخليلي واستقر به أمير أخور كبير . وخلع على الأمير كمشبا الأشرفي واستقر به شاد الشربخانات السلطانية . وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات عشرة ، منهم : أقبغا الناصري المعروف بالقندسي ، ومنهم تنكز بغا السيفي يلبغا ، ومنهم قطلوبغا الكوكاي فخلع عليه واستقر به حاجبا ، ومنهم الأمير سودون باق ، ومنهم طوجي العلائي وفارس الصرغتمشي ، وكمشبتغا الخاصكي ، وييرم العلائي ، وقوصون المحمدى الأشرفي ، وأقبغا الأجنبي ، وييرس الشان ترمي ، وغير ذلك من الأمراء جماعة كثيرة — منهم طبلخانات ومنهم عشراوات — فاستقامت الأحوال ، وسكن الاضطراب .

ومن الحوادث في هذه السنة أن جاءت الأخبار من البحيرة بأنه قد جاءت على دمنهور طائفة من العربان نحو خمسة آلاف انسان ، وكان كبير العربان يسنى بدر بن سلام ، فكبسوا على دمنهور ونهبوا أسواقها والبيوت ، وأخربوا عدة بلاد . فلما سمع الأتابكي برقوق بذلك عين في ذلك اليوم ثمانية أمراء مقدمين — وهم الأمير ألان الشعباني أمير سلاح ، والأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس ، والأمير أيتشش البجاشي رأس نوبة النوب ، والأمير مأمور القلمطاوي أحد المقدمين ، والأمير بلاط الصرغتمشي أحد المقدمين ، والأمير بهادر الجنالي ، والأمير نزلار العمري الناصري

أحد المتقدمين — فهذه ثمانية أمراء مقدمين .
وعين من الأمراء الطليخانات عشرة ، ومن الأمراء
العشراوات اثني عشر ، ومن المماليك السلطانية
نحو أربعمئة مملوك ، وأمرهم بأن يخرجوا من
يومهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى
من السنة المذكورة ، صلى الأمراء صلاة الجمعة
وخرجوا قاطبة مع العسكر ، وعدوا من بر مصر
الى الجزيرة ، فقاسى العسكر مشقة عظيمة في
التعدية حتى عدوا . فلما تكامل العسكر رحلوا
من الجزيرة وتوجهوا الى نحو البحيرة . فلما مضى
ثلاثة أيام حضر أمير أخور كبير أيتمش البجاشي
وأخبر بأن العسكر لما وصلوا الى البحيرة وضربوا
خيامهم وباتوا في تلك الليلة ، أراد العرب أن
يكسوا على العسكر وهم في الخيام ، فجاء
شخص من العرب الى الأمراء وأخبرهم بأن العرب
يقصدون أن يكسوا على العسكر وهم في الخيام
تحت الليل . فلما سمع الأمراء والعسكر ذلك
خرجوا من الخيام تحت الليل وأكمنوا كميناً بالقرب
من الخيام . فلما انتصف الليل هجم العرب على
الخيام فوجدوها خالية ليس بها أحد ، فرجع عليهم
الترك ولعبوا فيهم بالسيف ، وأحاطوا بهم فقتلوا
منهم نحو ألف انسان وأسروا منهم أكثر من ذلك
من نساء وصغار وبنات ، ولم ينج منهم الا القليل ،
وأخذوا جمالهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم
وأولادهم .

وأما بدر بن سلام كبير العربان فانه لما رأى
ذلك هرب تحت الليل الى نحو الجبال . فلما
حصلت هذه النصرة للعسكر قصدوا التوجه الى
نحو الديار المصرية ، فكان يوم دخولهم الى
القاهرة يوماً مشهوداً ، فدخلوا بالأسارى وهم في

(١) لم يذكر سوى سبعة .

زناجير ، والنساء في جبال وهن حاملات أولادهن
مشاة ، فلما حصل ذلك خرج أهل مصر جميعاً
للفرجة عليهم ، فكان لهم يوم عظيم في القصف
والفرجة عليهم .

وفي هذه الواقعة يقول القيم خلف الغباري هذه
القطعة الزجل :

باسم رب السما أبتدى فارج الهم والكرب
وينفد للذي حضر قصة الترك والعرب

* * *

جاء الخبر يوم الأربعاء بأن في ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خذوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حشد

* * *

فبرز أيتمش سريع بماليك وروس نوب
وعدد ما لها عدد ويطلبوا لهم طلب

* * *

والأماري المعينين كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح وغدا قصد للعدا
في المعادي رأيت لهم يوم زحام فايش غدا

* * *

لتروجا تروحوا واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام ولصيد العدا انتصب

* * *

حضروا ما التقوا أحد من جميع العرب حضر
وابن عرام أتى لهم بعثوه يكشف الخبر
ما عرف للعرب طريق بعد وجا عبدو في الأثر

* * *

لأيتمش حدثوا الصحيح قام سريع أيتمش ركب
ما ترك تركي في الوطاق والخيام حيل قد نصب

* * *

راحت الترك من مكان وأتى بدر من مكان
وتفرعن وجا الوطاق ولهم قال أنا فلان
ولموسى بن خضر صاح مات بطعنة من السنان

* * *

| | | | |
|------------------------|----------------------|-------------------------|---------------------|
| ورأى الترك داركوه | في طلوع النهار هرب | باب نزيه نزلت الدما | من ساليكه الجلب |
| شحتوا أيتمش سريع | ورقاب من معو ضرب | البحيره من القتن | سعدھا زال واختفى |
| واقعة حرب ذي العرب | لاغنا مالها نبا | وبقى فرحها حزن | وقد تكدر الصفا |
| بدر في الليل بعاديات | جا البلد والنسا سبا | والناس قالت ايش جرا | والذي قد جرى كفى |
| طلبوا النصر جالهم | مالهم في القصص سبا | قالوا من تحت راس بديره | مالو بتقلو قد اتتهب |
| في القتال كان لهم نهار | لو تراه ساعة اقترب | وبنات الخدور سبوا | قلت سبوه فهو السبب |
| يوم قيامه وكم عرب | جائية فيه على الركب | جا ابن سلام معو رجال | كل حد شهوتو رغيغ |
| جس ذي النوب بالسماع | قد فهمنا من الأصول | ذا على رقتو تفال | وذا في رقتو شليف |
| في الخروج ثابت العرب | فازت الترك بالدخول | وذا لو درع سيسبان | وذا لودرع خوص وليف |
| والسهم شبيت على | جس الأوتار بالغضب | والقسي قسي من نخيل | وخرائطهم الجعب |
| غنت البيض على الخود | رقصوا الخيل من الطرب | وصواريهم الجريد | وخودهم قصع خشب |
| وابن سلام مع الأجل | فاز بنفسو على فرس | فاعل النحاس في القياس | ما عرف صنعة البنا |
| والأمير أيتمش رحل | لتروجا سريع كبس | جا بنى شىء بلا أساس | هدت الترك ما بنى |
| في البيوت حارت النفوس | ما التقى حد لو نفس | وتروجا المعسره | خربت حين لها دنا |
| نبشوهم من الشون | قبوهم من القب | قلعوا أبوابها الجميع | والسكفات مع العتب |
| وخدوا فضة الجميع | وجميع مالهم ذهب | يسكوا بدر يعتبوه | وعليه يوقع العتب |
| وقع القتل في الرجال | وقد انتهك الحريم | بدر تبت يدا أباه | لصلاح النسا فسد |
| والذي كان مقيم رحل | ما عليها أحد مقيم | كم مليحه أمت وفي | جيدها جبل من سد |
| وكم انسان بسيف وقوس | ما عرف له هناك غريم | ولى قال شخص من حنين | بدر في ذي الذي قصد |
| جبد السيف من الجفير | ولراس من لقيه ضرب | أبو جهل قلت لا | الا قلبو أبو لهب |
| وان حماء مشترى النفاذ | سرعا بالقوس عليه عقب | قال لى وامر تو ايش تكون | قلت حمالة العطب |
| لما تروا السيوف دما | ساعة النحر في النحور | حسن غلب منى راجحى | وانكسر كسر ما انجبر |
| اعتقدت انها تحيض | صرت تعجب لذي الأمور | قالت أقوام يعد سوه | أنت قيم ديار مصر |
| قال فتى بابل اللحاظ | كيف يحضو وهم ذكور | جا الحكم طابقى وقال | يا غبارى جرى خبر |
| الا ذا ساحر القتال | أيتمش للسيوف كتب | لديار مصر قيين | في الزجل ذا يكن عجب |
| | | قلت ذا قيم السفه | وأنا قيم الأدب |

ان بعض المماليك شق بطنه بالسيف وأخرج كبده وجعل يمضغه من شدة حنقه . ثم ان بعض الناس جمع أعضاء خليل بن عرام ودفنها في مدرسته التي أنشأها عند قنطرة الأمير حسين بن جنادر على الخليج الحاكمي ... وصارت هذه الواقعة مثلاً عند أهل مصر ، يقولون : « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ...

وكان الأتابكي برقوق أرسل الى ابن عرام مراسيم في الدس بقتل الأمير بركة ، فأنكر برقوق ذلك وأرسل أخذ منه تلك المراسيم ، وراحت هذه الواقعة في رقبة ابن عرام وراح مظلوما في ذلك بين برقوق ومماليك الأمير بركة .

وقد قال بعضهم في المعنى :

مخالط السلطان في محنة

يرتقب الأوقات في عكسه

ان سره أسخط خلاقه

أوسبائه خاف على نفسه

وفي واقعة خليل ابن عرام يقول شهاب الدين بن العطار المصري رحمه الله :

بدت أجزاء ابن عرام خليل

مقطعة من الضرب الثقيل

وأبدت أبهر الشعر المرائي

محيرة بتقطيع الخليل

وقيل ان الشيخ يحيى الصنافيري والشيخ بهار ، بشرا عن خليل بن عرام أنه ما يموت الا مسرعا مقطعا . وقال المقرئ ان خليل بن عرام كان شرع قبل موته في كتابة تاريخ يذكر فيه أشياء من وقائع الأحوال ، فلما جرى له ماجرى قال فيه ابن العطار :

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهرا

وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

ومن الحوادث في هذه السنة قد جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير بركة الجوباني قد مات وهو بالسجن ، فأرسل الأتابكي برقوق دوا داره الشريفى يونس لكشف أخبار موته على حين غفلة . فلما توجه الشريفى يونس الى ثغر الاسكندرية وكشف عن ذلك ، وجد خليل بن عرام نائب الاسكندرية قد قتله ودفنه في بعض التراب هناك ، فنبش عليه الشريفى يونس وأخرجه من القبر فوجد ثلاث ضربات في رأسه وهو مدفون في ثيابه من غير غسل ولا تكفين ، فغسله الشريفى يونس وكفنه وصلى عليه ودفنه خارج باب رشيد وبني عليه قبة وكتب بذلك محضرا .

ثم انه أخذ خليل بن عرام صحبته وأتى به الى القاهرة وهو في الحديد . فلما حضر الشريفى يونس وطلع الى القلعة أودعوا خليل بن عرام في خزانة الشماليل وباتوا يعاقبونه ويعصرونه لأنه قد قيل عنه انه لما قتل الأمير بركة كان في رأسه فصوص مثنى فأخذها منه ، فلم يقر ابن عرام بشيء من ذلك .

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى رجب طلب الأتابكي برقوق خليل بن عرام فأخرجوه من خزانة الشماليل ، ومثل بين يدي الأتابكي برقوق ، فرسم بضربه بالمقارع فضرب ستة وثمانين شبيبا ثم رسم بتسميره ، فأخذه الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب والأمير قطلقتمير أمير جاندار ، فأحضر له جبلا ولعبه وسمروه عليه ، فلما نزلوا به من القلعة وهو مسر ، ووصلوا به الى باب السلسلة ، جاء اليه ممالك الأمير بركة وضربوه بالسيوف حتى مات ، ثم أنزلوه من على الجمل ، وصاروا يقطعونه بالسيوف قطعا ، فقطع بعضهم رأسه وأخذها وعلقها على باب زويلة ، وصار كل واحد من ممالك بركة يقطع من أعضائه قطعة ، وقيل

مازلت تجهود في التاريخ تكتبه

حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

ومن الحوادث في هذه السنة أن في يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة حضر من بلاد الجراكسة والد الأتابكي برقوق ، فخرج الناس لملاقاته قاطبة ، فلاقوه من العكرشة — وقيل هو المكان الذي التقى فيه يوسف الصديق مع أبيه يعقوب عليهما السلام — فلما تلاقى برقوق مع أبيه تعانقا ثم ركبا ورجعا الى سرياقوس ، فمد له برقوق هناك سماطا عظيما ، وأقاما في سرياقوس الى ما بعد الظهر ، فجاءت اليه سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى القضاة الأربعة .

ثم ان الأتابكي برقوق ركب من سرياقوس ودخل القاهرة ، فدخل من باب النصر ، وزينت له المدينة فشق من القاهرة وطلع الى القلعة .

وكان والد الأتابكي برقوق جركسيا مغلقا ، لا يعرف ولا كلمة بالعربي . وكان اسمه « أنص » ، وقيل « أنس » بالسين . فلما كان يوم الموكب تقدم أيدير الشمسي أحد الأمراء المقدمين وقبل الأرض ، وسأل الأتابكي برقوق بأن يكون طرخانا ويرتب له ما يكفيه ، وأن تكون امرئته الى والد الأتابكي برقوق ، فشكره الأتابكي على ذلك ورتب له ما يكفيه وجعله طرخانا كما طلب ، وأنعم السلطان بامرئته على والد الأتابكي برقوق ، فلم يقيم الأمير أيدير الشمسي بعد ذلك الا ثلاثة أشهر ومات ، واستمر والد برقوق مقدم ألف .

وفي هذه السنة شرع الأتابكي برقوق في عمارة جسر الشريعة الذي بطريق الشام عند قرية أريحا على النهر الذي هناك ، وجعل طوله مائة وعشرين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا ، فصرف على ذلك جملة مال ، وكان به نفع عظيم للمسافرين ، وقد قيل في المعنى :

أيا ملكا بنى جسرا بعدل

به حمل الأثام على الشريعة

له شرف على الجوزاء سام

وفوق الحوت أركان منيعة

وفي هذه السنة توفي الشيخ ابراهيم المعمار صاحب الأشعار اللطيفة والأبيات العامرة بالمحاسن والتورية ، وقد رثاه الشيخ برهان الدين القيراطي بهذه الأبيات فقال :

مذعر المعمار دار البلى رمى بيوت النظم بالنقض
فياله من شاعر ميت بكت عليه طوبة الأرض

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (١٣٨٠ / ٨١ م) :

فيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن سائر قبائل عربان البحيرة تحالفوا على العصيان ونهبوا البلاد ، فخرج اليهم ألان الشعباني أمير سلاح مع خمسمائة مملوك . فلما وصلوا اليهم وقع معهم ، فكسره العرب وقتلوا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية . فلما جاءت الأخبار بذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، وعلق السلطان الجاليش ، وقصد التوجه الى البحيرة . ثم ان بعض الأمراء أشار بعدم خروج السلطان ، وأن سائر الأمراء يخرجون اليهم ، فجاءت الأخبار عن ذلك بأن نائب الاسكندرية حضر هناك وصحبته عربان كثيرة من عربان الغريية ، فوقعوا مع العربان فكسروهم كسرة قوية وهربوا الى نحو برقة ، فبطل العسكر الذين كانوا قد توجهوا اليهم .

وفيها توفي الأديب أحمد سميكة ، وكان شاعرا ماهرا في طبقة ابراهيم المعمار ، ومن شعره قوله :
شهر الصيام مبارك لو لم يكن في شهر آب
خفت العذاب فصمته فوقعت في وسط العذاب

سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) :

فيها هجم الوباء بالديار المصرية ، ووقع الغلاء أيضا في تلك السنة .

وفيها حضر الى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الفاسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبى ، أعاد الله علينا من بركاته . فلما حضر عند الأتابكى برقوق ، وأقام عنده يومين ، بشره من نفسه بأنه سيلى السلطنة في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومما بشر به الناس أن بعد مضى شهر يرتفع الوباء من القاهرة ، ويتناقص الغلاء ، ثم يموت عقيب ذلك الملك المنصور على بن الأشرف شعبان .

وأقام الشيخ على الروبى في مصر أياما ثم توجه الى بلاده ، فما مضى قليل حتى أشيع بين الناس أن الملك المنصور عليا قد طعن وهو في حال العدم . فلما كان يوم الأحد ثالث عشرى صفر فيه توفى الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، وكانت وفاته بعد الظهر ودفن في يومه ، وتولى تجهيزه الأمير قطلو بغا الكوكاى ، فغسله وكفنه وصلوا عليه بالقلعة ودفنوه في مدرسة جدته خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان التى بالتبانة .

ومات الملك المنصور على وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنين وثلاثة أشهر ونصفا . وكان جميل الصورة ، حسن الشكل ، قليل الأذى في حق الرعية . وكان مع الأتابكى برقوق في غاية الضنك ، ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكى برقوق .

ولما مات الملك المنصور على لم يجسر برقوق أن يتسلطن بعده ، فأخرج سيدى أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن أخيه على .

الملك الصالح أمير حاج

هو الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد حسين ، ابن محمد بن قلاون ، وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويغ بالسلطنة بعد موت أخيه الملك المنصور على في يوم الاثنين رابع عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) . وتولى الملك وله من العمر نحو إحدى عشرة سنة . وكانت صفة ولايته أن أمير المؤمنين محمدا المتوكل حضر والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وسائر الأمراء ، فاجتمعوا عند باب الستارة وطلبوا من بقى من أولاد الملك الأشرف شعبان ، فوقع الاتفاق على تولية سيدى أمير حاج — وكان أكبر اخوته — فولوه السلطنة ولقبوه بالملك الصالح ، وأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها . وركب من باب الستارة والأمراء مشاة بين يديه حتى وصل الى الايوان ، فجلس على سرير الملك ، والأتابكى برقوق حامل القبة والطير على رأسه ، ثم دخل الى القصر ومد السباط ونادى باسمه في القاهرة وضج الناس له بالدعاء .

فلما تم أمره في السلطنة رسم بالافراج عن ييدمر الخوارزمى نائب الشام — وكان معتقلا بشعر دمياط — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب الشام على عادته .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الحلبية بأن طائفة من التركمان نهبوا بعض ضياع حلب وحصل منهم غاية الفساد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة ، وخرج اليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين وخمسمائة مملوك ، فلما توجهوا الى هناك التقوا

مع التركمان وكسروهم ، وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، ونهبوا أموالهم وطردهم الى ملطية ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم في غاية النصره .

وفيهما توفي الشيخ نظام الدين ، وهو صاحب النظامية التي بطاوق جبل القلعة .

ومن الحوادث في هذه السنة أن الأمير جركس الخليلي أمير أخور كبير حسن للأتابكي برقوق وجماعة من الأمراء أن يعمل جسرا ما بين الروضة وبين جزيرة أروى - وكان البحر قد احترق في تلك السنة احترافا زائدا - فحفروا في وسط البحر خليجا من الروضة الى الزريبة ، وشرعوا في عمل جسر طوله نحو ثلثمائة قصبة وعرضه عشرة أقصاب ، وجعلوا بظاهر هذا الجسر خوازيق سنط كل خازوق نحو من ثمانية أذرع ، وسمروا عليها أفلاق خشب نخل ورددوا عليها بالتراب ، وأجز العمل من هذا الجسر في نحو من شهرين . وكان مبتدأ ذلك في ربيع الأول سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وفي ذلك يقول الأديب عيسى بن حجاج :

جسر الخليلي المقر لقد رسا

كالطود وسط النيل كيف يريد

فاذا سألتهم عنهما قلنا لكم :

ذا ثابت دهرا ، وذاك يزيد

وقال ابن العطار رحمه الله :

راع الخليلي قلب الماء حين طغى

بنى عليه لذا جسرا وجبره

رأى ترمل أرضيه وحدتها

والنيل قد خاف يغشاها فجسره

فلما زاد الماء وبلغ ثمانية عشر ذراعا أكل ذلك

الجسر الذي تعب عليه الخليلي ، ولم يفد من ذلك

شيئا ، وزاد النيل في تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها ... وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

قد قطع النيل جسر مصر ولم يراعى له خليل
تياره صال مثل سيف يقطع والماله نصول

وفي هذه السنة زاد شر العربان في البحيرة حتى نهبوا المغل في البلاد . فلما بلغ الأتابكي برقوق ذلك عين لهم تجريدة فيها ستة أمراء مقدمين وخمسائة مملوك . فلما توجه الأمراء الى هناك هرب منهم العرب فغنم منهم العسكر نحو ثلاثة آلاف رأس غنم ، ومثلها جمال ، ومثلها معز ، فأخذ العسكر ذلك ورجعوا الى القاهرة .

ومن الحوادث في تلك السنة أن في يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان رقد الأتابكي وقت القائلة في البيت الذي بباب السلسلة ، وكان عنده شخص من الخاصكية يكبسه يقال له الشيخ الصفوى ، فلما أراد برقوق أن يستغرق في النوم اتكأ الشيخ الصفوى على جنبه بالقوى ، فقعد برقوق على حيله وقال : « ايش الخبر ؟ » ... فقال له الشيخ الصفوى : « ان مملوكك أيتمش الخاصكى اتفق معه جماعة من ممالك الأسياد أنهم يدخلون عليك في هذه الساعة ويقتلونك » ... فسكت برقوق ساعة ثم ان أيتمش المذكور دخل البيت على برقوق فقام اليه برقوق وأخذ قوس كباد كان الى جانبه وضرب به أيتمش ضربة فرمأه الى الأرض . فلما وقع قال له برقوق : « يا ... الذى يريد قتل الملوكة يقع الى الأرض من فرد ضربة ؟ » ... ثم قام برقوق وقبض عليه وسجنه في بعض أبراج باب السلسلة ، ثم خرج وجلس في المقعد الذى يطل على الرميلة وطلب بطا الأشرفى ، فلما طلع اليه قبض عليه وسجنه . ثم انه طلب تقيب الجيش وقال له : « در على الأمراء وقل لهم يطلعوا في

هذه الساعة ... فدار عليهم نقيب الجيش ،
فطلعوا الى باب السلسلة ، فلما تكاملوا وحضروا
بين يديه تلا عليهم ما بلغه عن ممالك الأسياد ،
وأخبرهم بما وقع له معهم ، فأشاروا عليه
بمسكهم ، فقبض في ذلك اليوم على خمسة وستين
مملوكا من ممالك الأسياد وأرسلهم الى خزانة
شبايل . وأما أيتمش الخاصكي وبطبا الأشرفي
فنفاهما الى الشام ، ونفى من أعيان ممالك
الأسياد الى قوص نحو من أربعين مملوكا .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان
من السنة المذكورة طلب الأتابكي برقوق الخليفة
المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ،
فلما اجتمعوا في باب السلسلة قام القاضي بدر
الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف في وسط
المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، وباسادات
القضاة ، ان أحوال الملكة قد فسدت ، وزاد
فساد العربان في البلاد ، وخامر غالب النواب في
البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير

مستقيمة ، وان الوقت قد ضاق ، ومحتاجون الى
اقامة سلطان كبير تجتمع فيه السكينة ويسكن
الاضطراب ... »

فتكلم القضاة مع الخليفة في سلطنة الأتابكي
برقوق ، فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من
السلطنة وسلطنوا الأتابكي برقوق .
ثم ان الملك الصالح أمير حاج دخل الى دور
الحرم عند اخوته . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه
على بالديار المصرية سنة وسبعة أشهر وأياما .
واستمر الملك الصالح مقيما في دور الحرم الى أن
عاد الى السلطنة مرة أخرى كما سيأتي ذكر ذلك
في موضعه .

وأمير حاج هذا هو آخر من تولى السلطنة من
ذرية بني قلاون ، وبه زال الملك عن بني قلاون
كأن لم يكن ... فسبحان من لا يزول ملكه
ولا يتغير .

وقد أقامت السلطنة في قلاون وذريته مائة سنة
وثلاث سنين وأشهر ، وزال عنهم الملك ...



دولة الجراكسة

على سرير الملك ، وفودى باسمه في القاهرة ،
وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص .
ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق أقامت القاهرة
سبعة أيام وهي مزينة ، والناس في فرح وسرور
بسلطنته .

وكان أصل الملك الظاهر برقوق من ممالك
الأتابكي يلبغا العمري الناصري ، جلبه الى مصر
الخواجه عثمان بن مسافر فاشتراه منه الأتابكي يلبغا
وأقام عنده مدة ثم اعتقه . فلما مات يلبغا وجرى
لمماليكه ما جرى ، هرب برقوق وتوجه نحو الشام ،
فخدم عند منجك نائب الشام ، فلما توفي منجك
صار برقوق من جملة ممالك السلطان . فلما كانت
دولة الأشرف شعبان بقي برقوق أمير عشرة ، ثم
بقي أمير أربعين ، ثم بقي مقدم ألف ، ثم بقي أمير
أخو كبير ، ثم بقي أتابك العساكر في دولة الملك
المنصور على ابن الأشرف شعبان ، ثم بقي سلطانا
بمصر بعد خلع الملك الصالح أمير حاج .

وكان برقوق من خلاصة الجراكسة ، فلما تم
أمره في السلطنة عمل الموكب وخلع فيه على من
بذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفي سودون
الفخري الشيخوني ، خلع عليه واستقر به نائب
السلطنة بمصر . وخلع على المقر السيفي أيتمش
البجاشي واستقر به أتابك العساكر عوضا عن
نفسه ، وخلع على المقر السيفي الطنبغا المعلم
واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفي
الطنبغا الجوباني واستقر به أمير مجلس ، وخلع
على المقر السيفي چركس الخليلي واستقر به أمير

الملك الظاهر برقوق

هو الملك الظاهر سيف الدين ، أبو سعيد
برقوق ابن أنص ، وقيل أنس ، العثماني الجركسي .
وهو أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ، وهو
الخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم
بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح
أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد
سيدي حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .
تولى الملك في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان
من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، الموافق لآخر يوم
من هاتور من الشهور القبطية . وفي حال جلوسه
على سرير الملك أمطرت السماء مطرا خفيفا ،
فاستبشر الناس بذلك .

وكانت صفة ولايته أنه لما صلى الظهر بايعه
أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بحضرة القضاة
الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ،
وهو الذي لقبه بالملك الظاهر ، لأنه تولى الملك
وقت الظهر . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة
السلطنة — وهي جبة سوداء ، وشاش أسود
ملفوف عمامة ، وللجبة طرز زركش وسيف بداوي
مقلد حمائل — فركب من الحراقة التي في باب
السلسلة ، والأمراء مشاة بين يديه ، والمقر السيفي
أيتمش البجاشي حامل القبة والطير على رأسه
الى أن طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس

أخو كبير على عادته ، وخلع على المقر السيفي
قردم الحسنى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع
على المقر السيفي قطلوبغا الكركائى واستقر به
حاجب الحجاب ، وخلع على المقر السيفي يونس
النوروزى داوداره واستقر به داودارا كبيرا .

ثم أنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ،
وأنعم على جماعة بأمريات أربعين ، وعلى جماعة
بأمريات عشرة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، وأنفق
عليهم نفقة السلطنة واستقامت أموره فى المملكة .

وكان من العادة أن السلطان اذا خرج من الباب
الى صلاة العيد تحمل القبة والطير على رأسه . فلما
تسلطن برقوق أبطل ذلك ثم قبض على جماعة من
الأمراء وأرسلهم الى السجن بشجر الاسكندرية ،
ونفى جماعة كثيرة من الممالك الأشرافية وحلف سائر
الأمراء لنفسه .

ودخل الرعب فى قلوب الرعية والعسكر منه
حتى كان العوام يقولون للفاكهانى : « عندك
شقيز ؟ » ... ولا يقولون « برقوق » تعظيما لاسمه .

ثم غير جماعة من قضاة القضاة ومن المباشرين
من أرباب الدولة ، منهم القاضى بدر الدين بن
فضل الله ... فصله من كتابة السر واستقر بالقاضى
أوحى الدين الخفى كاتب السر الشريف بمصر
عوضا عن ابن فضل الله ، وغير جماعة كثيرة من
المباشرين .

وفى هذه السنة عمل الخليلى جركس المراكطى
أمير أخور كبير طاحونة لطيفة تدور بالماء ، فوضعها
فى مركب ، وأوقفها عند المقياس ، فكانت تطحن
الدقيق من غير تعب ولا كلفة ، فكان الناس يخرجون
زمرا يتفرجون عليها . قال ابن العطار :

سر لطاحون الخليلى التى
تدور بالماء بصر حقيق

قد شنت من وصفها مسمى
لأنه من كل وجه دقيق

وفى هذه السنة توفى الشيخ يحيى الصنافيرى
رحمة الله عليه ودفن بالقرافة عند الشيخ أبى
العباس البصير .

سنة خمس وثمانين وسبعمائة (١٣٨٣ م) :

فيها قبض السلطان على الخليفة المتوكل على
الله محمد وقيده وسجنه فى البرج الذى بالقلعة .
وسبب ذلك أنه بلغ السلطان عن الخليفة ما غير
خاطره عليه ، فخلعه من الخلافة وسجنه وولى الخلافة
عمر أخا زكريا ولقبه بالوائق بالله . وكانت مدة
خلافة المتوكل على الله فى هذه المرة نحو اثنتين
وعشرين سنة ونصفا . فلما خلعه من الخلافة وسجنه
قال شهاب الدين بن العطار :

أبشر أمير المؤمنين ، فما جرى
أقوى دليل أن عزك سرمد
لا تختشى ، فيد العدا مغلولة
ويد الخلافة لا تطاولها يد

وفى هذه السنة توفى الشيخ على الروبى ، وقد
تقدم أنه بشر برقوق بالسلطنة قبل أن يلبس بمدة
طويلة .

سنة ست وثمانين وسبعمائة (١٣٨٤ م) :

فيها حضر المقر السيفى بيدمر الخوارزمى نائب
الشام الى الأبواب الشريفة ليزور السلطان ،
وأحضر صحبته تقادم عظيمة للسلطان والأمراء
فخلع عليه السلطان وأكرمه وجعله فوق الأمير
سودون الفخرى نائب السلطنة ، فأقام فى القاهرة
مدة ثم رجع الى الشام على عادته .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على القاضى
تقى الدين ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه علة

في القصر نحو مائة وخمسين عصا ، فنزل الى بيته وهو محمول على بغل ، فأقام في بيته يومين ومات ، فكانت وفاته في يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وفيه يقول ابن العطار :
يكفى التقى كرامة أبدت له

نيل الشهادة واغتدى بأمان

بشرى الذي قد عاش طول حياته

عيش الملوك ومات بالسلطان

فكان لسان حال القاضي تقى الدين مع السلطان
برقوق كما قد قيل في المعنى :

أحمل نفسي كل وقت وساعة

هسوما على من لا أفوز بخيره

كما سود القصار في الشمس وجهه

حريصا على تبييض أثواب غيره

ولما توفي القاضي تقى الدين خلع السلطان على القاضي موفق الدين أبى الفرج ، واستقر به ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن القاضي تقى الدين ، وقد راحت القلعة في كيسه .

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة أكمل الدين محمد ، ابن الشيخ شمس الدين محمد ، ابن الشيخ جمال الدين أبى الشاء محمود الرومى البابر تى الحنفى شيخ الخاتقاء الشيخونية . وكانت وفاته في ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ست وثمانين وسبعمائة المقدم ذكرها ، ودفن في يوم الجمعة قبل الصلاة ، وكانت جنازته مشهورة ، وحضر السلطان جنازته ، وأخرجوه من الخاتقاء الشيخونية والسلطان ماش قدمه من الخاتقاء الى سبيل المؤمنين ، وأراد أن يحمل نعشه فلم يمكنه الأمراء من ذلك ، فصلوا عليه في سبيل المؤمنين ثم انهم أعادوه الى الخاتقاء والسلطان ماش قدمه حتى طلوعوا به الى الخاتقاء

فدفنوه داخل القبة الى جانب قبر الأتابكى شيخو والسلطان حاضر دفنه .

وكان الشيخ أكمل الدين من أكابر علماء الحنفية . وكان بارعا في العلوم ، وله عدة مصنفات في أنواع العلوم ، وكان السلطان يسأله أن يتولى قاضى القضاة الحنفية فيأبى من ذلك ، وكان الأتابكى شيخو جعله ناظرا على وقفه ، وكان له في مصر حرمة وافرة وكلمة نافذة عند الحكام والأمراء ، ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة .

وقد رثاه ابن أبى حجلة بقوله :

شيخ الى سبل الرشاد ملك

وسيله في العلم ما لا يجهل

شيخ تبحر في العلوم فسن رأى

بحرا يسوغ لواردية المنهل

شيخ عليه من المهابة روتق

كالبدر لكن وجهه متهل

شيخ تقدم في العلوم لأنه

ان عد أرباب الفضائل أول

شيخ بحسن بيانه وشروحه

ما بات بالمفتاح باب مقفل

ما قيل هذا كامل في ذاته

الا وقلت الشيخ عندي أكمل

وفي هذه السنة كانت وفاة القاضي أوحى الدين الحنفى كاتب السر الشريف ، وكان القاضي أوحى الدين سبط قاضى القضاة جمال الدين بن التركمانى الحنفى .

وفيها توفي قاضى القضاة أمين الدين بن الأتقى المالكى نائب الحكم بدمشق .

وفيها توفي الأمير كافور الهندى الشبلى ، وكان من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون المتولى

الزمامية في دولة السلطان حسن ، وكان قد قارب من العمر نحو مائة سنة . وكان في سعة من المال ، وهو صاحب التربة التي تحت الجبل المقطم ، ولما مات دفن بها . وكانت وفاته في ثامن ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان الأمير كافور هذا حسن المحاضرة حلو الكلام ، وكان ينظم الشعر وله شعر جيد . فمن ذلك ما نظمته وكتبه على رفرف مقعد بيته وهو قوله :

خدمنا بأبواب السلاطين قبلكم
وكانت لنا أهل الممالك تخدم

فما أبطرتنا — يعلم الله — نعمة

ولا نيل منا بالأذية مسلم

وكان الأمير كافور قد اقتنى من الكتب أشياء كثيرة من سائر العلوم ، فلما مات أودعها في تربته التي تحت الجبل المقطم .

ولما مات كافور خلع السلطان على الأمير صواب السعدى واستقر به في الزمامية عوضا عن الأمير نصر البالى .

سنة سبع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٥ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن خير المالكى السكندرى واستقر به قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ولى الدين بن خلدون المغربى بحكم انفصاله عن القضاء .

وفيها اشترى السلطان مملوكه تمرغا الأفضلى المعروف بمنطاش — وهو أخو الأمير تمرباى الدمرداشى — فأقام مدة ، ثم إن السلطان أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وصار جمدارا .

وفيها أرسل الأمير بهادر المنجكى استادار العالية الى يلبغا الناصرى نائب حلب فقال له : « قم كلم السلطان » . فلما خرج من حلب ووصل الى غزة

قبض عليه ، وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية

وكان سبب تغير خاطر السلطان على يلبغا الناصرى أنه بلغه عنه أنه متواطىء مع الأمير سولى ابن ذى الغادر أمير التركمان ، وقد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك أرسل قبض على يلبغا الناصرى وسجنه بشعر الاسكندرية .

ثم إن السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون المظفرى واستقر به نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى . ثم إن السلطان أرسل الأمير جمال الدين محمود شاد الدواوين الى حلب بسبب الحوطة على موجود يلبغا الناصرى ، وتوجه الأمير محمود الى حلب بسبب ذلك .

وفي هذه السنة قبض السلطان على الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس . فلما قبض عليه السلطان شفع فيه الأمراء ، فخلع عليه ورسم له بأن يكون نائب الكرك ، فخرج اليها من يومه وتوجه الى هناك .

وفيها خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة الحنفى ، واستقر به قاضى القضاة الحنفية بحلب عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين بن العديم بحكم وفاته . وكان ابن العديم هذا من أعيان علماء الحنفية ، وكانت وفاته بحلب ، وعاش من العمر نحو ثمان وسبعين سنة .

وفي هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وسبعمائة — رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بإبطال ما كان يعمل في يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع في ذلك اليوم السواد الأعظم من الناس الأسافل ، فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة ، فيكتب أمير النوروز وصولات بالجمل الثقال ، وكل من امتنع

من الاعطاء من الأكابر بهدلوه وسبوه سبا قبيحا ، ولا يزالون مترسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه أمير النوروز ، فيأخذوا ذلك منه غصبا ويمضوا وكان ذلك السواد الأعظم العياق ، يقفون في الطرقات ويتراشون بالماء المنتجس ، ويتراجعون بالبيض النى في وجعهم ، ويتصافعون بالأنطاع والأخفاف ، ويقطعون على الناس الطريق ، ويمتنع الناس من الخروج في ذلك اليوم الى الأسواق ، وتغلق في ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها ، وكل من ظفروا به في الطرقات بهدلوه — ولو أنه مير أو من أعيان الناس — فيرشونه بالماء لمنتجس ، وبرجمونه بالبيض النى في وجهه ، يصفعونه بالأخفاف ، فتتعطل الناس في ذلك ليوم عن البيع والشراء .

وكان الناس في ذلك اليوم يتجاهرون بشرب الخمر وكثرة الفسق في أماكن المتفرجات حتى خرجوا في ذلك عن الحدود بما كان يقتل منهم جماعة يعربدون على بعضهم ، وكان هذا الأمر مستترا في كل سنة على القاعدة القديمة من الدول الماضية ولا ينكر ذلك بين الناس .

وكان يوم النوروز من أجلّ المواسم بالديار صرية ، وكان يحصل في ذلك اليوم لأكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفواكه الرمان عراجين الموز ومشنات السفرجل والتفاح الشامى نفق البسر وأقفاص العنب والتمر القوصى لبطيخ الصيفى والرطب والخوخ المشعر وقدور بريسة المعمولة من لحوم الدجاج ومعها بطط جلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من نواع اللطيفة .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق وتم أمره في سلطنة ، أمر بإبطال ما كان يعمل في يوم

النوروز ، وأرسل الحجاب مع جماعة من الخيالة السلطانية ووالى الشرطة فطافوا في أماكن المتفرجات وفي الطرقات ، فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع ، وصاروا يقطعون أيدي جماعة ممن كان يفعل ذلك . وقاموا في ذلك قياما عظيما حتى بطل ذلك من القاهرة ، وأشهروا النداء بتهديد من يفعل ذلك بالشنق ، فانكف الناس من يومئذ عن ذلك وصاروا يفعلون بعض شيء في أماكن المتفرجات من الخلجان والبرك ونحو ذلك .. وهذه الواقعة ذكرها المقرئ في حوادث سنة سبع وثمانين وسبع مائة .

سنة ثمان وثمانين وسبع مائة (١٢٨٦ م) ؛

فيها تزوج السلطان الملك الظاهر برقوق بنت الأمير منكلى بغا الشمسى ، وهى بنت أخت الملك الأشرف شعبان ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وحمل بين يديه خمسمائة شعة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب ماردین ، وأخبر بأن خارجيا من التتار الجفطاوية يقال له تمرلك قد استولى على البلاد ، وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من أهلها خلائق كثيرة ، وإن القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تمرلك .

وفيها رسم السلطان بنقل الأمير يلبغا الناصرى من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، فنقله الى ثغر دمياط وكسر قيده .

وفيها ضرب السلطان القاضى موفق الدين أبا الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه مائة وخمسين عصا ، كما ضرب القاضى تقى الدين بن محب الدين التيمى ، ثم فصل موفق الدين من نظارة الجيش وخلع على القاضى كريم الدين بن

مكاسر واستقر به في نظارة الجيوش عوضا عن
موفق الدين .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة ابن ملك
الكرج ، وأخبر السلطان بأنه قد رأى في المنام
النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : « امض الى
مصر ، وأسلم على يد خادم الحرمين » ... فقال له
الرجل ابن ملك الكرج : « ومن هو خادم
الحرمين ؟ » .. فقال : « برقوق سلطان مصر » ..
فلما سمع السلطان ذلك أكرمه وأحضر القضاة
واستسلمه بحضرتهم ، ثم ان السلطان أنزله في
قصر خوند الحجازية بنت الملك محمد بن قلاوون
— وكان هذا القصر عند حبس الرحبة — ورتب
له ما يكفيه الى أن سافر الى بلاده .

وفي هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان
التي بين القصرين ، فلما كملت نزل السلطان اليها
وذلك في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى
من السنة المذكورة . فلما نزل السلطان اجتمع
بالمدرسة القضاة الأربعة وسائر الأمراء ومقرئي
البلد . ثم ان السلطان مد هناك سماطا عظيما ،
وملا الفسقية التي في صحن المدرسة سكرا وفرقه
على الناس بالطاسات . وفي ذلك اليوم خلع
السلطان على الشيخ علاء الدين السيرامي
واستقر به شيخ المدرسة ، فأضاف اليه تدريس
الحنفية . وخلع على الأمير چركس الخليلي أمير
أخور كبير ، وكان شاد العمارة . وخلع على معلم
المعلمين الشهابي أحمد بن الطولوني قبالح ،
وأركبه فرسا بصرج ذهب وكنبوش . وخلع على
خمسة وعشرين مملوكا من ممالك جركس
الخليلي ، وخلع على المهندسين والمرخين
والتجارين والدهانين والبنائين لكل واحد خلعة ،
وفرق على الفعلة لكل واحد أشرفين ... وفي ذلك
يقول ابن العطار :

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة
فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفى الخليلي أن جاءت لدعوته
صم الجبال لها تسعى على عجل
وقوله فيها أيضا :

قل للمليك الظاهر المرتضى
هنيئ بالمدرسة الفائقة
لخنت حسادك قهرا بها
فيالها من مدرسة خائفة

قيل كانوا يقطعون حجارة هذه المدرسة من
الجبل ويجعلونها على عجل تسحبها الأبقار من
الجبل الى بين القصرين ، وهي التي تسمى الحجارة
العجالية .

وفي هذه السنة خلع السلطان على المقر الشهابي
أحمد ابن الأتابكي يلغا العمرى واستقر به أمير
مجلس كما كان عوضا عن الطنبغا الجوباني .

وفيهما أفرج السلطان عن الأمير عشقتمر
المارديني ، وهو صاحب الخائقاء التي عند باب
القرافة — وكان مقيما في القدس بطالا — فأرسل
اليه خلعة ، ورسم له بأن يكون نائب الشام .

وفيهما عزل السلطان الخليفة الواثق بالله عمر ،
وخلع على الخليفة زكريا ابراهيم واستقر به خليفة
عوضا عن أخيه عمر .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة قاصد القان
أحمد بن أويس صاحب بغداد وأخبر بأن الخارجى
تمرنك قد وصل الى مدينة فرباغ ونهبها وسبى
أهلها ، فأرسل القان أحمد يعرف السلطان بذلك
ليكون على حذر من أمره .

وفيهما جاءت الأخبار من مكة أن أمير مكة
أحمد بن عجلان قد قتل . وكان سبب ذلك أن
المحمل لما دخل الى مكة خرج الأمير أحمد يلاقيه ،

قلما نزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل على العادة ضربه فداوى يسكين في جنبه فمات من يومه ، فاضطربت أحوال مكة ، وكادت العرب تنهب الحجاج ... فلبس أمير الحاج والماليك الذين معه آلة الحرب ، وأقاموا على ذلك سبعة أيام . ثم ان أمير المحمل خلع على الأمير عنان بن مغامس واستقر به أمير مكة عوضا عن الأمير أحمد ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفيها توفي الخليفة المنفصل عن الخلافة الواثق بالله عمر .

وفيها توفي الشيخ محمد بن عثمان القرمي القادري ، وكان من أكابر الأولياء ، فمات بالقدس في شهر رجب ودفن هناك ، وقد رثاه ابن العطار فقال :

محمد القرمي قطب الزمان قضى
نجبا وصار لدار الخلد والنعم
والقدس كان حوى نعم الخليل به

ومصر والشام كانا في حمى القرمي
وفيها توفي الشيخ شمس الدين القونوي الرومي الحنفي ، وكان من أعيان علماء الحنفية وله عدة مصنفات في أنواع العلوم .

وفيها توفي الشيخ بدر الدين ، وكان من أولاد صاحب بهاء الدين بن حنا ، وكان من أعيان علماء الشافعية مفتيا .

وفيها توفي الشيخ برهان الدين القيرواني ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد في علم البديع .

سنة تسع وثمانين وسبعمائة (١٢٨٧ م) :

فيها في المحرم جاءت الأخبار من تلمسان ببلاد الغرب بأنه وقع بها فتنة عظيمة ، وقتل في المعركة ما لا يحصى من عساكر الغرب ، وقتل ملكها أبو حمو المعز .

وفي صفر استقر الطنبغا الجوباني في نياية الشام عوضا عن أشقتمر .

وفيه توفي محمد بن عقيل ابن قاضي القضاة بهاء الدين الشافعي .

وفي ربيع الأول جرت واقعة غريبة ، وهي أن السلطان دخل الى القصر الكبير في غير يوم الموكب ، فلما جلس بالشباك رأى خيمة على بعد مضروبة في الروضة على شاطئ النيل ، فبعث من كشف عن خبرها ، فلما عاد القاصد أخبر السلطان أن بتلك الخيمة كريم الدين صاحب بن مكافس ومعه جماعة وهم يشربون الخمر ، فأرسل اليهم جماعة من المماليك فأحضروهم بتامهم وكمالهم بين يدي السلطان ، فأمر بضرب صاحب كريم الدين بالمقارع وقرر عليه خمسين ألف دينار ، ثم عفا عن الباقيين ... وهذه من الغرائب .

وفي ربيع الآخر ابتداء السلطان بلعب الرمح بعد الظهر ، وأمر المماليك أن ينزلوا من الطباق ويلعبوا الرمح الى العصر . وهو أول من أحدث ذلك من الملوك ، ورسم لهم أن يلعبوا في الحوش السلطاني من الظهر الى العصر ، واستمر ذلك بعده الى الآن . وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وجعل لها دائرا وفيها اسمه ، فتقول الناس بأنه تدور عليه الدوائر ويسجن ، وكان الأمر كذلك كما قيل في ذلك :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

ويقرب من ذلك أن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق لما تسلطن ضرب دنانير - وهي المناصرة - فجعلوا اسمه في دائرة ، فلما رآها يوسف ناظر الخاص قال لمعلم دار الضرب : « قد ضيقت على عثمان قوى » ... فكان الأمر كذلك .

ووقع مثل ذلك للسلك المؤيد أحمد بن اينال ،
أنه لما تسلطن ضرب دراهم فضة ، فجعلوا اسمه في
دائرة ، فلما عرضوا ذلك عليه تطير منه ورسم لمعلم
دار الضرب أن يغير تلك السكة ، ومع ذلك
قيدوه ... وهذا مجرب .

وفيه جاءت الأخبار بأن المدينة الشريفة — على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نهبها الشريف
على بن عطية أمير المدينة . فلما تحقق السلطان ذلك
كتب الى أمير مكة المشرفة بأن يتوجه الى المدينة
المشرفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام —
ويحارب على بن عطية .

وفيه توفي الحافظ ناصر الدين بن عشائر الحلبي ،
وكان فقيها محدثا بارعا في كل علم .

وفي جمادى الأولى توفي أشقتر المارديني نائب
الشام ، فلما مات أفرج السلطان عن الطنبغا
الجوباني — وكان بالكرك — فأرسل اليه خلعة
واستقر نائب الشام عوضا عن أشقتر المارديني .
وفيه توقف النيل عن الزيادة والوفاء ، ونقص عما
زاده ، واضطربت الأحوال وقلق الناس لذلك ، ثم
رد النقص وأوفى على العادة . وقد قال بعضهم :
النيل قد أوفى بحمد الهنا

وجرى على العادات بعد توقف

وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم :

من ذا يفي في مصر ان أنا لم أف ؟

وفي جمادى الآخرة ظهر في السماء كوكب من
جهة الشمال الى جهة العرب ، وكان غريب الصفة
له ثلاث شعب ، في لحداها ذنب طويل قدر رمح ،
وله ضوء زائد كضوء القمر ، فأقام مدة ثم تحول
من جهة المغرب الى جهة الجنوب ، فلما تحول سمع
له صوت شديد مثل الرعد ، وكان ذلك بعد
العشاء .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طغاي

— وكان قد توجه الى بلاد الشرق لأخبار تمرلنك —
فلما حضر أخبر السلطان أن جاليش تمرلنك قد
وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان ،
وأن بواذر عساكر تمرلنك قد وصلت الى ملطيه .
فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقصر

الكبير ، وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ
الاسلام سراج الدين عمر البلقيني وأعيان المشايخ
المفتين وحضر سائر الأمراء . فلما تكامل المجلس
تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الأربعة في أمر
تمرلنك . ثم ان السلطان تكلم في أخذ مال الأوقاف
من الجوامع والمدارس وغيرها ، فلم يوافق شيخ
الاسلام على ذلك ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم
السلطان بأن الخزائن خالية من الأموال ، والعدو
زاحف على البلاد ، وان لم تخرج العسكر بسرعة
والا وصل الى حلب والشام ... والعسكر لا تسافر
بلا نفقة . فوقع في المجلس جدال عظيم ، ودافعوا
السلطان وأغلظوا عليه في القول .

فلما طال الأمر وقع الاتفاق — بحضور الخليفة
والقضاة الأربعة — بأن يؤخذ من مال الأوقاف
أجرة الأماكن وخراج الأراضي سنة كاملة ، وتبقى
الأوقاف على حالها . وانفصل المجلس على ذلك ،
ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بأن يتولى جبي
الأموال من الناس ، فأخذوا في أسباب ذلك .

ثم ان السلطان عين تجريدة وعين لها جماعة من
الأمراء ، وهم : الطنبغا المعلم أمير سلاح ، وقردم
الحسنى رأس نوبة أمير كبير ، ويونس النوروزي
الدوادار ، وسودون باق أحد المقدمين . وعين من
الأمراء والطبلخانات رأس نوبة كبير ثمانية ، ومن
الأمراء العشراوات عشرة ، وعين من المماليك
السلطانية ثلثمائة مملوك ، وأنفق عليهم وأخذوا
في أسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها
الى حضور السلطان .

ثم ان السلطان رسم بأخذ زكاة الأموال من التجار ، وندب الى ذلك القاضى الطرابلسى الحنفى . وفى رجب خرجت التجريدة من القاهرة فى تجمل زائد ، واستمرت الأطلاب تنسحب من باكر النهار الى قريب الظهر ، وكان يوما مشهودا ...

فلما خرجت التجريدة اشتد الأمر على الناس ، وجبيت الأموال منهم غصبا بالعصا ، فجبوا ذلك من الناس فى يوم واحد ، ثم فرج الله عنهم ، وجاءت الأخبار بأن تمرلنك رجع الى بلاده ، وأن ولده قد قتل ... فسكن الاضطراب ، ورسم السلطان بإعادة ما أخذوه من الناس ، فتزايدت أدعيتهم له بالنصر ، وقد قيل :

فصبوا : ان عقبى الصبر خير

ولا تجزع لنائبة تنوب

فان اليسر بعد العسر يأتى

وعند الضيق تنكشف الكروب

وقد جزعت نفوس من أمور

أتى من دونها فرج قريب

وفى شعبان انفصل قاضى القضاة الشافعى بدر الدين أبو البقاء السبكى ، وخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الميلىق ، واستقر قاضى القضاة الشافعية عوضا عن بدر الدين أبى البقاء . وقد امتنع ابن الميلىق من لبس الخلعة غاية الامتناع ، فألزمه السلطان بذلك على كره منه .

وفيه توفى الصاحب شمس الدين ابراهيم بن كاتب أرلان القبطى . فلما مات خلع السلطان على علم الدين عبد الوهاب بن القسيس المعروف بابن كاتب سيدى ، وكان مستوفيا فى ديوان المرتجع ، فبقى وزيرا بالديار المصرية .

وفى رمضان فى يوم الأحد ثامنه نزل السلطان الى الاصطبل الذى يباب السلسلة ، وحكم به ، ونادى فى القاهرة : « من كان له فلامه أو خصومة

يحضر بين يدى السلطان فى كل يوم أحد وأربعه » ... وهذا لم يقع لسلطان قبله ، وهو أول من أحدث ذلك من الملوك . واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة أمير مكة المشرقة على بن عدنان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأتمم عليه وخلع عليه وجعله شريكا لعنان بن مغايس فى امرة مكة المشرقة وأصلح بينهما .

وفيه طلب السلطان يلبغا الناصرى من ثغر دمياط ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه واستقر نائب حلب على عادته .

وفى شوال قدم البريد من حلب وأخبر أن منطاش ، مملوك السلطان الذى قد استقر نائب السلطنة ، قد خرج عن الطاعة وخامر .

وفيه حضر رأس بدر بن سلام كبير عريفات البحيرة ، وكان قد ظهر منه غاية الفساد .

وفى ذى القعدة قرر أمير حاج بن مغلطاي فى نيابة الاسكندرية عوضا عن يجمان المحمدى .

وفيه جاءت الأخبار بأن الواثق بالله محمد بن أبى الحسن صاحب فاس قد خلع من الملك وأعيد أبو العباس أحمد ، وسجن الواثق بطنجة . وحصل بفاس فتنة عظيمة فى أواخر هذه السنة .

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار ببوت ملك التكرور موسى ، وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية .

وفيه خلع السلطان على الأمير ايدكار العرى وقرر حاجب الحجاب .

سنة تسعين وسبعمائة (١٢٨٨ م) :

ففيها حضر الى الأبواب الشريفة جراى تمر دوادار المقر الشرفى يونس أمير دوادار ، وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفى يلبغا الناصرى ، فأخبر بأن العسكر الذى توجه من القاهرة لما وصل الى

ميواس أوقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية ، وقد
افكر عسكر تمرلنك ، وأن الغلاء وقع في العسكر
وعزت سائر البضائع . فلما بلغ السلطان ذلك
أرسل للعسكر نفقة ليستعينوا بها على ذلك .

وفيها خلع السلطان على الأمير محمود بن علي
الظاهرى شاد الدواوين واستقر به استادار العالية
عوضا عن الأمير بهادر المنجكى .

وفيها رجع العسكر الذين توجهوا الى حلب
وهم في غاية النصر على عسكر التتار .

وفيها قبض السلطان على جماعة من الأمراء
الذين كانوا في التجريدة ... وهم : الأمير الطنبغا
المعلم أمير سلاح ، والأمير قردم الحسنى رأس
نوبة النوب ... وأرسلهم الى السجن بشعر
الاسكندرية ، ثم أرسل السلطان بالقبض على
الطنبغا الجوباني نائب الشام وسجنه ، وأرسل
خلعة الى الأمير طرنتاي حاجب دمشق بأن يستقر
نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوباني ، وأرسل
خلعة الى الأمير استدر حاجب طرابلس بأن يكون
نائب طرابلس ، واستقر بالأمير سودون العثماني
نائب حماة .

وفيها توفي قاضى القضاة الشافعى برهان
الدين بن جماعة الحموى الكنانى . وتوفي الشيخ
علاء الدين السيرامى الحنفى شيخ المدرسة
البرقوقية . وتوفي صاحب علم الدين بن القسيس
المعروف بكاتب سيدى . وتوفي الأمير بهادر
المنجكى الذى كان استادارا . وتوفي الشيخ
شهاب الدين بن النقيب من أعيان العلماء .

سنة احدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) :

فيها — فى أوائل صفر — ابتدأ السلطان
بشرب القمز ، وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ،
وكان الملوك تعودوا ذلك ، فرسم السلطان للأمراء

بأن يجتمعوا فى كل يوم أربعاء فى الميدان الذى
تحت القلعة ويشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة
شعائر المملكة ، فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان
ويجلسون فى مراتبهم ، ويبقى الأوزان عمال ،
والأمراء بالشاش والقماش ، والسقاة يسقونهم
القمز فى الزبادى الصينى . وكان القمز يسكر
مثل الشرس ، ويسمى قراقمز .

وفيها وقع الطاعون بمصر ، ومات من الناس
من كبار وصغار ما لا يحصى عددهم ، وأقام مدة ،
وكثر الأمراض حتى بيعت البطيخة الصيفى
بأشرفيين ولا توجد ، ولكن بطل ذلك من بعد
الملك الظاهر برقوق .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار بأن يلبغا
الناصرى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة وقتل
الأمير سودون المظفرى الذى كان نائب حلب
قبله ، وقتل أربعة أنفس من ممالك سودون ،
وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمرائها .
وسبب ذلك أنه كان قد وقع بينه وبين سودون
المظفرى تشاجر ، فأرسل سودون يشتكى من يلبغا
لناصرى الى السلطان بما وقع منه فى حقه . فلما
بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير تلكتمر المحمدي
الدوادار الثانى الى حلب ليصلح بين يلبغا الناصرى
وبين سودون المظفرى . وقيل ان السلطان أرسل
فى الدس مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى
سودون المظفرى بأن يقبض على يلبغا الناصرى
نائب حلب . فلما وصل الأمير تلكتمر الى حلب بلغ
يلبغا الناصرى أمر المراسيم التى جاء بها الأمير
تلكتمر ، فخرج الى تلقيه — وكان بين يلبغا
الناصرى وبين الأمير تلكتمر صفة مؤكدة فما
أمكنه أن يخفى منه أمر المراسيم — فلما وقف
عليها يلبغا الناصرى أخذها وأخفاها ، ثم توجه
الى دار السعادة وطلب قضاة حلب والأمير سودون

المظفرى ليقرأ عليهم المراسيم التى جاءت بالأمر بالصلح بين يلبغا وسودون . فلما أرسل خلف سودون لم يحضر الى دار السعادة ، فأرسل خلفه أربع مرات والقضاة جالسون والأمير تلتكتر ... فلما حضر سودون الا بعد جهد كبير ، فطلع سودون وهو لا بس زردية من تحت ثيابه . وكان يلبغا الناصرى ركن جماعة من مماليكه فى دار السعادة وهم لا بسون آلة الحرب . فلما دخل سودون من باب دار السعادة تقدم اليه مملوك من ممالك يلبغا وجس كتف سودون فرآه لا بسها من تحت ثيابه ، فقال له : « يا أمير سودون ... الذى يريد الصلح يدخل الى دار السعادة وهو لا بس آلة الحرب ؟ » ... فلكمه سودون ، فصاح على ذلك الكمين فخرجوا الى سودون ، فقتلوه فى دار السعادة ، وقتلوا معه أربعة ممالك من ممالكه . ثم ان يلبغا الناصرى أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من ممالك الأشرف شعبان . وكان من جملة من التف على يلبغا تمرىغا الأفضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق — وكان له مدة وهو منفى فى المدن الشامية — فالتف على يلبغا الناصرى .

ثم ان الأمير تلتكتر ، لما جرى ما جرى بحلب ، رجع وأخبر السلطان بما وقع لسودون المظفرى مع يلبغا . فلما تحقق السلطان عصيان يلبغا الناصرى أرسل خلعة الى الأمير اينال اليوسفى بأن يستقر نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى ، وكان اينال أتابكى العساكر بدمشق ، وكان يلبغا الناصرى فى نفسه من الملك الظاهر برقوق عداوة قديمة كامنة فى قلبه كما قيل :

الجرح ييرا ولكن كلما نظرت
عين الجريح اليه جدد الوجعا

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر صفر من

السنة المذكورة نزل السلطان الى الميدان الذى تحت القلعة ، ونصب هناك عدة صواوين للأمراء . ثم انه أرسل خلف الأمراء ، فلما تكاملوا مد لهم سمطا عظيما ، فلما فرغوا من الأكل جلس معهم السلطان ، وذكروا لهم ما وقع من يلبغا الناصرى من أمر عصيانه ، ثم أحضر لهم مصحفنا شريفا ، وحلف عليه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر بأن يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصرى ، فحلفوا على ذلك جميعهم وانقض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرى صفر عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى يلبغا الناصرى ، وعين خمسة أمراء من المقدمين ، وأربعمائة مملوك ، ثم جاءت الأخبار من طرابلس بأن عسكر طرابلس ركبوا على النائب ، وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة وهرب النائب الى يلبغا الناصرى .

وجاءت عقب ذلك أخبار من حماه بأن نائبها سودون العثمانى حضر الى دمشق وهو هارب ، وسبب ذلك أن ممالكه ركبوا عليه مع عسكر حماه وأرادوا قتله ، فهرب منهم الى دمشق ، وقد وقعت الفتن فى سائر البلاد الشامية . فلما تحقق برقوق أن البلاد قد افتتنت خاف على نفسه ، وأمر نائب القلعة بأن يضيق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، فانه كان مسجوناً فى البرج الذى بالقلعة وهو مقيد . ورسم السلطان للأمير مقبل الزمام بأن يضيق على الأسياد أولاد السلاطين الذين فى دور الحرم ، ويمنع من كان يدخل لهم . ثم ان السلطان أرسل خلعة الى الأمير طغيتمر القيسلاوى بأن يستقر فى نيابة طرابلس عوضا عن النائب الذى كان بها .

ثم حضر قاصد من عند الأمير خليل بن قراجاين

ذو الغادر ، فأخبر أن الأمير سنقر نائب سيسى قد خامر وخرج عن الطاعة ، ووافق يلبغا الناصرى على العصيان ، ورحل من سيسى وأتى الى حلب . فلما تحقق السلطان أن النواب قد خامروا عليه أنفق على العسكر وأخرج التجريدة التى كان عينها الى حلب ، وكان بها من الأمراء الأتابكى أيتمش البجاشى ، والأمير أحمد بن يلبغا الناصرى أمير مجلس ، والأمير جركس الخليلي أمير أخور كبير ، والأمير يونس النوروزي الدوادار الكبير ، والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجاب ، وجساعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأربعمائة مملوك ، فخرجوا من القاهرة فى عظمة زائدة .

فلما خرجوا من القاهرة ووصلوا الى دمشق جاءت الأخبار من هناك مع السعاة بأن العساكر لما وصلت الى دمشق وجدوا يلبغا الناصرى قد ملك الشام حتى قلعتها ، فلما وصل العسكر اليه أوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان الذى أرسله ، وانتصر عليهم يلبغا الناصرى ، وقتل الأمير جركس الخليلي أمير أخور كبير ، وهرب الأمير أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجاب والأمير يونس الدوادار . وأما الأتابكى أيتمش فانه أسر وسجن بقلعة دمشق ، وأما بقية الأمراء والمماليك السلطانية فشيء أسر وشيء هرب وشيء قتل ... وكانت هذه الواقعة بدمشق فى يوم الاثنين حادى عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فلما أن جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الناس من هذه الأخبار ، وماجت على بعضها ، وكثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك ، وارتج الأمر على السلطان ... فعمل الموكب بالقصر ،

وفرق أمرىات من قتل من الأمراء فى هذه المعركة ، فأنعم على الأمير قرايغا الأبو بكرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بجاس النوروزى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير شيخ الصفوى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير قرقماس الطشتى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبا الماردى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بأمرىات أربعين ، وعلى جماعة بأمرىات عشرة ، ثم انه رسم بالافراج عن جماعة من المماليك الأشرفية ومماليك الأسياد - وكانوا فى السجن بخزانة شمائل - وصار يرضى خاطر العسكر بكل ما يمكن حتى يسحو ما وقع منه فى حق العسكر .

ولما كان يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى حضر ترميغا الفخارى السواق ، وكان قد توجه الى نحو الشام بسبب كشف أخبار يلبغا الناصرى . فلما وصل الى غزة رأى طوالع جاليش يلبغا الناصرى قد وصل غزة ، فلما دخلوا مدينة غزة أزلهم الأمير حسام الدين بن باكيش نائب غزة فى الميدان الكبير . فلما باتوا تلك الليلة كبس عليهم وأمسكهم عن آخرهم وقيدهم وسجنهم فى دار السعادة ، وكانوا نحو مائة انسان وفيهم ثلاثة أمراء من حلب . فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح وخلع على ذلك السواق كاملية بسمور .

ثم فى يوم الأحد خامس جمادى الأولى قصد السلطان فى مقام سيدى محمد الرديى الذى هو داخل الحرم ، وطلب الخليفة المتوكل من البرج ، فخرج وحضر وهو مقيد ، وكان له نحو ست سنين فى البرج بالقلعة وهو مقيد ، وقد أفحش فى حقه الملك الظاهر برقوق ، وتمادى على طغيانه فى حق المتوكل وهو فى القيد هذه المدة الطويلة .

فلما حضر بين يدى السلطان قام اليه وأمر بنزع قيده ، وصار يعتذر اليه مما وقع منه فى حقه .

ثم طلب القضاة الأربعة ، وأعاد المتوكل الى الخلافة كما كان ، وخلع عليه وأركبه فرسا وسرج ذهب وكنبوش ، ونزل من القلعة في موكب عظيم والقضاة قدامه ، وزينت له الصليبة وجامع ابن طولون ، وكان يوما مشهودا .

فلما نزل الى بيته أرسل اليه السلطان قماشا بنحو ألف دينار ما بين صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعبكى وغير ذلك ، وأرسل اليه ألف دينار ذهب عين . ثم أن السلطان نزل الى الميدان الذى تحت القلعة وعرض هناك العسكر وهم لا يسون آلة الحرب راكبون على خيولهم ، وصار يسأل من كل واحد منهم ما هو عاوز من آلة الحرب فيعطيه الذى يعوزه من خيل وسلاح وغير ذلك .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير سودون الصيفى تمرباى باق واستقر أمير سلاح ، وخلع على الأمير قرايغا الأبوبكرى واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير أحمد بن يلبغا العمري ، وخلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدي واستقر رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتري واستقر ذوادارا كبيرا عوضا عن الشرفى يونس ، وخلع على الأمير اقبغا الماردينى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير ايدكار العمري .

ثم فى يوم الاثنين حضر الى الأبواب الشريفة العلائى على بن الطشلافى والى قطيا وأخبر السلطان بأن جاليش يلبغا الناصرى قد وصل الى قطيا ، ثم بعد ذلك جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى قد وصل الى الصالحية . فلما تحقق السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة ، وجلس فى الحراقة ، وأمر بشد الخيول ، وعلق الصنجق السلطاني ، ونادى العسكر بأن يطلعوا الى الرميلة وعليهم آلة الحرب ،

فطلع اليه من الأمراء الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير أبو بكر بن سنقر الجمالى ، والأمير بييرس التمان تمرى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، والأمير قجماس ابن عم السلطان . فلما تكامل العسكر ركب السلطان وخرج من باب السلسلة وعلى رأسه الصنجق السلطاني ، فتوجه هو والعسكر الى نحو المطرية ، فأقام السلطان هناك يوم الأربعاء ويوم الخميس ، فصار جماعة من المماليك السلطانية يتسحبون من عند السلطان ويتوجهون الى يلبغا الناصرى ، فتوجه اليه جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن المماليك السيفية . فلما رأى السلطان ذلك رجع من هناك وطلع الى القلعة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى جاءت الأخبار بأن أوائل عسكر يلبغا الناصرى قد وصل الى أوائل الترب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل من القلعة ، ودقت الكنوسات حربى ، وجمع العسكر وتوجه الى نحو قبة النصر ، فوقف هناك على كوم عال فوقع بين الفريقين بعض قتال حين ، فأقام السلطان هناك الى آخر النهار ثم رجع الى القلعة وقعد فى باب السلسلة وبات به .

فلما كانت تلك الليلة توجه أكثر الأمراء الى يلبغا الناصرى ، فلم يبق مع السلطان الا بعض جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قجماس ابن عم السلطان ، وسيدى أبو بكر الجمالى سنقر ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، وبعض مماليك من الجمدارية . فلما رأى السلطان عين الغلب أراد أن يسلم نفسه ويختفى فى البحرة ، فمنعه الأمراء من ذلك . فأقام الى العصر فى باب السلسلة ، فبلغه أن الأمير نزلار العمري ، والأمير الطنبغا الأشرفى والأمير طقطاي الطشتري — ومعهم جماعة من المماليك نحو خمسمائة مملوك —

قد وصلوا الى القلعة ، فعين لهم السلطان بطا
الخاصكى ، وسكرباى الخاصكى ، ومعهما نحو
عشرين مملوكا ، فنزلوا اليهم وأوقعوا معهم فى
الرميلة واقعة قوية ، فكسر عسكر يلبغا الناصرى
وطردوهم الى تحت المنجكية . فلما بلغ يلبغا
الناصرى أن جاليشه قد انكسر هم بالهروب من
هناك ، وأرسل بركه وقماشه الى القنطرة التى عند
المرج والزيات خوفا من النهب .

فلما كانت ليلة الاثنين سابع عشرى جمادى الأولى
تسحب من كان بقى عند السلطان من الأمراء
والمماليك ولم يبق عنده سوى سيدى أبى بكر بن
سنقر الجمالى ، وييدمر المجدى شاد القصر ، فقال
السلطان لسيدى أبى بكر : « خذ الترس والنمشاه
وامض الى يلبغا الناصرى ، وقل له السلطان يسلم
عليك ، ويقول لك بأنك تؤمنه على نفسه من
القتل » ... فمضى سيدى أبو بكر وييدمر المجدى
الى الأمير يلبغا ، وذكر له ما قاله السلطان ،
فقال الأمير يلبغا : « هو آمن على نفسه من القتل ،
ولكن قول له يختفى من القلعة حتى تنكسر حدة
العسكر الذى حضر من الشام عنه ، وبعد ذلك
يفعل الله ما يشاء ، وما يكون الا خير » .

فلما رجع سيدى أبو بكر بن سنقر وييدمر من
عند الأمير يلبغا الناصرى بهذه الرسالة ، وأخبراه
بما قاله الأمير يلبغا ، أقام فى باب السلسلة والخليفة
المتوكل عنده الى أن صلى العشاء ، وقام الخليفة
من عنده فبقى هو وخمسة من المماليك الجمدارية
فأمرهم بالانصراف . فلما انصرفوا قام السلطان
ودخل المبيت ، وقلع تخفيفته ولبس له عمامة
وجوخة من فوق ثيابه ، وأخذ فى يده عصاه ونزل
من باب السلسلة بعد العشاء واختفى .

فلما نزل السلطان من باب السلسلة وقع النهب

فى الحواصل السلطانية ، وذلك فى ليلة الاثنين
خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

فلما أصبح يوم الاثنين وصل الأمير يلبغا
الناصرى ، وصحبته الأمير تمرغا الأفضلى المعروف
بمنطاش مملوك الملك الظاهر برقوق . فلما وصلوا
الى الرميلى وقفوا بسوق الخيل هم والعسكر الذى
حضر معهم من البلاد الشامية فوقفوا ساعة . ثم ان
الخليفة المتوكل أتى الى الأمير يلبغا وسلم عليه ، ثم
طلع الأمراء والخليفة الى باب السلسلة واشتوروا
فى ذلك اليوم فيمن يولونه سلطانا ، وبات فى تلك
الليلة العسكر بغير سلطان .

فلما أصبحوا يوم الثلاثاء وقع الاتفاق بين الأمراء
على عود الملك الصالح أمير حاج ، ابن الأشرف
شعبان الذى خلعه برقوق من السلطنة ، وكان مقيما
بدور الحرم فطلبوه ، فخرج اليهم ، فاجتمعوا
بالحوش السلطانى ، فلما رأوا الملك الصالح قد
حضر ، باس له الأرض سائر الأمراء ، ثم طلبوا
القضاة الأربعة ، وبايعه الخليفة بالسلطنة ثانيا ،
وكان عوده الى الملك على غير القياس ، فكان كما
قيل فى المعنى :

أيها الانسان صبرا

ان بعد العسر يسرا

كم لزمتا الصبر حتى

عاد ليل الهم فجرا

فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر برقوق فى هذه
المررة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشرين
يوما ، وكانت مدة اقامته فى الأتابكية خمس سنين
الا أشهر ، فحكم بالديار المصرية أتابكا وسلطانا
احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما .
فهذه كانت مدة سلطنة برقوق الأولى ، وسيعود
الى السلطنة ثانى مرة كما سيأتى ذكر ذلك فى
موضعه ان شاء الله تعالى .

غزو الملك الصالح أمير حاج

حين عاد الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين الى السلطنة — وهى السلطنة الثانية — جلس على سرير الملك بعد أن بايعه الخليفة بحضرة القضاة الأربعة ، وبأس له الأمراء الأرض ، وركب بشعار الملك من الحوش السلطاني الى القصر الكبير ، فمد هناك السباط وجلس عليه وهو بشعار الملك .

ثم ان الأمير يلغا الناصري لما تولى الملك الصالح هذه المرة غير لقبه ولقبه بالملك المنصور ، وهذا لم يتفق قط — فان الملك الناصر محمد بن قلاوون لما خلع من الملك وعاد اليه ثلاث مرات لم يتغير لقبه — ثم نادوا باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء . فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب وطلع اليه سائر الأمراء . فلما تكامل الأمراء في الموكب تقدم الأمير يلغا الناصري وقبض على المقر السيفي سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة ، وقبض على الأمير سودون باق ، وقبض على الأمير سودون الطرنطاي ، وقبض على سيدي أبي بكر بن سنقر الجمالي — وكان سيدي أبو بكر هذا حاجب الحجاب في دولة الملك الظاهر برقوق — وقبض على الأمير بجاس النوروزي ، وقبض على الأمير أقبغا المارديني ، والأمير شيخ الصفوى والأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق ، وقبض على الأمير محمود بن على الظاهري استادار العالية ، فكان عدة من أمسك في ذلك اليوم من الأمراء المقدمين تسعة .

وقبضوا في ذلك اليوم على ثمانية وستين أميراً ما بين أمراء طبليخانات وأمراء عشراوات ، حتى ارتجت في ذلك اليوم القاهرة وكادت أن تخرب عن آخرها .

وكان الأمير يلغا ومنطاش لما أتوا الى القاهرة دخلوا ومعهم السواد الأعظم من التراكمة ومن العربان وغير ذلك من عساكر البلاد الشامية والبلاد الحلبية . فلما أرادوا أن يدخلوا الى المدينة وجدوا أبواب القاهرة مقفلة ، فجاء الأمير ناصر الدين استادار الأمير ارغون اشكى — وكان قد حضر من الشام صحبة العسكر — فأتى الى باب النصر فوجده مقفلاً ، فدق الباب فلم يفتحوا له ، فدخل من باب سر جامع الحاكم وهو راكب على فرسه وفتح باب النصر وباب الفتوح ، فدخل السواد الأعظم الى القاهرة ، فنهبوا عدة دكاكين من سوق باب النصر من البضائع والمأكول وغير ذلك ، واستمر النهب عمالاً من باب النصر الى الركن المخلق ، وقد تدرجوا الى نهب البيوت ، واضطربت القاهرة وماجت بأهلها .

فلما بلغ الأمير يلغا ومنطاش ذلك أرسلوا جماعة من رءوس النوب ومن الحجاب وطرّدوا من يفعل ذلك ، ونادوا في القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن من نهب شيئاً يرده والا يشنق ، فانكف الناس عن النهب ، وتركوا جماعة من الحجاب في أماكن من القاهرة ، فسكن الأمر قليلاً وخذت الفتنة .

ثم ان الأمراء تكلموا مع الأمير يلغا الناصري ومنطاش في أمر هؤلاء الأمراء الذين أمسكوا ، فأفرج الأمير يلغا عن جماعة من الأمراء الطبليخانات والأمراء العشراوات أحداً وعشرين أميراً ، وأفرج عن الأمير شيخ الصفوى ورسم له بأن يتوجه الى القدس بطالا ، ورتب له ما يكفيه . ثم ان الأمير يلغا قيد بقية الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . وقد تقدم ذكر أسمائهم .

ثم ان الأمير يلغا رسم بأن يفرج عن جماعة من

الأمراء ، ممن كان مسجوناً بشعر الاسكندرية ، فحضروا الى القاهرة ، وهم : الأمير الطنبغا الجوباني ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير قردم الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء الذين كانوا في السجن بشعر الاسكندرية .

فلما تم الأمر للملك المنصور أمير حاج في السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى يلبغا الناصرى واستقر أتابكى العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأتابكى أيتمش البجاشى ، وخلع على المقر السيفى قرا دمرداش الأحمدي واستقر أمير سلاح عوضاً عن سودون السيفى تمر باى باق ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمرى واستقر أمير مجلس على عادته ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوباني واستقر رأس نوبة النوب عوضاً عن قرا دمرداش الأحمدي ، وخلع على المقر السيفى تمر باى الحسنى واستقر به حاجب الحجاب عوضاً عن سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وخلع على المقر السيفى الألبغا العثمانى واستقر دواداراً كبيراً عوضاً عن الأمير يونس النوروزى ، وخلع على الأمير أقبغا الجوهري واستقر به استادار العالية عوضاً عن الأمير محمود بن على الظاهري ، وخلع على الأمير الطنبغا الأشرفى واستقر به رأس نوبة ثانى ، وخلع على الأمير قطلو بك السيفى يلبغا واستقر به أمير جاندار وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، وعلى جماعة بامريات أربعين ، وعلى جماعة بامريات عشرة . ثم عمل الموكب الثانى وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نزلار العمرى واستقر به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى كمشبغا الحموى واستقر به نائب حلب ، وخلع على المقر السيفى

قطلوبغا الصفوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على المقر السيفى سنجق الحسنى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن المهندار واستقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير بغاجق السيفى صرغتمش واستقر به نائب ملطية ... ثم رسم للنواب الذين استقروا بأن يتوجهوا الى البلاد الشامية ، ويستقر كل واحد في نيابته ، ويعمر ما فسد من أحوال البلاد الشامية ، فخرجوا من القاهرة على حمية ، جميعهم بالسوية .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى نادى في القاهرة بأن ممالك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد في القاهرة ، وأن يخدموا عند النواب ويخرجوا معهم ، وكل من وجد منهم من بعد ذلك شنع من غير معاودة ثانية . وصاروا يكررون المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج بعد عوده الى الملك .

وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد اختفائه ، فان الأمير يلبغا الناصرى صار ينادى في القاهرة : « كل من كان الملك الظاهر برقوق عنده ولا يقصر عليه يشنع على باب داره من غير معاودة » ...

فبينما الأتابكى يلبغا الناصرى جالس في باب السلسلة وقت الظهر ، ادخل عليه مملوك من ممالك أبى يزيد الخازن يقال له سنقر الرومى ، فقال للأتابكى يلبغا الناصر : « ان السلطان برقوق مختف عند أستاذى في بيت شخص خياط » ... فلما سمع الأتابكى يلبغا بذلك طلب أبى يزيد الخازن وقال له : « انزل أحضر الملك الظاهر برقوق من عندك والا شنقتك على باب بيتك » ... فلما سمع أبو يزيد بذلك أنكر ، فأمر الأتابكى يلبغا

بتوسيطه ، فلما تحقق ذلك أقر بأنه عنده ، فقال له يلبغا : « أنت ما سمعت المناداة بأن من خبي السلطان برقوق عنده ولا يقر به شئ على باب داره ؟ » ... فقال أبو يزيد : « ياخوند ، ان الملك برقوق كان له على احسان عظيم ، وجاء الى تحت الليل فما أمكنتى رده » ... فقال له يلبغا : « انزل اليه وأحضره » . ثم أرسل معه الأمير الطنبغا الجوباني رأس نوبة النوب ومعه عشرون مملوكا ، فلما وصلوا البيت الذى فيه السلطان برقوق طلع اليه الأمير الطنبغا الجوباني بمفرده ، فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق جرى الطنبغا وقبل يد الملك الظاهر برقوق وقال له : « أنت أستاذنا كلنا ونحن ممالكك » ... ثم ان برقوق قام معه ، ولبس له عمامة على رأسه ، وعمل فوقها طيلسانا ، وركب فرسا وركب الطنبغا الجوباني الى جانبه ومعهما أبو يزيد فى الترسيم ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فنزل السلطان برقوق من على الفرس ، فطلعوا به من باب سر القصر الكبير الذى من الاسطبل ، فأدخلوه الى قاعة النحاس التى لها شبابيك مطلة على الايوان .

ثم ان الأتابكى يلبغا قال لأبى يزيد : « احضر لنا ما كان مع السلطان من المال لما دخل عندك » ... فأخرج لهم كيسا فيه ألف دينار وقال : « والله ما أودع عندى غير هذا الكيس ، وما أعلم مافيه » ... فقال له الأتابكى يلبغا : « لقد خاطرت بنفسك ، ولولا خاطر الملك الظاهر برقوق كنت شنتك » ... فقال أبو يزيد : « ياخوند ، أنا ما فعلت ذلك الا وقد فرغت عن نفسى وحسبت حساب التلف » .

وقد قيل فى المعنى :

إذا اعتذر الجاني محاذ العذر ذنبه

وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

فقال له يلبغا :

« خذ لك الكيس بما فيه ، ومثلك من يخدم الملوك » ... ثم خرج عنه ونزل الى بيته .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى رتب للملك الظاهر برقوق سباطا فى كل يوم بكرة وعشية ، وجعل عنده ثلاثة ممالك صغارا يخدمونه ، وأقام فى قاعة النحاس الى الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فطلع اليه الأمير الطنبغا الجوباني رأس نوبة النوب فقيده ونزل به من القلعة فى نصف الليل من باب الدرفيل ، فأركبه على هجين وركب معه الأمير الطنبغا الجوباني وبعض ممالك ، وتوجهوا به على قبة النصر وقصدوا به نحو عجرود . وقد زالت دولة الظاهر برقوق كأنها لم تكن ، وقد قاسى مشقة ورعبا فى مدة اختفائه ، وقد قيل فى المعنى :

انى تأملت للعليا فلم أرها

تنال الا على كد من التعب

ثم ان الأمير عيسى بن مهنا ، شيخ العرب ، تسلم السلطان برقوق وتوجه به الى نحو الكرك ، ورجع الأمير الطنبغا الجوباني الى القاهرة . فلما وصل السلطان برقوق الكرك سجن بالقلعة التى به وهو فى القيد . وكان نائب الكرك يومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى ، فأكرم الملك الظاهر غاية الاكرام ، وأنزله فى مكان عند الطارمة .

وكان سبب هذه العداوة التى وقعت بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق أن برقوق قبض على يلبغا الناصرى وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية مرتين : مرة فى دولة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، والمرة الثانية فى دولة الظاهر برقوق لما كان يلبغا نائب حلب . ثم ان برقوق أرسل مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى الأمير سودون المظفرى بقتل يلبغا الناصرى ،

فأطلع عليها يلغا الناصري وجري ما تقدم ذكره ... فهذا كان سبب العداوة بين يلغا الناصري وبين برقوق . واستمرت العداوة بينهما حتى بلغ يلغا من برقوق مناه ، وقيده ونفاه ، كما تقدم .

توقع كيد من خاصمت يوما
ولا تركز الى ود الأعادي

فان الجرح ينكت بعد حين
اذا كان البناء على فساد

وكان توجه السلطان برقوق الى الكرك في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمئة . فلما مضى أمر الظاهر برقوق واستقر بالكرك وقع الخلاف بين الأمير تمر بغا منطاش وبين الأتابكي يلغا الناصري ، ودبت بينهما عقارب الفتنة ، فأظهر الأمير منطاش أنه ضعيف وانقطع في بيته أياما . فلما بلغ الأمراء ذلك توجه الأمير الطنبا الجوباني رأس نوبة النوب ليسلم عليه ، فلما دخل الى بيته قبض عليه ، وكان ذلك في يوم الاثنين سادس عشر شعبان من سنة احدى وتسعين وسبعمئة .

فلما كان وقت الظهر ، والناس مقيلة في بيوتهم ، ركب الأمير منطاش هو ومماليكه وهم لابسون آلة الحرب — وكانوا نحو من أربعين مملوكا — فهجموا على باب السلسلة ، وأخذوا الذي بالاسطبل السلطاني ، ثم توجهوا الى بيت أقبغا الجوهري استادار العالية فنهبوا كل ما فيه ، والتف على منطاش السواد الأعظم من الزعر والغلمان والعبيد ، فهرب أقبغا الجوهري من بيته الذي على بركة الفيل .

ثم ان منطاش أرسل الأمير تنكز بغا اليلغاوي ، ومعه جماعة من المماليك ، فطلعوا الى سطح مدرسة السلطان حسن وصاروا يرمون على كل من يمشي في الرملة أو سوق الخيل ، فتسامعت

به ممالك الظاهر برقوق الذين كانوا قد اختفوا ، فظهروا وجاءوا الى منطاش ، وكذلك ممالك الأشرف شعبان ومماليك الأسياد . فاجتمع عند منطاش في أواخر النهار نحو خمسمائة مملوك ، وكان معه أول ماركب دون الأربعين مملوكا . فلما تسامع الأمراء والعسكر بذلك طلعوا الى الرملة وهم لابسون آلة الحرب ، فنزل اليهم الأتابكي يلغا الناصري ومن كان من عصبته من الأمراء والمماليك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان . وصار العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليع ، ثم يلتقطون النشاب الذي يرمونه جماعة يلغا الناصري ويحضرونه الى منطاش . ثم تكامل عند منطاش نحو ألفي مملوك ، وحضر عنده من الأمراء المقدمين أربعة ، وهم : المقر الشهابي أحمد بن يلغا العمري أمير مجلس ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى أمير سلاح ، والأمير الطنبا المعلم ، والأمير عبد الرحيم ابن منكلى بغا الشمسي ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

ثم ان الأمير منطاش قال للأمير ناصر الدين ابن الطرابلسي الزردكاشي : « انصب على مدرسة السلطان حسن مكحلة » ... فامتنع ناصر الدين ابن الطرابلسي من ذلك ، فعراه وقصد توسيطه . ثم انه نصب مكحلة على المدرسة ، ورمى بها على باب السلسلة ، فهرب المماليك الذين كانوا في الاسطبل .

ثم ان الأتابكي يلغا نصب مكحلة على المدرسة الأشرفية التي كانت في رأس الصوة ورمى بها على سوق الخيل فلم يهد من ذلك شيء .

ثم ان جماعة من المماليك السلطانية ، لما رأوا أن الأمير منطاش منتصف على الأتابكي يلغا ، صاروا

يتسحبون من عند يلبغا وينزلون عند منطاش ، واستمر الحرب سائرا بينهما يومين . فلما رأى الأتابكي يلبغا عين الغلب هرب تحت الليل هو وجماعة من الأمراء ، وهم : الأمير مأمور القلمطاوى أحد المقدمين ، والأمير الألبغا العثماني الدوادار ، والأمير أقبغا الجوهري استادار العالية ، والأمير كشكلي أحد المقدمين ، وبعض مماليك نحو مائتي مملوك ... فخرجوا من باب القرافة ، وتوجهوا الى الجبل المقطم ، وخرجوا من عند وادي السدرة وقصدوا نحو البلاد الشامية .

وكان الأتابكي يلبغا يظن أنه ينتصف على منطاش ، كما أنه قد انتصف على الملك الظاهر برقوق ... وما كل مرة تسلم الجرة . فكان كما قيل في المعنى :

وانى رأيت المرء يشقى لعكسه

كما كان قبل اليوم يسعد بالسعد

هذا ما كان من أمر الأتابكي يلبغا الناصري .

وأما ما كان من أمر الأمير ترمبغا الأفضلي منطاش فانه لما هرب الأتابكي يلبغا ، ركب وطلع الى باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا .

فلما كان في يوم الخميس تاسع عشر شعبان جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصري قد مسك هو والأمراء الذين كانوا صحبته من بلبيس فلما حضر يلبغا حبسه منطاش في المكان الذي حبس فيه الظاهر برقوق — والمجازاة من جنس العمل — فأقام أياما ، ثم قيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه الأمراء المقدم ذكرهم ، فنفي في هذه الحركة تسعة أمراء وغير ذلك من الأمراء العشراوات ممن كان في عصابة يلبغا .

ثم ان الأمير منطاش رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كان قد سجنهم يلبغا الناصري ،

فحضر من ثغر دمياط المقر السيفي سودون الفخري نائب السلطنة ، ثم أرسل باحضار الأمير شيخ الصفوى من المقدس ، وأفرج عن الأمير الطنبغا العثماني ، والأمير بطا الطولوتمرى ، والأمير الطنبغا شادى .

ثم ان الأمير منطاش عرض مماليك الظاهر برقوق في باب السلسلة ، ومسك منهم نحو مائتي مملوك وحبسهم في أبراج القلعة .

ثم ان السلطان الملك المنصور أمير حاج عمل الموكب في القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي ترمبغا الأفضلي منطاش واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا الناصري ، وخلع على الأمير استدمر الشرفي واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير تمان تمر الأشرفي واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير الطنبغا الحلبي واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير اياس الأشرفي واستقر به أمير اخور كبير . وأنعم على جماعة من الأمراء ممن كان من عصبته بتقادم ألوف ، وبامريات أربعين ، وبامريات عشرة . وفرق الاقطاعات على المماليك ، وأقام له عصابة قوية ، وظن أن الوقت قد صفا له .

ثم في العشر الأخير من شهر رمضان جاء الخبر من الكرك بأن الملك الظاهر برقوق قد ملك قلعة الكرك وعصى بها . وكان سبب ذلك أن الأتابكي منطاش أرسل شخصا من البريد يقال له الشهاب ، وأرسل على يده مرسوما شريفا الى نائب الكرك بقتل الملك الظاهر برقوق .

ومن العجائب أن منطاش مملوك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه في سنة سبع وثمانين وسبعمائة ، ورباه صغيرا ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشيا . وكان منطاش شجاعا بطلا ، فظهر منه بعض افساد

في القاهرة ، فضربه السلطان برقوق علقة قوية ونفاه الى البلاد الشامية . فلما عصى يلغا الناصري التف عليه منطاش ، وحضر معه الى القاهرة ، وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة ، وقيده ونفاه الى الكرك ... وما كفاه ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله ، فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل في المعنى :

كنت من كربتي أفر اليهم

فهمو كربتي فأين المفر ؟

فلما دخل الشهاب البريدى الى الكرك بلغ ذلك الملك برقوق . وكان للملك الظاهر في المكان الذي حبس فيه شباك الى جهة بلاد الخليل عليه الصلاة والسلام ، فكان برقوق في كل يوم يقف في الشباك ويقول : « يا خليل الله ، أنا في حبسك من منطاش » ... قيل ان شخصا من الصالحين رأى الخليل عليه الصلاة والسلام في المنام ، فقال له ان برقوق يعود الى ملكه ، وينصر على منطاش ...

فلما حضر الشهاب البريدى الى الكرك ، تنسم منه الحاج عبد الرحمن البابا الذي كان بخدمة الملك الظاهر برقوق بأنه جاء بقتل أستاذه برقوق . وكان أصل الحاج عبد الرحمن البابا من الكرك ، وله أقارب هناك . فلما كانت تلك الليلة التي قدم فيها الشهاب البريدى كانت نوبة أبي علوان السجان ، وكان من أقارب الحاج عبد الرحمن البابا ، فأنزلوا ذلك البريدى في مكان يسمى الطارمة بجانب المكان الذي فيه السلطان برقوق ، وكان نائب الكرك في كل ليلة من شهر رمضان لا يفطر الا عند السلطان برقوق . فلما كانت تلك الليلة لم يحضر فيها نائب الكرك المذكور ، فاضطرب الظاهر برقوق لذلك ، وقال : « لا آكل شيئا حتى يحضر النائب » ... ثم بعد ساعة حضر وأكل مع السلطان . فلما فرغوا

دخل أقارب الحاج عبد الرحمن البابا على الشهاب البريدى وهو في الطارمة فقتلوه ، ثم أرادوا قتل نائب الكرك فاستجار بالسلطان فمنعهم من قتله ، فقبضوا عليه وسجنوه ، وملك الملك الظاهر قلعة الكرك ... فهذه كانت مبدأ سعد الملك الظاهر برقوق ، وقد قاسى من المحن والأهوال أمرا عظيما ، فكان كما قيل في المعنى :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه

ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اضطباره

فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

فلما جاءت الأخبار بأن برقوق قد ملك قلعة الكرك ، اضطربت أحوال الأتابكي منطاش ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد . ثم انه أحضر العسكر وعين تجريدة الى برقوق .

ثم في أثناء ذلك حضر شخص من العربان الشامية وأخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد طرده أهل الكرك وأنزلوه من القلعة وهرب الى خارج المدينة ، وان العربان قد أحاطوا به ... ولم يكن لذلك صحة ، وانما السلطان برقوق أرسل هذه الهجان بهذا الخبر الى مصر حتى يبطل أمر التجريدة التي كانوا عينوها له الى أن تستقيم أحواله .

فلما سمع الأتابكي منطاش بهذا الخبر فرح ، وخلع على ذلك الهجان كاملية بسمور ، وبطل أمر التجريدة ، فكانت هذه أول مكيدة صحت بيد برقوق .

ثم في خامس عشر شوال جاءت الأخبار من قوص بأن ممالك الظاهر برقوق الذين كانوا هناك قد توجهوا الى الكرك من وادي القصب الى السويس ، وقد قتلوا والى قوص .

ثم في أثناء ذلك جاءت الأخبار من حلب بأن

كمشبعنا الجموى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة .

ثم جاءت الأخبار بأن الظاهر برقوق قد خرج من الكرك وهو قاصد نحو الشام ، فلاقاه حسام الدين بن باكيش نائب غزة ومعه جماعة من عربان جبل نابلس نحو خمسة آلاف انسان ، فأوقعوا مع الظاهر برقوق في الطريق واقعة قوية ، وكان الظاهر برقوق قد التف عليه من عربان الكرك نحو ألف انسان . فلما خرج من الكرك تسامعت به الناس فجاءوا اليه ، وصار كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها ويلاقونه ومعهم العليق والضيافة . فلما لاقاه ابن باكيش نائب غزة ، وانكسر من كان مع ابن باكيش من العسكر ، لهبهم عسكر برقوق وغنموا منهم خيولا وسلاحا وقماشاً وبركا ، فقوى عسكر برقوق بتلك الغنيمة . فلما وصل برقوق الى شقحب خرج اليه عسكر دمشق ، وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة ، فقتل بها من أمراء دمشق ستة عشر أميراً ، ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً ، وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير اينال اليوسفى خرج من السجن وملك قلعة صفد . وسبب ذلك ان اينال اليوسفى كان مسجوناً بقلعة صفد . وكان داودار نائب صفد شخصاً يقال له يلبغا السالمى ، وكان أصله من ممالك الظاهر برقوق . فلما خرج نائب صفد من المدينة وتوجه الى نحو دمشق ليساعد نائب دمشق على قتال الظاهر برقوق بقيت صفد خالية بلا نائب ، فاتفق يلبغا السالمى مع حاجب صفد ونائب القلعة ، وأخرجوا الأمير اينال اليوسفى من السجن ، وأخرجوا معه جماعة من المماليك الذين كانوا معه في السجن وملكوا قلعة صفد . فلما بلغ ذلك نائب صفد رجع الى صفد وأراد أن يدخل الى دار السعادة ، فرموا عليه بالمدافع وطرده من

المدينة ، واستولى اينال اليوسفى على قلعة صفد ، ونهب حواصل قتلوك بك نائب صفد ، فقويت شوكة الظاهر برقوق .

ثم جاءت الأخبار بأن نائب صفد ونائب حماه قد وصلا الى قطيا وهما هاربان من الظاهر برقوق ، فدخلوا الى القاهرة في يوم الأحد خامس عشرى شوال ، فأخبروا الأتابكى منطاش بأن أكثر النواب خامر مع الظاهر برقوق .

فلما سمع منطاش ذلك عقد مجلساً عظيماً في القصر الكبير ، وأرسل خلف أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى . فلما تكامل المجلس عرض عليهم الأتابكى منطاش سؤالاً شرحه : « ما تقول السادة العلماء في رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك ، وقتل رجلاً شريفاً في الشهر الحرام في البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين ؟ » ... ثم كتبوا من هذا السؤال عدة نسخ . فقال القضاة : « ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى » . فكتب الشيخ سراج الدين البلقينى : « اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته ، فهو خارجى » . فلما كتب شيخ الاسلام ذلك كتب بعده القضاة ومشايخ العلماء ، وكتبوا من هذا السؤال عدة فتاوى ، ثم أرسلوها الى ثغر الاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الثغور ... وكان الظاهر برقوق في أول سلطنته وقع منه أمور فاحشة في حق الرعية ، فكان كما قيل : « اذا حملت الأنفس ما لا تطيق ، نطق الألسن بما لا يليق » ...

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن الظاهر برقوق بعد أن دخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل في

الميدان ، كبس عليه أهل دمشق ، وأخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد . وكان سببه أن الظاهر برقوق لما وصل الى دمشق نزل عند قبة اليلبغا خارج دمشق . فأقام هناك ، فجاء اليه كمشبعاً الحموى نائب حلب ، فوجد الظاهر برقوق في خيمة خلقة صغيرة ، فأحضر له خيمة مدورة عظيمة ، وأحضر طشتخانه وشرابخانه وفرشخانه وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك من أوان وفرش حتى أحضر له الخليفة برسم النوبة ، وصار الظاهر برقوق سلطاناً كما كان أولاً بعدما كان قد تلاشى أمره ، فكان كما قيل :

الصبر مثل اسمه في كل نائبة
لكن عواقبه أحلى من العسل
فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
في حادث الدهر ما يغنى عن الحيل

ثم ان الظاهر برقوق لما استقامت أموره ، حضر بمن معه من العساكر ودخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل بالميدان الكبير ، فجاء اليه الناس من كل فج وقدموا اليه الخيول والقماش والمال وغير ذلك . فبينما هو في الميدان اذ قامت بدمشق عركة ، ورجموا الملك الظاهر برقوق وأخرجوه من الشام . وكان سبب ذلك أن بعض مماليك برقوق عبث على بعض سوقة دمشق وأخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب ، فاستغاث ذلك السوقى ، فحضر اليه جماعة من أهل دمشق وتعصبوا له ، فهاش عليهم ذلك المملوك وضربهم ، فرجمه أهل دمشق ، فجاء خشدائى ذلك المملوك ورموا على عوام دمشق بالنشاب ، فتكاثر على المماليك العوام بالحجارة والمقاليح ، فكسروا المماليك كسرة قوية . فركب الظاهر برقوق ومن معه من الأمراء وخرجوا من دمشق الى قبة اليلبغا ، فدخل العوام الى الميدان ،

ونهبوا برك الظاهر برقوق ، وغلقت أبواب دمشق بعد ما كانت مفتحة ، وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراج أمره ، فتعطل بسبب ذلك كما قيل : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

ويقرب من هذه الواقعة ما ذكره بعض المؤرخين أن أهل قريتين تقاتلوا حتى تفانوا عن آخرهم على قطرة عسل . وسبب ذلك أن رجلاً نحالاً يبيع العسل وقف على زيات لبيعه عسلاً . فبينما الزيات يزن في العسل ، قطرت منه قطرة على الأرض ، فوقع عليها رنبور ، فوثب عليه قط كان في دكان الزيات وهو عزيز عنده ، فخطف ذلك الرنبور ، فرآه كلب كان مع صاحب العسل وهو عزيز عنده ، فوثب على قط الزيات فقتله وأكله . فلما رأى الزيات قطه قد مات ضرب كلب صاحب العسل فقتله . فلما رأى صاحب العسل كلبه قد مات خرج من عقله — وكان ذلك الكلب عزيزاً عنده — ف ضرب الزيات ضربة فقتله فلما رأى أخو الزيات أخاه قد قتل ، وثب على صاحب العسل فقتله . وكان صاحب العسل من قرية والزيات من قرية ، فتسامع أهل القريتين بذلك فلبسوا السلاح ، وما زالوا يتقاتلون بالسيف والرمح ، والحرب سائرة بينهم ، حتى تفانوا عن آخرهم ... وكان سبب ذلك القطرة العسل التى أثارت هذه الفتنة العظيمة .

فنعوذ بالله من آفة الجهل ، وقلة العقل ، كما قيل في المعنى .

ألم تر أن العقل زين لأهله

ولكن تمام العقل طول التجارب

ومن هنا نرجع الى أخبار الأتابكى منطاش ... فانه لما سمع ذلك عن الظاهر برقوق لم يثق بهذا الكلام ، وأخذ في أسباب خروج العسكر ، والسلطان الملك المنصور أمير حاج ، الى نحو

الشام لقتال الظاهر برقوق . فلما تحرك أمر التجريدة حصل للناس غاية الضرر من الأتابكى منطاش ، وتمنى كل أحد عود الملك الظاهر برقوق الى الديار المصرية . وكان قد جرى من الأتابكى منطاش عند خروج التجريدة أمور منها أنه أخذ خيول الطواحين جميعها حتى غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضا ، ومنها أنه نادى فى القاهرة بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرسا ، ومنها أنه أمسك جماعة من مماليك الظاهر برقوق وسجنهم بخزائن شمائل ، ومنها أنه سد باب الفرج — وكان ذلك فألا عليه — وسد باب حمام أيدغمش ، ومنها أنه رمى على جماعة من المباشرين بالايوان الشريف خمسمائة فرس من الخيول الخاص ، ومنها أنه رمى على أولاد الناس أجناد الحلقة كل واحد فرسا أو ثمنه ، ورمى على الحجاب المقيمين بالقاهرة كل واحد ثمن فرس خمسين دينارا ، وفرع من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

كفى المرء نقصا أن يرى عيب غيره

وما عاب منه الناس غير معيب

ثم ان السلطان علق الجاليش وأنفق على العسكر، فرسم الأتابكى منطاش لكل مملوك من المماليك السلطانية بنفقة دون المائة دينار ، فأخذوا ذلك على كره منهم وأظهروا العصيان ، وكثر القيل والقال فى حق المقر الأتابكى منطاش . ثم أشيع بين الناس أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر وهرب ، وأن رأس اينال اليوسفى قد قطعت وهى واصله الى القاهرة ، فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام ، وزينت القاهرة ... وكل ذلك أخبار مصنوعة ليس لها صحة ، وانما هى اشاعة لتطمئن خواطر العسكر وهذه حيل منطاش .

ثم ان السلطان برز خيامه فى الريدانية وكذلك سائر الأمراء .

فلما كان يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، نزل السلطان الملك المنصور أمير حاج من القلعة ، وصحبته الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الأربعة — وهم : قاضى القضاة أبو البقا السبكى الشافعى ، وقاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى الحنفى ، وقاضى القضاة جمال الدين بن خير المالكى ، وقاضى القضاة ناصر الدين بن العسقلانى الحنبلى — وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، فنزل فى موكب عظيم الى الريدانية .

ثم ان السلطان ترك بالقاهرة من الأمراء المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ورسم له بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان ، وجعل الأمير تكا الأشرفى نائب الغيبة مع الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا السيفى تمر باى حاجبا ثانيا ومعه جماعة من الحجاب ، وترك جماعة من المماليك السلطانية نحو خمسمائة مملوك ، ورسم لهم بأن يتوزعوا فى أبراج القلعة وجوانب المدينة .

ثم ان فى يوم الجمعة رحل السلطان من الريدانية فلما وصل الى العكرشا وقع من أعلى الفرس الى الأرض فتفائل له الناس بعدم النصر . وكان أكثر العسكر مائلا الى الملك الظاهر برقوق ، وما مع الأتابكى منطاش من العسكر الا القليل .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من أمر الأمراء الذين بالقاهرة بعد خروج السلطان فان الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، لما رحل السلطان من القاهرة ، أمر بسد أبواب القلعة ، وهى : باب الدرفيل ، وباب الميدان ، وباب

القرافة ، وسد بعض أبواب القاهرة الصغار . ثم ان نائب الغيبة رمى على أولاد الناس المقيمين بالقاهرة كل واحد فرسا أو ثمنه ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل ، وصارت القاهرة كل يوم في اضطراب وقلة أمن .

وفي هذه السنة توفي الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، وكان من أعيان العلماء وله شعر جيد في البديع ، فمن ذلك قوله في صاحب كريم الدين ابن الغنام :

وزير الملك عيد ألف عيد

فأنت صاحب الخلق الجليل

فمنك غنيت في الأضحى بكبش

ملء بالغنى كاف كفيل

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة (١٣٩٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من غزة بأن أكثر العسكر تسحب من عند الملك المنصور وتوجهوا الى الظاهر برقوق .

ومن الحوادث بالقاهرة أن جماعة من مماليك الأمراء اتفقوا مع مماليك الأمير صراى تمر نائب الغيبة على قتل أستاذهم صراى تمر . فلما تحقق صراى تمر ذلك أرسل الأمير قطلوبغا الحاجب ، ووالى القاهرة ، فكبسا على جماعة من المماليك الذين هم رأس الفتنة في مكان في البرقية ، فمسكا منهم ستة أنفس وهم لابسون آلة الحرب . فلما قبضا عليهم أحضراهم الى الأمير صراى تمر نائب الغيبة فعاقبهم وقررهم فأقروا بأنهم قصدوا قتل جماعة من الأمراء ، فسجنهم بخزانة شمائل .

ثم ان الأمير صراى تمر أرسل يعرف الأمير تكا الأشرفى رأس نوبة ثانى عما وقع من هذا ، فلما أشيع ذلك بين الأمراء قبض كل أمير من الأمراء على جماعة من مماليكه ، فمسكوا منهم نحو

خمسين مملوكا وسجنوهم . ثم ان الأمير صراى تمر أرسل فقبض على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق وسجنه بالقلعة .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة نادى في القاهرة بأن كل من مسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له عشرين دينارا . فلما جرى ذلك اضطربت القاهرة ، وأشاعوا بأن المماليك الذين في القاهرة يقصدون الوثوب على الأمراء . فلما تحقق الأمير صراى تمر ذلك ما وسعه الا أنه رسم بالافراج عمن سجن من المماليك قاطبة ، والافراج عن سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق ، ونزل الى بيته .

ثم في يوم الخميس حضر هجان من الشام وعلى يده مراسيم الى الأمراء بأن السلطان الملك المنصور دخل الى الشام وملكها ، وأن الملك الظاهر برقوق هرب من وجهه ولم يقابله ، فخلعوا على الهجان الذى جاء بهذا الخبر خلعة عظيمة ، ودقت البشائر ثلاثة أيام ... ثم ظهر بأن هذا الخبر كذب مصنوع ليس له صحة ، وفعلوا ذلك لتطمئن الرعية .

ثم في يوم الأحد سابع عشرى المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أشيع بين الناس بالقاهرة بأن الظاهر برقوق قد انتصر على الملك المنصور أمير حاج ، ثم انقطعت هذه الأخبار مدة طويلة فلما كان ليلة الأربعاء مستهل شهر صفر حدث في تلك الليلة أن جماعة من المماليك السلطانية كانوا بائتين في القلعة ، فنقبوا حائطاً وأخرجوا جماعة من المماليك الذين كانوا في السجن بالقلعة ، فلما كثروا جاءوا الى باب القلعة الذى ينزل الى باب السلسلة فوجدوه مقفلا فعبثوا فيه بعتلة حديد ، فلما أحس بهم الحراس ضربوا أحد الحراسين بالسيف فمات من وقته ، فهرب بقية الحراس لما رأوا ذلك ، فخلع

المماليك الباب ، ونزلوا الى الاسطبل السلطاني ، وجاءوا الى باب السلسلة ، فوجدوا الحراس قد ناموا وكان ذلك في آخر الليل ، فضربوا من الحراس اثنين فماتا ، وأخذوا منهم مفتاح باب السلسلة ففتحو الباب ونزلوا الى الرميلة ... هذا كله والأمير صراى تمر نائم في حريمه لم يشعر بشيء من ذلك . فلما أحس بهذا الأمر نزل من سور الاسطبل في حبل الى الرميلة ، ثم توجه الى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب .

ثم ان المماليك تحايوا وكثروا ، فلما أصبح الصباح فتحو أبواب القلعة وأخرجوا من كان في الأبراج من المماليك مسجوناً ، وكذلك من كان في خزانة شمائل ، ثم طلعوا الى الاسطبل السلطاني وأخذوا ما كان به من الخيول ، وطلعوا الى الطليخانات السلطانية ، وأحضروا جماعة الغلمان والعبيد وقالوا لهم دقوا الكؤوسات حربياً .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة والأمير قطلوبغا الحاجب ركبا ولبسا آلة الحرب ، ووقفا بسوق الخيل — وكان الأمير بطا الطولوتمرى قد ملك باب السلسلة — فلما طلع الأمير صراى تمر والأمير قطلوبغا الى سوق الخيل نزل اليهم الأمير بطا مع جماعة من المماليك الظاهرية ، فأوقعوا معهم واقعة قوية ، فانكسر الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، والأمير قطلوبغا الحاجب ، فذهب العوام بيوتهم ومن كان من عصبتهم من الأمراء والمماليك .

ومن غرائب صنع الله تعالى أن القاهرة اضطربت لهذه الواقعة ، وكانت المدينة سائبة — لا سلطان بها ولا قاضى ولا حاكم — ومع هذا لم يفقد لأحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد ، وكانت الزعر مائجة في المدينة ، ولم يتعرضوا لأحد من الناس بسوء ، ولا نهبوا لأحد شيئاً من الدكاكين ولا

البيوت ولا الأسواق ، وكان حفظاً من الله تعالى ، فكان كما قيل في المعنى :

لهم لا نرجى الفضل من ربنا
أم كيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحين أتى أنه
بعبدته أشفق من أمه

ثم ان الأمير بطا خلع على شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن العادلى واستقر به والى القاهرة عوضاً عن حسين بن الكورانى . ثم ان محمد بن العادلى نادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد ، والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر ، فضج الناس له بالدعاء ... وهذا كله جرى بالقاهرة ولم يعلم للملك الظاهر برقوق خبر ، ان كان قد انتصر أو انكسر .

ثم ان المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ركب بنفسه وشق القاهرة ، ونادى قدامه بالأمان والاطمئنان ، والدعاء للملك الظاهر برقوق ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فنودى للخطباء بأن يخطبوا باسمه في ذلك اليوم .

ثم ان الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا ، وجماعة من الأمراء طلعوا الى باب السلسلة صحباً المقر السيفى سودون النائب وفي رقابهم مناديل . فلما طلعوا الى باب السلسلة قيدهم الأمير بطا وسجنهم بالقلعة . وكان الأمير بطا من ممالك الظاهر برقوق ، وكان يومئذ أمير عشرة ، ولكن خدم سعيده لسعد أستاذة برقوق كما قيل في المعنى :
ملك نداه المبتدأ للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه حكم القضاء والقدر
فلما كان يوم السبت أواخر شهر صفر حضر الى القاهرة جلبان الخاصكى وصحبته الأمير عيسى بن

مها شيخ العرب ، وأخبروا بأن الملك الظاهر برقوق قد انتصر على منطاش ، وهو واصل الى غزة . فلما سمع ذلك الأمير بطا دق الكؤوسات ، ونادى بالزينة في القاهرة . وكتب مراسيم وأرسلها الى ثغر الاسكندرية ودمياط والصعيد بنصرة الملك الظاهر برقوق على منطاش .

ثم ان الأمير بطا خلع على الأمير حسين بن الكوراني ، واستقر به والي القاهرة كما كان أولا . ثم في يوم الأحد ثاني ربيع الأول حضر هجان على يده مراسيم شريفة متوجة بخط الملك الظاهر برقوق ، مضمونها أن الأمير بطا يجهز الاقامات الى قطيا .

ثم بعد ذلك حضر شيخ العرب زيد بن عيسى شيخ العائد وأخبر بما جرى للملك الظاهر برقوق مع الملك المنصور أمير حاج ومع الأتابكي منطاش . فأخبر أن الملك المنصور لما وصل شقحب تلاقي هناك هو والملك الظاهر برقوق ، فحصل بين العسكرين واقعة عظيمة لم يسمع بمثلا ، وذلك في يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فلما التقوا هناك على شقحب انكسر الملك الظاهر برقوق كسرة قوية وهرب ، وأسر الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر وجرح . فلما انكسر الظاهر برقوق وولى دخل الأتابكي منطاش الى الشام ومعه الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وهو أسير . ثم ان الأتابكي منطاش قال لنائب الشام الأمير نجر دمر : « اخرج أنت وعسكر الشام ولاقي الملك المنصور » ... وكان الملك المنصور لما انكسر برقوق أخذ الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وخزائن المال وبعض جماعة من العسكر ، ونزل تحت جبل خارجا عن الشام بيوم .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور والأتابكي منطاش .

وأما ما كان من امر الملك الظاهر برقوق بعد كسرتة ، فانه هرب هو والأمير كمشيبغا الحموي نائب حلب . فأما نائب حلب فتوجه تحت الليل الى حلب ودخلها ، ثم حصن المدينة وظن أن الظاهر برقوق قد تلاشى أمره . وأما الملك الظاهر برقوق فانه لما انكسر هرب في نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه بعض العرب وأخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر — وكانوا نحو أربعين سانا — فألقى الله الرعب في قلوب عسكر المنصور ، وغلت أيديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالبار على الطائر ، واحتوى على كل ما معهم من البرك والقماش والسلاح وخزائن المال . فلما جرى ذلك تسامع به الناس فجاءوا اليه أفواجا من كل مكان ، كما قيل : « اذا استقام نجم سعدك ، فاصنع مع السعد ما شئت » ... فبات برقوق هناك تلك الليلة .

فلما بلغ ذلك منطاش حضر — ومعه عساكر الشام والسواد الأعظم من دعر دمشق — فحصل بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى ، وقتل بها ما لا يحصى من الخلائق ، واستمرت الحرب سائرة بينهم من باكر النهار الى غروب الشمس ، فانكسر الأتابكي منطاش وعسكر الشام كسرة قوية ، فولوا هاربين الى نحو دمشق ، وصار القتل على الأرض مثل الحصا من أهل الشام وعسكر مصر ، وربما عوقب من لم يجن كما قيل :

حب السلامة يشنى عزم صاحبه

عن المعالي ويغرى المرء بالكسل

فلما جرى ذلك أقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب يومين . ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين الملك

الظاهر برقوق وبين الملك المنصور أمير حاج في أن يخلع نفسه من الملك ويسلم الأمر الى الملك الظاهر برقوق ، فأجاب الملك المنصور الى ذلك ، وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة ، وخلع نفسه من الملك وأشهدوا عليه بذلك .

ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا الملك الظاهر برقوق بالسلطنة ، وذلك بمنزلة شقحب .

ثم ان الظاهر برقوق أقام هناك تسعة أيام ، فوقع في العسكر الغلاء وعز الشعير والتبن والقمح حتى بيعت كل بقسمطة بخمسة دراهم شامية ، وبيع كل فرس بعشرين درهما شامية — لعدم العليق — وكل جمل بعشرة دراهم ولم يوجد من يشتريه بهذا السعر ، وبيعت القطعة السكر بثقلها فضة ولم توجد ... فقلق العسكر قاطبة وهموا بالوثوب على برقوق ، فلما رأى ذلك عزم على التوجه الى نحو الديار المصرية ، فخلع عند رحيله على الأمير اياس الجرجاوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير قديد القلمطاوى واستقر به نائب الكرك .

ثم انه أمر العسكر بأن يرحلوا أولا بأول ، فرحلوا من شقحب وبقي الظاهر برقوق والخليفة والملك المنصور وبعض أمراء ومماليك سلطانية ، فلما بلغ منتطاش ذلك خرج من الشام ومعه نحو مائتى انسان من عسكر دمشق ، ووقف على تل عال خارج عن دمشق ، فلما بلغ الظاهر برقوق ذلك ركب وخرج اليه ، فوقف كلاهما هناك ساعة ولم يقع بينهما قتال .

ثم ان منتطاش رجع الى الشام ، ورجع برقوق ثم رحل من شقحب وقصد نحو الديار المصرية ، فسار هو والخليفة والقضاة الأربعة والملك المنصور .

فلما وصل الظاهر برقوق الى غزة قبض على

نائب غزة الأمير حسين بن باكيش — وكان وقع منه في حق الظاهر برقوق لما خرج من الكرك ما قد تقدم ذكره — ثم قيده وأخذه صحبته الى القاهرة . وخلع على الأمير علاء الدين بن أقبغا السلطانى واستقر به نائب غزة عوضا عن ابن باكيش .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن صفر حضر الى القاهرة أقبغا الطولوتى المعروف بالكاش — وهو أخو الأمير بطا وكان قد أرسله الى كشف الأخبار — فلما رجع أخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد خرج من غزة وهو قاصد نحو الديار المصرية ، فنادى الأمير بطا بالزينة ، فزينت القاهرة ودقت البشائر سبعة أيام . ثم ان الأمير بطا أرسل بالافراج عن جماعة من الأمراء قد كانوا بالسجن بشعر الاسكندرية ودمياط ، وهم الأمير الطنبغا العثمانى ، والأمير عبدون العلانى ، والأمير مامق .

ثم ان الأمير بطا قبض على الأمير حسام الدين ابن الكورانى ، والى القاهرة ، وضربه وسجنه . وسبب ذلك أنه كان يكبس على مماليك الظاهر برقوق ويقبض عليهم من اصطبلات الحارات ، فلما انتصر برقوق قال له الأمير بطا : « اقبض على مماليك منتطاش كما كنت تقبض على خشداشيننا من الاصطبلات » ... فصار يختلع في ذلك ، فقبض عليه الأمير بطا وضربه وسجنه ، ثم استقر بالصارمى والى القاهرة عوضا عن ابن الكورانى ... هذا كله قبل وصول الملك الظاهر برقوق .

فلما كان يوم الخميس تاسع صفر ، حضر الى القاهرة الأمير سودون الطيار وعلى يده مثالات شريفة الى سائر الأمراء بالسلام ، وأخبر الأمير سودون بأنه قد فارق السلطان فى الصالحية ، فخرج أكثر الناس الى ملتقاه .

فلما كان يوم الثلاثاء وصل الى بركة الحاج ، فخرج اليه الناس قاطبة من الأمراء والعلماء وأعيان الناس وسائر الرعية من العوام وغيرهم ، حتى طائفة الصيادين بشبكاتهم ، وطائفة الجيوش ومعهم صنجق وطبل وهم يرقصون ، وخرج اليه طائفة اليهود وطائفة النصارى وفي أيديهم الشموع والرايات ...

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر صفر ، دخل السلطان الملك الظاهر برقوق وطلع الى القلعة ، فكان له موكب عظيم ، فشقق من بين التراب ، واليهود والنصارى قدامه بالشموع تشعل ، وهو راكب والأمراء مشاة بين يديه ، والخليفة المتوكل قدامه والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر قدامه ، وسائر الجند من شيخ وصبي . وكان الملك المنصور أمير حاج راكبا عن يمينه وحملت القبة والطير على رأسه ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، وانطلقت له النساء بالزغاريط . فلما وصل الى تربة طيغا الطويل فرشت له الشقق الحرير . فلما وصل الى أوائل الشقق ثنى عنان فرسه عن الشقق ، وأشار الى الملك المنصور أمير حاج بأن يمشى بفرسه على الشقق جبرا لقلبه ... فدعا له الناس بالنصر .

فلما أن وصل الرميطة ، طلع الى باب السلسلة وجلس به ، واجتمع الخليفة والقضاة الأربعة ، فجددوا له البيعة ثانيا ، وأشهدوا على الملك المنصور بالخلع .

فلما انقضى المجلس قال الملك الظاهر برقوق للملك المنصور أمير حاج : « اطلع سلم على أمك » ... فقام الملك المنصور وقدموا له الفرس ، فركب من المقعد الذى فى الاصطبل . فلما ركب قام له الملك الظاهر وعضده من تحت ابطه حتى ركب ، وبالنح فى تعظيمه ، فدعا له الناس بالنصر .

فلما طلع المنصور من الاصطبل السلطانى توجه الى دور الحرم ، فدخل اليها وهو فى غاية التعظيم بخلاف من تقدم من أقاربه . فلما دخل الى دور الحرم أقام بها فى غاية الحفظ ، فكان آخر من تولى السلطنة بالديار المصرية من ذرية بنى قلاون ، وبه قد زال عنهم الملك كأنه لم يكن .

ومن جملة سعد الملك الظاهر برقوق أنه من حين خلع من السلطنة وعاد اليها لم يجلس أحد على مرتبته الى أن عاد اليها . وكانت سلطنة الملك المنصور أمير حاج عبارة عن نيابة عن الملك الظاهر برقوق الى أن عاد الى السلطنة ، وكان أمر السلطنة جميعها بيد الأتابكى منطاش .

وكان من جملة سعد الملك الظاهر برقوق ، أنه من حين خرج من الكرك وتوجه الى الشام ، وخرج اليه المنصور وجرى فى القاهرة ما تقدم ذكره من مسك الأمراء وغير ذلك ، كانت الخطبة باسم الظاهر برقوق على منابر القاهرة قبل دخوله اليها ، ودخل الى القاهرة من غير قتال ولا حرب . وقد تقدم ما فعله الأمير بطا قبل دخول الظاهر الى القاهرة ، وخدم سعد برقوق فى هذه الولاية الثانية الى أن مات على فراشه وهو سلطان كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن جملة سعد برقوق أن الملك المنصور نزل له عن السلطنة بدمشق طائعا ، ولم يختلف عليه اثنان .

ومن غرائب الاتفاق أن قلاون لما تولى الملك تلقب بالملك المنصور ، وآخر من تولى الملك من ذريته تلقت بالملك المنصور .

وأغرب من هذا أن الملك المنصور قلاون الألفى كان قد أخذ الملك من أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، والملك الظاهر برقوق أخذ الملك من أولاد الملك المنصور قلاون — وفى المثل

« كما تدين تدان » - فكانت مدة سلطنة الملك المنصور أمير حاج في هذه المرة ثمانية أشهر وستة عشر يوما الى يوم خلعه بشقحب ، وكان الأتابكي منطاش في هذه المدة هو السلطان ، يعزل من يشاء ويولى من يختار من عصبته ، وقد قال بعض الزجالة هذا المطلع :

من الكرك جانا الظاهر وجب معو أسد الغابه
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت الا كدابه
ولما دخل الملك أمير حاج الى دور الحرم أقام بها الى أن مات على فراشه في ليلة الاربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وذلك في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وصلى عليه بالقلعة ودفن في تربة جدته خوند بركة التي بالتبانة ، ومات وله من العمر نحو سبع وأربعين سنة ، وقيل انه مات وهو مقعد في الفراش مما حصل له في يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الملك الظاهر برقوق ، واستمرت الطربة معه حتى مات . وقد قال القائل في المعنى :

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرحا وحزنا تارة لا الحزن دام ولا السرور

عَوْدُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بَرْقُوقَ

عاد الى السلطنة الملك الظاهر برقوق بن أنص --- وقيل أنص --- العثماني ، وهي السلطنة الثانية .

لما حضر من دمشق ، ودخل القاهرة ، جلس في باب السلسلة كما تقدم ذكر ذلك . فلما بايعه الخليفة بحضرة القضاة أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر وجلس على سرير الملك ، وذلك في يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة .

ومن العجائب أن سلطنته الأولى كانت في يوم الأربعاء وسلطنته الثانية كانت في يوم الأربعاء .

ولما جلس على سرير الملك نودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، وبطل القيل والقال من بين الناس ، وقد قال القائل في المعنى :

ملك به اخضر الزمان كأنما

أيام دولته ربيع ثانی

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيقي سودون الفخري الشيوخوني واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على المقر السيقي اينال اليوسفي واستقر به أتابك العساكر عوضا عن تمرغا الأفضلي منطاش ، وخلع على المقر السيقي كمشبا الأشرفي المعروف بالخاصكي واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوباني واستقر به رأس نوبة النوب على عادته ، وخلع على الأمير بطا الذي جرى منه ما تقدم ذكره واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير تكلمش العلاني واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على الأمير تنجاص السودوني واستقر به حاجب الحجاب .

ثم رسم بالافراج عن المقر السيقي يلبغا الناصري الذي كان نائب حلب وخامر على السلطان ، وجرى منه ما جرى ، وكان سببا لزوال ملك الملك الظاهر برقوق كما تقدم . فلما عاد الملك الظاهر في هذه المرة زال ما كان بينه وبين يلبغا الناصري من العداوة ورسم بالافراج عنه . فلما حضر خلع عليه واستقر به أمير سلاح . ولما نفى يلبغا الناصري كان أتابك العساكر ، فلما رجع في هذه المرة استقر أمير سلاح .

ثم ان الملك الظاهر أفرج عن جماعة كثيرة من الأمراء ممن كانوا في السجن بشعر الاسكندرية . فلما حضروا خلع على الأمير الطنبغا الجوباني

واستقر به نائب الشام ، ثم خلع على الأمير قرا
دمرداش الأحمدي واستقر به نائب طرابلس ،
وخلع على الأمير القلمطاوي واستقر به نائب
حماء ، وخلع على الأمير أرغون الغلماني واستقر به
نائب ثغر الاسكندرية ، وخلع على الأمير مقبل
الرومي واستقر به أمير خازندار . وأنعم على جماعة
كثيرة من الأمراء بتقادم ألوف وامريات أربعين
وامريات عشرة . واستقامت أموره في السلطنة أعظم
من المرة الأولى . ثم بعد ذلك خلع على جماعة من
أرباب الدولة من المباشرين ، فخلع على القاضي
علاء الدين الكركي العامري واستقر به كاتب السر
الشريف بالديار المصرية ، وخلع على القاضي
موفق الدين أبي الفرج واستقر به ناظر الجيوش
المنصورة ووزير الديار المصرية على عادته ،
وخلع على القاضي كريم الدين بن عبد العزيز
واستقر به ناظر الخواص الشريفة ، وخلع على
الأمير قرقماس الطشتمري واستقر به استادار
العالية ... فثبت قواعد دولته ، وأجرى كل أحد
على عادته ، فكان أحق بقول القائل :

تاب الزمان اليك مما قد جنى

والله يأمر بالمتاب ويقبل

ان كان ماض من زمانك قد مضى

باساءة قد سرك المستقبل

هذا بذاك فشفع الثاني الذي

أرضاك فيما قد جناه الأول

واليسر بعد العسر موعود به

والنصر بالفرج القريب موكل

والله قد أولاك أمر عباده

لما ارتضاك ولاية لا تمزل

واذا تولاك الاله بنصره

وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

فلما كان يوم الثلاثاء خامس ربيع الأول من

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جلس السلطان في
الميدان الذي تحت القلعة ، وحكم بين الناس على
عادته ، ثم بعد مدة أيام قبض على جماعة من الأمراء
وهم : يلغا المنجكي ، وطشبا السيفي تمر باي ،
وصربغا الناصري ، وتلكتمر المحمدي ، وعلى
الجركتمري ، ومنكلي بغا المنجكي . فلما قبض
عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بشجر
الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على القاضي
سعد الدين بن البقري واستقر به وزيرا عوضا عن
موفق الدين أبي الفرج ، وخلع على صاحب
علم الدين سنبرة واستقر به ناظر الدولة الشريفة ،
وكان في قديم الزمان أن الوزير اذا انفصل من
الوزارة يستقر ناظر الدولة طوعا أو كرها ويلزمه
السلطان بذلك .

ثم لما كان يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول حضر
الى الأبواب الشريفة السيفي كزل مملوك يلغا
الناصري ، وصحبته جماعة من أعيان دمشق ،
فأخبروا بأن منطاش قد ملك مدينة بعلبك ، وقد
التف عليه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر
صفد ومن عسكر طرابلس ، والتف عليه جماعة
كثيرة من عربان جبل نابلس ، وقد نهب عدة ضياع
من البلاد الشامية ، فأخذ السلطان حذره من ذلك .

وفيهما في يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأول
خلع السلطان على الأمير جمال الدين محمود ابن
على الظاهري ، واستقر به استادار العالية وناظر
الخواص الشريفة ومشير الدولة ، فتزايدت عظمته
الى الغاية ، وخلع السلطان على الأمير علاء الدين
ابن الطبلاوي واستقر به والي القاهرة عوضا عن
الصارمي .

وفي يوم الخميس حادي عشرى رجب جاءت
الأخبار من حلب بأن منطاش أرسل شخصا يسمى

ثمان تمر الأشرفى الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب
كشيبغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب ، فما
صدقوا بهذه الحركة ، فحاصروا نائب حلب أشد
المحاصرة وتعصبوا الى منطاش ، فنقبوا القلعة من
ثلاثة مواضع ، فصار كمشيبغا نائب حلب يقاتلهم
من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك
نحو ثلاثة أشهر ، فانتصر كمشيبغا نائب حلب على
ثمان تمر الأشرفى الذى ولاه منطاش على حلب ،
فانكسر ثمان تمر وولى هاربا .

ثم أن كمشيبغا نائب حلب أخذ فى أسباب عمارة
ما تهدم من المدينة وزاد ، ثم بعد مدة جاءت
الأخبار بأن منطاش توجه الى طرابلس ومعه جماعة
من العسكر ، فحاصر المدينة حتى ملكها وهرب من
كان بها من الأمراء والنائب ، وهرب أكثر أهلها الى
دمشق . ثم بعد مدة جاءت الأخبار من دمشق بأن
منطاش حاصر دمشق بمن معه من العسكر ، وكان
عوام دمشق يسيرون الى منطاش ويكرهون الملك
الظاهر برقوق ، فاتفقوا مع منطاش بأن يسلموه
المدينة تحت الليل . فلما بلغ ذلك الأمير أيتمش
البيجاسى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير الطنبغا
الأشرفى ، ركبوا بعد العشاء وخرجوا الى ظاهر
دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة
عظيمة ، فقتل فى تلك الليلة من الفريقين نحو ألف
انسان ، ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة .

وفى عقيب هذه الواقعة وثب ممالك الطنبغا
الجوبانى نائب الشام على أستاذهم فقتلوه ،
وهربوا من دمشق وتوجهوا الى منطاش . فلما بلغ
السلطان ذلك أرسل تقليدا الى يلبغا الناصرى
واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى .
ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن الأمير جبىق
الكمشيبغاوى خرج من دمشق وقصد التوجه نحو

طرابلس ، فأخذه عربان نعيم وأحضروه الى منطاش
فقتله بين يديه .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى
نحو عنتاب ، فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ،
فحاصر مدينة عنتاب أشد ما يكون من المحاصرة ،
فملكها وهرب النائب الذى كان بها . فلما دخل
الليل جمع نائب عنتاب جماعة كثيرة من التركمان
وكبس على منطاش ، فقتل من عسكره نحو مائتى
انسان وهرب منطاش نحو الفرات . فلما بلغ
السلطان هذا الخبر انشرح له ونزل الى الرماية فى
بركة الحج . ولما عاد من الرماية دخل من باب
النصر ، وشق من بين القاهرة ، وزينت له ولايته
اليهود والنصارى ومعهم الشموع موقدة .

وفى ذلك اليوم دخل السلطان الى بيت الأمير
بطا الداودار الكبير وسلم عليه فانه كان مريضا .
ثم أن السلطان طلع الى القلعة وكان له يوم مشهود .
فانه من حين أتى من الكرك لم يشق من القاهرة
سوى ذلك اليوم ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى هذه السنة عملت خوند - أخت الملك
الظاهر برقوق - كسوة جليلة للحجرة الشريفة ،
وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة ، فشقت
بذلك من القاهرة وكان يوما مشهودا . وسبب ذلك
أنها نذرت لئن عاد أخوها الى السلطنة تكسو
الحجرة الشريفة ففعلت ذلك . وفى هذه السنة عزل
السلطان صاحب سعد الدين بن البقرى ، واستقر
بالجناب الناصرى محمد بن الحسام الصقرى
عوضه فى الوزارة . فلما نزل الى بيته طلب الوزراء
المنفصلين ، فلما حضروا ، استقر بالصاحب
شمس الدين المقسى ناظر الدولة ، واستقر
بالصاحب سعد الدين بن البقرى ناظر البيوتات
ومستوفى الدولة ، واستقر بالصاحب موفق الدين
أبى الفرج مستوفى الدولة ، فأطلق عليه وزير

الوزراء ، لأنه كان مستوفى على أرباب الوظائف بالديوان المفرد ... واستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم أن السلطان غضب على صاحب فخر الدين بن مكانس وضربه علة قوية ، ثم علقه من رجله بسرياق ، فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأنزله فقال في هذه الواقعة :

وما تعلقت بالسرياق منتكسا
لزلة أوجبت تعذيب ناسوتي
لكننى مذ نفتت السحر من غزلى
عذبت تعذيب هاروت وماروت

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، وكان من أعيان فحول الشعراء وله شعر جيد فى فن البديع ، وله تذكرة لطيفة وعدة مصنفات جليلة غربية المعانى فى أيام الملك الظاهر برقوق . وكانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة ، وكان أصله مغربيا من تلمساذ ، وكان من أهل الفضل والعلم وله شعر جيد فى فن البديع ، وهو صاحب كتاب السكردان وكتاب ديوان الصبابة ، وله غير ذلك مصنفات كثيرة ، وكان شيخ المدرسة المنجكية التى عند الصورة ١ .

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة (١٣٩١ م) :

ففيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى كمشبع الحموى نائب حلب ، وأخبر السلطان بأن أكثر التركمان والعربان خامروا وخرجوا عن الطاعة والتفوا على منطاش . فلما سمع السلطان ذلك اجتمع بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر منطاش .

وففيها طلب السلطان الأمير حسين بن باكيش

(١) فى شلرات الذهب ان الصفدى توفى بدمشق فى شوال سنة ٧٦٤ ، وان ابن أبى حجلة توفى فى مستهل ذى الحجة سنة ٧٧٦

نائب غزة ، فلما حضر بين يديه عراه وضربه بالمقارع ثمانين شيبا . وكان ابن باكيش هذا وقع منه فى حق السلطان — لما خرج من الكرك — أمور عظيمة ، وجمع له العربان ، وحاربه أشد المحاربة حتى كاد السلطان أن ينكسر ، فبقى عند السلطان هذا الكمين حتى اقتص منه ، فكان كما قيل :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا يرجى لا جرح اللسان

وففيها حضر الأمير أيتمش البجاسى من الشام هو وجماعة من الأمراء ، وكانوا توجهوا الى الشام بسبب منطاش ، فبلغ السلطان أنهم كانوا متعاملين على الفساد مع منطاش ، فلما حضروا قيد منهم جماعة ونفاهم الى ثغر الاسكندرية .

وففيها جاءت الأخبار بأن منطاش قد ملك حماه وحمص وبعلبك ولم يشوش على أحد من أهلها ، فمال اليه الرعية وصاروا يسلمونه المدن من غير قتال . ثم أن منطاش توجه الى الشام وحاصر المدينة ، فخرج اليه نائب الشام ، فهرب منطاش الى جبل بقرب من طرابلس ، فتبعه نائب الشام ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باب كيسان الصغير ، فدخل منه الى المدينة ونهب الأسواق وأخذ أموال التجار ، وكبس على الاصطبلات التى بالشام وأخذ منها نحو مائة فرس ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته وراج أمره . فلما بلغ السلطان ذلك نادى للعسكر بالعرض ، وقوى عزمه على الخروج الى منطاش ، وعلق من يومه الجاليس ثم عرض العسكر وأنفق عليهم فى يومه .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر من شهر شعبان ، خرج السلطان وتوجه الى نحو الريدانية فى موكب

عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وخرج معه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . فلما استقر بالريدانية طلب الأمير حسين بن باكيش نائب غزة — وكان مسجوناً بخزانة شمائل — فلما حضر بين يديه أمر بتوسيطه ، وأحضر جماعة من الأمراء كانوا في خزانة شمائل من عصبة منطاش فأمر بتوسيطهم ، فهلكوا أجمعون .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفي كمشبة الحموي نائب الغيبة بمصر الى أن يعود اليها السلطان . وكان كمشبة الحموي — من حين حضر من حلب — مقيما بالديار المصرية ، وكان الملك الظاهر يسيل اليه دون غيره من سائر الأمراء ، فاختره بأن يكون نائب الغيبة الى أن يعود السلطان الى مصر . ورسم السلطان للمقر السيفي سودون الفخري نائب السلطنة بأن يقيم في القلعة الى أن يعود السلطان . ورسم للأمير بجاس النوروزي بالاقامة في الايوان الذي بالقلعة وترك عنده ستمائة مملوك ، وترك بالقاهرة من الأمراء المقر السيفي قطلوبغا الصنفوي حاجب الحجاب ، والأمير تنجاص السودوني . وترك بالقاهرة من الأمراء العشراوات والحجاب نحو عشرين أميرا

ثم ان السلطان رحل من الريدانية وقصد التوجه الى الشام . فلما رحل السلطان عن القاهرة عرض نائب الغيبة أولاد الناس أجناد الحلقة وعين منهم نحو مائتي انسان بأن يتوجهوا نحو الصعيد ، ويقيموا عند الكاشف بسبب فساد العربان ، ثم بعد مدة أيام حضر الأمير سودون الطيار على خيل البريد وعلى يده مثالات شريفة الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فكان من مضمونها أن السلطان لما وصل الى الشام هرب منطاش من وجهه الى بلاد التركمان . فلما سمع الأمراء بذلك دقوا الكؤوسات ونادوا بالزينة ، فزينت القاهرة سبعة أيام ...

قل لما دخل السلطان الى دمشق خاف أهل دمشق وهموا بالهرب من المدينة . وقد تقدم أن أهل دمشق لما خرج الملك الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى الشام رجموه وأخرجوه من الشام هاربا على وجهه ، ونهبوا بركه وقماشه كما تقدم . فلما أن دخل اليهم هذه المرة ، وبلغه أنهم خائفون منه ، نادى لهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن الماضي لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ... فضج أهل دمشق له بالدعاء ، وسكن ما كان عندهم من الاضطراب .

ثم ان السلطان أقام في دمشق أياما وتوجه الى حلب . فلما خرج من دمشق جاء نعيم بن حيار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق — وكان نعيم عاصبا على السلطان وهو ملتف على منطاش — وأخرب غالب البلاد الشامية ونهب ضياعها ، فلما بلغ نائب الشام مجيء نعيم خرج اليه وأوقع معه واقعة قوية في مكان يسمى الكسوة ، فانكسر نائب الشام وقتل من عسكر دمشق نحو خمسة عشر أميرا ، ثم رجع نعيم الى بلاده ، ورجع نائب الشام الى دمشق .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان قد قبض على يلبغا الناصري وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو ثلاثة وعشرين أميرا . وكان سبب ذلك أن الأمير سالم الدوكاري أمير التركمان أرسل يعرف السلطان بأن يلبغا الناصري أرسل اليه كتابا وهو يقول فيه : « خذ منطاش واهرب به الى بلاد الروم ، فانه ما دام منطاش موجودا فنحن موجودون » ...

ثم ان الأمير سالم الدوكاري أرسل كتاب يلبغا الناصري على يد قاصده ، فلما تحقق السلطان

صحة ذلك طلب الأمراء ، فلما حضروا قرا عليهم كتاب يلغا الناصري الذي أرسله الى الأمير سالم الدوكاري . ثم ان السلطان وبخ يلغا الناصري بالكلام في ذلك المجلس ، فلم ينطق بحجة وانعقد لسانه عن الكلام ، فنعوذ بالله من زلة العقل كما قيل :

وانى رأيت المرء يشقى بعقله

كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل
ثم ان السلطان قبض على يلغا الناصري وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ، ثم أمر بقتلهم فقتلوا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان استقر بالأمير بطا الدوادار نائب الشام ، واستقر بالأمير جلبان الكمشباغوى نائب حلب ، واستقر بالأمير اياس الجرجاوى نائب طرابلس ، واستقر بالأمير قرا دمرداس الحمدي نائب حماه ، واستقر بالأمير أبى يزيد دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير بطا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان خرج من حلب وهو قاصد نحو الديار المصرية ، وقد أنفق على هذه التجريدة جملة مال ولم يظفر بمنطاش .

وفي هذه السنة توفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب وكان من أعيان العلماء ، وتوفى الشيخ بهاء الدين السبكى أخو الشيخ تاج الدين ، وتوفى الشيخ جمال الدين الاسنوى ، وتوفى الشيخ شهاب الدين بن حبيب ، وتوفى ابن رافع ، وتوفى الشيخ عماد الدين الحسباني وكان من أعيان العلماء بمصر وحمهم الله تعالى أجمعين .

سنة أربع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٢ م) :

فيها في ثاني عشر المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير بهادار الشهابي — مقدم المماليك السلطانية — وصحبته حريم السلطان ، فان السلطان كان قد تزوج في دمشق بنت الأمير

على بن أستدر نائب الشام ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى بلبس ، فخرج الأمراء الى تلقيه ، ونادوا في القاهرة بالزينة . فلما كان يوم الخميس سابع عشر المحرم وصل السلطان وطلع الى القلعة من بين التراب ولم يشق من المدينة ، ففرشت له الشقق الحرير من قبة النصر الى رأس الصوة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، فطلع الى القلعة في موكب عظيم وكان له يوم مشهود .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الجناب الركنى عمر بن قايماز — وهو صاحب الحوض والسبيل خارج الحسينية — واستقر به وزيرا بالديار المصرية عوضا عن الناصري محمد بن الحسام الصقرى بحكم وفاته . وخلع السلطان على الجناب الناصري محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الاستادار واستقر به نائب ثغر الاسكندرية .

وفيها تزوج السلطان ببنت الشهابى أحمد بن الطولونى معلم المعلمين ، وهو جد الزيسى حسن . وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير بطا الذى تولى نائب الشام قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على الأمير سودون الطرنطاي واستقر به نائب الشام عوضا عنه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن جماعة من المماليك — نحو خمسة عشر مملوكا — هجموا على باب قلعة دمشق وقت الظهر ، وتوجهوا الى نحو السجن الذى بها وأخرجوا من كان به من المحاييس الذين من عصبة منطاش ، وكانوا نحو مائة مملوك . فلما أخرجوا هؤلاء المحاييس قويت شوكتهم ، فهجموا على نائب القلعة فقتلوه وملكوا

القلعة . فلما بلغ ذلك من كان بدمشق من العسكر لبسوا آلة الحرب وركبوا وحاصروا من بالقلعة ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فقتل من عسكر الشام جماعة كثيرة . ثم بعد ذلك هجم عسكر دمشق على باب القلعة وأحرقوه ، ودخلوا الى القلعة ، ثم قبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم تحت باب القلعة .

وفيهما في يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى طلع الأمير جمال الدين محمود الاستادار الى القلعة على جارى العادة . فلما نزل من القلعة رجه المماليك الذين بالطباق فهرب منهم ، فسحبوه الى الرميطة وضربوه بالدبابيس ، وضربوا القاضى سعد الدين بن تاج الدين موسى ناظر الخواص الشريفة . فلما بلغ الأمير أتمش البجاسى ذلك ركب هو ومماليكه ، وردوا المماليك عنهم ، وأدخلهم الى بيته وأغلق عليهم الباب ، فأقاموا عنده الى آخر النهار ، فأرسل معهم مماليكه حتى أوصلوهم الى بيوتهم ، فأقاموا فى بيوتهم مدة لم يركبوا حتى اصطلحوا مع المماليك .

وفيهما خلع السلطان على القاضى تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا عوضا عن عمر بن قايماز .

وفيهما فى العشرين من شعبان توعك جسد السلطان ، وأقام مدة وهو منقطع فى الحريم ، ثم حصل له الشفاء فخرج الى الخدمة ، ونودى فى القاهرة بالزينة فزيت سبعة أيام .

وفيهما جاءت الأخبار بأن نائب الشام سودون الطرنطاي قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على المقر السيفى كمشيفا الأشرفى الخاصكى أمير مجلس ، واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون .

وفيهما تغير خاطر السلطان على جماعة من الأمراء ، فقبض عليهم وسجنهم فى أبراج القلعة ، ثم أمر بخنقهم فخنقوا تحت الليل ودفنوا .

وفيهما فى شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى بكلمش العلأى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى شيخ الصفوى واستقر به أمير مجلس ، وكان الأمير شيخ من مماليك الظاهر برقوق .

وفيهما فى العشرين من شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى ثانى بك يحيوى واستقر به أمير اخور كبير عوضا عن بكلمش العلأى ، وخلع على قاضى القضاة جمال الدين العنبرى الحنفى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ومشيخة الخاتقاء الشيخونية ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الأعيان فيما تقدم .

وفيهما جاءت الأخبار بأن منطاش حضر الى حلب مع جماعة من التركمان فحاصر المدينة ، فخرج اليه عسكر حلب وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هاربا الى الفرات . ثم حضر قاصد نعيم على يده كتاب من عند نعيم ، فكان مضمونه أنه أرسل يطلب من السلطان أربع بلاد وهو يلتزم بمسك منطاش ، فقال السلطان للأمير أبى يزيد الدوادار : « اكتب له كتابا ، عن لسانك ، أنك ان أمسكت منطاشا نعطيك جميع ماطلبتة وزيادة على ذلك » ... فأرسل اليه الأمير أبو يزيد الدوادار بذلك .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ عماد الدين ابن كثير المؤرخ صاحب كتاب البداية ، وتوفى الشيخ سراج الدين الهندى شارح البديعية ، وتوفى الشيخ شهاب الدين الأوزاعى ، وتوفى القاضى أبو البقاء السبكى الشافعى .

وفيهما في ذي الحجة توفي صاحب فخر الدين
بن مكائس القبطى صاحب الأشعار اللطيفة ، تولى
عدة وظائف بمصر .

سنة خمس وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) :

ففيها خلع السلطان على الشيخ صدر الدين
المناورى ، وولاه قاضى القضاة الشافعية بالديار
المصرية عوضا عن قاضى القضاة عماد الدين
الكركى .

وفيهما خلع السلطان على المقر السيفى تتم
الحسنى واستقر به نائب الشام عوضا عن كمشبحا
الأشرقى بحكم وفاته .

وفيهما جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش ونعيرا
توجهوا بمن معهم من العساكر الى مدينة حماه ،
فخرج اليهم نائب حماه فأوقع معهم واقعة قوية ،
فانكسر نائب حماه وهرب ، فدخل منطاش ونعير
الى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار .
فلما بلغ نائب حلب ذلك ركب هو وعساكر حلب ،
وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ أولاده
ونسائه وأحرق بيوته وقتل من عربانه ما لا يحصى
عدده .

وفيهما خلع السلطان على المقر السيفى قلمطاي
العثمانى واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا عن الأمير
أبى يزيد بحكم وفاته .

وفيهما مرض السلطان مرضا شديدا حتى أشرف
على الموت وأرجفت القاهرة بموته من شدة قهره
من منطاش ، ثم شفى وركب وشق القاهرة فزيئت
له وكان له يوم مشهود وموكب عظيم .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة مملوك نائب
حلب وأخبر بأن نعيرا قبض على منطاش وسلمه
الى نائب حلب ، فكان — كما يقال — « سيف
السلطان طويل » . وقد قيل فى المعنى :

قالت : ترقب عيون الحى ، ان لها
عيننا عليك اذا ما نمت لم تتم

وكان سبب امسالك منطاش أن نعير بن جبار
أرسل يطلب من نائب حلب أولاده ونسائه الذين
أسرهم كما تقدم ، فأرسل نائب حلب يقول له :
« ما أطلق لك أولادك ونسائك حتى تسلمنا
منطاش » ... وكان منطاش قد تزوج من بنات
نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير أن السلطان
ونائب حلب عليه ، وقد نهبوا أمواله ومواشيه ،
وأسروا أولاده ونسائه ، قصد أن يرضى السلطان
بامسالك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه
فى حق السلطان كما تقدم .

ثم ان نعيرا نذب الى منطاش أربعة عبيد
غلاظ شداد ، فلما أتوا اليه أحس بالشر ، وكان
راكبا على هجين ، فنزل عنه وركب على فرس ،
فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقال له : « كلم
الأمير نعيرا » . فقال منطاش : « وايش يعمل بى
نعير ؟؟ » ... فتكاثر عليه العبيد وأنزلوه عن فرسه
وأخذوا سيفه منه ، فقال لهم منطاش : « دعونى
حتى أبول » ... فقصد الى جانب حائط ، وكان فى
تكتة خنجر فشق به بطنه ، فغشى عليه ، فجمله
العبيد وأتوا به الى نعير ، فقيده وأرسله الى نائب
حلب ، وأرسل معه جماعة من العربان حتى أسلمه
الى نائب حلب ، وكان له يوم مشهود . فتسلمه
نائب حلب وسجنه بالقلعة ، وكتب بذلك محضرا
وأرسله الى السلطان فلما تحقق السلطان صحة
هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة ، ودقت
الكؤسات ، وزينت له القاهرة سبعة أيام ، ونسى
السلطان — لما ظهر بمنطاش — ما قاساه من التعب
ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد
فكان كما قيل فى المعنى :

إذا ظفرت من الدنيا بقربكم

فكل ذنب جناه الدهر مغفور

ثم ان السلطان عين الأمير طولو بن على شاء الى حلب ليحضر منطاش . فلما وصل الى حلب تسلم منطاش وجعل يعاقبه ويعصره ويقرره على الأموال التي غصبها من البلاد فلم يقرب بشيء . ودخل عليه النزع فقطع الأمير طولو رأسه ووضعها في علبة ، ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش في كل مدينة يدخلها حتى وصل الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة زينة عظيمة ، فشقوا برأس منطاش في القاهرة ، ثم طلعوا بها الى القلعة . فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويلة ، فعلمت ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة ، وانقضى أمر منطاش . وقد هنى السلطان بعض الشعراء بهذين البيتين فقال :

كأن فيجاج الأرض يمينك ان يسر

بها خائف تجمع عليه الأنامل

فأين يفر المرء منك بجمره

إذا كان تطوى في يديك المراحل

ثم ان السلطان أرسل الى نعيم خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل ، فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى ، وما هي الا أنه في عقيب ذلك حضر طواشي رومي يسمى صفى الدين جوهر ، أرسله صاحب ماردين فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ تبريز ، ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ شيراز ، ثم حضر قاصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن أوبس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلنك ، وقد احتاط على غالب بلاده وملكها .

وكان سبب أخذ تمرلنك بلاد القان أحمد بن أوبس أن تمرلنك أرسل الى القان أحمد كتابا يترفق له فيه ويقول له : « أنا ما جئتك محاربا ، وإنما جئتك خاطبا أتزوج بأختك وأزوجك بنتي » ... ففرح القان أحمد بذلك ، وظن أن هذا الكلام صحيح ، فكان كما قيل في المعنى :

لا تركزن الى الخريف فماؤه

مستوخم وهــواؤه خطاف

يشى مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلنك وجمع له العساكر ، فلما أتى اليه قاصد تمرلنك بهذا الخبر ثنى عزمه عن القتال ، واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال ، وصرف همته عن القتال ، فلم يشعر الا وقد دهته عساكر تمرلنك من كل مكان ، فضاق بهم رجب الفضاء ، فخرج اليهم القان أحمد بمن بقي معه من العساكر... فبينما القان يقع مع عسكر تمرلنك اذ فتح أهل بغداد بقية أبواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من هلاكوا في أيام الخليفة المستعصم بالله .

فلما رأى تمرلنك أبواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة وملكها ولم يجد من يرده عنها . فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب ، فأتى الى جسر هناك فعدى من فوقه ثم قطعه ، فلما بلغ عسكر تمرلنك ذلك تتبعوا القان أحمد وخاضوا خلفه الماء فهرب منهم ، فتتبعوه مسيرة ثلاثة أيام ، فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه الى نحو الديار المصرية .

ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أوبس قد وصل الى حلب ، فلما تحقق

السلطان صحة هذا الخبر جمع الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر القان أحمد ، فوقع الاتفاق من الأمراء على أن السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه ، فعند ذلك عين السلطان الأمير أزدمر الساقى - وصحبته الاقامات وما يحتاج اليه القان أحمد من مال وقماش وغير ذلك - فخرج الأمير أزدمر على جياد الخيل .

ثم في عقيب ذلك حضر الى الأبواب الشريفة قاصد أبى يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان . وكان سبب مجيء قاصد ابن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الغفلة في أمره ، وأرسل يطلب من السلطان حكيما حاذقا في صنعة الطب ، وأدوية توافق مرضه الذى كان يشكو به ، فانه كان يشكو بضربان المفاصل . فلما وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان ، وعلم ما فيها ، عين له الرئيس شمس الدين بن صغير ، وأرسل صحبته حملين من الأدوية التى توافق مرضه ، وأرسل اليه هدية عظيمة على يد قاصد من عند السلطان ، فتوجهوا الى ابن عثمان .

ثم في عقيب ذلك حضر قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن تمرلنك ملك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه - استاذ تمرلنك - قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها ، فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر الملك محمود شاه ، فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فقتل بها الملك محمود شاه استاذ تمرلنك ، وأسر بها ابن تمرلنك ، فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان ، وأنه يطلق اليه ولده ومن عنده من الأسرى ، فأرسل صاحب البصرة يقول له : « ما أطلق ولدك ولا

الأسرى الذين عندي حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذى عندك وجميع من عندك من الأسرى » ... فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق منه وأرسل عسكرا ثقيلا وحاصر البصرة ، فلم يقدر عليها ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة . فلما تواترت الأخبار بذلك رسم السلطان للأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة بأن ينادى فى القاهرة للعسكر بالعرض فى الميدان بسبب تمرلنك الخارجى ، وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية ألا يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير ، وعلق الجاليش ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وما صدق العسكر بأن فتنة منطاش قد خمدت فانتشبت لهم هذه الفتنة العظيمة ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثقيل ما برحنا تتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا جاءنا أثقل منه

وفى هذه السنة توفى من الأعيان عبد الرحمن أبو تاشفين صاحب تلمسان ملك الغرب وتولى من بعده أخوه محمد ، وتوفى قاضى القضاة ناصر الدين الكنانى العسقلانى الحنبلى وتولى بعده القاضى موفق الدين الحجازى المقدسى الحنبلى ، وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين الزهرى الشافعى ، وتوفى صاحب شمس الدين المقسى وزير الديار المصرية وناظر الخواص الشريفة ودفن فى جامعته الذى أنشأه فى باب البحر المطل على الخليج الناصرى ، وتوفى الشيخ سراج الدين ابن الملقى والقاضى أبو البقاء السبكى وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٤ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى غزة ، فأرسل السلطان لملاقاته . ثم

ان القان أحمد وصل الى الريدانية في يوم الثلاثاء
سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين ، فنزل السلطان
من القلعة ، وخرج الى تلقيه . فلما وقعت عين
السلطان على القان أحمد بن أويس ، ترجل له عن
فرسه ، وترجل القان أحمد أيضا . ثم ان السلطان
أتى بقاء حرير بنفسجي مغرى بفاقهم بطرز ذهب
عريض فألبسه للقان أحمد ، وأحضر اليه فرسا
بسرج ذهب وكنبوش فأركبه اياه ، وركب السلطان
ومشى القان أحمد عن يمينه ، وطلعا من بين الترب
فلما وصلا الى رأس الصوة صوب السلطان وثنى
عنان فرسه ، فنزلت الأمراء مع القان أحمد الى
بيت الأمير طقزدمر المطل على بركة الفيل ، فنزل به
ونزل معه الأمراء ، فمد له السلطان هناك سباطا
عظيما ، فأكل وأكلت معه الأمراء ، ثم قام الأمراء
وتوجهوا الى بيوتهم ، وقام القان أحمد ودخل الى
البيت .

ثم ان السلطان أرسل الى القان أحمد مقدمة
عظيمة ، وهى طوالة خيل خاص بسروج ذهب
وكنائش ، وعشرون مملوكا صغارا ، وعشرون
جارية أبكارا ، ومائتا تفصيلة اسكندرانية ، وخمسة
آلاف دينار برسم النفقة .

ثم بعد أيام جاءت الأخبار من نائب حلب بأن
چاليش تمرلنك قد وصل الى الرها . فلما تحقق
السلطان ذلك عرض العسكر باللبس الكامل في
الميدان بحضرة القان أحمد ، فصار السلطان يعطى
كل من عرضه من الممالك النفقة — وهى دون المائة
دينار — فامتنعوا عن الأخذ ... فصار السلطان
يعطى النفقة من يده للممالك ، فأخذوا النفقة على
كره منهم . ثم ان السلطان بعث النفقة للأمراء
المقدمين وغيرهم .

فلما كان يوم الأحد سابع ربيع الآخر برزت
خيام السلطان الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس عاشر ربيع الآخر رتب
السلطان الطلب ونزل من القلعة ، فجد الطلب من
باب الميدان الذى تحت القلعة ، وصار السلطان
يرتب الطلب بنفسه ويسوق فى الرميلة ذهابا وإيابا
حتى انتهى الطلب الى آخره ، وكان ما اشتمل
عليه الطلب مائتى فرس ملبسة بركستوانات حرير
ومخمل ملون وكجاوتين زركش . فلما تكامل
خروج الطلب ، خرج بعده السلطان والقان أحمد
ابن أويس صحبته ، والخليفة محمد المتوكل ،
والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير
ثم ان السلطان رسم للعسكر بأن يخرجوا وهم
لابسون آلة الحرب .

وقد قيل لما تجهز السلطان للسفر طلب تجار
الكارم ، فحضر المحلى والخروبي وابن مسلم ،
فاستقرض السلطان منهم مائتى ألف دينار وكتب
عليه بذلك مسطورا ، وضمن فيه الأمير محمود
الاستادار .

وسار السلطان فى ذلك الموكب العظيم حتى
وصل الى الريدانية ، فنزل بالمخيم الشريف . ولما
نزل من القلعة توجه الى الريدانية من بين الترب ،
فلما خرج طلب السلطان ترادفت من بعده أطلاب
الأمراء فى الخروج ، فما زالوا يتسحبون الى الظهر
حتى انتهوا عن آخرهم . فلما استقر السلطان
بالمخيم الشريف قبض هناك على الصاحب سعد
الدين بن البقرى وعلى ولده القاضى تاج الدين .
ثم ان السلطان خلع على الجناب الناصرى محمد بن
رجب بن كلبك واستقر به وزيرا عوضا عن سعد
الدين بن البقرى . ثم ان السلطان رحل من
الريدانية ، وصحبته القان أحمد بن أويس وسائر
الأمراء ، وجد فى السير حتى وصل الى دمشق فى

يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر . فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق الذى فى الميدان ، وحكم بين الناس ، وأقام بالشام أياما ثم رحل منها وتوجه الى حلب .

فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عند ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها أن يكون هو والسلطان عوناً واحدة على دفع العدو الباغى تمرلنك ، فأجابه السلطان الى ذلك ورد له الجواب عن ذلك بما يطيب به خاطره .

ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان ، فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان .

فلما أقام السلطان بحلب بلغه أن جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى البيرة ، فصار جماعة من عسكر السلطان يعدون تحت الليل من الفرات ويكبسون عليهم ، فغنموا من عسكر تمرلنك أشياء كثيرة ، فقبل أن عسكر مصر كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل ويعدون من الفرات تحت الليل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك ، وفى ذلك يقول القائل :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا

سكرنا نهارة بالقوى والقوائم

فأوقفت التيار عن جريانه

الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

ثم بلغ السلطان أن تمرلنك رجع الى بلاده . فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية ، وكذلك القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده . ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظاهر برقوق قتال فى هذه المرة ، بل رجع كل من الفريقين الى بلاده .

ثم إن السلطان رجع الى الشام فأقام بها أياما ،

وخلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب حلب ، ونقل الأمير أرغون شاه من نيابة صفد الى طرابلس ، وخلع على الأمير أقبغا الجمالى واستقر به نائب صفد عوضا عن أرغون شاه ، وخلع على الأمير دقماق المحدى واستقر به نائب ملطية ، وخلع على الأمير مقبل كاور واستقر به نائب طرسوس ، وخلع على الأمير منكلى بغا الأشبغاوى واستقر به نائب الرها ، وخلع على الأمير طفنجى واستقر به نائب قلعة المسلمين .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن أبى السباع صاحب تونس قد توفى الى رحمة الله تعالى واستقر ولده أبو فارس عبد العزيز — ويعرف بعزوز — عوضه فى مملكة تونس . وتوفى أبو العباس أحمد بن أبى سالم صاحب مدينة فاس ، وتوفى أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الأحمر صاحب بلاد الأندلس وتولى من بعده ابنه أبو عبد الله محمد الأندلسى . وكان ابن الأحمر ملك الأندلس هذا شاعرا ماهرا وله شعر جيد فى البديع ، فمن ذلك قوله مخاطبا لمحبوبته حمدونة الأندلسية :

ايا ربة الخال التى أذهبت نسكى

على أى حال كان لا بد لى منك

فاما بذل وهو أليق بالهوى

واما بعز وهو أليق بالملك

وفى هذه السنة توفى أبو العباس أحمد صاحب بلاد فسططينية الهواء ببلاد المغرب . وفيها توفى القاضى محبى الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية وتولى من بعده القاضى بدر الدين أبو الثناء محمود الكلستانى الجنفى ، وتوفى صاحب موفق الدين أبو الفرج ، وتوفى الرئيس علاء الدين بن صغير رئيس الأطباء ، توفى

عند رجوعه من بلاد ابن عثمان ، وقد تقدم أن
السلطان أرسله الى ابن عثمان ليطلبه .

سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٥ م) :

فيها حضر الى الديار المصرية مملوك الأمير
جمال الدين محمود الاستادار وأخبر بأن السلطان
خرج من دمشق .

وفي هذه السنة كان مولد شيخ الاسلام الشيخ
أمين الدين يحيى الأقصرائي الحنفي ، ولد في هذه
السنة .

وقد توجه السلطان الى زيارة بيت المقدس ، ثم
جاءت الأخبار بعد ذلك بأن السلطان قد وصل الى
الصالحية راجعا .

فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وصل الى
القاهرة ودخلها في موكب عظيم ، وشق من بين
الترب ، وفرشت له الشقق الحرير الملون من قبة
النصر الى القلعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ،
ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، وضج الناس له
بالدعاء ... وكان قدامه الخليفة محمد المتوكل
والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من الأكابر
والأصاغر . فلما طلع الى القلعة خلع على أرباب
الوظائف من المباشرين وغيرهم .

وفي هذه السنة ، في يوم السبت سادس شوال
الموافق آخر يوم من أيّيب من الشهور القبطية ، زاد
الله في النيل المبارك أربعين أصبعا في يوم واحد ، ثم
في ثاني يوم — وهو أول يوم من مسرى — زاد
الله في النيل المبارك اثنين وستين أصبعا ، وذلك
ذراعان ونصف وأصبغان ، فبقى عليه من الوفاء
ذراعان . ثم في يوم الوفاء الموافى لثالث يوم من
مسرى زاد الله في النيل المبارك خمسين أصبعا
فأوفي وزاد أصبعين ، فكانت جملة مازاده في أربعة
أيام سبعة أذرع ونصف ذراع وأصبعين ، وكان

الوفاء في ثالث يوم من مسرى . وهذه الزيادة لم
يعهد مثلها فيما تقدم من السنين الخالية ، ولا سمع
بمثل ذلك ، وفي ذلك يقول الشاعر :

النيل زاد جورا بحكمه المطاع
يعمل في الرعايا بالباع والذراع
وقال آخر في المعنى :

النيل أفرط فيضا بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا حديثنا بالأصابع

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من مكة بأن أمير
مكة الشريف علي بن عجلان قد قتل والذين قتلوه
من أقاربه . وفيها كثر الموت بالديار المصرية ،
ومات للسلطان ولدان وهما سيدي محمد وسيدي
قاسم . وفيها توفي قاضي القضاة ناصر الدين محمد
ابن الميلى الشافعي ، وتوفي الشيخ زين الدين
أبو بكر الموصلي الواسطي ، وتوفي الشيخ
غياث الدين العاقولي — وكان زين الدين الموصلي
من أعيان الصوفية — وفيها كانت وفاة المقر البدر
ابن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة بعد
شهر واحد ، وفيهما يقول عويس العالية :

قضى البدر بن فضل الله نجبا
ومات أخوه حمزة بعد شهر
فلا تعجب لذي الأجلين يوما
فحمزة مات حقا بعد بدر

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٦ م) :

فيها في يوم السبت سادس صفر تغير خاطر
السلطان على الأمير جمال الدين محمود الاستادار ،
فأرسل اليه طواشي يسمى شاهين الحسنى الجمدار ،
فأخذ ولده الأمير محمدا وأخذ نساءه وسراريه ،
وطلع بهم الى القلعة ، فسجن الأمير محمدا في
البرج ، ورسموا على النساء ، فاختنى الأمير
محمود . ثم ان القاضي سعد الدين ابراهيم

ابن غراب وكيل بيت المال نزل الى بيت الأمير محمود — هو والأمير على باي الخازندار — فاحتاطوا على موجود الأمير محمود ، فظهر له في أول يوم في مكان عقد تحت سلم مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار .

فلما كان يوم الاثنين ثامن صفر خلع السلطان على الأمير قطلو بك العلاني واستقر به استادارا عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهري ، وخلع على القاضي بدر الدين بن غراب واستقر به ناظر الديوان الشريف المفرد ، وخلع على الأمير مبارك شاه واستقر به وزيرا عوضا عن الناصري محمد ابن رجب بن كلبك .

ثم ان السلطان اشتد غضبه على الأمير محمد ابن الأمير محمود الاستادار فسلمه الى الأمير علاء الدين بن الطبلاوي والي القاهرة ، فعاقبه أشد عقاب ، وقرره على الأموال ... فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع ، وثخنت جراحات الأمير جمال الدين محمود ، وكثرت فيه المرافعات من الناس ، كما قيل في المعنى :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ثم ظهر للأمير جمال الدين مكان خلف مدرسته التي في القريين ، فوجد فيه سبعة أزيار كبار وزلعتان فيها فضة ودراهم نقرة ، ووجد له في ذلك المكان جرتان كبيرتان فيهما ذهب عين ، ثم قبضوا على بوابه موسى وعصروه فأقر على مكان بالاسكندرية في مخزن حمار ، فأرسل اليه من حفر في ذلك المكان فوجدوا فيه ستة وثلاثين ألف دينار نقدا ، ووجدوا له في مكان آخر بالاسكندرية مائتي ألف دينار ، وفي مكان آخر بالاسكندرية أيضا ثلاثين ألف دينار ذهبا ... فأحضروا ذلك

جميعه الى الخزائن الشريفة على يد الطواشي زين الدين صندل المنجكي الخازندار ، فأودع ذلك بالخزائن الشريفة . وقد قال القائل في المعنى :

رأيت الدرهم المضروب أضحى

كلص ما له أبدا أمانه

ألم تر كل انسان حريصا

يحصله ويرمي به الخزانة ؟

ووجد له عند مملوك لأجنبي ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند مملوكه شاهين أربعون ألف دينار ، ووجد له عند امامه سراج الدين ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند قاضي القضاة ولي الدين ابن خلدون المالكى عشرون ألف دينار ، ووجد له عند فراشه شقير زير كبير فيه سبعون ألف دينار ، ووجد له عند باب سره في مكان بكتلتان نحاس فيهما ثلاثة وستون ألف دينار ، ووجد له في سطح مدرسته التي في القريين خمس قدور فيها نحو خمسين ألف دينار ، ووجد له في مكان عند الجامع الأزهر زير كبير فيه مائة وسبعة وثلاثون ألف دينار ، ووجد له مكان عند البرقية عند جارية سوداء زير كبير فيه مائة ألف دينار ، وثلاث براني فيها لؤلؤ كبير وفصوص مختلفة الألوان ... فتسلم ذلك جميعه الزيني صندل المنجكي الخازندار ، فكان كما قيل :

قد يجمع المال غير آكله

ويأكل المال غير من جمعه

ويقطع الثوب غير لابسه

ويلبس الثوب غير من قطعه

ووجد له عند شخص اسكافي بقج فيها طرز زركش وحوائص ذهب وكنائش زركش ما يعلم عدد ذلك ، ووجد له في مكان عند حارة بني سيس خلف بيته زلعة فيها ذهب عين ، جملة ذلك مائة ألف دينار وثمانية وثلاثون ألف دينار ، ومن الفضة

الدراهم زلعتان ... هذا كله خارج عما وجد له من القماش والفرش والخيول والبرك وغير ذلك من حلى نسائه وسراريه ، وغير ما وجد له من الأملاك والضياع والمراكب والمعاصر والجواري والعييد والممالك والطواشية وغير ذلك ، وقد ضاع له عند الناس أضعاف ذلك . ووجد له من الغلال في الشون ما لا يحصى من المغل ... وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علم الدين بن زنبور .

ثم ان بعض الناس قبض على الأمير محمود من مكانه من كوم الجارج وأحضره الى السلطان ، فلما مثل بين يديه رسم بتسليمه هو وولده محمد الى شاد الدواوين ، فسجنهما بخزانة شمایل ، فزالت عنه الدنيا كأنها لم تكن . وقيل في المعنى :

وان امرأ دنياه أكبر همه

لمستمسك منها بحبل غرور

وفي هذه السنة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فرسم السلطان بأن يعمل في كل يوم عشرون اردبا من الدقيق خبزا ويفرق على الفقراء والمساكين وفي الزوايا . فلما اشتد الأمر بذلك توجه شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني الى الجامع الأزهر ، واجتمع من الخلائق ما لا يحصى ، ودعوا الله تعالى في كشف ذلك عن الناس ... وقد اجتمع الغلاء والفناء في تلك السنة .

وفي أواخر هذه السنة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد ، وحضر صحبته شخص من التبر قيل انه من قرابة تمرلنك ، وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائبا عنه بالرها ، فنزل في بعض الأيام ليتصيد ، فسمع به قرا يوسف ، فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان ، فلما مثل بين يديه أمر بسجنه في خزانة شمایل .

وفيهما خلع على الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن مبارك شاه ، وخلع على القاضي بدر الدين بن الطوخي واستقر به ناظر النظر .

وفي هذه السنة كانت وفاة المقر السيفي سودون الفخري الشيخوني نائب السلطنة بالديار المصرية ، وتوفي الصاحب محمد بن رجب بن كلبك ، وغير ذلك جماعة من الأعيان والعلماء .

سنة تسع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٧ م) :

فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطمش الذي كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم ، فأرسل السلطان يقول لتمرلنك : « ما أطلق لك أطمش حتى تطلق أنت من عندك من النواب ومن الأسرى الذين أسرتهم من البلاد » ... فعاد الجواب الى تمرلنك بذلك .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفي تنم الحسنی نائب الشام . فلما بلغ السلطان وصوله الى الريدانية نزل السلطان من القلعة ولاقاه وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير الذي عند الناصرية ، فقدم نائب الشام الى السلطان عشرة ممالك جراكسة ، وعشر جوار ، وعشرة آلاف دينار ، ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجاه مسقطة بالذهب ومرصعة بفصوص ياقوت وفيروز ، وأربعة كنايش زرکش ، وأربعة سروج ذهب ، وأربع بدلات ذهب زنة كل بدلة أربعمئة مثقال شغل المعلم بهرام ، وعشرة كواهي برسم الصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات ، وأثواب صوف ملون ، ومائة فرس خاص ، وخمسين بغلة ، وخمسين جملا ، وعشرين حمل أثواب بعلبكي ، وثلاثين حمل فاكهة

وحلوى شامية ، وعشرين حمل مخلات ، وحملين
علب سكر نبات حموى ، وحملين سواقة في علب
كبار ، وغير ذلك أشياء كثيرة .

ثم ان السلطان عدى الى بر الجيزة وعزم نائب
الشام ، ثم توجه الى بلاده على عادته .

وفي هذه السنة حضر قاصد صاحب اليمن
— وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل — وحضر
صحبه القاضي برهان الدين المحلى التاجر الكارمى
وأحضرا صحبتهم هدية عظيمة للسلطان لم يسمع
بمثلها على أنواع مختلفة ، فخلع السلطان على
قاصد ملك اليمن وأكرمه غاية الاكرام .

وفي هذه السنة خلع السلطان على القاضي تقى
الدين الزبيرى واستقر به قاضى القضاة الشافعية
بالديار المصرية ، عوضا عن القاضى صدر الدين
المنافى الشافعى .

وفيهما جاءت الأخبار من دمشق بأن عوام دمشق
قتلوا شخصا من الناس يقال له ابن النشو ، ولما
قتلوه أحرقوه بالنار ، وكان سبب ذلك أن هذا
الشخص كان يشتري الغلال في أيام الرخص
ويخزنها حتى تنتشط المدينة من الغلال فيبيعها
بأعلى ثمن ، فتحملت منه الناس وتعاونوا على قتله
فقتلوه وأحرقوه ، ولم تنتطح في ذلك شاتان .

وفيهما خلع السلطان على الأمير يلبغا الأحمدي
المعروف بالمجنون واستقر به استادارا عوضا عن
قطلو بك العلائى .

وفيهما جاءت الأخبار من حلب بأن جاليش
تمرنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخذ
مدينة تسمى أرزنكان ، وقتل أهلها ونهب ما فيها .
فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب
بأن يتوجهوا الى شاطيء الفرات ويحصنوا البلاد ،

فخرج سائر النواب الى شاطيء الفرات وأقاموا
هناك .

وفيهما حصل للسلطان توعك في جسده ، وأقام
منقطعا في الحريم أياما لم يعمل الموكب ، ثم عوفي
بعد ذلك ودخل الحمام ، ثم ركب من بعد ذلك
وشق القاهرة وزينت له ففرحت الناس بعافيته .
فلما طلع الى القلعة انتكس من يومه وضعف أكثر
ما كان أولا ، وكثر في القاهرة القيل والقال بين
الناس ، فأقام على ذلك أياما ثم عوفي وركب وتوجه
الى سرياقوس ، ثم انه رجع الى القلعة .

وفيهما توفي سيدى اسماعيل ابن السلطان حسن ،
وتوفي الصاحب سعد الدين بن البقرى ، وتوفي
قاضى القضاة جمال الدين القيصرى الحنفى ، وتوفي
قاضى القضاة شمس الدين الطرابلسى الحنفى ،
وتوفي السيد الشريف الأخلاطى الحنفى ، وتوفي
الأمير جمال الدين محمود بن على الظاهرى
الاستادار كان ، وقد تقدم أن السلطان سجنه هو
وولده محمد في خزانة شمائل ، فاستمر مقيما بها
الى أن مات فغسل وكفن وصلى عليه ودفن في
مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة ، وقد قاسى
من الشدائد ما لا خير فيه ، وآخر الأمر ذهب ماله
ومات وهو في السجن ولم يوجد له ثمن كفن ، حتى
ان بعض مماليكه أخرجه من عنده ، فكان كما قيل
في المعنى :

أف لديانا وأفعالها قانها للههم مخلوقه
همومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقه
واعجبا منها ومن فعلها عدوة للناس معشوقة
سنة ثمانمائة من الهجرة (أولها ٢٤ سبتمبر
١٣٩٧ م) :

وانقضى قرن السبعمائة وقد جرى فيه من
الحوادث ما تقدم ذكره . وقد ورد في الأخبار :
«على رأس كل قرن فتنة» ... وهذا حديث صحيح .

فيها رسم السلطان باحضار السيفى المقر تغرى
بردى بن يشبغا نائب حلب ، فتوجه لاحضاره أخو
الأمير بكتمر جلق .

ومن الحوادث فيها أن السلطان تغير خاطره
على الأتابكى كشيغا الحموى ، وعلى المقر السيفى
بكلمش العلائى أمير سلاح ، فقيدهما فى يوم واحد
وأرسلهما الى السجن بشعر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل موكبا وخلع على المقر
السيفى أيتمش البجاسى واستقر به أتابك العساكر
بمصر عوضا عن كشيغا الحموى ، وأنعم على
الأمير نوروز الحافظى بتقدمة ألف . ثم حضر المقر
السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فلما
حضر أنزله السلطان فى بيت الأمير طاز الذى عند
حمام الفارقانى ، ثم عمل بعد أيام الموكب وخلع
على جماعة من الأمراء ، وهم المقر السيفى تغرى
بردى بن يشبغا نائب حلب واستقر به أمير سلاح
عوضا عن الأمير بكلمش العلائى ، وخلع على الأمير
أقبغا اللكاش واستقر به أمير مجلس عوضا عن
الأمير شيخ الصفوى ، وخلع على الأمير نوروز
الحافظى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على
الأمير بيبرس قريب السلطان واستقر به دوادار
كبير ... فلبس هؤلاء الأمراء كلهم فى يوم واحد .
وأنعم السلطان على مملوكه على باى بتقدمة ألف ،
وأنعم على الأمير يشك الشعبانى بتقدمة ألف ،
وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة .

وفيهما خلع السلطان على الأمير بيتقجاه طيفور
الشرفى واستقر به نائب غزة عوضا عن الأمير أحمد
ابن الشيخ على ، ونقل الأمير أحمد بن الشيخ على
الى بياطة صنف ، ونقل نائب صنف الى نيابة طرابلس .
وفيهما أرسل السلطان خلف القاضى جمال الدين
الملطى من حلب ، فلما حضر الملطى خلع عليه
واستقر به قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية

عوضا عن القاضى شمس الدين الطرابلسى الحنفى
بحكم وفاته . ثم بعد مدة عمل السلطان الموكب
وخلع على مملوكه على باى — ويدعى المايى —
واستقر به رأس نوبة النوب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان تغير
خاطره على الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى
القاهرة ، فقبض عليه وعلى أخيه وابن عمه وجميع
أصحابه وحاشيته وغلمانه وأودعهم فى الترسيم
بالقلعة . فلما كان يوم السبت طلع جماعة من العوام
الى الرميلة ومعهم مصاحف وأعلام فوققوا
واستغاثوا فأرسل اليهم السلطان وجاقا ، وقال لهم :
« ما شأنكم ؟ » ... فقالوا : « نسأل السلطان فى
أن يفرج عن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى
الوالى » ... فلما سمع السلطان ذلك حنق على
العوام ، وأرسل اليهم جماعة من المماليك فشتوهم
من الرميلة .

واستمر علاء الدين بن الطبلاوى فى الترسيم ،
ثم قال : « ان لى كلاما سرا ما أقوله الا فى أذن
السلطان » ... فلم يوافق السلطان على ذلك .
ورسم للأمير يلغا الأحمدي الاستادار بأن يتسلم
ابن الطبلاوى ويستخلص منه الأموال . فلما أراد
أن ينزل به من القلعة قعد ابن الطبلاوى على باب
الزردخانه وأخرج من وسطه خنجرا صغيرا وشق
به بطن نفسه ، فأمسك الناس يده فلم يؤثر فيه
ذلك ، فلما بلغ السلطان هذه الواقعة تحقق أن ابن
الطبلاوى ما كان يريد القرب من السلطان الا
ليضربه بذلك الخنجر ، فاشتد عليه غضبه وأمر
يلغا الأحمدي بأن يعاقبه ، فنزل به الى بيته وعاقبه
وعصره بالمعاصير فى أكعابه ، وسقاه الجير بالملاح ،
وضربه بالكسارات ، وأذاقه ما كان يفعله بالناس .
وقد قيل فى المعنى :

جرع كأسا كان يسقى بها والمرء مجزى بأعماله

فظهر له من المال في مكان ستون ألف دينار ،
وفي مكان عشرون ألف دينار . ثم ان يلغا الأحمدي
احتاط على موجوده جميعه فباعوه بمائة ألف
دينار ، فلم يكتفوا بذلك وعاقبوه ثانيا وألبسوه
خودة حديد محمية بالنار ، فأقر أن له عند ابن عمه
مائتي ألف درهم فضة نقرة ، وأقر بأن له عند أخيه
مثل ذلك . ثم أقر بأن له عند قريبه تقى الدين
الخطيب خمسين ألف دينار ، وعند دوا داره على بن
عمر عشرة آلاف دينار ... فحمل ذلك جميعه الى
الخزائن السلطانية ، وذهب ما كان جمعه ابن
الطبالوى من حلال وحرام ، وبقي عليه اثم ذلك ،
فذهبت عنه الدنيا والآخرة ، وقد قيل في المعنى :

النار آخر دينار نطقت به

والهم آخر هذا الدرهم الجارى

والمرء ما دام مشغوفاً بحبهما

معذب القلب بين الهم والنار

ثم ان السلطان رسم بسجن علاء الدين بن
الطبالوى في خزانة شمائل فسجن بها .

وفي هذه السنة وقع الرخاء بمصر حتى بيع كل
أربعة أرطال خبز بدرهم ، ولا أحد يشتريه .

ومن الوقائع اللطيفة أنه في يوم السبت ثانى
عشر ذى القعدة لعب السلطان بالكرة والصولجان
مع الأتابكى أيتمش البجاسى في الحوش السلطانى ،
فغلب السلطان المقر الأتابكى أيتمش ، فقبال له
السلطان : « جاء عليك يوم بالقفيرى » فأراد
الأتابكى أيتمش أن يعمل وليمة من ماله ، فقال له
السلطان : « أنا أقوم عنك بذلك من مالى » ...
فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين في الميدان
الذى تحت القلعة ، وأرسل خلف سائر الأمراء من
الأكابر والأصاغر ، ورسم للوزير وناظر الخاص
بأن يتكلفوا بأمر ذلك المهم ، فعمل فيه من اللحم

الضأن عشرين ألف رطل ، ومن الأوز مائتى زوج ،
ومن الدجاج ألف طير ، ومن الخيول للذبح عشرين
فرسا ، ومن السكر ثلاثين قنطارا ، ومن الفاكهة
مائتى علبة ، ومن الحلوى مائتى مجمع ، ومن
الزبيب برسم الأقسمة ثلاثين قنطارا ، ومن الدقيق
ستين أردبا برسم البوزة ... فعملت البوزة والشش
في أدنان ، وأحضر السلطان مغانى البلد جميعها
والأوزان .

ثم ان السلطان صلى الصبح ونزل الى الميدان ،
ورسم بالألا يمنعوا أحدا من الدخول الى الميدان .
فلما تكاثر الناس في الميدان أشار بعض الأمراء على
السلطان بأن يمد السماط الى القلعة ، فمد السماط
وأكل هؤلاء والأمراء ، ثم خلع على الوزير وناظر
الخاص ، ثم ركب وطلع الى القلعة من وقته ...
وكان قصد السلطان أن يقيم في الميدان الى آخر
النهار ويجتمع هناك أرباب الملاهى والملاعب ، فما
اتم له ذلك . فلما ركب وطلع الى القلعة تكاثر العوام
ودخلوا الى الميدان ونهبوا الدنان البوزة والشش ،
وحصل في ذلك اليوم بعض اضطراب بسبب ذلك .
وقال بعض الشعراء :

سلطان مصر دام فضل علائه

قد عمنا بالفضل والاحسان

لم أنس يوم السبت حسن مهمه

قد كان يوما جاء بالسلطان

ومن الحوادث في هذه السنة أنه في يوم الأحد
تاسع عشر ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ،
فنزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس ليخلق
العمود ويكسر السد على العادة . فلما دخل الى
المقياس وخلق العمود ونزل الى الحراقة لتكسير
السد ، جاء اليه مملوك من خشداشيينه من مماليك
الأتابكى يلغا العمرى يقال له سودون الأعور —

وكان ساكنا في البيوت التي بأعلى الكبش —
فجاء الى السلطان وأسر اليه حديثا في أذنه ، فكان
مضمون ذلك أنه قال له : « رأيت في بيت الأمير
على باى الذى تحت الكبش ممالك لابسة آلة
الحرب ، وقد دخلوا تحت بوائك الخيل وستروا
على البوائك بانخاخ حتى لا يراهم أحد » ... وكان
هذا البيت محل سكن على باى .

فلما سمع السلطان ذلك أنكره . وكان الأمير
على باى من ممالك السلطان الخواص وقد رقه
حتى جعله رأس نوبة النوب . وكان الأمير على
باى قبل هذه الواقعة انقطع في بيته أياما وأظهر
أنه مريض ، وظن أن السلطان اذا رجع من كسر
السد يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل يسلم عليه
تخرج تلك الممالك من تحت البوائك التي سترها
بالأنخاخ فيقتلون السلطان . وظن أن هذه الحيلة
تصعد من يده ، فكان تدميره في تدميره كما قيل
في الأمثال :

وان من حارب من لا يقوى

لحربه ، جر اليه البلوى

فحارب الأكفاء والأقرانا

فالمرء لا يحارب السلطانا

ثم ان السلطان أرسل الأمير أرسطاي أحد رؤوس
النوب الى بيت الأمير على باى ليكشف له الخبر
عن صحة ذلك ، فتوجه الأمير أرسطاي الى بيت
الأمير على باى ، وأعلم جماعته بأن السلطان اذا
رجع من السد يدخل يسلم على الأمير على باى .
فلما فتح السلطان السد ورجع توجه الى بيت
الأمير على باى . فلما أراد أن يدخل الى بيته نادته
امراة من أعلى البيوت التي في الكبش وقالت له :
« لا تدخل له » ... وقد قيل ان تلك المرأة رمت
على السلطان — لما أراد أن يدخل الى بيت على

باى — قلة ، فلما شال السلطان وجهه اليها قالت
له لا تدخل اليه ، فثنى السلطان عنان فرسه ومضى ،
فأشار عليه بعض الأمراء بأن ينقل في مشيه ، فنقل
وساق هو والأمراء ، فتقنطر في ذلك اليوم الأمير
فارس حاجب الحجاب والأمير بيرس الدوادار
الكبير ثم ركبا . فلما تحقق على باى رجوع
السلطان الى القلعة خرج من بيته وماليكه —
وكانوا نحو أربعين مملوكا — فساقوا خلف
السلطان الى الرميلة .

وكان من جملة سعد السلطان لما مضى من بيت
على باى أنه ساق وطلع الى الرميلة فوجد باب
السلسلة مفتوحا ، فطلع منه هو والأمراء ثم أغلقوه
خلفهم . فلما جلس في المقعد الذي في الأسفل
السلطاني طلع على باى خلفه الى الرميلة ، فوقف
في سوق الخيل هو وماليكه ساعة ، فنزل اليه
جماعة من الأمراء والممالك السلطانية ، فأوقعوا
معه واقعة قوية ، فقتل فيها من الممالك السلطانية
خاصكى يقال له ييسق المصارع ، وجرح فيها
جماعة كثيرة من الممالك السلطانية .

فلما رأى على باى عين الغلب هرب وانكسر ،
وكان معه الأمير يلغا الأحمدي الاستادار . فلما
هرب على باى قبضوا على يلغا الأحمدي وطلعوا
به الى باب السلسلة ، فأراد الممالك السلطانية
قتله فمنعهم السلطان من ذلك ، ثم قيدوه ورموه
في البرج .

ثم ان ممالك السلطان مسكوا مملوكا من
ممالك على باى — وهو شاد الشربخانا —
كان يقاتل في ذلك اليوم قتالا شديدا ، فلما قبضوا
عليه وأحضروه بين يدي السلطان أمر بقتله فقتلوه
قدام السلطان بالسيوف .

فلما انكسر على باى وهرب من الرميلة نهب
العوام بيته الذي تحت الكبش ، وأخذوا جميع

ففسلوه وكفنوه ودفنوه تحت الليل واتقضى أمره ، وصار ذلك مثلاً بين الناس يقولون : « زلة على باى » فكان كما قيل فى المعنى :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

ثم ان السلطان أفرج عن الأمير يلبيغا الأحمدي استادار ونزل الى بيته ، وخلع على الأمير أرسطاي ابن خجا على واستقر به رأس نوبة النوب عوضاً عن على باى ، وخمدت هذه الفتنة عن الناس .

فلما كان يوم الاثنين وقت الظهر ماجت الرميلة ولبس المماليك آلة الحرب ووقفوا فى الرميلة ، فغلقوا باب السلسلة وأشاعوا بين الناس أن الامير أقبغا اللكاش والأمير يلبيغا الأحمدي الاستادار قد ركبوا على السلطان ... وليس لهذا الكلام صحة .

وكان سبب هذه الفتنة أن بعض المماليك السلطانية رأى مملوكاً من مماليك على باى فساو خلفه وتبعه وسيفه مسلول ، فظن الناس أن العسكر قد ركب على السلطان ، فلبس المماليك آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، وأشاع العوام بأن يلبيغا الأحمدي وأقبغا اللكاش قد ركبوا على السلطان . ثم ان يلبيغا الأحمدي وأقبغا اللكاش طلعا الى القلعة وقالا للسلطان : « يا خوند ، هذا كذب العوام ، فالسلطان لا يصدق فينا كلام . » ثم ان السلطان قبض على يلبيغا الأحمدي وأرسله الى ثغر دمياط ، وخلع على الناصري محمد بن سنقر البجكاوى واستقر به استادارا عوضاً عن يلبيغا الأحمدي .

وفى أثناء هذه الواقعة قبض السلطان على سبع أنفس من جماعة على باى ورسم للوالى بأن يسمرهم ، فسمروا وطاقوا بهم فى القاهرة على الجمال ، وكان فيهم شخص عجمي يسمى رمضان ، وكان على باى يقول له يا أبى ، وفيهم مملوك

بركه وقماشه حتى أخذوا رخام بيته وأبوابه ونهبوا بيوت حاشيته وغلماناه . فلما دخل الليل ظهر الأمير على باى فى مستوقد حمام بالقرب من بيته ، فأتى اليه الأمير بييرس الدوادار الكبير وقبض عليه وطلع به الى القلعة ، فأمر السلطان بسجنه .

وكان سبب ركوب على باى على السلطان أن مملوكاً من مماليكه أفسد جارية من جوارى الأمير أقباي الطرنطاي وكان ساكناً بجوار بيت على باى . فلما علم الأمير أقباي بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه أربعمئة عصاً . فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع الى القلعة واشتكى الأمير أقباي الى السلطان ، فلم يلتفت السلطان الى كلام على باى ، فحنق من السلطان وقال أنا آخذ ثارى بيدي ، ثم انقطع على باى فى بيته أياماً وأظهر أنه مريض ، وأضر فى نفسه أن السلطان اذا سمع أنه مريض يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل اليه يقتله وتصد هذه الحيلة من يده ... فكان الأمر بخلاف ذلك ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد .

فلما ركب على باى وجرى منه ما جرى قبضوا عليه ، فلما طلعوا به الى القلعة سجنه السلطان ، ثم طلبه فى قاعة البحرة وخلا به وقال له : « من ألجأك الى هذا الذى قد فعلته ؟ » ... فقال : « ما ألجأنى أحد لذلك ، ولكن فعلت ذلك من قهرى منك حيث لم تأخذ بثأرى من أقباي » .

ثم ان السلطان أحضر اليه المعاصير وعصره بحضرته ، وقرره ان كان لأحد من الأمراء خبرة فى ذلك ، فبراً سائر الأمراء ، فصار السلطان يعصر على باى فى كل يوم مرتين ويقرره فلم يقر بشيء ، فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بكازفولاد كان فى يده فخسف به صدر على باى فمات من وقته ،

أقبغا الفيل كان أغاث على باى ، فوسطوا الجميع عند بركة الكلاب .

وفى هذه السنة توفى القاضى برهان الدين صاحب سيواس ، وتوفى الأمير جاني بك اليحياوى أمير آخور كبير ، وتوفى الأمير قلمطاي العثماني ، وتوفى القاضى أمين الدين الحمصى كاتب السر بالشام ، وتوفى القاضى تاج الدين بن الشهيد ، وتوفى القاضى نجم الدين بن الطميدى محتسب القاهرة ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة احدى وثمانمائة (١٣٩٨ / ١٣٩٩ م) :

فيها ، فى يوم السبت ثالث عشر صفر ، نزل السلطان الى الاصطبل السلطاني وحكم بين الناس . وكان ، من حين جرى من على باى ما جرى ، لم ينزل الى الاصطبل ولم يحكم به . فلما نزل فى ذلك اليوم تغير خاطره على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة المطلّة شبائيكها على الايوان . وكان سبب تغير خاطر السلطان على الأمير نوروز الحافظى ما قيل من أنه نقل عنه كلام أنه اتفق مع جماعة من المماليك على قتل السلطان ، فلما تحقق السلطان ذلك بادر وقبض على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة ، وقيده وأرسله الى السجن بشجر الاسكندرية ، ونفى معه جماعة من الخاصكية ممن كان من عصيته .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون قريب السلطان واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير أرغون شاه الأقبغاوى واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا اللكاش ، وخلع على أقبغا اللكاش واستقر به نائب الكرك ورسم له بأن يخرج اليها .

فلما خرج من القاهرة ووصل الى غزة أرسل السلطان فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة الصليبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير تمرآز الناصرى بتقدمة ألف .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب حلب أرغون شاه الابراهيمى قد توفى الى رحمة الله تعالى ، فرسم السلطان للأمير أقبغا الجمالى نائب طرابلس بأن ينتقل الى نيابة حلب عوضا عن أرغون شاه ، فتوجه الى تقليده الأمير اينال باى بن قجماس قريب السلطان ، وأرسل تقليدا الى الأمير يولس المطاوى الظاهرى بأن يكون نائب طرابلس ، وأرسل تقليدا الى الأمير دمرداش المحمدي بأن يكون نائب حماه على يد الأمير شيخ المحمودى ، وأرسل تقليدا الى الأمير سودون الظريف بأن يكون نائب الكرك .

وفى هذه السنة لادى السلطان للناس بأن يحجوا رجبيا ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسم باعادته على جارى العادة .

وفى هذه السنة أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشراوات ، منهم تغرى بردى الجلباني ، ومنكلى بغا الناصرى ، وبكتمر جلق الناصرى ، وأحمد بن قطينة . وأنعم على جماعة بامريات أربعين ، منهم بسباى بن باكى ، وتمر بغا بن باشاه ، وشاهين بن اسلام ، وجوبان العثماني ، وجكم العوضى .

وفى هذه السنة قبض السلطان على صاحب بدر الدين بن الطوخى ، وخلع على الأمير تاج الدين عبد الرزاق والى قطيا واستقر به وزيرا عوضا عن ابن الطوخى .

وفيها رسم السلطان بالافراج عن الأمير يلبغا

الأحمدى الاستادار وأعيد الى وظيفته كما كان
أولا .

وفيها خلع السلطان على القاضى فتح الله
واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية
عوضا عن القاضى بدر الدين الكلستانى الحنفى
بحكم وفاته . وفيه يقول بعض الشعراء :

فتح الله بعلموا اشتهر فسبحان من أعطاه
وتبت يد الكافرين اذا جاء فتح الله

وفيها خلع السلطان على الأمير فرج استادار
الذخيرة واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا
عن الأمير صرغتمش المحمدى بحكم وفاته .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر
رمضان ، رسم السلطان بالافراج عن الأمير علاء
الدين بن الطبلاوى والى القاهرة — وكان له مدة
وهو فى السجن بخزانة شمائل كما تقدم — فتجمع
وقت خروجه الجهم الغفير من الناس ، وأوقدوا له
الشموع على الدكاكين ، وتخلق الناس فى ذلك
اليوم بالزعفران حتى قيل اشترى الناس فى ذلك
اليوم زعفران بعشرين أشرفى . فلما خرج ابن
الطبلاوى من خزانة شمائل أقام مدة فى بيته ثم
رسم له السلطان بأن يتوجه الى الكرك ويقيم بها .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء خامس شوال ، لعب
السلطان بالرمح فى الحوش ، وكان ذلك اليوم
شديد الحر ، فلما فرغ من لعب الرمح أكل عسل
نحل كخناوى فطاب له فأكل منه كثيرا ، وشرب
عقيب ذلك أقسمة محرفة ، فاستحال خلطا
صفراويا ، فاشتدت به الحمى فضعف من يومه
وثقل فى المرض الى يوم السبت بعد العصر ،
فأشيع بين الناس أنه فى النزاع ، فأقام على ذلك
الى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال ، فطلع عليه
الورشكين ، ثم حصل له الفواق فاضطربت فى
ذلك اليوم القاهرة وضجت ، فركب والى القاهرة

ونادى فى المدينة بالأمان والاطمئنان والبيع
والشراء .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر شوال حصل
للسلطان افاقة ، فطلب أمير المؤمنين المتوكل على
الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب
الدولة ، فلما تكامل المجلس عهد السلطان بالملك
من بعده الى ولده المقر الزينى فرج ، ثم من بعده
الى ولده المقر العزى عبد العزيز ، ثم من بعده
الى ولده المقر الصارمى ابراهيم . ثم ان السلطان
كتب فى ذلك المجلس وصية فأوصى فيها لزوجاته
وسراريه وخدامه بمال جملته مائتا ألف دينار ،
وأوصى بأن تعمر له تربة بثمانين ألف دينار ،
ويشترى لها أوقاف بعشرين ألف دينار ، وأوصى
بأن يدفن فى لحد لا فى فسقية ، وأن يكون دفنه
بين الفقراء الذين هناك ، وأوصى بأن يكون سائر
أملأكه أوقافا على تربته ، وأوصى بأن يكون المقر
الأتابكى أيتمش البجاسى وصيا على أولاده ،
وفوض اليه أمر الولاية والعزل . ثم جعل أمير
المؤمنين المتوكل على الله وصيا على أولاده من
بعده ، وجعل المقر السيفى تغرى بردى أمير سلاح
وصيا ، والأمير بيبرس الدوادار وصيا ، والأمير
يشبك الشعبانى وصيا ، وجعل المقر السيفى تتم
الحسنى نائب الشام وصيا . ثم خلع على الأتابكى
أيتمش خلعة ، ونزل الى بيته ومعه سائر الأمراء .
واستمر السلطان ملازم الفراش ... قال الأمير
صندل المنجكى الخازندار ان السلطان تصدق فى
هذه الضعفة فى مدة انقطاعه على الفقراء والعلماء
بمائتين وخمسين ألف دينار .

فلما كان ليلة الجمعة خامس عشر شوال من
سنة احدى وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر
برقوق بن أنص العثمانى رحمة الله تعالى عليه ،
وكانت وفاته وقت السحر ، فكانت مدة سلطنته

بالديار المصرية والبلاد الشامية الى أن مات على فراشه ست عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، فكانت كما قيل في المعنى :

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها

فهل سمعت بظل غير منتقل

وكانت مدة سلطنته الأولى ست سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة السلطنة الثانية الى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة خلعه بين السلطنتين ثمانية أشهر وأياما ، وكانت مدة أتابكيته بمصر أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، فكانت مدة حكمه بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، وزال ملكه كأن لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

ومات الملك الظاهر برقوق وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة ، وخلف من الأولاد ستة : ثلاثة ذكور وهم : سيدي فرج وسيدي عبد العزيز وسيدي ابراهيم ، وثلاث بنات . وخلف من المال في الخزائن ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، وخلف من الخيول اثني عشر ألف فرس ، ومن الجمال خمسة آلاف جمل ومثلها من البغال .

قال الأمير شهاب الدين بن قطينة : « لما كنت متولى الاستادارية كان عليق السلطان الظاهر برقوق في أيامي في كل شهر اثني عشر ألف أردب شعير ، ومن اللحم ستة وعشرين ألف رطل في كل يوم » .

وبلغت عدة مماليكه المشتراة سبعة آلاف مملوك چراكسة خارجا عن أصحاب الجوامك . وكان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا في بر الجيزة على سحابة تطلع في كل سنة الى الحجاز الشريف برسم الحجاج المنقطعين . وكان له في كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ في فايزية وتفرق على الجبوس والزوايا وعلى الفقراء

ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق في كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب في الزوايا والمزارات ، وأبطل في أيامه مكوسا كثيرة بمصر والشام كانت تحصل مع غاية الضرر ... فأبطل ذلك جميعه . وعظم أمره حتى خطب باسمه في أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله من الملوك ، فخطب باسمه في بربز العجم وفي الموصل وفي ماردين وفي سنجار وفي دوركي وفي أرض الروم وفي أرزنكان ، وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن .

وأما ما أنشأه في أيامه من العماير فهو جسر الشريعة بالغور ، وجدد بناء خزائن السلاح بشعر الاسكندرية ، وجدد عمارة زريبة البرزخ بشعر دمياط بعد ما كان قد ظهر منها عظام الشهداء ، وعمل سورا على مدينة دمنهور ، وعمر قناة العروب بالقدس الشريف ، وجود عمارة المجرة التي تجرى من بحر النيل الى قلعة الجبل ، وعمر فساقى بطريق المدينة الشريفة عند رأس وادي بني سالم ، وعمر سور الميدان الذي تحت القلعة بعد ما كان قد خرب ، فرمى بأرضه أحمال طين ثم سقاه بماء النيل وزرع فيه القرض فلم يطلع فيه شيء غير النجيل ، وعمر صهريجا كبيرا بالقلعة ، وعمل السبيل والمكتب الذي قدام دار الضيافة بظاهر القلعة ، وعمر بالقلعة طاحونا ولم يكن بها قبل ذلك طاحون ، وعمر المدرسة العظيمة التي بين القصرين والوكالة التي تجاه باب الجوانية ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد . فأما قضاته الشافعية بمصر فالقاضي برهان الدين بن جماعة ، والقاضي ناصر الدين بن الملق ، والقاضي بدر الدين بن التقى السبكي ، والقاضي عماد الدين الكركي ، والقاضي صدر الدين المناوي ، والقاضي تقى الدين الزبيري . وأما قضاته الحنفية فالقاضي

صدر الدين بن منصور ، والقاضى شمس الدين الطرابلسى ، والقاضى مجد الدين الكنانى ، والقاضى جمال الدين محمود القيصرى ، والقاضى جمال الدين الملقب . وأما قضاته المالكية فالقاضى جمال الدين بن خير ، والقاضى ولى الدين بن خلدون المغربى ، والقاضى شمس الدين الرىراكى ، والقاضى شهاب الدين النحريرى ، والقاضى ناصر الدين بن التونسى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى ناصر الدين العسقلانى وولده برهان الدين . وأما كتاب سره بالديار المصرية فالقاضى بدر الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين الكركى ، والقاضى بدر الدين محمود الكلستانى ، والقاضى فتح الدين فتح الله . وأما نظار جيوشه فالقاضى تقى الدين عبد الرحمن ، والقاضى موفق الدين بن الفرغ ، والقاضى جمال الدين القيصرى ، والقاضى كريم الدين بن عبد العزيز ، والقاضى شرف الدين ابن الدمامينى ، والقاضى سعد الدين بن غراب ، وأما وزراؤه بمصر فالصاحب شمس الدين بن كاتب الأزلان ، والصاحب علم الدين بن القسيس ، والصاحب كريم الدين بن الغنام ، والصاحب موفق الدين أبو الفرغ ، والصاحب سعد الدين ابن البقرى ، والصاحب ناصر الدين بن الحسام الصفوى ، والصاحب ركن الدين عمر بن قىماز ، والصاحب تاج الدين بن أبى شاكى ، والصاحب ناصر الدين محمد بن كلبك ، والصاحب مبارك شاه الظاهرى ، والصاحب بدر الدين بن الطوخى ، والصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، والصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة . وأما استادارياته بمصر فالأمير قرقماس السيفى طشتمر ، والأمير جمال الدين محمود بن على الظاهرى ، والأمير عمر بن

قىماز ، والأمير قطلو بك العلائى ، والأمير يلبغا الأحمدي المعروف بالمجنون ، والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوى ، والأمير بهادر المنجكى ، والأمير يلبغا السالمى . وأما نظار خواصه فالقاضى سعد الدين موسى ، والقاضى سعد الدين ابن البقرى ، والقاضى موفق الدين أبو الفرغ ، والقاضى سعد الدين بن غراب .

قال المقرئى : « ان الذى أبطله الملك الظاهر برقوق فى أيامه من المكوس هو ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر . وأبطل ما كان مقررا لنائب طرابلس عند توجهه إليها ، وذلك أنه كان يؤخذ ممن يسرح للأمرء نحو العباسة من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرس أو جمل أو ثمن ذلك ، وأبطل ما كان يرمى على البلاد من الأبقار عند فراغ الجسور السلطانية ، وأبطل ما كان يؤخذ على معمل الفراريج بناحية التحريرى ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والبلاد الشامية ... واستمر ذلك بطلا الى الآن فى صحيفة الملك الظاهر برقوق رحمة الله تعالى عليه .

وقد رثاه الشيخ شمس الدين الزركشى بقصيدة منها :

فى باطنى للملك الظاهر
حزن سرى منى فى سائرى
قد صير الندب لنا سنة
عليه من باد ومن حاضر
فبعده للملك يتم غدا
تبكى عليه أعين الناظر
لكن أتنا فرج عاجلا
من بعده بالملك الناصر

الملك الناصر فرج

لما توفي الملك الظاهر برقوق ، نزل من بعده ابنه فرج . وهو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ، ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثماني ، وهو السادس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثاني من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

تولى الملك بعهد من أبيه ، وجلس على سرير الملك في يوم الجمعة خامس عشر شهر شوال سنة إحدى وثمانمائة ، فبايعه أمير المؤمنين المتوكل بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي ، وبحضرة الأتابكي أيتمش البجاسي وسائر الأمراء ، فألبسوه خلعة السلطنة — وهي جبة سوداء بطرز زركش — وركب من الاصطبل السلطاني ، وطلع من باب سر القصر الكبير والأتابكي أيتمش حامل القبة والطيح على رأسه ، فجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض .

وفي حال جلوسه على الكرسي جاء ابن الرداد ببشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، فاستبشر الناس بذلك ، ثم دقت الكؤوسات ونودي باسمه في القاهرة ، وضح الناس له بالدعاء وخطب باسمه في ذلك اليوم على منابر القاهرة .

قيل ان الملك الناصر فرجا تولى الملك وله من العمر نحو اثنى عشرة سنة ، وكانت أمه رومية الجنس تسمى شيرين الطويلة . وفيه يقول بعض الشعراء :

مضى الظاهر السلطان أعظم مالكا
الى ربه يرقى الى الخلد في الدرج
وقالوا ستأثى شدة بعد موته
فأكذبهم ربي وما جا سوى فرج

فلما انقض أمر الموكب شرع الأمراء في تجهيز الملك الظاهر برقوق ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه بالقلعة ، ونزلوا به والأمراء مشاة قدماه ، وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك ، وكثر عليه الأسف والحزن والبكاء من الناس حتى وصلوا به الى البقعة التي اختار الدفن فيها ، فحفروا له هناك قبرا ودفنوه فيه بين قبور المشايخ والفقراء الذين هناك ، ونصبوا على قبره خيمة كبيرة ، وأقام القراء يقرءون على قبره ثمانى ليال متوالية ، وكان القائم بأمر المآتم الأمير يلبغا الأحمدي الاستادار ، والناصرى محمد بن سنقر البجكاوى استادار الذخيرة .

فلما كان يوم السبت ثانى يوم موت الملك الظاهر طلع الأتابكي أيتمش هو والأمراء الى القلعة ، وعينوا الأمير سودون الناصري الطيار بأن يتوجه الى تنم الحسنى نائب الشام بالتغزية بموت الملك الظاهر والبشارة بسلطنة ولده الملك الناصر ، وعينوا الأمير يلبغا الحافظى الى نائب حماء وكذلك الى نائب غزة وكذلك الى نائب الكرك ، وعينوا الأمير سنبا الى الأمير نصير شيخ آل فضل ، وأرسلوا اليه خلعة بأن يكون على عادته .

ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر شوال عمل السلطان الموكب في القصر واجتمع الأمراء ، فلم يطلع الأمير سودون أمير آخور كبير — وكان من قرابة الملك الظاهر برقوق — فلما امتنع من الطلوع الى القلعة أرسل خلفه الأتابكي أيتمش فلم يطلع ، فأرسل خلفه ثانيا فلم يطلع . وكثر القول والقليل بين الناس ، فأرسل الأتابكي أيتمش يقول له انزل من الاصطبل الى بيتك ، فامتنع من ذلك وأرسل الى الأتابكي أيتمش جوابا يابسا ، فحنق منه أيتمش فأرسل اليه جماعة من المماليك فقبضوا

عليه وقيده وأرسلوه الى السجن بـشـغـر الاسكندرية ... فهذه كانت أول ما جرى من الحوادث في دولة الملك الناصر فرج .

ثم ان الأتابكى أيتمش تحول وطلع الى باب السلسلة وسكن به .

ولما كان يوم الخميس حادى عشرى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم الأتابكى أيتمش البجاسى أتابك العساكر على عادته واستقر أمير آخور كبير أيضا ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى أرغون شاه واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى أرسطاي واستقر به رأس لوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيرس واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى فارس واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير يلغا الأحمدي واستقر به استادارا على عادته ، وخلع على صاحب تاج الدين بن أبى شاکر واستقر به وزيراً ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألفوف وامريات أربعين وامريات عشرة ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمود العينى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضاً عن تقى الدين المقريزى ، وهذه أول وظائف للعينى بمصر .

وفي ذلك اليوم قبض الأتابكى أيتمش على جماعة من الأمراء وهم : الأمير تراز الناصرى ، والأمير ترمبغا المنجكى ، والأمير طقلجى السيفى يلغا ، والأمير بلاط السعدى ، والأمير طولو ... فقيدهم وأرسلهم الى السجن بـشـغـر الاسكندرية . ثم بعد أيام تغير خاطر الأتابكى أيتمش على الأمير يلغا الأحمدي الاستادار فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بـشـغـر الاسكندرية .

ثم خلع على الأمير مبارك شاه الظاهرى واستقر به استادارا عوضاً عن يلغا الأحمدي ، فأقام بها

وفي أواخر هذه السنة حضر الأمير سودون الطيار — الذى كان قد توجه الى تنم نائب الشام — فأخبر بأن تنم نائب الشام دخل تحت طاعة السلطان الملك الناصر ، وبأس له الأرض ، ونادى في مدينة دمشق بالزينة سبعة أيام ، ودقت له بها البشائر . فلما حضر سودون الطيار بالبشارة خلع عليه السلطان واستقر به أمير آخور كبير . وأنعم على الأمير انال باى من قرابة الملك الظاهر برقوق بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير طاز بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبای الطرنتاوى بتقدمة ألف . ثم خلع على الأمير سودون الماردینى واستقر به رأس نوبة النوب عوضاً عن الأمير أرسطاي ، وخلع على الأمير يلغا السالمى واستقر به استادارا عوضاً عن صاحب تاج الدين عبد الرزاق ، وخلع على الأمير شهاب الدين أحمد ابن عمر الحسنى بن قطينة واستقر به وزيراً بدلاً عن تاج الدين عبد الرزاق .

وفيها جات الأخبار من القدس الشريف بأن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى قد هرب من القدس وتوجه الى تنم نائب الشام ... وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى الكرك .

وفي أواخر هذه السنة انفضل ابن قطينة من الوزارة واستقر بها القاضى فخر الدين بن غراب . وفي أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان ملك الروم قد تحرك على بلاد السلطان ، وقد وصل أوائل جاليشيه الى بلاد الأبلستين وهو قاصد حلب . فلما بلغ السلطان والأمراء هذا الخبر أمر الأتابكى أيتمش بعقد مجلس بالقصر الكبير ، فحضر أمير المؤمنين المتوكل

والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقيني وسائر الأمراء وضربوا مشورة في أمر ابن عثمان ، فوقع الاتفاق على محاربته والخروج اليه ، وأن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن ابن عثمان وصل الى ملطية ومكلها ولم يشوش على أحد من أهلها ، وأمر عسكره ألا ينهبوا لأحد من الرعية شيئا ، فأقام بملطية أناما ثم رجع الى بلاده فبطل أمر التجريدة وسكن الحال .

وفي هذه السنة توفي الأمير بكلمش العلاني بالقدس الشريف . ونوفى في هذه السنة أيضا الأمير شيخ الصفوى أمير مجلس ، وكانت وفاته بالقدس الشريف أيضا . ومات الأتابكي كمشبا الحموى بالسجن بشجر الاسكندرية ، وتوفى أرغون شاه الابراهيمى نائب حلب ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى عماد الدين الأزرقى وهو صاحب تاريخ مكة ، وتوفى قاضى القضاة المالكى ناصر الدين بن الونسى ، ومات فيها جماعة كثيرة .

سنة اثنتين وثمانمائة (١٣٩٩ - ١٤٠٠ م) :

فيها في يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، ركب الملك الناصر ونزل من القلعة وزار قبر والده برقوق وشق من القاهرة ودخل من باب النصر ، وكان له موكب عظيم ، وزينوا له المدينة وضجوا له بالدعاء ، فشق من المدينة وطلع الى القلعة ... وهذا كان أول مواكبه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام خامر وأظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، وأطلق من كان مسجوناً من الأمراء بقلعة دمشق من أيام الملك الظاهر برقوق . فلما بلغ السلطان

ذلك طلب المقر الأتابكى أيتمش ، فلما حضر قال له : « أنا قد بلغت الحلم ، وقصدى أن أترشد » . فقال الأتابكى أيتمش . « نعم ... السمع والطاعة » . ثم أرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، فلما تكامل المجلس قام المقر السعدى سعد الدين بن غراب وكيلا عن السلطان ، وادعى فى المجلس بين يدى القضاة ، فأعذر له الأتابكى أيتمش وثبت رشده فى ذلك اليوم وحكم به القضاة وأعذر له أمير المؤمنين .

ثم ان السلطان خلع على أمير المؤمنين وعلى القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقيني والأتابكى أيتمش ونزلوا الى يسوتهم . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزيت له سبعة أيام ، ودقت البشائر ، ونودى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان ، فضج الناس له بالدعاء .

فلما كان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة ركب المقر الأتابكى أيتمش على السلطان ، وألبس مماليكه آلة الحرب وطلع الى الرملة بين المغرب والعشاء ، فاجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، وغير ذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، واجتمع عنده من المماليك السلطانية والسيفية ما لا يحصى .

واجتمع عند الملك الناصر بالقلعة جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير يشبك الشعبانى ، والأمير طاز والأمير سودون الماردىنى ، والأمير بيسر الدوادر ، والأمير اينال باى بن قجماس ،

وجماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات
وجماعة كثيرة من المماليك الظاهرية .

فلما لاح الصباح نزلوا الى باب السلسلة
وأوقعوا مع أيتمش واقعة عظيمة من طلوع الفجر
الى بعد الظهر .

ثم ان الأتابكى أيتمش نادى للعوام بأن كل
من أمسك مملوكا من ممالك الظاهر برقوق يأخذ
عريه وفرسه . فلما سمع المماليك الذين كانوا مع
أيتمش هذه المناداة تسحبوا من عنده وقالوا :
« نحن نقاتل معه وهو يريد مسك خشداشيننا !... » .
فطلعوا الى القلعة فلم يبق مع أيتمش الا بعض
مماليك صغار ، فلما تلاشى أمره فل الأمراء
الذين كانوا عنده ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد
انكسر الأتابكى أيتمش وهرب نحو قبة النصر .
وقد قتل في هذه الواقعة بعض أمراء وجرح منهم
جماعة وقتل جماعة كثيرة من المماليك الذين كانوا
معه .

ولما انكسر أيتمش ومن كان معه من الأمراء
نهب العوام بيوتهم وأخذوا كل ما فيها حتى الرخام
والأبواب ، ثم نهبوا مدرسة أيتمش التى عند باب
الوزير ، وأحرقوا ربه المجاور للمدرسة ، ثم حفروا
قبر أولاده وقد ظنوا أن فيه مالا فما لقوا فيه شيئا
غير العظام ، ونهبوا آق سنقر المجاور لبيت أيتمش ،
ونهبوا قبة خوند زهرة بنت الملك الناصر محمد بن
قلاون المجاورة لبيت أيتمش ، ونهبوا وكالة أيتمش
التى عند مدرسته ، ونهبوا مدرسة السلطان حسن
وأحرقوا بابها لكون أيتمش كان يحاصر القلعة منها
ثم نهبوا بيوت الأمراء الذين ركبوا مع أيتمش ...
واستمر النهب فى المدينة يومين .

ثم ان الزعر زاد أمرهم حتى كسروا باب حبس
الرحبة وأطلقوا من كان به من المحاييس . وصارت

المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا وال ولا حاجب ،
والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة ، واضطربت
الأحوال ، ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا
القاهرة عن آخرها فى هذه الحركة .

ثم جاءت الأخبار بأن الأتابكى أيتمش ، ومن
معه من الأمراء ، لما انكسروا توجهوا الى نحو باب
الشام ، فلما وصلوا الى هناك تلقاهم تنم نائب
الشام وأنزلهم بالقصر الأبلق الذى بالميدان ، ومد
لهم سமாطا عظيما ، وأنعم عليهم بكسوة وخيول
ومال ، ورتب لهم فى كل يوم ما يكفيهم من سماط
وعليق وغير ذلك . وكان وصول الأتابكى أيتمش
والأمراء الذين معه الى دمشق فى يوم الاثنين رابع
عشر ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان يوم
دخولهم الى دمشق يوما مشهودا وموكبا عظيما .

فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر اجتمع
هو والأمراء وضربوا مشورة فى هذا الأمر ، ثم
وقع الاتفاق على أن يفرجوا عن جماعة من الأمراء
ممن كان مسجونوا شعر الاسكندرية ، فرسم
السلطان بالافراج عمن يذكر من الأمراء وهم :
الأمير نوروز الحافظى ، والأمير سودون قريب الملك
الظاهر برقوق ، والأمير تراز الناصرى ، والأمير
أقباي السيفى طرنتاي ... فلما حضروا عمل
السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء
وهم : المقر السيفى بيبرس واستقر به أتابك
العساكر عوضا عن أيتمش البجاسى ، وخلع على
المقر السيفى بكتمر الركنى واستقر به أمير سلاح
عوضا عن تغرى بردى بن يشبغا ، وخلع على المقر
السيفى تراز الناصرى واستقر به أمير مجلس ،
وخلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به
رأس نوبة النوب — والأمير نوروز الحافظى هو
الذى جدد القبة على فسقية الخانقاه الشيخونية لما

بقي رأس نوبة النوب ولم يكن بها قبل ذلك قبة —
وخلع على المقر السيفي سودون قريب السلطان
واستقر به دودارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفي
أقبای الطرنطاوى واستقر به حاجب الحجاب عوضا
عن الأمير فارس ، وخلع على المقر السيفي سودون
ابن على باى واستقر به أمير آخور كبيرا عوضا
عن سودون الطيار .

وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء وهم :
الأمير اينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن
زاده — وهو صاحب الجامع الذى فى سوق
العزى — والأمير اينال العلائى حطب .

وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات
عشرة . واستقامت أموره فى السلطنة .

وفيهما قبض السلطان على صاحب فخر الدين
ابن غراب وفصله من الوزارة ، وقبض على أخيه
القاضى سعد الدين بن ابراهيم ناظر الجيش وناظر
الخاص ، وقبض على الأمير شهاب الدين أحمد بن
قطينة الاستادار ، وقبض على الشريف علاء الدين
البغدادى شاد الدواوين ... وسلمهم جميعهم الى
الأمير أزبك الرمضانى رأس نوبة ثانى ليستخرج
منهم الأموال ، فأقاموا فى بيت الأمير أزبك أياما ،
ثم ان الأتابكى يبيرس شفيع فيهم فأفرج السلطان
عنهم وخرجوا الى بيوتهم بطالين .

ثم ان السلطان خلع على صاحب بدر الدين
العلوخى وأعادته الى الوزارة ، وخلع على القاضى
شرف الدين بن الدمامينى واستقر به ناظر الجيش
وناظر الخاص ووكيل بيت المال ، فأقام هؤلاء فى
هذه الوظائف نحو ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان رضى على صاحب فخر الدين
ابن غراب وأعادته الى الوزارة ، وأعاد أخاه القاضى
سعد الدين بن غراب الى وظائفه كما كان ، وخلع

على القاضى شرف الدين بن الدمامينى واستقر به
قاضى ثغر الاسكندرية عوضا عن أخيه .

وفيهما خلع السلطان على الشيخ أنبىا التركمانى
واستقر به شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس عوضا
عن الشيخ اسلام الحنفى .

وفيهما جاءت الأخبار من دمشق بأن تتم نائب
الشام جمع عسكرا عظيما من الشام وهو قاصد
نحو الديار المصرية ، وقد وصل أوائل عسكره
غزة . فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر علق
الچاليش ، ونادى للعسكر بالعرض ، وأنفق عليهم
فى يومه ، ثم برز خيامه الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب من السنة
المذكورة طلب السلطان ونزل من القلعة ، وخرج
فى موكب عظيم ومعه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة
الأربعة وسائر الأمراء ، فتوجه الى نحو الريدانية
وخرج من بعده أطلاب الأمراء المسافرين معه .

ثم ان السلطان جعل الأتابكى يبيرس نائب
الغيبة بمصر الى أن يعود السلطان الى الديار
المصرية ، وترك بمصر جماعة من الأمراء العشراوات
والحجاب وبعض مماليك سلطانية . ثم ان الملك
الناصر عين جماعة من الأمراء بأن يتقدموا أمام
العسكر ، وهم الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ،
والأمير تميز الناصرى أمير مجلس ، والأمير شيخ
المحمودى الخاصكى أحد الأمراء المقدمين ، والأمير
سودون قريب السلطان ، والأمير دقماق المحمدى ،
وجماعة من العسكر والمماليك السلطانية نحو ألف
مملوك ... فتقدموا أمام العسكر .

فلما كان يوم الجمعة ثامن رجب رحل السلطان
من الريدانية وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية
ومن هنا نرجع الى أخبار تتم نائب الشام .
فانه لما تولى الملك الناصر فرج خرج عن الطاعة

وأظهر العصيان ، ووضع يده على البلاد الشامية .
وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه
ونائب صفد ونائب طرابلس ، والتف عليه من
العسكر والعربان ما لا يحصى عددهم . فلما ركب
الأتابكي أيتمش بمصر وانكسر كما تقدم ، توجه
إليه هو والأمراء الذين ركبوا معه . فلما توجهوا
إليه قويت شوكته وعظم أمره ، فصار تتم يركب
في كل يوم بالشام في المواكب العظيمة مثل مواكب
السلطان ، والأمراء والنواب قدامه ، والدفع
والشباب والأوزان والجاويفية والشعراء قدامه ،
وكان يركب في خدمته من الأمراء المقدمين ما يزيد
على خمسة وعشرين أميرا ، واجتمع عنده من
النواب ومن عساكر البلاد الشامية نحو أربعة آلاف
إنسان ما بين تركمان وعربان وغير ذلك من العساكر
... فحدثت نفس تتم أنه صار سلطانا لا محالة ،
وعظم في نفسه .

هذا ما كان من أمر تتم نائب الشام ، وأما
ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد خروجه من
مصر ، فإنه لما خرج من مصر كان أكثر الناس
لا يشكون أنه هو المكسور لا محالة ، وأن تتم هو
المنتصر عليه ، والله غالب على أمره . وكان أكثر
الأمراء والعساكر خامروا على السلطان في الباطن ،
ومالوا إلى تتم نائب الشام ، والسلطان بينهم مثل
العصفور في يدي النسور ، فخرج من مصر وهو
في غاية الضنك ، فكان كما قيل في المعنى :

خف إذا أصبحت ترجو وارج أن أمسيت خائف
رب مكروه مخوف فيه لله لطائف

فلما وصل السلطان كان أقبغا اللكاش نائب
غزة خرج هو ونائب حماه ونائب صفد إلى قتال
الملك الناصر ، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب
النواب ... فأول من دخل تحت طاعة السلطان

دمرداش نائب حماه ، وكذلك نائب صفد . فلما
رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان
خامر الجميع على تتم نائب الشام ودخلوا تحت
طاعة السلطان وتوجهوا إليه في غزة . ثم إن نائب
غزة أقبغا اللكاش هرب من وجه الملك الناصر ،
فملك السلطان مدينة غزة . فلما بلغ ذلك تتم نائب
الشام خرج من الشام هو والأتابكي أيتمش وبقية
الأمراء وأتوا إلى مدينة الرملة ، فصار السلطان في
غزة وهم في الرملة .

ثم إن السلطان أرسل إلى تتم نائب الشام ،
والى الأتابكي أيتمش قاضى القضاة صدر الدين
المنأوى الشافعى ، والأمير ناصر الدين بن الرماح
بأن يمشوا في أمر الصلح بينهم وبين السلطان ...
فتوجهوا إليهم ثم إنهم عادوا بالجواب بأنهم قد
أبوا الصلح ولم يوافقوا على ذلك .

فلما سمع السلطان جوابهم ركب من غزة هو
والأمراء والعسكر وتوجهوا إليهم ، وذلك في يوم
السبت ثانى عشرى رجب ، فتلاقى العسكران
على مكان يسمى الحبطين ، فكان بينهم هناك واقعة
عظيمة لم يسمع بمثلها ، فلم تكن إلا ساعة بسيرة
حتى وقعت الكسرة على تتم نائب الشام وأمسك ،
واحتاطوا على بركه ودوابه .

ثم إن الأتابكي أيتمش وبقية الأمراء هربوا
وتوجهوا إلى نحو الشام ، ثم إن العساكر المصرية
نهبوا مدينة الرملة وسبوا أهلها .

ثم إن الأمير جكم العوضى توجه خلف الذين
هربوا إلى الشام فقبض على الأتابكي أيتمش
البجاسى ، وعلى الأمير تغرى بردى أمير سلاح ،
وعلى الأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير
بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير
أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير يعقوب
شاه الكشيبغاوى ، والأمير فارس حاجب الحجاب

... فلما قبض عليهم قيدهم وحبسهم بقلعة دمشق ،
ونادى فى الشام بالأمان والاطمئنان ، والبيع
والشراء ، والدعاء بالنصر للسلطان الملك الناصر ،
فضج أهل الشام له بالدعاء . ثم بعد أيام وصل
السلطان الى دمشق ، وكان يوم دخوله ايها يوما
مشهودا ، ودخل فى موكب عظيم وقدامه تنم نائب
الشام وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه
عشرة من أمراء دمشق وهم فى قيود ، فحبسهم فى
قلعة دمشق عند الأتابكى أيتمش ... وفيه يقول
بعض الشعراء :

أملت أنك لاتزال بكل من
عاداك بالنصر القريب مظفرا
ورجوت أن تظا الكواكب رفعة
من فوق أعناق العدا وكذا جرى

ولما دخل السلطان الى دمشق نزل بالقصر
الأبلق . ثم انه شرع فى القبض على أصحاب تنم
نائب الشام وحاشيته ، فكان من جملة من أمسك
من الأمراء الأمير علاء الدين بن الطبلاوى — وقد
تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى القدس —
فلما مات الملك الظاهر هرب وتوجه الى تنم نائب
الشام ، وصار يفرع الظلم بدمشق كما كان يفعل
بمصر .

ثم أراد السلطان أن يقبض على الناصرى
محمد بن تنكز نائب الشام فهرب تحت الليل
وتوجه الى بلاد التركمان ، فكان كما قيل فى
المعنى :

من عاشر الزيدانى فاحت عليه روايحو
ويحترق بشرارو من عاشر الحداد
فلما كان يوم الخميس خامس عشرى شعبان
حضر الى القاهرة قمج الخاصكى وعلى يده
مثالات شريفة تتضمن أخبار هذه النصرة التى
حصلت للسلطان ، وقد حضر قمج المذكور من

البحر المالح من على الطينة لأن الدرب السلطانى
كان مضطرب الأحوال بسبب فساد العربان .
فلما جاء هذا الخبر الى القاهرة نادى نائب الغيبة
فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الأمير بلغا
الأحمدى المعروف بالمجنون — وكان استادارا
بالديار المصرية — لما توجه السلطان الى الشام
صار يرمى الفتنة بين الأمراء الذين كانوا فى
القاهرة ، فوثبوا على بعضهم ووقع بينهم الخلف ،
وصار كل واحد منهم كل يوم فى فتن ،
واضطربت أحوال الديار المصرية ، وتخبطت البلاد
الشرقية والغربية ، وكثرت المناصر فى القاهرة حتى
صار فى كل حارة مركز يغفرونها فى الليل من
الحرامية ، وصاروا يخطفون العمائم فى الحارات
الظهر .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان لما قام
من دمشق بعد هذه النصرة خلع هناك على من
يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى سودون
قريب السلطان واستقر به نائب الشام عوضا عن
تنم الحسنى ، وخلع على المقر السيفى دمرداش
المحمدى ونقله من نيابة حماه الى نيابة حلب ،
وخلع على المقر السيفى شيخ محمودى واستقر
به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير دقماق
المحمدى واستقر به نائب حماه عوضا عن دمرداش
المحمدى ، وخلع على الأمير الطنبغا العثمانى
واستقر به نائب صنفد على عادته ، وخلع على الأمير
جنتمر التركمانى واستقر به نائب بعلبك .

ثم ولى جماعة من القضاة بدمشق منهم :
القاضى تقى الدين ابن المكفرى الحنفى ، وولى
القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان قتل
جماعة من الأمراء وهم : الأتابكى أيتمش

السلطان بدمشق قيده وأرسله هو والقاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام صحبة ابن غراب ، فلما وصل الى غزة أرسل السلطان يقتل علاء الدين بن الطبلاوى فمات مخنوقا بغزة ودفن هناك ، وقد قاسى شدائد عظيمة فى أيام الملك الظاهر برقوق وفى أيام ابنه فرج ، وآخر الأمر مات قتيلا بعد ما قاساه ، فكان كما قيل :

ترجو الوليد وقد أعياك والده

فما رجاؤك بعد الوالد الولدا

ثم وقعت شفاعة من الأمراء فى القاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام بعد ما كان قد رسم نقتله ، فعفا عنه من القتل وحضر صحبة ابن غراب الى مصر .

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى شهر رمضان وصل السلطان الى الديار المصرية ، ودخلها فى موكب عظيم ، وزينت له القاهرة ، فلم يطلع الا من بين التراب ، فدقت له البشائر ، وفرشت له الشقق الحرير من عند تربة طيغا الطويل الى رأس الصوة ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك . ثم عمل الموكب وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء منهم : قطلونغا الكركى ، وأقباي الاينالى ، وجركس القاسمى ، وجكم العوضى . ثم خلع على الأمير مقبل واستقر به زماما ، وخلع على الأمير صواب الجنكلى واستقر به مقدم المماليك السلطانية ، وخلع على فارس الدين شاهين الحلبي واستقر به نائب مقدم المماليك .

وفيهما ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال ، جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن الناصرى محمد بن عمر الهوارى كبس على الأمير يلبغا الأحمدي فمسك جماعة من أصحابه وغلماناه وهرب يلبغا الأحمدي .

البجاسى ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، والأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير جلبان الكمشباوى ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه الأقبغاوى ، والأمير يعقوب شاه الكمشباوى ، والأمير بيقوت اليحياوى ، والأمير مبارك شاه المعروف بالمجنون ، والأمير بهادر العثمالي نائب البيرة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء مصر والشام ... فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحو أربعة عشر أميرا ، فذبخوا الجميع ببرج الحمام بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان أرسل رأس الأتابكى أيتمش البجاسى ورأس الأمير فارس حاجب الحجاب الى القاهرة فى علبة ، فطافوا بهما فى القاهرة ، ثم علقوهما على باب زويلة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد خنق تتم نائب الشام ، والأمير يونس نائب طرابلس . قيل انما أخر تتم نائب الشام بعد قتل الأمراء ليستصفى أمواله ويفرره على الأموال التى أخذها من البلاد لما أظهر العصيان ، ولعبت به الدنيا ثم رمته وتخلت عنه . فكان كما قيل فى المعنى :

إذا امتحن الدنيا ليب تكشفت

له عن عدو فى ثياب صديق

ولما كان يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، حضر خاصكى وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق وهو قاصد نحو الديار المصرية .

ثم فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر رمضان حضر الى القاهرة المقر السعدى سعد الدين بن غراب وصحبته حريم السلطان الملك الناصر ، وأخبر بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . ولما حضر ابن غراب أشيع بين الناس أن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى لما قدم على

وكان سبب ذلك أن يلبغا الأحمدي لما سافر السلطان صار يرمى الفتن بين الأمراء الذين كانوا بمصر حتى افتتنوا في بعضهم ووثبوا على بعضهم ، فقصد نائب الغيبة بأن يقبض على يلبغا الأحمدي فهرب وتوجه الى نحو بلاد الصعيد . فلما أراد محمد بن عمر الهواري أن يقبض على يلبغا هرب فتبعوه فنزل عن فرسه ورمى نفسه في البحر فغرق ، ثم بعد أيام طلّعوا به وقد أكل السمك وجهه فدفنوه ومضى أمره بعد ما أخرب بلاد الصعيد ونهب أموال الناس .

وفيها ، في ثاني ذي القعدة ، حضر مملوك نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ، وقرا يوسف أمير التركمان ، حضر اليهم چاليش تمرلنك فأوقعوا معهم واقعة عظيمة ، فأنكسر چاليش تمرلنك ، فلما انكسروا أتوا الى نحو ملطية — وكانوا نحو سبعة آلاف انسان — فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له : « عين لنا مكانا ننزل به » ... فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماء وتوجهوا الى عسكر تمرلنك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فأنكسر نائب حماء ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، منهم جالي بك اليجياوي آتابك العساكر بحلب ، وأسر نائب حماء دوماق المحمدي حتى اشترى نفسه منهم بمال جزيل ، ورجع نائب حلب الى حلب وهو مكسور ... وكانت هذه أول الفتن بين عسكر مصر وبين تمرلنك . فلما بلغ السلطان ذلك رسم انائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها .

وفيها حضر نجاب من مكة المشرفة وأخبر بأن الحرم احترق منه نحو الثلث ، ومن الأعمدة الرخام مائة وثلاثون عمودا ، وعملت النار من

باب عزورة الى باب العمرة ... وكان هذا حادثا عظيما لم يسمع بمثله . فلما بلغ السلطان ذلك عين الأمير ييسق الشيخى لعمارة ما احترق من الحرم ، وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلي التاجر الكارمي ، وبعث معه السلطان عشرة آلاف دينار بسبب العمارة فعمره كما كان ، ولم يجدوا أعمدة رخام فعملوا عوض ذلك حجرا أسود .

وفيها ظهر الأمير صرق وكان مختفيا من حين خامر تنم نائب الشام . فلما ظهر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بحلب فسافر الى حلب من يومه .

وتوفي في هذه السنة من الأعيان قاضي القضاة مجد الدين الكنانى الحنفى ، وقاضى القضاة برهان الدين العسقلانى الحنبلى ، والشيخ اسلام الاصبهاني الحنفى ، والأمير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثلاث وثمانمائة (١٤٠٠ / ١٤٠١ م) :

فيها حضر مملوك من عند نائب حلب وأخبر بأن چاليش تمرلنك قد وصل الى سيواس ، وأن ابن تمرلنك في چاليش ومعه عساكر عظيمة ، وأن ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا الى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك ، وقد أشيع عنه أنه لما دخل الى سيواس نهبها وقتل أهلها ، وكان يحفر للناس حضيرة ويدفنهم فيها وهم بالحياة ، وكان يحرق بعضهم بالنار . وكانت فتنة تمرلنك أول فتنة وقعت على رأس القرن الثامن .

ثم جاءت الأخبار من حلب بأن تمرلنك قد ملك البهشا وعنتاب ، وقد وصل الى الباب ، وبزاعا بالقرب من حلب

ثم ان تمرلنك أرسل الى نائب حلب قاصدا ،

ومعه مكاتبات من عند تمرلنك فيها عبارة خشنة
لنائب حلب . فلما سمع نائب حلب ذلك حنق
وأمر بضرب أعناق قصاص تمرلنك ، فعند ذلك
اضطربت أحوال مدينة حلب وحصنوا سورها
بالمدافع والمكاحل والمقاتلين . فلما بلغ تمرلنك
ما فعلوا بقصاده زحف الى قرية من قرى حلب
يقال لها جيلان ، واحتاط بمدينة حلب وبهب
ما حولها من الضياع .

فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الأول
من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر
النواب بعساكرهم ، وأوقعوا مع تمرلنك ، فكان
بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم
عساكر تمرلنك كأمواج البحار المتلاطمة ، ومالت
عليهم كتائب الجنود المتزاحمة ، فلم تثبت معهم
عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين ، وأقبلوا
نحو المدينة منهزمين ، وقد داست حوافر الخيل
أجساد العامة ، وحل بهم من البؤس كل داهية
طامة . وكان قد احتسى بالمزارات والمساجد الجم
الغفير من النساء والأطفال ، فدخلوا اليهم
وأسروهم وقرنوهم بالحبال ، وأسرفوا في قتل
النساء والرجال ، وصارت الأبيكار تفتض في
المساجد ، ولم يراعوا حرمة المساجد ، فلم يرثوا
لبكاء الرضع ، ولم يخشوا دعاء الركع ، وقد
صارت المساجد كالمجزرة من القتل ... فلا حول
ولا قوة الا بالله . واستمر هذا الأمر الشنيع يتزايد
من يوم السبت الى يوم الثلاثاء .

فلما رأى دمر داش نائب حلب عين الغلب نزل
من القلعة ، هو وبقية النواب ، وأخذوا في رقابهم
مناديل وتوجهوا الى تمرلنك يطلبون منه الأمان ،
فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر ،
وألبسهم تيجان مذهبة ، وقال لهم : « أنتم صرتم
نوابي » ... ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه

يتسلمون القلعة ، فاستنزلوا من كان بها وهم في
قيود . واستمر مقيما على حلب نحو شهر ،
وعسكره ينهبون القرى التى حول المدينة ويقطعون
الأشجار التى بها ، ويهدمون البيوت ، وقد أسرفوا
في القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تطأ
الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل انه بنى
من رءوس القتلى عشر مآذن ، دور كل مئذنة
نحو عشرين ذراعا ، وصعودها في الهواء مثل ذلك ،
وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح ،
وتركوا أجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب
والوحوش ، فكان عدة من قتل في هذه الواقعة
من أهل حلب — من صغار وكبار ونساء ورجال —
نحو من عشرين ألف انسان ، هذا خارج عما هلك
من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب
المدينة وقت الهزيمة ، وهلك من الجوع والعطش
أكثر من ذلك .

فلما ملك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع
ما في المدينة والقلعة ثم ان تمرلنك أقام على حلب
نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على
عروشها وقد تعطلت في مدة هذه المحاصرة عن
الأذان والاقامة وعن صلاة الجمعة .

ومما يحكى عن أخبار عسكر تمرلنك فيما فعلوه
بعسكر حلب ، قيل كانوا يطئون الأبيكار في محراب
المساجد وآباءؤهن يشاهدون ذلك بعينهم .
ولقد حكى من أسر معهم من حين استولوا على
حلب الى حين رحلوا عنها لم يسمع في عسكرهم
أذان ، وأنهم يجامعون النساء في المحيض ، ولا
يعاودون الوطء الا بعد اغتسال — ولو كان في
قلب الشتاء — بالماء البارد . وقيل ان تمرلنك
كان يحتجب عن عسكره نحو أسبوعين فلا يجتمع
على أحد من عسكره ، وينعكف على شرب

الخمور . ففى مدة انعكافه تنهب عساكره البلاد ،
ويفسقون فى أهلها ، فلم يجدوا من يمنعهم عن ذلك
ولا يردهم ، فيستمرروا على ذلك .

ولما كان يوم السبت خامس عشر ربيع الأول
من سنة ثلاث وثمانمائة ، ، حضر مملوك بكلمش
العلائى وأخبر بما قد جرى من تمرلك ، وبما وقع
فى حلب ، وبما جرى على السواب ... فعند ذلك
اضطربت أحوال الديار المصرية مما جرى فى البلاد
الشامية ، فعين السلطان فى يومه الأمير سودون بن
زاده ، والامير اينال حطب رأس نوبة ثانى ،
فتوجهوا الى السفر من يومهم لكشف الأخبار عن
صحة ذلك .

ثم جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن تمرلك لما أن
رحل عن حلب الى حماه فعل بأهلها كما فعل بأهل
حلب من القتل والنهب كما تقدم من أفعاله الشنيعة .
ثم حضر نجاب من عند نائب الشام وأخبر بأن
چاليش تمرلك قد وصل الى الشام عند جبل
الثلج . فلما تحقق السلطان ذلك علق الچاليش
ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وأنفق على
العسكر ، وبرز خيامه الى الريدانية ، فاضطربت
فى ذلك الوقت أحوال الديار المصرية ، وماجت
القاهرة بأهلها ، فكان كما قيل فى المعنى :

كم لى أبه مقله من نائم

لم يهد غير سروره الأحلام

فكأنه اذا جئته مستصرخا

طفل يحرك مهده فينام

قيل لما علق السلطان الچاليش بسبب خروجه
الى تمرلك ركب شيخ الاسلام سراج الدين
البلقبنى والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالى
القاهرة ونادوا فى الشوارع بأن النفير عام بسبب

قتال تمرلك ، فاضطربت أحوال القاهرة فى ذلك
اليوم جدا .

وكان الملك الناصر كلما طرقته هذه الأخبار
يتغافل عنها ويتشغل بشرب الراح وحب الملاح ،
حتى تمكن تمرلك من البلاد ، وعم فعله من
الفساد . فعند ذلك خرج الملك الناصر وطلب ونزلا
من القلعة فى يوم الأحد ثالث ربيع الآخر من سنة
ثلاث وثمانمائة ، فخرج فى موكب عظيم ، وكان
صحبه أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة
وهم : قاضى القضاة الشافعى صدر الدين المناوى ،
وقاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفى ،
وقاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكى ،
وقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى ، وخرج معه
سائر الأمراء من المقدمين والأربعينات والعشراوات
وسائر العسكر ، فأقام فى الريدانية يومين . ثم عين
سته من الأمراء المقدمين يتقدمون چاليش العسكر
وهم : الأتابكى بيرس الركنى ، والمقر السيفى
بكتمر أمير سلاح ، والمقر السيفى نوروز الحافظى
رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى أقبای الطرناى
حاجب الحجاب ، والمقر السيفى اينال باى بن
قجماس ، والمقر السيفى يلغا الناصرى .

ثم ان الملك الناصر رحل من الريدانية وترك
المقر السيفى تراز الناصرى أمير مجلس نائب
الغيبه بمصر الى أن يحضر السلطان ، والأمير جكا
أحد المقدمين وجماعة من الحجاب والماليك
السلطانية . فلما وصل السلطان الى غزة جاءت
الأخبار الى القاهرة بأن السلطان لما دخل الى غزة
خلع على المقر السيفى تغرى بردى بن شيبغا واستقر
به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى آقبغا
الجمالى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على
المقر السيفى تمرغا المنجكى واستقر به نائب صدد ،

وخلع على المقر السيقي طولو بن علي شاه واستقر به نائب غزة ، وخلع على الأمير صدقة بن الطويل واستقر به نائب القدس الشريف .

ثم ان السلطان رحل من غزة في يوم الاثنين خامس عشر ربيع الآخر وقصد التوجه الى الشام . ولما رحل السلطان من غزة أرسل يطلب من نائب الغيبة ألف فرس وألف جمل يتقوى بها العسكر . ثم جاءت الأخبار بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكر كثيرة من التركمان وجاء الى حلب وطردها من بها من عسكر تمرلنك الذين نزلوا بحلب ، وأرسل يكاتب السلطان بذلك .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن تمرلنك نازلاً بالقرب من سلمية ، وأنه أرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتأهوا عن الطريق ، فدخلوا في واد بين جبلين ، فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين .

ثم ان السلطان دخل الى دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى ، ونزل بالميدان الكبير ، وجلس بالقصر الأبلق ، وحكم بين الناس ، وصلى الجمعة بدمشق ، ثم برز خيامه الى قبة يلغا . فلما كان وقت الظهر جاء چاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج — وكانوا نحو ألف فارس — فبرز اليهم چاليش السلطان — وكانوا نحو مائة فارس — فأوقعوا مع عسكر تمرلنك واقعة قوية ، فانكسر چاليش تمرلنك وولوا مدبرين .

ثم في تلك الليلة جاء جماعة من أمراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان ، وأخبروا بأن ولد تمرلنك كان في الجاليش فقتل وكذلك صهره ، وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية الحزن ... فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق .

ثم حضر عند السلطان الأمير نعيم بن حيار أمير آل فضل . وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارثة وغير ذلك من القبائل .

ثم بلغ السلطان بأن عسكر تمرلنك قد تغلبوا عليه ، ومات من عسكره جماعة كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذي ينزل من الجبل . وصار يحضر الى السلطان في كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة ، والتف على السلطان جماعة كثيرة من العربان وغيرهم حتى قيل انه تكامل عنده نحو اثني عشر ألف انسان خارجا عن عسكر مصر . وكانت طوابع الملك الناصر في مبتدأها سعيدة ، والنصر لائح عليه ، ولكن كما قيل في المعنى :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أراد

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة ، وطلع الى القلعة ، وحضر صحبته الخليفة المتوكل ، وجماعة من النواب وهم : نائب الشام ، ونائب صفد ، ونائب غزة ، وغالب أمراء دمشق . وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك ، وحضر مع كل أمير مملوكان من مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش . وكان سبب حضور السلطان على هذا الوجه أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر ، أرسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح ، وأرسل الى السلطان أميرا من أمرائه يقال له الأمير حسين ، وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان في أمر الصلح . فلما أن حضروا الى السلطان خلع عليهم وأحسن اليهم ، وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطمش الذي أسر في

أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، وأن تمرلنك يطلق من عنده من الأسرى جميعهم ، وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مرارا عديدة ، وآخر ذلك كان ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة ، فأقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل ، واتفق معهم على أنه في باكر النهار ينقصد الصلح بينهما ، فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه في تلك الليلة ، وهرب منهم جماعة من الأمراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية . وكان الذى قد تسحب من الأمراء تحت الليل الأمير سودون الناصرى الطيار ، والأمير قانى باى العلائى ، والأمير أحمد بن الشيخ على ، والأمير جقمق . ومن الخاصكية يشبك العثمانى ، ويشبك الساقى الأعرج ، وقمچ الحافظى ، وبرسبغا ، وطراباى بن عبد الله ، وجماعة من المماليك السلطانية نحو من أربعين مملوكا .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الأمراء على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح ... وقد جعل الله لكل شىء سببا حتى ينفذ القضاء والقدر .

فلما خرج السلطان والأمراء من دمشق طلوعوا على عقبة قدومر ، ونزلوا على ساحل البحر المالح وتوجهوا الى صفد ، فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة . فلما دخل السلطان الى غزة وجد الأمراء الذين تسحبوا من دمشق هناك ، فتوجهوا مع السلطان الى مصر .

قيل وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطوا الأمير لاجين الجركسى . فلما تحقق الأمراء ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق . فلما دخل السلطان الى القاهرة رسم للأمير

يلبغا السالمى استادار العالية بأن يشرع فى عمل برك للسلطان وكسوة للأمراء والخليفة — فانهم خرجوا من الشام ولا برك ولا قماش — فشرع الأمير يلبغا السالمى فى ذلك .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يخرج الى الشام ثانى مرة ، فعلق الجاليش ورسم بأن يأخذ من بلاد المقطعين على العبرة القديمة ، وأن يأخذ من أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، ومن الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم . ثم صاروا يفتحون حواصل التجار أصحاب الأموال ويزعمون أن السلطان يقترض أموال التجار على ذمته الى أن يجيء له مال من البلاد فيعيد لهم ما أخذه من المال ... فكانوا يكبسون حواصل التجار ، فان وجدوا صاحب الحاصل أخذوا من ماله النصف وتركوا له النصف ، وان لم يجدوا صاحب الحاصل أخذوا جميع ما فى الحاصل من قماش أو مال ، ولم يتركوا للتجار شيئا .

ثم أخذ من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد — حتى من أوقاف البيمارستان المنصورى — فحصل للناس من ذلك غاية الضرر ، وصاروا فى التراسيم والمصادرة ، وكان المتكلم فى ذلك الأمير يلبغا السالمى الاستادار .

فلما تكامل جبي الأموال تكلم الناس فى حق يلبغا السالمى بأنه أخذ لنفسه فى هذه الحركة من الناس أضعاف ما أورده للسلطان . فلما كثر الكلام فى حقه قبض عليه السلطان وخلع على المقر السعدى سعد الدين ابراهيم بن غراب واستقر به استادارا فصار ناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة واستادار العالية . ثم ان السلطان سلم اليه الأمير يلبغا السالمى ، وكذلك صاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة سلمه الى ابن غراب أيضا .

ثم ان السلطان عرض أجناد الحلقة والبحرية ، فكل من يكون قادرا على السفر يأمره بالسفر ، وكل من يكون عاجزا عن السفر يقيم له بديلا أو يأخذ منه نصف خراج اقطاعه عن سنة كاملة . وفرع أشياء كثيرة من أبواب هذه المظالم ، فجمع من ذلك جملة كبيرة ، وقوى عزمه على العود الى الشام ليوقع مع تمرلنك مرة أخرى ، وينفق ما جمعه من المال على العسكر .

ثم أخذ في أسباب جمع عربان ، فحضر كاشف البحيرة وصحبته ستة آلاف فارس من عربان البحيرة ، وحضر شيخ العرب ابن بقر وصحبته ألفان وخمسائة فارس من عربان الشرقية ، وحضر شيخ بنى وائل وصحبته ألف وخمسائة فارس من بنى وائل ، وجاءت الأخبار من عند الأمير نعيم شيخ آل فضل بأنه قد جمع خمسة آلاف فارس من عربان جبل نابلس . ثم صار العسكر الذي اقتطع في الشام يدخلون الى مصر وهم في أنحس حال من العرى والجوع ، فصار السلطان ينعم على كل مملوك بجامكية شهرين معجلا ، وينعم عليه بألف درهم خارجا عن الجامكية ، ليرقع أحوالهم . وقد شرع في أمر النفقة عليهم والعود الى السفر نحو الشام . هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد حضوره من دمشق .

وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فإنه خرج الى الشام في ليلة الجمعة حادى عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فأصبح الناس في يوم السبت مائجين في بعضهم ، وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الأسوار ، وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك . وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا

على القتال ، فكان بينهم في أول يوم واقعة عظيمة ، فقتل في ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفى انسان . فلما كان يوم الأحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم حتى يمشى بينه وبين أهل دمشق في الصلح . فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلونه الى تمرلنك ، فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ، فإنه كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركى وباللسان العجمى ، فأرخوه من أعلى السور بسرياق ومعه خمس أنفس من أعيان دمشق ، فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تمرلنك تلطف معه في القول وقال له : « هذه بلد فيها الأنبياء وقد اعتققتها لهم » ... وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة إحدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال : « يا أهل الشام ، مثل هذا القبر يكون بلا قبة ؟ ألا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ... وذكر عنه أنه كان في مجلسه كثيرا ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال في يده دائما كما قال ابراهيم المعمار :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم في طاعته ... فصار أهل البلد فرقتين : فرقة ترى ما رآه ابن مفلح ، وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح . وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجهم الغفير من أهل دمشق . فباتوا على ذلك ليلة الاثنين ، فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأى ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك .

ثم ان ابن مفلح قصد أن يفتح باب النصر الذي بدمشق ، فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : « ان فعلتم ذلك أحرقت البلد جميعها » .

ثم ان ابن مفلح أخذ أعيان أهل دمشق من العلماء والقضاة والمشايخ وتوجهوا الى تمرلنك من أعلى السور بسرياقات . فلما توجهوا الى تمرلنك باتوا في وطاقه تلك الليلة وأضافهم ، فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم مثال من عند تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لأهل دمشق ، فقرئ ذلك المرسوم على أهل دمشق في جامع بنى أمية ، وفرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير ، فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما في القلوب الا الله . وقد قيل في المعنى :

لقد ضرني من كنت أرجو به نفعا
وقد ساءني أفعاله خلتها أفعي

إذا ما بدا لي ضاحكا زدت خيفة
وفي ضحكة الأفعى فلا تأمن اللسعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على الباب وأظهر أنه يحفظ المدينة من أذى عسكرهم .

ثم ان تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يجبي له من أهل دمشق ألف ألف دينار . فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع في استخراج ذلك من أهل دمشق . فلما كملت تلك الأموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح : « أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق ألف ألف تومان . والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف ألف دينار ... فرجع ابن مفلح من عند تمرلنك بخفي حنين .

فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها

النار ، واستخرج من أهلها الأموال بالضرب والعصارات ، فأخذ على رأس كل انسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية ، وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر ... فعند ذلك تزايدت البلىا وعظمت الرزايا في استخراج الأموال من الناس .

وفي مدة هذه المحاصرة عزت الأقوات بدمشق حتى بيع كل مد من القمح بأربعين درهما شامية . وفي هذه المدة تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق ، ونزل في جامع بنى أمية أمير من أمراء تمرلنك يقال له شاه ملك ، فدخل بحرمة في الجامع وأغلق بابه وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوايك ، وصاروا يشربون الخمر في الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب . وفي هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق ، وتعطل الأذان والبيع والشراء ، وتعطل الأسواق ، وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة في كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المدينة ، وصاروا يحاصرون القلعة أشد المحاصرة . فلما رأى نائب القلعة عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما ، فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صامت وناطق ، واستولوا على المدينة بأسرها .

ثم ان ابن مفلح جمع الأموال ثانيا وأحضرها بين يدي تمرلنك فقال لابن مفلح : « هذه بحسابنا ثلاثة آلاف ألف دينار ، وبقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار » . وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الأول — وهو ألف ألف دينار — فقرر مع ابن مفلح أن هذا القدر يكون خارجا عما تركه العسكر والأمراء لما رحل السلطان من دمشق من برك وقماش وسلاح ودواب وغير ذلك .

فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادي بأن ينادى في دمشق بأن كل من كان عنده ودائع للأمرء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير ، فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدي تمرلنك ، فقال لابن مفلح : « قد بقي عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد » . فجمع له ذلك وأحضره بين يديه ، فقال لابن مفلح : « قد بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في البلد من فرس وبغل وجمل وحمار » . فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة في البلد ، فكان عدتها اثني عشر ألف دابة . فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح : « اجمع لنا ما في البلد من سلاح من جليلها لحقيرها » . فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له : « قد بقي عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطط » . فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره إليه . فلما قدمت إليه القوائم وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح : « قد بقي تكملة ما تقرر عليه الحال من تفريدة المال الذي وقع عليه القرار ، وهو سبعة آلاف ألف دينار » فقال له ابن مفلح : « لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار » ... فحنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحابه وأودعهم في الحديد ... وآخر الطب الكى . فكان كما قيل في المعنى :

ان الملوك ظروف الصبر داخلها

وفوق أفواهاها شيء من العسل

تحلو لذائقها حتى اذا انكشفت

له تبين ما تحويه من دغل

ثم ان تمرلنك فرق تلك الأوراق التي بأسماء الحارات على أمرائه فتقاسموها ، ثم دخل الى المدينة السواد الأعظم ، فنزل كل أمير من أمرائه في حارة ، وطلب سكانها وفرض عليهم من المال

ما لا يقدرزون على شيء منه ، فكان الرجل يقام على باب داره وهو في أنحس هيئة ويقولون له : « هات ما عليك من المال » ... فيقول : « ما عندي شيء من المال » ... فيضرب ضرباً شديداً ، فيخرج جميع ما في بيته من قماش ونحاس وغير ذلك ، حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله ، فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه ، فتفتض أبكار بناته ، ويلاط بولده بين يديه . فاذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعوههم بعد ذلك ضرباً ، هذا وصاحب البيت قائم يضرب في وسط داره .

ولقد تنوعوا في عذابهم أنواعاً ، فكان أحدهم يشد رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيقاً حتى يغوص ذلك الحبل في رأسه ، ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه من وراء ظهره ثم يلقي على ظهره ويغم بخرقه فيها رماد سخن ، أو يعلق الرجل من ابهام رجله في سقف الدار ثم يوقدون تحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل في النار . ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ما تشيب من سماعه النواصي ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوماً وهم على ما ذكرناه من أنواع هذا العذاب . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة

ثلاث وثمانمائة دخل في ذلك اليوم الى دمشق عسكر كأمواج البحر وهم مشاة وبأيديهم سيوف مسلولة ، فنهبوا ما بقى في المدينة ، وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم في حبال لا يعلمون أين يذهبون بهم ، ثم تركوا الأطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية والعجائز بالمدينة . وكان من جملة من أسروه في هذه المعركة قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى وغيره من العلماء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار

وغيرها ، وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر
وأمرائها وقضاتها وغير ذلك . وكان من أسره
تمرلنك من النواب المقر السيفى دمرداش نائب
حلب ، والمقر السيفى سودون قريب المقام الشريف
نائب الشام ، والمقر السيفى شيخ المحمودى نائب
طرابلس ، والمقر السيفى دقماق المحمدى نائب
حماء . وأسروا من العساكر الحلبية والشامية ومن
أمرائهم ما لا يحصى عددهم ، فقيدهم وزنجروهم
وساقهم قدامه .

وقيل انه لما توجه الى بلاد ابن عثمان حاصرها
وانكسر ابن عثمان — وهو بايزيد بن مراد —
فلما أسره جعله فى قفص من حديد وبقي يعجب
عليه فى البلاد التى يدخلها . وأسروا جماعة من ملوك
الهند ، وأخرب بلاد الشرق ونهب ما بها .

فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر
تمرلنك بإحراق مدينة دمشق ، فأضرم بها النار
حتى صارت ترمى بشرور كالقصر ، كأنه جمالات
صفر . وأحرقوا جامع بنى أمية حتى بقى جدارا
قائما بغير سقوف ولا أبواب ولا رخام ، وأحرقوا
غالب جوامع دمشق ومساجدها ، وأحرقوا
الأسواق التى بها والقياسر بعد ما نهبوا ما فيها ،
وأحرقوا غالب حاراتها التى صارت لا تعرف ، كما
قيل فى المعنى :

وأمر بالأوطان والسكن الذى

قد كنت أعهد به بخير واقى

لم ألق غير اليوم فيها ساكنا

تبا له من طير نحس واكر

وقد أصبحت دمشق ، بعد البهجة والسرور ،
والنضرة والحبور ، أطلالا بالية ، ورسوما خالية ،
قد خوت على عروشها ، وأقمرت من زخرفها
ونقوشها ، لا نرى بها دابة تدب ، ولا حيوانا
يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور فى الثرى

قد تغفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ،
ومغنا للكلاب ونهبا ، لا يستهدى اللبيب فيها الى
داره ، ولا يفتن الذكى الى محل سكنه من
مزاره ... فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه
المصائب ، وشناعة هذه النوائب . فلم توقظنا
حوادث الأيام ، ونحن فى ليل الغفلة نيام ، فلا
نعتبر بما جرى للآنام ، ولا نرجع عن ذنوبنا
والآثام . وقد قال القائل فى المعنى :

ان ترمك الأقدار فى أزمة

أوجبها أجرامك السالفه

فادع الى ربك فى كشفها

ليس لها من دونه كاشفه

وقد هلك فى هذه النازلة من الناس ما لا يحصى
عددهم ، فجماعة بالقتل وأنواع العذاب ، وجماعة
بالجوع والعطش فى مدة هذه المحاصرة لعدم
الأقوات . فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن قرن
الثمانائة .

روى فى بعض الأخبار عن موسى عليه الصلاة
والسلام أنه قال : « يارب ... أنت فى السماء
ونحن فى الأرض ، فما علامة غضبك من
رضاك ؟ » ... فأوحى الله تعالى اليه :
« يا موسى ... اذا استعملت عليكم خياركم فهى
علامة رضائى ، واذا استعملت عليكم شراركم
فهى علامة سخطى . فلا تشتغلوا بسب الملوك ،
وتوبوا الى أعطف عليكم قلوب الملوك » ...

فلما كان يوم الجمعة ثانى شهر شعبان ، رحل
تمرلنك عن دمشق بعد ما فعل الذى فعله ، فأخذ
عسكره وخرج من دمشق . وكانت مدة اقامته
بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوما .

قيل ان تمرلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق
جمعوا له أطفال المدينة الذين أسروا أهلهم ، فكانوا
ما بين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين ، فركب

تمرلنك وأتى الى ذلك المكان الذى هم به خارجا عن المدينة . فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ، ثم قال للعسكر : « سوقوا عليهم بالخيـل » ... فساقوا بالخيـل فماتوا أجمعين ، وكانوا نحو عشرة آلاف طفل . فلما رجع لأمه أمراؤه على ذلك فقال : « ما نزل على قلبى فيهم رحمة » . فكان تمرلنك يقول : « أنا غضب الله فى أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه » . فكان حال الأطفال مع تمرلنك كما قيل فى المعنى :

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانبه العذاب ولما رحل تمرلنك عن دمشق صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويرافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية ، فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجز عليهم من عسكر تمرلنك ، فكان أكثرهم ينزل من البحر المالح ويجىء من جهة دمياط فيدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال . وقد ذهبت حرمة الملكة ، ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة . فعزم السلطان الناصر على الغود الى دمشق ثانيا ويوقع مع تمرلنك مرة أخرى . ثم حضر الطنبغا العبرى وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض ، وقد طلعت له حمرة فى جسده وقد تألم لها . فلما تحقق السلطان ذلك أبطل أمر التجريدة ولطف الله تعالى بالناس كما قيل فى المعنى :

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير وكل شئ له وقت وتقدير وللمهيم فى أحوالنا نظر وفوق تدبيرنا لله تدبير ثم حضر سودون نقيب قلعة دمشق وعلى يده

فلما حضر كتاب تمرلنك الى السلطان جمع الأمراء واستشارهم فى ذلك وما يصنع ، فأشاروا عليه بأن يطلق أطمش ويرسله اليه فرسم باطلاقه ، وكان فى البرج بالقلعة . ثم عين معه الأمير قانبای النوروزى أغات سودون بقجة ، وعين معه الأمير شهاب الدين بن غلبك من أمراء حلب ، فتوجهوا الى تمرلنك وصحبتهم أطمش وقد كساه السلطان وأحسن اليه . فلما وصلوا الى تمرلنك أكرمهم وقبل مراسيم السلطان ، وتفارش وبكى ، واعتذر مما وقع منه ، وقال : « هذا كان مقدرا » ...

وقيل كان تمرلنك — مع هذه السطوة العظيمة — أعرج بوركه الأيمن ، وكان اذا أراد أن يركب تحمله الرجال على أكتافهم حتى يركب . وكان قصير القامة ، غليظ الجسد ، مستدير اللحية ، قد وكزه الشيب . وكان ثقيل الحركة ، ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ماجرى ، وملك البلاد ، وقهر العباد ، ونهب الأموال وأسر النساء والرجال ، ويتم الأطفال . وقد قيل فى المعنى :

رزق الضعيف بعجزه فاق القوى الأغلبا فالنسر يأكل جيفة والنحل يأكل طيبا فلما تسلم تمرلنك أطمش أطلق من كان عنده من الأسرى جميعهم وأرسلهم صحبة قانبای النوروزى ، وأرسل للسلطان هدية صحبة الخواجا مسعود الكججاوى ، وكان من جملة الهدية فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق خشب يجلس

فيه نحو عشر أنفس يضربون بالكؤوسات .
وَأرسل مع الفيل أشياء كثيرة جليلة غير ذلك .

فلما دخل قانباى النوروزى الى القاهرة كان له يوم مشهود ، ودخل لابسا خلعة تمرلنك وهى مخمل أحمر مزهر ، وعلى رأسه تاج مخمل مذهب ، وقدامه الأسرى الذين كانوا عند تمرلنك وقد خلع عليهم ، فلما رأى أهل مصر ذلك الفيل تعجبوا من خلخته غاية العجب ... ولما عاد قانباى النوروزى من عند تمرلنك كان يدعى قانباى التمرلنكى . ثم بعد مدة خلع السلطان على قانباى المذكور واستقر به نائب الكرك ، فأقام هناك مدة يسيرة ثم نقله الى نيابة الاسكندرية

فلما سكن أمر تمرلنك وتحقق رجوعه الى بلاده ، عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نوروز الحافظى وجعله مشير الدولة ومدبر المملكة ، فعظمت حرمة على الاطلاق ، ونفذت كلمته فى الآفاق . وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون قريب السلطان . فلما خلع عليه رسم له بأن يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تمرلنك من دمشق ، فخرج على جياذ الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى شيخ محمودى ، وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة . فلما حضر فرح به السلطان وخلع عليه واستقر به نائب طرابلس على عادته ، فخرج اليها من يومه بسبب عمارة البلاد . ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى دقماق المحمدى نائب حماه ، وكان أميرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة ، فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به نائب حماه على عادته . ورسم له السلطان بأن يخرج من يومه

لعمارة ما أفسده تمرلنك من حماه ، فخرج على جرائد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك خلع السلطان على الأمير تمبرغا المنجكى واستقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير تنكر الحططى واستقر به نائب بعلبك ، وخلع على الأمير طولو ابن على شاه واستقر به نائب نجر الاسكندرية عوضا عن قانباى النوروزى وأنعم على قانباى النوروزى بتقدمة ألف بمصر . وفيها ، فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، خلع السلطان على القاضى ناصر الدين الصالحى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بمصر عوضا عن قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى بحكم أسره عند تمرلنك ، وخلع على القاضى أمين الدين الطرابلسى الحنفى واستقر به قاضى قضاة الحنفية بمصر عوضا عن القاضى جمال الدين الملطى الحنفى بحكم وفاته فى البلاد الشامية ، وخلع على القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى واستقر به قاضى قضاة المالكية بمصر عوضا عن نور الدين بن الجلالى بحكم وفاته ، وخلع على القاضى مجد الدين بن سالم الحنبلى واستقر به قاضى قضاة الحنابلة بمصر عوضا عن القاضى موفق الدين الحنبلى بحكم وفاته . ثم ان القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى أقام فى القضاء الى ثالث عشرى شهر رمضان وعزل عنه وتولى عوضه القاضى ولى الدين بن خلدون المالكى المغربى .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الشعبانى واستقر به دوادارا كبيرا ومشير المملكة مع نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير يشباى بن باكى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن أقبای الطرنتاى ، وخلع على الأمير تمبر البريدى واستقر به مهندارا عوضا عن الطنبغا المعروف بسيدى ، وأنعم على الطنبغا المذكور بتقدمة ألف بحلب .

نفس الملك الناصر يخشى من الأمير جكم هذا ،
كما قيل في المعنى :

ان الأسود لتخشى وهى ساكنة

والكلب يخسا لعمرى وهو نباح

وفي هذه السنة توقف النيل عن الزيادة ، ووقع
الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال حتى بلغ
سعرها الى أربعة أشرفية كل أردب ... فأقام على
ذلك أياما ثم ان النيل زاد في يوم واحد ثمانية
وأربعين اصبعاً وبقي على الوفاء ستة عشر اصبعاً ،
ثم أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع . قال القائل
في المعنى :

يانيل مصر كم يد لك بالوفا

أوليتنا بالكسر جبراً دائماً

أوفيت قبل الكسر خمس أصابع

كرما فكانت للوفاء خواتما

وأما من توفى في هذه السنة من الأعيان فهم المقر
السيفى سودون نائب الشام ، مات مأسوراً عند
تمر لنك . وتوفى الأمير بجاس النوروزى أحد
الأمراء المقدمين ، وتوفى قاضى القضاة بدر الدين
أبو البقاء السبكى الشافعى ، وكانت وفاته في ليلة
السبت سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة .
وتوفى قاضى القضاة جمال الدين يوسف المملطى
الحنفى ، وتوفى قاضى القضاة نور الدين بن الجلال
المالكى ، مات في تجريدة تمر لنك باللجون من
طريق الشام لما توجه مع السلطان في تجريدة
تمر لنك . وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد
التحريرى المالكى ، مات وهو منفصل عن القضاء .
وتوفى القاضى شرف الدين بن الدمامينى قاضى
القضاة بشعر الاسكندرية ، وتوفى الشيخ الحافظ
المحدث علاء الدين بن اللحام الحنبلى الدمشقى ،
وتوفى سيدى أبو بكر ابن الملك الأشرف شعبان ،

وتوفى صاحب فخر الدين بن مكافى صاحب
الأشعار اللطيفة ، وقيل توفى صاحب فخر الدين
ابن مكافى في دولة الملك الظاهر برقوق كما تقدم
والله أعلم . وقد تولى الوزارة مرتين ، وتولى ناظر
الجيش وناظر الخاص ، وياشر وظائف كثيرة ،
وكان من أهل الفضل والعلم ، وكان شاعراً ماهراً
وله شعر جيد ومصنفات لطيفة . ومن شعره قوله
في الامام على كرم الله وجهه :

يا ابن عم الرسول ان أناسا

قد تولوك بالسعادة فازوا

أنت للعلم في الحقيقة باب

يا اماما وما سواك مجاز

وتوفى في هذه السنة أيضا الشيخ بهاء الدين
أبو الفتح أخو الشيخ سراج الدين عمر البلقينى
الشافعى ، وتوفى الشيخ شمس الدين بن المكين
المالكى شيخ الحديث الشريف ، وتوفى سيدي
خليل بن تنكز نائب الشام ، وكان ابن بنت الناصر
محمد بن قلاون . وتوفى قاضى القضاة بدر الدين
الأقفهسى ، وتوفى الخواجه نور الدين بن الخروبي
التاجر الكارمى ، وهو صاحب المدرسة التى في مصر
بالقرب من شاطئ النيل ، وكانت وفاته في عاشر
رجب من هذه السنة . وتوفى الشيخ الصالح
المجنوب سيدي أبو بكر صاحب الكلوته ، وكان
من كبار الأولياء .

سنة أربع وثمانمائة (١٤٠١ / ١٤٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة قد تعرضوا
للحجاج ونهبوا ما معهم ، فأوقع معهم أمير الحاج
فكسرهم وأسر شيخهم منجد بن خاطر وأحضره
بين يدي السلطان فأراد توسيطه ، فالتزم برده
ما نهب للحجاج ، فسجن حتى شرع في رده ذلك .
وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل دمشق

رجموا نائب الشام تغرى بردى وأرادوا قتله
فهرب عند نائب حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك
أرسل تقليدا الى المقر السيفى أقبغا الجمالى بأن
يستقر نائب الشام عوضا عن تغرى بردى .

وفيهما تزوج المقر السيفى نوروز الحافظى بأخت
الملك الناصر فرج — وهى بنت الملك الظاهر
برقوق — فكان لهما مهم عظيم ، ودخل عليها فى
العشرين من المحرم وفى أثناء ذلك تزوج أيضا
المقر السيفى اينال باى بن قجماس بأخت السلطان
الصغرى ، ودخل عليها فى نصف صفر ، وكان لهما
مهم عظيم .

وفيهما فى يوم الأربعاء خامس عشرى صفر ،
بلغ الأمراء بأن السلطان قد أسكن آلان الخاصكى
فى القاعة الأشرفية وفتح لها من دهليز القصر بابا ،
فتخوف الأمراء من ذلك وامتنعوا من الطلوع الى
القلعة ، وأقاموا على ذلك أياما ، فأرسل اليهم
السلطان الأمير أقبای حاجب الحجاب وهو يقول
لهم : « لم لا تطلعوا تبيتوا فى القصر على جرى
العادة ؟ » ... فقالوا : « ما نطلع الى القلعة حتى
يمسك لنا السلطان ثمانية من الأمراء
العشراوات » ... فرسم السلطان لهم بالخروج
الى ثغر دمياط ، وجماعة منهم الى الشام ، فركب
المقر الأتابكى بيبرس وأتى الى بيت الأمير نوروز
الحافظى ، فشفع عنده فيهم ، فلم يوافقهم بقية
الأمراء على ذلك ، وأرسلوا اليهم حاجب الحجاب
فأخرجهم من بيوتهم . فلما أتى الى بيت الأمير
سودون بقيقه ، وأراد القبض عليه ، رمى نفسه
من الطاق الى بركة الفيل وهرب . ثم توجه الى
غيره من الأمراء فلم يجد منهم أحدا فى بيته . وكان
السلطان أرسل يقول لهم : « تغيبوا من
بيوتكم » .

ثم ان السلطان رسم للخليفة والقضاة الأربعة

بأن يتوجهوا الى بيوت الأمراء ويشفعوا فى هؤلاء
الأمراء ، فتوجهوا اليهم وتحدثوا معهم فى ذلك ،
فوقع الاتفاق على أن الأمير سودون الحزواوى
يستقر فى نيابة صند ويخرج اليها من يومه ،
وبقية الأمراء يخرجون الى الشام كما تقرر عليه
الحال أولا ، ولم يقبلوا شفاعة الخليفة ولا القضاة
الأربعة .

فلما كان يوم الاثنين خامس عشرى صفر طلع
الأمير سودون الحزواوى الى القلعة ، فأحضروا
له خلعة ليستقر نائب صند كما تقرر . فلما
أحضروا له الخلعة لم توافق الممالك السلطانية
على ذلك ، ومنعوه من لبس الخلعة ، فحصل فى
ذلك اليوم بعض اضطراب بين العسكر .

وفيهما أرسل السلطان تقليدا الى دقماق المحمدى
نائب حماء بأن يستقر نائب حلب عوضا عن المقر
السيفى دمرداش المحمدى ، ورسم لدمرداش
المحمدى بأن يحضر الى القاهرة لما تقتضيه الآراء
الشريفة .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة الطواشى
عبد اللطيف الساقى ، وكان ممن أسر عند تمرلنك
فهرب من عنده بعد أن قاسى من الشدائد ما لا
خير فى ذكره ، وأخبر بأن ابن تمرلنك توجه الى
ماردين ثم الى بغداد ، وأوقع مع أهل بغداد واقعة
عظيمة فكسره أهل بغداد كسرة قوية ... هذا
بعد أن رجع من الشام . فلما بلغ تمرلنك أن ولده
قد انكسر توجه هو بنفسه الى بغداد وحارب أهلها
وأخربها ، وفعل بها كما فعل بالشام . وأخبر أيضا
عن تمرلنك أنه وضع قاضى القضاة صدر الدين
المنابى الشافعى فى تليس وأغرقه فى نهر الفرات
عند القنطرة .

وفيهما فى يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة خلع
الملك الناصر على الشيخ جلال الدين عبد الرحمن

ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ،
واستقر به قاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية
عوضا عن القاضي ناصر الدين بن الصالح

وفيها جاءت الأخبار من غزة بأن الأمير صرق
الظاهرى نائب غزة قد خامر وخرج عن الطاعة ،
فلما تحقق السلطان ذلك خلع على الأمير الطنبغا
العثمانى واستقر به نائب غزة عوضا عن صرق ،
ثم بعد أيام حضر مقدم البريدية ومعه سيف صرق
وأخبر بأن أمير جرم مع عربان نابلس أوقعوا مع
صرق فأنكسر صرق وقتل في المعركة ، فأرسلوا
سيفه الى السلطان واحتاطوا على موجوده . وفي
أثناء ذلك جاءت الأخبار من طرابلس بأن نائب
طرابلس شيخ الحمودى قد خرج عن الطاعة ،
وأظهر العصيان ، وأمسك حاجب طرابلس وجماعة
من أمرائها سجنهم بسجن المرقب ، وأنه قد
استخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير ،
وعمل له برك عظيم .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير دقماق
المحمدي ، لما استقر نائب حلب وتوجه اليها ،
خرج اليه دمرداش نائب حلب وأوقع معه واقعة
قوية ، فأنكسر دمرداش ونهب بركة وهرب الى
نحو ملطية .

وفيها في يوم الاثنين رابع عشرى رجب خلع
السلطان على القاضي جمال الدين البساطى المالكى
واستقر به قاضي القضاة المالكية عوضا عن قاضي
القضاة ولى الدين بن خلدون المغربى الحضرمى
المالكى .

ومن الحوادث الفلكية أن نجما طلع في الجانب
المغربى وله ذؤابة صاعدة الى السماء ، فاستمر
يطلع في كل ليلة بعد المغرب ويقيم الى ثلث الليل ،
فأقام على ذلك الى أواخر شهر شعبان ، فكان
يطلع بالنهار عند طلوع الشمس ، فكان يرى بالنهار

مع ضوء الشمس ويقيم الى وقت الظهر ، ثم اختفى
من بعد ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أنه في يوم الاثنين مستهل
شهر شعبان من هذه السنة أخرجوا الفيل الكبير
الذى كان تمرلنك أرسله الى الملك الناصر صحبة
قانبای النوروزى - وتقدم ذكر ذلك - فلما
أخرجوه ليسيروا به توجهوا به الى نحو بولاق
ثم رجعوا به من على قنطرة الفخر ليطلعوا به على
باب البحر ، فلما عدوا به على قنطرة الفخر وأتوا
به الى رأس العطفة التى تخرج الى الخليج
الناصرى وهناك بجمون ، فداس الفيل على ذلك
الجمون فأنخسف به ففاست رجله فيه الى فخذه
فلم يقدر أحد من الناس أن يخلصه ، فأقام على
ذلك ساعة ثم مات . فلما أشيع أمره فى القاهرة
خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه . وقد
غلقت الأسواق فى ذلك اليوم بسبب الفرجة ، وكان
يوما مشهودا ، وقد رثاه بعض الزجالة بهذا
الزجل اللطيف :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره
لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الجراف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله ما فيه خلاف

جوا ياخذوا شاشو منو بالزنطره
دعا على الفيل اتقنطر فى القنطره
قالوا بأنو فى البجمون مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر ان كان صحيح
أجى ألقى الفيل ميت ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره مستظهره
لما وقع يوم الاثنين فى القنطره

واولاد ديار مصر الساده حولو زمر
يتعجبوا من هذا الفيل الى انحصر
راوا دموع عينو تجري مثل المطر
ولو جعير والعالم دول متفكره

لما وقع يوم الاثنين في القنطره
فقلت لو يا فيل مرزوق يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العالم واتتاهوش
وكنت يا فيل السلطان زين الوحوش

وكنت بالاعجاب تزهو في المخطر
وقد بقيت اليوم مطروح في القنطره
والفيل لسان حالو ناطق للناس يقول
كم كنت نا ادور في الزفه فوقى طبول
وكنت نا ادور في المحمل ولى قبول

كنى عروسه حين تجلى في المنظره
واليوم كان آخر مشيى في القنطره
وقالت الفيله امراتو من لى معين
سهم الافراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبه هنديه قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا معيره

واليوم كان آخر عمرو في القنطره
وعيطت حتى أبكت جيرانها
من كتر ما ناحت ناحو لأحزانها
من ارها صارت تلطم بودانها
حتى الزرافة جاءتها متحسرة

تبكى على الفيل اللى مات في القنطره
لما ظهر دا في شعبان آخر رجب
لاحت لنا فيه نجمه لها ذنب
فقال العالم أجمع دا لو سبب

وايش دلايل ذى الكوكب يامن درى
دلت على الفيل اللى مات في القنطره

يا نأضر الدين من عمرى ادر الدخول
والناس تقول انى قيم صاحب قبول
لما هلك ذا الفيل مرزوق فصرت أقول

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين في القنطره

ومن الحوادث في هذه السنة أنه في يوم الجمعة
ثانى شوال وقعت الفتنة بين الأمير نوروز
الحافظى ، وبين الأمير جكم العوضى والأمير
سودون طاز أمير آخور كبير ، فلبسوا آلة الحرب
في ذلك اليوم ، ووقفوا بسوق الخيل ، ونزل
السلطان الى باب السلسلة ثم جلس في المقعد
المطل على الرميّة ، وطلع الأمراء الذين هم من
عصبة السلطان الى باب السلسلة ، وتقاتلوا مع
هؤلاء الأمراء أشد القتال . ثم ان السلطان رسم
للخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى
والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء ويعشوا
بينهم بالصلح مع بعضهم ، فتوجهوا اليهم وسعوا
بينهم بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ،
وصارت القلوب معمرة بالعداوة لبعضهم كما قال
بعضهم في المعنى :

أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فانما رجل الدنيا وواحد
من لا يعول في الدنيا على رجل
فطلع السلطان الى القلعة وخمدت الفتنة
قليلا .

ثم في يوم السبت رسم السلطان للخليفة
والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء
ويحلفوهم للسلطان ، فتوجهوا الى بيت الأمير
بيرس وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير
الحافظى وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير

سودون طاز أمير آخور كبير ، وكذلك بقية
الأمراء ، فكانت أيمانهم كاذبة كما قيل في المعنى :

حلفتهم لا يخونوا في الهوى ذمى
كأنما حلفوا لى أن ما حلفوا

فلما كان يوم الاثنين خامس شوال طلع الأمراء
الى القلعة — وباسوا الأرض للسلطان —
واصطحوا ، فخلع على جماعة منهم ونزلوا الى
بيوتهم . فلما نزل الأمير حكم الى بيته أرسل
السلطان اليه خلعة وقال : « هذه لأخيك قانباى
رسم له السلطان بأن يستقر نائب حماه » ...
فلما سمع الأمير حكم ذلك عز عليه وتوجه الى
نحو بركة الحبش وأخذ معه أخاه قانباى العلانى
والأمير قرقماس الاينالى ، فلما بلغ ذلك الى
المماليك السلطانية توجه اليه منهم جماعة نحو
خسمائة مملوك ، فأقاموا هناك يوم الخميس
ويوم الجمعة .

فلما كان يوم الجمعة طلع الأمير نوروز القلعة
وصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم نزل الى بيته
فأقام ساعة ، فأرسل اليه السلطان جمدارا وقال له :
« قم كلم السلطان » فقال : « أنا كما نزلت من
عند السلطان ايش يعمل بى ؟ ولكن غدا أنا بين
يديه » ... فلما رجع من عنده الجمدار أقام في بيته
الى بعد العشاء ثم أرسل خلف الأمير تمر بغا
المشطوب ، والأمير سودون زاده ، وجماعة من
الأمراء العشراوات . فلما تكاملوا ركب الأمير
نوروز ومعه الأمراء الذين أرسل خلفهم وتوجهوا
جميعا الى الأمير العوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونزل
الى باب السلسلة ، وجلس في المقعد المطل على
الرميلة ، وعلق الصنجق السلطاني ، ودقت
الكنوسات حربى ، فطلع اليه جماعة من الأمراء

والمماليك السلطانية ، فوقفوا في سوق الخيل ،
فأقاموا على ذلك يوم السبت ويوم الأحد فلم يجرى
اليهم أحد من الأمراء الذين توجهوا الى بركة الحبش .

فلما كان يوم الأحد توجه المماليك السلطانية
الى نحو باب الزغلة عند زاوية القاضى بكار ، فبعد
ساعة واذا بجاليش الأمير حكم العوضى قد أقبل
من نحو بركة الحبش ، فتلاقوا هناك وأوقعوا مع
عسكر السلطان ، فكان بينهم واقعة قوية ، فقتل
في ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية وجماعة
من الغلمان ، فكان عدة من قتل وجرح من الناس
والغلمان نحو ستين انسانا ، وأسر من المماليك
السلطانية اثنا عشر انسانا ، ثم حال بينهم الليل .
ففى تلك الليلة تسحب جماعة من الأمراء من عند
السلطان الى الأمراء الذين في بركة الحبش . وكان
من الذين تسحبوا الأمير سودون البجاسى ، والأمير
تربغا الطرنطاي ، والأمير سودون الجلب ، وتسحب
معهم نحو مائة مملوك من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم الثلاثاء أشهر السلطان المنادى
للمماليك السلطانية بالعرض ، فعرضوا في يوم
الأربعاء .

فلما كان يوم الخميس فرق السلطان خيولا
ولبوسا على المماليك الذين عرضهم . ثم انه ركب
وخرج من باب السلسلة ووقف بسوق الخيل ساعة
حتى تكامل العسكر ، وأرسل خلف أمير المؤمنين
المتوكل والقضاة الأربعة ، فلما حضروا جميعا
توجه السلطان والأمراء والعسكر الى باب القرافة ،
فتقدم چاليش السلطان وكان فيه من الأمراء الأمير
يشبك السودونى ، والأمير سودون تلى ، ثم تبعهما
الأتابكى بيبرس ومعه نحو من ألف مملوك . فلما
وصلوا الى مصلى خولان التى بالنقعة ، أقبل
جاليش الأمراء الذين في بركة الحبش ، فأوقع
الفريقان هناك واقعة قوية ، ثم بعد ساعة واذا

بالمملك الناصر قد أقبل ومعه السواد الأعظم ، فوقع
في قلوب الأمراء الذين أتوا من بركة الحبش الرعب
من السلطان ، فلما وقع القتال بينهما انكسر الأمراء
الذين كانوا في بركة الحبش . فأول من أمسك منهم
الأمير تسربغا المشطوب ، والأمير سودون بن زاده ،
والأمير على بن اينال ، وجرح الأمير يشبك
الساقى ، والأمير قمج الحافظى ، وأسر جماعة كثيرة
من الأمراء العشراوات والخاصكية والمماليك
السلطانية ، وهرب بقية الأمراء منهزمين الى نحو
بركة الحبش وقد تمزقوا كل ممزق من الطفشان .
فلما حصلت هذه النصره للملك الناصر — وكانت
على غير القياس — رجع الى القلعة ومعه الخليفة
والقضاة الأربعة والأمراء الذين أسروا قدامه
مشاة ، وهم في زناجير حديد ، حتى طلع الى القلعة
وهو في غاية النصر ، وفي ذلك يقول بعض
الشعراء :

المملك الناصر أعظم به
من ملك جاء بأمر عجيب
قد كتب السعد باقباله
نصر من الله وفتح قريب

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج .
وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى ،
والأمير نوروز الحافظى ، والأمير قانبای العلأى ،
والأمير يشبك بن أزدمر أخى اينال ، والأمير
قرقماس وبقية الأمراء ، لما أن وقعت عليهم الكسرة
وهربوا ، استمروا الى أن وصلوا الى الميمون ،
فأقاموا هناك يومين ثم عدوا الى بر الجيزة ،
فأخذوا خيول الدشار والهجن التى هناك ، وأقاموا
في الجيزة ثلاثة أيام . ثم ان الأمير نوروز الحافظى
حضر تحت الليل الى القاهرة ، وتوجه الى بيت
الأتابكى بيبرس ، فطلع به الى السلطان وقابل به ،
فان نوروز كان صهر الملك الناصر فرج زوج أخته .

فلما أن قابله رسم له السلطان بأن يستقر نائب
الشام ، وأرسل اليه خلعة ورسم له بأن يخرج من
يومه .

وكان من جملة سعد الملك الناصر أن فى تلك
الليلة اتفق جماعة من المماليك السلطانية نحو من
ألف مملوك بأن يتوجهوا الى الأمير نوروز والأمير
جكم ، فلما حضر الأمير نوروز رسم له بأن يستقر
نائب الشام ، فلما برز خيامه فى الريدانية وخرج
اليها أرسل اليه السلطان من قيده ثم أرسله من
هناك الى ثغر الاسكندرية فسجن بها . فلما بلغ
الأتابكى بيبرس ذلك عز عليه لكونه حلف لنوروز
بالطلاق أنه اذا قابل به السلطان لا يشوش عليه .
فلما فعل به السلطان ذلك عز على الأتابكى
بيبرس .

هذا ما كان من أمر الأمير نوروز الحافظى .
وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى فانه
أرسل يسأل السلطان أن يرسم له بأن يتوجه الى
ثغر دمياط من غير سجن ، فرسم له بذلك ، فتوجه
اليه الأمير اينال حطب رأس نوبة ثانى فأحضره
الى القاهرة فى ليلة الأربعاء . فلما حضر طلع الى
باب السلسلة عند الأمير سودون أمير آخور كبير ،
فشاور عليه السلطان فرسم بتقييده ، فقيده هو
والأمير سودون زاده وجماعة من الأمراء الذين قد
خامروا على السلطان وتوجهوا الى الأمير جكم ،
فقيدوا أجمعين ، وأرسلوا الى السجن بثغر
الاسكندرية ، وكان المتسفر عليهم 'الأمير سودون
تلى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير يشبك
الشعبانى — وكان بالسجن بثغر الاسكندرية —
فلما حضر خلع عليه واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا
عن الأمير جكم العوضى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير قطلوبغا

الحسنى والأمير أقبای الكركى والأمير جركس
القاسمى المصارع ، فتوجه لاحضارهم الأمير
سودون بقجة ، فأخرجهم من السجن بثغر
الاسكندرية . فلما حضروا طلعوا الى القلعة وباسوا
الأرض ، فأنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف عوضا
عن الأمراء الذين توجهوا الى السجن بثغر
الاسكندرية كما تقدم ، فكانوا مثل بابات خيال
الظل ، فشىء يجىء وشىء يروح ، كما قد قيل
في المعنى :

رأيت خيال الظل أعجب منظرا

لمن هو فى علم الحقيقة راقى

تمر وتمضى بابة بعد بابة

وتفنى جميعا والمحرك باقى

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشر
شوال ، ورد كتاب من ثغر الاسكندرية حضر من
بلاد ابن عثمان على يد جماعة من التركمان فأخبروا
فيه بأن تمرلنك قد هلك عن يقين^١ . قال القاضى
تقى الدين المقرئى محتسب القاهرة : « كنت عند
القاضى فتح الله كاتب السر الشريف فجاءه كتاب
ابن عثمان يذكر فيه موت تمرلنك ، وأن القان
أحمد بن أويس رجع الى بلاده وكذلك قرا
يوسف ، وأخبر بأن الحمرة التى طلعت فى جسد
تمرلنك وهو على دمشق استمرت ترعى فى جسده
حتى مات بها وعجل الله بروحه الى النار » . كما
قد قيل :

زبانية النيران تكره وجهه

ومنه استعازت مذ رأته جهنم

قيل انه لما دفن كان يسمع عواء فى قبره مثل
عواء الكلاب . وقال بعض السياح انه قد شاهد
الدخان يطلع من قبره . وقيل انه لما دفن لم تقبله

(١) فى « المنهل الصافى » و « الشدرات » وغيرهما ان تمرلنك

توفى سنة ٨٠٧ هـ .

الأرض ، فصنعوا له صندوقا من خشب ووضعوه
فيه وعلقوه بين السماء والأرض وقيل ان تمرلنك
كان قد جمع عساكر كثيرة وقال : « ما أرجع حتى
أدخل مصر وأفعل بها ما فعلت فى دمشق » ...
فأخذ الله تعالى وكفى الناس شره . وقد قال
القائل :

مات تمرلنك وجاءت لنا

أخباره فيما تأتى اليه

وقد كفانا ربنا شره

والله كافى من توكل عليه

وفى هذه السنة تأخر خروج المحمل من القاهرة
الى ثانى عشرى شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان
أمير المحمل فى تلك السنة الأمير نكسييه
الأزدمرى ، فكان تأخير المحمل الى هذه المدة لأمر
حصل لأمر الحاج فعاقه عن الخروج
ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمراء دخلوا
بيت الأتابكى يبرس ولعبوا معه بالكرة ، فلما
فرغوا وقصدوا التوجه الى بيوتهم خرج اليهم فى
أثناء الطريق جماعة من المماليك الناصرية فضربوا
الأمراء ، فهرب الأمير يشبك الشعبانى الدوادار
فطلع الى باب السلسلة وأقام فيه الى العصر فلما
بلغ ذلك الى السلطان رسم لوالى القاهرة بأن
يحضر المماليك الذين فعلوا هذه الفعلة ، فأحضر
منهم ثلاثة مماليك فضربهم السلطان بالمقارعة
وأشهرهم فى القاهرة ، فخدمت الفتنة قليلا .

وفى هذه السنة تزايدت عظمة المقر السعدى
ابراهيم بن غراب ، وحظى عند الملك الناصر حتى
انه استقر به أمير مجلس ، وصار صاحب الحل
والعقد بالديار المصرية ، وصار يجلس مع الأمراء
المقدمين تحت أمير كبير .

وفىها جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان
نهبوا البلاد وأخذوا المغل وقتلوا جماعة كثيرة من

الفلاحين ، فأرسل اليهم السلطان تجريدة وكان بها من الأمراء المقدمين عشرة وهم : الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ، والمقر السعدى ابراهيم ابن غراب أمير مجلس ، والمقر السيفى شبك الشعبانى أمير دوا دار ، والأمير سودون الماردىنى ، والأمير يلبغا الناصرى ، واينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن على باى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير ألان اليحياوى ، والأمير اينال العلائى نائب حلب . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات أربعة عشر أميرا ، ومن المماليك السلطانية أربعمائة مملوك — فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا الى البحيرة فأوقعوا مع العربان فطردوهم الى برقة ونهبوا أموالهم ومواشيهم .

سنة خمس وثمانمائة (١٤٠٢ / ١٤٠٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على المقر الأتابكى بيبرس ، فرسم له بأن يتوجه هو وعياله الى ثغر دمياط ، فأخذ في أسباب توجهه الى دمياط ، فطلع سائر الأمراء المقدمين وشفعوا فيه عند السلطان فبطل أمر سفره الى دمياط ورضى عليه .

سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣ / ١٤٠٤ م) :

فيها وقع الخلف بين الأمراء بمصر ، وجاءت الأخبار بأن عربان الشرقية والغربية قد كثر منهم الفساد . ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية والحلبية بأن النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة ، وصار القيل والقال في كل يوم عمالا بين الناس ، والأمراء فرقتان : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة عليه .

سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤ / ١٤٠٥ م) :

فيها وقع الوباء بالديار المصرية ، وكثر موت الفجأة ، وتكرت دموية بالناس ، وكان ذلك في قوة البرد والشمس في برج الدلو ، وكثر بالناس

السعال والانحسار ، فمات في مدة سبعة عشر يوما — وقيل في دون الشهر — كثير من الناس ، وصاروا يتساقطون في الطرقات موتا ... فأقام مدة يسيرة ثم ارتفع . فمات في هذه المدة اليسيرة نحو ما كان يموت في الفصول الكبار ، ولكن لم يظهر فيه طعن بل كان أهوية متحركة وأوخاما ، ولأجل ذلك لم يعده الشيخ شهاب الدين بن حجر رضى الله عنه من جملة الطواعين التى وقعت بمصر لأنه لم يظهر فيه طاعون ، وقد فرق بين الوباء وبين الطاعون في كتابه المسى ببذل الماعون في أخبار الطاعون .

فلما وقع هذا الوباء بمصر فتح المقر السعدى ابن غراب مغسلا برسم الأموات عند بيته الذى عند جامع بشتك الناصرى ، فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالين يطرحونهم على بابه حتى يخرجهم من مغسله ، فكفن في تلك السنة من ماله جماعة كثيرة من الغرباء وغيرهم لا يحصى عددهم ، فسمى فصل ابن غراب .

وفيها توفي سيدى على ابن سيدى محمد وفى رضى الله تعالى عنه .

سنة ثمان وثمانمائة (١٤٠٥ / ١٤٠٦ م) :

فيها خلع على سعد الدين بن غراب واستقر كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن فتح الله بعد القبض عليه والمصادرة وأقيم في الترسيم .

وفيها جاءت الأخبار بأن دمرداش نائب حلب قد أطلق الأمير جكم العوضى من السجن ومعه جماعة من الأمراء وتوجه بهم الى حلب ، فاضطربت أحوال الملك الناصر بسبب ذلك ، وضاعت عليه الأمور ، وصار في غاية الضنك مع الأمراء بخلفهم ، وتعصب عليه الأتابكى بيبرس وجماعة من الأمراء ، وصاروا يعاكسونه في الأمور .

فلما تسلطن لم يتم أمره في السلطنة ، ولا ساعدته
الأقدار ، ولم يبلغ المراد كما قيل في المعنى :

ما كل من نال المعالي ناهضا
فيها ، ولا كل الرجال فحول

فلما تسلطن المنصور صار الأتابكى يبيرس
صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار
يتصرف في أمر المملكة بحسب ما يختار من ذلك ،
فانخفضت كلمة المقر السيفى يشبك الشعبانى
الدوادر ، فعز ذلك عليه وتمنى عود الملك الناصر
فرج ، فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب في
خلوة ، فقال له ابن غراب : « لا تهتم لذلك ...
الملك الناصر عندى مختفى » ... ففرح يشبك
بذلك ، وقام الى ابن غراب وقبل رأسه ثم أخذ في
أسباب ظهور الملك الناصر فرج .

فلما كان يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهر
الملك الناصر من بيت سودون الحمزاوى الذى عند
البركة الناصرية . فلما أشيع ذلك اضطربت القاهرة
وماجت ، ولبس العسكر آلة الحرب ، وصار
الأمرء والعسكر فرقتين : فرقة مع الملك الناصر ،
وفرقة مع أخيه عبد العزيز . وكان من عصبية
الملك المنصور عبد العزيز : الأتابكى يبيرس ،
والأمير سودون المحمدى ، والأمير اينال باى ابن
قجماس ، والأمير سودون الماردينى ، وجماعة من
الأمرء الطبلخانات والعشراوات ، وجماعة من
العسكر . وكان من عصبية الملك الناصر فرج : المقر
السيفى يشبك الشعبانى الدوادر ، وجماعة كثيرة
من الأمرء . وكان أكثر العسكر مع الملك الناصر ،
فلبسوا آلة الحرب واقتتلوا في ذلك اليوم أشد
القتال ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر
الأتابكى يبيرس ومن معه من الأمرء ، وانتصر
عليهم الملك الناصر فرج ، فركب من بيت سودون
الحمزاوى وطلع الى القلعة وملكها . فرسم لأخيه

فلما كان يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول
من السنة المذكورة نزل الملك الناصر من القلعة
بعد العصر وهو ماش متكر ، فاخفى في مكان
لا يعلم . فلما نزل من القلعة وبلغ ذلك الأمرء
ركبوا وطلعوا الى باب السلسلة ، فلما اجتمعوا
ضربوا مشورة فيمن يسلطونه ، فوقع الاتفاق على
سلطنة أخيه المقر العزى عبد العزيز ، فطلبوه من
دور الحرم وسلطوه في ذلك اليوم ، ولقبوه بالملك
المنصور ، وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة ،
فكانت مدة سلطنته في هذه المدة ست سنين وخمسة
أشهر وعشرة أيام ... ثم يعود الى السلطنة من بعد
ذلك مرة ثانية — كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه
ان شاء الله تعالى — والله سبحانه وتعالى أعلم .

الملك المنصور عز الدين

هو الملك المنصور عز الدين أبو العز ابن الملك
الظاهر برقوق بن أنص العثمانى الجركسى ، وهو
السابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر ،
وهو الثالث من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار
المصرية ، بويح بالسلطنة بعد العشاء ، وتلقب بالملك
المنصور ، وجلس على سرير الملك ليلة الاثنين
سادس عشرى ربيع الأول من سنة ثمان وثمانمائة
بعهد من أيه الملك الظاهر برقوق كما تقدم ،
فباسوا له الأرض ، ونودى باسمه في القاهرة ،
وضج الناس له بالدعاء ، ولم تدق له الكؤوسات .
فلبس خلعة السلطنة من القصر الكبير ، وحملت
القبة والظير على رأسه ، وجلس على سرير الملك .
قال المقرئى : « تسلطن الملك المنصور
عبد العزيز وله من العمر عشر سنين ، وكانت أمه
أم ولد رومية الجنس تسمى تنق باى » .

عبد العزيز بأن يدخل الى دور الحرم فدخلها وأقام بها محتفظا ، فكانت مدة سلطنته بمصر شهرين وعشرة أيام ، وكان في السلطنة آلة لا ينتفع بها والأمر كله في هذه المدة للأتابكى بيبرس .

عَوْدُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ فَرَجٍ

قال المقرئى : « عاد الملك الناصر فرج الى السلطنة وجلس على سرير الملك في يوم الخميس رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة ، وبايعه الخليفة ثانيا .

فلما جلس على سرير الملك قبض على الأتابكى بيبرس ، وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء الذين كانوا سببا لسلطنة أخيه عبد العزيز ... والذي كان قصد الملك الناصر يفعله بالأتابكى بيبرس في الأول فعله في الآخر ، كما قيل في المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عيننا عليك اذا ما نمت لم تتم

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن بيبرس ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف عوضا عن نفى من الأمراء ، فاستقامت أموره في هذه المرة ، ولم يختلف عليه اثنان كما قيل : « وربما صحت الأجسام بالعلل » .

ومن الحوادث في هذه السنة وفاة أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله . وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثمان وثمانمائة . فكان مجموع خلافته بالديار المصرية الى أن مات نحو من خمس

وأربعين سنة — بما فيها من عزل وولايه — وكان كريما جوادا ممدوحا لا يرد سائلا ، كما قيل :

كأنه فى العطاء بحر ندى

وبذله النقد فيه تيار

ولكن قاسى من الملك الظاهر برقوق شدائد عظيمة ، وتركه في القيد وهو مسجون ببرج الحية الذى بقلعة الجبل نحو سبع سنين . وكان اماما عظيما ، كفئا للخلافة ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير . فلما مات دفن عند أقاربه بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . ولما مات خلف من الأولاد سبعة وهم : العباس وكان أكبرهم ، وداود وسليمن وحمزة ويوسف ويعقوب وموسى ، وكل منهم ولى الخلافة الا يعقوب وموسى لم يليا الخلافة .

وقيل جاء للمتوكل نحو مائة ولد من صلبه ما بين ذكور وإناث وسقوط . وهذا لم يقع لخليفة قبله سوى عبد الملك بن مروان الأموى ، فانه لما مات خلف من الأولاد أربعة وهم : الوليد وسليمن ويزيد وهشام ، وكل منهم ولى الخلافة .

ولما توفى محمد المتوكل تولى الخلافة من بعده ابنه العباس ، وتلقب بالمستعين بالله .

ومن الحوادث أن ابن نعيم أرسل الى السلطان رأس جكم العوضى الذى تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل ، فخرج من حلب الى قتال قرا ملك أمير التركمان فقتل في المعركة بين بساتين آمد ولا يعلم من قتله ، فكانت مدة سلطنته بحلب نحو من شهرين ، فعلق رأسه على باب زويله ، وكان له يوم مشهود ، وكفى الملك الناصر شره .

وفيهما توفى الأمير بيبرس الفارقانى — وهو صاحب الحمام الذى تجاه المدرسة البندقدارية — وكان بيبرس هذا من المعمرين ، وكان من أهل الدين والصلاح وله مشاركة في العلم ، وكان له

شعر جيد ، وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ،
وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه ما لا تمجه
الأسماع ، فمن ذلك قوله :

من لى بظبي غرير باللحظ يسبى الممالك
إذا تبدى بليلى جلا سناء الحوالمك
من حور رضوان أبهى لكنه نجل مالك
ذكر ذلك صاحب كتاب زهر الخمائل فيمن نظم
الشعر من الترك الأصائل .

سنة تسع وثمانمائة (١٤٠٦/١٤٠٧ م) :

فيها أخرج الملك الناصر أخاه عبد العزيز الذى
تسلطن الى ثغر الاسكندرية فسجن بها ، وأرسل
معه أخاه سيدى ابراهيم ، وذلك فى ثامن صفر .
وأقاما بثغر الاسكندرية نحو أربعين يوما ، ثم
جاءت الأخبار بموتهما فى يوم واحد ، وكانت
وفاتهما فى ليلة الاثنين سابع ربيع الأول من سنة
تسع وثمانمائة . فقبل ان الملك الناصر أشغلها
فى حلوى أرسلها اليهما ، فلما بلغه موتهما أرسل
فأحضرهما ودفنهما فى الخانقاه البرقوقية التى فى
الصحراء .

وفيهما خلع على البدرى حسن بن نصر الله
واستقر به وزيرا بمصر عوضا عن ابن البقرى .
وفيهما عزل جلال الدين البلقينى عن القضاء
وأعيد اليه الاخنائى ، فأقام به مدة ثم أعيد اليه
الجلال البلقينى .

سنة عشر وثمانمائة (١٤٠٧/١٤٠٨ م) :

فيها أفرج السلطان عن الأمير جكم العوضى
والأمير نوروز . فلما حضرا خلع على الأمير نوروز
الحافظى واستقر به نائب الشام ، وخلع على
الأمير جكم العوضى واستقر به نائب حلب . فلما
توجها الى البلاد أظهر كل منهما العصيان والمخامرة
على السلطان .

فأما جكم العوضى فانه تسلطن بحلب ، وبأس
له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك العادل ، وصار
واضع اليد على البلاد الحلبية ، وأخرج أوقاف
الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر
حلب ، وصار يحكم من الشام الى الفرات ،
فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية
والحلبية ، وصار حكمه لا يجاوز غزة ، فضاق
الأمر على الملك الناصر حتى كادت روحه تزهد .
فما مضى قليل حتى جاءت الأخبار من حلب بأن
جكم العوضى قد قتل ولا يعلم من قتله . وكان
سبب ذلك ان خارجيا من التركمان من أولاد
قرا يوسف خرج عليه فخرج اليه جكم مع
العساكر الحلبية فالتقى معه فكان بينهم واقعة
عظيمة ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ،
وفقد جكم العوضى فى المعركة ولا يعلم له خبر
ولا عرف كيف قتل . فلما جاءت الأخبار الى مصر
بذلك سر الملك الناصر وقد كفاه الله تعالى أمر
جكم بعد غيره كما قد قيل :

الصبر أولى بوقار الفتى من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار
وفى المعنى :

صبرا على جور الزمان وربما

تفرج أيام الكريهة بالصبر

فلما قتل جكم التنف الأمير نوروز الحافظى على
الأمير شيخ الحمودى نائب طرابلس وأظهروا
العصيان ، والتنف عليهم جماعة من النواب وصاروا
يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى
الفرات ، وصار بيد الملك الناصر مصر وأعمالها
فقط ، وهو فى غاية الحصر مع ممالك آية بمصر ،
فكان يسلى همه بكثرة السكر لا يصحو منه ليلا
ولا نهارا ، كما قيل فى المعنى :

وما اجتمعت والهم يوما لأنها
بكاساتها صفراء للهم فاقعة

سنة احدى عشرة وثمانمائة (١٤٠٨ / ١٤٠٩ م) :

فيها ظهر في السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من الجهة الغربية ، ثم اشتدت تلك الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة ، ثم جاور تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع يحيل للناس أنها نار لا محالة ، ثم انتشرت تلك الحمرة حتى كادت أن تغطي ثلث السماء . واستمر الحال على ذلك الى نصف الليل ، فخاف الناس من ذلك وتضرعوا الى الله بالدعاء ، فانكشفت تلك الحمرة قليلا قليلا ، وصحت السماء فأصبح الناس يتحدثون بما وقع في تلك الليلة من العجائب . وقد قال القائل :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صادق في السر والعلن
حاشاه أن يحرم الراجي اجابته
إذا دعاه لكشف الهم والحزن

ومن الوقائع الغربية جاءت الأخبار بأن جاليش الأمير شيخ المحسودى والأمير نوروز قد جاء من غزة وهم في عساكر لا تحصى . فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والأمراء على الهجن ، فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة ، فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم ، فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة ، فقوى حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرها كسرة قوية ، فرجعا الى الشام مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ، ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء والمماليك .

وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم بطل نوروز من نيابة الشام وأرسل السلطان تقليدا الى شيخ نيابة الشام وتقليدا الى دمرداش بنيابة حلب ،

ثم عين نوروز الى القدس بطالا ، ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ، ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب ، وهذا من العجائب ... ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان ، فجرد اليه ورجع من غير طائل . وفيها توفي الأمير باش باى رأس نوبة النوب .

سنة اثنتى عشرة وثمانمائة (١٤٠٩ / ١٤١٠ م) :

فيها تزايد جور الملك الناصر في حق ممالك آبيه ، فصار ينفي منهم جماعة ويفرق منهم جماعة ، فكان الأتابكى تغرى بردى ينهى الملك الناصر عن هذه الأفعال الشنيعة فلا يلتفت الى كلامه . فلما ثقل عليه أمره خلع عليه واستقر به نائب الشام . فلما توجه تغرى بردى الى الشام أسرف الملك الناصر في قتل ممالك آبيه ، فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج الى الحوش وهو سكران ، فيعرض الممالك الذين في السجن بالأبراج فيحضرونهم في زناجير فيقدمون اليه واحدا بعد واحد ، فيقول : « من هذا ؟ » ... فيقولون له هذا فلان من الطبقة الفلانية ، فيقول : « قدموه » ... فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ ... وكل هذا من شدة قهره وما قاساه منهم ، فكان يذبح من الممالك في كل ليلة بحسب ما يختار في تلك الليلة ، وذكروا عنه أشياء شنيعة من هذا النمط . فاستمر على هذه الحالة مدة طويلة حتى قيل انه ذبح في هذه المدة من ممالك آبيه نحو ألف مملوك ، وقد تجرأ على القتل حتى صار يقتل في كل ليلة نحو عشرين مملوكا ...

وكان الملك الناصر معذورا فيهم ، فانه كان يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم يغدرونه ويخامرون عليه ، حتى كان يقول الملك

وفي هذه السنة وفي النيل المبارك في أول يوم من مسرى ، وبلغت الزيادة في تلك السنة اثنين وعشرين ذراعا واصبعا من الثالث والعشرين ، فحصل للناس في تلك السنة غاية الضرر الشامل ، وغرقت أكثر البساتين ، وانقطعت الطرقات حتى قيل في المعنى :

قد زاد هذا النيل في عامنا
فأغرق الأرض بانهامه
وكاد أن يعطف من مائه

عري على أضرار أهرامه

وفيها جاءت الأخبار بأن نوروز الحافظي وشيخ المحمودي قد قويت شوكتهما والتف عليهما سائر النواب وغالب عسكر مصر ، والتف عليهما جماعة كثيرة من العشير ومن عربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميراً من أمراء مصر والشام . فمنهم الأمير قرقماس المعروف بسيدى الكبير ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير سودون المحمدي ، والأمير شاهين الأفرم ، والأمير طوغان الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء المصرية والشامية .

فلما تحقق الملك الناصر ذلك عرض العسكر ، وأنفق عليهم ، وبرر خيامه الكل في جمعة واحدة ، ثم نزل من القلعة في موكب عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وأمر العسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب . وكان صحبته الخليفة العباس والقضاة الأربعة ، منهم قاضى القضاة الشافعى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى ، وبقية القضاة ما يحضرنى أسماؤهم الآن ، ومن المباشرين القاضى فتح الله كاتب السر الشريف ، وسائر الأمراء والعسكر ، فتوجه الملك الناصر الى نحو الريدانية فأقام بها يومين ، ثم انه رحل منها وقصد التوجه الى نحو الشام .

المؤيد شيخ في بعض مجالسه بعد قتل الملك الناصر فرج : « ما صبر أحد من الملوك كصبر الملك الناصر على ممالك أبيه » ... فانه ما كان يقتل الواحد منهم حتى يكون قد سامحه مرارا عديدة وهم يغدرونه ... وقد جرى له معهم من الوقائع ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، وهم مع ذلك لا يزدادون عليه الا طغيانا ولو أسرف في قتلهم .

سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١٠/١٤١١) :

فيها وقع الطاعون بالقاهرة ، وكانت قوة عمله في شهر رمضان ، وفي ذلك يقول القاضى مجد الدين بن فضل الله :

تزايد الطاعون لما أتى

شعبان والحمى به صعبه

ودام في الصوم على فتكه

وفطر الضعيف على كبه

وفيها انتهت زيادة النيل الى أحد وعشرين ذراعا ، وكان الوفاء أول مسرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن شيخ المحمودي ونوروز الحافظي قطعاً اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها .

وفيها توفي جلال الدين بن خطيب داريا ، وكان عالما فاضلا بارعا في فن البديع وله شعر جيد حسن .

سنة أربع عشرة وثمانمائة (١٤١١/١٤١٢ م) :

فيها نفرت قلوب الممالك من الملك الناصر ، وصار منهم جماعة يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز الحافظي وشيخ المحمودي ، فكانوا يتوجهون من العقبة الى غزة ومن غزة الى الشام ، فتسحب من العسكر نحو الثالث .

وكانت هذه التجريدة الثالثة تجريدة خرج فيها الملك الناصر بنفسه .

فان أول تجريدة جردها الى الشام كانت بسبب تنم الحسنى نائب الشام لما أظهر العصيان كما تقدم .

والتجريدة الثانية كانت بسبب تمرلك لما وصل الى الشام وجرى منه ما جرى كما تقدم .

والتجريدة الثالثة كانت بسبب نوروز الحافظى وشيخ لما أظهروا العصيان فخرج اليهما الملك الناصر بنفسه .

سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢ م) :

فيها دخل الملك الناصر الى الشام وأقام بها أياما ، ثم توجه خلف النواب ، فكانوا يتوجهون فى كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر يسوق خلفهم ليلا ونهارا فأتعب العسكر ، وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب .

فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وصل الملك الناصر الى اللجون — وهى من ضياع الشام — فتلاقى هنالك الملك الناصر والنواب بعد العصر ، وكان الملك الناصر قد اصطحب وهو لا يعى من شدة السكر ، فأراد الكبس على النواب فى تلك الساعة ، فمنعه الأمراء من ذلك فلم يسمع لهم ، فتقدم اليه القاضى فتح الله كاتب السر وتكلم معه فى أن ينزل هناك ساعة حتى يستريح العسكر من شدة السوق فلم يلتفت الى كلامه وقال : « أنا لى سنين أنتظر هذا اليوم . ومتى نزلت هنا ساعة هربوا من وجهى الى مكان آخر » ...

فلما رأى الأمراء والعساكر هذه الأحوال الفاسدة تسحبوا من عنده الى النواب ، فأول من تسحب من عنده من الأمراء الأمير قجقار أمير

سلاح فتوجه الى النواب . فلما رأى العسكر ذلك صاروا يتسحبون من عنده قليلا قليلا حتى لم يبق معه الا القليل من العسكر ، فبان عليه عين الغلب ، فكبس على النواب وقت غروب الشمس ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الملك الناصر وهرب بمن بقى معه من العسكر ، فولى مدبرا الى نحو الشام ، فكان كما يقال فى المعنى :

ما تفعل الأعداء فى جاهل

ما يفعل الجاهل فى نفسه

فدخل الى الشام وبات فى تربة تنم فى ليلة الأربعاء سادس عشرى المحرم . فلما ولى الملك الناصر استولى الأمير نوروز وشيخ على بركه وخزائن المال وملكوها ، وقد انتصر شيخ ونوروز على الملك الناصر ، وفى ذلك يقول الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد شيخ :

وجمعت باللجون جم عساكر

دارت عليهم من سطاك دوائر

وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة

فكان هاتيك السروج مقابر

فلما دخل شيخ ونوروز الى الشام طلعا الى دار السعادة ، واجتمع هناك سائر الأمراء وأحضروا القضاة الأربعة ورسوموا بأن يكتبوا محضرا بأفعال الملك الناصر ، بأنه سفاك للدماء ، مدمن للخمر . فكتبوا محضرا بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة . واشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال نوروز لشيخ : « لا أنا ولا أنت تتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباس ... هذا هو السلطان . ويكون الأمير شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام ، ويحكم فى البلاد الشامية من غزة الى

الفرات ، يولى بها من يختار ويعزل من يختار »
... فتراضوا على ذلك ، وحلف جميع الأمراء على
ذلك ، وتعاهد الأمير شيخ ونوروز على ذلك ،
وأن الخليفة اذا بقى سلطانا بمصر لا يعزل ولا يولى
حتى يراجع فى ذلك الأمير شيخ والأمير نوروز .
ثم سلطنوا الخليفة العباس كما سيأتى ذكر ذلك
فى موضعه ان شاء الله تعالى .

واستقر الأمير شيخ أتابك العساكر بمصر ،
واستقر الأمير نوروز الحافظى نائب الشام كما
تقرر الحال عليه .

هذا ما كان من أمر النواب .

وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد
الكسرة التى وقعت له على اللجون ، فانه لما جرى
له ما جرى ولى منهزما فتوجه الى نحو الشام ،
وأقام فى تربة تنم ، وأرسل الى الأمير شيخ يطلب
منه الأمان . وكان الأمير نوروز صهر الملك الناصر
زوج أخته ... فلو طلب منه الأمان أولا ما أصابه
شئ . ولكن قصد الأمير شيخ فأرسل اليه من
قيده وأحضره الى السجن بقلعة دمشق . ثم انهم
أثبتوا عليه الكفر كما قيل ، والله اعلم بحقيقة ذلك .

فلما كانت ليلة السبت سادس شهر صفر من
سنة خمس عشرة وثمانمائة دخل على الملك جماعة
من الفداوية وقتلوه بالخناجر فى تلك الليلة وهو
بالبرج بقلعة دمشق ، فلما أصبحوا وأشيع ذلك
بين الناس لم يصدقوا بذلك ، فأخرجوه من البرج
وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان
مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس فى وسطه ،
وصار الناس يأتون اليه أفواجا ينظرون اليه ،
ولو أمكن ممالك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك
مما قاسوه منه . فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم
يدفن ، ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه
بمقبرة باب الفراديس بدمشق ... هذا ما جرى

للملك الناصر فرج والله أعلم . فكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث عشرة سنة
وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وذلك خارج عن
مدة خلفه بأخيه عبد العزيز ، وهى شهران وعشرة
أيام . وقتل وله من العمر نحو ست وعشرين سنة
والله أعلم . وقد قيل فى المعنى :

يا نفس صبرا والا فاهلكى جزعا
ان الزمان على ما تكرهين بنى
لا تحسبى نعمة سرتك صبحتها
الا بمفتاح أبواب من الحزن

ولما توفى الملك الناصر خلف من الأولاد سبعة :
ثلاثة صبيان وأربع بنات . فأما الصبيان فهم : محمد
وفرغ و خليل الذين نفاهم المؤيد شيخ الى ثغر
الاسكندرية ، وأقام خليل هناك الى أن توفى فى
أثناء دولة الملك الأشرف اينال ، ونقل بعد موته
ودفن بتربة جده الملك الظاهر برقوق التى
بالصحراء . وأما البنات فخوند شقرا ، وخوند
آسية ، وخوند زينب ، وخوند هاجر .

وكان الملك الناصر فرج شجاعا بطلا مقداما
كريما ، غير أنه كان سفاكا للدماء ، مسرفا على
نفسه ، منهمكا فى شرب الخمر وسماع الزمور ،
عنده كثرة الجهل مع قلة الدين . وكانت الدنيا
على أيامه جائلة ، وحقوق الناس ضائعة ، وقد
خربت غالب البلاد الشامية فى أيامه ... من تمرلنك
ومن عصيان النواب ، وخربت أوقاف الناس التى
بالبلاد الشامية فى أيامه لما عصى جكم العوضى
وتسلطن بحلب . وكم قتل من أبطال ، ويته من
أطفال ، وجرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها
عن هذا المختصر ، حتى فرج الله تعالى بموته
وزوال دولته . وكانت الناس معه فى غاية الضنك .
وكانت صفته أبيض اللون يميل الى صفرة ،
أشهل العينين ، وافر الأنف ، نحيف الجسد ،

وتوفي الشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقي ،
وكان من فحول الشعراء .

سلطنة الخليفة المستعين بالله

هو أبو الفضل العباس ، ابن الامام محمد
المتوكل على الله ، ابن المعتض بالله ، ابن المستنفي
بالله ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله . تسلمن
بدمشق بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق في
يوم الاثنين سابع عشرين المحرم من سنة خمس
عشرة وثمانمائة . فمن المؤرخين من عده من جملة
السلطين بالديار المصرية ، ومنهم من عده من
جملة خلفاء بني العباس . وهذه القواعد لم تتفق
لخليفة قبله من بني العباس أنه تسلمن بمصر
وحكم بها على هذا الوجه . وفيه يقول بعض
الشعراء :

سلطاننا حاز الفخار بأسره
وبأسره مجموع كل الناس
ولقد روى الضحاك عن ثغر له
والجفن في الاغضا عن العباس

وكان سبب سلطنة الخليفة العباس أنه لما عصى
نوروز الحافظي وشيخ الحمودي جرد اليهم الملك
الناصر . فلما انكسر الملك الناصر خلعوه من
السلطنة ، واتفق رأى نوروز وشيخ على سلطنة
الخليفة العباس كما تقدم ذكر ذلك ، فأحضروا له
خلعة السلطنة ، وألبسوها له وباسوا له الأرض .
وكان القائم في سلطنة الخليفة الأمير نوروز
الحافظي . قيل لما أرادوا أن يولوا الخليفة السلطنة
امتنع من ذلك غاية الامتناع ، فقال له الأمير
نوروز : « لا تخف ، أنا ظهرك ، لا يصيبك
الا ما يصيب رقبتى » . فشرط عليه الخليفة
العباس قبل أن يلى السلطنة شروطا كثيرة ، منها

معتدل القامة ، عربى الوجه ، مستدير اللحية ،
أشقر الذقن ، مهيب الشكل . وكانت أمه رومية ،
فجمع بين قبح الفعل والشكل . وكان كل من يراه
يرعد لشدة بأسه وعظمة سطوته .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية من العماير فهو
المدرسة التى تجاه باب زويلة التى تسمى الدهيشة ،
وعمر الجامع الذى هو داخل الحوش السلطاني
بالقلعة ، وجدد بالدهيشة التى بالقلعة أشياء كثيرة ،
وعمر الربيعين اللذين عند جامع الصالح خارج باب
زويلة ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من الانشاء بالديار
المصرية .

وأما من توفي في أيامه من الأعيان فمنهم شيخ
الاسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي ، وتوفي
القاصي تقى الدين بن الشهيد صاحب ديوان
الانشاء . وتوفي في أيامه القيم خلف الغباري
صاحب الأزجال اللطيفة ، وكان فريد عصره في
هذا الفن الشريف بدمشق . وتوفي الشيخ شمس
الدين الشهير بالمزين ، وكانا من أعيان دمشق .
قلما بلغ الشيخ عز الدين الموصلى وفاتها - وكانا
من أصداده - أنشد يقول :

دمشق قالت لنا مقالا

معناه في ذا الزمان بين

اندمل الجرح واستراحت

ذاتى من الفتح والمزين

وتوفي الشيخ زين الدين بن العجمي عين كتاب
الانشاء بالديار المصرية ، وكان له شعر جيد ، فمن
ذلك قوله :

انظر الى الغدران كيف تجعدت

أمواجهها فزهت وراقت منظرا

وحكت سطورا في طروس خطها

قلم النسيم بلطفه لما انبرى

أنه اذا خلع من السلطنة يستمر في الخلافة على حاله الأول ، فأجابوه الى ذلك .

فلما ولوه السلطنة خلع على المقر السبفي نوروز الحافظي واستقر به نائب الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وسلم اليه قلعة دمشق ، ثم خلع على المقر السبفي شيخ المحمودي واستقر به أتابكي العساكر بمصر ومدير المملكة ونظام الملك ، وصار نوروز يحكم من غزة الى الفرات ، والخليفة والأتابكي شيخ يحكمان من قطيا الى أقصى بلاد الصعيد وأعمال الديار المصرية قاطبة .

فلما وقع الاتفاق على ذلك خرج الخليفة من دمشق وصحبته الأتابكي شيخ وبقية الأمراء والعساكر ، فلما توجهوا قاصدين مصر كان الخليفة العباس في مدة السفر في غاية العز والعظمة ، نافذ الكلمة ، وأطاعه سائر العسكر .

فلما دخلوا الى مصر كان للخليفة العباس موكب عظيم ، وحمل الأتابكي شيخ على رأسه القبة والظير . فلما طلع الخليفة الى القلعة وسكن بها سكن الأتابكي بباب السلسلة ، فكانت الأمراء اذا نزلوا من عند الخليفة يدخلون الى المقر الأتابكي شيخ في باب السلسلة ، ويعطونه الخدمة ثانيا ، فيقع بين يديه الأبرام والنقض ، والجل والعقد .

وكان الأتابكي شيخ لا يمكن الخليفة من كتابة مربعة أو منشور أو مرسوم حتى يعرض عليه ذلك جميعه .

فاستمر الأمر على ذلك مدة يسيرة . ثم ان الأتابكي شيخ بدا له أن يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة ، فعند ذلك أحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة ، وكثر

الفساد في البر والبحر ، واضطربت الأحوال ، وأن الوقت محتاج لاقامة سلطان تركي له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده . فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة ، فبايع الأتابكي شيخ بالسلطنة .

فلما تسلطن شيخ استمر الخليفة العباس بالقلعة في مكان محتفظا به لا يجتمع به أحد ، فأقام على ذلك مدة يسيرة . ثم ان شيخ خلعه من الخلافة أيضا وولى أخاه داود وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان الخليفة العباس لما خلع من الخلافة عهد الى واده ، فلم يمض الملك المؤيد شيخ عهده ، وولى أخاه داود ، ثم أرسل الخليفة العباس الى السجن بشعر الاسكندرية . وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ستة أشهر الا أياما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة !

وكان في مدة سلطنته مع الأتابكي شيخ في غاية الضنك ، ليس له في السلطنة غير مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكي شيخ . وكانت مدة خلافته دون السلطنة ثمانى سنين وأشهر .

واستمر الخليفة في السجن بشعر الاسكندرية الى دولة الملك الأشرف برسباي ، فأخرجه من السجن وأسكنه في بعض دور الاسكندرية . واستمر على ذلك الى أن مات في الوباء الذي وقع في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وكانت وفاته في يوم الأربعاء حادى عشرى جمادى الآخرة من تلك السنة ، ودفن هناك رحمة الله عليه .

ومن الحوادث في أيامه ما نقله الشيخ شهاب الدين بن حجر في تاريخه أن قاضى قضاة الحنفية ، صدر الدين بن العديم ، تولى الحسبة في تلك الأيام مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة في وقت واحد ، ولم

يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية . وفيه
نقول بعض الشعراء :

من ولي الحسبة يصبر على
تعرض الخارج والعاير
فليس يحطى بالمتى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصابر

الملك المؤيد المحمدي

هو الملك المؤيد أبو النصر شيخ ابن عبد الله
المحمودي الظاهري ، وكان يعرف بالخاصكي .
وهو الثامن والعشرون من ملوك الترك وأولادهم
بالديار المصرية ، وهو الرابع من ملوك الجراكسة
وأولادهم .

بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس في يوم
الاثنين مستهل شهر شعبان سنة خمس عشرة
وثمانمائة (١٤١٣ م) ، فلبس خلعة السلطنة من
باب السلسلة وطلع الى القصر الكبير ، وجلس على
سرير الملك وباسوا له الأرض ، وتلقب بالملك المؤيد ،
ودقت له البشائر ونودي باسمه في القاهرة ، وضج
الناس له بالدعاء من الخاص والعام . وفيه يقول
الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر :

تسلطن الشيخ وزال العنا
فالناس في شروتيه وفيخ
فلا تقاتل بصبي ولا

تلق به جيشا وقاتل بشيخ

وكان أصله من ممالك الملك الظاهر برقوق ،
اشتراه من الخواجا محمود شاه وأعتقه ، وأخرج
له خيلا وقماشاً وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ،
ثم بقى ساقيا . وكان يعرف بشيخ المجنون ، ثم
بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين . وسافر الى
الحجاز أمير حاج في سنة إحدى وثمانمائة ، ثم

بقى مقدم ألف في دولة الملك الناصر فرج بن
برقوق ، ثم بقى نائب طرابلس ونائب الشام أيضا .
وأسره تمرلنك على حلب كما تقدم ووقع له في
دولة الملك الناصر فرج أمور شتى ومحن عظيمة ،
وسجنه الملك الناصر بخزانة شمائل ، فأقام بها
مدة ، ثم خرج الى الشام والتف على حكم
العوضي ونوروز الحافطي ، ولم يزل في عصيان
وهجاج في البلاد الشامية حتى مضى أكثر عمره ...
فلما جرد الملك الى نوروز وقتل الملك الناصر كما
تقدم ، وتسلمن الخليفة العباس ، بقى أتابك
العساكر بمصر ونظام المملكة ، ثم انه خلع الخليفة
من السلطنة وتسلمن عوضه .

فلما تسلمن وتم أمره في السلطنة قبض على
جماعة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بشعر
الاسكندرية ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم
ألوف ووظائف سنينة ، وأنعم على ولده المقر الصارمي
ابراهيم بتقدمة ألف ، وأقام له من الأمراء عصبة ،
وأرضى الجند بالاقطاعات ، ثم قرب جماعة حضروا
معه من البلاد الشامية فرقاها الى وظائف سنينة ،
فمنهم المقر الزيني عبد الباسط بن خليل ، ومنهم
المقر الناصري ناصر الدين بن البارزي ، ومنهم
القاضي علم الدين داود بن الكوينز ، والقاضي
بدر الدين بن مزهر ، والأمير ناصر الدين التاج
وأخوه ، والشيخ تقى الدين بن حجة الحموي
عين أعيان الشعراء ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة
حضروا معه من البلاد الشامية الى الدار المصرية .

ثم انه قبض على القاضي فتح الله كاتب السر
الشريف واحتاط على موجوده من صامت وناطق ،
ثم انه خنقه ودفنه تحت الليل . فلما مضى أمر
فتح الله خلع على المقر القاضي ناصر الدين بن
البارزي واستقر به كاتب السر بالديار المصرية
عوضا عن فتح الله ، واستقر بالمقر الزيني

عبد الباسط كاتب الخزائن الشريفة ، ثم جعله والى القاهرة وناظر الجوالى وناظر الكسوة الشريفة . واستقر بالقاضى علم الدين بن الكوين ناظر الجيوش المنصورة ، واستقر بالأمير ناصر الدين التاج استادار الصحة ، وقرر كل واحد منهم فى وظيفة تليق به . ثم انه قرب من الأمراء من شاء منهم ، وأبعد من شاء منهم ، واستقامت أموره فى السلطنة ، وأطاعه الجند ولم يختلف عليه اثنان من العسكر .

سنة ست عشرة وثمانمائة (١٤١٣ م) :

فيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نوروز الحافظى لما بلغه أن شيخ خلع الخليفة العباس من السلطنة وتسلمن عوضه ، عز ذلك عليه ، ولم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ ، وأظهر العصيان وتعجب من شيخ كيف خان الأيمان والعهود التى كانت بينه وبين نوروز — وكانوا أعظم من الاخوة ينامون على مخدة واحدة — فخان شيخ الأيمان والعهود وتسلمن بمصر ، فكان كما قيل : وحلفت أنك لا تميل مع الهوى

أين اليمين وأين ما عاهدتني ؟

واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباس على منابر دمشق وأعمالها ، ولم يخطب باسم الملك المؤيد شيخ ، ولا ضرب باسمه سكة ، واستمر واضعا يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات .

وفى هذه السنة خلع السلطان على منكلى بغا الشمسى وولاه محتسبا بالقاهرة ، وهو أول من تولى الحسبة من الأتراك ولم يتولها قبله أحد من الأتراك .

ومن الحوادث فى تلك السنة أنه ظهر بالقاهرة شخص يدعى أنه يصعد الى السماء ويكلم البارئ

جل جلاله فى كل يوم مرة ، فاعتقده جماعة كثيرة من عوام مصر فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلسا بالصالحية ، فاجتمع له هناك القضاة الأربعة ، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر ، فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خلاا فسجنوه ولم يثبت عليه الكفر ... وهذه الواقعة متفق على صحتها فى زمن المؤيد شيخ .

سنة سبع عشرة وثمانمائة (١٤١٤ م) :

فيها قوى عزم الملك المؤيد شيخ بأن يخرج الى الشام بسبب عصيان نوروز ، فعلق الجاليش وعرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وصحبته الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . وقرر الأمير ططر نائب الغيبة الى أن يحضر السلطان ، والأمير سودون قرا سنقر حاجب الحجاب يحكم بين الناس . فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ أشد ما يكون من المحاصرة ، ونصب حول مدينة دمشق صاعدة مناجيق ، ولا زال يحاصر نوروز مدة طويلة حتى ضجر نوروز وأرسل يطلب من شيخ الأمان على نفسه ، وكان بقلعة دمشق . فما زالوا على ذلك حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ . وآخر الأمر قطع شيخ رأس نوروز فى قلعة دمشق وأرسلها الى القاهرة وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام ثم دفنت .

وكان شيخ باغيا على نوروز ، فكان لسان حال نوروز يقول :

يا غادرا بى ولم أغدر بصحبته
وكان منى مكان السمع والبصر

قد كنت من قلبك القاسى أخاف جفا
فجاء ما قلت له نقشا على حجر

قال الشيخ تقى الدين بن حجة الشاعر . وفى
النيل المبارك فى سنة ست عشرة وثمانمائة فى أوائل
مسرى ، فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس وكسر
السد على العادة — وذلك قبل أن يتوجه الى
دمشق بسبب نوروز — فألشدته فى ذلك اليوم
مهنتا :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا
ومنتصبا فى ملكه نصب تمييز

كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى
وحقك بعد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . وتوجه الملك المؤيد عقيب
ذلك الى نوروز وقطع رأسه وأرسلها الى مصر
صحبة الأمير جرباش قاشق ، وذلك فى جمادى
الأولى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فارتجت لها
مصر ، وأقام بعد ذلك فى دمشق أياما حتى مهد
البلاد الشامية ، وعزل من عزل ، وولى من ولى
وخلع على قانباى المحمدي واستقر به نائب الشام
عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير
اينال الصصلاى واستقر به نائب حلب ، وخلع
على الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به
نائب طرابلس ، وخلع على الأمير جاني بك البجاسى
واستقر به نائب حماه ، ثم قصد التوجه الى نحو
الديار المصرية ، فلما دخل الى مصر كان له يوم
مشهود ، وزينت له القاهرة ، وحملت على رأسه
القبة والطير حتى طلع الى القلعة .

سنة ثمانى عشرة وثمانمائة (١٤١٥ م) :

ففيها جاءت الأخبار بأن النواب المقدم ذكرهم
قد أظهروا العصيان وخرجوا عن الطاعة ، فجرد
اليهم الملك المؤيد ثانيا ، وخرج اليهم بنفسه وأوقع

معهم فانتصر عليهم وقبض على قانباى المحمدي
نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على اينال
الصصلاى وقتله على صدر أبيه ، ثم قتل الأب بعد
ذلك . ثم انه ولى جماعة من الأمراء نوابا غير
هؤلاء ورجع الى الديار المصرية ، فلم يقم سوى
مدة يسيرة . وقد جاءت الأخبار بأن النواب قد
خامروا وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم ثالث مرة
وخرج بنفسه . فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من
وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف أمير التركمان ،
فاستقر بنواب غيرهم ممن يثق بهم . وفى هذه
المررة مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جاذرة
هذه النواب الذين كانوا مخامرين عليه .

ثم رجع الى الديار المصرية ، وقد صفا له
الوقت ، وانشأ له ممالك كثيرة ، وجدد له أمراء
وحسنت أوقاته بمصر . فكان ينزل من القلعة
ويتوجه الى بولاق ويقيم عند القاضي ناصر الدين
ابن البارزى فى بولاق . وكان يعمل المواكب
هناك وتجتمع الأمراء المقدمون عنده . وكان ينزل
يعوم فى بعض الأوقات فى البحر وحوله الأمراء
والخاصكية .

وكان يتباهى فى يوم كسر سد النيل المبارك ،
ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له
حراقة ويجعل فيها الصناجق والكئوسات ، فاذا
وفى النيل يحضرون له بالذهبية الى بولاق ، ويتوجه
الى المقياس يخلق العمود ويكسر السد ، والأمراء
المقدمون حوله فى الحراريق المزينة حتى يسدوا
البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود
لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك على
ما كان يصنعه فى ذلك اليوم أستاذة الملك الظاهر
برقوق . وكان يتباهى فى المواكب الجليلة الى الغاية .
وكان رجلا كثير التنزه ، لا يقيم بالقلعة الا قليلا
وأكثر أيامه فى بولاق . وقيل كانت الرماحة

تلعب قدامه في بولاق وهو ينظر اليهم من البارزية
ولم يمش أحد من الملوك على طريقته في اللهو
والقصف .

سنة تسع عشرة وثمانمائة (١٤١٦ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وقتك غاية
الفتك في البرية ، وقد قال بعض الشعراء :

رعى الرحمن دهرا قد تولى

يجازى بالسلامة كل شرط

وكان الناس في غفلات أمن

فجا طاعونهم من تحت ابط

سنة عشرين وثمانمائة (١٤١٧ م) :

فيها ظهرت أعجوبة . ولدت جاموسة بمدينة
بليس مولودة لها رأسان وأربع أيد وسلستا
ظهر ، ولها دبر واحد وفرج واحد ، ولها رجلان
في حقوها ، فأقامت أياما وماتت .

ومن العجائب أيضا ما ذكره العلامة شهاب
الدين بن حجر في تاريخه أن المصونة فاطمة بنت
قاضي القضاة جلال الدين بن سراج الدين عمر
البلقيني ولدت ولدا ذكرا له ذكر وفرج ، وله يدان
زائدتان في كتفيه ، وله قرنان في رأسه مثل قرون
الثور ، فأقام ساعة ومات .

وذكر أيضا في تاريخه أن جملا ذبح بمدينة
غزة بعد العشاء فأضاء لحمه في الليل كما يضيء
الشمع . وقيل رمى بقطعة من لحمه لكلب فلم
يأكل منها شيئا ، ولم يعلم سبب ذلك ... وهذا
من العجائب التي وقعت في تلك السنة .

سنة احدى وعشرين وثمانمائة (١٤١٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، واستمر
يسلسل حتى دخلت سنة اثنيتين وعشرين ، فكان
تارة يزيد وتارة ينقص .

وفي سنة احدى وعشرين وقع الغلاء أيضا
بالديار المصرية ، ونزل الملك المؤيد شيخ واستسقى
كما جرت بذلك العادة . وقيل ان الملك المؤيد
لما نزل الى الاستسقاء لبس جبة صوف أبيض
وعلى رأسه عمامة صغيرة جدا بعذبة مرخية
خلفه ، وعلى كتفه مئزر صوف أبيض ، وركب
فرسا بغير قماش حرير ولا سرج ذهب ، وذبح
هناك بيده أغناما وأبقارا وفرقها على الفقراء ،
وفرق في ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف
رغيف ، وصلى على الرمل من غير سجادة .
وتواضع الى الله تعالى في ذلك اليوم ، فزاد النيل
ووفي في أواخر توت ثم انهبط بسرعة ، وشرقت
أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر سنة كاملة ،
وعزت الأقوات .

سنة اثنيتين وعشرين وثمانمائة (١٤١٩ م) :

فيها كملت عمارة جامع الملك المؤيد شيخ الذي
هو داخل باب زويلة ، وكان مكان هذا الجامع
سجنا يحبس فيه أصحاب الجرائم ، وكان يعرف
بخزانة شمائل . وكان شمائل هذا من جملة
جماعة والى القاهرة ، فلما خرج الملك الكامل
صاحب المدرسة الكاملية الى قتال الفرنج لما أخذوا
نغر دمياط ، كان شمائل هذا يمشى في ركاب الملك
الكامل ، ويسبح في البحر تحت الليل ، ويكشف
عن أخبار الفرنج ويأتى الملك الكامل بالأخبار ،
فحظى عنده بذلك . فلما انتصر الملك الكامل
على الفرنج جعل شمائل هذا والى القاهرة ، فبنى
له هذا السجن فنسب اليه ، وقيل « خزانة
شمائل » .

وكان الملك المؤيد شيخ من جملة من حبس في
خزانة شمائل في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق
فقاسى بها شدايد عظيمة ، فنذر في نفسه ان يخلص
من هذه الشدة وبقي سلطانا يهدم هذا السجن

ويبنى مكانه جامعا فلما تولى الملك بمصر هدمه
وبنى مكانه هذا الجامع وقد تنهى في زخرفته
ورخامه وسقوفه وأبوابه ، فلم يبن في القاهرة
مثله ولا مثل سقفه ، ولكنه ظلم أعيان الناس في
تحصيل رخامه ، وصاروا يكسبون البيوت
والحارات بسبب الرخام ، فظلم خلق الله حتى
حصل هذا الرخام ومن جملة ظلمه فيه أنه أخذ
باب مدرسة السلطان حسن والتنور الكبير
وجعلهما في جامع ، وأعطى فيهما أبخس الأثمان .
وأخذ العمودين السماق اللذين في المحراب من
جامع قوصون الذي بالقرب من بركة الفيل ،
ووزع أخشاب سقوفه ودهانها على أعيان المباشرين
فكان كما قيل :

بنى جامعا لله من غير حله

فجاء بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها

فليتك لا تزنى ولا تتصدقى

ولما تم بناء هذا الجامع وقف عليه الأوقاف
الجليلة من بلاد ومسقفات ، وقرر فيه حضورا من
بعد انصر ، ورتب لهم جوامك وخبزا ، وقرر شيخ
الحضور الشيخ شمس الدين الديري الحنفى ،
وجعل الخطابة للقاضي ناصر الدين بن البارزى ،
وأودع بهذا الجامع خزانة كتب نفيسة .

قيل لما كملت عمارة هذا الجامع رسم السلطان
بأن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا وماء
ليمون ، فملت سكرا ووقف رءوس النواب يفرقون
السكرا على الناس بالطاسات ، وخلع فى ذلك اليوم
على جماعة كثيرة من المشيدين والمهندسين والبنائين
والمرخين والنجارين . فلما كان يوم الجمعة حضر
بالجامع القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب
الوظائف وأعيان العلماء ، وخطب فى ذلك اليوم
القاضي ناصر الدين بن البارزى كاتب السر الشريف

خطبة بليغة ، وكان يوما مشهودا . فلما كان وقت
الحضور فى الجامع اجتمع الطلبة وخرج الشيخ
شمس الدين الديري من الخلوة وقدامه ولد
السلطان المقر الصارمى ابراهيم ، وهو حامل سجادة
الشيخ شمس الدين الديري حتى فرشها له فى
المحراب ، وفى ذلك يقول بعض شعراء العصر :

ان يقولوا سجادة فوق بحر

لولى يمشى عليها كرامه

قلت هذى سجادة فوقها البحر

سر فحدث عنه بغير ملامه

ومن الحوادث أنه لما بنوا مئذنتى هذا الجامع
مالت احدهما الى السقوط عند ما كملت ، فرسم
بهدمها فهدمت ثم أعيدت ثانيا ، فقال العلامة شهاب
الدين بن حجر يداعب قاضى القضاة بدر الدين
محمود العينى الحنفى فى هذه الواقعة :

لجامع مولانا المؤيد رونق

منارته تزهر من الحسن والزين

تقول وقد مالت عليهم ترفقوا

فليس على هدمى أضر من العين

فأجابه عن ذلك بدر الدين بن العينى :

منارة كعروس الحسن اذ جللت

وهدمها بقضاء الله والقدر

قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط

ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

ومما عد له من المحاسن أنه أبطل مكس الفواكه
قاطبة ، ونقش ذلك على رخامة وجعلها بباب هذا
الجامع لما كمل بناؤه .

سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (١٤٢٠ م) :

فيها توفى المقر الصارمى ابراهيم ابن السلطان
المؤيد شيخ . وقيل ان أباه المؤيد سمه فى حلوى ،

وسبب ذلك أن سيدى ابراهيم كان شجاعا بطلا لا يمل من الحرب والقتال ، فمالت اليه قلوب الجند . وكان الملك المؤيد لا يزال يعتريه ضربان المفاصل ، وكان قد ثقل عن الحركة ، فكان يحمل على أكتاف المماليك اذا نقل من مكان الى مكان ، فقال القاضي ناصر الدين بن البارزى للملك المؤيد : « ان العسكر يقصدون خلعتك من السلطنة ويولون سيدى ابراهيم » ... فحسن له أن يشغله . فلما شغله ومات حزن عليه الناس حزنا شديدا ، ودفن داخل القبة التي في الجامع المؤيدى .

فلما كان يوم الجمعة حضر السلطان المؤيد في الجامع ، وصلى الجمعة في مأتم ابنه ، فخطب القاضي ناصر الدين بن البارزى في ذلك اليوم خطبة في معنى ذلك حتى ينفى عنه كلام الناس ، فروى وهو على المنبر هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما أن دخل على ولده ابراهيم وجده يجود بنفسه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت عيناه تذرفان وقال : « ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا تقول الا ما يرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » فلما سمع الملك المؤيد ذلك شق عليه وقال في نفسه : « يغربنى على ولدى حتى أقتله ثم يندمنى عليه ؟ » ... فلما فرغ القاضي ناصر الدين من صلاة الجمعة قدم اليه سلطانية سكر وشغله فيها ، فتوجه الى بيته وأقام أياما ومات ، والمجازاة من جنس العمل .

سنة أربع وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) :

فيها ثقل الملك المؤيد في الضعف ولزم الفراش ، واستمر على ذلك أياما حتى مات في يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فغسل في القلعة وكفن وصلى عليه ونزلوا به من القلعة

والأمراء مشاة قدامه حتى توجهوا به الى جامعهم ، فلم يدخلوا به من باب زويلة ودخلوا به من الباب الذى عند الخضرين .

وقيل مات وله من العمر خمس وستون سنة ، وخلف من الأولاد صيبا وبنتين ، وهو سيدى أحمد الذى تسلطن بعده ، وهو ابن خوند سعادات . وكانت احدى بناته متزوجة بالأتابكى قرقماس الشعبانى ، والأخرى متزوجة بالأمير شبك الفقيه الدوادار ، وهى أم ولده سيدى يحيى .

فكانت مدة سلطنة الملك المؤيد شيخ بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام . وكان ملكا جليلا كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ، وافر العقل ، مقداما في الحرب ، وله مكاييد وحيل وثبات وقت التقاء الجيوش حتى ضرب به المثل ، فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ، ومن حطمة نوروز الحافظى .

وكان المؤيد كريما على من يستحق الكرم ، وشحيحا على من يستحق الشح . وكان يضع الشيء في محله . وهو الذى مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جدر تلك النواب العصاة الذين أخرجوا غالب البلاد الشامية . وكان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات . وكان يقرب أرباب الفنون . وكانت أرباب الفنون تتباهى في أيامه في فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته . وكان يغنى من فن الموسيقى ويركز الفن وينظم الشعر . ومن نظمه الرقيق قوله من قصيدة :

فتتنا سواف وخدود

وعيون نواعس وقدود

أسرتنا الظبا وهن نعاس

وخضعنا لها ونحن الأسود

ولم يزل يركز هذه الأبيات الى الاستشهاد
باسمه فقال :

وأنا الخاصكى شيخ المؤيد

نظم شعري جواهر وعقود
وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنين
الى الآن .

وكان منقادا الى الشريعة ويجب أهل العلم
ويقرب الفقهاء والصلحاء ويبرهم ويجب فعل الخير ،
وله أوقاف كثيرة على جهات بر وصدقة . ولكن
ذكر له المقرئى أشياء كثيرة من المساوىء ، منها
أنه كان جهورى الصوت ، سفيها فى كلامه . وكان
غير مقبول الشكل ، واسع العينين ، كبير الكرش ،
درى اللون ، أكث اللحية ، معتدل القامة ، متركب
الوجه ، كبير الأنف . وكان سفاكا للدماء ، قتل
جماعة كثيرة من النواب والأمراء . وكان اذا ظفر
بأحد من أعدائه لا يرحمه . وكان كثير المصادرات
للرعية . وأحدث فى أيامه أشياء كثيرة من أبواب
المظالم لما كان يخرج الى التجاريد .

وأما ما أنشأه من العماير بالديار المصرية فهو
الجامع الكبير الذى هو داخل باب زويلة ، وعمر
الجامع الذى فى رأس الصوة مكان المدرسة
الأشرفية التى هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ،
وعمر الجامع الذى عند المقياس ، وعمر الخلاوى
والمئذلة التى فى المدرسة الخروبية التى فى بر
الجيزة ، وجدد عمارة القبة التى فى قاعة البحرة ،
وجدد عمارة التاج والسبعة وجوه التى كانت
بالقرب من الكوم الأبيض ، ولكن هدم ودرست
معالمه فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وكان من جملة
المفترجات القديمة بمصر فهدمه الناصرى محمد بن
اينال قريب الملك الظاهر جقمق .
وللملك المؤيد آثار كثيرة غير ذلك بمصر
والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد ، وصير الذئب
والغنم يمشيان فى صعيد واحد .

فأما قضاة الشافعية فالقاضى جلال الدين بن
سراج الدين البلقينى الشافعى ، والقاضى ولى الدين
العراقى الشافعى . وأما قضاة الحنفية فالقاضى بدر
الدين محمود العينى الحنفى ، والقاضى التفهنى ،
والقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى . وأما
قضاة المالكية فالقاضى نصر الدين بن التونسى
المالكى . وأما قضاة الحنابلة فالقاضى علاء الدين
ابن مغلى الحنبلى

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فقاضى القضاة
جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى .
قيل انه توفى بمنزلة الصالحية عند عود الملك المؤيد
من البلاد الشامية . فلما توفى جلال الدين فى
الصالحية ودخل السلطان الى الديار المصرية
اشتوروا فيمن يولونه قاضيا عوضا عن جلال
الدين ، فأخبروا السلطان بذكر ابنه تاج الدين
وأخيه علم الدين صالح ، فلما بلغ الشيخ شهاب
الدين بن حجر ذلك أنشد يقول :

مات جلال الدين قالوا ابنه

يخلفه أو فالأخ الكاشح

فقلت تاج الدين لا لائق

بمنصب الحكم ولا صالح

ثم وقع الاختيار على تولية الشيخ ولى الدين
العراقى فولى عوضا عن جلال الدين البلقينى .

وتوفى فى أيام المؤيد من الأعيان الشيخ
شمس الدين البنانى وكان من كبار الحنفية ، وتوفى
الشيخ مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ،
وتوفى الشيخ خلف النحريرى وكان من كبار
المالكية ، وتوفى الشيخ جمال الدين بن ظهيرة
قاضى القضاة الشافعية بمكة ، وتوفى الشيخ

برهان الدين بن رفاعة الدمشقي وكان من أعيان دمشق وله شعر جيد ، وتوفي ابن هشام العجمي ، وتوفي القاضي ناصر الدين بن البارزي الجهني الشافعي كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وتوفي الشيخ عز الدين الموصلی صاحب شرح البديعية ، وتوفي الشيخ جمال الدين بن خطيب داريا وكان من فحول الشعراء ، وتوفي الشيخ علاء الدين بن أئيبك الدمشقي وكان من فحول الشعراء ، وتوفي في أيامه جماعة كثيرة من الأعيان . ولما توفي الملك المؤيد شيخ تولى من بعده ابنه الملك المظفر .

الملك المظفر أبو السعادات

هو الملك المظفر أبو السعادات أحمد ، ابن الملك المؤيد شيخ المحمودي الظاهري . وهو التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد .

تسلطن بعد موت أبيه الملك المؤيد شيخ في يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة . تسلطن وله من العمر سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام ، فكان مرضعا . وكانت ولايته تقرب من ولاية سابور ذي الأكتاف الذي تولى الملك وهو في بطن أمه ، فوضعوا على بطنها تاج الملك وسابور حمل . فكانت ولاية الملك المظفر أحمد تقرب من ذلك . وكانت أمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصري .

فلما تسلطن كان الأتابكي الطنبغا القرشي غائبا في التجريدة هو وجماعة من الأمراء نحو البلاد الشامية بسبب عصيان النواب ، وكان بمصر من الأمراء المقر الصيفي ططر أمير مجلس .

فلما توفي الملك المؤيد شيخ تعصب مماليكه وقالوا : « ما نسلطن الا ابن أستاذنا » . وكان المماليك المؤيدية نحو خمسة آلاف مملوك . فلما حضر الخليفة والقضاة الأربعة وقصدوا المبايعة لأحمد ابن الملك المؤيد عارض الخليفة في ذلك وقال : « هذا صغير وتضيع أحوال المسلمين بين الأمراء » ... فقال المماليك : « الأمير ططر يكون مدبر المملكة الى أن يحضر الأتابكي الطنبغا » ... فلما وسع الخليفة الا أنه بايعه على كره منه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك المظفر ، ونودي باسمه في القاهرة ، ثم أجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة .

وكانت العادة اذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك في القصر الكبير تدق الكنوسات داخل القصر . فلما أجلسوا الملك المظفر أحمد على سرير المملكة وهو في حجر المرضعة دقت الكنوسات في القصر ، فاضطرب الملك المظفر اضطرابا شديدا وأغمى عليه ، فحصل له في الحال حول في عينيه من الرجفة ، واستمر في كل وقت يضطرب الى أن مات . فلما تم أمره في السلطنة ثار المماليك المؤيدية على الأمير ططر بسبب الامريات والوظائف ، وصار ططر معهم في غاية الضنك ، فما وسعه الا أن يرضيهم بكل ما يمكن ، فخلع على الأمير على باي المؤيدي واستقر به دوادرا كبيرا وكان أمير عشرة ، وخلع على الأمير تغرى بردى بن قصروه واستقر به أمير آخور وكان أمير عشرة ، ثم جعل جماعة من الأمراء المؤيدية مقدمي ألوف ، وجماعة منهم أمراء طبليخانات ، وجماعة منهم أمراء عشراوات . ثم انه فرق الاقطاعات السنية على المماليك المؤيدية . ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن جقمق الأرغوني نائب الشام قد خامر وخرج عن الطاعة ، وكذلك يشبك المؤيدي نائب حلب قد خامر أيضا

وخرج عن الطاعة ، وكذلك بقية النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة . وكان الأتابكى الطنبغا القرشى لما توجه الى الشام بسبب عصيان النواب أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا الى نحو صرخد .

ثم ان الأتابكى الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربان والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق منه وهرب الى نحو حلب ، فملك الأتابكى الطنبغا دمشق وقلعتها . فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والتفت عليه العربان والعشير . فلما بلغ الأمراء ذلك خلعوا على ططر واستقروا به أتابكى العسكر عوضا عن الطنبغا القرشى .

ثم اتفق الحال على أن الأتابكى ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشى والنواب . فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر أحمد في محفة ، والمرضة معه ، وخرج من مصر وسائر الأمراء والعسكر ، وكانت خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام حتى تأمن عليه من القتل .

وكانت خوند سعادات لما انقضت عدتها مشيت الأمراء بينها وبين ططر بأن يتزوج بها . فلما خرج ابنها الى الشام خرجت معه ، فلما وصلوا به الى الشام ألقى الله تعالى الرعب في قلب الطنبغا القرشى وجقمق نائب الشام . فلما دخل الملك المظفر الى الشام حضر اليه الطنبغا القرشى وفي رقبته منديل فباس الأرض قدام الملك المظفر وهو في المحفة . فلما وقعت عليه عين الأتابكى ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ، ثم قبض على جقمق نائب

الشام وسجنه بقلعة دمشق أيضاً . ثم انه أمر بخنقه وبخنق الطنبغا القرشى فخنقا تحت الليل ، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم .

وأخذ في أسباب القبض على جماعة من الأمراء المؤيدية ، فاحتال عليهم وأظهر أنه قد مرض وأقام بقلعة دمشق . ولما بلغ الأمراء ذلك طلّعوا يسلمون عليه ودخلوا عليه ، فقبض على جماعة منهم حتى قيل قبض في يوم واحد على أربعين أميراً من الأمراء المؤيدية وحبسهم بقلعة دمشق ، ثم قبض على جماعة من المماليك المؤيدية نحو ثلثمائة مملوك وحبسهم بقلعة دمشق . فعند ذلك صفا لطر الوقت ، والتفت عليه خشداشينة القاهرية ، وفرق عليهم الاقطاعات والوظائف ، وقويت شوكته وعصبته ، وصار يمهّد لنفسه في الباطن ...

فعند ذلك خلع الملك المظفر أحمد من السلطنة ، وتسلمن عوضه بدمشق . وكان الخليفة المعتضد بالله داود صحبته ، والقضاة الأربعة ، فبايعوا ططر وسلطنوه ، وذلك في يوم الجمعة تاسع عشر شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الظاهر ، وخطب باسمه في ذلك اليوم على منابر دمشق .

فلما تم أمره في السلطنة هناك طلق محمود سعادات أم الملك المظفر أحمد وقد خاف على نفسه منها . والذي خاف منه وقع فيه كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ، فلم ينل من الدهر قصده .

فلما تسلمن قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، وأخذ الملك المظفر معه وأمه ورجع الى مصر . فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وزينت له المدينة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب الى أن طلع القلعة . فلما جلس على سرير الملك أرسل الملك المظفر أحمد الى السجن بغير الاسكندرية ، وأرسل معه المرضعة

الملك الظاهر ططر

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي . وهو الثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالدبار المصرية . وهو السادس من ملوك الجراكسة في العدد .

كان أصله من مماليك الظاهر برقوق من مشروعاته ، ثم أعنته وأخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك السلطانية الجمدارية ، ثم هرب من الملك الناصر فرج وتوجه إلى حلب والتنف على حكم العوضى لما تسلطن بحلب ، فلما قتل حكم التنف ططر على شيخ ونوروز لما أظهر العصيان بالشام ، فلما قتل الملك الناصر بالشام وتسلطن الخليفة العباس أنعم على ططر بامرية عشر . ثم بقى أمير أربعين في دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ... كل ذلك في دولة المؤيد شيخ . فلما مات الملك المؤيد وتسلطن ابنه الملك المظفر بقى ططر مدبر المملكة ، فلما أظهر العصيان الأتابكي الطنبغا القرشي ، لما كان بالشام ، بقى ططر أتابك العساكر عوضاً عنه . فلما خرج إلى الشام صحبة الملك المظفر أحمد وظفر بالأتابكي الطنبغا القرشي والأمير قجقار القردمي أمير سلاح ونائب الشام چقمق الأرغون شاوي وجماعة من النواب ، وقتلهم كما تقدم ذلك ، قبض على جماعة كثيرة من الأمراء المؤيدية وسجنهم بقلعة دمشق ، فعند ذلك صفوا له الوقت وقويت شوكته ، والتفت عليه خشداشيته الذين كانوا مفرقين في بلاد الشرق ، فخلع الملك المظفر من السلطنة وتسلطن عوضه بالشام ، وطلق خوند سعادات أم الملك ، فقيل إنها أشغلته في مندبل الفرش لما خلع ابنها من السلطنة فمرض ططر بالشام

والدادة ، فكانت مدة سلطنته بمصر سبعة أشهر وعشرين يوماً ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة ، والحوال الذي حصل في عينيه لما دقت الكؤوسات في القصر يوم سلطنته كما تقدم ، وآخر الأمر سجن ! وأقام في السجن إلى أن مات بشعر الاسكندرية في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة في دولة الأشرف برسباي . ومات بالطاعون ، ثم نقل بعد موته إلى القاهرة ودفن على أبيه داخل القبة التي في الجامع المؤيدي الذي هو داخل باب زويلة . ومات وله من العمر نحو إحدى عشرة سنة ، ولم يع أيام سلطنته وإنما وعى نفسه في السجن إلى أن مات فيه . وقد دخل مماليك أبيه في خطيئته حيث سلطنوه وهو في هذه السن .

وكان المظفر هذا حسن الشكل جميل الصورة ، وإنما حدث له ذلك الحول في عينيه من يوم سلطنته كما تقدم .

ومن الحوادث في أيامه أن في هذه السنة — وهي سنة أربع وعشرين وثمانمائة — زاد النيل المبارك زيادة مفرطة ، واستمر ثابتاً إلى آخر هاتور من الشهور القبطية ، وهذا قط لم يعهد في الإسلام . وحصل للناس في تلك السنة الضرر الشامل واستبحرت الأراضي وغرق أكثر البساتين ، وفات الزرع عن أوانه ، وانقطعت الطرق من الماء . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

يا رب ان النيل زاد زيادة

أدت إلى هدم وفرط تشتت

ما ضره لو جا على عاداته

في دفعه أو كان يدفع بالتى

وتوفي في أيامه قاضي القضاة الشافعية ولى الدين العراقي ، والشيخ شمس الدين الديري الحنفى . وقيل بل مات في أثناء دولة الملك الأشرف برسباي والله أعلم بذلك .

ودخل الى مصر وهو عليل ، واستمر يسلسل في المرض ولزم الفراش ، فهو كما قيل في المعنى :

فكان كالمتمنى أن يرى فلما

من الصباح فلما أن رآه عمى

فلم يزل عليلاً حتى مات في يوم الأحد رابع ذى الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، ودفن بجوار قبر الامام الليث بن سعد رضى الله تعالى عنه ... فكانت مدة سلطنته بالشام وبمصر ثلاثة أشهر وأياماً . وقد تحمل في هذه المدة السيرة اثم من قتله من الأمراء والمماليك في طلب السلطنة ، وقد مهد لغيره فكان كما قيل في المعنى :

الا انما الأرزاق تحرم ساهرا

وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ولما مرض ططر عهد بالسلطنة الى ابنه محمد .

الملك الصالح ناصر الدين

هو الملك الصالح ناصر الدين محمد ، ابن الملك الظاهر ططر ، وهو الحادى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم ، وهو السابع من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية في العدد .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ططر في يوم الأحد رابع ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة .

تسلطن وله من العمر نحو احدى عشرة سنة . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة ، وتلقب بالملك الصالح ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه في القاهرة ، وجلس على سرير الملك .

فلما تم أمره في السلطنة خلع على المقر الأتابكى جانى بك الصوفى واستقر به أتابك العساكر على عادته ، ومدبر المملكة . فصار الأتابكى جانى بك في تلك الأيام صاحب الحل والعقد والابرار

والنقض ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، وصار الأمير طراباى الظاهرى حاجب الحجاب يرمى الفتن بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين المقر السيفى برسباى الدقماقى أمير دوادار كبير ، فوثب الأمير برسباى على الأتابكى جانى بك الصوفى ، فهرب في أواخر النهار ، فقبض عليه بعض المماليك وأحضره الى الأمير برسباى ، فقيده وأرسله الى السجن بئر الاسكندرية ، فاجتمعت الكلمة من بعد ذلك في برسباى ، وصار صاحب الحل والعقد .

ثم ان برسباى وقع بينه وبين الأمير طراباى حاجب الحجاب ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بئر الاسكندرية ، فعند ذلك صفا للأمر برسباى الوقت ، وقويت شوكته ، فتعصب له جماعة من الأمراء وخلعوا الملك الصالح محمد بن ططر من الملك وتسلم برسباى . فكانت مدة سلطنة الملك الصالح بمصر ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً لا غير . وكان ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط .

فلما خلعه برسباى من السلطنة عطف عليه ولم يسجنه بئر الاسكندرية كعادة أولاد الملوك ، بل أدخله دور الحرم وأسكنه في قاعة البربرية هو وأمه خوند بنت الأمير سودون الفقيه . ثم ان الأشرف برسباى زوج الملك الصالح بينت الأتابكى يشبك الأعرج . واستمر الملك الصالح ساكناً في القلعة بدور الحرم ، ورسم له الملك الأشرف برسباى بأن ينزل ويركب في كل جمعة ويزور قبر والده ططر . فكان يركب صحبة المقر الناصرى محمد الملك الأشرف برسباى ويسيرون نحو المطرية .

وسيدى محمد هذا كان ابن الأشرف برسباى ، وكان أكبر من ولده سيدى يوسف ولكن توفي في حياة والده عقيب الفصل الذى جاء في سنة ثلاث

وثلاثين وثمانمائة . وكان الملك الصالح محمد بن ططر هذا يبهل كثير الخطاط . فكان يسمى الفرس البوز (الفرس الأبيض) ، فقال بعض الخدام لاقتل الفرس الأبيض وقل الفرس البوز ، فحفظ منه ذلك الاسم ، فطلب يوما سلطانية صيني أبيض فقال : « هاتوا السلطانية البوز » ... فنهره بعض الخدام ونهاه عن ذلك ، فقال له : « لالائي علمني هذا » ... وكان له من أنواع الخطابة أشياء كثيرة ليس هذا محلها ، فكان كما قيل في الأمثال :

في الناس من تسعده الأقدار

وفعله جميعه ادبار

واستمر الملك الصالح على ذلك حتى توفي في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، ومات بالطاعون الذي وقع في تلك السنة ، ودفن على والده ططر بجوار قبر الامام الليث . ومات وله من العمر اثنان وعشرون سنة .

ولما مات الملك الصالح محمد رسم الملك الأشرف برسبای لأولاد الأسياد الذين كانوا في دور الحرم من داخل بأن ينزلوا يسكنون المدينة . وأنعم على كل واحد منهم بفرس ومائة دينار ، فنزلوا من يومئذ وسكنوا بالمدينة ، وبطل أمرهم .

الملك الأشرف برسبای

هو الملك الأشرف أبو النصر برسبای الدقماقي الظاهري ، وهو الثاني والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الثامن من ملوك الجراكسة وأولادهم . بويغ بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر في يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) ، فلبس خلة السلطنة من باب السلسلة

وركب من المقعد ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض من الأكابر والأصاغر ، وتلقب بالملك الأشرف ، ودقت له البشائر ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام .

قيل لما خلع الملك الصالح محمد بن ططر من السلطنة حضر أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاء الأربعة ، وحضر الأتابكي بييغا المظفری وسائر الأمراء فاشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال الأتابكي بييغا : « الأمير برسبای يكون سلطانا ، وهو أحق بها مني » ... فأثره بالسلطنة على نفسه .

وكان الملك الأشرف برسبای يومئذ دوادارا كبيرا ولم يكن أتابك العساكر . وأصله چركسى الجنس ، جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق المحمدي نائب ملطية مع جملة ممالك صغار . ثم انه قدمه الى الملك الظاهر برقوق فأخذه وجعله من جملة الممالك السلطانية ونزل بطبقة الزمامية . وكان أغاته الأمير چركس القاسمي المصارع .

ثم ان الملك الظاهر برقوق أعنته وأخرج له خيلا وقماشاً ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا في دولة الملك الناصر فرج ، ثم التف على شيخ ونوروز لما خامرا بالشام ، فلما قتل الملك الناصر فرج وتسطن الملك المؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبخانات ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم تولى نيابة طرابلس ، ثم قبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة المرقب مدة طويلة ، ثم أطلقه وأنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق . فلما خامر نائب الشام جقمق الأرغون شاوى قبض على برسبای وسجنه بقلعة الشام . فلما توجه ططر الى الشام وقبض

على جقمق نائب الشام وحبسه في قلعة دمشق
أفرج عن برسبای وأحضره صحبته الى القاهرة لما
تسلطن بدمشق . ثم انه خلع عليه واستقر به
دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير على باى المؤيدى .
واستمر برسبای على ذلك حتى توفى الظاهر
ططر وتسلطن ابنه الصالح محمد ، ف وقعت الفتن
بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين الأمير برسبای
فقبض عليه الأمير برسبای وأرسله الى السجن بشعر
الاسكندرية . فعند ذلك خلع الملك الصالح محمد
من السلطنة وتسلطن عوضه كما تقدم .

فلما تم أمر برسبای فى السلطنة عمل الموكب
وخلع من يذكر من الأمراء وهم : المقر الأتابكى
بيغا المظفرى واستقر به أتابك العساكر على عادته .
وكان بيغا هذا عظيم اللسان قليل الكلام بالعربى
يابس الطباع ، سىء الخلق ، فلم توافق العسكر
على سلطنته ، ففنع بيغا بالأتابكية دون السلطنة .
فكان كما قيل فى المعنى :

إذا منعتك أشجار المعالى

جناها الغض فاقنع بالشميم

وخلع على الأمير جقمق العيسوى واستقر به
أمير سلاح على عادته ، وخلع على الأمير أقبا
التمرازى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على
الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به دوادارا
كبيراً ، وخلع على الأمير قصروه بن عثمان واستقر
به أمير آخور كبير ، وخلع على الأمير أذربك
المحمدي واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع
على الأمير جقمق العلأى واستقر به حاجب
الحجاب ، وخلع على المقر السيفى جانى بك
البجاسى واستقر به نائب الشام ، وأنعم على جماعة
من الأمراء بتقادم ألف ، وعلى جماعة بامريات
طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، ثم أنفق
على العسكر وفرق الاقطاعات على جماعة منهم .

واستقامت أحواله فى السلطنة ، وراق له
الوقت . ثم أخذ فى أسباب تقريب جماعة من
حاشية الملك المؤيد شيخ ، فخلع على المقر الزينى
عبد الباسط بن القرشى خليل واستقر به ناظر
الجیوش المنصورة ، وقد رقى فى أيامه الزينى
عبد الباسط حتى صار صاحب الحل والعقد فى
تلك الأيام . وكان الملك الأشرف لا يتصرف فى
شئ من أحوال المملكة الا برأى القاضى عبد
الباسط . فعظم أمره فى تلك الأيام حتى أطلق
عليه عظيم الدولة فى أيامه ، واستمر على ذلك فى
مدة دولة الملك الأشرف كلها . ثم قرب الأمير ناصر
الدين التاج واستقر به والى القاهرة على عادته ،
وكان أصل التاج من الشوبك ، وكان جده من
النصارى ، وكان ينادم الملك الأشرف ولا ينشرح
الا به . وكان التاج واسطة خير ، قليل الأذى ،
لا تتكلم فى حق أحد الا بخير ، ليس عنده ضرر .
وفيه يقول الشيخ تقى الدين بن حجة :

سبع وجوه لتاج مصر

تقول ما فى الوجود شبهى

وعندنا ذو الوجوه يهجى

وأنت تاج بفرد وجهه

وقرب أيضا القاضى بدر الدين بن مزهر حتى
صار كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وقرب
جماعة كثيرة من حاشية الملك المؤيد شيخ غير
هؤلاء .

سنة ست وعشرين وثمانمائة (١٤٢٢ م) :
فيها وفى النيل المبارك فى ثامن عشر أبيب من
الشهور القبطية ، ولم يسمع بمثل هذا فيما تقدم
من السنين الماضية . وفيه يقول بعض الشعراء :

لما وفى النيل المبارك عاجلا

عم البلاد وللروابى طففا

نشروا القلوع وبشروا بوفائه

فالراية البيضاء عليه بالوفا

برسبای ، وهی أم ولده المقر الجمالی یوسف ،
وكان المتسفر علیها القاضی عبدالباسط .

سنة تسع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) :

فیهأ أرسل السلطان تجريدة الى قبرس ، فأعطاه
الله تعالى النصر ، وفتح مدينة قبرس فی تلك السنة
وأسر ملكها وجرى به الى القاهرة أسیرا . فكان
یوم دخوله الى القاهرة یوما مشهودا ، وزینت
المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فی
زناجیر وملكهم راكب وعلیه آلة الحرب . وكانت
هذه النصره علی غیر القیاس .

وفی هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان
— وهی المدرسة الأشرفیة التى عند سوق
الوراقین — فلما وقعت هذه النصره وأسر ملك
الفرنج فی تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق
خوذة ملك الفرنج علی باب هذه المدرسة لتكون
تذكارا له . وهی الى الآن معلقة فی باب هذه
المدرسة .

سنة ثلاثین وثمانمائة (١٤٢٦ م) :

فیهأ جاءت الأخبار من ثغر الاسكندریة بأن
الأتابكى جانی بك الصوفی قد كسر قیده وهرب
من السجن . وقیل ان جاریة دخلت الیه فی السجن
وقد تحملت بمبرد لطیف فی فرجها ، فبرد به قیده
وهرب من أعلى حیطان البرج وتدلّی فی حبل صغیر
وهرب . فلما بلغ الملك الأشرف ذلك اضطربت
جميع أحواله ، وصار یکبس البیوت والحارات ،
وقبض علی أصهار جانی بك الصوفی وعاقبهم ،
وكذلك عیاله وممالیکه ، وجرى بسبب ذلك علی
الناس مالا خیر فیه ، وصار کل من له عدو یکذب
علیه ویقول جانی بك الصوفی مخبأ عنده ،
فیکبسون علیه بیته وینهبون ماله ویعاقبون ذلك
الرجل أشد العقوبة . واستمر الملك الأشرف علی

وفی هذه السنة رسم السلطان للأمیر جرباش
الکریسی المعروف بقاشق — بأن یتوجه الى
ثغر الاسكندریة بسبب حفر خلیج الاسكندریة ،
لأنه قد طم بالرمال وضعف جریان الماء فیه . فتوجه
الیه الأمیر جرباش وجمع ما قدر علیه من الرجال
فجمع ثمانمائة وسبعین انسانا ، وابتدأ فی حفره فی
حادی عشر جمادى الأولى من تلك السنة
المذكورة ، فانتهی العمل منه ومشى فیه الماء فی مدة
أربعة أشهر فسر الناس بذلك .

سنة سبع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٣ م) :

فیهأ تزايدت عظمة الأمیر جانی بك مملوك الملك
الأشرف برسبای وصار أمیر طبلخاناه دوا دار ثانی ،
واجتمعت فیه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد
فی دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التى
بالقرب من المنجکیة .

ومما یحكى عنه أنه نفى الأتابكى بیغا المظفری
الى ثغر الاسكندریة من غیر علم السلطان . فلما
علم السلطان بذلك لم یقل له لیش فعلت ذلك .
وتناهت عظمته حتى التف علیه جميع العسكر ،
وكان الأمراء المقدمون ینزلون معه من القلعة الى
بیته الذى بالقرب من سوق الجوار . ولم یزل
جانی بك علی ذلك حتى تخیل منه الملك الأشرف
أن یشب علیه فشغله فی حلوی فاستمر علیلا ملازم
الفراش حتى مات فی أثناء دولة أستاذه . ولو عاش
لوثب علی أستاذه وتسلطن .

ومن الحوادث فی أيامه أن شخصا من العوام
شتق نفسه ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة
یحبها فطلقها فتزوجت بغيره ووكلته فیه ، فشنع
نفسه من قهره منها فمات .

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٤ م) :

فیهأ حجت خوند جلبان زوجة الملك الأشرف

ذلك وهو لا يهنا له عيش حتى ظهر جانى بك في بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف ، فعند ذلك سكن الاضطراب من القاهرة .

وفيها قبض السلطان على صاحب بدر الدين نصر الله وعلى ولده صلاح الدين ، وقرر عليهما مالا .

وفيها تولى قاضى قضاة الشافعية العلامة الحافظ شهاب الدين بن حجر الكنانى العسقلانى الشافعى — وهو أول ولايته — فنزل من القلعة الى بيته في موكب .

سنة احدى وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٧ م) :

فيها ابتداء السلطان الملك الأشرف بعمارة مدرسته التى فى خانقا سرياقوس ، وقد تناهى فى رخامها وزخرفها ، ثم عمل فيها خطبة ، ولم يعمل مثلها فى ذلك المكان . وكان أول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم الحموى الواعظ ، وقد قرره السلطان فى الخطابة بل كان خطيبا فى الأشرفية التى عند سوق الوراقين أيضا .

سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير جقمق العلائى واستقر أمير آخور كبير عوضا عن الأمير فصره ابن عثمان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له يوم مشهود . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٩ / ١٤٣٠ م) :

فيها وقع الطاعون العظيم بالديار المصرية . وكان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين ، فان عادة الطعن يقع فى فصل الربيع ، وهذا وقع فى وسط الشتاء . واستمر يسلسل أربعة أشهر . وكانت

قوة عمله فى الغرباء والأطفال والمماليك والعييد والجوار ، فمات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم . حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد الى أربعة وعشرين ألف جنازة ، حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا . وفى ذلك يقول القائل :
قد نقص الطاعون ثلث الورى

وأهلك الوالد والوالده

كم منزل كالشمع مكانه
أطفاهمو فى نفخة واحدة

وفى أول شعبان لم يست غير طفل صغير مرضع ، وارتفع الوباء بالكلية فى ليلة واحدة ، فسبحان الحى الذى لا يموت ... ولكن ما ارتفع حتى أخلى عدة أماكن .

ومات فيه من الأعيان الملك الصالح محمد بن ططر ، وسيندى محمد بن الملك الأشرف برسبای . وجاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بسوت الخليفة العباس الذى تسلطن ، ومات هناك أحمد ابن المؤيد شيخ .

قال الحافظ بن حجر : « لما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه . فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص » .

سنة أربع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٠ / ١٤٣١ م) :

فيها كسفت الشمس وقت العصر حتى ظهرت النجوم بالنهار ، واستمرت مكسوفة نحو ساعة الى قريب الغروب .

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة (١٤٣١ / ١٤٣٢ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة بعض التراكمة وصحبتهم رأس الأتابكى جانى بك الصوفى ، قطعها بعض التراكمة الذين كان عندهم وأرسلها الى السلطان ليحظى عنده بذلك . فلما حضرت الرأس رسم السلطان بأن يطوفوا بها فى القاهرة ، فطافوا

بها ثم علقوها في باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم رسم السلطان بأن ترمى ميضة جامع الحاكم فرميت بها وبطل أمر جاني بك الصوفي .

سنة ست وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٢/١٤٣٣ م) :

فيها جاءت قصاد قرا ملك الى السلطان وطلعوا الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فمن جملتها فرس مرآة مكفتة بذهب ، ومن جملتها خروف باليتين ، وخلعة للسلطان مخمل أحمر مرقومة بالذهب ، وبعض أثواب مخمل ، وصقورة برسم الصيد .

فلما رأى السلطان تلك الهدية استقلها وعز عليه أمر الخلعة . ثم انه عزم قصاد قرا ملك في البحيرة ، ثم أحضر تلك الخلعة وألبسها لشخص من الشهدارية — وكان مضحكا — فرقص بها قدام السلطان فضحك عليه . ثم أحضر نارا وأحرق تلك الخلعة بحضرة القصاد ، وذبح الخروف ثم قال للقصاد : « استاذكم ان أراد أن يبهذل أحدا ايش يعمل فيه ؟ » ... فقالوا له : « يرميه في الماء » ... فرسم السلطان برميهم في البحيرة ، فرموهم فيها ، فأقاموا ساعة ثم أطلعوهم ، فرسم السلطان بقص أذنان خيلهم ، وقال لهم : « اخرجوا سافروا في هذا الوقت ، وقولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات » ...

فلما جرى ذلك علق السلطان الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، وأخذوا في أسباب الخروج الى التجريدة .

وقد أولوا الخروف بأنكم عندنا مثل النعاج ، والمرآة بأنكم مثل النساء ... انظروا وجهكم في هذه المرآة . وأولوا الخلعة بأنك نائب من تحت يدنا ...

ثم ان السلطان أنفق على العسكر ، وعين من الأمراء أربعة مقدمين يقيمون بالقاهرة مع جماعة

من الحجاب ، وعين جماعة من الأمراء يتوجهون معه الى البلاد الشامية .

فلما انتهى شغل السلطان عزم على السفر ، وكان نائب الغيبة أقبغا المعروف بالتمرازي أمير مجلس وجماعة من الحجاب وبعض مماليك سلطانية . وبرز خيامه الى نحو الريدانية .

ثم ان السلطان طلب وخرج من الميدان الذي تحت القلعة ، فكان في طلبه مائتا فرس ملبسة بالبركستوانات الفولاذ والحريير الملون ، وكان فيه كجاوتان زركش ، وكان فيه خمسون فرسا بسروج ذهب وكنائش ، وكان له يوم مشهود بموكب عظيم . وكان صحبته أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وهم : ابن حجر ، وبدر الدين العيني ، وشمس الدين البساطي ، ومحجب الدين البغدادى الحنبلي . وخرج معه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فأقام بالريدانية يومين ثم رحل وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، فكان له في الشام موكب عظيم وكذلك في حلب .

ثم خرج من حلب وقصد التوجه نحو آمد من ديار بكر . فلما وصل الى هناك حاصر قلعة آمد أشد المحاصرة ، ونصب عليها عدة مجانيق فلم يقدر عليها ، فأقام هناك مدة ، فوقع في العسكر الغلاء ، فقلق من ذلك ، وكانت العوام تغنى وتقول : « في آمد رأينا العونه ، في كل خيمه طاحونه ، الغلام نهاره يطحن ، والجندي يجيب المونه » ... فلما سمع المماليك ثارت أخلاقهم على السلطان وقصدوا الوثوب عليه هناك ، فخشى الملك الأشرف أن تقع هناك فتنة ، فلم يقع بينه وبين قرا ملك واقعة ولا قابله ، فمشى بعض الأمراء بين قرا ملك وبين السلطان بالصلح ، فأرسل اليه السلطان القاضي محب الدين بن الأشقر نائب كاتب السر ، فحلف قرا ملك أنه لا يتعدى على بلاد السلطان ولا يحصل منه فساد .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو الديار المصرية . قيل ان السلطان صرف على هذه التجريدة من المال خمسمائة ألف دينار ولم يظفر بطائل . فلما رجع عاد قرا ملك الى ما كان عليه من العصيان .

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٣/١٤٣٤ م) :

فيها عاد الملك الأشرف برسباى الى نحو الديار المصرية ، فدخل الى القاهرة فى موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير حتى طلع القلعة ... وهو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البلاد الشامية . فلما وصل السلطان خرج ولده المقصر الجمالى يوسف الى تلقيه من العكرشة .

سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٤/١٤٣٥ م) :

فيها خلع على المقر السيفى جقمق العللاى واستقر أمير سلاح . وتوفى الشيخ تقى الدين الحسنى شارح كتاب أبى شجاع على مذهب الإمام الشافعى .

وفيها خلع على القاضى أمين الدين بن الهيصم واستقر فى الوزارة عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات .

سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥/١٤٣٦ م) :

فيها استقر المقر السيفى جقمق العللاى أتابك العساكر بالديار المصرية .

وفيها تزايدت عظمة الملك الأشرف برسباى حتى صارت مماليكه المشتروات خمسة آلاف . وفيها عمر السلطان الملك الأشرف تربته التى فى الصحراء عند تربة الظاهر برفوق وجعل فيها مدرسة .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق فى القاهرة وزينت له .

وفيها توفى الشيخ صلاح الدين الأقفهسى وكان من أعيان العلماء .

سنة أربعين وثمانمائة (١٤٣٦/١٤٣٧ م) :

فيها شوش السلطان على أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وصادرهم بسبب اقطاعاتهم ، وأخذ منهم على العبرة القديسة ، فحصل لهم الضرر الشامل . وكان المتكلم فى ذلك المقر السيفى أركماس الظاهرى أمير دوا دار كبير ، فجار عليهم وحصل لهم منه غاية الضرر . وكان سبب ذلك أنه بلغ السلطان أن شاه رخ بن تملنك تحرك على البلاد ، فقصد السلطان أن يجرد اليه بنفسه ثانيا ، فصادر أجناد الحلقة بسبب ذلك .

وفيها توفى الشيخ بدر الدين بن الدمامينى المالكى المخزومى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى قاضى القضاة ناصر الدين التونسى المالكى لما ولاه أمر العقود فى مبادى عمره :

يا قاضيا ليس يلقى نظيره فى الوجسود
قد زدت فى الفضل حتى قلدتنى بالعقسود
وفيها كانت وفاة الشيخ زين الدين الخراط الأديب الفاضل ، وله شعر جيد .

سنة احدى وأربعين وثمانمائة (١٤٣٧/١٤٣٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وهو الطاعون الثانى الذى جاء فى آخر دولته . وكان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى كان قبله ، فمات فى هذا الفصل ما لا يحصى عددهم من مماليك وأطفال وجوار وعبيد وغير ذلك . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

تغير فى مصر الهواء بأهلها
بدا وعليه صفرة ونحول

وصح بها موت النسيم وكيف لا
وقد جاءه الطاعون وهو غليل

ثم ان الملك الأشرف برسباى مرض عقيب
ذلك وسلسل فى المرض ، فحصل له مالىخوليا وخفة
عقل ونزق ، فرسم بنفى الكلاب الى بر الجيزة ،
فصار كل من أمسك كلبا يأخذ له نصف فضة من
صيرفى باب السلسلة ، فأمسك العياق من الكلاب
نحو ألف كلب فنفوههم الى بر الجيزة .

ثم انه نادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقا ،
فكانت الغاسلة اذا أرادت التوجه الى مية تأخذ
ورقة من المحتسب ، وتجعلها فى رأسها حتى تمشى
فى السوق .

ثم انه نادى فى القاهرة بأن فلاحا لا يلبث زمطا
مطلقا ، لا من كبير ولا صغير ، فامتلئ الناس ذلك .

ثم انه رسم بتوسيط الحكماء ، فوسط الرئيس
خضر ، ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف .

واستمر على هذه الخرافات الى أن مات ،
فكانت وفاته فى يوم السبت بعد العصر ، فبات
بالقلعة وأخرجوه فى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة
سنة احدى وأربعين وثمانمائة ، ودفن بتربته التى
أنشأها عند البرقوقية بالصحراء ، وصلى عليه
العلامة ابن حجر .

ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة .
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية
ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فكثر
عليه الحزن والأسف من الناس . فان مصر كانت
هادية فى أيامه من الفتن والحروب التى كانت فى
الدول الماضية . وقد قال القائل :

والمرء كالظل ولا بد أن

يزول ذاك الظل بعد امتداد

قيل ان الملك الأشرف لما ثقل فى المرض أحضر
ال خليفة الى داره والقضاة الأربعة وسائر الجند

والأمراء ، وحلف الممالك ثم أنفق عليهم لكل
واحد ثلاثون أشرفيا ، وعهد الى ولده يوسف
بالسلطنة ، وجعل الأتابكى جقمق العلائى وصيا
عليه ونظام المملكة . ثم انه رسم بأن يعاد الى
أجناد الحلقة من أولاد الناس ما أخذ منهم بسبب
الاقطاعات كما تقدم ، فرسم للأمير أركماس
الظاهرى بأن يعاد الى كل واحد ما أخذ منه بالتمام
والكمال ويكتب عليه شهادة بذلك ، فأعادوا الى
أجناد الحلقة ما كان أخذ منهم .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جليلا مبجلا
فى موكبه ، وكان منقادا الى الشريعة ويحب أهل
العلم ويقربهم . وكانت معاملته أحسن المعاملات
من أجود الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفية
البرسيهية ، فانها من خالص الذهب ، والى الآن
يرغب اليها الناس فى المعاملة .

وكانت صفة الملك الأشرف برسباى أنه عربى
الوجه ، طويل القامة ، أبيض اللون ، مستدير اللحية
شائب الذقن ، حسن الشكل ، صبيح الوجه ،
عليه سكية ووقار ومهابة مع لين جانب . وكان
عنده معرفة بأحوال السلطنة ، كفا للملك ، كثير
البر والصدقات ، وله معروف وآثار ... لكنه كان
عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال ، محبا لجمع
الأموال من المباشرين وغيرهم .

ومما أنشأه من العمائر فى أيامه المدرسة التى
عند سوق الوراقين ، والمدرسة التى فى الصحراء
التى دفن فيها ، والمدرسة التى فى خاققاه سرياقوس ،
وعمر الوكالة التى فى الصليبة والربعين اللذين بها
وله انشاءات كثيرة بالديار المصرية وغيرها . وكان
الأمير حاسوك شادا على عمائره .

وخلف من الأولاد صيين وهما يوسف وأحمد .
وكان من أزواجه خوند جلبان وهى أم ولده
يوسف ، وخوند فاطمة بنت الظاهر ططر ، وخوند

وبين الأمراء الأشرفية ، وصاروا يعاكسون الأتابكي
 حقمق فيما يفعله من الأمور . وصار الملك العزيز
 مع حقمق مثل اللوب يدوره كيف شاء ، فليس له
 في السلطنة غير مجرد الاسم فقط لأجل كتب العلامة
 على المراسيم . وكان الأتابكي حقمق مع الأمراء
 الأشرفية في غاية الضنك ، وقصدوا قتله في القصر
 عدة مرار . ولولا أن في أجله فسحة لقتل من يوم
 مات الأشرف .

ثم ان جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية
 التفوا على حقمق وتعصبوا له ، فوثبوا على الملك
 العزيز ، والتف عليهم جماعة كثيرة من المماليك
 السيفية فأوقعوا مع المماليك الأشرفية ، فلم تكن الا
 ساعة من النهار حتى انكسر المماليك الأشرفية ،
 وأحاط بهم كل رزية ، فتشتتوا وتفرقوا ، بيد
 النوى وتمزقوا . فلما انكسروا وقع الاتفاق وتحقق
 على سلطنة الأتابكي حقمق ، فأحضروا الخليفة
 المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك
 العزيز من السلطنة وولوا الأتابكي حقمق ، فكان
 الذي خلع الملك العزيز قاضي القضاة شهاب الدين
 ابن حجر .

فلما تولى الأتابكي حقمق رسم بأن العزيز يدخل
 الى دور الحرم ولم يسجنه بشغل الاسكندرية كعادة
 أولاد الملوك ، فأخلى له قاعة البربرية وأقام بها .
 وكان قصد السلطان حقمق بأن يزوج الملك العزيز
 ويستمر ساكنا بالقلعة ، فما صبر الملك العزيز ووقع
 منه ما سيأتى ذكره في موضعه . فكان كما قيل
 في المعنى :

قد يدرك المتأني جل مقصده

وقد يكون مع المستعجل الزلل

فكانت مدة سلطنة الملك العزيز يوسف بن
 الأشرف برسباي بالديار المصرية ثلاثة أشهر وخمسة
 أيام كأنها أضغاث أحلام .

، الأتابكي يشبك الأعرج ، وأرسل فأحضر بنت
 عثمان ملك الروم لكنه لم يدخل عليها . وكان
 رملوك الجراكسة كما قيل في المعنى :

قالوا فهل جاد الزمان بمثله

قلت الزمان بمثله لشحيح

وأما من توفي في أيامه من الأعيان فهم قاضي
 ضاة الهروي ، وقاضي القضاة علاء الدين بن
 نبي الحنبلي ، وقاضي القضاة التفهني الحنفي ،
 لشيخ ناصر الدين الديري الحنفي ، وابن النقاش
 ، أعيان علماء الشافعية ، والشيخ شهاب الدين
 ريزي المؤرخ ، والأتابكي بيبغا المظفري ، وغير
 ك من الأعيان .

الملك العزيز أبو المحاسن الدقماقي الظاهري

هو الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين
 سيف ، ابن الملك الأشرف برسباي الدقماقي
 ظاهري ، وهو الثالث والثلاثون من ملوك التراك
 ولادهم بالديار المصرية ، وهو التاسع من ملوك
 الجراكسة وأولادهم في العدد .

بويج بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الأشرف
 ، يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة سنة احدى
 أربعين وثمانمائة ، وتسلطن وله من العمر نحو
 ربع عشرة سنة ، وتلقب بالملك العزيز . وأمه أم
 لد چركسية تسمى جلبان .

فلما بايعه الناس بالسلطنة جلس على سرير
 ملك ، وحمل الأتابكي حقمق القبة والطير على
 أسه من باب الستارة الى القصر الكبير . فلما
 جلس باس له الأمراء الأرض ، فاستقر بالأتابكي
 حقمق العلائي نظام الملكة وصاحب الحل والعقد .

سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة (١٤٣٨ / ١٤٣٩ م) :
 فيها دبت عقارب الفتنة بين الأتابكي حقمق

الملك الظاهر حقيق

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد حقيق العلاني الظاهري ، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العاشر من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويغ في السلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسبای في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، فحضر الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا حقيق ولقبوه بالملك الظاهر ، ثم أحضرت له خلعة السلطنة فلبسها من باب السلسلة ، وركب فرس النوبة ، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفي قرقماس الشعباني أمير سلاح ، وقد تقدم أنه حضر مع العسكر الذين كانوا في التجريدة .

فلما ركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير جلس على سرير الملك ونودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ودقت له البشائر في ذلك اليوم بالقلعة ، وفرح غالب الناس بتوليته لكونه كان رجلاً ديناً خيراً قليل الأذى .

وكان أصل الملك الظاهر حقيق جركسي الجنس ، جلبه الخواجا كزل فاشتراه منه العلاني على بن الأتابكي اينال اليوسفي وقدمه الى الملك الظاهر برقوق فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم بقي خاصكياً ، ثم بقي ساقياً ، ثم أمسك وحبس في دولة الملك الناصر فرج ، ثم أطلق وصار أمير طبلخاناه خازندار في دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم مقدم ألف في دولة الملك الظاهر ططر . ثم بقي حاجب الحجاب في دولة الملك الأشرف برسبای ، ثم بقي أمير آخور كبير ، ثم بقي أمير سلاح ، ثم

بقي أتابك العساكر ... كل ذلك في دولة الملك الأشرف برسبای . فلما مات الأشرف وتولى ابنه العزيز يوسف بقي حقيق نظام المملكة ومشيرها ، فبقي مع المماليك الأشرفية في غاية الضنك ، وأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم تعصب له جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية وخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا حقيق .

فلما جلس على سرير الملك وتم أمره في السلطنة وبأس له الأمراء الأرض قبض في ذلك اليوم على الأمير جوهر الزمام اللالا وسجنه في البرج بالقلعة . ثم قرر في وظيفة الزمامية فيروز الساقى ، ثم توفي جوهر اللالا في أثناء ذلك من الرجفة ، ثم عمل الموكب في القصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي قرقماس الشعباني واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضاً عن نفسه وقرره في اقطاعه وهو نظام المملكة وزاد عليه امرية أربعين بدمشق ، وخلع على المقر السيفي أقبغا التمرازی واستقر به أمير سلاح عوضاً عن قرقماس الشعباني ، وخلع على المقر السيفي يشبك السودوني واستقر به أمير مجلس عوضاً عن أقبغا التمرازی ، وخلع على المقر السيفي تراز القرمشي واستقر به أمير آخور كبير عوضاً عن الأمير جانم الأشرفي ، وخلع على المقر السيفي قراقجا الحسنی واستقر به رأس نوبة النوب عوضاً عن تراز القرمشي ، وخلع على المقر السيفي تغرى بردی البكلمشي — الشهير بالمؤذی — واستقر به حاجب الحجاب عوضاً عن يشبك السودوني ، وأقر المقر السيفي أركماس الظاهري دوادارا كبيراً على عادته كما كان في دولة الملك الأشرف برسبای ... فهذا كان ترتيب الأمراء المقدمين أرباب الوظائف في مبتدأ دولته ، ثم انتقلت الوظائف من بعد ذلك الى

جماعة من الأمراء حسبما يأتى ذكر ذلك فى مواضعه عند انتقال الوظائف .

ثم ان الملك الظاهر أنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، وأنعم على جماعة بامريات طبخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، وأرضى جماعة المؤيدية والناصرية بكل ما يمكن من ذلك .

ثم انه أنفق على العسكر نفقة السلطنة ، وفرق الاقطاعات على المماليك السلطانية والمماليك السيفية الذين كانوا سببا لسلطنته ... فأقام فى السلطنة مدة يسيرة والأمر ساكن ، ثم بات الناس وأصبحوا وقد أشيع فى ليلة عيد الفطر — والناس فى اضطراب — أن الملك يوسف قد تحسب من القلعة ونزل بعد المغرب فى صفة صبي طباح ، وعليه ثياب رثة ، وعلى رأسه دست طعام ، وقد لوث وجهه بسواد الدست فكان ذلك فألا عليه . فلما وصل الى باب القلعة ضربه الطباخ الذى وراءه واستخفه فى المشى . فلما نزل من القلعة اضطربت الأحوال ، وكان ممالك أبيه أوقعوه فى هذه البلية ، فلما وقع تخلوا عنه وتبرأ كل أحد منه . فكان كما قيل فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار

فلا تبال أغابوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهن أوعار

وفعلهم مأثم للمراء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار

اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

ثم ان الملك العزيز استمر مختفيا نحو شهر ، والوالى فى كل ليلة يكبس البيوت والحارات بسبب الملك العزيز ، وصار كل من كان له عدو يكذب عليه فيكبسون بيته . واستمر الناس فى جمره نار مطلوقة الى أن توجه الملك العزيز الى بعض الأمراء فنه عليه . فلما بلغ بلباى المؤيدى ذلك — وكان

ساكنا فى زقاق حلب — جاء ماشيا وقبض على الملك العزيز وتوجه به الى باب السلسلة ، فأنعم عليه السلطان بخمسائة دينار وجعله أمير أربعين ، وقيد العزيز ، ودقت الكئوسات تحت الليل بسبب ذلك . فلما أصبح الصباح ونزلوا بالملك العزيز من القلعة ، توجهوا به الى البحر ومضى الى الاسكندرية فسجن بها ، وآخر الطب الكى ، وكم عجلة أعقبت ندامة... وكان قصد الملك الظاهر أن يزوج الملك العزيز ويبقى ساكنا فى القلعة ، فما سلم من ممالك أبيه ، وحسنوا له الهروب حتى هرب ، وقد دخلوا فى خطيئته برأيهم المعكوس . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء من أبيات :

ولم يدخلوه السجن الا مخافة

من العين أن تطرا على ذلك الحسن

وقلنا له شاركت فى الاسم يوسف

فشاركه أيضا فى الدخول الى السجن

واستمر الملك العزيز فى السجن مدة دولة الملك الظاهر حتى كلفها . فلما كانت دولة الملك الأشرف اينال رسم للملك العزيز بالافراج ، وأن يسكن فى بعض دور الحرم بشجر الاسكندرية ، وأن يركب الى الجامع وقت صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فتوفى بشجر الاسكندرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار دولة الملك الظاهر حتى ، فانه لما رجع العسكر الذى كان قد توجه الى البلاد الشامية ، وحضر صحبة العسكر المقر السيفى قرقماس الشعبانى فوجد الملك العزيز قد تسلطن ، وكان قرقماس فى نفسه من السلطنة شيء ، فلما تسلطن حتى جعله أميرا كبيرا فاستمر على ذلك أياما ثم لعب الأكرة مع السلطان ، فقصد الأتابكى قرقماس أن يقبض على السلطان وهو

يلعب الأكرة ، فدنا منه وأراد أن يقبض عليه وهو راكب على الفرس ، فانجذب منه السلطان وساق الى الدهيشة .

فلما انقضت الأكرة ونزل الأمراء الى بيوتهم لبس الأتابكى قرقماس آلة الحرب وطلع الى الرميثة ، فالتفت عليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، ولكن كان أكثر الأمراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق . فلما ركب قرقماس وطلع الى الرميثة وقف بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى باب السلسلة وجلس في المقعد المطل على الرميثة . فلما تسامعت الأمراء الذين من عصبة السلطان طلع الى الرميثة تسعة أمراء مقدمون منهم الأمير بيبغا الطيار ، والأمير تمرى ، والأمير قراقجا الحسنى ، والأمير يشبك السودونى ، والأمير تماراز القرمشى ، والأمير تغرى بردى المؤذى ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين وغيرهم ، فأوقعوا مع قرقماس واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد كسر الأتابكى قرقماس وهرب واختفى في غيطه الذى عند الجزيرة الوسطى . وسبب ذلك أن مملوكا يسمى بلبان كان في باب السلسلة ، فحرر على قرقماس وضربه بسهم نشاب فجاء في يده فخرفها من وسط كفه ، فتألم لذلك قرقماس وهرب من وقته وانكسر . فلما بلغ ذلك السلطان أنعم على بلبان المذكور باقطاع ثقل وجعله خاصكيا .

ثم ان قرقماس أقام في غيطه ثلاثة أيام وأرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل اليه بعض الأمراء ، فطلع به الى القلعة ، فقيده السلطان وأرسله الى السجن بئر الاسكندرية ، وخمدت الفتنة ولم ينل قرقماس مقصوده ، فكان كما قيل في المعنى :

يا خاطب الدنيا الى نفسه

تنح عن خطبتها تسلم

ان التى تخطب غدارة

قريبة العرس من المآتم

ثم ان السلطان خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن قرقماس الشعبانى ، وجعله أيضا نائب السلطنة ، وصار يحكم بين الناس وعلى يابه رأس نوبة وتقباء ، وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكانت هذه الوظيفة قد بطلت من أيام محمد بن قلاون — وكانت أكبر من الأتابكية — ويخرج النائب الاقطاعات الخفية من غير مشورة السلطان .

وفيهما توفي قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى وولى القضاء البدر التونسى عوضه .

سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة (١٤٣٩ / ١٤٤٠) :

فيها جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن اينال الجكمى نائب الشام قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، وكذلك تغرى برمش نائب حلب ، فعين السلطان لهم تجريدة . ثم خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به نائب الشام عوضا عن اينال الجكمى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى .

فلما توجه العسكر الى البلاد الشامية أوقعوا مع النواب ، فانكسر النواب ، وأسروهم وقطعوا رءوسهم وأرسلوها الى القاهرة ، فعلقوها على باب زويلة .

وقد وقع للملك الظاهر في أوائل دولته مخن عظيمة ، منها تسحب الملك العزيز من القلعة ، ومنها وثوب الأتابكى قرقماس عليه ، ومنها عصيان النواب ، وحصل له غاية الاضطراب . ثم انه أثبت

على الأتابكي قرقماس كفرا ، وحكم به قاضى
القضاة المالكى شمس الدين البساطى .

ومن النوادر ما حكاه بعض المؤرخين أن
الأتابكى قرقماس هذا لما أرادوا ضرب عنقه وهو
فى السجن أحضروا له المشاعلى فضربه ثلاث ضربات
بالسيف فلم يؤثر فيه ذلك ، ففتشوه فوجدوا فى
فمه خاتم فضة . وكان قرقماس أصله من مماليك
الظاهر برقوق ، وكان ضرب عنقه وهو بشعر
الاسكندرية فى السجن .

ثم ان الملك الظاهر صفا له الوقت من بعد ذلك ،
وعاش فى أرغد عيش ، ودام فى السلطنة الى أن
مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .
فكان كما قيل فى المعنى :

لا تسأل الدهر فى بأساء يكشفها
فلو أردت دوام البؤس لم يدم

سنة أربع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٠/١٤٤١ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن
البارزى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار
المصرية . وكان القاضى جمال الدين بن البارزى
صهر الملك الظاهر جقمق زوج أخته ، فرقى فى تلك
الأيام الى الغاية . وخلع على القاضى جمال الدين
يوسف بن كاتب حكم واستقر به ناظر الخواص
الشريفة على عادته ، ثم قبض على القاضى
عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة وصادره
واستصفى أمواله فأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ،
ثم نفاه الى مكة ، ثم نقله الى الشام . ولما انفصل
القاضى عبد الباسط من نظارة الجيش استقر بها
القاضى محب الدين بن الأشقر عوضا عن القاضى
عبد الباسط .

وفيها عزل السلطان قاضى القضاة شهاب
الدين بن حجر من القضاء وولى القاضى علم الدين

صالح البلقينى ، فقال القاضى شهاب الدين بن
حجر :

يا أيها السلطان لا تستمع
فى أمر قاضيك كلام الوشاه
والله لم نسمع بأن امرأ
أهدى له قط ولا قدر شاه
فأقام القاضى علم الدين البلقينى فى قضاء القضاة
مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد ابن حجر الى القضاء
ثانى مرة .

سنة خمس وأربعين وثمانمائة (١٤٤١/١٤٤٢) :
فيها كانت وفاة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى
الفتح داود بن المتوكل ، وكانت خلافته ثمانيا
وعشرين سنة وشهرين . وقد بايع فى أيامه من
السلطين ستة وهم : المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ،
والظاهر ططر ، وابنه ، والأشرف برسباى ، وابنه ،
والملك الظاهر جقمق .

ولما مات الخليفة داود نزل السلطان وصلى
عليه ، وكان كثير البر والصدقات . وكانت وفاته
فى يوم الأحد رابع ربيع الأول من هذه السنة .
وفى هذه السنة كان وفاء النيل رابع عشر
أبيب ، وقد وقع مثل ذلك فى أيامه مرتين .
وفيها عزل البدر العينى عن الحسبة ، وتولى
الشيخ على العجمى الخراسانى .
وفيها توفى الشيخ تقى الدين المقرئى المؤرخ ..
والأصح أنه توفى سنة ست وأربعين لا فى السنة
المذكورة .

ولما مات المعتضد تولى من بعده أخوه سليمان
ابن المتوكل ، ولقب بالمستكفى بالله ، فقال الناس :
ورث سليمان داود .

سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢/١٤٤٣ م) :
فيها من الحوادث أن طائفة من العبيد السود
خامروا على أستاذهم ، وعدوا بر الجيزة فأقاموا

الله أعطاني وكيلا رضا
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ثمان وأربعين وثمانمائة (١٤٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان خلف القاضي عبد الباسط
— وكان منفيًا بمكة — فلما حضر أكرمه السلطان
وأقام في بيته بطلا وفي غاية العز والعظمة ...
وكان يطلع الى السلطان في رأس كل شهر ويهنئ
به ، فيكرمه السلطان ويعظمه . واستمر على ذلك
حتى مات .

وفيها وثب ممالك الأمير تغرى بردى المؤذى
عليه وهو في بيته ، فرموا عليه بالنشاب وهو جالس
في المقعد فهرب ودخل الى البيت وأغلق عليه الباب ،
فاستمروا يحاصرونه من أول النهار الى العصر ،
واستمر من الطرية مريضا الى أن مات . فلما مات
خلع السلطان على الأمير اينال العلائي واستقر به
دوادارا كبيرا عوضا عنه .

سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، ومات فيه من
الناس ما لا يحصى عددهم ، لكنه كان خفيفا بالنسبة
الى الطاعون الذي جاء في أيام الأشرف برسباي .
وفيه يقول الشيخ شمس الدين النواجي :

يا لها أهدي الى الخلق رحمة
بوباء جم الشواب العظيم

قد شريت النفوس منا فخذها
بالرضا في قضاك والتسليم

وفيها كان مولد الشيخ جلال الدين بن الشيخ
كمال الدين الأسيوطي ، وذلك في جمادى الآخرة
من تلك السنة .

وفيها توفي الأتابكي يشبك السودوني ، واستقر
في الأتابكية اينال العلائي الأجروود ، وكان دوادارا

هناك وأظهروا العصيان ، وجعلوا لهم سلطانا
ووزيرا وأميرا كبيرا ودوادارا . وصار سلطانهم
يركب وعلى رأسه صنجق أصفر وحوله جماعة من
العييد نحو من خمسمائة عبد ، فصاروا ينسدون
هناك وينهبون ما يمر عليهم من غلال وغير ذلك ،
فحصل للناس منهم غاية الأذى . فلما بلغ السلطان
ذلك عين لهم بعض الأمراء ومعه جماعة من المماليك
السلطانية ، فعدوا اليهم وأوقعوا معهم ، فانكسر
العييد وأسر سلطانهم ومسك منهم جماعة وهرب
الباقون ورجعوا الى القاهرة ، فرسم السلطان
ونادى في القاهرة بأن كل من كان له عبد كبير
يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه اثني عشر
دينارا ، فامتثل الناس ذلك ، فاشتري منهم السلطان
جماعة وأرسلهم الى بلاد ابن عثمان ورسم يبيعهم
هناك ، فتوجهوا بهم في مركب وهم في الخشب
وباعوهم هناك ، وقطع جادة العبيد الشنطرة من
مصر ، وخمدت تلك الفتنة التي كانت بين العبيد .

وفيها كان قاضي القضاة بدر الدين محمود
العيني الحنفي محتسب القاهرة ، فكان يعزر
السوق بذهاب المال ، فمن وجد في بضاعته غشا
يرسلها الى الجبوس فيأكلها الجبوسون ، فكان
يعزر بذلك .

سنة سبع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٣/١٤٤٤ م) :

فيها تزايدت عظمة القاضي زين الدين أبي الخير
ابن النحاس حتى صار وكيل بيت المال وناظر
الكسوة وناظر الجوالي ، فانفرد بالسلطان حتى
قليل كان السلطان قصد أن يزوجه بإحدى بناته ،
وقد صار عزيز مصر في أيامه ، وأبطل كلمة جميع
المباشرين ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب
الحل والعقد بمصر كما قيل في المعنى :

يقول بيت المال لما رأى

تديره ذاك الجلى الجليل

كبيراً . واستقر بالأمر قانباى الجركسى دوادارا
كبيراً عوضاً عن الأمير اينال العلانى .

وفيهما تولى الشيخ شمس الدين محمد القاياتى
قاضى القضاة الشافعية عوضاً عن ابن حجر ، فقال
الشهاب المنصورى فى القاياتى تعصبا لابن حجر :

ان كان شمس الدين قاياتيكم
مستثقل الحركات والسكنات

لا غرو أن أضحى جباناً فى الورى
فالجبن منسوب الى القايات

وفيهما تزايدت عظمة الأمير زين الدين الحبى
استادار العالية ، ورقى فى أيام الملك الظاهر هذا
الى الغاية ، وهو صاحب الجامع الذى بالجبانبة ،
والجامع الذى فى بولاق ، والجامع الذى بين
السورين ، وله عدة جوامع بمصر وغيرها . وكان
له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وكان الملك الظاهر
منقاداً له لا يسمع فيه مرافعة ، ولم يجيء بعده من
يناطيه فى الاستدارية ، بل كان آخرهم .

سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) :

ففيها تغير خاطر السلطان على الأمير جاني بك
الظاهري حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف
الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فنفى الأمير جاني
بك الى ثغر دمياط لأمر أوجب ذلك .

وفيهما رسم السلطان باعادة مولد سيدى أحمد
البدوى بعد ما كان بطل .
وفيهما هجم الفيل الكبير على سايسه وقتله .
فلما بلغ السلطان رسم بقتل الفيل .
وفيهما أحضر السلطان الأمير خشقدم الناصرى
من الشام ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف .

سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٤٤٧ م) :

ففيها تغير خاطر السلطان على الشيخ برهان الدين

البقاعى ، وقد وقف شخص وشكاه للسلطان ، فأمر
بسجنه بالمقشرة ، وأخرج عنه وظيفته فى قراءة
الحديث ، ثم نفاه الى الهند حتى شفيع فيه بعض
الأمراء .

سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة (١٤٤٨ م) :

ففيها كانت وفاة الشيخ الصالح السيد الشريف
الحبيب النسيب شمس الدين محمد الطباطبى أعاد
الله علينا من بركاته ، ودفن بالقرافة الكبرى عند
الشيخ فضل الله بن فضالة .

وفى هذه السنة كان مولدى ، وذلك فى يوم
السبت سادس ربيع الآخر من السنة المذكورة .
هكذا نقلته من خط والدى رحمة الله عليه .

وفيهما من الحوادث أن السلطان رسم بسد
خوخة الجسر التى ببركة الرطلى لأمر أوجب ذلك ،
فحصل عند الناس اضطراب زائد بسبب ذلك . ثم
تكلم فى ذلك الجبالى يوسف ناظر الخاص فرسم
بإعادة كل شىء على حاله .

وفيهما تولى قاضى القضاة الشافعية الشيخ شرف
الدين يحيى المناوى ، وكان قاضياً على القدر دينا
خيّراً من أهل العلم والصلاح .

وفيهما من الحوادث أن شخصاً أعجيباً يسمى
الشيخ أسد الدين كان يدعى أنه شريف ، فجاء الى
الشيخ على المحتسب وقال له : « اجمعنى على
السلطان فانى أعرف صنعة الكيمياء » .. ! فجمعه
عليه فأوحى اليه أنه يطبخ له كيمياء ، وأن هذا وجه
حل ، فانطاع السلطان الى كلامه وأجرى عليه
ما يحتاج اليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة
مال نحو من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه
الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال
ويوقده فى النار ، ولا يأكل شيئاً فيه روح ، فأتلف

على الملك الظاهر جيلة مال ولم يفد ذلك شيئا .
فكان كما قيل في المعنى :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا

لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وقد تحدث قوم باجتماعهما

وما أفنهما كانا ولا اجتماعا

فأوحوا الى السلطان أن هذا يعبد النار ،
وتحدثوا في حقه بكلمات كثيرة ، فأرسله السلطان
الى المدرسة الصالحية فحكم فيه بعض نواب
القاضي المالكي بدر الدين التونسي بأنه كفر ،
فضربوا عنقه تحت شباك الصالحية ، وكان له يوم
مشهود .

سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة (١٤٤٩ م) :

فيها توقف النيل عن الوفاء ثلاث أصابع وقيل
أربعا ، وأقام على ذلك أياما لم يزد شيئا ، فرسم
السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء ، فخرج
القضاة الأربعة وأمير المؤمنين المستكفي بالله
سليمان ومشايخ العلم والصلحاء وأعيان الناس ،
ولم ينزل السلطان فعز ذلك على الناس . وقد
تقدم أن الملك المؤيد شيخ نزل بنفسه واستسقى
مع الناس ، وكان عليه جبة صوف أبيض ، فلم
يوافق الملك الظاهر على ذلك . ثم خرج أطفال
المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، وخرج طائفة
اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج طائفة
النصارى وعلى رؤوسهم الانجيل ، وأخرجوا
معهم بعض أبقار وأغنام ، وخرج معهم السواد
الأعظم من رجال ونساء وأطفال رضع ، والخلق
يستغيثون : « يا الله ارحمنا » ... وكان يوما
تسكب فيه العبرات ، فتوجهوا نحو الصحراء
عند الجبل الأحمر ، وأحضروا هناك منبرا ، وكان
قاضي القضاة الشافعية يومئذ القاضي شرف الدين

يحيى المناوى ، فصعد المنبر وخطب خطبة
الاستسقاء على جارى العادة ، فلما أراد أن يحول
رداءه - كما جرت به العادة في خطبة الاستسقاء -
سقط الرداء الى الأرض ، فتطير الناس من ذلك .
الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبي الرداد
ومعه رايات زعفران ونادى بزيادة أصبع ففرح
الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبي الرداد
بمائة دينار بسبب هذه الزيادة . ثم ان البحر
نقص في تلك الليلة أصبعين .

ومن النكت اللطيفة أن بعض العلماء خرج في
بغداد ليستسقى بالناس ، وكان في السماء بعض
سحاب وقت خروجه ، فلما خرج ودعا للناس
ورفع يديه بالدعاء تقطع السحاب وصحت السماء
من الغيم ، فحجل ذلك العالم ودفع الى منزله .
وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

خرجنا نستسقى بفضل دعائه

وقد كاد سحب الغيم أن يلحق الأرضا

فلما ابتدا يدعو تكشفت السما

فما تم الا والسحاب قد انفضا

فلما نزل البحر ، وقد بقى على الوفاء ثمانية
أصابع ، رسم السلطان بأن يكسروا السد ان زاد
البحر أو لم يزد ، فكسروا السد فلم يجز الماء الا
قليلا ، فدخل غالب الماء الى بركة الفيل من
البجمون ، ثم نزل البحر من بعد ذلك ولم يزد
شيئا ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت
الناس على بعضها ، وحصل الضرر الشامل ،
وشرقت البلاد ، وعزت الأقوات وشحط السعر في
القمح والشعير والفول وسائر الحبوب ، وتزايد
سعر كل شيء وتناهى سعر القمح الى خمسة
أشرفية كل أردب ، ثم تناهى الى سبعة أشرفية كل
أردب ، وغلا سعر كل شيء من البضائع حتى روبا
الماء ، وعم الغلاء سائر البلاد ، وشرقت غالب

البساتين وماتت الأشجار وماتت البهائم . فلما جرى ذلك حول الأمراء شونهم الى بيوتهم ومعهم مماليتهم ملبسة خوفا من العوام أن ينهبوا القمح . ثم ان العوام رجموا القاضي أبا الخير بن النحاس وكيل بيت المال ، وقد بلغهم عنه أنه قال للسلطان : « ان العوام يأكلون بذهبهم حشيشا ، ويأكلون فوقه بأربعة أنصاف حلوى . فالذى يأكلون به حلوى يأكلون به خبزا » ... فرجموه وهو نازل من القلعة ، وخطفوا عمالته من على رأسه ، وأخذوا خواتمه من أصابعه . ثم رجموا العلائي على بن القيسي محتسب القاهرة بسبب الخبز ، فانه وصل سعر كل رطل خبز نصفى فضة ، وقاسى صاحب أمين الدين بن الهيصم والأمير زين الدين الاستادار في هذه الغلوة من المماليت ما لا خير فيه ، وصاروا يضربونهم ويرجمونهم ، وتشحط اللحم والجبن وسائر البضائع ، حتى الروايا الماء . واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين . وقد رثى بعض الشعراء الخبز لما عز وتشحط بقوله :

قسما بلوح الخبز عند خروجه
من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى
سحب الثفال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحرر
خدين للشونيز فيه عذار
كالفضة البيضاء لكن يفتدى
ذهبا اذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة
لا تستطيع تحده الأبصار
فكان باطنه بكفك درهم
وكان ظاهر لونه دينار

ما كان أجهلنا بواجب حقه
لو لم تبينه لنا الأسعار
ان دام هذا السعر فاعلم أنه
لا حبة تبقى ولا معيار
ثم وقع الطاعون فى هذه السنة أيضا بالديار
المصرية ، ومات فيه ما لا يحصى عددهم من
ممالك وأطفال وجوار وعبيد وسرباء حتى قيل
كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف انسان ،
وفى ذلك يقول شمس الدين النواجى :

رب نج الأنام من هول طعن
قد قضى غالب الورى فيه نجبه

رخصت قيمة النفوس فأضحت
كل روح تباع فيه بجبه
وفى أواخر هذه السنة كانت وفاة القاضي
عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة كان . فكانت
وفاته فى سادس شوال من السنة المذكورة ، وكان
له بر ومعروف وفعل خير ، وأنشأ عدة مدارس
بمصر ومكة والمدينة وبيت المقدس ، وكان له
سحابة تطلع فى كل سنة برسم الحجاج المنقطعين ،
وقطع من طريق العقبة ، وأرسل حجارين قطعوا
منها ما كان يشوش على الحجاج . وكان القاضي
عبد الباسط عزيز مصر فى أيامه ، فلما مات تزوج
الملك الظاهر ببنته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة أربع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٠ م) :
فيها كانت وفاة شيخ الاسلام قاضى القضاة
شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الكنانى
الشافعى رحمة الله تعالى عليه ١ ، وكانت جنازته
مشهودة . ولما مات لم يخلفه أحد من العلماء من
بعده ، وقد رثاه الشيخ شهاب الدين المنصورى
بقصيدة منها :

(١) فى « السلاوات » وغيرها ان وفاة ابن حجر كانت سنة ٨٥٢

بكاء العلم حتى النحو أضحي
مع التصريف بعدك في جدال
وقد أضحي البديع بلا بيان
وقد سلفت معانيه الغوالي
وقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال
تكرت المعارف في عياني
وتميزى غدا في سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
وكم جنت المنون على كرام
وجندلت الكمى بلا قتال
فيا قبرا ثوى فيه تهنى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاك الله عينا سلسيلا
وأسبغ ما عليك من الظلال

سنة خمس وخمسين وثمانمائة (١٤٥١ م) :

فيها وفاة أمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان
ابن المتوكل على الله محمد . وكانت وفاته في يوم
الجمعة ثانى المحرم من السنة المذكورة ، فكانت
مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات نزل
السلطان وصلى عليه ومشى في جنازته حتى دفن
عند أقاربه بالمشهد النفسى . ومات ولم يعهد
لأحد من اخوته .

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم عقد
السلطان مجلسا بالقصر الكبير ، وجمع فيه القضاة
الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعية شرف الدين
يحيى المناوى ، وقاضى قضاة الحنفية سعد الدين
الديرى ، وقاضى القضاة الحنابلة عز الدين
الحنبل ، وقاضى القضاة المالكية شمس الدين
البساطى .

وكان المتكلم في ذلك المجلس القاضى كمال
الدين محمد بن البارزى كانت السر الشريف .
فلما تكامل المجلس وقع الاختيار على تولية
حمزة بن المتوكل - وكان أسن اخوته - فؤاده
السلطان . ثم ان القاضى كمال الدين بن المبارك
البارزى استرعى السلطان مبايعة الخليفة حمزة ،
ولقبوه بالقائم بأمر الله ، ثم أحضروا له الشريف
فألبسوه له ، ونزل من القلعة في موكب عظيم
وقداهم القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل
الى بيته وهو في غاية العظمة ، فكان أحق بقول
القائل :

كل يهنيك بالتشريف محتفلا
يا من بأيامه المعروف معروف
لكنى بك أختار الهناء له
فان قدرك للتشريف تشريف

ومن الحوادث أن السلطان رسم بحرق
شخص خيال الظل جميعها وأبطالها ، ورسم
بإبطال نوبة خاتون التى كانت تعزف بالقلعة بعد
العشاء .

وفيها توفى العلامة قاضى القضاة بدر الدين
محمود العينى الحنفى صاحب التاريخ البدرى .

سنة ست وخمسين وثمانمائة (١٤٥٢ م) :

فيها توفى القاضى كمال الدين ابن القاضى ناصر
الدين البارزى كاتب السر الشريف بالديار
المصرية . فلما أن توفى القاضى كمال الدين بن
البارزى خلع الملك الظاهر على القاضى محب الدين
ابن الأشقر واستقر به كاتب السر الشريف بالديار
المصرية ، عوضا عن القاضى كمال الدين بن
البارزى ، وخلع على القاضى جمال الدين يوسف
واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مع ما بيده من
نظارة الخاص .

وكان القاضي كمال الدين بن البارزى من أهل الفضل والعلم ، وله خط جيد وعبارة حسنة . وكان له نظم رقيق ، وقد فاق والده القاضي ناصر الدين البارزى .

ومن النكت اللطيفة قيل كتب القاضي ناصر الدين البارزى تقریظا ، وقد استوفى الى آخر الورقة ، فلما فرغ قالوا له : « لابد من كتابة ولدك القاضي كمال الدين على هذا التقریظ » . فأمره بأن يكتب تحت خطه — ولم يبق من الورقة الا قدر أصبعين — فكتب القاضي كمال الدين تحت خط والده :

مرت على فهمى وحلو لفظها

مكرر ، فما عسى أن أصنعاً ؟

ووالدى — دام بقاء سؤدده —

لم يبق فيها للكمال موضعا

فانظر الى حسن أدبه ، مع بلوغ القصد وحسن ما وقع له بالتورية مع تضمين اسمه وعدم الحشو ، وحسن المقابلة بين الحلو والمر ، وهذا في غاية الرقة .

ومن الحوادث في أيام الملك الظاهر چقمق أن البلاد لما شرقت رسم للمقطعين بأن البلاد التى رويت من ماء النيل فى تلك السنة يأخذون عنها من الفلاحين القطيعة قطيعتين ، ففعلوا ذلك ومشى هذا الأمر .

ومن الحوادث فى أيامه أن بركات ، أمير مكة ، كان قد أظهر العصيان ، فتوجه اليه القاضي شرف الدين الأنصارى فحضر صحبتته ، فلما وصل نزل اليه السلطان ولاقاه من المطعم ، فدخل صحبتته وطلع الى القلعة ، فخلع عليه وأكرمه وزالت تلك الوحشة التى كانت بينهما .

سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) :

فيها توعك جسد السلطان ولزم الفراش وسلسل فى المرض . فلما ثقل عليه الضعف أرسل خلف أمير المؤمنين القائم بالله حمزه والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك الى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة ، واستمر عيلا ملازم الفراش الى أن توفى فى ليلة الثلاثاء رابع شهر صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج ، وتوجهوا به الى تربة قانباى الجركسى التى عند دار الضيافة فدفن هناك ، وكثر عليه الحزن والأسف من الناس .

وقيل مات وله من العمر نحو احدى وثمانين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما وقيل يومين .

وكان ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب ، يحب العلماء وينقاد الى الشريعة ، ويقوم الى العلماء اذا دخلوا عليه . وكان يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك ، ولا يخرج اقطاع من له ولد الا الى ولده . وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد . وكان يحسن للأمراء التراكمة ويعطيهم العطايا الجزيلة ، فكانوا تحت طاعته فى مدة ولايته .

وكان الملك الظاهر طاهر الذيل عفيفا عن ... و

وكانت صفته : معتدل القامة ، غليظ الجسد ، درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل ، عليه وقار وسكينة ، مهيبا فى العيون . وكان فصيح اللسان بالعربية ، متفهما

وله مسائل في الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء ..
لكنه كان صاحب ودينة ، ماشيا على قاعدة
الأتراك : عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده
حدة زائدة وبادرة في الأمر .

ومن مساويه أنه كان عنده خرق في حق
العلماء ، منها أنه سجن قاضي القضاة ولى الدين
السقطي في المقشرة ، ومنها أنه عزز الشيخ شمس
الدين الكاتب في وسط الصالحية وكان يكره
جماعة الأشرف برسباي ونفى منهم جماعة ،
ونفى أبا الخير بن النحاس — الذي ما كان عنده
أعظم منه — وسجنه بالديلم أياما ، وسجن جماعة
كثيرة من العلماء بالمقشرة ، وصادر القاضي
عبد الباسط وأخذ أمواله ، وأثبت على الأتابكي
قرقماس الشعباني كفرا وأرسل يضرب عنقه بشجر
الاسكندرية ، وأثبت على الأمير بخشاي كفرا
وضرب عنقه . وكان اذا سمع بأن أحدا يسكر
ينفيه ويقطع جامكيته ويخرج اقطاعه . وغضب
في وقت على النصاري فهدم جانباً من
كنائسهم ، وحجر على بيع النبيذ ، وكتب على
اليهود والنصاري قسائم ألا يعصروا خمرا ، ثم
كبس البيوت والحارات بسبب ذلك وأراق من
الخمور أشياء كثيرة ، ثم أمر بسد خوخة باب
الجسر التي عند بركة الرطلي فأقام مسدودا أياما
ثم رسم بفتحه . وكان له أشياء كثيرة من هذا
النمط بحسب الوسائط السوء ... وبالجملة كانت
محاسنه أكثر من مساويه ، وكان خيار ملوك
الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك
كما قيل في المعنى .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء فضلا أن تعد معاييه

ولما مات الملك الظاهر خلف من الأولاد ثلاثة
صبيا وبنتين ، وهم : الملك المنصور عثمان الذي

تسلطن بعده . وأما البنتان فاحداهما من خولد
التي هي بنت البارزي تزوجت بالأتابكي أزبك ،
والأخرى تزوجت بالأمير جانبك الظريف أولا ثم
تزوجت بالأتابكي أزبك بعد موت أختها

وأما نساؤه فخوند بنت البارزي أولا ، وخوند
بنت الأمير جرباش الكريمي قاشق أمير سلاح ،
وخوند بنت ابن عثمان ، وخوند الجركسية ،
وتزوج بنت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكانت دولته ثابتة القواعد وأما أمراؤه
الأتابكية فالأمير قرقماس الشعباني أولا ، ثم
الأمير أقبغا التمرزي ، ثم الأمير يشبك السودوني
ثم الأمير اينال العلاني .

وأما دوااريات فالأمير اركماس الظاهري
أولا ، ثم الأمير تغرى بردى المؤذى ، ثم الأمير
اينال العلاني ، ثم قانباي الجركسي ، ثم الأمير
دولاتباي المؤيدي .

وأما قضاة الشافعية فالقاضي شهاب الدين بن
حجر أولا ، ثم القاضي علم الدين صالح البلقيني
والقاضي شمس الدين القاياتي ، والقاضي ولى
الدين السقطي ، والقاضي شرف الدين يحيى
المنأوى . وأما قضاة الحنيفية فالقاضي سعد الدين
ابن الديري . وأما قضاة المالكية فالقاضي شمس
الدين محمد البساطي أولا ، ثم القاضي بدر الدين
ابن التونسي ، ثم القاضي ولى الدين الأموي . وأما
قضاة الحنابلة فالقاضي محب الدين العسقلاني
أولا ، ثم القاضي بدر الدين البغدادي ، والقاضي
عز الدين الحنبلي .

وأما كتاب سره فالقاضي بدر الدين بن مزهر
أولا ، والقاضي كمال الدين بن البارزي ، والقاضي
محب الدين بن الأشقر من بعده .
وأما نظار جيوشه فالقاضي عبد الباسط أولا ،

ثم القاضى محب الدين بن الأشقر ، والقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب حكهم .

وأما نظار الخواص الشريفة فالقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب حكهم المذكور .

وأما وزراؤه فالصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخات ، والصاحب أمين الدين بن الهيصم .

وأما استدارياته فالأمير عبد الرحمن بن الكويز والأمير زين الدين يحيى . وتولى غير هؤلاء جماعة لهم تطل مدتهم فلم نذكرهم ههنا .

وأما من تولى الحسبة فى أيامه فالقاضى محمود العينى ، والشيخ على العجمى ، والعلائى على بن القيسى ، وعبد العزيز بن محمد الصغير أيضا .

وأما ولاية القاهرة فى أيامه فمنصور بن الطبلأوى وجانى بك ، وقراجا ، وعلى بن القيسى ، وغير ذلك من الأتراك وغيرهم .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم الخليفة داود ، والخليفة سليمان ، وقاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى ، وقاضى القضاة ولى الدين السقطى الشافعى ، وقاضى القضاة محب الدين العسقلانى الحنبلى ، وقاضى القضاة بدر الدين البغدادى الحنبلى ، وقاضى القضاة بدر الدين التونسى المالكى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى — وهو صاحب التاريخ البدرى — وكان العينى من أهل الفضل وله عدة مصنفات فى علوم جليلة ، وكان له شعر جيد . وفيه يقول بعض الموالاة هذه الأبيات المواليا ، وقد جمع فيها الفنون السبعة وهو قوله :

قوما لدو بيت قاضى قد زجل شينى

بكان وكان امتدح بين الورى زينى

وانقل موشح مواليا بلا مينى

فأبحر الشعر مجراها من العينى

وتوفى فى أيام الملك الظاهر ولده المقر الناصرى

محمد ، وتوفى القاضى الوفاى ، وابن الجزرى شيخ القراءات . وتوفى الحافظ عبد الرحيم الحموى المحدث ، وتوفى شيخ الزهاد محمد بن سلطان ، والشيخ كمال الدين المجذوب ، والشيخ عبادة المالكى ، والشيخ شمس الدين الحنفى ، والشيخ أبو الفتح بن أبى الوفاء ، والأمير جوهر اللالا الزمام القنقبأى الخازندار .

وتوفى فى أيامه جماعة كثيرة من الأمراء المقدمين وأعيان الناس من الأكابر .

وتوفى فى أيامه من الشعراء الشيخ تقى الدين ابن حجة صاحب شرح البديعية ، توفى بحماه . وتوفى الشيخ شهاب الدين بن مبارك شاه ، وكان من أعيان الشعراء . وتوفى الشيخ شمس الدين بن كميل ، وكان له شعر جيد . وتوفى البدر البشتكى من أعيان الشعراء ، وتوفى الشيخ شمس الدين النواجى صاحب حلبة الكميت ، وكان من أعيان الشعراء ، وقد رثاه الشهاب المنصورى حيث قال :

رحم الله النواجى فقد

فقد الدنيا وأبقى ما روى

وانطوى فى شقة البين فى

حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

الملك المنصور أبو السعادات

هو الملك المنصور أبو السعادات ، فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر چقمق العلأى ، وهو الخامس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويج بالسلطنة بعد خلع أبيه من السلطنة فى يوم الخميس حادى عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) .

تسلطن وله من العمر نحو تسع عشرة سنة . وكانت أمه أم ولد رومية الجنس ، فلبس خلعة السلطنة من الدهيشة ، وركب وتوجه الى القصر الكبير والأتابكى اينال العلائى حامل القبة والطير على رأسه . فلما جلس على سرير الملك باست له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء — هذا كله ووالده الظاهر فى قيد الحياة — فأقام اثنى عشر يوما حتى توفى والده .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير قمرغا واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير دولاتبای المؤيدى .

ثم انه قبض على الأمير زين الدين استادار ، وكان بينه وبينه حظ نفسى من أيام والده ، فلما قبض عليه لم يرث له وسلمه الى الأمير فيروز الزمام . ثم خلع على الأمير جاني بك نائب جدة واستقر به استادارا عوضا عن زين الدين ، ثم نقل زين الدين من عند فيروز الزمام وسلمه الى الأمير جاني بك نائب جدة فعاقبه وأحضر اليه المعاصير وعصره فى أركابه حتى كسرهما ، واستخرج منه نحو أربعين ألف دينار ، واستمر فى العقوبة أياما . وفيه يقول بعض الشعراء :

أخبار زين الدين قد شاعت بها

أعداؤه بين الورى تتعهد

لا غرو ان هم بالغوا فى عصره

فالكرم يعصر والجواد يقيد

ثم ان الملك المنصور أخذ فى أسباب نفقته على العسكر ، ولم يكن فى الخزائن شىء من المال .

فيل خلف الملك الظاهر چقمق فى الخزائن من المال ثلاثين ألف دينار لا غير ، فشكا ذلك الى القاضى جمال الدين يوسف ناظر الخاص ، فقال :

« على ذلك » . ثم ضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار عن الأشرى قيراطين ، وسماها المناصرة ، ف ضرب منها جملة كثيرة ، وأراد أن ينفق ذلك على العسكر .

ولما كان يوم الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة وثب الممالك الأشرية والمؤيدية ، والتف عليهم جماعة من الممالك السيفية . فلما وثبوا توجهوا الى بيت الأتابكى اينال العلائى فأركبوه غصبا ، وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر . فلما استقر به أرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر أخذ فى أسباب خلع الملك المنصور عثمان فكتبوا محضرا وشهد فيه جماعة الخاصكية بما يوجب خله ، فخلع من السلطنة وبويع الأتابكى اينال بالسلطنة . واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين من يوم الاثنين الى يوم الأحد سابع ربيع الأول ، فانكسر الملك المنصور عثمان فى ذلك اليوم .

وكان الملك المنصور أرسل يحضر عربانا من الشرقية وعربانا من البحيرة ، فمنعه من ذلك الأمير قانباى الجركسى وما مكنه من ذلك ، وقال : « تطمع العرب فى الترك » ... ولا زال اينال يحاصر الملك المنصور وهو بالقلعة ، وقطع عنه الماء ومنع عنه الأكل ، حتى ضجر وانكسر ، فملك اينال باب القلعة وولوا الظاهرية منهزمين كأنهم لم يكونوا .

فلما تسلطن اينال قبض على الملك المنصور وقيده وسجنه بالبحرة وهو مقيد فأقام بها الى يوم الأحد ثامن عشرى ربيع الأول ، فأنزلوه من القلعة من باب القرافة وهو مقيد الى أن وصلوا به البحر فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى السجن بشجر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليه الأمير خير بك الأشقر أمير آخور ثانى . فلما وصل الى الاسكندرية سجن بها ورجع الأمير خير بك ... فكانت مدة

الملك الأشرف إينال

هو الملك الأشرف أبو النصر ، سيف الدين إينال ، العلاني الظاهري ، وهو السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويح بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق ، وذلك يوم الاثنين ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الأشرف .

وقد تقدم أن جماعة من الأشرية والمؤيدية والمماليك السيفية ، لما وثبوا على الملك المنصور ، توجهوا الى بيت أتابكى إينال وأركبوه غصبا وأتوا به الى حدره البقر في بيت قوصون فجلس به ، وأرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر قام في سلطنة الأتابكى إينال غاية القيام ، وخلع الملك المنصور من السلطنة قبل أن ينكر ، وباع الأتابكى إينال ، ونودى باسمه في القاهرة . واستمرت الحرب ثائرة بينهم سبعة أيام ، وقتل في هذه المدة من الناس ما لا يحصى . وآخر الأمر انكسر الملك المنصور وملك إينال باب السلسلة .

فلما استقر يباب السلسلة بعث جماعة من الأشرية قبضوا على الملك المنصور وقيده وأدخلوه البحرة ، وقبضوا على جماعة من الظاهرية فبات ليلة الاثنين في باب السلسلة .

فلما كان يوم الاثنين أحضر اليه شعار الملك ، وأفيض عليه ، وقدمت له فرس النوبة فركب من سلم الحراقة ، وحملت القبة والطير على رأسه وولده الشهابي أحمد ، ومشيت قدماه الأمراء حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر

سلطنة الملك المنصور عثمان ثلاثة وأربعين يوما ، وكانت كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل في المعنى :

فلم يقم الا بمقدار أن

قلت له أهلا أخى مرحبا

واستمر الملك المنصور بثغر الاسكندرية الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فرسم بالاطلاق ، وأن بسكن في بعض دور الاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الأشرف قايتباي ، فنقله الى ثغر دمياط ، وكان يركب ويتصيد ثم طلب من السلطان اذنا بأن يحج فأنعم له بذلك ، فحضر الى القاهرة وطلع الى القلعة ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، ثم أقام له بركا وسنيحا وتوجه الى الحجاز فحج وعاد الى القاهرة ، وأقام بها نحو من شهرين ... ففي هذه المدة كان يطلع القلعة ويضرب الأكرة مع السلطان ، ورسم له السلطان بأن يتوشح ببند أصفر حين يلعب الأكرة ، فكان في غاية العز والعظم .

وكان الملك الأشرف قايتباي مملوك أبيه الظاهر چقمق ، والأتابكى مملوك أبيه وصهر زوج أخته ، وسائر الأمراء الظاهرية ممالك أبيه . وكان الأتابكى تمتاز الشمسي متزوجا بنت الملك المنصور ... فساعدته الأقدار من كل جانب .

ثم رسم له السلطان بالعود الى ثغر دمياط ، وأقام فيها حتى توفي بها أثناء دولة الملك الأشرف قايتباي ، ونقل بعد موته من دمياط ودفن في تربة أبيه الملك الظاهر .

ومات الملك المنصور وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان كريما سخيا لين الجانب .

بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

وكان أصل الملك الأشرف اينال چركسى الجنس جلبه الخواجا علاء الدين على فاشتراه منه الملك الظاهر برقوق وصار من جملة مماليكه . فلما توفى الملك الظاهر برقوق وتولى بعده ابنه الناصر فرج أعنته وأخرج له خيلا وقماشيا وبقي جمدارا ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الملك المظفر أحمد ابن المؤيد شيخ ، ثم بقى أمير طبلخاناه رأس نوبة ثانى فى دولة الملك الأشرف برسباى ، ثم بقى نائب غزة مع الأشرف برسباى . ولما توجه الى آمد جعله نائب الرها ، وذلك فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة . ثم أحضره الأشرف برسباى الى القاهرة وأنعم عليه بتقدمة ألف — واستمرت نيابة الرها بيده زيادة عن التقدمة — ثم نقله الأشرف الى نيابة صفد وخرج اليها فى سنة أربعين وثمانمائة ، واستمر بصدد الى دولة الظاهر چقمق ، فبعث خلفه . فلما أحضره قرره فى مقدمة تغرى بردى المؤذى . فلما توفى الأتابكى يشبك السودولى قرر فى الأتابكية عوضا عن يشبك السودولى ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، واستمر على ذلك حتى توفى الظاهر چقمق وتولى ابنه الملك المنصور عثمان ، فوثب عليه العسكر وتوجهوا الى بيت الأتابكى اينال فأركبوه غصبا ، وأقام الحرب ثائرة بينهما سبعة أيام ، فلما انكسر المنصور وقع الاتفاق على سلطنته فسلطنوه ، وتلقب بالملك الأشرف .

فلما تم أمره فى السلطنة وجلس على سرير الملك أخذ فى تدبير أمره واصلاح شأنه . ثم انه عين الأتابكية لولده المقر الشهابى أحمد ، فعز ذلك على الأمراء ، فقرر فيها ثانى بك البردبكى وخلع عليه وأقره فى الأتابكية عوضا عن ولده ، وأنعم على ولده الشهابى أحمد بتقدمة ألف .

ثم عمل الموكب وخلع على الأمير خشتقدم وقرره أمير سلاح عوضا عن تنم بن عبد الرزاق ، وخلع على طوخ بويتى بازق وقرره أمير مجلس ، وخلع على قرقماس الجلب وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن اسنبغا الطيار ، وخلع على چرباش كرت وقرره أمير آخور كبير عوضا عن قانى باى الچركسى ، وخلع على يونس الأقبای المؤيدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن تمرىغا الظاهرى ، وخلع على جان بك القرمانى وقرره حاجب الحجاب عوضا عن خشتقدم الناصرى ، وخلع على تمران الاينالى الأشرفى وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن اسباى ، وخلع على جانى بك القجماسى الأشرفى وقرره فى شادية الشراب خانه عوضا عن لاجين الظاهرى ، وخلع على خير بك الأشقر وقرره أمير آخور ثانى ، وخلع على جانبك نائب جدة واستمر متحدثا فى الاستادارية ، وخلع على قانى باى الأعمش وقرره فى نيابة القلعة ، وخلع على يونس العلائى وقرره فى نيابة الاسكندرية ، وخلع على يشبك الناصرى وقرره رأس نوبة ثانى .

وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف منهم أرنبغا اليونسى وبرسباى البجاسى وغير ذلك من الأمراء .

ثم أنعم بامرية طبلخانات وعشراوات على جماعة كثيرة من الأمراء منهم جانبك الظريف وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضا عن أزبك بن ططخ ، وأنعم على بردبك زوج ابنته بامرية عشرة ، وقرر يشبك الأشقر فى استدارية الصجبة عوضا عن سنقر أحد أمراء الظاهرية .

ثم انه شرع فى ارسال الملك المنصور الى ثغر الاسكندرية ، فنزل به من باب الدرفيل وهو مقيد ، فتوجهوا به الى الاسكندرية فسجن بها بعد أن أنزلوه الى البحر فى الحراقة وتوجهوا به ،

وكان المتسفر عليه خير بك الأشقر أمير آخور
ثاني ، فسجنه ورجع .

ثم أنزل من قبض عليه من الأمراء ، وهم :
ابن عبد الرزاق أمير سلاح ، وقاني باي الجركسي
أمير آخور كبير ، وتمرغا الدوادر الكبير ، ولاچين
شاد الشراب خاناه ، وأزبك بن ططخ خازندار
كبير ، وسنقر العايق ، وجانم الساقى ، وجاني بك
وسودون الأفرم ... فتوجهوا بالجميع الى ثغر
الاسكندرية فسجنوا بها وهم في قيود حديد .

وفي ربيع الأول ابتداء السلطان بتفرقة النفقة
— وهي نفقة البيعة — على الجند ، وكانت قد
ضربت قبل ذلك ، وهي الدنانير المناصرة تنقص عن
وزن الأشرفي قيراطين من ذهب . وكان القائم في
ذلك ناظر الخاص يوسف . فلما تسلطن اينال ضربت
باسمه وأنفقها على الجند . وجلس السلطان
للتفرقة على الجند ، فأنتق على جماعة من الجند
مائة ، وعلى جماعة منهم خمسين دينارا ، وعلى
جماعة منهم خمسة وعشرين دينارا ، وعلى جماعة
عشرة دنانير ... وهو أول من شح في نفقة البيعة
وميز الجند بعضا على بعض ، فكلمه بعض الأمراء
في ذلك فأجاب بأن الأمير تمرغا الدوادر رتب
ذلك في قوائمه في دولة المنصور ، وقد مضى ذلك
على هذا الحكم ، فما تنبغى الزيادة على ذلك
والخزائن مشحونة من المال ، وإن هذا القدر
ما تحصل الا من المصادرات من ناظر الخاص يوسف
وزين الدين الاستادار وغير ذلك من المباشرين .
وهذا أول تصرفات اينال في أحوال أمور المملكة
في الولاية والعزل .

وفيه توفي جقمق اليشبكي الخاصكى أحد
معلمي الرمح ، وكان ترشح أمره الى نيابة القلعة
بمصر . وكان شجاعا مقداما في الحرب ، جرح في
هذه الواقعة واستمر ملازما للفراش حتى مات .

وتوفي الشيخ على الرفاعي شيخ المدرسة الأشرفية
— أشرفية برسباي — التي بالصحراء وتوفي
شمس الدين الأبح كاتب الممالك ، وتوفي الأمير
أرنبغا اليونسي الناصري الذي تقرر في مقدمة
الألف . وتوفي جانبك الوالي الزردكاش الكبير
وكان من مماليك يشبك الجكمي ، فلما مات خلع
السلطان على نور كار الحاجب الثاني ، وقرر في
الزردكاشية الكبرى عوضا عن جانبك الوالي ،
وقرر في الحجوية الثانية سام الحسنى . وقد
قرر السلطان جماعة كثيرة من الأشرفية البرسيهية
في عدة وظائف سنية ، وقرر منهم جماعة كثيرة
رءوس نوب حتى بلغ عدتهم في أيام دولته فوق
الخمس والعشرين أميرا رأس نوبة ، وقرر عدة
دوادارية فوق عشرة أنفار ، وعدة سقاة وبوابين ،
وفرق الاقطاعات على غالب الممالك الأشرفية .
وقبض على جماعة كثيرة من مماليك الظاهر ،
ونفى منهم جماعة من أعيانهم الى بلاد الشام ،
ونفى منهم جماعة الى الوجه القبلى نحو قوص
فاستقامت أموره في السلطنة ، وثبتت قواعد
دولته ، واستمر في السلطنة الى أن مات على
فراشه كما سيأتى ذكر ذلك .

وفي ربيع الآخر قدم جانم الأشرفي الذي كان
أمير آخور كبير ونفى الى صفد ، وحضر جاني بك
قلقسير الأشرفي الذي كان نفى الى طرابلس فحضر
من غير اذن ، فأنعى عليه السلطان بامرية عشرة .
وفيه حملت نفقات الأمراء اليهم على جاري
العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من
مماليك القاضي عبد الباسط يقال له لبان ، فوسطه
— ومعه اثنان من أصحابه — وسبب ذلك أنهم كانوا
يحضرون عندهم بنات الحظ ، فاذا بتن عندهم
يقتلونهن ويأخذون ما عليهن من القماش . ففعلوا

ذلك غير مرة حتى غمز عليهم فأشهروهم في القاهرة
وقدامهم أقفاص حمالين فيها عظام الأموات التي
كانوا يقتلون منها النساء ، وكان لهم يوم مشهود .
وفيه قرر في قضاء الشافعية بحلب القاضي تاج
الدين عبد الوهاب وصرف عنها الزهري .

وفيه عقد السلطان لولده المقر الشهابي أحمد
على بنت الأمير دولاب باي الدوادار الكبير .
وفي جمادى الأولى توفي الشيخ سراج الدين
عمر التبانى الحنفى . وكان عارفا بفن علم الرمل ،
وله في ذلك يد طائلة ١ ، وكان من خواص المؤيد
شيخ ، وكان رئيسا حشما وله شهرة زائدة .

وفيه قبض السلطان على قراجا الخازندار ،
وكان من المقدمين الألوف ، ورسم بإخراجه الى
القدس بطلا ، ولم يكن له ذنب غير أنه أخذوا
منه التقدمة وقرروا فيها جانم الأشرفى .
وفيه قرىء تقليد السلطان بالقصر على العادة ،
وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، فلما انتهى
المجلس خلع السلطان على الخليفة والقضاة ونزلوا
الى بيوتهم .

وفيه توفي قاضى القضاة الحنبلى بدر الدين
عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم
البغدادى ، وكان عالما فاضلا معظما عند الناس
وأرباب الدولة وله حرمة وافرة ، ومولده سنة
احدى وثمانمائة . وكان أعور باحدى عينيه ولكنه
كان من أعيان علماء الحنابلة من أهل الفضل .

وقد قال فيه بعض الشعراء يداعبه :

ورب أعمى قال فى مجلس

يا قوم ما أصعب فقد البصر

أجابه الأعور من خلفه

عندى من دعواك نصف الخبر

فلما خلع السلطان على الشيخ عز الدين الكنانى

(١) تامل ١

ابن قاضى القضاة برهان الدين ، ابن قاضى القضاة
مجد الدين بن نصر الله ، وقرر فى قضاء الحنابلة بمصر
عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين البغدادى
بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سونجبغا اليوسى ،
وتغرى بردى القلاوى ، وكان كاشف الوجه القبلى ،
وكان قرر فى الوزارة فى أواخر دولة الظاهر جقمق .
أخذ الوزارة عن أمين الدين بن الهيصم ، وكان
فرج بن النحال ناظر الدولة يومئذ ، وكان أصله
من مماليك الظاهر جقمق ، فتوجه سونجبغا للقبض
عليه فتخافقا وهما على الخيل ، فقتل كل منهما
صاحبه بالخناجر ، فماتا معا فى يوم واحد . وكان
سونجبغا من مماليك الناصر فرج بن برقوق ، وكان
من جملة أمراء الطبلخانات ، وسافر أمير الحاج
غير مرة ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على برسباى المؤيدى باقطاع
تغرى بردى القلاوى ، وقرر بلباى الاينالى فى
امرية سونجبغا .

وفيه توفي الشيخ محب الدين أبو القاسم محمد
النويرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ،
وكان ذكر للقضاء غير ما مرة ولم يشم له ذلك .
ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيه قرر فى تقديمه المماليك الطواشى لأول
الرومى الأشرفى وصرف عنها مرجان العادلى
وفيه قرر فى كشف الوجه القبلى قراجا العمري
عوضا عن القلاوى .

وفيه توفي الشيخ عز الدين التكرورى المالكى
وكان عالما فاضلا أديبا بارعا ، وكان له خط مجيد
وشعر رقيق . وكان مولده سنة احدى وستين
وسبعمائة .

وفيه قدم القاضى محب الدين بن الشحنة الى
القاهرة من غير طلب ، فأراد السلطان أن يرده الى

حلب ، فأوعد بمال ، فأذن له بالدخول الى مصر
فدخل على كره من الجمالى يوسف ناظر الخاص .
وفيه توفى الأمير قانصوه النوروزى ، وكان من
أعيان الرماة بالنشاب ، مشهورا بالفروسية بين
الأتراك .

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير دولات باى
المحمودى المؤيدى ، أمير دوا دار كبير كان . وكان
أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان حجج فى تلك
السنة . فلما عاد قبض عليه الملك المنصور وبعث
به الى السجن بئر الاسكندرية . فلما تسلطن
الأشرف اينال رسم بالافراج عنه ، فحضر الى
القاهرة وقرر فى مقدمة ألف ، فأقام مدة يسيرة
وتوفى . وكان أميرا جليلا عارفا بأحوال المملكة ،
سيوسا فى أفعاله . ومات وله من العمر نحو ستين
سنة . وكان منهمكا فى لذات نفسه ، يميل الى
شرب الراح وحب الملاح . وهو والد سيدى
عمر . وكان لا بأس به .

ولما مات قرر فى تقدمته خير بك المؤيدى
المعروف بالأجروود ، وقرر قايتباى المحمودى فى
تقدمة ألف بدمشق ، وهى مقدمة قانصوه
النوروزى .

وفيه خرجت تجريدة الى البحيرة بسبب فساد
العربان ، وكان باش العسكر طوخ بانى بازق أمير
مجلس .

وفى رجب رسم السلطان بدوران المحمل ونودى
فى القاهرة بالزينة — وكان له مدة وهو بطل —
فساقوا الرماحة فى تلك السنة . وكان جاني بك
الظريف هو باش الرماحة .

وفيه قرر القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر
فى نظر الاصطبل ، وقرر القاضى محب الدين بن

الشحنة باستمراره فى قضاء حلب وتوجه الى
حلب .

وفيه تزوج الأمير جاني بك الظريف بنت الملك
الظاهر جقمق ، وهى أخت زوجة الأمير أربك بن
ططخ .

وفيه جاءت الأخبار بقتل قشم المحمودى
الناصرى كاشف البحيرة ، قتله عربان البحيرة
غدرًا . فلما قتل قشم قرر عوضه فى كشف البحيرة
حسن الدكرى .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى ثالث
عشرى مسرى ، فنزل لكسره المقر الشهابى أحمد
ابن السلطان ، وكان له يوم مشهود ، وهو أول
فتحة للسد .

وفى شعبان كانت وليمة عرس خوند فاطمة بنت
السلطان ، على الأمير يونس البواب أمير دوا دار
كبير ، وكان مهما حافلا بالقلعة وأقام ثلاثة أيام
متوالية ، ثم نزلت فى محفة الى دار زوجها وكانت
ليلة حافلة عند نزولها من القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد يبعوت
ابن صفر خجا المؤيدى المعروف بالأعرج ، وكان
أميرا جليلا ، ولى نيابة حماه ونيابة صفد ثم سجن
ثم عاد الى صفد ومات بها .

وفيه ثارت فتنة كبيرة ، وركب المماليك وطلعوا
الى الرملة واضطربت الأحوال ، وسبب ذلك أن
المماليك طلبوا من السلطان نفقة البيعة ، وقالوا
ان التى قد أنفقها السلطان انما هى نفقة الملك
المنصور ونحن نطلب منك نفقة ثانية ، فبعث
يعتذر اليهم ويقول لهم ان الخزائن خالية من
المال ، وهذه النفقة من المصادرات لجماعة من
المباشرين ... فسكنت الفتنة قليلا ، وكانت هذه
تعلية من المماليك السيفية .

وفي رمضان جاءت الأخبار بوفاة جفوس
الناصري نائب بيروت .

وفيه اختفى صاحب أمين الدين بن الهيصم .
فلما اختفى خلع السلطان على سعد الدين فرج بن
النحال كاتب الممالك وقرره في الوزارة عوضا عن
ابن الهيصم ، وكان عين للوزارة ناظر الخاص
يوسف ، فاستغنى من ذلك ، فقرر بها سعد الدين
فرج ، وقرر عوضه في كتابة الممالك ابن عمه
عبد الرحمن . وفيه خلع السلطان على اياس الطويل
وقرره في نيابة صفد عوضا عن يبعوت الناصري .
وكان اياس الطويل أتابك العساكر بطرابلس ،
وكان خشداش السلطان . وقرر في أتابكية
طرابلس حطط الناصري ، وكان من العشراوات
بضرابلس ، وقرر في امرية حطط جاني بك
المحمودي المؤيدي وكان منفيا بطرابلس .

وفيه توجه القاضي عبد الكافي بن الذهبي كاتب
السرد دمشق ، وكان من أعيان الدماشقة ، حسن
الخط والعبارة .

وفي شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب
مرتين ، فلهج الكثير من الناس بزوال السلطان
فلم يصح ذلك .

وفيه قرر جاني بك في نيابة جدة على عادته .
وفيه خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب
المحمل جاني بك الظريف ، وأمير ركب الأول
عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان لهما يوم
مشهود .

وفيه اختفى زين الدين الاستادار . وكان
الأشرف اينال ، لما استغنى منها جاني بك نائب
جدة ، خلع السلطان على زين الدين وولاه
الاستادارية على كره منه . فلما اختفى خلع
السلطان على العلائي على بن محمد الاهناسي ،

وكان برد دار بالمفرد عند زين الدين الاستادار ،
ثم كان استادارا عند المقر الشهابي أحمد بن الملك
الأشرف اينال . فلما غيب زين الدين سعى في
الاستادارية الكبرى ، فخلع عليه السلطان وولاه
الاستادارية عوضا عن زين الدين ، وهذه أول
عظمة العلائي على بن الاهناسي .

وفيه وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان
يخبر السلطان بفتح القسطنطينية العظمى ، وقد
صنع المكاييد في فتحها ، وكان الفتح في يوم
الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من هذه
السنة . فلما بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ،
ونودي في القاهرة بالزينة . ثم ان السلطان عين
برسباي أمير آخور ثاني رسولا الى ابن عثمان
يهنئه بهذا الفتح العظيم ، فخرج برسباي وتوجه
الى بلاد ابن عثمان .

وفي ذي القعدة لبس السلطان الصوف في
سادس هاتور القبطي ، وقد عجل السلطان
بلبسه .

وفيه خلع السلطان على محب الدين بن الشحنة
وقرره في كتابة السر بمصر ، وصرف عنها محب
الدين بن الأشقر ، وهذا أول عظمة ابن الشحنة
بمصر . وكان قرر في قضاء الحنفية بحلب ،
فتكاسل عن التوجه الى حلب ، وسعى في كتابة
السر حتى قرر بها .

وفيه خرج المقر الشهابي أحمد ابن السلطان الى
الرماية وصحبته خشقدم أمير سلاح وبرسباي
البجاسي فلما عاد زينت القاهرة وكان له يوم
مشهود .

وفيه توفي الشيخ الصالح المعتقد سيدي
درويش الرومي الاقصرائي نزيل الخائكة ، وكان
من الصالحين ، وظهرت له كرامات خارقة .
وفيه توفي القاضي ضياء الدين بن النفيسي

الشافعى الحلبي كاتب السر بحلب ، وكان من
أعيان الناس الرؤساء بحلب .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أصيل في نظر
الجوالى عوضا عن شرف الدين الأنصارى .

وفيه طلع شخص الى السلطان وأخبره بأن في
زيادة جامع الحاكم صندوقا من البلور فيه أوراق
تدل على خبيثة في الجامع من أعظم الخبايا ، فأمر
السلطان القاضي ناظر الخاص يوسف أن يتوجه
الى هناك ، فتوجه وحضر قاضى القضاة علم الدين
الباغينى ، واجتمع الجهم الغفير من الناس وحفروا
ذلك المكان الى أن كاد ينبع الماء من أرضه فلم
يجدوا فيه شيئا ، وانفض ذلك الجمع من غير
طائل ، ولم يظفروا بشيء مما قالوه .

وفيه قبض السلطان على المحتسب على العجمى
وصادره وقرر عليه مالا وأقام في الترسيم عند
الزمام حتى يورد المال ، وقرر عوضه في الحسبة
عليا بن أحمد الكاشف المعروف بابن ارم .

وفي ذى الحجة قرر في نيابة اسكندرية جاني بك
النوروزى نائب بعلبك عوضا عن يونس العلانى ،
وقدم يونس العلانى الى القاهرة وقرر في امرية
طبلخاناه .

وفيه توفي حطط الناصرى ، وكان ولى نيابة
غزة وأتابكية طرابلس ، وكان لا بأس به .
وفيه جاءت الأخبار بأن قد ظهر شخص يقال له
ابن الفلاح المشعشع وقد حصل منه غاية الفساد ،
وقتل من الناس ما لا يحصى ، ونهب الركب
العراقى . وقد أعيا أمره نائب الشام ، فانزعج
السلطان لهذا الخبر .

وفيه ظهر زين الدين الاستادار ، وطلع الى
القلعة وقابل السلطان ، فأمره بملازمة داره وألا
يجتمع بأحد من الناس .

سنة ثمان وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ م) :

في المحرم قرر في كتابة السر بدمشق الحافظ
قطب الدين الخضيرى عوضا عن صلاح الدين بن
السابق ، وهذه أول ولاية الخضيرى لهذه الوظيفة .
ثم بعد مدة جمع بين قضاء الشافعية بدمشق وكتابة
سرهما .

وفيه قرر أقبردى الظاهرى الساقى في أتابكية
حلب عوضا عن على باى العجمى ، وقرر في نيابة
حلب عوضا عن أقبردى قاسم بن القشاشى .

وفيه وصل قاصد على باى الحمزاوى نائب
حلب وعلى يده تقدمه حافلة الى السلطان ، وكان
قد أشيع عنه العصيان والمخامرة ، فبطل ذلك .

وفيه خلع السلطان على الشيخ محيى الدين
الكافيجى وقرر في مشيخة الخانقاه الشيخونية
عوضا عن العلانى كمال الدين بن الهمام الحنفى
بحكم رغبته عنها ومجاورته بسكة المشرفة .

وفي صفر رسم السلطان بنفى زين الدين
الاستادار الى القدس وقيم به . فلما خرج الى
سبيل ابن قايمار بعث السلطان اليه من فتشه فلم
يجد معه شيئا غير ثلثمائة دينار وبعض فضة ، وقد
كان وشى به عند السلطان بأن معه مالا ، ثم رسم
بإعادته الى القاهرة ، وطلع الى القلعة فأدخلوه
البحرة ، وأحضر اليه السلطان في يومه المعاصر
وعصره فلم يقر بشيء من المال ، فأجاب بأن يبيع
أوقافه ويرضى السلطان ، فتكلم ناظر الخاص
يوسف في أمره وأحضره بين يدى السلطان وهو
محمول بين أربعة . وقيل ان السلطان لم يعصره في
هذه المرة بل ضربه في الدهيشة فحوا من خمسمائة
عصا ، فلما حضر بين يديه تكلم له تمراز الدوادار
الثانى فخلع عليه السلطان وأعادته الى الاستادارية

وصرف عنها عليا بن الأهناسى . ثم ان السلطان خلع
على زين الدين وقرره كاشف الكشاف بالوجهين
القبلى والبحرى ، مضافا الى الاستادارية ، فراج
أمره قليلا .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن أبى الخير بن
النحاس من السجن وأن يقيم بطرابلس بطالا .

وفى ربيع الأول قرر حنزة بن البشيرى فى نظر
الدولة عوضا عن التاج الخطيرى .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو
الصحراء بسبب تربته التى أنشأها هناك ، فلما
عاد شق من القاهرة وصعد الى القلعة — وهذا
أول ركوبه فى سلطنته — وكان له يوم مشهود .
وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ،
وكان حافلا .

وفيه اتتت عمارة جامع برد بك صهر السلطان
الذى أنشأه بخط قناطر السباع المطل على الخليج .

وفى ربيع الآخر توفى الناصرى محمد بن المخلطة .
وكان فاضلا مالكى المذهب ... ولى نظر
البيارستان ، وكان محمود السيرة .

وفيه قدم جلبان نائب الشام على السلطان ،
وكان أشيع عنه العصيان .

وفيه توفى تقي الدين الأذرعى الشافعى ، وكان
علما فاضلا ، نائبا فى الحكم بدمشق ، وكان لا بأس
به .

وفى جمادى الأولى عزل تراز عن الدوادارية
الثانية ، وكان ذلك من تلقاء نفسه .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة سيدى
خليل ابن الملك الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا
خيرا رئيسا حشما ، ومولده سنة أربع عشرة

وثمانمائة . فلما مات رسم السلطان بنقل جثته الى
القاهرة ، فنقل ودفن فى تربة جده الظاهر برقوق ،
وأظهرت عليه أخته خوند شقرا غاية الحزن ، وعملت
له نعيًا بالمغاني تعزف بالطارات نحو سبعة أيام
حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه قرر فى الوزارة صاحب أمين الدين بن
الهيصم على عادته ، وصرف عنها سعد الدين قرج
ابن النحال .

وفيه طلعت مقدمة جلبان نائب الشام الى
السلطان ، وكانت مقدمة حافلة ، ومثلها للمقر
الشهابى أحمد ، ثم بعد أيام أضافه السلطان وخلع
عليه ورسم له بالعود الى الشام على عادته .

وفيه خلع السلطان على الأمير برد بك صهره ،
وكان من أعيان مماليكه وقرره فى الدوادارية
الثانية عوضا عن تراز الأشرفى ، ورسم الى تراز
أن يتوجه الى القدس بطالا . وكان تراز رجلا
أحق سبىء الخلق غير محبب للناس .

وفى جمادى الآخرة توفى قاضى ثغر اسكندرية
شمس الدين محمد بن عامر المالكى ، وكان من
الأفاضل فى مذهبه .

وفيه قرر قانى باى الموساوى فى نيابة ملطية ،
وقرر فى نيابة البيرة الناصرى محمد والى الحجر
عوضا عن قانى باى الموساوى .

وفيه خلع على القاضى تاج الدين بن المقسى
وقرر فى كتابة الممالك عوضا عن عبد الرحمن بن
النحال ابن عم صاحب سعد الدين فرج .

وفيه خرجت تجريدة الى نحو البحيرة ، وكان
باش المسكر جانم الأشرفى وبرسباى البجاسى
وجماعة من الجند ، وخرجوا لأجل عرب البيد .

وفيه عزل محب الدين بن الشحنة عن كناية
السر ، وأعيد اليها محب الدين بن الأشقر .

وفي رجب أدير المحمل على العادة .

وفيه سافر الأمير برد بك صهر السلطان ،
والقاضي شرف الدين الأنصاري ، وتوجها الى
القدس . وسبب ذلك أن السلطان صنع كسوة الى
ضريح سيدنا الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة
والسلام . وكان لخروجهما يوم مشهود .
وفيه توفي جاني بك مملوك القاضي عبد الباسط
الذي كان ولي الاستادارية في أيام الأشرف
برسبای ، وكان لا بأس به .

وفيه أعيد الشيخ على العجمي الى الحسبة ،
وصرف عنها عبد العزيز بن محمد الصغير .
وفيه قدم برسبای الذي توجه قاصدا الى محمد
ابن عثمان ، وخلع عليه .

وفي شعبان، عرض السلطان جماعة من العسكر،
وقطع جوامك أولاد الناس ممن تجدد في أيام
الظاهر جقمق ، وقد انشحت الديوان من كسوة
العسكر وشكا الاستادار من ذلك . ثم انه بعد
ذلك شفع فيهم الأمير يونس الدوادار الكبير
فأبقاهم على حالهم ، ورد اليهم جوامكهم التي
قطعت عنهم ، والله الحمد .

وفيه سمر السلطان شخصا من العربان يقال له
الفضل — وقد كان مشتهرا بالشجاعة وقتل
النفس — فاشهره في القاهرة هو وأولاد عمه ثم
سلخوهم وبعثوا بهم الى بلاد الشرقية ، وكانوا من
المفسدين .

وفيه توفي قاضي القضاة الحنفية بمكة المشرفة
— وهو رضى الدين أبو حامد بن الضياء — وكان
من أعبان العلماء الحنفية بمكة وله نظم جيد ،
ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

وفيه ، في ثالث عشر مسرى ، كان وفاء النيل

المبارك . ونزل المقر الشهابي أحمد ابن السلطان
وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفي رمضان جاءت الأخبار بوفاة صاحب
الأبلستين — وهو سليمان بن محمد بن قراجا بن
دلغادر التركماني — وكان من خيار التراكمة ، لم
تتحرك في أيامه فتنة ، وكان مثقلا بالشحم جدا .
وفيه قدم جان بك نائب جدة من الحجاز ، فخلع
عليه السلطان خلعة سنية .

وفي شوال وصل ركب من المغرب من عند صاحب
تونس ، وصحبته هدية حافلة ، وخرج صحبة
الحاج الى مكة .

وفيه قرر في الاستادارية الناصري محمد بن أبي
الفرج نقيب الجيش ، وقرر سعد الدين فرج بن
النحال في الوزارة عوضا عن أمين الدين ابن الهيصم
بحكم اختفائه ، ثم أعاد كتابة المماليك الى سعد
الدين فرج ، وصرف عنها تاج الدين بن المقسى ،
فصار سعد الدين فرج بعده معه الوزارة وكتابة
المماليك .

وفي ذى القعدة تغير خاطر السلطان على زين
الدين الاستادار وضربه ضربا مبرحا ، وتسلمه
الجمالى يوسف ناظر الخاص على مال يورده .

وفيه جاءت الأخبار بأن أصلان بن سليمان بن
دلغادر تملك الأبلستين عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

وفي ذى الحجة استقر تقى الدين ابن نصر الله
في نظر الدولة ، وكانت شاغرة مدة طويلة .

وفيه توفي الناصري محمد الصغير معلم الشباب ،
وكان أستاذا في هذا الفن ، وقد جاوز الثمانين

سنة من العمر ، وهو والد عبد العزيز الذى ولى الحبة .

وفيه ثارت جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى بيت ابن أبى الفرج الاستادار على حين غفلة ونهبوا ما فيه من آخره ، واختفى هو ثم طلع الى السلطان واستغنى من الاستادارية فأعفاه السلطان من ذلك ، وقرر فيها قاسم الكاشف ، وبقي ابن أبى الفرج فى نقابة الجيش على عادته .

وفيه قدم نجاب ببشارة الحاج وأخبر بأن المبشر قد عوقه العربان فى الطريق ، فلم يحضر أحد من الجند بالبشارة على العادة .

سنة تسع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ / ١٤٥٥ م) :

فيها ، فى المحرم ، قدم قاصد من عند الأمير ابراهيم بن قرمان أمير التركمان وعلى يده مكاتبة مفسونها أنه أرسل يشكو فيها من ملك الروم محمد بن عثمان فما اكرث السلطان لذلك ، ثم انه أرسل اليه بجواب هين ، وما أكرم قاصده ... فمضى غير راض . وكان هذا سببا لعصيان ابن قرمان كما يأتى الكلام على ذلك .

وفيه تغير ماء النيل المبارك تغيرا فاحشا ، وغلبت عليه الخضرة جدا حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه نودى فى القاهرة بخروج المماليك البطالة من القاهرة ، وهدد من تأخر منهم بعد سماع المناداة .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وأخبر بما قاساه من شدة السيول وموت الجمال وقطع الطريق من العربان ، وقد أخذ ركب المغاربة ، وكانت سنة صعبة مهولة ، وقد جاء عليهم السيل فى وادى عفان فاحتل الجمال بأحمالها وقذفها فى البحر الملح .
وفيه توفى الشيخ شرف الدين أبو الفتح محمد

الراعى الشافعى المدنى العثمانى ، وكان من أعيان العلماء الشافعية ، وله سند فى الحديث .

وفيه وقع أمر عجيب ، وهو أن جماعة من مماليك الأمير برد بك — صهر السلطان — ماتوا بالطاعون ، وقد ظهر ذلك بداره فقط . ولم يظهر ذلك بغير بيت برد بك .

وفيه ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفى ثلثمائة وسبعين درهما .

وفى صفر جاءت الأخبار بسوت جلبان نائب الشام . وكان جلبان هذا دينيا خيرا ، وأصله من أتباع الملك المؤيد شيخ . وهو جركسى الجنس ، وقيل غير جركسى . ويقال انه مسلم الأصل ، ومات وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وتولى عدة ولايات ، منها ولاية نيابة حماة ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وقد طالت أيامه فى السعادة . فلما توفى عين السلطان نيابة الشام الى قانى باى الحمزاوى نائب حلب ، وخرج الى تقليده يونس العلائى . ثم ان السلطان خلع على جانم الأشرفى وقرره فى نيابة حلب عوضا عن قانى باى الحمزاوى ، وعين الأمير برد بك الدوادار الثانى صهر السلطان لتقليده ، ثم يعود الى دمشق لضبط موجود جلبان نائب الشام . ثم ان السلطان أنعم على يونس العلائى بتقدمة ألف ، وهى مقدمة جانم الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة حلب .

وفيه توفى يشبك الناصرى رأس نوبة ثانى . فلما مات قرر فى رأس نوبة الثانية سودون قراقاش المؤيدى ، وقرر فى امرية سودون قراقاش مغلباى طاز ، وقرر النوروزى فى امرية عشرة .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان مولدا حافلا .

وفيه حصلت زلزلة خفيفة بمصر ، واستمرت
تعاود الناس أياما .

وفيه وصلت مقدمة من عند الملك أصلان صاحب
الأبلستين ، وكانت مقدمة حافلة ما بين خيول وبغال
وجمال بخاتى وقماش حرير وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين نصر الله بن
النجار الكاتب القبطى وقرره فى الوزارة عوضا عن
سعد الدين فرج ، فلم يقيم بها ابن النجار الا قليلا
واختفى .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على سعد الدين
فرج وأعاده الى الوزارة كما كان ، وقرر حمزة بن
الشيرى فى نظر الدولة وصرف ابن كاتب الشعير
عنها .

وفيه توفى الصاحب أمين الدين بن الهيصم ،
وهو ابراهيم بن عبد الغنى بن ابراهيم القبطى ،
وقيل كان ينسب الى المقوقس صاحب مصر ،
وكان حشما رئيسا يسيل الى أهل العلم ، وله اشتغال
بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . ولم يكن
شافعيا ، وولى الوزارة غير ما مرة . وكان مولده
سنة ثمانمائة ، وكان نادرة فى أبناء جنسه ، مسددا
فى أمر الوزارة فى الغلوة التى وقعت فى أيام الظاهر
جقسق لما شرقت البلاد ، وكان لا بأس به فى
المباشرين .

وفيه خرج جانم الأشرفى الذى قرر فى نيابة
حلب ، وكان له يوم مشهود وتجميل عظيم .
وفيه أنزلت خوند زينب الخاصكية زوجة
السلطان الى بولاق ، فأقامت فى القطينية التى
ببولاق ، وكان قد حصل لها توعك شديد فى
جسدها ، فنزلت لترى البحر حتى يذهب عنها
الوخم ، فنزل اليها السلطان وأعادها . فلما حصل
لها الشفاء أحرقوا فى بولاق حراقة نطفة هائلة

حافلة ، وخرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة ،
وكانت تلك الليلة فى بولاق من الليالى المشهورة .
فلما عوفيت طلعت الى القلعة فى محفة وحولها
الحوندات والستات وأعيان نساء الأمراء
والمباشرين حتى طلعت الى القلعة ، وكان لها مهم
حافل بالقلعة .

وفيه توفى الأمير خاير بك الأجروود المؤيدى
أحد الأمراء المقدمين بمصر . فلما مات أنعم
السلطان بتقدمته على الأمير قائم التاجر بن صفر
خجا المؤيدى ، وهذه أول تقدمته بمصر .

وفى جمادى الأولى تزايد شر المماليك الجلبان ،
وتوجهوا الى بولاق ، ونهبوا شون الأمراء لأجل
الشعير ، فانه كان مشحوتا ، وصاروا ينزلون
الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها
من تحتهم ، وحصل منهم فى حق الناس غاية الضرر
— ولا سيما التجار فى الأسواق — فكان المماليك
يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع ...
واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون كما
يأتى ذكر ذلك .

وفيه توفى الأديب البارع شاعر العصر شمس
الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان النواجى
الشافعى ، ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .
وكان عالما فاضلا ، أدبيا بارعا ، وله شعر جيد .
فمن ذلك قوله من نوع الاكتفاء :

خليلى هذا ربع عزة فاسعيا
اليه وان سالت به أدمعى طوقا (ن)
فجفنى جفا طيب المنام وجفنها
جفانى ، فيالله من شرك الأجفا (ن)

ومثله له :

(١) تقدمت وفاة النواجى فى حوادث سنة ٨٥٧ ، والصواب

ما هنا .

يا ضيف بيت الله نلت المنى
منذ تحصنت بآم القرا (ن)
لب بحج وانتصار وقل
لله ما أسعد هذا القرا (ن)
وله :

فتنت بحسن عواد بديع
مليح الشكل معشوق الشمايل
يحرك عوده فينا بلطف
فيقتلنا بأطراف الأنامل
وقوله ملغزا في اسم سعيد :

ما اسم لعبد ان تزل عينه
يعد في الحال لنا سيذا
عليه فرض الصوم لكنه
إذا مضى الربع له عيدا

ومن مصنفاته البديعة « حلبة الكميت » في
وصف الخمرة وما قيل فيها ، و « تأهيل الغريب »
في الأدبيات المطولة ، و « مراتع الغزلان في وصف
الحسان من الغلمان » ، و « الشفا » وله غير ذلك
من المصنفات الغريبة . ولما مات رثاه الشهاب
المنصوري بقوله :

رحم الله النواجي فقد
فقد الدنيا وأبقى ما روى
وانطوى في شقة البين فيا
حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

وفي جمادى الآخرة توفي الشيخ الصالح سيدى
محمد المغربي المجذوب رحمة الله عليه . ولما مات
أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به .
وفيه خلع السلطان على عبد العزيز بن محمد
الصغير ، وقرر في الحسبة مضافا لما في يده من
نقابة الجيش ، وكان قد تغير خاطر السلطان على

الشيخ على العجمى وصرفه من الحسبة و
عبد العزيز بن محمد الصغير .
وفيه تغير خاطر السلطان على فخر الد
السكر والليمون ناظر ديوان المفرد ، وضر
يديه بسبب تأخر جوامك الجند ، وكان
في غاية الشحنة .

وفيه توفي القاضى صلاح الدين خليل
السابق ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، ولى
مر حلب وكتابة سر دمشق ونظر جيشهم
ذلك من الوظائف ، وكان حسن السيرة .

وفيه ثارت فتنة عظيمة . وسبب ذلك أن
من المماليك الظاهرية استمالوا بعض جلب
السلطان . وكان السلطان عين تجريدة قبل
للبحيرة ، وكتب غالب الجند فيها من المما
الظاهرية ، وعين الباش عليهم الأمير خشقد
سلاح . فلما جرى ذلك وقفوا في الرميطة
نزل الأمير يونس الدوادار الكبير ، ف
بالدبايس ، وجرح في ذلك اليوم شخصه
المماليك وقطعت أصابعه . ثم ان الأمير
الدوادار تحيل في صعوده الى القلعة
السلطان بذلك ، فطلب السلطان جاني بك .
ومرجان مقدم المماليك ، وبعث بهما لكش
الأخبار ، وما سبب وثوب المماليك على
يونس الدوادار . ثم ان نوكار الزردكاش
الى المماليك الجلبان الذين وثبوا مع طائفة
المماليك الظاهرية ليستميلهم عن ذلك ويسترض
فعاد الجواب الأول بأن يسلمهم الأمير
الدوادار ، وقد صمموا على ذلك ، وكانت
الحركة في سلخ جمادى الآخرة .

فلما استهل رجب بدأ السلطان بضرب الأ
قلم يطلع غالب الأمراء الى القلعة . ثم ان الم

أصبحوا لابسين آلة الحرب ، ووقفوا بسوق الخيل . وقد اشتد الأمر ، ومنعوا الأمراء من الصعود الى القلعة ، فبعث السلطان يقول للخليفة : « غيب من بيتك حتى تسكن هذه الفتنة » . فلم يغيب من بيته ، فتوجه اليه المماليك وأركبوه من بيته وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدره البقر ، فأقام به ، واشتد القتال . فلما بلغ السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطاني على رأسه ، ودقت الكتوسات حربيا ، فوقع في ذلك اليوم قتال هين ... فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انفض ذلك الجمع وفر المماليك شيئا بعد شيء ، فلما رأى ذلك المماليك الظاهرية تسحبوا من الرميلة — وقد اشتد الحر — وتوجه كل أحد من المماليك الى داره . وكان رأس الفتنة من المماليك الظاهر يشبك بن مهدي ، وكان يومئذ جنديا من جملة المماليك السلطانية . فلما انفض الجمع قام السلطان من المقعد وطلع الى القلعة ، وقام الخليفة أيضا وتوجه الى داره ، وخمدت هذه الفتنة ، وكان الخليفة يظن أن هذه الحركة يحصل له فيها نفع كما حصل له في حركة الملك المنصور مع الأشرف اينال . فانه لما تسلطن أنعم على الخليفة حمزة باقطاع ثقل ومال وخلع وخيول وغير ذلك ، فظن الخليفة أن هذه الحركة مثل الأولى ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ... وكهم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل في المعنى :

إذا ما أراد الله خيرا لعبده

ينله ، وما للعبد ما يتخير

وقد يهلك الانسان من باب أمنه

وينجو ، بعون الله ، من حيث يحذر

وكان الخليفة قام في سلطنة الأشرف اينال قياما عظيما ، وخلع الملك المنصور قبل أن ينكسر ، وأمر

بحرق سبيل المؤمنين حتى أخذوا الميدان ... فظن الخليفة أن تكون هذه الفتنة يحصل له فيها مثل تلك المرة ، فلما توجه الخليفة الى بيته أرسل السلطان خلفه وقد بقى له ذنب ، اذ أرسل السلطان يقول له : « غيب من بيتك حتى تخمد هذه الفتنة » ... فاستتر في بيته حتى أركبوه المماليك برضاه وجاء الى البيت الكبير كما تقدم ذكر ذلك . فلما طلبه السلطان وحضر بين يديه ، وبخه بالكلام فلم ينطق بالجواب وأمسك لسانه عن ذلك ، وكان به بعض صمم فكان كما قيل :

إذا كان وجه العذر ليس بواضح

فان اطراح العذر خير من العذر

ثم ان السلطان أمر بادخاله الى البحرة ، فدخل اليها وأقام بها أياما وهو في الترسيم . ثم ان السلطان رسم باخراجه الى السجن بثغر الاسكندرية ، فنزل من القلعة بعد المغرب في صابع رجب ، وصحبته جاني بك الترماني حاجب الحجاب ، فأوصله الى البحر حتى نزل في الحراقة وسار الى الاسكندرية ، فسجن بها الى أن مات في أواخر دولته ، ودفن بثغر الاسكندرية على شقيقه العباس الذى ولى السلطنة بعد قتله الناصر فرج بن برقوق ، فكانت مدة الخليفة حمزة في الخلافة أربع سنين وستة أشهر وأياما . وكان رئيسا حشما كفئا للخلافة ، وكان له حرمة وافرة ، وشهامة زائدة ، بايع الملك المنصور عثمان والأشرف اينال .

ومن النكت الغريبة اللطيفة ، قيل لما أرادوا خلع الخليفة حمزة من الخلافة قال : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة ، وخلعت السلطان اينال من السلطنة » . فاضطرب المجلس لذلك ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني : « ان خلعه للسلطان لا يصح وقد بدأ بخلع نفسه أولا ثم

سمى بخلع السلطان وهو غير مولى للخلافة ... فلم يصح منه عزله للسلطان ، فعدت هذه من النوادر . فلما عزل الخليفة حمزة من الخلافة تكلموا فيمن يلي بعده الخلافة ، فوقع الاتفاق على ولاية أخيه الجاسي يوسف بن محمد المتوكل .

خلافة المستنجد بالله أبي المحاسن

هو المستنجد بالله ، أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله . وهو الثالث عشر من خلفاء بني العباس بسمر . بويغ بالخلافة بعد خلع أخيه حمزة في يوم الخميس ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين وثمانمائة . وكانت صفة ولايته أن عمل موكب بالتصحر ، وطلع القضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقيني الشافعي ، وسعد الدين الحسنى ، وولى الدين السنباطى المالكي ، وعز الدين الحنبلى . فلما تكامل المجلس سكت القضاة ساعة لم يتكلم منهم أحد في شيء ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني : « نقل بعض علماء مذهبي أن السلطان له أن يعزل الخليفة ويولى غيره ... فهذا كان حاصل المسألة في خلع الخليفة حمزة وولاية أخيه الجمالى يوسف » ... فعند ذلك قام القاضي كاتب السر محب الدين بن الأشقر ، وقال في المجلس : « نشهد عليك — يا مولانا السلطان — أنك عزلت الخليفة حمزة من الخلافة ووليت أخاه الجمالى يوسف » ... فقال : « نعم » ... فأحضروا له التشريف ، وأفيض عليه ، وتلقب بالمستنجد بالله ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، والقضاة الأربعة قدامه ، وأعيان الناس ، حتى أوصلوه الى بيته وهو في غاية العظمة ، وقد طالت أيامه في الخلافة جدا .

ثم إن السلطان قبض على جماعة من المماليك الظاهرية ، ممن كانوا سببا لاقامة هذه الفتنة ،

وسجنهم بالبرج ، واختفى منهم جماعة كثيرة ، ونفى منهم جماعة الى البلاد الشامية . وفيه قدم الأمير برد بك — صهر السلطان — وكان قد توجه الى القدس كما تقدم . فلما حضر أتى صحبته زين الدين الاستادار ، وكان السلطان نفاه الى القدس . فلما عاد خلع عليه السلطان وأعادته الى الاستادارية ، وصرف عنها قاسم الكاشف .

وفيه أدير الحمل على العادة ، وساق الرماحة أحسن سوق .

وفيه توفيت خوند زاده بنت آورخان بن محمد ابن عثمان ملك الروم ، وهى زوجة الظاهر جقمق ، وتزوجت أيضا بالأشرف برسباى ، وماتت في عصمة برسباى الجاسى حاجب الحجاب .

وفيه قبض السلطان على يشبك النوروزى نائب طرابلس ، وحمل الى قلعة المرقب فسجن بها .

وفي شعبان جاءت الأخبار بوفاة السيد الشريف بركات سلطان مكة . وهو بركات بن عجلان بن رميثة الحسنى ، وكان من خير أمراء مكة ، ومولده سنة اثنتين وثمانمائة .

وفيه ، في خامس عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

وفيه خلع السلطان على اينال اليشبيكى ، وقرر في نيابة طرابلس عوضا عن يشبك النوروزى ، وقرر في نيابة صنفد جاني بك التاجى عوضا عن اياس الطويل ، وقرر في نيابة غزة خاير بك النوروزى أحد الأمراء بصنفد ، وقرر في نيابة ملطية أقبردى الساقى أتابك العسكر بحلب عوضا عن قايتباى الناصرى ، وقرر في أتابكية حلب

سودون الناصري أتابك طرابلس — وكان هذا كله بتدبير الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطع الجسور وغرق غالب البلدان ، فبعد ما جرى ذلك هبط النيل بسرعة ، وشرق جانب من البلاد ، وارتفع سعر الغلال بسبب ذلك .

وفي رمضان قرر ابن الوجيه فى نظر الجيش بحلب عوضا عن ابن السفاح .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بمكة محب الدين الطبرى ، وصرف عنها أبو السعادات بن ظهيرة ، وقرر فى نظر الحرم الشريف برهان الدين بن ظهيرة الذى عظم أمره فيما بعد وانتهت اليه رياسة مكة .

وفيه قدم جاني بك نائب جدة وسعى الى السيد الشريف محمد بن بركات المتوفى فى امريه مكة عوضا عن أبيه بخمسين ألف دينار ، فولاه السلطان وأقام بها حتى توفي فى صفر سنة ثلاث وتسعمائة وكان من خيار أمراء مكة .

وفي شوال رسم السلطان بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظر الخاص يوسف على السلطان ، فألبسه كامليسة حافلة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل يبيرس الأشرفى .

وفيه تغير خاطر السلطان على نقيب الجيش ابن محمد الصغير وهو عبد العزيز ، فضربه بين يديه ضربا مبرحا ، وأمر بنفيه الى دمياط لأمر أوجب ذلك . ثم ان السلطان خلع على العلائى على بن القيسى وقرره فى نقابة الجيش عوضا عن عبد العزيز ابن محمد الصغير ، وكان السلطان عينها الى خشكلدى الزردكاش ، فوقع الاختيار بعد ذلك على ابن القيسى .

وفي ذى القعدة قرر جمال الدين الباعونى فى قضاء الشافعية بدمشق وصرف عنها سراج الدين الحمصى ، وأمر أن يخرج الى حمص ويقيم بها . وفيه شرع الجمالى ناظر الخاص فى بناء مدرسة بالصحراء ، فجاءت مدرسة حافلة لم يعمر فى الصحراء مثلاً . وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاص يوسف دون مال السلطان ، فقليل له انه صرف عليها اثنى عشر ألف دينار وزيادة على ذلك . وأنشأ زاوية تجاه المدرسة ، وحوشا لدفن جماعة السلطان .

وفي ذى الحجة قرر فى الحسبة الشيخ على العجمى على عادته ، وكان يعرف بيار على .

وفيه توفي العلامة محب الدين محمد بن أحمد ابن أبى يزيد الأقصرائى الحنفى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، وكان امام الأشرف برسباى ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وهو الشيخ أمين الدين الأقصرائى .

وفيه توفي أقبردى الساقى الظاهرى نائب ملطية وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشهاب أحمد الحاضرى الحنفى ، وكان عارفا بالقراءات السبع وتعبير الرؤيا .

وفيه توفي خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه ، وكان مالكى المذهب وله اشتغال بالعلم ويعرف بسنان الأبودرى .

وفيه صلى السلطان صلاة عيد النحر ، وخرج من الجامع مسرعا ، وتوجه الى الحوش ونحر به وخالف العادة ... وسبب ذلك أنه قويت الاشاعات بوقوع فتنة فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان ، فبادر السلطان وتوجه الى الحوش ونحر به فسكن الاضطراب قليلا .

فخلع عليه بالاستمرار ، وخلع على فخر الدين بن
السكر والليمون وقرر في نظر الدولة وكانت
شاغرة .

وفي ربيع الآخر عمر السلطان الريح والحمام
وما بينهما الذي بين القصرين .

وفيه خرج جماعة من الأمراء والجند الى نحو
الجون على العادة لاحتضار الأخشاب .

وفي جمادى الأولى توفي المسند جمال الدين
عبد الله بن محمد بن أحمد التستري ، وكان عالي
السند ، من أهل الفضل والعلم .

وفيه وصل الخوaja جمال الدين عبد الله
القابونى رسولا من عند بن عثمان ملك الروم
محمد ، وعلى يده مكاتبة تتضمن ما فتحه من
الفتوحات السنية ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام .
ولما أراد التوجه الى ابن عثمان عين معه السلطان
قانى باى اليوسفى المهندي وعلى يده هدية من
عند السلطان الى ابن عثمان ، وأخذ قانى بك
اليوسفى في أسباب تعلق السفر الذى عين فيه .

وفي أثناء هذا الشهر ظهر في السماء نجم بذب
طويل جدا ، وكان يظهر من جهة الشرق ، ودام
يطلع نحو من شهرين — وكان من نوادر
الكواكب — فتكلم فيما يدل عليه من الأمر ،
وزاد الكلام بسببه ، ثم اختفى ذلك النجم وأقام
مدة طويلة نحو من ثلاث سنين حتى وقع بمصر
الطاعون ووقع بمصر أيضا الحريق كما سيأتى ذلك
في موضعه .

قال صاحب « مرآة الزمان » ان أول ما ظهر
نجم الذنب عندما قتل قابيل أخاه هابيل ، وظهر
عند وقوع الطوفان ، وعند وقود نار ابراهيم الخليل
عليه السلام ، وظهر عند هلاك قوم عاد وثمود ،

سنة ستين وثمانمائة (١٤٥٥/٥٦ م) :

فيها ، في الحرم ، قرر أقباي الجكمى في نيابة
ملطية عوضا عن أقبردى الساقى ، وقرر في نيابة
طرسوس أقباي السيفى جارقلطو ، عوضا عن
أقباي الجكمى . وتوفي الناصرى محمد بن الحلبي
والى الحجرة .

وفيه وصل الحاج وأخبر بأنه لم يحج في هذه
السنة أحد من العراق خوفا من المشعشع الذى
ظهر منه الفساد ، وقد شاع خبره فيما تقدم .
وكان في تلك السنة الأمير برد بك البجمقدار
أمير الحاج هو والأمير بيبرس الأشرفى ، وكانت
سنة صعبة على الحاج .

وفي صفر ثار المماليك الجلبان على ناظر
الخاص يوسف وضربوه ، وأخذوا عمامته من
فوق رأسه وصار مكشوف الرأس ، ولولا أنه
هرب لقتلوه لا محالة ، وكانت المماليك تزيد
شرهم جدا .

وفيه ثارت الغلمان والعبيد على الوزير ،
ونزلوا من القلعة وتوجهوا الى بيت الوزير وصاروا
ينهبون بعض دكاكين القاهرة ، وخطفوا عمام
الناس ، حتى وصلوا الى دار سعد الدين فرج
فاختفى من داره فنهبوا ما وجدوه في الدار ،
وسبب ذلك انشحات اللحم المقرر للجند .

وفيه خرج يونس العلأى — أحد الأمراء
المتقدمين — الى بر الجيزة لحفظ الخيول التى في
الربيع ، وكانت عربان البيد قد أفسدوا بر الجيزة
وأخذوا خيول الأمراء والجند من مراعيها .

وفي ربيع الأول أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى
قيل أمطرت في قلوب بردا وزن كل بردة خمسون
درهما ، وهلك به بعض مواش وأفسد الزرع .
وفيه ظهر صاحب فرج بعدما كان مختفيا ،

وظهر عند هلاك فرعون ، وظهر عند قتل الامام
عثمان بن عفان ، وظهر عند قتل الامام على كرم
الله وجهه ، وظهر عند قتل جماعة كثيرة من الخلفاء .
وفي الغالب يحدث عند ظهور نجم الذنب حادث
عظيم — وقد جرب ذلك وصح — من فناء وقتل
وفتن ، وخسف وزلازل وغير ذلك .

وفي جمادى الآخرة توفي القاضي الذي
بالاسكندرية شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى
وكان فاضلا ، فى سعة من المال ، وكان تاجرا فى
البهار ، وسعى فى قضاء الاسكندرية على خلاف
ما جرت به العادة من ولاية المالكية ، وقد سعى
بمال حتى تولى ومات وقد جاوز السبعين من العمر .
وفيه قبض السلطان على زين الدين الاستادار
وضربه بين يديه علة قوية بسبب تأخيرهِ للجامكية
ورسم عليه فى طبقة الزمام وهو فى الحديد . ثم
انه خلع على سعد الدين فرج بن النحال ونقله من
الوزارة الى الاستادارية ، وخلع على العلائى على
ابن محمد الاهناسى وقرره فى الوزارة عوضا عن
سعد الدين فرج ، وهذه أول عظمة علاء الدين
على فى الوزارة ، وهو على بن الاهناسى .

وفى رجب كانت نهاية عمارة مدرسة السلطان
التي أنشأها فى الصحراء ، وخطب بها وعمل
السلطان هناك وليمة حافلة ، وحضر بها القضاة
الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، ومد بها
الأسمطة الحافلة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه طلع الأمير يونس الدوادار الكبير الى
القلعة ، وكان مريضا وشفى ، فخلع عليه السلطان
خلعة حافلة ، ونزل الى دواره فى موكب حافل
وقدامه الأمراء وأرباب الدولة من المباشرين
وغيرهم .

وفيه أفرج السلطان عن زين الدين الاستادار

وتسلمه ناظر الخاص يوسف على مال .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساقوا الرماحة
بحضرة قاصد ملك الروم محمد بن عثمان .

وفيه ماتت ملك باى الجركسية سرية الملك
الأشرف برسباى أم ولده سيدى أحمد ، وكان
تزوج بها قرقماس الجلب وماتت معه ، وهو الذى
ربى سيدى أحمد ابن الأشرف برسباى .

وفى شعبان رسم السلطان بنفى زين الدين
الاستادار الى المدينة المشرفة بعد أن أخذ منه
عشرة آلاف دينار ، وتوجه من البحر الى المدينة
الشريفة .

وفيه سافر الخواجا ابن القابونى قاصداً ابن
عثمان ، وخرج صحبته قانى باى اليوسفى
المهمندار . وكان أشيع موت ابن عثمان قبل خروج
القاصد ، ثم جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد شفى
وهو فى قيد الحياة ، فرسم السلطان بدق
الكثوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه توفي الأمير اسباى الجمالى الظاهرى من
ممالك الظاهر جتقى ، وكان ولى الدوادارية
الثانية ثم نفى الى القدس فمات به ، وكان لا بأس
به ، لين الجانب متواضعا ، وكان معروفا وموصوفا
بالشجاعة وبالفروسية .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير ابراهيم بن قرمان
أمير التركمان قد زحف على بلاد السلطان ، وقد
أظهر العصيان ، واستولى على طرسوس وأدرنة
وكولك . فلما سمع السلطان ذلك تشوش لهذا
الخبر ، وعين تجريدة الى ابن قرمان ، وجعل باش
العسكر خشقدم الناصرى أمير سلاح ، ومعه جماعة
من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشروات ، وعين
من الجند نحو من أربعمئة مملوك ، وعين سنقر

قرق شبق الزردكاش بأن يتوجه ، قبل خروج
العسكر ، لكشف الأخبار عن ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك في سادس مسرى .
وفيه نزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان
وفتح السد على العادة .

وفي رمضان تزايد أذى المماليك الجلبان في حق
الناس ، وصاروا ينهبون حواصل البطيخ الصيفى
وسائر البضائع ، حتى امتنعت السوق من البيع ،
وارتفع سعر كل شئ من المأكول وغير ذلك .

وفيه قبض السلطان على عشرة أنفار من
الزغلية وجدوهم يضربون الزغل ، فأمر بتوسطهم
أجمعين .

وفي شوال خرج الحاج من القاهرة على العادة
وكان أمير ركب المحمل قائم التاجر أحد المقدمين
وأمير الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان
السلطان قد رضى عليه وقرره من جملة الحجاب
بالقاهرة .

وفيه ضرب السلطان خاير بك الوالى بين يديه
ضربا مبرحا لأمر أوجب ذلك .

وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص يوسف توعك
في جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياما ثم شفى
بعد ذلك وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان
خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب حافل
وقداهه أرباب الدولة وأعيان الناس ، فزينت له
القاهرة من داره الى القلعة ، وقعدت له جوق
المغانى على الدكاكين ، وتخلقت الناس بالزعران
وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم
مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا جوهر الفرد الذى عن جسسه زال العرض
أجفان من أحبته تحملت عنك المرض

وفي ذى القعدة توفى قانى باى الأعمش الناصرى
نائب القلعة ، فلما مات قرر في نيابة القلعة عوضه
النوروزى سودون ، وأنعم السلطان بامرية قانى
باى الأعمش على ولده الناصر محمد ، وهو أصغر
أولاده ، وكان أمير عشرة .

وفيه قرر في نظر الجوالى القاضى زين الدين
أبو بكر بن مزهر ، وصرف عنها ابن أصيل .

وفي ذى الحجة قدم قاصد جهان شاه ، وصحبته
هدية للسلطان ، وعلى يده مكاتبة تتضمن أنه بعث
يشكو الى السلطان من حسن بك الطويل بأنه
جائر عليه وقد زحف على بلاده ، فأرسل اليه
السلطان الجواب عن ذلك .

وفيه نزل السلطان الى المطعم الذى بالريدانية ،
وألبس الأمراء الصوف ، وشق من القاهرة في
موكب عظيم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى الشيخ برهان الدين الرفاعى الشافعى
وكان من أهل العلم والفضل ، مولده بعد
الثمانين والسبعمئة .

وتوفى أركماس الشيكى ، أحد الأمراء
العشروات ورءوس النوب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن ، وهو
الملك أبو الفتح عمر بن على بن رسول التركمانى ،
وكانت دولة بنى رسول أقامت باليمن نحوا من
مائتين وثلاثين سنة ، وكان سبب تسمية جدهم
برسول أن الخلفاء كانت تبعثه رسولا الى البلاد
الشامية وغيرها من البلاد فسمى رسولا ، ومازال
يرتقى حتى ملك بلاد اليمن وانفرد بها ، ومعرفته
مشهورة في التواريخ القديمة .

سنة احدى وستين وثمانمائة (١٤٥٦/١٤٥٧ م) :

فيها ، في المحرم ، قرر العلائى على بن القيسى في ولاية القاهرة عوضا عن خاير بك القسروى ، وقد تغير خاطر السلطان على خاير بك وضربه وسجنه بالقلعة ، وقرر عليه مالا له صورة ، وخلع على الناصرى محمد بن أبى الفرج ، وقرر في نقابة الجيش عوضا عن على بن القيسى .

وفيه نودى على الدينار بثلاثمائة درهم ، وكان قد زاد سعره حتى بلغ ثلاثمائة وسبعين درهما ، وكان قد كثر الغش فيه وفي الفضة .

وفيه قرر كسباى السمين وثانى بك الصغير ، قرر كل منهما رأس نوبة عصاة .

وفيه جاءت الأخبار بأن سنقر الزردكاش لما وصل الى حلب توجه من هناك الى طرسوس ، فتحارب مع نائبها الذى أقامه ابن قرمان ، فقتله وأرسل رأسه الى السلطان ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام . وقد تقدم أن السلطان أرسل لكشف أخبار ابن قرمان .

وفيه توفى الأمير جرباش الكرى صهر الملك الظاهر چققمق ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وتولى عدة وظائف سنية منها حاجبية الحجاب وامرية مجلس وامرية سلاح ، ولما كبر سنه لزم داره ورتب له ما يكفيه حتى مات وقد تجاوز التسعين سنة من العمر .

وفي صفر ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الجلبان ، وكان السلطان فى الدهيشة ، فلما تزايد الأمر منهم خرج اليهم السلطان وهو ماش من الدهيشة وقد هموا أن يهجموا عليه ، فلما عاينوه رجموه بالحجارة فولى وهو مستعجل حتى وقعت إحدى نعليه من رجله فلم يلتفت اليها ومر حافيا ،

ويقال انه أصابته طوبة من الرجم فى ظهره وانعطب بعض الخاصكية من الرجم فى وجهه ، وكانت حادثة شنيعة قل أن يقع فى الحوادث أشنع منها . فلما دخل السلطان الدهيشة أغلقوا عليه الباب وكان عنده بعض الأمراء . واستمر الحال على ذلك الى العصر ، والأمراء والخاصكية قد تعوقوا بالقلعة ، فترددت الرسل بين السلطان وبين المماليك الجلبان فى هذه الواقعة ، فآل الأمر فيها بأن زادهم ألف درهم فى الكسوة ، فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك ، وزادهم فى الأضحية رأسا من الغنم فى كل سنة ... فسكنت الفتنة قليلا . وقد استطالوا بعد ذلك على الناس ، ووقع منهم أمور شنيعة يطول الأمر فى شرحها ، وعظم أذاهم بالناس جدا ، ووقع منهم أمور ما وقعت من مماليك السلاطين قبلهم قط .

وفيه عقد مجلس بين يدى السلطان ، وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، فلما تكامل المجلس تكلم الجمالى يوسف مع القضاة بسبب غش الفضة فى المعاملة ، وأحضروا نقود الدول القديمة من أيام المؤيد شيخ الى دولة الظاهر چققمق ، فسبكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة دولة الأشرف اينال ، فأمر السلطان بأشهار المناداة فى القاهرة بإبطال المعاملة الحلية والدمشقية ، فوقف حال الناس وأشيع بين الناس أن العامة ترجم الجمالى يوسف ناظر الخاص . واضطربت الأحوال فنودى فى القاهرة بأن كل شئ على حاله فى المعاملة الحلية وغيرها ، ثم نقض ذلك بعد مدة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم من علماء الحجاز يدعى جلال الدين أبو السعادات ابن ظهيرة الشافعى ، وكان علامة ولى قضاء مكة ونظر الحرم والحسبة ، وكان حسن السيرة .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين الحمصى الشافعى

قاضي دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الطواشي عبد اللطيف الرومي المنجكي مقدم المماليك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

وفي ربيع الأول توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السلطان على والده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبة ولدها المقر الشهابى أحمد .

وفي ربيع الآخر أعيد خاير بك القصرى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخذها وفر الى ينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

وفي جمادى الأولى خرجت التجريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير

سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك نحو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانه حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخرج غصبا على كره منه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من مماليك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار الناصرى بحكم وفاته .

وفي رجب طفش جماعة من فرسان العربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هذه اباحة سعدت من أولئك العربان .

وفيه توفي قاضى قضاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفي وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان الساعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخصاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بيك الطويل صاحب ديار بكر - تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه . وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبليخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدواديرية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ

بالخاتناه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصرى - أحد الدواديرية - وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكؤوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقليل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسابقة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القرماني حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى مقدمة جانى بك القرماني أبا يزيد التمرغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

قاضي دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الطواشي عبد اللطيف الرومي المنجكي مقدم الممالك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

وفي ربيع الأول توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السلطان على والده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبة ولدها المقر الشهابى أحمد .

وفي ربيع الآخر أعيد خاير بك القصرى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخذها وفر الى ينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

وفي جمادى الأولى خرجت التجريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشددم أمير

سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن الممالك نحو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانه حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخرج غصبا على كره منه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من ممالك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار الناصرى بحكم وفاته .

وفي رجب طفش جماعة من فرسان العربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هذه اباحة سعدت من أولئك العربان .

وفيه توفي قاضى قضاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفي وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان الساعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بيك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه . وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدواذارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ

بالخاتناه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصرى — أحد الدواذارية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكؤوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقيل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسابقة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى مقدمة جانى بك القرمانى أبا يزيد التمرىغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

وفيه خلع السلطان على القاضي صلاح الدين
المكيى وقرره فى الحسبة .

وفى ذى الحجة ثار المماليك الجلبان بالقلعة ،
ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وذلك بسبب
زيادة رأس غنم فى كل سنة ، فشج السلطان فى
ذلك ، ثم رسم لكل واحد بزيادة رأس غنم فى
الأضحية وخمدت الفتنة قليلا .

وفيه ، فى ثامن عشره ، قدم مبشر الحاج
— وهو دمرداش الطويل — وأخبر بأن الحاج قاسى
عطشة عظيمة فى أثناء الطريق ، ومات من الناس
ما لا يحصى ، وأخبر بسلامة خوند وأولاد السلطان
فضربت البشائر بالقلعة لهذا الخبر .

وفيه توفى أزبك الشسمانى أحد الأمراء بسمر .
وفيه أخرج السلطان مقدمة طوخ بونى بازق
بحكم عجزه عنها ، وكان مريضا ، وقرر فى تقدمته
برسبائى البجاسى . وقرر فى مقدمة برسبائى البجاسى
بيبرس خال الملك العزيز ، وقرر فى امرية مجلس
جرباش المعروف بكرت عوضا عن طوخ بونى بازق
وقرر يونس العللى أمير آخور كبير عوضا عن
جرباش كرت بحكم انتقاله الى امرية مجلس .

سنة اثنين وستين وثمانمائة (١٤٥٧/١٤٥٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، أنعم السلطان على قايتباى
المحمودى بامرية عشرة ، وكان أحد الدوادارية
وقايتباى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وكان
بين تأميره وسلطنته تسع سنين وبعض شهور .

وفيه قرر فى نيابة ملطية تغرى بردى .

وفيه توفى القاضي شهاب الدين السيرجى أحد
نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم
والفضل ، وكان مولده سنة ثمان وسبعين وثمانمائة

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ،
وخرج ابن السلطان فى موكب حافل . وخرجت
والدته خوند زينب فى محفة زركش هى وأولاده
خوند زوجة الأمير برد بك ، وزوجة الأمير يونس
البواب أمير دوادار كبير ، وخرج ولد السلطان
سيدى محمد صحبة أخيه المقر الشهابى أحمد ،
وكان لهم يوم مشهود .

وحج فى تلك السنة جماعة كثيرة من أعيان
المباشرين ، منهم القاضي محب الدين بن الأشقر
كاتب السر ، والقاضى علم الدين شاكى بن الجيعان
وجماعة من أولاده ، والقاضى أبو بكر بن مزهر
ناظر الاصطبل ، وغير ذلك من الأعيان .

وفيه حضر جاني بك نائب جدة ، وحضر صحبته
زين الدين الاستادار ، وقد تقدم أن السلطان نفاه
الى المدينة الشريفة ، ثم رضى عليه وأحضره الى
القاهرة .

وفيه أنعم السلطان على جاني بك الاسماعيلى
— المعروف بكوهية — بامرية عشرة .

وفيه خلع السلطان على برسبائى البجاسى وقرر
فى حجوبية الحجاب عوضا عن جاني بك القرمانى
بحكم وفاته .

وفى ذى القعدة قدم قاصد صاحب بغداد بهدية
للسلطان ومكاتبة أنه كسر الخارجى الذى يقال له
المشعشع ، وقتل غالب عسكره ، وأن الحاج العراقى
تجهز فى تلك السنة بعد ما كان له مدة وهو منقطع
بسبب أمر المشعشع ، فأكرم السلطان ذلك القاصد
وأقام أياما وسافر .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين عمر الوردى
الشافعى ، وكان من أهل العلم .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ووصل ابن السلطان ووالدته واخوته ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل ، ولاقاهم الأمراء وأرباب الدولة من البويب ، ومشيت الأمراء قدام محفة خوند حتى طلعت الى القلعة والأمراء مشاة قدامها من البويب ، ثم طلعت هي وأولادها وحمل الأمير فيروز الزمام على رأسها القبة والطيور ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ، وثر على رأسها خفاف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليهم التقادم من الأمراء والمباشرين لخوند وأولادها . وكان ما أهداه الجمالى يوسف ناظر الخاص قندورة لخوند الكبرى مثلث ذهب وأؤلؤ وریش ، فكان مصروفها ما يزيد على اثني عشر ألف دينار ، وهذا خارج عن بقية التقادم لها ولأولادها لكل منهم مقدمة على انفراده ، ولا سيما ما أهداه للمقر الشهابى أحمد ولد السلطان وأخيه الناصرى محمد ، حتى قيل انه صرف في هذه الحركة نحو مائة ألف دينار ما بين تقادم وأسطة وغير ذلك ، وهذا من ماله دون مال غيره . وأفعال ناظر الخاص يوسف في أخباره تقارب أخبار جعفر البرمكى ، وهذا الأمر مشهور بين الناس .

وفيه وصلت مقدمة من عند قانى باى الحزراوى نائب الشام ، ومن جملتها خيول نحو ثمانين فرسا ، أحدها مسروج بسرج بلور من نوادر السروج .

وفى صفر رسم السلطان باحضار أذربك بن ططخ الظاهرى — وكان مقيما بطالا — فلما طلع الى السلطان بالقلعة ألبسه ساريا من ملابسه ونزل الى بيته ، فأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه مات الشيخ عبد الكريم — خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه — مات قتيلا ولا

يعلم من قتله . وكان غير مشكور في سيرته ، ولى خلافة سيدى أحمد البدوى مدة طويلة . فلما مات ولى بعده صبي من أقاربه اسمه عبد المجيد .

وفيه توفى القاضى علاء الدين على بن أقبرس التركى الأصل ، وكان عالما فاضلا على مذهب الشافعى . وكان رئيسا حثما ، ولى عدة وظائف سنية منها الحسبة ونظر الأوقاف وناب فى القضاء ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، ومونده سنة احدى وثمانمائة .

وفى ربيع الأول نودى فى القاهرة بتسعين الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة . فسعر الدينار الذهب بثلاثمائة ، والفضة الجديدة كل أشرفى بخسة وعشرين ونصفا عديدة جيدة من خالص الفضة ، وأبطل سائر المعاملات من تلك الفضة المغشوشة التى كان وصل الدينار منها الى أربعمائة وستين درهما ... فخر الناس فى هذه الحركة ثلث أموالهم ، ولكن انصلح أمر المعاملة بعدما كانت فسدت ، ففرح طائفة من الناس بذلك واغتم آخرون . وكان القائم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فاضطربت الأحوال لذلك مدة ، ثم مشت تلك المعاملة الجديدة وسكن الاضطراب قليلا قليلا ، وصار كل من قبض عليه السلطان من الزغلية يوسطه أو يقطع يده ، فوقع الرعب فى قلوب الزغلية ، وكان ذلك سببا لاصلاح المعاملة ، وقد انصلحت بعد جهد كبير . وقال الشهابى المنصورى فيسن أهدى اليه دينارا عند المنادة على الذهب :

أمولاي قد آثرتنى متفضلا
وأهديت دينارا قد استغرق الوصفا

ولكنه قد خاف أمر مليكه
ألم تره من خوفه تقص النصف

وفيه توفى الشيخ الصالح الملك المعتقد سيدى مدين ، وكان من الأولياء وللناس فيه اعتقاد .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن مبارك شاد ، وهو أحمد بن محمد بن حسين بن ابراهيم بن سليمان القاهري الحنفى . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا وله نظم جيد ، وألف الكتب النفيسة فى الأدبيات وغير ذلك ، منها كتاب يقال له السفينة ، كله محاسن وفوائد ، ومولده سنة ست وثمانمائة . ومن شعره — عشرة مقابلة بعشرة — قوله :

فرع ، جبين ، حيا ، قامة ، كفل
صدغ ، فم ، وجنات ، ناظر ، ثغر
ليل ، هلال ، صباح ، بانة ، ونقا
آس ، أقاح ، شقيق ، نرجس ، درر

وفى ربيع الآخر توفى جانم البهلوان الأشرفى — أحد الأمراء العشراوات رءوس النوب — وكان رئيسا حشما شجاعا بطلا بارعا فى فنون الفروسية . وفيه حصل للسلطان توعك فى جسده ثم شفى ، فضربت البشائر بالقلعة بسبب ذلك وبأبواب الأمراء .

وفيه توفى الأمير طوخ بن تراز الناصرى المعروف بيونى بازق ، وكان أصله من مساليك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ، ومات بطلا بعدما كان أمير مجلس ، وكان كبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين أحمد المعروف بقرقماس ، وهو أحمد بن على بن محمد بن مكى ابن محمد بن عبيد بن عبد الرحيم الأنصارى الدماصى الحنفى . وكان عالما فاضلا ، وناب فى القضاء بخط بولاق . وكان مولده سنة تسعين وسبعائة .

وفيه توفى سودون النوروزى نائب القلعة . فلما مات قرر بعده فى نيابة القلعة كمسبى السمين ، وقرر جاني بك كوهية أحد رءوس النوب عن كمسبى السمين .

وفيه توفى الناصرى محمد بن لاجين الجندى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على الطواشى مرجان العادلى وقرره فى مقدمة المماليك .

وفيه قرر فى نظر الدولة منصور بن الصيفى ، وهذا أول ظهوره فى الرياسة .

وفيه توفى المغنى الأستاذ فى فن النشيد ، فريد عصره ووحيد دهره ، ناصر الدين محمد المازونى القاهري . وكان بارعا فى فن الغناء ، وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ومعرفة الفن ، ولم يجىء بعده من هو فى طبقة الى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

يا نزهة السمع سكنت الثرى
فللمسلاهى أيما لهفى
كم لطفة من قدم أو يد
فى خدى الدوكة والدف
وقوله أيضا :

كانت به لذتنا موصولة
فانقطعت بموته الذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة
فارتفعت لموته الأصوات
وكان حصل للمازونى خلط فالج فأقام به مدة طويلة حتى مات ، فكان يقول : « ارحموا من سكت حسه ، وبطل نصفه » .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء وأرباب الوظائف من الدولة ، فساروا الى نحو جزيرة أروى ثم توجه الى بولاق ، وكان له يوم مشهود . فلما شق من بولاق أمر بهدم ما كان بها

من الأخصاص — وكانت تضيق الطريق على السالك — فهدمت من يومها .

وفيه مات الشيخ شهاب الدين أحمد بن الأوجاقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ذكيا .

وفيه صرف القاضى صلاح الدين المكينى عن الحسبة ، وقرر بها قانى باى اليوسفى المهندار ، وكان جماعة من الجلبان ثاروا على المحتسب فكان هذا سببا لصرفه عن الحسبة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن قرمان وعلى يده مكاتبة يعتذر فيها عما حصل منه من الخروج عن الطاعة ، وأرسل يسأل السلطان فى العفو عنه والصلح معه ، فاجابه السلطان الى ذلك .

وفيهما نزلت صاعقة عظيمة ببولاق حتى كادت تحرق عن آخرها ، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر رجب . واستمر فى كل ليلة يحترق فى مصر والقاهرة حريق ، وأقام على ذلك نحو سنة حتى ضج الناس من ذلك .

سنة ثلاث وستين وثمانمائة (١٤٥٨/١٤٥٩ م) :

فيها توفى القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر الشريف . فلما توفى خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الأشقر . وكانت وفاته فى رجب .

وفيهما توفى الشيخ على العجمى المحتسب . وفيها توفى قانبای الحمزاوى نائب الشام واستقر بها جانم الأشرفى .

وفيهما ظهر فى السماء نجم له ذنب طويل نحو سبعة أذرع ، فكان يطلع من جهة الشرق ، ثم صار يظهر من جهة الغرب ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى .

ومن الحوادث فى أيامه أن حضر الى الأبواب

الشريفة جاكم ابن ملك قبرس وطلب من السلطان نجدة ، فعين السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر الأمير يونس الدوادار . ثم ان السلطان شرع فى عمارة مراكب أغربة بالجزيرة الوسطى . وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش ، فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم ، وتوجه الى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة فى البحر — والنفط والطبل عمال — حتى انتهى ذلك ، ثم رجع الى القلعة . فلما خرجت التجريدة وتوجهوا الى بلاد الافرنج لم يحصل من العسكر الذى توجه نتيجة ، ورجع الأمير يونس الدوادار من التجريدة بسرعة وترك بقية العسكر فى قبرس ، ورجع الى القاهرة فما شكره أحد من العسكر على ذلك ، وبقي ممقوتا عندهم الى أن مات .

وفيهما توفى الأمير يونس العلائى الناصرى أمير آخور كبير ، فخلع السلطان على الأمير برسباى البجاسى ، واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن يونس العلائى ، وخلع على الأمير سودون قراقاش واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن برسباى البجاسى ، وأنعم على الأمير جانى بك نائب جدة بتقدمة ألف .

سنة أربع وستين وثمانمائة (١٤٥٩/١٤٦٠ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وكان مبدؤه من الشام ، وكان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث الممالك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، واستمر عمالا نحو خمسة أشهر . وكان الورد فى تلك السنة كثيرا ، فصاروا يعملون على التواييت قواصير جريد يغرزون فيها الورد . وقد

اتتهت الجنائز في كل يوم الى اثني عشر ألف جنازة . وقد قال القائل :

أسفى على سكان مصر اذ غدا
للطن فيها ذات وخز سارى
الموت أرخص ما يكون بحبة

لكن هذا صار بالقنطار
وفيهما توفى العلامة الشيخ جلال الدين المحلى
الشافعى . وفيها توفى الزينى أبو الخير بن
النحاس . وفي هذه السنة كانت وفاة القاضى
برهان الدين ابراهيم بن الجيعان كاتب الخزائن
الشريفة ومستوفى ديوان الجيش .

سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠ / ١٤٦١ م) :

قيها توجه الأتابكى أحمد ابن المقام الشريف
الى السرحة ، فلما عاد زينت له القاهرة ، وكان
يوم دخوله يوما مشهودا ، وطلع الى القلعة في
موكب عظيم .

وفيهما توفى الناصر محمد بن أيتمش الخضيرى
— ابن أخت خوند بنت خاصبك — توفى يوم
دخول الأتابكى أحمد الى القاهرة ، فكدر عليهم
ذلك اليوم .

واستمر الملك الأشرف اينال قائما في ملكه وهو
في أرغد عيش ، وأولاده حوله ، وكان غالب
الأمراء أصهاره ، والعسكر في قبضة يده . واستمر
على ذلك حتى مرض بألم الخصى ، وسلسل في
المرض حتى مات . وكانت وفاته يوم الخميس بعد
العصر خامس عشر جمادى الأولى سنة خمس
وستين وثمانمائة ، ودفن من يومه في تربته التى
أنشأها له القاضى ناظر الخاص يوسف بالقرب من
تربة القاضى عبد الباسط التى في الصحراء ، فكثر
عليه الحزن والأسف كما قيل في المعنى :

هى الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالدين بقوا كما فيمن مضى فعلت

وتوفى الملك الأشرف اينال وله من العمر احدى
وثمانون سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية
والبلاد الشامية ثمانى سنين وشهرين وستة أيام ،
وخلف من الأولاد أربعة وهم : الأتابكى أحمد
الذى تسلطن بعده ، والمقر الناصر محمد أخوه
الصغير ، وابنته خوند بدرية زوجة برد بك ، وابنته
خوند فاطمة زوجة يونس البواب الدوادر
الكبير .

ولم يتزوج اينال غير أم أولاده خوند زينب
بنت خاصبك .

ولما ثقل في المرض عهد بالملك الى ولده
الأتابكى أحمد ، فتسلطن ووالده في قيد الحياة .
وكانت صفة الملك الأشرف اينال : طويل
القامة ، أسمر اللون ، عربى الوجه ، خفيف
العوارض ، وكان يعرف باينال الأجروود . وكان
ملكا هينا لينا قليل الأذى ، ولولا جور مماليكه
في حق الناس لكان خيار ملوك الجراكسة . وكان
كل من يقع له من الزغلية يوسطه وكانت أيامه
كلها لهوا وانسراحا . وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ،
فكانوا يخطون له على المراسيم حتى يمشى عليها
بالقلم . وقيل انه في مدة سلطنته لم يسفك دما
قط بغير وجه شرعى ، فعد ذلك من النوادر .

ومن الحوادث في أيامه أنه كان يقع بالقاهرة
في كل ليلة حريق في عدة أماكن ، حتى ضج الناس
من ذلك ، ولم يعلم سبب هذه النازلة ولا من كان
يفعل ذلك . فاستمر الأمر على ذلك مدة ثم بطل .
وفي أيامه تحرك ابن قرمان على بلاد السلطان ،
فأخرج اليه تجريدة — وكان باش العساكر المقر
السينفى خشقدم أمير سلاح — فلما توجهوا الى
بلاد ابن قرمان لم يقاتلهم ولم يقع بينهم قتال ،
فرجع العسكر الى الديار المصرية وهم سالمون .
ومن الحوادث في أيامه أن خوند زوجة

السلطان مرضت فنزلت الى بولاق وأقامت في القبطية ، فنزل السلطان وسلم عليها فلما حصل لها الشفاء أخرجوا في بولاق حراقة نפט ، فخرجت في تلك الليلة البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وكانت من الليالي المعدودة في القصف والفرجة .

وكانت دولة الملك الأشرف اينال ثابتة القواعد . فأما أتابكيتة فالمقر السيفى ثانى بك الظاهرى ، وولده المقر الشهابى أحمد .

وأما دوادارياته فالمقر السيفى يونس البواب صهره ، والأمير برد بك الدوادار الثانى مملوكه وصهره أيضا .

وأما قضاة الشافعية فالقاضى علم الدين صالح البلقيني وأما قضاة الحنفية فشيخ الاسلام سعد الدين الديرى وأما قضاة المالكية فالقاضى ولى الدين السنباطى ، ثم السيد الشريف حسام الدين بن حريز وأما قضاة الحنابلة فالقاضى عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى

وكان الجمالى يوسف ناظر الخاص مدبر مملكته ، كما كان القاضى عبد الباسط فى دولة الأشرف برسباى .

وكان ينقاد الى الشريعة ، ويحب العلماء ، قليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف .

وكان معظم مساويه مماليكه الجلبان . وبالجمله كان الأشرف اينال من خيار ملوك الجراكسة .

الملك المؤيد أبو الفتح العلانى الناصرى

هو الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الأشرف اينال العلانى الناصرى . وهو السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة فى حياة والده . وكانت صفة مبايعته بالسلطنة أن أباه لما أشرف على الموت طلع الأمير برد بك — صهر السلطان — واجتمع بخوند زوجة السلطان ، وذكر لها أن الأحوال فاسدة ، والأمور فى اضطراب . ومن رأى أن السلطان يعهد الى ولده بالسلطنة . فدخلت خوند على السلطان وذكرت له ذلك ، فأمر باحضار الخليفة والقضاة الأربعة ، فحضر الخليفة الجمالى يوسف ، والقضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقيني الشافعى ، وسعد الدين الديرى الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر أرباب الدولة من أرباب الحل والعقد . فلما تكامل المجلس دخل بعض الشهود على السلطان ، وشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة وتولية ولده .

ثم ان الخليفة بايع الأتابكى أحمد بن اينال بالسلطنة عوضا عن أبيه وتلقب بالملك المؤيد . فلما تمت له البيعة أحضر له شعار الملك ، وهو العمامة السوداء والجبّة والسيف البداوى ، وأفيض عليه الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، وركب من باب الدهيشة ، وحمل الأمير خشقدم أمير سلاح على رأسه القبة والطير ، وقد ترشح أمره لأن يلى الأتابكية

فلما ركب من الدهيشة مشى قدامه الأمراء قاطبة — والخليفة عن يمينه — حتى دخل القصر الكبير ، ونزل عن فرسه ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ودقّت له البشائر بالقلعة .

ثم نزل الوالى ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المؤيد ، فارتفعت الأصوات بالدعاء

وكان محببا للناس ، قليل الأذى . ثم خلع على الخليفة والأمير خشقدم ، ونزلا الى دورهما .

وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو من ثمان وثلاثين سنة أو زيادة على ذلك . وكانت أمه اخوند زينب بنت خاصبك . وكان كامل الهيئة ، حسن الشكل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، طويل القامة ، غليظ الجسد ... وكان كفئا للسلطنة ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليه وخان ، كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج

فلا تطمع لنفسك في اعتدال

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب وجلس على سرير الملك ، وقال فيه القائل :

بمهجتي أفدى مليكا غدا

مؤيدا بالنصر كالشمس

فلو تراه فوق كرسيه

لقلت هذا آية الكرسي

ثم أخذ في تدبير ملكه ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي خشقدم الناصري أمير سلاح ، فقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه ، وأخرج له مكتوبا باقطاعه الذي كان بيده . وخلع على جرباش المحمدي — المعروف بكرت — وقرره في امرية سلاح . وخلع على قرقماس الجلب وقرره في امرية مجلس عوضا عن جرباش كرت . وخلع على قائم التاجر وقرره رأس بوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب . وقرر في مقدمة جرباش كرت بيبرس خال الملك العزيز . ثم شغرت مقدمة فأراد أن ينعم بها على صهره الأمير برد بك الدوادار الثاني ، فوقف اليه جاني بك الظريف وباس الأرض وطلب المقدمة التي شغرت ، فأبى السلطان من ذلك ، وحصل بين جاني بك الظريف وبين الأمير يونس الدوادار الكبير في ذلك اليوم

تشاجر بسبب ذلك ، ونزل جاني بك الظريف من عند السلطان غير راض ، وكان ذلك سببا في سرعة زوال الملك المؤيد أحمد عن قريب .

ثم ان السلطان نادى في الحوش للعسكر بأن نفقة البيعة في يوم الثلاثاء عشرين هذا الشهر لكل مملوك عشرون دينارا ، فسر الجند بذلك وارتفعت له الأصوات بالدعاء ... هذا كله جرى ووالده الأشرف في قيد الحياة ، الى أن مات في يوم الخميس بعد العصر . وذلك في خامس عشر جمادى الأولى من تلك السنة . فلما مات شرعوا في تجهيزه ، وأخرجوه عند باب الستارة ، وصلى عليه الخليفة وولده الملك المؤيد أحمد ، ثم نزلت جنازته من سلم المدرج وتوجهوا به الى تربته التي أنشأها بالصحرَاء كما تقدم .

ثم ان السلطان بعث نفقات الأمراء فحمل الأتابكي خشقدم أربعة آلاف دينار ، ولأرباب الوظائف من الأمراء والمقدمين لكل واحد منهم ألفان وخمسمائة دينار ، ولبقية المقدمين لكل منهم ألفا دينار ، وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتا دينار

ثم أنفق على الجند — على العادة القديمة — من مائة دينار الى ما دون ذلك الى عشرة دنانير .

ثم أنعم السلطان على يشبك البجاسي الأشرفي ، ويشبك هذا كان من ممالك الأشرف اينال ، وكان في أيام أستاذه مقدم ألف بحلب ، ثم حضر الى القاهرة فبقى مقدم ألف بمصر .

وفي جمادى الآخرة عين السلطان جماعة من خواصه من الأمراء والخاصكية بالتوجه الى البلاد الشامية وغيرها ببشارة السلطنة الى النواب وغيرهم .

وفيه جاءت الأخبار من قبرس بأن جاني بك الأبلق — الذي كان مقيما بقبرس مع جماعة من المماليك السلطانية — أرسل يخبر بأن أخت جاكم صاحب قبرس فرت الى رودس لتستجد بصاحبها ليمدها بعسكر حتى تحارب أخاها وتأخذ منه مدينة شيرينه ، فأرسل جاني بك الأبلق يستحث السلطان في ارسال تجريدة تنجده سريعا ، وكان يظن أن الأشرف اينال في قيد الحياة .

وفيه خلع السلطان على مجد الدين بن البقرى وقرره في الاستادارية عوضا عن منصور بن الصفي بحكم صرفه عنها ، وهذه أول ولاية مجد الدين للوظائف السنية .

وفيه توفي الطواشي مرجان العادلي مقدم المماليك ، وكان حبشى الجنس ، وكان عنده شدة بأس وعسوفة زائدة ، فلما مات قرر في تقدمته جوهر النوروزي .

وفيه توفي جليل بن أحمد بن عميرة شيخ العرب بالكفور بالغربية ، وكان ظالما عسوفا ، وكان في سعة من المال وهو بخيل جدا .

وفيه توفي صاحب سعد الدين فرج ابن ماجد النحال . وكان أصله من الأقباط ، ولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والاستادارية غير ما مرة ، وولى أيضا كتابة المماليك وغير ذلك من الوظائف . وكان رئيسا حشما دينا خيرا مشكورا في مباشرته ، وكان عنده حدة مزاج في ذاته ، ومولده في سنة احدى وثمانمائة .

وفيه كان قراءة تقليد السلطان بالقصر الكبير . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وجلس القاضي كاتب السر محب الدين بن الشحنة على كرسي وقرأ التقليد على العادة . ثم ان السلطان خلع على الخليفة والقضاة الأربعة ونزلوا من القلعة في موكب حافل .

وفيه ثارت عربان لبيد ، ووصلوا الى البحيرة ، وشنوا بها الغارات ، ونهبوا الغلال . فلما بلغ السلطان ذلك بادر وأرسل خلفهم تجريدة ولم يرسل من المماليك الجلبان أحدا ، فعز ذلك على المماليك القرائصة وأضرموا له السوء .

وفي رجب ظهر في القاهرة وضواحيها الأمن والعدل والرخاء ، وأحب الرعية السلطان حبا شديدا ، ومالت اليه النفوس قاطبة كما قيل :

دولته للأنام عيد باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل في الرعايا وأبطل الجور والمظالم
وصير الشاة في حماه تمشى مع الذئب والضياع
لو نطقت مصرنا لقاتل يا ملك العصر والأقالم
ملا قلب الملوك رعبا أغنى عن السمور والصوارم

وفيه هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق ، وكان في الظلمة نصف الليل ، فنهبوا من الناس شيئا كثيرا ، وكان الناس قد خرجوا عن الحد في الفتك والقصف بسبب الفرجة ، ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر ، وصاروا يقيمون في الرمل ليلا ونهارا من نساء ورجال وهم في غاية التزخرف ، فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ، ولم ينتطح في ذلك شاتان .

وفيه قدم الأشرفي الذي كان دوادارا ثانيًا بسصر ونفى في دولة الأشرف اينال ، فلما مات اينال قدم الى القاهرة من غير اذن السلطان . فلما حضر نزل عند الأتابكي خشقدم . فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه وأمر باخراجه من حيث جاء ، فخرج من يومه ، وأمر بسجنه ، فشنع فيه بعض الأمراء ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، وألبسه كاملية سمور ، وخرج من مصر سريعا ، فشق ذلك على جماعة الأشرافية ، وكثر القيل والقال بين الناس ، ولهجوا بوقوع فتنة عن قريب .

وفيه وصل الطواشي شاهين غزالي الذي توجه

الى دمشق لضبط تركة زوجة قانى بك الحمزاوى
نائب الشام . واشتملت تركتها على أشياء غريبة من
تحف ومعادن نفيسة وأقمشة مشنة وأوانى فضة
وبلور مما لا يسمع بمثله ، فكان هذا الموجود أعظم
من موجود الخوندات ، فأمر السلطان بيعه
فى كل يوم ثلاثاء ، فأقاموا نحوه من شهر وهم
يبيعون فى ذلك الموجود .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو القرافة
وعاد سريعا ، وهذا أول ركوبه فى السلطنة ...
وكان آخر ركوبه .

وفيه أمطرت السماء بردا كبارا كل حصوة قدر
بيضة الحمامة ، وكان غالب ذلك ببلاد الشرقية ،
وتلف بها أكثر الزرع وهلك بها بعض بهائم .

وفيه توفى الأمير فيروز الزمام الخازندار
الكبير ، وكان أصله من خدام فيروز الحافظى .
وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف منها
الزمامية والخازندارية الكبرى وغير ذلك من
الوظائف . وكان سىء الأخلاق حاد المزاج ، وكان
فى سعة من المال ، ووجد له من الأصناف والمال
ما يزيد على مائة ألف دينار . قيل ابتيع له حاصل
فيه فحم بألف دينار . ومات وله من العمر ما يزيد
على ثمانين سنة ، ولم يجىء بعده مثله من الخدام .

وفى رمضان أشيع بين الناس أن السلطان عول
على امساك جماعة من الأمراء الأشرفية . ثم انه
أمر نقيب الجيش بأن يدور على الأمراء ويأمرهم
بالصعود الى القلعة وما عرف السبب لذلك ،
فأخذوا حذرهم وباتوا على وجل ، ولم يطلع اليه
أحد .

فلما كان ليلة السبت سابع عشر رمضان وثب
جماعة من المماليك الأشرفية والظاهرية ، واستمالوا
معهم غالب المماليك الاينالية ، ولعبوا بهم وأفسدوا

عقولهم ، وضحكوا عليهم ، فلبسوا آلة الحرب
وطلعوا الى الرميلة . فلما عظم الأمر نزل السلطان
الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ،
فاشتد الحر فى ذلك اليوم ، واستمروا على ذلك
حتى حال بينهما الليل .

فلما أصبح يوم الأحد ثامن عشر رمضان نزل
السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وثبت للقتال ،
فلما رأى ممالك أبيه قد وثبوا عليه تحقق أنه
مكسور لا محالة ، فكان كما قيل :

كنت من كربتى أفر اليهم

فهمو كربتى فأين المفسر ؟

ثم كانت الكسرة على أحمد ، فطلع من باب
السلسلة وتوجه الى قاعة البحرة ، ثم طلب أخاه
الناصرى محمدا وأمرهم أن يغلقوا عليهما الباب .
فلما بلغ العسكر أن الملك المؤيد قد اختفى توجهوا
الى بيت الأتابكى خشقدم ، فأركبوه غصبا حتى
طلعوا الى باب السلسلة . وحضر الخليفة والقضاة
الأربعة ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة
وبائعوا الأتابكى خشقدم ، فكانت مدة الملك المؤيد
فى السلطنة أربعة أشهر وثلاثة أيام .

وكان المماليك كاتبوا جانم نائب الشام أن
يحضر الى مصر ليلى السلطنة ، وأرسلوا اليه صورة
حلف ، وكتب فيه الأمراء الأشرفية خطوط أيديهم
بأنهم ارتضوا بجانم أن يكون هو السلطان عليهم ،
وأرسلوا يستحثونه فى الحضور فأبطأ عليهم ،
فما صبروا الى أن يحضر ، فوثبوا على المؤيد فى
رمضان وحاربوه ثلاثة أيام ، فلما انكسر التفوا
على الأتابكى خشقدم وولوه السلطنة عارية الى أن
يحضر جانم نائب الشام ، فصار الهزل جدا وكان
كما قيل فى المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحا

فصيرها الهوى حقا يقينا

وكان الملك المؤيد أحمد كفتا للسلطنة ، ذا

عقل ورأى ، كامل الهيبة ، ساس الناس في أيامه أحسن سياسة ، وقمع ممالك أيه عما كانوا يفعلونه من تلك الأفعال الشنيعة . وكان بصيرا بمصالح الرعية ، ولو أقام في السلطنة لحصل للناس به غاية النفع ... ولكن خانه الزمان ، وأخذ من حيث كان يرجو الأمان ، كما قيل :

واذا جفالك الدهر — وهو أبو الوري

طرا — فلا تعتب على أولاده

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدى ، وهو الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أول ملوك الروم بمصر ... ان لم يكن أيبك التركمانى من الروم ، ولا لاجين من الروم ، فخشقدم أول ملوك الروم بمصر .

وكان الظاهر خشقدم أصله رومى الجنس ، جلبه الخواجا ناصر الدين — وبه يعرف بالناصرى — فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشاً وصار جمداراً ، ثم بقى خاصكياً في دولة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ . ودام على ذلك دهرًا طويلاً الى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فأنعى عليه بامرية عشرة ، وذلك في سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢ / ١٤٤٣ م) ، وصار رأس نوبة . واستمر على ذلك الى سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) ، فأنعى عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها ودام بدمشق الى أن تغير خاطر السلطان على الأمير قانى بك الظاهري حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فعند ذلك نفى السلطان الأمير قانى بك الى ثغر دمياط .

فلما جرى ذلك سعى القاضى أبو الخير ابن النحاس وكيل بيت المال — هو والأمير تبرغنا الدوادار الثانى — للأمير خشقدم ، فأحضره السلطان من دمشق ، وأنعم عليه باقطاع الأمير قانى بك حاجب الحجاب ، وذلك في صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة ، فأقام على ذلك الى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن الملك الأشرف اينال ، فبقى الأمير خشقدم أمير سلاح في دولة الأشرف اينال ، وسافر في أيامه باش العسكر في التجريدة التى توجهت الى حلب بسبب ابن قرمان . فلما رجع من التجريدة أقام أمير سلاح الى أن توفي الملك الأشرف اينال وتسلطن ولده الملك المؤيد أحمد ، فاستقر بالأمير خشقدم أتابك العساكر عوضاً عن نفسه ، وذلك في سنة خمس وستين وثمانمائة .

فلما وثب المماليك على الملك المؤيد في شهر رمضان — كما تقدم ذكر ذلك — اتفق رأى الأمراء على سلطنة الأتابكى خشقدم الى أن يحضر المقر السيفى جانب نائب الشام فيسلطونه . فلما أبطأ عليهم الأمير جانب سلطنوا الأتابكى خشقدم نيابة عن جانب ، فكانت سلطنة خشقدم فلتة كما قيل في المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحاً

فصيرها الهوى حقاً يقيناً

وكانت سلطنة الأتابكى خشقدم في يوم السبت سابع عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠ / ١٤٦١ م) ، فصلى الظهر وجلس في المقعد الذى في باب السلسلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وهم على الوصف المقدم ذكره ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا الأتابكى خشقدم ، فأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها من المقعد الذى في باب السلسلة ، وركب من هناك فرس النوبة وطلع الى باب القصر الكبير ، وحمل

على رأسه القبة والطير المقر السيفى جرباش كرت
أمير سلاح .

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمراء
الأرض وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ،
ونودى باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية
الفاخرة .

ثم انه أرسل قيد الملك المؤيد وأخاه في البحرة .
ثم نزل بهما وقت الظهر من القلعة وخلفهما أوجاقية
بخناجر وأرسلهما الى السجن بثغر مدينة
الاسكندرية وأرسل معهما الأمير قراجا الطويل
الايالى . وكان المتسفر عليهما الأمير خير بك
المصارع ، فتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية
وسجنهما بها .

ثم ان السلطان رسم على خوند الخاصبكية
— أم الملك المؤيد — وجعل عليها عشرة من
الخدام ، منهم خشقدم اللالا ، فصار يقسو عليها
ثم انه أخذ للسلطان من خوند المذكورة جملة
كثيرة من المال نحو مائة ألف دينار .

ثم أنه في أواخر شهر رمضان توفي الأمير يونس
البواب الدوادر الكبير — وكان صهر الملك
الأشرف اينال — فكثر عليه الحزن والأسف .

ثم ان السلطان عمل الموكب في القصر الكبير ،
وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى
جرباش المحمدى المعروف بكرت ، فخلع عليه
واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع
على المقر السيفى قرقماس الجلب واستقر به أمير
سلاح عوضا عن جرباش . وخلع على المقر السيفى
قائم التاجر المؤيدى واستقر به أمير مجلس . وخلع
على المقر السيفى بلباى المؤيدى واستقر به حاجب
الحجاب . وخلع على المقر السيفى جاني بك نائب
جدة واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير
يونس البواب بحكم وفاته كما تقدم . ثم انه

نقل المقر السيفى برد بك الجمقدار واستقر به
حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى بيرس
خال العزيز واستقر به رأس نوبة النوب ، ثم
خلفه تمر بغا لما جاء من مكة حين أمسك الأمير
بيرس ونفى كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .
وكان تمر بغا بمكة ، فلما حضر لمصر استقر به

رأس نوبة النوب . وخلع على المقر السيفى جاني
بك الظريف واستقر به دوادارا ثانيا وأنعم عليه
بتقدمه ألف مع الدوادارية . وخلع على المقر السيفى
جاني بك الأشرفى ، واستقر به شاد الشربخانا ،
وأنعم عليه بتقدمه ألف مع الشادية . وخلع على
الأمير اينال الأشقر ، واستقر به والى القاهرة .
وخلع على الأمير تنم رصاص واستقر به محتسب
القاهرة . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء
الأشرفية بامريات عشرة ... ولم تكن ولاية
هؤلاء الأمراء في موكب واحد بل كانت في مواكب
متعددة حسبما يأتى ذكر ذلك في موضعه .

ثم ان الأمير جاني بك نائب جدة قرب جماعة
من الاينالية ولم يسكن السلطان من التشويش
عليهم — منهم : أزدر الطويل ، وثاني بك قرا ،
وجاني بك الخشن ، وشاد بك أبانطة ، وقانصوه
المؤيدى ، وغير ذلك من الاينالية جماعة كثيرة —
— فصار هؤلاء من عصبة جاني بك نائب جدة .
وكان متخيلا من جماعة الأشرفية والمؤيدية ،
فقويت شوكته ، وتعصبت له الاينالية واجتمعت
فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في تلك
الأيام ، والسلطان خشقدم في قبضة يده يدوره
كيف شاء .

وكان السلطان خشقدم متخيلا أيضا باطنا
وظاهرا ، فلم يزل الملك الظاهر خشقدم ينسبل الى
جاني بك نائب جدة ويداريه حتى انتهز الفرصة
في قتله وقتله كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ،

فكان لسان حال جاني بك نائب جدة يقول :
لا تأمنن عدوا ولو دنا للمنية
فحياة السم تدعى في حالة الموت حية
ثم ان الملك الظاهر خشقدم أنفق على العسكر
نفقة كاملة ، و فرق الاقطاعات الثقال على الممالك
وأرضى جميع الجند بكل ما يمكن ، فاستقامت
أحواله في السلطنة ، وزال عنه الشك .

فلما كان يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان
من السنة المذكورة ، جاءت الأخبار بأن
المقر السيفي جاني نائب الشام قد وصل الى
خانقاه سرياقوس ، وقد تقدم أن الأمراء الأشرية
أرسلوا كاتبوه بأن يحضر الى القاهرة بسرعة حتى
يسلطنوه عوضا عن الملك المؤيد أحمد ابن
الأشرف اينال . فلما أبطأ عليهم وثبوا على الملك
المؤيد وخلعوه من السلطنة ، وولوا الأتابكي
خشقدم سلطانا ، واستقر المقر السيفي جرباش
كرت أتابك العسكر بمصر . فلما حضر جاني من
الشام وجد القاعدة قد انخرمت ، والوظائف قد
انقسمت ، وفاته الشنب ، وعز الطلب ، فكان كما
قيل في المعنى :

وثب الشعب يوما وثبة
شغفا منه بعنقود العنب
لم ينله ، قال : هذا حامض
حصرم ليس لنا فيه أرب

فلما بلغ الظاهر خشقدم حضور جاني بك نائب
الشام اضطربت أحواله ، وتزايدت أوجاله ،
فاجتمع بالأمراء وضربوا في ذلك مشورة ، فوقع
الاتفاق بأن جاني يرجع الى الشام ولا يدخل الى
مصر ، وأن يكون نائب الشام على عادته . فتوجه
اليه صاحب علاء الدين بن الأهناسي وصحبته
خلعة الى الأمير جاني بأن يكون نائبا على عادته ،
فتوجه اليه في ليلة عيد الفطر ، ومد له في الخانقاه

يوم العيد مدة عظيمة ، ولم يمكن السلطان أحدا
من الأمراء المتقدمين بأن يتوجه اليه ، فتوجه اليه
بعض أمراء عشراوات من الأشرية منهم تمتاز
الشمسي وغير ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الى الأمير جاني عشرة
آلاف دينار ، وأنعم عليه ببرك الأمير يونس
الدوادار جميعه ، وصار يرضيه بكل ما يمكن ،
فرجع الأمير جاني الى الشام وهو بخفي حنين .
وكان ذلك ترتيبا من الأمير جاني بك نائب جدة
فانه كان كثير الحيل والخداع .

فلما رجع الأمير جاني الى الشام أرسل السلطان
الى نائب قلعة الشام مراسيم في الدس بأن يقبض
على جاني نائب الشام ، فرمى عليه بالمدافع وهو
جالس في دار السعادة ، فهرب وقام من وقته وأخذ
عياله وأولاده وخرج من الشام هاربا . فلما خرج
نهبوا دار السعادة وأخذوا جميع بركه وقماشه .
فلما خرج من الشام توجه الى نحو مدينة الرها
واستمر في هجاج وعصيان . فلما جاءت الأخبار
الى القاهرة بذلك عين له السلطان تجريدة وعين
الأمير جاني بك نائب جدة أمير العسكر ، فأخذ
في أسباب ذلك .

ثم ان السلطان خلع على خشداشيه المقر
السيفي تنم المؤيدي واستقر به نائب الشام عوضا
عن جاني الأشرفي لما تسحب من الشام ، فأقام
الأمير تنم في نيابة الشام الى أن مات هناك ودفن
بالشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم

سنة ست وستين وثمانمائة (١٤٦١/١٤٦٢ م) :

فيها عمل السلطات الموكب في القصر الكبير .
فلما طلع الأمراء واجتمعوا بالقصر عول في تلك
الليلة على مسك جماعة من الأمراء الأشرية .
فلما كان بعد العشاء غلقوا أبواب القلعة ، ودخل
على الأمراء وهم في القصر جماعة من الممالك

الظاهرية وهم لابسون الزرديات والخود ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، ومع بعضهم قسي ونشاب ، فقبضوا على الأمير جاني بك الظريف ، والأمير جاني بك المشد ، والأمير بيبرس خال العزيز ، وغيرهم من الأمراء الأشرفية نحو من اثني عشر انسانا . فلما قبضوا عليهم قيدوا الأمراء المقدمين ونزلوا بهم من القلعة ، وهم : الأمير جاني بك الظريف ، والأمير بيبرس خال العزيز ، والأمير جاني بك المشد ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات فلما نزلوا بهم توجهوا بهم الى السجن بشعر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك وثب جماعة الأشرفية على الملك الظاهر خشقدم ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك الظاهرية فوقعوا معهم .

ثم ان المماليك الأشرفية توجهوا الى الأتابكي جرباش كرت — وكان في تربة الظاهر برقوق بسبب موت ابنته التي ماتت نفساء ، وهي زوجة الأمير أقبردى اليوسفى — فلما توجهوا اليه اختفى الأمير جرباش منهم في فسقية الموتى ولم يقابلهم ، فلم يزالوا عليه حتى طلعوا به من فسقية الموتى ، وسلوا عليه السيوف وأركبوه غصبا ، وشالوا على رأسه صنجقا ، ودخلوا به من باب النصر وشقوا به من القاهرة ولقبوه بالملك الناصر فصار العوام يضجون له بالدعاء ، حتى وصل الى البيت الكبير الذى عند حدة البقر ، فأقام هناك . ثم ان الأشرفية قاتلوا قتالا هينا وكان رأس هذه الفتنة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش وكان من شرار جماعة الأشرفية ، فلم يطبوا طبة ، وصارت أحوالهم سبة .

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أرسل الى الأتابكي

جرباش بعض الخاصكية فتلف به وأخذه وطلع به الى القلعة ، فلما طلع تحيل عليه الأمير جاني بك نائب جدة وقال : « خشكلدى ملك ناصر » ... فلم يرد عليه جوابا . فلما طلع الأتابكى جرباش الى القلعة نزل المماليك الظاهرية ، وأوقعوا مع المماليك الأشرفية واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة غير بطية ، حتى انكسر المماليك الأشرفية كسرة قوية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فولوا مدبرين ، ورجعوا خائبين ... فعند ذلك توجه جماعة من المماليك الظاهرية الى بيت الأمير سنقر الزردكاش ونهبوا ما فيه وأحرقوه ، ثم قبضوا على الأمير سنقر الزردكاش وعلى جماعة كثيرة من الأشرفية ونفوهم فى أماكن شتى ، وخمدت هذه الفتنة كأنها لم تكن .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من الاينالية ونفاهم ، ثم نفى الأمير برد بك — صهر الملك الاشرف اينال — الى مكة .

وفيهما خلع السلطان على خشداسيه الأمير جاني بك كوهيه ، واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن الأمير جاني بك الظريف .

وفيهما خلع السلطان على الأمير اينال الأشقر والى القاهرة ثم استقر به نائب ملطية . وخلع على الأمير تمر الظاهري واستقر به والى القاهرة عوضا عن اينال الأشقر .

وفيهما عزل السلطان ناظر الخاص عبد الرحمن ابن الكويز واستقر بالقاضى شرف الدين الأنصارى ناظر الخواص الشريفة عوضا عن عبد الرحمن بن الكويز .

وفيهما فصل السلطان قاضى القضاة علم الدين صالح من القضاء ، وأعاد القاضى شرف الدين يحيى المناوى . وقيل بل عزل القاضى علم الدين وتولى المناوى فى دولة المؤيد أحمد بن اينال ، وهذه

ثالثة ولاية للمناوى . وكذلك فصل القاضى
سعد الدين الديرى من القضاء وولى ابن الصواف
عوضا عنه .

وفىها عزل السلطان صاحب علاء الدين بن
الأهناسى ، وخلع على صاحب بن الصنيعة واستقر
به وزيرا .

وفىها عزل السلطان الأمير زين الدين يحيى
الاستادار وولى مجد الدين بن البقرى استادارا
عوضا عنه

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل المبارك
توقف فى أييب عند مبتدأ الزيادة ، وأقام فى ذلك
التوقف نحو خمسة عشر يوما ولم يزد شيئا ،
فضج الناس من ذلك ، وتشحطت الغلال ،
وشطح سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ،
وحصل للناس الضرر الشامل لقلة الزيادة وقد
دخلت مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

ولقد عهدت النيل سنيا يرى
عمرا ويتبع أمره تسديدا

والآن أضحى فى الورى متشيعا
متوقفا ما ان يجب يزيدا

فلما استقر الأمر على ذلك رسم السلطان
للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا
الى المقياس ، ويبيتوا به ويتلوا هناك القرآن
والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل .
فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف ، ابن
حريز المالكى وجماعة من العلماء فأقاموا فى المقياس
أياما ورجعوا ولم يزد النيل شيئا فأرسل السلطان
الى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه
فى ذلك فقال الشيخ أمين الدين . « اجمعوا بنى
العباس من الرجال والنساء ، من صغارهم لكبارهم
ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى

افاء ثم يصبونه فى فسقية المقياس » ... ففعلوا
ذلك فكانت فيه البركة ١ .

ثم ان القاضى علم الدين صالحا البلقيني توجه
الى المقياس وأقام هناك ثلاثة أيام ، ففى اليوم
الرابع زاد ثلاث أصابع ، ففرح الناس بذلك ،
ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وقدامه
رايات زعفران ، وانطلقت له النساء بالزغاريت
من الطيقان ، ثم وفى النيل فى تلك السنة وثبت
ثباتا عظيما الى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى
قائم التاجر وكسر السد ، وقد قال القائل :

سد الخليج بكسره جبر الورى

طرا ، فكل قد غدا مسرورا

البحر سلطان ، فكيف تواترت

عنه البشائر اذ غدا مكسورا

ثم فى غيب ذلك عزل السلطان القاضى يحيى
المناوى وأعاد القاضى علم الدين صالحا البلقيني .

سنة سبع وستين وثمانمائة (١٤٦٢ / ١٤٦٣ م) :

ففىها جاءت الأخبار من حلب بأن جانم نائب
الشام قد قتل ، وقيل ان مماليكه قد قتلوه وهو
فى قلعة الرها . فلما صح هذا الخبر دقت الكؤوسات
ثلاثة أيام ، وبطلت التجريدة التى كانت تعينت اليه .

ثم ان السلطان أرسل قبض على الأمير تراز
الأشرفى وسجنه بالمرقب ، وأشيع عنه أنه قتل قتيلا
فأثبت عليه السلطان كفرا وأرسل اليه شخصا من
المالكية يقال له الشارعى ف ضرب عنقه على باب
السجن الذى بالمرقب . وكان تراز هذا سيىء
الخلق مر اللسان مستحقا لكل سوء ، وكان منفيا
فى البلاد الشامية من أول دولة الملك الأشرف اينال ،
وآخر الأمر قتل هناك ومضى أمره .

وفىها أرسل السلطان تجريدة الى نحو بلاد

(١) تأمل غفلة الاجداد . . . وقاله الله شير الغفلة .

الأفرنج برودس ، وكان باش العسكر الأمير برد بك
البحمدار .

وفيها كسفت الشمس كسوفاً فاحشاً من بعد
الضحى الى قرب العصر ، حتى أظلمت الدنيا في
أعين الناس .

وفيها خلع السلطان على القاضي برهان الدين
ابراهيم بن الديري واستقر به كاتب السر الشريف
عوضاً عن القاضي محب الدين بن الشحنة ، واستقر
القاضي محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية
عوضاً عن ابن الصواف .

وفيها توفيت والددة المقر الشهابى أحمد بن
العينى ، وكانت وفاتها في يوم السبت ، فتوجه معها
الى التربة الأمير جاني بك نائب جدة ، والقاضي
كاتب السر ابراهيم بن الديري . فلما رجعوا من
التربة خلط ابن الديري مع الأمير جاني بك في
الكلام ، فقال لجاني بك ان هذه الميتة نزلت من
القلعة في يوم السبت ولا بد أن يعقبها أحد كبير
وأظنه السلطان ، فأخذ جاني بك منه الكلام ونقله
للسلطان ، فتغير خاطر السلطان على ابن الديري ،
فلما طلع الموكب قال له : « يا قاضى ، في أى حديث
ورد أن الميت اذا خرج في يوم السبت لا بد أن
يتبعه أحد كبير ؟ » . ثم قال له : « الزم بيتك » ...
فكان كما قيل :

العقل زين والسكوت سلامة

فاذا نطقت فلا تكن مكشارا

فلئن ندمت على سكوتي مرة

فلقد ندمت على الكلام مرارا

ثم ان السلطان عزل ابراهيم بن الديري من
كتابة السر بسبب ذلك ، وخلع على القاضي زين
الدين أبى بكر بن مزهر ، واستقر به كاتب السر
الشريف عوضاً عن ابن الديري ، فكانت مدة ولاية

القاضى برهان الدين بن الديري دون الشهرين ،
وقد سعى فيها بخمسة آلاف دينار ...

وفيها أخرج السلطان تقدمة الأمير جاني بك
المرتد الناصرى ، وجعله طرخانا ، ورتب له مايكفيه ،
واستمر على ذلك الى أن مات في أثناء دولته .

وفيها قبض السلطان على المهتار على فطيس
— مهتار الأشرف اينال — وسلمه الى الأمير جاني
بك نائب جدة ، فضربه علة قوية وأخذ منه خمسة
آلاف دينار ، فباع أملاكه وجميع ما يملكه حتى
سد ذلك .

وفيها استعفى القاضي شرف الدين الأنصارى
من نظارة الخاص ، فخلع عليه السلطان واستقر به
وكيل بيت المال ، وخلع على عبد الرحمن بن الكويز
وأعاده الى نظارة الخاص .

وفيها استقر مثنال البرهانى مقدم الممالك
عوضاً عن صندل الهندى .

وفيها استقر القاضي تاج الدين بن المقدسى في
نظارة الجيش عوضاً عن الزين بن مزهر .

وفيها توفى شيخ الاسلام قاضى القضاة الحنفى
سعد الدين ابن الديري ودفن بتربة الظاهر خشقدم
وقد تولى القضاء نحو ثلاثين سنة ، وكان من عظماء
الحنفية ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من سنة
سبع وستين ، ومات وهو منفصل عن القضاء .

سنة ثمان وستين وثمانمائة (١٤٦٣ / ١٤٦٤ م) :

فيها عزل عبد الرحمن بن الكويز من نظارة
الخاص ، واستقر بها صاحب علاء الدين بن
الأهناسى ، واستقر ناظر الخاص ووزيرا فأقام على
ذلك مدة ثم اختفى وغيب ، فخلع السلطان على
مجد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضاً عن
ابن الأهناسى . وخلع على القاضي تاج الدين بن
المقدسى واستقر به ناظر الخاص . ثم ان مجد الدين
ابن البقرى قبض على الصاحب علاء الدين بن

الأهناسى فسجنه السلطان فى البرج الذى فى القلعة واحتاط على موجوده ، فأخذ منه مائة ألف دينار ورسم بنفيه الى مكة ، فخرج وسافر من البحر الملح .

وفى هذه السنة عظم أمر الأمير جانى بك نائب جدة والتفت عليه جماعة الظاهرية من خشداشيينه ، فكان ينزل من القلعة وعسكر مصر قدامه ، أولهم عند قناطر السباع وآخرهم فى الرميلة ، وسائر المباشرين قدامه ، مستمرا ذلك فى كل يوم . وهو أول من اتخذ الساعة يمشون قدامه كلما ركب ونزل — زيادة فى العظمة — فقتل أمره على الملك الظاهر خشقدم . وكان الظاهر خشقدم أنشأ له ممالك كثيرة ، وثبتت قواعده فى السلطنة ، وصارت خشداشيينه المؤيدية غالبهم أمراء ، فعول على قتل جانى بك نائب جدة فى الباطن وأضر له السوء . ثم ان الأمير جانى بك ، لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى ، عمل هناك وقدة عظيمة ، وأحضر سوارى طوالا على البر وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلها . وحضر هناك ابن رحاب المغنى ، وإبراهيم بن الجندى ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ ، وكان ذلك فى ليلة الجمعة . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة سنة سبع وستين وثمانمائة طلع الأمير جانى بك نائب جدة الى القلعة على جارى العادة ، وكان معه الأمير تنم رصاص المحتسب ، وكان السلطان قرر مع جانى بك أنه فى ذلك اليوم يمك الأمير قائم التاجر والأمير قايتباى المحمودى المؤيدى ، فطلع فى ذلك اليوم بدرى ، وكانت المعمولية والطبخة له كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان يدري

فلما طلع الى القلعة ودخل من بابها ، ووصل

الى الجامع ، خرج اليه كمين من الممالك الأجارب من ممالك الظاهر خشقدم فقتلوه هناك هو والأمير تنم رصاص ، ورموا على رؤوسهما فص حجر بعد أن طعنوهما بالرماح حتى وقعا الى الأرض موتى . فلما أصبح الصباح غسلوهما وكفنوهما وصلوا عليهما بالقلعة ونزلوا بهما ، فدفن الأمير جانى بك فى تربته التى أنشأها خارجا من باب القرافة . فلما سمع ممالكه لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فرموا عليهم بالنشاب من باب السلسلة قولوا مدبرين ، وراحت على من راحت ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وكان الأمير جانى بك نائب جدة أميرا عظيما ، صاحب حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان صاحب حيل وخداع ، وهو الذى رتب للملك الظاهر خشقدم فى مسك الأمراء الأشرفية ورجوع جانم نائب الشام الى الشام بعدما ترشح أمره الى السلطنة ، فكان حال جانى بك مع الظاهر خشقدم كما قيل فى المعنى :

أعلمه الرماية كل يوم

فلما استد ساعده رمانى

وكان الأمير جانى بك مولعا بغرس الأشجار ، وأنشأ عدة غيطان بالمنشية ، وهى منشية المهرانى . وكان كثير التنزه . وكانت صفته أخضر اللون ، قصير القامة جدا مستدير اللحية ، شائب الذقن ، عارفا بأحوال المملكة ، فصيح اللسان بالعربى ، أصله من ممالك أسنبغا الطيارى وقدمه الى الملك الظاهر جقمق ، فهو معتوق الملك الظاهر جقمق من جملة ممالكه .

سنة تسع وستين وثمانمائة (١٤٦٤/١٤٦٥ م) :

فبها خلع السلطان على خشداشيه الأمير يشبك

الفقيه واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا عن الأمير
جاني بك نائب جدة .

وفيها أنعم السلطان على خشداشييه الأمير
جاني بك كوهيه بتقدمه ألف ، وخلع على مملوكه
الأمير خير بك واستقر به دوا دارا ثانيا عوضا عن
جاني بك كوهيه .

وفيها أنعم السلطان على سبطه المقر الشهابي
أحمد ابن العيني بتقدمه ألف وقرره في أمرية الحاج
وقرر في أمرية الركب الشرفي يحيى ابن الأمير يشبك
الفقيه

وفيه اختفى زين الدين الاستادار ، فصرف
السلطان مجد الدين بن البقري من الوزارة وقرره
في الاستدارية ، واستمرت الوزارة شاغرة أياما
حتى خلع السلطان على الشمس محمد البياوي ناظر
الدولة وقرره في الوزارة عوضا عن ابن البقري .
فلما قرر البياوي في الوزارة عد ذلك من مساوي
خشقدم ، وقالت الناس : « الزفر تولى الوزارة
بمصر » ... ومن يومئذ انحط قدر الوزارة جدا ،
وتبهدل هذا المنصب الى الغاية .

قال الامام أبو شامه المؤرخ : « كانت الوزارة
على عهد الخلفاء وظيفه عظيمة جليلة ، وكان الوزير
يجلس بحضرة الخلفاء على مقدار خمسة أذرع ،
وكان هو المتصرف في أمر المملكة بما يختار . فلما
جاءت دولة الأتراك قدموا نيابة السلطنة على
الوزارة ، فتلاشى أمر الوزارة من يومئذ ، وصارت
الوزارة تنقسم الى أربع جهات ، منها كتابة السر ،
والاستدارية ، ونظر الخاص ، وشاد الدواوين .
وكانت خلعة الوزارة في قديم الزمان عمامة بيضاء
برقعات ذهب شغل تنيس ، وطيلسان أبيض برقعات
ذهب ، وجبة صوف بيضاء بطرز ذهب ، وفي عنقه
عقد جواهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مقلد به

مسقط بالذهب ، ويركب حجرة بخمسائة دينار ،
وفي قوائمه أربع جواهرات ، وفي عنقه جوهرة
كبيرة بألف دينار ، وترفع على رأسه أعلام بيض ،
ويحمل على رأسه منشور الولاية وهو مكتوب
في حرير أبيض ، فبطل ذلك كله ...

فلما تولى البياوي شق ذلك على الناس لكونه
لم يكن من أهل ذلك . وكان البياوي طباحا ، وكان
أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وفي كلامه غرلة . وكان
أسود اللحية ، عنده عترسة ويس ، وكان أصله
معاملا في اللحم من جملة المعاملين ، ولكن وعده
الله بذلك من القدم . وفيه يقول بعض الشعراء :
قالوا البياوي قد وزر فقلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا يدور الا بالقر
وقال آخر :

تجنب العلم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حمارا مثل البياوي

فالسعد في طالع البهائم
فلما تولى الوزارة جاء فيها على الوضع ،
وسكن في بيت الوزارة التي في بركة الرطل ، ودقت
على بابه الكتوسات ، ولبس الخف والمهاميز . وكان
الظاهر خشقدم قائما معه فهابه جميع المباشرين
وخافوا منه . وكان يكبس البيوت على من يجده
يسكر ، ويغرمه جملة مال تحت الليل ، حتى ضجت
منه الناس ، وكانت له حرمة وافرة وكلمة نافذة .
وجاء على الناس مجيء وحش ، فكان لا يقبل
رسائل أحد من الأمراء ، وصاخر في مدة ولايته
جماعة من أعيان الناس والتجار ، وكان يكره من
يسكر . ثم ان السلطان سلمه الأمير زين الدين
الاستادار فأحضر له المعاصير وقصد عصره ، فترامى
عليه الأمير زين الدين وصار يقبل رجله حتى عفا
عنه من العصير ، وكذلك جماعة كثيرة غير زين

الدين صاروا تحت أمره وأخذ أموالهم ، وكان
كما قيل :

ومن أعظم البلوى كريم أصابه

قضاء وأضحى تحت ذل لئيم

وفيها توفي قاضى القضاة الشافعى علم الدين
صالح البلقينى ، فلما توفي خلع السلطان على
القاضى يحيى المناوى وأعاده الى القضاء ، فلم يقم
الا مدة يسيرة وسعى عليها القاضى صلاح الدين
أحمد بن بركوت المكينى الشافعى ، فعزل السلطان
القاضى يحيى المناوى وولى صلاح الدين المكينى .
وفى ذلك اليوم عزل السلطان القاضى محب الدين
ابن الشحنة الحنفى وولى القاضى برهان الدين
ابراهيم ابن الديرى قاضى قضاة الحنفية . فتولى
القاضيان فى يوم واحد ، ونزلا من القلعة فى موكب
واحد وعليهما التشاريف .

وفيها خلع السلطان على القاضى كمال الدين
ابن القاضى جمال الدين ناظر الخاص واستقر به
ناظر الجيش ، وكان الساعى له الأمير خير بك
الدوادار . فانه كان صهره زوج أخته .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة ،
وكان فيها خمسة أمراء مقدمين ، منهم الأمير قرقماس
الجلب أمير سلاح ، والأمير جاني بك قلقسير ،
وغير ذلك من الأمراء .

وفيها حجت خوند الأحمدية زوجة السلطان
خشقدم ، وكان المقر الشهابى أحمد بن العينى أمير
المحمل ، وكان الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك
الفقيه أمير أول ، وحج الأمير يشبك الفقيه مع
ولده فى تلك السنة .

وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العينى فى
هذه الحجة من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره
غيره من أبناء الملوك ، فصنع أكوارا من الذهب
مرصعة بفصوص ياقوت وبلخش وفيروز ، وصنع

كنايش مثلث بذهب ولؤلؤ وریش ، وخرج من
القاهرة فى موكب عظيم وسائر الأمراء والمباشرين
قدامه ، وخوند الأحمدية فى محفة زركش ، فكان
له يوم مشهود .

وفيها توفي الأمير جاني بك المرتد الناصرى
ومات وهو طرخان ، وكان السلطان أخرج عنه
التقدمة .

وفيها أمطرت السماء ، وجاء رعد وبرق ،
وهبت رياح باردة ، وذلك فى أواخر بشنس بعد
أن قلع السلطان الصوف ، فلبس الصوف بعد ذلك
أياما .

سنة سبعين وثمانمائة (١٤٦٥/١٤٦٦ م) :

فيها عاد المقر الشهابى أحمد بن العينى من
الحجاز الشريف ، وخوند الأحمدية ، فكان لهم يوم
مشهود .

وفيها كانت وفاة المقر صاحبى العلائى على
ابن الأهناسى ، توفي بمكة المشرفة ودفن هناك ،
وكذلك الأمير برد بك صهر الملك الأشرف اينال
توفي بمكة ودفن هناك . قيل مات قتيلا من العرب
فى رابع ، ثم نقل من رابع الى مكة ودفن بها .

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى
السعود أحد شعراء العصر ، وهو من السبعة
الشهب .

وفيها عزل السلطان قاضى القضاة صلاح الدين
المكينى وولى القاضى أبا السعادات البلقينى ، فأقام
فى قضاء القضاة أربعة أشهر ثم سعى عليه القاضى
ولى الدين الأسيوطى ، وكان الساعى له الأمير
خير بك الدوادار الثانى ، فتولى الأسيوطى وعزل
القاضى أبو السعادات .

وفيها أعاد السلطان القاضى محب الدين بن
الشحنة الى قضاء الحنفية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى بر الجيزة

بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر الأمير بلباي المؤيدى أمير آخور كبير ، والأمير برد بك هجين ، فطردوا من هناك العربان وأقاموا مدة ورجعوا . وقتل من المماليك السلطانية هناك ستة لما وقعوا مع العربان .

وفيهما نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة ، وزينت له وكان له موكب عظيم .

وفيهما عزم المقر الأتابكى قائم على السلطان في الربيع ، فنزل اليه هو وسائر الأمراء والعسكر ، فمد له الأتابكى قائم هناك سباطا عظيما فيل كان مصروفه ألف دينار ، ففرق الأكل على جميع العسكر وأحضر للسلطان هناك أرباب الملاعب من المشعبدین وغير ذلك ، فأنشراح السلطان في ذلك اليوم الى الغاية هو والأمراء . ولما رجع السلطان دخل الى بيت منصور الاستادار ، ثم توجه الى بيت صاحب شمس الدين البباوى ، فأقام السلطان عند قائم الى ما بعد العصر ثم طلع الى القلعة في موكب عظيم .

وفيهما نزل السلطان وخلق المقياس وكسر السد ، وهذا لم ير من بعد الملك المؤيد شيخ بأن سلطانا نزل وكسر السد بنفسه .

وفيهما خلع السلطان على منصور القبطى واستقر به استادارا ، فأقام بها مدة ثم قبض عليه وسجنه بالمقشرة ، ثم خلع على شرف الدين ابن كاتب غريب واستقر به استادارا ، ثم أثبتوا على منصور القبطى كفرا وضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية .

وفيهما توفيت خوند الأحمديّة زوجة الظاهر خشقدم ، وهى جدة المقر الشهابى أحمد بن العيني فلما ماتت تزوج السلطان بسريره خوند سوارباى أم ولديه .

وفيهما ، فى أواخر هذه السنة فى يوم الاربعاء

ثامن عشرى ذى الحجة ، نزل صاحب شمس الدين البباوى من بيته الذى سكن فيه على بركة الرطلى ، فنزل فى مركب وتوجه الى نحو قناطر بنى منجا ، فلما رجع ووصل الى فم خليج الزربية انقلبت به المركب هناك فغرق قريب البر ، فأطلعوا جميع ما غرق معه حتى حق الدقاق ، وهو لم يظهر له خبر ولا وقف له على أثر — حتى ولا فى شطنوف التى هى محط رحال الغرقى — فكان من بقية قوم نوح ، أغرقوا فأدخلوا نارا ... وقد قال القائل :

لا تكرهوا الموت ان فيه

حصاد من طاب مع خبيث

فمستريح ومستراح

منه كما جاء فى الحديث

فلما غرق البباوى خلع السلطان على يحيى ابن صنيعة ، ثم قاسم — وهو قاسم المعروف بشنيعة — وعبد القادر ، واشتركا فى التكلم فى الوزارة ، ثم انفرد بها الزينى قاسم ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

سنة احدى وسبعين وثمانمائة (١٤٦٦ / ١٤٦٧ م)

ففيها توفي الأتابكى قائم بن صفر خجا المؤيدى التاجر ، وقد مات فجأة فى ليلة واحدة . فلما مات خلع السلطان على المقر السيفى بلباي المؤيدى واستقر به آتابك العساكر عوضا عن قائم التاجر ، ثم خلع على المقر الشهابى أحمد بن العيني واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن بلباي المؤيدى ، فتزايدت عظمة المقر الشهابى أحمد ابن العيني فى تلك الأيام ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وهو الذى أنشأ القصر العظيم المطل على البحر بمنشية المهرانى . ولما كملت عمارة هذا القصر نزل السلطان اليه ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، وتفرج فى

ذلك اليوم على البحر وانشرح ، وكان يوما سلطانيا .

وفيها توفي قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وكان من أعيان خيار علماء الشافعية ، وتوفي وهو منفصل عن منصب القضاء .

وفيها تغير خاطر السلطان على الرئيس علاء الدين بن رحاب ، فشكه فى الحديد ورسم بنفيه الى الشام ، فخرج وتوجه الى قطيا وأقام بها أياما ، ثم شفع فيه كاتب المماليك بن جلود فرسم السلطان بعوده . وكان سبب نفى ابن رحاب أنه كان اذا عمل سماعا فى مكان يقوم فى ذلك المكان عربدة ، فعمل سماعا فى باب الوزير فقتل فى تلك الليلة قتيل ، فنفى السلطان ابن رحاب بسبب ذلك .

وفيها نزل السلطان للرمية ، وشق من القاهرة وزينت له .

وفيها نزل السلطان وكسر السد بنفسه .

وفيها غرق السلطان خازندار الأمير جاني بك نائب جدة المسمى يرش ، وكان شابا صغيرا فتأسف عليه الناس .

وفيها توفيت بنت السلطان التى من خوند سورباى ، وكانت مستحقة للزواج .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان الى أن عاد الى بلاده .

وفيها نزل السلطان الى المطعم بالمطرية ، ولبس الصوف هناك ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له موكب عظيم .

سنة اثنين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧/١٤٦٨ م) ؛ فيها تزايدت عظمة السلطان خشقدم ، وبلغت عدة مماليكه نحو أربعة آلاف مملوك ، وصار غالب خشداشينه مقدمى ألف ، منهم الأمير يشبك الفقيه ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير قنك

المحمودى ، والأمير جاني بك كوهية ، وغير ذلك جماعة كثيرة أمراء طبلخانات وعشراوات . ثم أمر جماعة كثيرة من مماليكه منهم الأمير خير بك الدوادار الثانى ، ومنهم الأمير خشكلدى اليسقى ، ومنهم الأمير كنباي ، والأمير مغلباى المحتسب ، والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليكه .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه سوار ، فرسم السلطان للأمير برد بك الجمقدار نائب حلب بأن يخرج اليه فخرج اليه . ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن برد بك نائب حلب لما خرج الى سوار التفت عليه وأظهر العصيان على السلطان وقصدوا التوجه الى الشام . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله وعين الى سوار تجريدة وبها من الأمراء خمسة مقدمو ألوف .

ثم ان السلطان دور المحمل الرجبي فى تلك السنة على جارى العادة ، فلما كان ليلة حراقة النفط فى الرميّة احترق بالنفط فى تلك الليلة سقف الاسطبل السلطاني ، فكان ذلك فألا على السلطان ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ...

ثم ان النيل المبارك وفى فى أثناء تلك السنة ، فنزل لكسر السد السلطان بنفسه على جارى العادة ، فكان له موكب عظيم ، وكان ذلك آخر مواكبه . فلما كسر السد وطلع الى القلعة حم من يومه ولزم الفراش ، ثم ثقل فى المرض وسلسل .

وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير خير بك والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، فعينوا الأمير أزبك بن ططخ — رأس نوبة النوب — بأن يخرج الى العقبة بسبب فساد العربان ، فخرج وتوجه الى العقبة ووصل الى الأزلم . ثم عينوا الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير يشبك الفقيه

أمير دوا دار كبير بأن يتوجهوا الى نحو الصعيد بسبب فساد العربان — وكل ذلك عن لسان السلطان وهو ملازم الفراش على غير استواء — فخرج هؤلاء مسرعين من غير تأخير . وكان الأمير خير بك متخبلا من هؤلاء الأمراء فأخرجهم بسرعة حتى يصفو له الوقت ويبلغ قصده ، فكان كما قيل :

وسالمتك الليالى فاغتررت بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ولما ثقل السلطان خشف قدم في المرض نزل بفرس من الاسطبل من الخيول الخاص ، وعرضه على الأمراء للبيع ، فاشتراه ابن العيني بخمسمائة دينار ، وقيل بألف دينار . فلما أرسل ثمنه للسلطان تصدق بثمنه كله على الفقراء ، وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك اذا حصل لهم توقعك يفعلون ذلك .

وفي مدة توقعك السلطان اضطربت أحوال الديار المصرية ، وصار الأمير تمر الوالى يطوف في كل ليلة في المدينة معه مماليك ملبسة والمشاعلية تنادى : « كل من يمشى في الليل يقطع أنفه وأذانه » ...

واستمر السلطان مريضا نحو أربعين يوما ، فلما كان يوم السبت بعد الظهر عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة توفي السلطان الملك الظاهر خشف قدم ، ودفن في تربته التى أنشأها في الصحراء . ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة ، ومات بحمى كبدية ، وخلف من الأولاد صبيين وهما سيدى منصور وأخوه ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست سنين وخمسة أشهر وعشرين يوما بما فيها من مدة توقعه وانقطاعه .

وكان ملكا جليلا مهيبا ، كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة . وكان حسن الشكل ، معتدل

القامة ، مترك الوجه ، أحمر اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسم ، شائب الذقن ، فصيح اللسان بالعربى . وكان ماشيا على النظام القديم ، تابعا لطريقة الملوك السالفة في عمل المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة اثنين وخميس . وكان ماشيا على طريقة أستاذه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ، ولبس الصوف في المطعم . وكان كثير الرمايات في كل سنة ، ويشق من القاهرة في المواكب الجليلة ، وكان بدور في كل سنة المحمل في رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ويخرج الناس في ذلك عن الحد في القصف والفرجة . وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا ، ولم يجىء في أيامه الطاعون بمصر ، ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية .

وكان ترفا في ملبسه ، فصنع له ركبا من ذهب ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمر الأسود الذى على لون الحبر لا يوجد الآن . وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ، ويبطنه بالمخمل الأحمر الكفوى . وكان اذا ركب وساق لا ينفرد ذيله من تحت فخذه ولو ساق سوقا قويا . وكان كريما على من يستحق الكرم ، بخيلا على من يستحق البخل .

لكن كان من مساويه جور مماليكه في حق الناس . ومن مساويه أنه كان غير عفيف عن ... و ... ومن مساويه أنه كان سريع العزل للقضاة والمباشرين ، ويأخذ أموالهم ويعزلهم بسرعة . ومن مساويه قتل جاني بك نائب جدة من غير ذنب ، وأخذ أموال ابن الأهناسى — حتى رخام بيته — بغير حق ولم يترك لأولاده شيئا ، وقتل جماعة من الأمراء بغير ذنب . وبالجمله أنه كان قليل الأذى بالنسبة الى من جاء بعده من الملوك .

وكان يحب العلماء والصلحاء ، وينقاد الى الشريعة ، وكانت البلاد على أيامه هادية من الفتن ، وهو آخر من مشى من الملوك على النظام القديم . فأما أتابكته فالمقر السيفى جرباش كرت أولا ، ثم قائم التاجر ، ثم بلباى .

وأما دوادارياته فالأمير جاني بك نائب جده ، والأمير يشبك الفقيه .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى يحيى المناوى — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى علم الدين صالح البلقينى ، والقاضى صلاح الدين المكينى ، وأبو السعادات البلقينى ، والقاضى ولى الدين الأسيوطى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى سعد الدين الديرى أولا ، ثم ابن الصواف ، ومحب الدين بن الشحنة — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى برهان الدين الديرى . وأما قضاته المالكية فالسيد الشريف القاضى حسام الدين بن حريز . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتاب السر فالقاضى محب الدين بن الشحنة أولا ، ثم ابراهيم بن الديرى ، ثم أبو بكر ابن مزهر .

وأما نظار جيوشه فتاج الدين بن المقسى ، والقاضى كمال الدين بن ناظر الخاص يوسف .

وأما نظار خواصه فعبد الرحمن بن الكوين أولا ، ثم شرف الدين الأنصارى ، والعلائى بن الأهناسى ، وتاج الدين بن المقسى .

وأما وزراؤه فعلاء الدين بن الأهناسى أولا — وقد تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات — ثم ابن صنيعة ، ثم مجد الدين بن البقرى ، ثم الشرفى يوسف ، ثم اليباوى ، ثم قاسم وشريكه عبد القادر .

وأما استاداريته فزين الدين أولا ، ثم مجد الدين بن البقرى ، ثم منصور . ثم قاسم الكاشف ، ثم ابن كاتب غريب ... فهذه جملة من تولى فى أيامه من أرباب الوظائف من القضاة والمباشرين .

أما من توفى فى أيامه فهم : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وصالح البلقينى ، ويحيى المناوى ، وشمس الدين القرافى من أعيان نواب المالكية ، والأتابكى قائم التاجر ، وسيدى محمد ابن الأشرف اينال توفى بشعر الاسكندرية . وتوفى الأمير تنم نائب الشام بدمشق ، وتوفى تمرباى ططر أحد المقدمين ، وتوفى الأمير جاني بك الظريف بسجن المرقب ونقل بعد موته الى مصر ودفن بالصحراء فى القبة التى عمرت له بعد موته . وتوفى الأمير خشكلدى القوامى أحد الأمراء الطليخانات ، وكان من أعيان المؤيدية وقيل من الناصرية . وتوفى من العلماء أيضا الشيخ جلال الدين المحلى — وكان من أعيان علماء الشافعية — والأصح أنه توفى فى دولة الأشرف اينال كما تقدم . وتوفى من المشايخ الشيخ عمر الكردى ، والشيخ محمد الشريفى الشاذلى ، والشيخ على الطيبى . وتوفى فى أيامه من الشعراء شهاب الدين بن أبى السعود توفى بمكة ، وسيدى على بن بردبك ، والشيخ شهاب الدين بن صالح وكان من فحول الشعراء ، ومن شعره فيمن أهدى اليه بطيحا وقطرا وقاله ارتجالا :

بعثت الى بطخا وقطرا
يشابه ذاك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل
تولد فى الحقيقة من نبات

الملك الظاهر بلباى المؤيدى

هو الملك الظاهر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى . وهو التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد بمصر ، بويغ بالسلطنة بعد موت الملك الظاهر خشقدم .

تسلطن فى يوم السبت بعد العصر ، وهو اليوم العاشر من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

وكان أصله جركسى الجنس ، جلبه الأمير اينال ضضع من بلاد الجراكسة فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ فى سنة عشرين وثمانمائة ، فأقام فى الطبقة مدة ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشاً وصار جمداراً ، ثم بقى خاصكياً ، ثم ساقياً فى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الأشرف اينال ، ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر خشقدم ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر بعد موت قائم التاجر فى سنة سبعين وثمانمائة .

فلما توفى الظاهر خشقدم وقع الاتفاق على سلطنته دون الأمراء ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ، فاستجمعوا فى المقعد الذى فى باب السلسلة فبايعوه بالسلطنة ، ثم أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضح الناس له بالأدعية الفاخرة .

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر

السيفى تربيغا أمير مجلس ، خاع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضاً عن نفسه . وخلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير مجلس عوضاً عن تربيغا ، فنزل ابن العينى من باب السلسلة وسكن فى بيت جاني بك نائب جدة المطل على الخليج . ثم خلع السلطان على المقر السيفى قن بك المحمودى واستقر به أمير سلاح عوضاً عن الأمير قرقماس الجلب . وخلع على المقر السيفى برد بك هجين واستقر به أمير آخور كبير عوضاً عن ابن العينى .

فلما فعل ذلك لم يتم أمره فى السلطنة ، وبأن عليه العجز ، وكان خشنا قليل المعرفة ، لأنه كان يدعى بلباى المجنون ، فصار منقاداً مع الأمير خير بك الدوادر بشعرة ، ولا يتصرف فى شيء من أمور المملكة إلا برأيه ، وصار مع المماليك الخشقدمية فى غاية البلية .

ثم ان الأمير خير بك أشار على السلطان بلباى بأن يمسك الأمير قرقماس الجلب ، والأمير أرغون شاه استادار الصحبة ، والأمير قلمطاي الاسحاقى ، فأرسل بالقبض عليهم — وكان الملك الظاهر خشقدم أرسلهم الى نحو الصعيد مع الأمير يشبك الفقيه كما تقدم — فأرسل للقبض عليهم من هناك وأرسلهم الى السجن بئر الاسكندرية فلما وقع ذلك نفرت منه قلوب الرعية ، وكان تدميره فى تديره .

ثم لما اتفق على العسكر قطع نفقة أولاد الناس والخدام ، فكثر عليه الدعاء . ثم ان النفقة تشحطت فشكا ذلك الى الأمير خير بك ، فقال له : « يامولانا السلطان ، ان كان فى حاصلك شيء من المال فأنفقه على العسكر ، وقد صارت الخزائن بيدك خذ منها ما شئت » ... فسمع له وطلع بماله جميعه جملة واحدة فأنفقه على العسكر ، وقد نفد منه ما كان حصله من حين كان جندياً .

ثم بعد أيام حضر الأمير أزبك بن ططخ رأس نوبة النوب ، والأمير جاني بك ، والأمير قلقسير حاجب الحجاب — وكان السلطان خشقدم أرسلهم الى العقبة بسبب فساد العربان — فلما حضروا كان صحبتهم جماعة كثيرة من العربان نحو ستين انسانا ، وكان الأمير أزبك انتهى في هذا السفر الى الأزم . فلما عرض العربان على السلطان بلباي أمر بتوسيطهم أجمعين ، ولم يعرف الظالم من المظلوم ، فصاروا في ذمته ، وكان فيهم صغار دون البلوغ . ثم لما رجع الأمير أزبك من العقبة أشار خير بك على السلطان بلباي بأن يستقر به نائب الشام . فلما طلع أزبك في يوم الجمعة الى القلعة خلع عليه السلطان بعد صلاة الجمعة — وهو في باب الستارة — خلعة ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام بعد ثلاثة أيام ، فخرج الى الشام في يوم الاثنين في أواخر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

فلما توجه الأمير أزبك الى الشام عمل السلطان الموكب ، وخلع على الأمير قايتبای المحمودي واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أزبك لما بقى نائب الشام .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه حضر من الصعيد فأقره على حاله دوادارا كبيرا كما كان ... وكل ذلك ترتيب الأمير خير بك الدوادار .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه قصد الوثوب على الأمراء الخشقدمية ، وأن يقبض على جماعة منهم ، فجمع خشداشيته — وهم قن بك المحمودي أمير سلاح ، والأمير جاني بك كوهية ، والأمير مغلباي طاز ، والأمير طوخ الزردكاش ، وجماعة المؤيدية كلهم — فلبسوا آلة الحرب وركبوا في يوم الخميس فلما تحقق العسكر ذلك التف عليهم جماعة من الاينالية وجماعة من الأشرفية والمماليك السيفية ،

فتوجهوا الى بيت الأمير يشبك الفقيه . فعند ذلك طلع الأمير يشبك الفقيه الى المدرسة التي تسمى الجاولية ، فقعده هناك وحفر خندقا عند المدرسة الصرغتمشية ، وواحدا عند رأس الكبش ، وواحدا عند قناطر السباع ، ثم ركبوا مكحلة في شباك المدرسة الجاولية ، واستمروا في ذلك اليوم كله يقعون مع المماليك الخشقدمية .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة نزل الأمير قايتبای رأس نوبة النوب من القلعة ومعه جماعة من المماليك الاينالية والظاهرية ، فتوجهوا الى الأمير يشبك الفقيه وأوقعوا معه ، فكان بينهم واقعة عظيمة ، وقتل في ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية .

فلما كانت ليلة السبت هرب الأمير يشبك الفقيه ، وهرب بقية الأمراء المؤيدية ، وانكسروا كسرة قوية ، فنهب العوام بيوتهم ، وولى سعدهم ، وأتت عكوسهم ، فخابت آمالهم ، ولم ينفع اجتهدهم ، كما قيل في المعنى :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهداه

فلما كان يوم السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين اجتمع الأمراء بالقلعة ، وأحضروا الحليفة والقضاة الأربعة ، وخلعوا الظاهر بلباي من السلطنة ، ووقع الاتفاق من الأمراء على ساطنة الأتابكي تمرغا كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ، ثم دخلوا بالظاهر بلباي الى البحرة وقيده ، ثم قبضوا على الأمير قن بك المحمودي أمير سلاح وقيده وأدخلوه الى البحرة . ثم ان الأمير يشبك الفقيه توجه الى الأمير قايتبای ، ثم قبضوا على الأمير جاني بك كوهية ، ومغلباي طاز ، وطوخ الزردكاش ، وبقية المؤيدية من كبير وصغير ولم يتركوا منهم أحدا . فأما الملك الظاهر بلباي فإنه

وكان خيربك جعل السلطان بلباي آلة ، وهو
بمهد لنفسه في الباطن ، وقد طمعت آماله في
السلطنة ، وحدثته نفسه بذلك ، والله غالب على
أمره ...

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري .
وهو الأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار
المصرية ، وهو الثاني من ملوك الروم بمصر في
العدد .

كان أصله رومي الجنس من مشتريات الملك
الظاهر چقمق ورباه صغيرا . فلما تسلطن چقمق
جعله خاصكيا ، ثم بقى من جملة السلحدارية ، ثم
بقى خازندارا ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم دوادارا
ثانيا في أثناء دولة الملك الظاهر چقمق ، وسافر
الى الحجاز أميرا في سنة تسع وأربعين وثمانمائة ،
ثم بقى مقدم ألف في دولة الملك المنصور عثمان بن
چقمق ، ثم نفى الى ثغر الاسكندرية وسجن بها
نحو ست سنين ، ثم نقله الملك الأشرف اينال الى
مكة فأقام بها نحو ثلاث سنين .

فلما تسلطن الظاهر خشقدم رسم باحضاره من
مكة ، فلما حضر خلع عليه واستقر به رأس نوبة
النوب عوضا عن قرقماس الجلب فأقام على ذلك
مدة ، ثم نفاه الظاهر خشقدم الى ثغر الاسكندرية
فأقام في السجن ثلاثة أيام هو والأمير أزبك ططخ ،
فشفع فيهم الأتابكي قائم التاجر ، فرسم السلطان
بأحضارهم . فلما حضروا أقام على ذلك مدة ، ثم
بقى أمير مجلس لما نفى الأتابكي جرباش كرت الى
ثغر دمياط عند ما بقى قائم التاجر أتابك العساكر ،
ثم بقى أتابك العساكر في دولة الملك الظاهر بلباي
عند ما تسلطن .

أقام في البصرة يومين ثم نزلوا به هو والأمير قن بك
المحمودى ، فتوجهوا بهما الى السجن بشعر
الاسكندرية . وأما الأمير يشبك الفقيه وطوح
الزردكاش فتوجهوا بهما الى ثغر دمياط . وأما
جانبى بك نوهية ومعلبای طاز فما أدري في أى مكان
توجهوا بهم : أفى ثغر دمياط مع الأمير يشبك
الفقيه أو لا ... فكانت مدة سلطنة الظاهر بلباي
بالديار المصرية شهرين الا أربعة أيام ، وكانت كأنها
سنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل
في المعنى :

ركب الأهوال في زورته

ثم ما سلم حتى ودعا
وبه زالت دولة المؤيدية كأنها لم تكن ...
فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وكان الظاهر بلباي من عمره أرشل قليل
المعرفة ، وكان يعرف بلباي المجنون ، وكان عمره
كله في غلاسة هو ومماليكه . وكان ملبسه مغلسا
من عمره ، وشكله سمج ، وتدييره سييء ... فجمع
بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت
اللسان كما قيل :

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده

وليس لديه للأخلاء تأنيس

تواضعه كبر ، وتفريبه جفا

وترحيبه مقت ، وبشراه تعيس

وقد زال بعده جملة واحدة ، فكانت أيامه
شر أيام مع قصرها ، وخرج ماله على آنحس وجه .
وكان مع خير بك الدوادار في غاية الضنك ،
ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، ولا
يتصرف في شيء من أمور المملكة الا بشورة الأمير
خير بك ، فكان اذا سئل في شيء يقول : « ايش
كنت أنا ؟ ... قل له » ... يعنى قل لخير بك حتى
سمته العوام « قل له » ...

فلما ركب المؤيدية وانكسر الأمير يشبك الفقيه
خلعوا الظاهر بلباي من السلطنة ، ثم وقع الاتفاق
من الأمراء على سلطنة الأتابكي ترمبغا ، فأحضروا
ال خليفة والقضاة الأربعة وبايعوا الأتابكي ترمبغا
بالسلطنة ، وذلك في يوم السبت سابع جمادى
الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، فلبس خلعة
السلطنة من الحراقة التي في باب السلسلة ، وركب
من سلم المقعد ، وطلع من باب سر القصر الكبير ،
وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفي قايتباي
رأس نوبة النوب .

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمراء
الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر أيضا ، ودقت له
الكؤوسات بالقلعة ، ونودي باسمه في القاهرة ،
وضج الناس له بالأدعية الفاخرة ، وفرح غالب
الناس بولايته لأنه كان رجلا عاقلا عارفا بأحوال
المملكة .

وكان كفئا للسلطنة ، وقد اشتمل على جملة
من المحاسن في علم الفروسية وغير ذلك من سائر
الفنون حتى كان يزن بيده في القبان ، وكان يعقد
البركاوات الحرير بيده ، وله غير ذلك محاسن كثيرة
في فنون لعب الرمح والنشاب ... ولكن لم يساعده
الزمان ، وجنى عليه وخان ، فلم تكن حركاته
سعيدة ، ولم تكن أيامه مديدة ، فكان كما قيل
في المعنى :

اني تأملت الزمان وفعله

في خفض ذي شرف ورفع الأرذل

كطبائع الميزان في أفعاله

تضع الرواجح والنواقص تعتلى

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب بالقصر
الكبير ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم :
المقر السيفي قايتباي المحمودي واستقر به أتابك
العساكر عوضا عن نفسه ، وخلع على المقر السيفي

جاني بك قلقسیر واستقر به أمير سلاح عوضا عن
قنبك المحمودي ، وخلع على المقر السيفي خيربك
واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الفقيه ،
وخلع على المقر السيفي خشكلدي اليسقي واستقر
به رأس نوبة النوب عوضا عن قايتباي المحمودي ،
وخلع على المقر السيفي تمر الوالي واستقر به
حاجب الحجاب عوضا عن بردبك هجين لما بقي أمير
آخور كبير ، وخلع على الأمير كسباي الخشقدمي
واستقر به دوادار ثانيا عوضا عن الأمير خيربك .
وفي تلك الأيام كتب الأمير كسباي كتابه على
خوند بنت الملك الأشرف اينال ، ولكنه لم يدخل
عليها .

ثم ان السلطان ترمبغا رسم بالافراج عن الأمير
قرقماس الجلب فأحضره من ثغر الاسكندرية ، ثم
رسم بالافراج عن الأمير تمرار الشمسي فأحضره
من ثغر دمياط ، وكذلك الأمير دولات باي النجمي
... وهؤلاء من ممالك الأشرف برسباي .

ثم أنعم على الأمير مغلباي الخشقدمي بتقدمة
ألف ، وأنعم على جماعة كثيرة من الخشقدمية
بأمريات عشرة وأمريات أربعين .

ثم انه رسم بتدوير المحمل الرجبي في تلك
السنة ، فساقوا الرماحة على العادة في القرافة .

ومن الحوادث في أيامه أنه قبض على الشرفي
يحيى بن الأمير يشبك الفقيه وصادره وأخذ منه
نحو عشرة آلاف دينار ، وكان قصده يصادر أعيان
الناس بسبب النفقة ، وقد صار مع الممالك
الخشقدمية تحت الضنك والقهر في كل يوم .

فلما كان ليلة الاثنين سادس رجب عمل السلطان
الموكب في القصر الكبير وطلع الأمراء على جاري
العادة الى القلعة ، فطلع الأمير خيربك ودخل الى
القصر . فلما كان وقت المغرب غلقت أبواب القلعة
ودخل جماعة من الممالك الخشقدمية ومعهم سيوف

مسلوثة فقبضوا على السلطان تمرىغا وهو جالس في الخرجاة المطلة على الرميلة ، وقبضوا على جماعة من الأمراء وحبسوهم تحت الخرجاة التي يجلس فيها السلطان . وكان الأمير خيربك اتفق مع المماليك الاينالية في الباطن بأنه يمسك السلطان والأمراء الظاهرية وتصير الاينالية والخشقدمية شيئا واحدا ، وأنه اذا مسك السلطان من فوق تركب الاينالية من أسفل ، فيمسكوا بقية الأمراء ، وأن خيربك يتسلطن ... فانخرم معهم الحساب ، وضلوا عن الصواب ، كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا فلما مسك السلطان تمرىغا — ومعه جماعة من الأمراء الذين طلوعوا الى القلعة في تلك الليلة — ظن خير بك أنه قد تسلطن ووصل الى ذلك ، فجلس على سرير الملك وتلقب بالملك الظاهر مثل أستاذة خشقدم ، وبأس له الأرض المماليك الخشقدمية ، وأنعم على جماعة منهم بوظائف سنية ، وتصرف في تلك الليلة بما يقتضيه له الاختيار ، ولسان الحال يناديه : « كلام الليل يمحوه النهار ... »

وكان الأتابكى قايتباى غائبا في الربيع لم يطلع في تلك الليلة الى القلعة مع الأمراء ، فلما بلغه خبر مسك السلطان والأمراء ، ركب تحت الليل ودار على جماعة الظاهرية من خشدشينه ، ثم داروا على الاينالية واستمالوهم على خير بك وقالوا لهم نحن نرضيكم ، فوقع الاتفاق في تلك الليلة على خلع السلطان تمرىغا ، وأن الأتابكى قايتباى هو السلطان ، وأن يقبضوا على الخشقدمية كلهم .

فلما وقع القرار على ذلك بأس الأرض تحت الليل للأتابكى قايتباى أعيان الاينالية ، وأركبوه وطلعوا به الى الرميلة . فلما بلغ خير بك ما جرى ، اضطربت أحواله ، وضاق به الأمر ، وأدركه

طلوع النهار ، فأخرج السلطان تمرىغا من تحت الخرجاة ، والأمراء الذين سجنوا معه ، وأجلس السلطان على مرتبته ، وبأس له الأرض ثم انسطح بين يديه وقال له : « وسطنى ... فانى كنت باغيا عليك » . فقال له السلطان : « يا أمير دوادار لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء » . فلما طلع النهار ملك الظاهرية والايينالية باب السلسلة ، وانكسر الخشقدمية ، فطلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة ، وجلس في المقعد الذى يطل على الرميلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، ثم خلعوا الظاهر تمرىغا من السلطنة ، وولوا الأتابكى قايتباى كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

فلما طلع السلطان قايتباى الى القلعة ، قبض على المقر السيفى خير بك ، وعلى المقر السيفى الشهابى أحمد بن العينى ، وعلى الأمير كسباى الدوادار ، وعلى الأمير خشكلدى المعروف باليسقى ، وعلى الأمير مغلباى ، وعلى جماعة كثيرة من الأمراء الخشقدمية ، فقيدوا الأمير خير بك وابن العينى وسجنوا في مكان بالقلعة ومعهم المهترع عبد الكريم . وأما الملك الظاهر تمرىغا فأدخلوه الى البحرة من غير قيد — وهو في غاية العز والعظمة — وأكرمه السلطان قايتباى غاية الاكرام ، فانه كان أغاث جميع ظاهرية جقمق ، فاكل جاءوا من بعده .

ثم ان السلطان رسم للملك الظاهر تمرىغا بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير قيد ولا سجن ، ورسم له بأن يركب الى صلاة الجمعة ويتنزه في غيطان دمياط ، فنزلوا به تحت الليل وتوجهوا به في مركب الى ثغر دمياط فأقام بها ، فكانت مدة سلطنته بمصر ثمانية وخمسين يوما لا غير ، فكان كما قيل في المعنى :

لم أستتم عناقته لقدمه
حتى ابتدأت عناقته لوداعه

ولم يعلم بأحد من ملوك الترك أنه خلع من السلطنة في أقل من هذه المدة ، ولم تقد معرفة الملك الظاهر تمرغا شيئا ، وعارضه الزمان كما قيل في المعنى :

واذا جفاك الدهر — وهو أبو الوري

طرا — فلا تعتب على أبنائه وكيف كان تمرغا يمكث في السلطنة والقسم كانت من القدم لقايتباي ؟ ... وقد قال القائل في المعنى :

الرزق في الوجوه للمرء ملتزم
ما هو لمن سمى الا لمن قسم
واستمر الملك الظاهر تربغا في أرغد عيش بشعر
دمياط حتى حسن له الشيطان أن ينسحب من ثغر
دمياط ، فتسحب من هناك كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

الملك الأشرف قايتباي

هو الملك الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتباي المحمودى الظاهري . وهو الحادى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

كان أصله جركسى الجنس ، جلبه الى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف برسباي هو وعدة ممالك صغار ، ضريبة كل مملوك خمسون دينارا . فلما اشتراه أنزله بالطبقة وصار من جملة الممالك الكتائية ، واستمر على ذلك حتى توفى الأشرف برسباي ، وتسلم الظاهر جقمق ، فاشتراه من بيت المال على يد حاسوك — وصى الملك الأشرف برسباي — هو وعدة ممالك كتائية . واستمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه ، ثم أخرج له خيلا

وقماشاً وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى دوادارا كبيرا . فلما توفى الظاهر جقمق وتسلم الظاهر بلباي جعله رأس نوبة النوب عوضا عن أربك بن ططخ لما بقى نائب الشام . ثم اأ تولى الظاهر تمرغا جعله أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، فلما وثب خير بك على الظاهر تمرغا ووقع له ما تقدم ذكره ، وقع الاتفاق من العسكر على سلطنته وخلع الظاهر تمرغا ، وكان القائم فى ذلك طائفة الاينالية والظاهرية .

فلما انكسر خير بك وطائفة الخشقدمية حطم الأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه القبلى مع جماعة من العسكر ، فملكوا باب السلسلة وقبضوا على خير بك ، فتقلب العسكر على الظاهر تمرغا وأشرف على الخلع . فعند ذلك طلع الأتابكى قايتباي الى باب السلسلة وجلس بالمقعد الذى به ، واشتوروا فيما يكون من الأمر فى الظاهر تمرغا ، فلم يوافق العسكر على ابقاء الظاهر تمرغا فى السلطنة ، فأرسلوا خلف أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، فحضر وحضر القضاة الأربعة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حرير المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر جماعة من الأمراء .

فلما تكامل المجلس عملت صورة شرعية فى خلع الظاهر تمرغا من السلطنة ، فخلعه الخليفة فى الحال وباع الأتابكى قايتباي ، وتلقب بالملك الأشرف . ثم أحضروا له شعار الملك — وهى العمامة السوداء والجبة السوداء التى بالطراز الذهب والسيوف البداوى — فلما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنع من ذلك وبكى ، فألبسوه ذلك الشعار غصبا وهو يمتنع غاية الامتناع ثم قدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة ،

وأذن للأمير جاني بك قلقسیر أمير سلاح بأن يفرد الصنّجق السلطاني على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخانة ، فرفع الصنّجق على رأسه ، وقد ترشح أمره للأتابكية .

فلما ركب سار ومشت قدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سر القصر الكبير .

فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبلت له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة .

فلما تمت بيعته وراج أمره خلع على الخليفة ونزل الى داره ، ثم خلع على المقر السيفي جاني بك قلقسیر الأشرفي برسباي وقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه ، ونزل الى داره في موكب حافل .

وقيل تولى الملك الأشرف قايتباي الملك وله من العمر نحو من خمس وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلا ، ثم دخل يشبك بن مهدي وتتراز الشمسي على الظاهر ترمبغا ، وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه الى قاعة البحرة وهو في غاية الاكرام ، ثم أخذوا منه النمچاه والترس والدواة وأحضروها بين يدي الأشرف قايتباي . ثم ان الأشرف قايتباي رسم بتقييد خير بك ، فقييد هو وابن العيني ، وأدخلوهم الى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وأدخلوا معهما عبد الكريم - مهتار الملك الظاهر خشقدم - وهو أول حكم وقع للأشرف قايتباي . ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه في القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وفيه يقول الشهاب المنصوري :

سلطاننا الأشرف في بذله

وعدله قد جمع الفضلا

تقبل الله السدي عزه

بالنصر منه الصرف والعدلا

وكان لما أراد أن يلبس شعار الملك شرط على العسكر أنه لا ينفق عليهم نفقة البيعة فرفضوا بذلك ، فلما تسلطن لم ينفق على العسكر شيئا . ثم أخذ السلطان في أسباب القبض على أعيان الخشقدمية ، فقبض على كسباي الدوادار الثاني وقد ظهر من بيت يشبك بن مهدي ، وقبض على مغلباي ورسم باخراجه الى القدس يقيم به بطالا ، ورسم باخراج كسباي الى حلب ، واختفى خشكدي البيسقي . ثم صار في كل يوم يقبض على جماعة من الخشقدمية ، ويشئت شملهم ويسجنهم بالقلعة ، ما بين أمراء وخاصكية .

ثم ان السلطان رسم باحضار قرقماس الجلب من دمياط ، واحضار جماعة من الأشرية ، منهم يبيرس خال العزيز ، ومنهم جاني بك المشد ويبيرس الطويل ... وكانوا بالقدس . ثم أشار بعض الظاهرية على السلطان بعود هذه الجماعة الأشرية الى القدس على عادتهم ، فخرج الأمر من السلطان بأن يعادوا بعد ما كانوا قد وصلوا الى قطيا ، فعادوا الى القدس .

وفي ثامن هذا الشهر رسم السلطان باخراج الظاهر ترمبغا الى ثغر دمياط ، فخرج وهو في غاية العز والاکرام من غير تقييد ، وقد رفق به ، وكان السلطان يرسل اليه في كل يوم أسمطة حافلة وهو بالبحرة . وغند ما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه في أمر السلطنة ، وأن ذلك لم يكن باختياره وكان على كره منه ، وكان بين ترمبغا وبين قايتباي أيمان عظيمة بأنه لا يغدر ولا يتسلطن ، فلم تتم هذه الأيمان .

ثم ان السلطان ودع الظاهر ترمبغا ونزل من القلعة وهو راكب على فرس من مركب السلطان ، ونزل من باب القرافة بعد العشاء ، وتوجه الى ساحل البحر ، ونزل في الحرافة ، وتوجه الى ثغر دمياط . فلما وصل الى دمياط نزل في

أحسن دورها ، وكان يركب الى صلاة الجمعة . واستمر بدمياط الى ان كان من أمره ما سذكركه . وفيه أشار بعض الظاهرية على السلطان بأن يطلق من كان سجنه من الخشقدمية .

ثم ان السلطان أخذ في أسباب مصادرة خير بك الذى تسلطن هو وابن العيني ، فطلب السلطان من خير بك نحو ألف دينار خارجا عن بركه وخبوله وسلاحه وغير ذلك ، وعلى ابن العيني نحو مائتى ألف دينار وذلك خارج عن بركه وسلاحه وغير ذلك .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : برد بك هجين وقرره فى امرية سلاح عوضا عن قانى بك المحمودى ، وخلع على يشبك بن مهدي وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن خير بك . ولما حضر قرقماس الجلب من دمياط خلع عليه وقرره فى امرية مجلس عوضا عن ابن العيني ، وكان قرقماس الجلب لما نفى الى الاسكندرية أمير سلاح فنزل درجة الى أسفل . وقرر فى الدوادارية الثانية قان بردى الابراهيمى الاينالى ، عوضا عن كسباى الخشقدمى . وقرر فى ولاية القاهرة قانى باى الحسنى الاينالى ، عوضا عن اصباى البواب الخشقدمى . وأنعم على قراجا الطويل الاينالى بتقدمة ألف . ثم ان بعض الأمراء شفع فى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت — وكان مقيما بدمياط من حين نفاه الظاهر خشقدم فى واقعة يرش مملوك چانى بك نائب جدة وقد تقدم ذكر ذلك — فلما حضر خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريدة الى شاه سوار بن دلغادر — وقد تقدم ما وقع منه فى أيام الظاهر خشقدم — وقد قويت شوكتة والتف عليه عسكر ثقیل من التركمان وغيرهم ، وقد

أظهر العصيان والمخامرة ، فخشى السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة . وكان يمكنه أن يرسل الى سوار خلعة وهدية وتخدم هذه الفتنه ، فلم يوافق على ذلك ، وأخذ الأشياء بالعتسنة ، فعين له تجريدة ثقيلة وعين بها الأمير قلقسير الأتابكى ، وبرد بك هجين أمير سلاح ، وناق رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وعدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعدة وافرة من الجند — والغالب فيهم من المماليك الخشقدمية — وجعل السلطان ذلك عوضا عن نفيتهم .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : جانى بك الفقيه الظاهرى وقرره فى الأميراخورية الكبرى عوضا عن برد بك هجين ، وقرر فى الأميراخورية الثانية يشبك حسن عوضا عن جانى بك الفقيه بحكم اتقاله ، وقرر فى حسبة القاهرة قانصوه الخفيف تاجر المماليك وأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه رسم السلطان باخراج خير بك الذى تسلطن — وقد سمته العوام « سلطان ليلة » — فخرج تحت الليل وهو مقيد راكب فرسا والأوجاقى يردفه على جارى العادة . فلما وصل الى شاطئ البحر نزل فى الحراقة وانحدر حتى وصل الى ثغر اسكندرية فسجن بها ، ورجع من كان معه من الاينالية .

وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وفيه نودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التى تتعلق بالمحتسب — وهى نحو ألف دينار فى كل شهر — فبطل ذلك مدة يسيرة ثم عاد بعد ذلك كل شىء على عادته .

وفيه ابتدأ السلطان بفرقة الأقاطيع على الجند — وكان أكثرهم اينالية — وأمر منهم جماعة

كثيرة حتى رضوا ، وكان قصدهم اثارة فتنة ،
واتفقوا مع الخشقدمية على ذلك ، ثم غلب سعد
الأشرف قايتباى على ما قصدوه وخمدت تلك
الفتنة .

وفيه قرر فى أتابكية دمشق شادى بك الجلبانى
عوضا عن سرامرد العثمانى بحكم القبض عليه .
وفيه وصل سودون البرقى من دمشق من غير
اذن السلطان — وكان عين من جملة المقدمين
بمصر — فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمة
ألف ، وعين للتجريدة وكان مريضا فأعفى من السفر
وأقام بمصر مدة ومات .

وفيه أحضر أزدمر الابراهيمى الطويل — وكان
مسجوناً بقلعة دمشق — فلما حضر أنعم عليه
السلطان بتقدمة ألف ، وقد صار يدارى الاينالية
مدارة .

وفيه عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة
لسوار ، واستمر جالسا على الدكة وهو يعرض
ويكتب الى ما بعد العصر ، ثم ضيق على أولاد
الناس ، وألزمهم بالسفر الى سوار أو يقيموا لهم
بدلا ، فصار يأخذ من كل واحد — ان كان لا
يسافر — مائة دينار عوضا عن البديل الى السفر ،
وقرر على جماعة من المباشرين جملة مال وأمرهم
باحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة العسكر ...
فهذه أول شدة وقعت منه فى حق الناس . واستمر
الأمر منه يتزايد فى كل يوم حتى جاوز الحد فى
ذلك ، وكان ما سذكروه فى موضعه . فلما تكامل
حضور المال حملت النفقات للأمرء المعينين للسفر ،
فحمل للأتابكى جانى بك قلقسير أربعة آلاف
دينار ، ثم حمل لبقية الأمرء المقدمين لكل واحد
ثلاثة آلاف دينار ، وللأمرء الطبلخانات لكل واحد
خمسائة دينار ، وللأمرء العشراوات لكل واحد
مائتا دينار ، وأنفق على الجند لكل واحد من
الماليك مائة دينار ، وهذا على العادة القديمة

الجارية بها العوائد . فلما تزايد أمر التجاريد
تضاعفت النفقات جدا حتى بلغت نفقة الأتابكى
ازبك بن ططخ نحو من ثلاثين ألف دينار فى كل
سفرة على ما سيأتى ذكر ذلك فى محله .

وفى شعبان خلع السلطان على يشبك السيفى
على باى وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، وقرر فى
حجوبية الحجاب بدمشق ابراهيم بن بيغوت ،
وقرر فى نيابة قلعة حلب تمر باى أخا ألماس .

وفيه أحضر السلطان الشهابى أحمد بن العينى
بين يديه فى الدهيشة ووبخه بالكلام بسبب ما قرر
عليه من المال الذى لم يورد منه شيئا ، فسطحه
على الأرض بالدهيشة وقام وضربه بيده نحو من
عشرين عصا حتى شق كعبه وأدماه وأغمى عليه ،
فشفع فيه بعض الأمرء وتوجهوا به الى طبقة
الزمام فأقام بها أياما ، ثم تسلمه يشبك بن مهدي
أمير دوادار كبير فنزل به الى داره ليورد ما قرر
عليه من المال . وكان ابن العينى لما قرر فى أمرية
مجلس ونزل من باب السلسلة سكن فى بيت جانى
بك نائب جدة المشهور ، فلما انكسر خير بك
وزال أمر الخشقدمية نهبوا بيت ابن العينى عن
آخيه حتى قيل نهب له من البرك والقماش شئ
بنحو من خمسين ألف دينار . وكان ابن العينى
ماشيا على طريقة أولاد السلاطين حتى أطلق عليه
عزيز مصر ، وربما تعصب له بعض جماعة من
الخشقدمية بأنه يتسلطن بعد خلع الظاهر بلباى
من السلطنة ولم يتم له ذلك . وقد لطف الله تعالى
به حيث لم يتسلطن فكان يقضى عمره كله فى القيد
والسجن الى أن يموت .

وفيه ، فى يوم الاثنين ثانى عشره ، خرج الأمرء
والعسكر المعينون للتجريدة ، وكان لهم يوم
مشهود — وهذه أول تجريدة خرجت من مصر الى
شاه سوار — فكانوا نحو عشرين أميرا ما بين

مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات ، ومن الجند فوق ألف مملوك . ثم فى لىالى السفر أنفق السلطان جامكية أربعة أشهر معجلا ، وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جملا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

وفيه ركب السلطان ودار على الميدان حول القلعة . فلما عاد طلع من باب السلسلة ، وكان نزل الى الميدان ، وهو أول ركوبه ونزوله من القلعة وهو سلطان . ثم تكرر ركوبه من بعد ذلك ليلا ونهارا حتى خرج ذلك عن الحد ، فترك بعض المؤرخين ضبط ركوبه ونزوله من القلعة اذ لم يحص ذلك بعد أن كان ركوب السلطان نادرة مما يؤرخ فى التواريخ القديمة .

وفيه اختفى الوزير قاسم شغيته . فلما اختفى خلع السلطان على عبد القادر ناظر الدولة بالتحديث فى الوزارة حتى يقرر بها من يختار .

وفيه قرر دمرداش العثماني فى نيابة القدس عوضا عن محمد بن حسن بن أيوب ، وقرر فى نظر القدس برد بك التاجى عوضا عن حسن التميمى . وفيه خلع السلطان على شاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة ، وقرر أبو الفتح المنوفى — موقع السلطان وهو أمير — فى نظر جدة مستوفيا على شاهين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن العينى ، وخلع عليه كاملية بسمور ، ونزل الى داره ، وقد تحفظ أمره بواسطة الأمير يشبك الدوادار . والتزم ابن العينى بأن يورد فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد ، فكان جملة ما أورده للخزانة الشريفة مائة ألف دينار وتسعة وثلاثين ألف دينار ، وذلك خارج عن تعلقاته وجهاته . وهذه من النوادر الغريبة حيث جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين

منذ قرر فى التقدمة الى أن قبض عليه ، فعقد ذلك من النوادر .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الأولياء ، وعاد من طريق قناطر السباع ، ودخل الى دار سودون البرقى وعاده فى مرضه ، وأقام عنده ساعة ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من الخشقدمية الى جهة الوجه القبلى مع الكشاف وغيرهم كما كانت عادة الممالك الاينالية .

وفيه قرر يبيرس الأشقر فى أتابكية صفد وفيه توفى سودون البرقى — وكان يعرف بالتمشى — وكان أصله من ممالك الظاهر . جقمق وقاسى محنا وشدائد ونفى واختفى . وكان انسانا حسنا ، وعندما بقى مقدم ألف مات فى سنته .

وفيه خلع السلطان على الصاحب شمس الدين محمد — والد الصاحب علاء الدين الاهداسى — وقرره فى الوزارة عوضا عن قاسم شغيته ، وقرر ولده محمدا فى نظر الدولة عوضا عن عبد القادر . وفيه أشيع أنه فقد من الخزينة السلطانية نحو عشرين ألف دينار ، فظهر أن خوند سوارباى وسرارى الظاهر خشقدم قد سرقوا ذلك ، فرسم السلطان على خوند سوارباى وأقامت فى الترسيم مدة حتى أرضت السلطان .

وفيه وصل الى الأبواب الشريفة السيد على بن بركات الحسنى وقد غضب من أخيه محمد سلطان مكة . فلما طلع الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه واستمر مقيما بمصر ورتب له ما يكفيه الى أن مات بعد مدة طويلة . وكان السيد محمد سلطان مكة أرسل للسلطان ستين ألف دينار على أنه يعوقه عنده بمصر حتى لا يقيم فتنة بمكة ، شرفها الله وعظمها .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما

ورحمهما ، ثم سار الى بركة الحبش ولعب بالكرة ،
ثم عاد الى القلعة وخلع على تانى بك المعلم كاملية
بسمور وقد أعجبه ضربه للكرة .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة - وهو أول
بخارى ختم للسلطان - وكان يوما مشهودا .
وحضر القضاة الأربعة وأعيان العلماء ، وفرقت
الصرر على من له عادة ، وكذلك الخلع فرقت على
أعيان العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفى شوال وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة ،
وتشحطت الغلال وارتفع سعرها ، فاشتكت الناس
للسلطان ، وصار اذا شق من القاهرة يسمعونه
الكلام المنكى .

وفيه توعك السلطان وانقطع من الموكب أياما ،
ثم شفى فأقيمت الخدمة بالقصر لأجل خروج
الحاج .

وفيه قدم جاني بك حبيب من بلاد الروم
- وكان هاربا من أيام الظاهر خشقدم - فتوجه
الى بلاد ابن عثمان . فلما حضر أكرمه السلطان
وخلع عليه وبعث اليه الأمير يشبك الدوادار بألف
دينار ليرقع أحواله .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نظام الدين بن مفلح
قاضى القضاة الحنبلى بدمشق ، وكان من أهل
العلم

وفيه صعدت الى القلعة خوند فاطمة بنت
العلائى على بن خاصبك ، فكان لها يوم مشهود .
وكانت مقيمة بدار السلطان التى بسوق الغنم الى
أن طلعت القلعة فى ذلك اليوم

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن العسكر
الذى توجه الى شاه سوار قد انكسر كسرة
شنيعة ، وأسر الأتابكى قلقسير ، وقتل جماعة من
الأمراء والجنود وقتل منهم ما لا يحصى ، وكان

غالب العسكر من الخشقدمية ، وقتل من الأمراء
المقدمين الأمير برد بك هجين المحمودى الظاهرى
أمير سلاح ، وأصله من ممالك الظاهر جقمق ،
وكان لا بأس به . وجرح الأمير تتر حاجب الحجاب
فى وجهه . وأما من قتل من الأمراء العشراوات
فمنهم أيدك الأشرفى ، واسنبغا بن صفر خجا
المؤيدى نائب باب القلعة ، وترباى الساقى
الأشرفى ، وقانصوه النوروزى ، وترباى قزل
الظاهرى ، وتانى بك السيفى ، وجانى بك الثور ،
وجانى بك البواب المؤيدى ، وقطلوباى المحمودى
الأشرفى العزيزى ، ومغلباى الخليلى الأشرفى ،
ويشبك الغزى الظاهرى ، ويشبك الأشقر . قيل
انه فوجر على سوار ف ضرب عنقه بين يديه . وأما
من قتل من الخاصكية والممالك السلطانية فما
ضبطوا . وقد نهب برك الأمراء والعسكر قاطبة ،
والذى سلم دخل الى حلب فى أسوأ حال من
العرب والمشى ، وقد قوى أمر سوار ، وتوجه الى
عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ، وأشيع بين
الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من
عسكره الى سوار .

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد
تحالفوا على الخروج عن طاعة السلطان ، فوثبوا
هناك وأحرقوا الجرون ونهبوا بلاد المقطعين فلما
بلغ السلطان ذلك عين تجريدة بها عدة من الأمراء ،
وعين تجريدة الى الشرقية وتجريدة الى الوجه
القبلى بسبب أولاد ابن عمر ، ثم خلع على شيخ
العرب صقر وقرره فى مشيخة عربان البحيرة ، ثم
عزل خشقدم ، كاشف البحيرة ، وولاهها لمحمد
الصغير . فلما وردت أخبار كسرة العسكر على يد
سوار اشتغل السلطان بذلك عن كل شىء ، ودهمته
هذه الأمور الشنيعة عن التجاريد التى عينها .
وفيه ابتدأ السلطان بوقوع المساوى منه ،
فأخرج قرية انبابة عن الخليفة المستنجد بالله

يوسف ، وكانت بيده من حين تسلطن المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أقطعها له لما تسلطن فأخرجها السلطان عنه باسم جاني بك حبيب . ثم بعد مدة يسيرة أخرج عنه جزيرة ابن الصابوني وأقطعها لبعض مماليكه ... فعند ذلك من مساويه .

وفيه وصل قانصوه الجيلاني الحاجب بدمشق وعلى يده مكاتيب أربك نائب الشام يخبر فيها بكسر العسكر ودخولهم الى حلب وهم في أسوأ حال ، وأن أربك نائب الشام دخل الى حلب وهو مجروح في وجهه ، وليس له برك ولا قماش ولا مماليك ، ودخل نائب حلب ونائب طرابلس على هذا الوجه ودخل غالب العسكر عرايا مشاة . وكانت هذه الواقعة في يوم الاثنين سابع ذي القعدة من السنة المذكورة . فلما وردت هذه الأخبار ماجت القاهرة ودار السلطان في أمره ، وما يظن أن سوارا يقوى على العسكر لكثرتة .

وفيه جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن سوارا سجن الأتابكي جاني بك قلقسير في جب ، وأن عسكر سوار قد قوى بما نهبه من العسكر من خيول وسلاح وبرك ، وقد عزم سوار بأن يزحف على حلب فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقلعة ، فحضر الخليفة المستجد بالله يوسف والقضاة الأربعة — وهم ولي الدين الأسيوطي الشافعي ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفي ، وحسام الدين بن حريز المالكي ، وعز الدين الحنبلي — وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الاقصراني ومشايخ من العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطاني . فلما تكامل المجلس قام القاضي كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وتكلم عن لسان السلطان ، ووجه الخطاب الى الخليفة والقضاة

ومشايخ العلم بما معناه من كلام طويل بأن بيت المال مشحوت من المال ، وأن سوار الباغي قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولا بد من خروج تجريدة عسكر لتحمي بلاد السلطان ، وأن العسكر يحتاج الى نفقة ، وليس في بيت المال شيء ، وأن كثيرا من الناس معهم زيادة في أرزاقهم ووظائفهم ، وأن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصد السلطان يبغى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ويدخل الفائض الى الذخيرة ... فقال الخليفة وقضاة الجاه الى شيء من معنى الاجابة الى ذلك . فبينما هم على ذلك اذ حضر شيخ الاسلام أمين الدين الاقصراني الحنفي — وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل خلفه السلطان — فلما حضر أعاد اليه كاتب السر الكلام الذي وقع في أول المجلس . فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الانكار وقال في الملأ العام من ذلك المجلس : « لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس الا بوجه شرعي واذا نفذ جميع ما في بيت المال ينظر الى ما في أيدي الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه . واذا لم يوف بالحاجة ، ففي ذلك ينظر في المهم : ان كان ضروريا في المنع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة ... وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت أجرك الله على ذلك ، وان لم تسمع فافعل ما شئت ، فانا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا : لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحت له الحق ؟ ... ولكن السلطان ان أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا ، ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤنة هذا الأمر كله » ... ثم قام ... فانجبه منه السلطان ، وانفض المجلس من غير طائل ، وكثر القال والقليل ، وشكر الأمراء الشيخ أمين الدين على ذلك وغالب الناس ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين

الدين رحمه الله ، وعد هذا المجلس من النوادر .
ثم ان السلطان نادى للجند بالعرض وأخذ في
أسباب خروج تجريدة . فلما أن دخل الدهيشة
وهو في غاية الحدة من الشيخ أمين الدين
الأقصراني ، واذا بالأخبار جاءت اليه من ثغر
دمياط بفرار الظاهر تمرغا من دمياط ، وأن شيخ
العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين
أنزلوه في مركب وطلعوا به من الطينة وقصدوا به
نواحي حلب . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت
أحواله ، وضاق الأمر عليه من كل جانب ، ونسى
ما كان فيه من أمر سوار وعرض العسكر .

ثم زاد القال والقليل في هروب الظاهر تمرغا من
دمياط ، فعند ذلك عين السلطان يشبك الدوادار
بأن يخرج ويلاقى الظاهر تمرغا من غزة فخرج على
جرائد الخيل مسرعا .

ثم ان السلطان نادى في القاهرة بأن لا يخرج
أحد من بيته بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا
ولا يحصل كلام ، وحصل للناس في تلك الأيام
غاية القلق .

وفيه قرر في قضاء الشافعية بدمشق قطب الدين
الخيضري عوضا عن ابن الصابوني مضافا لما بيده
من كتابة السر . ثم قرر في نظر الجيش البدر ابن
المزلق عوضا عن ابن الصابوني أيضا بحكم
القبض عليه .

وفيه جاءت الأخبار بأن سبع وسباع — ولدى
هجار — وثبا على الينابة . وكان قد خرج اليهما
على بن بركات — أخو صاحب مكة المشرفة —
فكسروه ... وهذه أول فتنة الينبع .

وفيه عين السلطان تجريدة الى سوار — وهي
التجريدة الثانية — فعين بها من الأمراء قرقماس
الجلب أمير مجلس باش العسكر ، وسودون
القصروي ، وقراجا الطويل الاينالي ، وازدمر

الطويل الاينالي ، وعدة أمراء طبلخانات
وعشراوات ، وعين من الجند فوق الألف مملوك .
وفيه جاءت الأخبار بأن سوارا قد أطلق
الأتابكي جاني بك قلقسير وقد وصل الى قرب
حلب .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سبع وسباع ولدى
هجار أمير الينبع ، وقد وقعت فتنة عظيمة بالينبع
بين خنافر وبينهما حتى قتلها ، وكان سبع وسباع
حصل منهما غاية الضرر الشامل .

وفي ذي الحجة توفي شخص يسمى عصام الدين
البخاري الحنفي ، وكان من أهل العلم ، وكان
أكثر اقامته بدمشق ، واشتغل بدمشق على جماعة
على مذهب أبي حنيفة ، وكان من الأفاضل .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن أرغون شاه
الأشرفي قد قبض على الظاهر تمرغا . فلما وصل
الأمير يشبك الى بليس تلقاه وحمله في محفة
وتوجه به من هناك الى ثغر الاسكندرية من غير
تقييد . ثم ان السلطان رفق به ولم يسجنه ، وقد
رسم له بأن يسكن بدار الملك العزيز التي
بالاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة
والعيدين . ثم ان الظاهر تمرغا كتب للسلطان
كتابا بخط يده وقال فيه : « المملوك تمرغا يقبل
الأرض » ... وأرسل يعتذر اليه مما وقع منه
بسبب تسجبه من دمياط ، واعتذر بأنه قصد
التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان
وتخمد هذه الفتنة ، كما قيل :

إذا كان وجه العذر ليس بواضح

فان اطراح العذر خير من العذر

وكان الظاهر تمرغا أرسل قليل الحظ معكوس
الحركات في أفعاله ، ليس له سعد ولا قسم له ،
كما قيل :

دع التعرض ان الأمر مقدور
وليس للسعى في الادراك تأثير

والمرء يعجز عن تحصيل خردلة
بالسعى ان لم تساعده المقادير

وفيه أيضا وصل أرغون شاه وعلى يده محضر
بأنه سلم الظاهر تمرغا الى الأمير يشبك الدوادار
الكبير وتوجه من بلبيس الى الاسكندرية . وكان
أرغون شاه قبض على تمرغا لما خرج من الطينة ،
فلما حضر أرغون شاه بين يدي السلطان شكره
على ذلك ، وخلع عليه خلعة حافلة ، وأركبه على
فرس بسرج ذهب وكنبوش ... فعز ذلك على
جميع الظاهرية لكونه قبض على تمرغا ، ولم
يكن هذا قصدهم

وفيه تزايد سعر القمح وانتهى الى سبعمائة
درهم كل أردب ، ففتح السلطان شونه وباع منها
بأقل من سبعمائة فحصل للناس بذلك بعض
رفق .

وفيه ثارت الممالك بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من
الطلوع اليها ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .
وسبب ذلك تأخر الوزير عن حمل اللحم المرتب
والخبز .

وفيه قبض السلطان على صاحب شمس الدين
محمد والد صاحب علاء الدين الاهناسي ووكل
به في طبقة الزمام .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ثلاثة أيام ، فقلق
الناس لذلك وزاد سعر القمح ، ثم بعث الله تعالى
بالزيادة حتى حصل الوفاء .

وفيه توفي الشيخ تقي الدين أحمد بن محمد بن
محمد بن حسن بن علي الشمني القسطيني ثم
السكندري الحنفي . وكان اماما عالما فاضلا خيرا
دينا عارفا بالفقه والأصول ، وله تصانيف وتأليف

في فنون العلم ، أجاز به البلقيني وابن الملقن والعراقي
وغير ذلك من العلماء ، وكان عين للقضاء الأكبر
غير ما مرة وهو يمتنع من ذلك .

وفيه قبض على شخص سرق ستر الامام الليث
ابن سعد رضي الله عنه ، فرسم السلطان بقطع يده ،
فشهر وقطعت يده .

وفيه توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن أسد بن
عبد الواحد السيوطي ثم السكندري الشافعي .
وكان عالما فاضلا بارعا في العلم ، عارفا بالقراءات
بالروايات السبع ، ومولده سنة ثمانمائة .

وفيه أفرج عن صاحب شمس الدين الاهناسي ،
وخلع عليه باعادة الوزارة ، وصرف ولده محمد
عن نظر الدولة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبي القاسم بن جهان
شاه صاحب كرمان ، وكان لا بأس به . ولى على
كرمان بعد أبيه ، وجرى عليه أمور شتى ، وآخر
الأمر قتل .

وتوفي الشيخ أبو عبد الله محمد التونسي
الموصلى المالكي رحمه الله تعالى . وكان عالما فاضلا
من أكابر علماء تونس ، وعاش نحو من سبعين
سنة .

وتوفي قانصوه خوتى الأشرفي أحد مقدمي
الألوف بدمشق رحمه الله تعالى .

وتوفي قراكير العثماني ، المعروف بجماز
الخاصكي ، وكان لا بأس به رحمه الله تعالى .
وتوفي طوغان ميق العمري المؤيدي أحد الأمراء
العشراوات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب طرابلس
الغرب .

وفيه توفي القاضي علم الدين أبو الفضل بن
جلود كاتب الممالك ، وكان أصله من الأقباط

يسى ابن اسحق ، وكان من أعيان المباشرين ،
ورأى من العز والعظمة غاية .

وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن
والشرور والأنكاد مالا يكاد أن يضبط ، وقتل
فيها من العسكر والأمرأ ما لا يحصى . وتولى فيها
ثلاثة سلاطين بل أربعة : بخير بك سلطان ليلة .
وتوفى فيها الظاهر خشقدم ، وتبدد شمل جماعة
الخشقدمية ، وزالت دولتهم ، ووقع فيها غاية
الفساد في البلاد الحلبية بسبب عصيان شاه سوار .
وقد تقدم ما جرى من الضرر في حق العسكر .

سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة (١٤٦٨ / ١٤٦٩ م) :

فيها ، في المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة
بالعام الجديد . فأمر السلطان بعقد مجلس بسبب
مشتري ممالك الظاهر خشقدم ، فاشترى من
الممالك الكتائية نحو من خمسمائة مملوك ،
ضريبة كل مملوك عشرة آلاف درهم ، وقد طمع
في حق أولاد الظاهر خشقدم .

وفيه خلع السلطان على عبد الكريم بن علم
الدين بن جلود ، ، وقرره في كتابة الممالك عوضا
عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يلتح بعد

وفيه عينت الأتابكية لأزبك بن ططخ نائب
الشام ، عوضا عن الأتابكي جاني بك قلقسیر ،
بحكم أسره عند سوار ، فخرجت اليه البشارة
بذلك وطلب الى مصر سريعا ليلى الأتابكية .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على تاني بك
المعلم ، الذي توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه
من العقبة وحمل للقدس بطالا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجا شهاب الدين
ابن المزلق الدمشقي ، وكان من أعيان التجار
بدمشق ، ولم يكن يلي شيئا من الوظائف كأخيه .

وفيه توفى جاني بك قبا التمشي المؤيدي مات
بطالا ، وكان بيده امرية عشرة .

وفيه ، في ليلة خامس عشره خسف جميع جرم
القمر حتى أظلمت الدنيا ، ودام على ذلك الى قرب
آخر الليل حتى انجلى .

وفيه توفى شاد بك شبق الأشرفي نائب ملطية
أولا ، ثم بقى مقدم ألف بدمشق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، فلما وفي توجه
الأمير قرقماس الجلب أمير مجلس ، وفتح السد
على العادة .

وفيه توفى أصيل الحصري ، وهو ابن محمد بن
ابراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق
ابن عبد الله المغربي — كان مالكي المذهب ، وكان
عشير الناس ، كثير المداعبات والنوادر ، لطيف
الذات محببا لأرباب الدولة ، وعاش مدة من العمر
طويلة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

وفيه حضر الزيني عبد الرحمن بن الكوير
الذي كان ناظر الخاص ، وقرر في دولة الظاهر
خشقدم ، فوجه الى ابن عثمان ملك الروم ، فأقام
عنده حتى توفى الظاهر خشقدم فحضر الى القاهرة .
فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه ونزل الى داره .
وفيه حضر قاصد حسن الطويل ، وعلى يده
مكاتبة بالتهنئة للسلطان بالملك ، وصحبته هدية
حافلة .

وفي مستهل صفر توفى العلامة شمس الدين
محمد بن ابراهيم الشرواني الشافعي . وكان اماما
عالما فاضلا نادرة عصره ، بارعا في فنون العلم ،
خضعت له الناس من أهل زمانه ، وشهرته تغنى عن
مزيد ذكره ، ومولده سنة ثمانين وسبعمائة .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى نحو طره والعدوية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى آخر النهار ، ومد هناك أسمطة حافلة ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه توقف النيل عن الزيادة وقلق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشتري القمح ، ثم بعث الله بالزيادة .

وفيه خلع السلطان على بلباي الظاهري أحد العشراوات ، وقرر في نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه اليحياوى — وقرر قانصوه اليحياوى نائب طرابلس عوضا عن اينال الأشقر — وقرر اينال الأشقر في نيابة حلب عوضا عن برد بك البقمقدار ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام عوضا عن أزيك بن ططخ ، بحكم انتقاله الى الأتابكية عوضا عن جاني بك قلقسير ، بحكم أسره عند شاه سوار .

وفيه نودى على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين الرطل وكانت ستة وثلاثين ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الأمين مغلباوى طاز الأبو بكرى المؤيدى ، أحد مقدمى الألوف بمصر . مات بدمياط بطالا ، وكان خيرا دينيا ، موصوفا بالشجاعة ، وهو صاحب الجامع الذى أنشأه بدرب الخازن — ومات وقد نيف على الثمانين سنة من العمر رحمه الله تعالى ، ونقل بعد موته الى القاهرة ودفن بتربته التى أنشأها .

وفيه وصل المقر السيفى أزيك نائب الشام ، فلما صعد الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه ، وقرره فى الأتابكية ، عوضا عن جاني بك قلقسير بحكم أسره عند سوار ، فنزل الى داره فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة

خوند فاطمة بنت الأشرف اينال . وكانت توجهت الى الاسكندرية بسبب ختان أولاد أخيها الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، فطعنت هناك وماتت ، وكان الطعن عمالا بالاسكندرية ، فحملت الى القاهرة ، ودفنت بتربة أبيها الأشرف اينال . وكان تزوج بها كسباى الدوادار الثانى الخشقدمى ولم يدخل عليها ، وكانت قبل ذلك تزوجت بالأمير يونس البواب الدوادار الكبير ، وماتت وهى فى عصمة كسباى . وكانت شابة جميلة لها من العمر نحو من سبع وعشرين سنة ، فكثر عليها من الناس الأسف والحزن والبكاء . وكانت من الأخيار .

وفيه توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء والمتعممين ، وأحضر قوسا ثقيلًا وبه سهم نشاب طومار ، وصار يدفعه لأولاد الناس . فكل من لا يقدر على سحبه يقطع جامكته . فحصل لأولاد الناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، واقتضح منهم جماعة ، ووبخهم بالكلام ، ونزلوا من القلعة ، وهم فى غاية الفكر ، وقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك ، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك .

وفيه توفى الطواشى سرور الطلايى شيخ الخدام بالحرم النبوى ، وكان قد طعن فى السن جدا . وتوفى القاضى شرف الدين عيسى العطولى الشافعى ، أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان يوما حافلا مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر بلباي المؤيدى ، مات وهو

بالسجن بالطاعون ، وقد قاسى شدائد ومحننا وآخر الأمر مات قهرا ، وقد تقدم ذكره .

وفيه هبط النيل سريعا في أثناء توت فتزايد أمر الغلال ، وشطح سعر القمح ، وابتدأ وقوع الطاعون بالقاهرة .

وفيه عين السلطان الأمير أزدمر الطويل الانالى بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من الممالك السلطانية الى حفظ البلاد الحلية ، ويقيم بحلب الى أن تحضر التجريدة ويخرج عقيب ذلك . وكان بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل على قلعة دريدة وحاصرها فبادر الأمير أزدمر وخرج في قلب الشتاء ليحفظ حلب . وكان ذلك عين الصواب وفيه جاءت الأخبار بوفاة قائم طاز الأشرفي أحد مقدمى الألوف بحلب ، مات وهو فى أسر سوار ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، ومات وقد جاوز الستين من العمر .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، ونصب هناك الخيام وأقام بها يومين ، وعمل هناك أسمطة حافلة ، وحضر هناك مع السلطان قاصد حسن الطويل ، وقاصد ملك الهند ، فكانت اقامتهم هنا مشهورة . وحصل للسلطان بذلك انشراح ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه قبض السلطان على صاحب شمس الدين الاهناسي - والد صاحب علاء الدين - وسلمه الى الأمير يشبك الدوادار ، فعاقبه وسجنه عنده أياما ، ثم قرر عليه ألفى دينار وأطلقه .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش لتفرقة الجامكية ، فقطع عدة جوامك لأولاد الناس والمتعممين ، وأحضر عنده ثلاثة أقواس بعضها أقوى من بعض ، وصار كلما دعا باسم شخص من أولاد الناس ، يدفع اليه من الأقواس قوسا ويأمره بجذبه ، فإن أوفى جذبه كتبه للتجريدة ، أو يحمل

مائة دينار عن بدل السفر ، وإن لم يجذبه قطع جامكيته . وصار بعض الأمراء يشفع فيمن له ألف جامكية بأن يبقى على حاله ، ومنهم من ألزمه بخمسين دينارا لمن له ألف جامكية ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب هذه المصادرة ، وهان عليهم ترك الجامكية من كثرة توبيخ السلطان لهم .

وفيه أنعم السلطان على برقوق شاد الشراب خاناه بتقدمة ألف ، وعلى قنبردى الدوادار الثانى بتقدمة ألف ، ثم فى آخر الجوامك قطع عدة جوامك للفقهاء والمتعممين ، وفعل بهم كما فعل بأولاد الناس فى مصادراتهم .

وفيه أمر السلطان باحضار علاء الدين بن الصابونى فى الدهيشة . فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ضربا مبرحا على رجله ، وألزمه بحمل مائة ألف دينار ، فأذعن الى ذلك . ثم حمل الى طبقة الزمام فى الترسيم ، ووكل به جماعة من الخاصكية الى أن يورد ما قرر عليه من المال

وفيه خلع السلطان على يشبك الدوادار خلعة حافلة كخلعه الأتابكى ، وقرره فى الوزارة مضافا للدوادارية الكبرى ، فأخذ الوزارة عن صاحب شمس الدين والد صاحب علاء الدين الاهناسي ، وقرر فاسم شغيته فى نظر الدولة ، عوضا عن محمد ابن شمس الدين الاهناسي . فلما تم أمر يشبائك فى الوزارة أخذ فى قطع مرتبات اللحم التى كانت للفقهاء والمتعممين فاطبة ، وكان ذلك باذن السلطان . ففتك يشبك الدوادار غاية الفتك ، ورسم على جماعة من المتعممين ، وقصد أن يأخذ منهم ما أكلوه فى الماضى . وكان منهم من له أربع زبادى لحم ، والخمسة زبادى ، بل وأكثر من ذلك ، فرسم على بدر الدين الدميرى كتكوت حتى شفع فيه بعض الأمراء ، وهرب ، واختفى حمزة بن

البشرى ، واستمر مختفيا حتى مات بعد مدة ، وحصل للفقهاء والمتعممين في هذه الحركة غاية الضرر والبهذلة ، وما أبقي مكانا في ذلك . وقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعممين والنساء ، وكان القائم في ذلك قاسم شغيته ، وحسن للسلطان ذلك . وهذا أول فتح باب المظالم . وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك .

وكان في الزمن القديم تباع الزبادى اللحم ، وتشترى النساء والفقهاء وغير ذلك من الناس ، فامتنع هذا الأمر في تلك الدولة ، وصار اللحم يصرف للمماليك فقط . وكان الوزراء المتقدمون يسدون هذا المسد للديوان أحسن السداد ، مع كثرة اللحوم المرتبة للناس على ذلك الديوان ، وآخر من كان قائما بسداد هذا الديوان : صاحب علاء الدين ابن الالهناسى ، ثم ابن البباوى ، ثم ابن الصنيعة وغيره من الوزراء ، حتى ولى قاسم شغيته ، فحسن ليشبك الدوا دار ذلك حتى فعل بالناس ما فعل .

وفيه خرج الأتابكى أزبك بن ططخ الى جهات البحيرة بسبب فساد العربان ، فأقام هناك مدة ثم عاد .

وفيه قرر سودون القسروى رأس نوبة النوب عوضا عن فائق الظاهرى ، بحكم وفاته . وفيه قرر تانى بك الاينالى فى الدوا دارية الثانية عوضا عن قنبردى الاينالى ، وقرر قانصوه الخفيف الاينالى فى شادية الشرا بخانا ، وقرر جانى باى الخفيف الاينالى فى تجارة المماليك ، وقرر مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن سرور الطلاييهى بحكم وفاته . وكان مثقال هذا عشير الناس كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقتته السلطان ، وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب . وفيه يقول المنصورى :

يهم ندى كف مثقال فراحته
فيها لمن أمه جود وأفضال
واعجب له فرعاه الله من رجل
فيه قناطير خير وهو مثقال
وفيه أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة
الى سوار ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار .

وفيه خلع السلطان على يشبك جن وقرره فى الحاج بركب الحمل ، وكان قد قرر قبل ذلك فى امرية الأخورية الثانية . وخلع على يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج فى الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن الطويل قد استولى على ممالك العراق ، وطرد من كان بها من الملوك ، وقد تزايدت عظمته جدا ، فخشى السلطان منه فى الباطن ، وأخذ حذره ، ولكن شغله عنه أمر سوار .

وفيه أرسل السلطان نفقات الأمراء المعينين الى التجريدة ، فحمل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار ، وحمل لقجماس الطويل أحد الأمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتى دينار ... فكان الذى صرف على هذه التجريدة التى خرج فيها أزدمر الطويل ، ومن عين معه من الأمراء ومن الجند — وهم نحو من خمسمائة مملوك — ما يزيد على مائتى ألف دينار . فخرج أزدمر الطويل ومن عين معه من الأمراء ومن الجند ، فى أوائل الشتاء ليقيم فى حلب .

وفيه خرج علاء الدين بن الصابونى الى دمشق . وخرج معه خاصكى يقال له جانى بك الأشقر ، ليحضر ما بقى عليه من المال الذى التزم به ، فخرج الى دمشق فى الترسيم .

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى التهنئة بالشهر ،

فتكلم السلطان معهم في المجلس في قطع جوامك العواجز من الجند والنساء . وأخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان ، وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب ... فطال الكلام في ذلك المجلس بسبب ذلك ، ثم انفض الأمر من غير طائل ، وقام القضاة ونزلوا من القلعة . فلما فرق الجامكية في الشهر الأول المذكور ، جلس على عادته ، واستدعى بالجامكية ، وصار يقطع عدة جوامك للعواجز من الجند والأيتام والنساء . وصار في كل شهر على عادته ، تفرق الجامكية بحضرته ، ويقطع في كل شهر للناس بحسب ما يختار منها . وهو أول من جلس على تفرقة الجامكية بنفسه من الملوك ، واستمر ذلك من بعده تفعله الملوك الى يومنا هذا في كل يوم تفرق فيه الجامكية . ولم يعهد هذا من ملك قبله أنه حضر تفرقة الجامكية بنفسه .

وفيه قرر يشبك البجاسي الذي كان نائب حلب وعزل . قرره السلطان في نيابة حماه عوضا عن محمد بن مبارك فعقد هذا من النوادر ، لكونه قرر في نيابة حماه بعد نيابة حلب .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالي ، وقرره في الحسبة عوضا عن قانصوه الخفيف ، بحكم انتقاله الى شادية الشرايخانة . فجاء يشبك الجمالي في الحسبة على الأوضاع ، وصار له حرمة وافرة .

وفي جمادى الأولى توفي الأمير جوهر التركماني اليشبكي الخازندار الكبير والزمم ، وكان هندي الجنس ، سييء الخلق ، غير محمود السيرة .

وفيه خرج تمتاز الشمسي قريب السلطان وتوجه

الى الغربية للكشف على الجسور ، وصار يتوجه اليها في كل سنة ، ويقيم بها أشهراً .

وفيه توفي العرس خليل والد شيخنا الشيخ عبد الباسط الحنفي ، وهو خليل بن شاهين الصفوي الأشرفي ، وكان ذكيا لييبا عارفا . تولى عدة وظائف سنية من الوزارة ونيابة الكرك ، ونيابة القدس ، ونيابة ملطية ، وأتابكية حلب ، ونيابة الاسكندرية ، وتقدمة ألف بدمشق ، وحج بالناس أمير المحمل . وكان من أعيان الرؤساء ، وكان نادرة في أولاد الناس ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان حنفي المذهب ، اشتغل على جماعة من العلماء ، وأجازه في الحديث الحافظ بن حجر .

وفيه خلع على الطواشي جوهر النوروزي الحبشي ، وقرره في الزمامية والخازندارية الكبرى عوضا عن جوهر التركماني .

وفيه توفي الشيخ المسلك العارف بالله تعالى حسام الدين حسين بن محمود الأصفهاني الرفاعي الشافعي ، وكان ديناً خيراً لا بأس به .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلي . وقد نهب البلاد ، وأسر نساء العربان وأولادهم ، حتى قيل أحضر معه نحواً من أربعمائة امرأة ، وقد مات منهن من الجوع عدة كثيرة . فلما عاد يشبك حصل من العربان بسبب ذلك ما لا خير فيه في البلاد ، وسلب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شيخ العرب حسن بن بغداد ، أحد مشايخ الغربية ، وكان في سعة من المال ، فأحاط السلطان على موجوده قاطبة .

وفي جمادى الآخرة ارتفع سعر الغلال عما كان ،

واشتد الغلاء على الناس ، وجاءت الأخبار بافشاء
البلاعون بأقليم البحيرة .

وفيه توفي الطواشي شاهين غزالي الظاهري
الرومي ، وكان بارعا في الجمال ، واقتن به كثير
من النساء والرجال ، وكان حسن الشكل ، وافر
العقل ، كثير الأدب ، حشما في نفسه . وكان في
سعة من المال ، غاويا متجرا ، وكان منهمكا في
ملاذ نفسه . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه ،
ثم توجه من الصلاة الى بركة الحبش ، وأقام بها
الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة . وفي شاهين
غزالي يقول الشهاب المنصوري :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم
وزاد حسنك بالاحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وغى
من جو اخلاصنا ان كنت شاهينا
وقال آخر :

أيها العشاق اصغوا واسمعوا حسن مقالى
كل عاشق لو غزال وأنا شاهين غزالي
وفيه ذكرت أعجوبة ... نقل شيخنا الشيخ
عبد الباسط بن خليل الحنفى في تاريخه أن شخصا
من الجند يقال له يوسف السيفى يشبك الصوفى ،
خرج ليسير نحو الجبل المقطم ، فرأى حصاة مرمية في
الأرض ، فأخذها فاذا عليها مكتوب بخط جيد
قديم : « قد قرب الوقت فاعتبروا واتقوا الله » وهى
كتابة بغير نقط ، ولا شكل ، فأحضرها بين يدى
الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، حتى رآها وتعجب
من ذلك ، ولكن طعن فيها بعض الناس ، وقال انها
مصنوعة ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأخذ في
أسباب خروج العسكر الى سوار ، وهى التجريدة
الثانية ، فعين باش العسكر الأتابكى أزبك بن ططخ

وقرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القسروى
رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا
الطويل الاينالى .. ومن الأمراء الطبلخانات خاير
بك ابن حديد ، وجانى بك الزينى ، ومن الأمراء
العشراوات زيادة على العشرين أميرا . ثم رسم
لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لم
يسافر يحمل الى بيت المال مائة دينار ويقدمها بدلا
عنه ، وهذا لمن يكون له جامكية واقطاع ، ومن لم
يكن له اقطاع وله ألف دينار أو له جامكية ألف
درهم ، يحمل خمسة وعشرين دينارا .

وفيه قبض السلطان على الشهابى أحمد بن
العينى ، وسجن بالقلعة ليورد بقية المال الذى
كان قرر عليه ، فأقام بالقلعة أياما حتى حمل ما عليه
من المال المقرر . فعند ذلك خلع عليه السلطان ونزل
الى داره .

وفيه أنفق السلطان على العسكر لكل مملوك
مائة دينار ، ولكل أمير مقدم ألف : ألفا دينار . وحمل
للأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ،
وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينار . فكان
جملة ما صرف على هذه التجريدة نحو من
أربعمائة ألف دينار ... فلما كان يوم الموكب طلع
قرقماس الجلب الى القلعة ، وطلب من السلطان
الاعفاء من السفر ، وأظهر العجز ، وأن يكون
طرخانا في أى مكان يختار السلطان . فلم يجب الى
ذلك وخاشنه السلطان فى اللفظ ، وألزمه بالسفر ،
وأكد عليه . فلما نزل الى داره كثر القيل والقال ،
بأن ستكون فتنة . فلما بلغ السلطان ذلك لم يؤثر
عنده ، ونزل الى خليج الزعفران وأقام به الى آخر
النهار . ثم عاد الى القلعة وبطلت تلك الاشاعة .

وفى رجب حضر من البحيرة الأتابكى أزبك فلما
نزلت له النفقة تمنع من السفر ، وزعم أنه لا يطيق

ممالك السلطان اذا عمل باش العسكر ، فما زال يتلطف به حتى أجاب الى السفر ، وقبل منه النفقة .

وفيه وصل قاصد حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومكاتبة تتضمن ما ملكه من القلاع من ملك العراق ، وعلى يده عدة مفاتيح لعدة قلاع وحصون . وأرسل يتملق للسلطان بأن كل ما يملكه من البلاد هو زيادة في ممالك السلطان ، وأنه النائب عنه فيها ، فأكرم السلطان قاصده ، وأضافه ، وخلع عليه كاملية حافلة ، وأرسل الى حسن الطويل هدية حسنة سنية ، وأذن للقاصد بالسفر . وكان هذا من حسن الطويل عين الخداع لما يأتى منه بعد ذلك .

وفيه توفي القاضى معين الدين ابن الطرابلسى الحنفى ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى وكان عالما فاضلا ، ثاب في القضاء مدة . ثم نزل عن ذلك ، ولزم العبادة والتصوف حتى مات .

وفيه أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين الى تجريدة سوارا . ثم ابتدأ بتفرقة الجمال . ثم عجل لهم جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضا ، وأرضاهم بكل ما يمكن . ووقع في يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة : وهى أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها الى الميدان ، تزاومت عند باب الميدان وقت دخولها ، فمات منها في ساعة واحدة ، نحو من ثلثمائة بعير ، فتشام الناس لذلك وصرخوا بعدم نصره العسكر ، وكذلك جرى .

وفيه كان ابتداء وقوع الطاعون بالقاهرة وهو أول طاعون وقع في دولة الأشرف قايتباى .

وفي شعبان توفي قاضى القضاة المالكى حسام الدين بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، وكان أصله مغربيا من طرطاي ،

ثم نشأ بمنفلوط ، وولى القضاء بها مدة طويلة ، وكان عالما فاضلا جوادا سمحا ، في سعة من المال ، سمع على ولى الدين العراقى وغيره من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الأكبر بمصر ، وصفا له الوقت ، وطالت أيامه بها ، وعظم أمره في القضاء ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة . وكان يعاب بكثرة القيام في أغراض نفسه . ولما مات تولى من بعده أخوه عمر سراج الدين ، وقرر في قضاء المالكية عوضا عن أخيه . وتوفي المسند شمس الدين محمد بن النقاش الوفائى الصوفى الشافعى . سمع الحديث من والده الشيخ سراج الدين عمر بن عمر بن حسن .

وفيه تزايد أمر الطاعون جدا ، وعمل في الأطفال والممالك والعييد والجوارى والغرباء عملا بليغا ذريعا ، حتى عظم الأمر في ذلك . وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا نعم عيشة مصر وبئس ما قد دهاها

لما فشا الطعن فيها حاكى السهام وبها

وفيه خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الدوادار ، وقرره في الاستدارية ، مضافا لما بيده من الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشف ، فعظم أمره جدا . وما أظن أن هذه الوظائف قد جمعت لأحد من الأمراء قبله . فكان الانسان اذا قرب من بابه يستعيز بالله من هول ما يرى من الظلمة التى يبابه . فلما ولى يشبك الاستادارية قبض على مجد الدين بن البقرى ، وشرف الدين بن كاتب غريب ، وطلب منهما مالا . فحصل من ابن البقرى خمسة آلاف دينار . وأما ابن كاتب غريب فانه أظهر العجز ، وحلف أنه لا يملك شيئا ، وكان متمرضا ، فرسم السلطان بحمله الى البرج الذى بالقلعة ، فسجن به .

وفيه خرج العسكر المعين الى سوار ، فخرجوا من القاهرة في تجمل زائد ، وطلبوا أطلابا حافلة ... فخرج الأتابكي أزبك ومعه من العسكر والأمراء ما تقدم ذكره ، وخرج قبل ذلك الأمير أزدمر الطويل ، ومعه خمسمائة مملوك . فصار الطاعون عمالا ، والتجريدة خارجة ، والعسكر في غاية الضرر على أولادهم وعيالهم . ومات في أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية . وقيل ان السلطان نزل تحت الليل الى الأتابكي أزبك ، وأقام عنده ساعة وودعه ، وعاد الى القلعة كل ذلك تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس . وفيه توفي الأديب البارع الفاضل الشهاب بن صالح ، وهو أحمد بن محمد بن صالح بن عثمان ابن محمد الشافعي . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا من فحول الشعراء . وله نظم حسن السبك ومولده سنة عشرين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق فيمن أهدي اليه بطيخا وقطرا قوله :

بعثت الى بطيخا وقطرا

يشابه ذاك هذا في الصفات

هما نوعان عند الذوق كل

تولد في الحقيقة من نبات

وله في اسم فرج :

شكا فؤادي هم الصد يافرج

وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا

واستياس القلب حتى رحت أنشده

يامشتكى انهم دعه وانتظر فرجا

والتورية فيه ثلاثية

وفيه عظم أمر الطاعون بالقاهرة . وصارت

الغرباء يموتون في الطرقات بعضهم على بعض ،

فشرع الأمير يشبك الدواidar في بناء مغسل بالقرب

من مدرسة السلطان حسن . وصارت تحمل اليه

الطرحاء من الموتى ، فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله ، فحصل للناس بذلك غاية الرفق في تلك الأيام .

وفي رمضان اشتد الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب ، حتى قيل بيعت الغرارة القمح بدمشق بنحو من أربعين دينارا ، وزيادة .

وفيه مات للسلطان ولد اسمه سيدي أحمد ، وهو أول أولاده من خوند الخاصكية ، وكان عمر ابن السلطان نحو من أربع سنين ... ثم ماتت له ابنة اسمها ست الجراكسة ، وعمرها نحو من ست سنين من خوند أيضا .

وفيه توفي الطواشي لؤلؤ الزمام الأشرفي ، وكان خازن دار كبير زمام . وتوفي يشبك خازن دار الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أمير عشرة . ومات مغلباي الخشقدمي ، وكان من الأمراء العشراوات ، ومات ابن أخت السلطان وكان شابا حسنا صغير السن ، ومات جان بلاط الاينالي أحد الأمراء العشراوات . ومات جكم المحمدي الخشقدمي أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان حاجب ثاني . ومات اينال باي ميق الأشرفي أحد الأمراء العشراوات ، ومات أقيردي الهواري الاينالي أحد الأمراء العشراوات . ومات قاني باي الحسنی الاينالي رأس النوب . ومات آنص باي الأعور الاينالي أمير آخور التبن والدريس ، ومات أركماس قرا أحد الأمراء العشراوات ، ومات قاني باي الحسيني الاينالي أحد العشراوات وكان والي القاهرة ، وكان غير عسوف في ولايته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيرس خال الملك العزيز ، ومات بالقدس بطالا . وكان في عشر الثمانين . وولى عدة وظائف سنية ، وجري عليه

شدائد ومحن ، وكان الخشقدمى لا بأس به في جماعة الأشرية .

وفيه توفي الشيخ جمال الدين أبو الفضل خطيب مكة ، وهو محمد بن محمد بن أحمد العقيلي النويري الشافعي ، وكان عالما فاضلا ، سمع على جماعة من العلماء ، وولى خطابة مكة ، ثم قدم الى مصر وأقام بها الى أن مات وكان معظما عند أرباب الدولة ، وقد ترشح أمره لأن يلى القضاء بمصر ، فما تم له ذلك .

وفيه حصل للأمير يشبك الدوادار توعك في جسده . فنزل اليه السلطان وعاده .

وفي شوال تناقص أمر الطاعون ، وأخذ في الارتفاع ، بعد ما فتك في الناس فتكا ذريعا .

وفيه خلع السلطان على قاني باي آنص الساقى وفرره في الحجوية الثانية عوضا عن جكم ابن أخت السلطان بحكم وفاته .

وفيه كان وصول الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان بغير الاسكندرية ، فاستأذن السلطان في الحضور ليحج ، فأذن له في ذلك فحضر . فلما صعد الى القلعة ووقف بين يدي السلطان ، وأراد أن يقبل الأرض ، نهاه السلطان عن ذلك ، وبالح في اكرامه ، ثم أحضر اليه كاملية بسمور ، وفوقاني أخضر بطرز ذهب ، وقدم اليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فركب من الحوش ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، وقدامه الأمراء ، فتوجه الى دار الأتابكي أزبك عند أخته زوجة أزبك ، وكان غائبا في التجريدة ، فأقام عندها ، ثم بعد أيام أضافه السلطان بالبحرة ، ثم بعد ذلك ألبسه كاملية بسمور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل في موكب حافل . فعد مجيئه الى مصر ، وطلوعه

الى القلعة ، من النواذر ، ثم ان السلطان أخذ في أسباب عمل برك للملك المنصور لأجل الحج .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدي الطواشي ، وقرر رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالي . وخلع السلطان على مرجان النقوى الحبشي وقرره في مشيخة الخدام بالمدينة الشريفة . وفيه توفي أقباي اليحياوي الاينالي أحد الأمراء العشروات ، وكان شابا شجاعا بطلا .

وفيه أرسل السلطان الى الظاهر تمرغا ، وهو بالاسكندرية ، فرسا بسرج ذهب وكنبوش وكاملية بسمور ، وأذن له في الركوب الى الصلاة في الجمعة والعيدين ، والى حيث شاء من أماكن الاسكندرية

وفيه توفي الأمير قان بردي الابراهيمي الاينالي أحد مقدمي الألوف بمصر .

وفيه جاءت الأخبار بقتل السلطان أبي سعيد بن أحمد بن سعيد بن سعدان شاه تملنك ، وكان متملكا على سمرقند وبخارى ، وقتل على يد حسن الطويل ، وكان من أجل ملوك الشرق قدرا . فلما قتل تولى من بعده أحمد ، وهو باق على منكبه الى يومنا هذا .

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر الاينالي وقرره في ولاية القاهرة ، فحسنت أوقاته بها ، ودام في الولاية نحو من عشرين سنة .

وفيه استقر في مشيخة المدرسة الصلاحية — المجاورة لقبة الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه — الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية عوضا عن زين العابدين ابن قاضي القضاة يحيى المناوي بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وخرج صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق ،

فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من برك وسنيح وغير ذلك .

وفيه لبس السلطان البياض في يوم الاثنين سادس عشره - الموافق الثالث عشر بشنس - فخرج من الدهيشة لابس البياض . وقد خالف العادة في ذلك بعدم لبسه له يوم الجمعة وهى العادة القديمة ، فعيب ذلك عليه .

وفيه عاد القاضى شرف الدين الأنصارى من جبل نابلس ، وكان خرج بسبب جمع العشير المتوجه مع التجريدة فقيل انه صرف على جمع العشير من النفقة نحو من مائتى ألف دينار .

وفيه نزل السلطان نحو قليوب ، ثم عرج على جسر أبى المنجا ، ثم عاد الى تربة يشبك الدوادر ، فأقام بها الى ما بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل أخذ باب الملك ، وأنهم فى استظهار على العدو سوار . ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باى الأقطع أخى سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، وبعث برأس مال باى الأقطع ومعها رأسان من أمرائه ، فلما حضرت تلك الرؤوس طيف بها فى القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وفيه جاءت الأخبار بموت خير بك البهلوان ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر فى واقعة مال باى أخى سوار .
وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو طرا فأضاف هناك محمد بن البلاح ، فأقام الى آخر النهار وعاد .

وفيه سافر السلطان الى جهة بحيرة تنيس ، وكان معه من الأمراء المقدمين برقوق الناصرى ، واستمر فى هذه السفرة أياما ، وانقطع خبره عن الناس

مدة ، وقد قرب عيد النحر ، فبعث مرسوما بطلب قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلى به صلاة عيد النحر بفارسكور ، فخرج القاضى بسرعة وأخذ معه أشياء من نوع المأكّل هدية للسلطان ، فتوجه الى نحو فارسكور ، فعيد السلطان هناك وقطع أضحية جماعة من أولاد الناس والفقهاء والنساء ، حتى الخوندات وجماعة كثيرة من الجند ، فحصل للناس كسر خاطر بسبب ذلك ... وكان العسكر فى هذا العيد غائبا فى التجريدة ، والسلطان مسافر ، وكان عقيب الفصل وقد فقدت الناس أولادهم وعيالهم ، وقطعت ضحاياهم المرتبة لهم بالديوان السلطانى من قديم الزمان .

وفى يوم عيد النحر كانت بشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، ثم نودى عليه من غد .

واستمر السلطان فى هذه السرحة غائبا نحو من أربعين يوما ، وطاف عدة بلاد من الشرقية والغربية ، فدخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان والمدركين من خيول ومال وغير ذلك .

وكان خروجه الى السفر على حين غفلة ، ولم يكن معه من الأمراء المقدمين سوى برقوق وبعض أمراء عشراوات وبعض عسكر . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قصد العود الى الديار المصرية ، وقد وصل الى بليس . فلما وصل الى الخانقاه خرج اليه أرباب الدولة قاطبة ، ثم نودى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة . فلما كان يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور دخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل ، وقد حمل القبة والطين على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، وموجب ذلك غياب الأتابكى أزبك بالتجريدة ، وكان له يوم مشهود ، ومشت قدامه الجنائب بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية ، وفرشت تحت حافر فرسه

وتوجه الى دمياط ثم عاد الى مصر في دولة الأشرف
قايتباي ، وأعيد الى اميرية مجلس ، وخرج الى
التجريدة وقتل في المعركة .

وأخبر بموت جماعة من الأمراء وغيرهم ، منهم
سودون القصري رأس نوبة النوب ، مات بحلب
وكان مجروحا فحمل الى حلب ومات بها ، وكان
قد طعن في السن ونيف على الثمانين سنة في العمر .
وكان انسانا حسنا دينيا خيرا ، وهو صاحب
المدرسة التي بخط الباطلية بجوار داره . وولي
عدة وظائف سنية ، منها ليابة قلعة مصر ، ثم بقي
مقدم ألف ، ثم بقي رأس نوبة النواب ومات بحلب ،
وكان أصله من مماليك قسروه نائب الشام ، وكان
دواداره .

وتوفي برسباي أمير آخور ثاني ، وكان يعرف
بيرسباي الأبو بكري ، وكان أمير عشرة ورأس
نوبة .

وتوفي اينال باي بن ميق الاينالي ، وكان أمير
عشرة . وتوفي تغري بردى الأرمني المنصوري .
وتوفي طقطمش الحمدي الأشرفي برسباي ، قيل
رماه سوار من أعلي السور فمات لوقته ، وكان
شجاعا بطلا . ونوروز الدوادار ، وفارس البكتري
أحد العشراوات ، وقجماس الطويل الحسني
الظاهري أحد الأمراء الطليخانات ، ونوروز
شكال ابن تغري بردى الأرمني المنصوري أحد
العشراوات ، ونوروز قمر العلائي الأشرفي برسباي
قيل رماه سوار من أعلي السور فمات لوقته ،
وكان شجاعا بطلا ، ونوروز الدوادار بن عيني
الأشرفي أحد العشراوات وكان أمير خازندار ،
وقانم بيضا اليوسفي الظاهري أحد العشراوات .

وقتل أيضا من أمراء دمشق : الشرفي يحيى بن
جائم نائب الشام أحد مقدمي الألوف بدمشق ،
وكان يوصف بالشجاعة . وقتل محمد بن تتم بن

الشقق الحرير من عند مدرسة أم السلطان التي
بالتبانة الى القلعة ، وثر على رأسه خفايف الذهب
والفضة ، ومشت قدامه الأمراء الرءوس النوب
بالشاش والقماش من بين القصرين الى القلعة ،
واصطفت له المغاني من النساء في الدكاكين ،
واستمر في ذلك اليوم موكب حافل حتى طلع الى
القلعة ، وهذا أول مواكبه الحافلة .

وصادف أن قاصد حسن الطويل كان حاضرا ،
وصار متعجبا من حسن هذا الموكب ، وكان قد
حضر وعلى يده رأس أبي سعيد ملك سمرقند ،
وقد تقدم أنه قتل على يد حسن الطويل فلما
طلع السلطان الى القلعة وجلس على الدكة بالحوش
حضر قاصد حسن الطويل ورأس أبي سعيد معه
في علة ، وكان العسكر بالشاش والقماش ، وكان
الموكب عاما . فلما انفض الموكب أقام السلطان بعد
ذلك أياما ثم حضر ثاني بك الظاهري أحد رءوس
النوب - وكان من جملة من خرج في التجريدة -
فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب ... وهذه
ثاني كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار . فلما تحقق
السلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة
بسبب فيها . وكان سبب انكسار العسكر أن سوار
تحيل عليهم حتى دخلوا في مواضع ضيقة بين
أشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان
بالقسي والشاب والسيوف والأطبار ، فقتلوا من
العسكر ما لا يحصى عددهم .

وأخبر ثاني بك بقتل الأمير قرقماس الجلب ، وكان
يعرف بقرقماس بن يشبك خجا الأشرفي ، وكان
أميرا جليلا حشما رئيسا يقرب للأشرف برسباي ،
وولي عدة وظائف سنية ، منها رأس نوبة النوب
واميرية مجلس واميرية السلاح ، ثم جرى عليه في
دولة الظاهر بلباي ما تقدم ذكره وسجن ثم أطلق

عبد الرزاق نائب الشام أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق وحاجب ثاني بدمشق ، وفارس الشهمي أحد الأمراء بدمشق ، وشاد بك آمر الينالي أتابك دمشق ، وتمر باي الجلباني أحد الأمراء بدمشق ، وابراهيم بيغوت نائب حماه وكان حاجب الحجاب بدمشق ، وجاني بك السيفي تغرى برمش دوا دار السلطان بدمشق ، وشاد بك الحسنى الشعباني أحد أمراء دمشق ، وعبد الرحمن الحمزاوي أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن ضبطه . وكانت هذه من الواقعات المشهورة التى لم يسمع بمثلها فلما شاع بين الناس ذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقاهرة فى كل حارة نعى ليلا ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم فى قلوب العسكر مثل أيام تمرلك ، وصاروا يرددون من ذكره . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب ان سوارا قد بغى وبه
قد أصبح الناس فى ضيق وفى قلق
فاكسر سوارا ودعه فى السلاسل فى
خواتم الأمر يستعطى من الحلق
وقال آخر :

ان سوارا قد غدا مخلصا
عسكره قد حل فى دار البوار
يارب شئت شمله حتى نرى
خواتم الأمر له كسر سوار
وصار العسكر بعد ذلك يدخلون الى القاهرة
فى أنحس حال من العرى والجوع ، وبعضهم
مجروح وبعضهم ضعيف ، وكان يدخل بعضهم
وهو راكب على حمار أو جمل أو يدخل ماشيا

وهو عريان ، ولم يلاقوا فى هذه التجربة خيرا ،
فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير برقوق
الناصرى وقرره كاشف التراب بالشرقية ، وحصل
به نفع لقمع العربان المفسدين وعمارة الجسور .
وفيه توفى القاضى فتح الدين ابن وجيه الدين
ابن سويد المالكي المصرى ، وهو محمد بن
عبد الرحمن بن حسن ، وكان عالما فاضلا فى
مذهبه وناب فى القضاء ، وهو والد جلال الدين ،
وكان لا بأس به .

وفيه توفى من الأتراك جانم المجنون الخشقدمى
وكان أحد الأمراء العشراوات . وتوفى جقمق
المؤيدى وكان أحد الأمراء العشراوات . وتوفى
اياس البجاسى نائب القدس ، وكان لا بأس به .
وتوفى العلائى على ابن القيسى ، وهو على ابن
اسكنور بن تمار تمر ، مات مع السلطان لما أن خرج
الى السرحة مرض فى أثناء الطريق ومات ثم نقل
الى القاهرة على جمل ودفن فى تربته التى بباب
الوزير ، وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف
منها الحسبة وولاية القاهرة وحاجب الحجاب
بمصر ، وكان عنده بعض خفة ووهج مع عسوفة
وبطش ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة .

وفيه توفى الواعظ البارع المنشد عبد القادر بن
محمد الوفايى ، وكان ممن له ذكر وشهرة فى فنه
وكان لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر
مريب ، وقد وقع فيها أمور شتى ... الغلاء والفناء
والفتن ببلاد الشرق ، وقتل أمراء وعسكر ممن
تقدم ذكرهم ، ووقع فيها مصادرات بسبب التجاريد
وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ، وفقدت
الناس فيها أولادهم وعيالهم ، وما لاقى أحد فيها
خيرا .

سنة اربع وسبعين وثمانمائة (١٤٦٩ / ١٤٧٠ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على الزينى أبى بكر بن القاضى عبد الباسط وقرره في نظر الجوالى عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وفيه أخرج السلطان خرجا من جلبانه نحو المائتى مملوك — وهذا أول خرج أخرجه في سلطنته — وسناهم الأشرية .

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى الوجه القبلى بسبب جمع المغل من البلاد القبلية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة تمر باى السيفى أخى ألباس نائب قلعة حلب ، وكان شابا حسنا جميل الصورة وأصله من الاينالية .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقيق فحج وعاد فلما طلع الى القلعة أجله السلطان وأكرمه ، وخلع عليه كاملية بسمور وفوقها فوقانية أخضر بطرز زركش عريض حافل ، ونزل في موكب حافل الى ان أتى دار الأتابكى أرباك .

وفيه عقد الأمير يشبك الدوادار على خوند فاطمة بنت السلطان المؤيد أحمد ابن الأشراف اينال ، وكان العقد بالجامع الذى بالقلعة بين يدي السلطان ، والقضاة الأربعة حاضرون وسائر الأمراء .

وفي صفر كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك الرابع والعشرين من مسرى فلما وفي نزل الأمير لاجين الظاهرى — أحد مقدمى الألوف — وفتح السد على العادة .

وفيه أضاف السلطان ، الملك المنصور عثمان بالبحيرة ، وخالع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط . فخرج وانحدر من يومه . وقد وقع له أمور لم تنفع لأحد من أبناء السلاطين قبله . وكان

لما حضر أذن له السلطان بأن يلعب معه الكرة ، فكان يلعب مع السلطان والأمراء المقدمين وهو يند أصفر مثل السلطان ، وقد بلغ السلطان في تعظيمه جدا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن قرقماش الصغير نائب ملطية تقاتل مع عسكر سوار ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وقتل فيها من عسكر سوار فوق خمسمائة انسان ، وأسر جماعة كبيرة من أمرائه وأقاربه ، وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماش حتى بلغ فيها ذلك .

وفيه توفي طومان باى المحمدى — المعروف بدش سر الظاهرى — أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفيت خوند فاطمة ابنة الظاهر ططر ، وأخت الملك الصالح محمد بن ططر وزوجة الملك الأشرف برسباى ، وماتت وعليها جملة ديون .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على يشبك جن بتقدمة ألف ، وأنعم على قانصوه الأحمدى المعروف بالخفيف بتقدمة ألف ، وقرر في شادية الشريخاناه دولات باى حمام الأشرافى عوضا عن قانصوه الخفيف ، وقرر في رأس النوبة الثانية برد بك المشطوب الشبكى عوضا عن دولات باى حمام .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه توفي بنجاص العثمانى الظاهرى أحد العشراوات وكان حاجبا ثانيا .

وفيه خلع السلطان على جاني بك حبيب العلائى الاينالى ، وقرره في الأمير آخورية الثانية عوضا عن يشبك جن ، ودام في هذه الوظيفة عدة سنين .

وفيه توفي الشيخ نور الدين على البطيمى

الضرب ، وكان من أعيان أهل العلم والفضل وكف بصره في سبع سنة من عمره بجدرى أصابه في عينه ، وكان يعرف بابن شاور البرلسي ومولده سنة ست أو سبع وثمانمائة ، وكان له نظم جيد .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالي المحتسب وقرره في امرية سلاح بركب المحمل ، وقرر في امرية أول أقبردى بن أصبای الأشرفي برسبای .

وفيه توفي مغلبای لزن سقل الظاهري الخشقدمي ، وكان من أحد المقدمي الألوف بمصر ثم أخرج الى القدس بطالا فمات به . وكان أميرا دينسا خيرا ولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشون وحسبة القاهرة ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم نفى الى القدس ومات به .

وفيه أرسل السلطان وقبض على زين الدين الاستادار وكان بطالا مقيما في داره . فلما قبض عليه أحضره بين يديه ووبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين يديه فضرب ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم سجنه بالبرج الذي بالقلعة وصار يحضره بين يديه كل يوم بعد يوم ويضربه أشد الضرب ، فمات وهو في البرج . فلما أعلموا السلطان بذلك لم يصدق بموته وأمر باحضاره بين يديه وهو ميت ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه ، فحمل من القلعة الى داره .

وكان بين السلطان وبين زين الدين الاستادار عداوة قديمة من حين كان السلطان جنديا الى أن تسلطن ، فأخذ بثأره منه وقتله ، وكان يظن أن مع زين الدين الاستادار مالا فعاقبه وطلب منه من المال ما لا يقدر عليه ، فمات تحت العقوبة . وكان أصل زين الدين من الأرمن ، وكان اسمه يحيى

ابن عبد الرزاق الأرمني ، وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان ، وكان يقرب لابن أبى الفرج . وقد رأى في دولة الظاهر جقمق من العز والعظمة ما لم يره أحد بعده من الاستادارية ، وعظم أمره جدا ، وأنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع يخطب فيها وعدة مدارس ، وولى الاستادارية غير ما مرة وغيرها من الوظائف ، وباشر الاستادارية أحسن مباشرة ، وأنشأ فيها من المظالم ما لم يسمع بمثله ، وجرى عليه من الشدائد والمحن والأثكاد ما لا يعبر عنه ، وصودر غير ما مرة ، وغرم الأموال الجزيلة ، وعصر في أكعابه وضرب غير ما مرة ، وغرم الأموال في دول غير أيام قايتباي ، ونفى الى المدينة المنورة الشريفة والى القدس الشريف وغير ذلك من الأماكن . وكان مولده قبل قرن الثمانمائة ، ولم يلق في آخر عمره خيرا ، وله أخبار يطول شرحها ... رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

وفيه توفي شمس الدين محمد بن عبد الرزاق ابن عبد القادر بن نفيس الأذرعي الشافعي . وكان من أهل العلم والفضل ، سمع على جماعة من العلماء رضى الله عنهم ، وكان لا بأس به .

وفي ربيع الآخر توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسي المالكي المغربي قاضي قضاة المالكية بدمشق ، وولى قضاء الاسكندرية ، وكان من أهل العلم والفضل وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء . وتوفي السيد الشريف أبو هاشم حمزة بن أحمد ابن على الحسنى الدمشقى الشافعي ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه اليحياوى باستقراره في نيابة حلب عوضا عن

اينال الأشقر ، وكتب الى اينال الأشقر بالحضور الى القاهرة على مقدمة ألف بها .

وفيه أرسل السلطان الى يشبك البجاسى نائب حماه باستقراره في نيابة طرابلس ، وقرر موضعه في نيابة حماه بلاط يشبكى أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وقرر في مقدمة بلاط بدمشق تمراز أتابك حلب ، وقرر في أتابكية حلب تغرى بردى ابن يونس ، وقرر في حجوية الحجاب بدمشق محمد بن مبارك عوضا عن بيغوت الماضى خبر موته في واقعة سوار .

وفيه قرر لاجين الظاهرى في كشف الجسور بالهنساوية .

وفيه قرر يشبك جن في كشف الجسور بالبحيرة .

وفيه توفى قانصوه الساقى التمشى الأشرقى أحد الأمراء العشراوات ، وكان ممرضاً من حين عاد من التجربة .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن رمضان — أمير التركمان — أخذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل الى ابن رمضان خلعة سنية .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة قانى بك المحمودى المؤيدى الذى كان أمير سلاح بمصر ونفى الى الاسكندرية في دولة الظاهر تمربغا ، فأقام بالبرج الى أن مات . وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان في أوائل عمره شجاعاً بطلاً وولى عدة وظائف سنية منها أمير مجلس وامرية سلاح وقاسى شدائد ومحنا في آخر عمره الى أن مات .

وفي جمادى الأولى حضر الى القاهرة قراجا السيفى جاني بك نائب جدة أحد الأمراء العشراوات ،

وأخبر بأن شاه سوار أطلق الأتابكى جاني بك قلقسير وبعث به الى حلب وقد أكرمه غاية الأكرام ، وقصد بذلك أن يرضى خاطر السلطان . وقرر مع الأتابكى جاني بك قلقسير بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان في أمر الصلح .

وفيه نزل السلطان الى الرماية ببركة الحاج ، وعاد من يومه وطلع من بين التراب .

وفيه ارتفع سعر الغلال حتى بلغ كل أردب قمح أربعة أشرفية ، وبلغ سعر كل أردب فول أو شعير سبعمائة درهم ، وبلغ ثمن الحمل التبن نحو أشرفى ذهب ، وعمت هذه الغلوة سائر البلاد حتى البلاد الشامية وغيرها .

وفي جمادى الآخرة نزل السلطان ، وتوجه الى خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد الى القلعة .

وفيه وصل اينال الأشقر الذى تقدم ذكره ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار أعدت له . ثم انه بعد أيام خلع السلطان عليه وأقره في رأس نوبة النوب الكبرى عوضاً عن سودون القسروى بحكم وفاته بسبب تجريدة سوار كما تقدم ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من يومئذ .

وفيه توفى خشكلى القوامى الناصرى ، وكان أحد الأمراء الطبليخانات ، وكان جركسى الجنس من مشتروات الناصر فرج بن برقوق . وكان ديناً خيراً متواضعاً ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية بدمشق محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث البكرى المصرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وناب في الحكم بمصر مدة ثم ولى قضاء دمشق . وتوفى تمر باى التمرازى

أحد أمراء العشراوات ، وكان ولي المهمندارية وأقام بها مدة .

وفيه قرر أبو الفتح المنوفى كاتب السلطان — وهو أمير — في نظر الأوقاف والييمارستان بالقاهرة . وأشيع بين الناس أن سبب ذلك تحكير الأمير يشبك الدوادار الكبير على الغلال بالوجه القبلى ومنع المراكب من حملة . وفيه يقول الشهاب المنصوري :

وظالم منه أتانا الغلا

يا ويله في الحشر من ربه

فادعوا وقولوا ربنا اطمس على

أمواله واشدد على قلبه

وفيه خلع السلطان على لاجين ، وقرره أمير مجلس عوضا عن قرقماس الجلب ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل قرقماس الجلب في واقعة سوار . ثم بعد أيام وصل الأتابكى قلقسیر وصعد الى القلعة فقام له السلطان واعتقه ثم خلع عليه كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وركب من باب البحرة ونزل من القلعة في موكب حافل . ثم بعد أيام خلع عليه السلطان وقرره في امرية سلاح ، عوضا عن برد بك هجين بحكم وفاته في واقعة سوار ، وكانت الوظيفة شاغرة . ومن العجائب أن السلطان بعث برسوم بمنع جاني بك قلقسیر من الدخول الى مصر ، وأن يقيم بجلب ، فقدم جاني بك قبل وصول المرسوم الى حلب بسبعة أيام . فلما حضر قرره في امرية سلاح بعدما كان أميرا كبيرا .

وفيه قرر جقمق الظاهري في نيابة دمياط .

وفي شعبان كانت نهاية بناء السبيل الذى أنشأه السلطان بخط القشاشين من تحت الربع ، فجاء

السبيل والمكتب فوقه نهاية في الحسن ، ولا سيما في ذلك المكان .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلى — وكانت مدة غيبته نحو من سبعة أشهر — ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله ، حتى انه شوى بالنار محمودا شيخ بنى عدى ، وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ، ودفن جماعة في التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لم يفعله أحد قبله ... فدخل الرعب في قلوبهم . فلما صعد الأمير يشبك الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره في موكب حافل ثم بعد ذلك قدم للسلطان مقدمة سنية مما ينيف على مائة ألف دينار ما بين ذهب عين وخيول وقماش ورقيق وغلال وسكر وعسل وغير ذلك .

وفيه توفى سنطباى بن قسرويه الأشقر الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مريضا من حين عاد من التجريدة .

وفي رمضان أمر السلطان بفتح شونتتين ، وبيع القمح منهما سعر ألف درهم الأردب ، وكان وصل سعره الى أربعة أشرفية كل أردب ، فحصل للناس بعض رفق وكثر الخبز على الدكاكين .

وفيه نودى من قبل السلطان بأن من أخذ منه شيء من أولاد الناس وغيرهم بسبب بعث البديل الى التجريدة ، فليصعد الى القلعة في ثامن هذا الشهر ليرد اليه ما أخذ منه من المبلغ . فلما صعد أولاد الناس الى القلعة رد اليهم ما أخذ منهم بحكم النصف ، فتعجب الناس لذلك وما السبب فيه ... فعند ذلك من النوادر .

وفيه توفى القاضى حسام الدين بن بريطع الحنفى

وكان عالما فاضلا ، بارعا في الفقه ، عارفا بمذهب الشافعية ، عالم الشام على الاطلاق . وترشح أمره لقضاء دمشق غير ما مرة ، ومولده في سنة ست وثمانمائة .

وفي شوال خلع السلطان على البدرى بدر الدين محمد بن الكويز ، وقرره في معلمة المعلمين عوضا عن البدرى حسن بن الطولوني .

وفيه خرج الحاج من مصر في تجمل زائد عن العادة ، وخرج صحبتهم الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية وكان متوعكا في جسده ، فلما وصل الى ثغرة حامد مات هناك . وكان عالما فاضلا بارعا سمع على جماعة من العلماء منهم ولى الدين العراقى وابن الجزرى والحافظ بن حجر وغيرهم من العلماء ، وولى عدة تداريس جليلة . وكان من أعيان علماء الشافعية ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه وقعت كائنة عظيمة لجلال الدين عبد الرحمن ابن سويد المالكي ، وطلب الى بيت اينال الأشقر رأس نوبة النوب بسبب أوقاف باعها كانت موقوفة على مدرسة جده ، فغرم بسبب ذلك مالا له صورة ، وحصل له غاية البهدة من اينال الأشقر ، وما خلص الا بعد جهد كبير ، واقتقر حاله عقيب هذه الكائنة وباع جميع ما يملكه حتى سد ما جاء عليه من المال .

وفيه تزايد ظلم اينال الأشقر حتى صار غالب الناس ما تشتكى الأمر عنده . واشتكى بعض الناس من شخص شاهد ، فضربه وقطع أكماله وركبه على ثور وأشهره بالقاهرة .

وفيه ابتداء السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفية

الدمشقي قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، وكان من أعيان الحنفية ، ولى قضاء غزة وصفد وطرابلس ودمشق غير ما مرة ، وكان رئيسا حشما وله نظم ونثر جيد وخط جيد ، وألف الكتب الجليلة .

وفيه حضر الأتابكى أزبك ، وكان مقيما بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقى معه من الأمراء والعسكر وصحبته شاه بضاع أخو سوار الذى أخذ منه سوار البلاد . فلما صعد الأتابكى أزبك الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضاع ، وكان معه يحيى كاور أخو سوار أيضا وكان مسك قبل ذلك . فلما مثل بين بدى السلطان أمر بسجنه فى البرج الذى بالقلعة .

وفيه اختفى القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الجيش ... فلما اختفى خلع السلطان على الزينى عبد الرحمن بن الكويز وأعادته الى نظر الخاص .

وفيه صعد قاصد سوار الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له فى صعودها معه ، وحضر بمكاتبة سوار فكان مضمونها أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه لم يقبلها السلطان ، منها أن يكتب له السلطان تقليدا بامرية الأبلستين ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ... وان فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . فطال الكلام من القاصد والسلطان ولم ينتظم الأمر بينهما فى شيء من الصلح ، ونزل القاصد بغير خلعة .

وفيه خلع السلطان على الجمالى يوسف بن فطيس وقرره فى نيابة القدس عوضا عن دمرطاش العثمانى بحكم انتقاله الى نيابة سيسى .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ بدر الدين ابن قاضى شهبة ، وهو محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسدى الشهبى الدمشقى الشافعى ،

وحوضا وصهريجا وأشياء كثيرة من وجوه البر
والمعروف .

وفي ذي القعدة قلع السلطان الصوف ، ولبس
البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء .

وفيه جاءت أخبار بقتل تراباي الظاهري
الخشقدمي ، وكان أميرا بحلب قتله بعض العربان
بالبلاط الحلبية ، وكان شجاعا وولى حسبة القاهرة
وكان من أعيان الخشقدمية .

وفي ذي الحجة طلب السلطان الشيخ تقي
الدين الحصني ، وقرره في مشيخة تدريس قبة
الامام الشافعي رضي الله عنه عوضا عن الشيخ
كمال الدين الامام بالمدرسة الكاملية الماضي ذكر
وفاته بطريق الحجاز

وفيه انتهى ضرب الكرة وأضاف السلطان
الأمراء ثم اشتغل بتفرقة الضحايا على العسكر .
وفيه كانت وفاة الجمالي يوسف ابن الأتابكي
تغري بردى اليشبغاوي الرومي نائب الشام .
وكان الجمالي يوسف رئيسا حثما فاضلا حنفي
المذهب وله اشتغال بالعلم . وكان مشغوبا بكتابة
التاريخ وألف في ذلك عدة تواريخ ، منها تاريخه
الكبير الموسوم « بالنجوم الزاهرة » و « المنهل
الصافي » و « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة
والخلافة » . وله تاريخ آخر في وقائع الأحوال
على حروف الهجاء ، وله غير ذلك عدة مصنفات .
وكان نادرة في أولاد الناس ، ومولده سنة ثلاث
عشرة وثمانمائة .

وفيه توفي حذيفة بن أحمد الدكماري المنوفي
الحنفي . وكان فاضلا خيرا دينا له شهرة وذكر وكان
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، وهو
الشيخ عبد الله بن عبد الواحد ، وكان من ذرية
أبي الليث السمرقندي فضل الله . وكان عالما فاضلا
بارعا في العلوم والزهد ، وله شهرة زائدة ببلاط
سمرقند ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أمير المدينة المشرفة
— وهو السيد الشريف زهير بن سليمان بن هبة
الحسني — وكان ولي امرية المدينة بعد ضيغم
والى امرية مكة الى أن مات قتيلا . وتوفي من
الأتراك بيبرس بن ططخ الأشرفي ، وكان ولي مقدمة
ألف بدمشق . وتوفي جاني بك الحسني الاينالي
أحد الأمراء العشراوات ورعوس النوب . وتوفي
دولات باي الاينالي أحد العشراوات ، وكان
متمرضا حين عاد من التجريدة ومات بغزة .

وفيه من الحوادث أن السلطان طلب مالا من
الست سارة والدة القاضي ناظر الخاص يوسف بن
كاتب حكيم ليتساعد على خروج التجريدة الى
سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف
وحياة رأسه لم يأخذ منها أقل من مائة وخمسين
ألف دينار ، وصمم على ذلك وقرر معها أنها لا تباع
ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ، ولم يقدر أحد من
الأمراء ولا غيرهم يخفض عنها شيئا من ذلك ...
فاستمرت تورد ذلك المال على حكم ما قرر عليها
عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال
ولم تبع لا ضيعة ولا ملكا . فلما غلقت المال
جميعه أرسل خلفها ، فلما حضرت قام اليها وعظمها
وخلع عليها كاملية مخمل بسمور ، وأكرمها غاية
الاکرام ، ونزلت الى دارها مكرمة معظمة .

سنة خمس وسبعين وثمانمائة (١٤٧٠ / ١٤٧١ م) ؛

فيها ، في المحرم ، كانت الأسعار غالية في جميع
أصناف المأكولات من الحبوب وغيرها ، وعز وجود

الأرز والدجاج من مصر جدا ، وتشحط الخبز من الأسواق ، وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن . وهذا قط ما وقع ولا في الغلاء الذي جاء في دولة الملك الظاهر جقمق ، وتناهى سعر القمح الى سبعة أشرفية الاردب ، ولم يأكل الناس الذرة ولا الدخن في تلك الأيام .

وفيه كثر القال والقليل بين العلماء بالقاهرة في أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض نفعا الله تعالى به والمسلمين ببركته ... وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها في قصيدته التائية ، واعترضوا عليه في ذلك وصرحوا بفسقه بل وتكفيره ، ونسبوه الى من يقول بالحلول والاتحاد ... وحاشاه أن ينسب اليه هذا المعنى ، ولكن قصرت أفهام جماعة من علماء هذا العصر ولم يفهموا معنى قول الشيخ عمر رضى الله عنه في هذه الأبيات ، فأخذوا بظاهرها ولم يوجهوا لها معنى ، فكان كما قال المتنبي :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وأفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه
على قدر القرائح والفهوم

وكان رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعي ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر . وبور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه . وأما من تعصب من العلماء للشيخ ، فهم : الشيخ محيي الدين الكافيجي الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ،

ونجم الدين يحيى بن حجي ، وشيخنا الجلال بن الكمال الأسيوطى ، والشيخ زكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف فلما زاد الرهج في هذه المسألة كتبت الفتاوى في أمر ابن الفارض التي ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ، فكتب الشيخ محيي الدين الكافيجي على هذا السؤال ما هو أحسن عبارة وأقرب الى الانصاف ، وألف الجلال السيوطى في ذلك كتاباً سماه « قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض » ، وألف البدر بن الغرس في ذلك كتاباً شافياً في هذا المعنى واضحاً في الرد على من تعرض لابن الفارض ، وصنف بعض العلماء كتاباً سماه « درياق الأفاعى في الرد على البقاعى » . ووقع في هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها في هذا المعنى ، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهما من العلماء ممن تعصب على ابن الفارض ، وصاروا يكتبونها ويلصقونها في مزاره فمن ذلك قول الشهاب المنصورى في البقاعى وأجاد :

ان البقاعى بما قد قاله مطاب
لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب
وقوله من قصيدة مطولة مضمنة لأبيات سيدي
عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

بين البقاعى وبين التاج من شرف
ما بين معترك الأحقاد والمهيج
يقول من صح فيه سهم صاحبه
أنا القتييل بلا اثم ولا حرج
كلاهما مدع خوضاً بفكرته
في كل معنى لطيف رائق بهج
يقول هذا لهذا غير مكثر
دع عنك لومى وعدعن نصحك السمج

ماذا تقول ولي في الشرع أجوبة
عنى تقوم بها عند الهوى حججى

دع التعارض لا تشهر بواتره
فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
فلو سلكت سبيلى كنت متبعا
أوفى محب بما يرضيك مبتهج

لو سلم المعتدى للمهتدى لرجا
قول المبشر بعد اليأس بالفرج
فمن يكن منهما ناج فعصيته
هم أهل بدر فلا يخشون من حرج
وهذه مطولة وهذا القدر منها كاف .

ومن نظم الأقدمين فى سيدى عمر بن الفارض
رضى الله تعالى عنه :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض
وقل السلام عليك يا بن الفارض
أبرزت فى نظم السلوك عجائبا
وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا
فرويت من بحر محيط فائض
وقال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

عمر بن الفارض الحبر الذى
قصرت عن فهم ما رام الفكر

لم يكن يؤذيه الا جاهل
فأرفضوه وترضوا عن عمر

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى
كل القبائح أوحى الأزمان

فى مصر علم أبى حنيفة تدعى
جهلا وأنت معرة النعمان

وقال أبو النجا القمى :

أقعدت يا حليبي للفارضى يا كا
لما ادعيت فسقا للفارضى يا كا (فر)
وما خلصت حتى أقمت شاهداكا

ثم ان بعض الأمراء تعصب لسيدى عمر بن
الفاضل رضى الله عنه ، وتعصب له السلطان أيضا
ورسم لكاتب السر ابن مزهر بأن يكتب صفة
سؤال الى الشيخ أبى يحيى زكريا الشافعى ،
فكتب السؤال وهو هذا : « مايقول الشيخ الامام
العالم العلامة ، البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى
الشافعى ، نفع الله المسلمين به ، عمن قال بكفر
سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن
الفاضل ، تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه ،
فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من
كلامه فى مواضع مرجعها الى اطلاقات معلومة عنده
السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم لا محذور
فيها شرعا ... فهل يحمل كلام هذا العارف على
اصطلاح أهل طريقتة أم على اصطلاح أهل ملة غير
الاسلام ؟ فما الجواب عن ذلك ؟ أفقونا
أجورين » .

ثم قدم هذا السؤال الى الشيخ زكريا ، فامتنع
عن الكتابة غاية الامتناع ، فألح عليه أياما حتى
كتب ، فأجاب بقوله : « يحمل كلام هذا العارف —
رحمة الله عليه ، ونفع بركاته — على اصطلاح أهل
طريقتة ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، اذ اللفظ المصطلح
عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما
هو مقرر فى محله ، ولا ينظر الى ما يوهمه تعبيره فى
آيات فى التائيه من القول بالحلول والاتحاد ،

فانه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله
المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات القصيدة :
ولى من أتم الرؤيتين اشارة
تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

« وهذا يصدر عن العارف بالله اذا استغرق فى
بحر التوحيد والعرفان بحيث تضحل ذاته فى
ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواء
بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة
عن بيان حالته التى يرقى اليها كما قاله جماعة من
علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم . ولكن ينبغى
كتم تلك العبارات عن لم يدركها فما كل قلب
يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ،
ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق
لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل :

واذا كنت بالمدارك غرا

ثم أبصرت حاذقا لا تمارى

واذا لم تر الهلال فسلم

لأناس رأواه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر
عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى

صبا معى لكنه ما ذاقها

« والحالة هذه ، والله يمنح بفضلله ، ويمنع من
يشاء بعدله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم ، وكتبه زكريا بن محمد
الأنصارى الشافعى » .

فلما كتب الشيخ زكريا على هذا السؤال سكن
الاضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض
رضى الله تعالى عنه ، ونفع به وبركاته المسلمين
أجمع آمين .

وفيه عقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء
الحنفية ، وحصل له عقيب ذلك فالج ، وذهل
وسلب من العلم ، وحصل لولده عبد البر مع القليل
ما سذكركه فى موضعه .

وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله ، وحصل
له من الأمراء ما لا خير فيه ، فهرب واختفى حتى
توجه الى مكة فمات هناك .

وأما امام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض
الى الحجاز فمات فى أثناء الطريق بعد خروجه من
القاهرة بستة أيام .

وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض
ما لا خير فيه ، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه
شيئا فشيئا الى الآن .

وقد روى فى بعض الأخبار عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان الله تعالى قال : « من عادى لى
وليا فقد آذنته بالحرب » ، أى أعلمته بأنى محارب
له — أورده النووى فى الأربعين حديثا .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع
ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان
وملك سوار قلعة اياس . فانزعج السلطان لهذا
الخبر وأخذ فى أسباب تجريدة الى سوار .

وفيه بعث الأمير يشبك خبرا من البحيرة يطلب
نجدة بسبب عربان لبيد ، فعين السلطان الأتابكى
أزبك ومعه عدة من الأمراء والجنود ، فخرج الى
البحيرة .

وفيه وقعت أعجوبة غريبة ، وهى أن امرأة ولدت
مولودا وهو جسد بلا رأس ولا له يدان ولا
رجلان ، فسيحان القادر الصانع يخلق ما يشاء !
فعاش ساعة ومات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة برد بك البجمقدار
نائب الشام ، وكان يعرف ببرد بك الفارسى

الظاهرى ، ويعرف أيضا بالأقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهرية ، وكان أمير عشرة في دولة أستاذة الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير طبخانات رأس نوبة ثانى في دولة الأشرف اينال ، ثم بقى مقدم ألف وحج أمير محمل غير ما مرة ، ثم ولى حاجب الحجاب ، ثم بقى نائب حلب في دولة الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وحمل الى القدس بطالا ، ثم أعيد الى نيابة حلب ، ثم بقى نائب الشام فوليها مرتين ومات بها ، وكان أسيرا عند سوار وهو نائب حلب ، وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم وقاسى شدائد ومحن .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان الركب الأول والمحمل ركبا واحدا ، وكان الحاج قاسى في السنة المذكورة مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل يشبك الدوادار شقادف وزادا وماء الى المنقطعين من الحاج ، فلاقوهم من قريب لينبع وحصل بذلك لهم غاية النفع .

وفيه توفي أبو بكر بن على دوادار برء بك البجمقدار نائب الشام ، ويقال انه سم أستاذة برد بك ، فمات أبو بكر قبل أستاذة بأيام . وكان أبو بكر رقى في أيام أستاذة حتى صار له ذكر وشهرة طائلة بحلب والشام .

وفيه حضر قاصد حسن بك الطويل وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أنه قتل جماعة من أولاد تمرلنك وملك بلادهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم يخبر أنه افتتح عدة بلاد من بلاد الافرنج البنادقة .

وفيه عين السلطان الأمير اينال الأشقر رأس نوبة النوب ، ومعه عدة من الأمراء الطبخانات والعشراوات ، وعدة من الجند بسبب قتال سوار . وقد خشى السلطان من سوار أن يكبس حلب على

حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة يقيمون بحلب الى أن يرسل تجريدة ثقيله بعد ذلك . فلما عينه بعث اليه النفقة من يومه ، وقد حمل اليه اثني عشر ألف دينار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجند وألزمهم الخروج بسرعة ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ولا أشلة ، وقد عز ذلك على اينال الأشقر لكونه خرج في قلب الشتاء ...

وفي صفر توفي الأمير برد بك المشطوب الشبكي أحد الأمراء الطبخانات ورأس نوبة ثانى ، وكان لا بأس به ، وأصله من مماليك يشبك نائب حلب .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء ثانى عشرى مسرى . فلما أوفى توجه قلقيسر الأتابكى كان ، وهو على امرية سلاح ، ففتح السد على العادة ، وكان الأتابكى أزيك غائبا في البحيرة .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير برقوق الناصرى وقرره في نيابة الشام عوضا عن برد بك البجمقدار بحكم وفائه . وكان برقوق يومئذ أحد مقدمى الألوف بمصر ، فانتقل الى مدينة الشام في مدة يسيرة ، فعاد ذلك من النودار .

وفيه ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى وكان مختفيا ، فخلع عليه السلطان وأعادته الى نظر الخاص ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الكويك .

وكان القائم في عودة ابن المقسى الى نظارة الخاص الأمير يشبك الدوادار ، فنزل من القلعة في موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار وأعيان الدولة حتى قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى .

وفي ربيع الأول ، في مستهله ، ركب السلطان وتوجه الى طرا ، فصعد القضاة للتهنئة بالشهر فلم يجدوا السلطان بالقلعة ، فأخبرهم نقيب الجيش

عن لسان السلطان بأن يصعدوا للسلطان اذا حضر بعد العصر . وفيه دخل خاير بك الظاهري الخشقدمي الذي كان تسطن ليلة واحدة ، فنزل في بولاق في بيت صهره ناظر الخاص يوسف ، وكان السلطان رسم له بأن يتوجه الى مكة ويقيم بها . وكان الساعي له في ذلك الأمير يشبك الجمالي ، فأقام ببولاق أياما حتى عمل له برك وخرج الى مكة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا ، وجلس برقوق الذي قرر في نيابة الشام رأس الميمنة .

وفيه نزل السلطان الى جهة المطرية ، ونصب هناك الخيام ورسم للأمراء بالتوجه معه ، وأقام هناك أياما على سبيل التنزه ، وصنع هناك الأسمطة الحافلة ، حتى قيل كان مصروف الأسمطة ألف دينار . وفيه خلع السلطان على قاصد حسن الطويل .

وفيه توفي الأمير ثاني بك المعلم المحمدي الأشرفي ، مات بالقدس بطالا ، وكان عارفا بفنون لعب الرمح .

وفي ربيع الآخر صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فلما أرادوا الانصراف أخذ السلطان في الكلام معهم بسبب محراب جامع ابن طولون بأن في أصل وضعه الانحراف عن جهة القبلة ، فقال كاتب السر : « هذا الجامع تحت نظر قاضي القضاة الشافعي » ... فقال القاضي : « ينبغي أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره الى جهة القبلة » ... وانفض المجلس على ذلك ولم يغير فيه شيء الى الآن .

وفيه خرج برقوق الى محل نيابة الشام ، وطلب طلبا حافلا وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك على أخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العداوة للسلطان ، وقد طمع في عسكر مصر بموجب ما فعله معهم سوار . فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج الى حلب بنفسه .

وفيه نادى السلطان في القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس ، منها مكس قطيا ومكس الخشب والأطرون بالبحيرة ، وغير ذلك عدة مكوس أبطلها بمصر وجدة ، فدعا له الناس بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان القاضي شرف الدين الأنصاري وكيل بيت المال بأن يخرج الى جبل نابلس لجمع العشير بسبب التجريدة الى سوار ، فخرج هو ودولات باي الخازندار .

وفيه عين في امرية الحاج بالمحمل يشبك الجمالي ، وفي امرية الأول اقبردي الأشرفي على عاداتهما في العام الماضي .

وفيه قرر السلطان في الزردكاشية الكبرى جانم السيفي تمر باي عوضا عن فارس الذي توجه الى دمشق .

وفي جمادى الأولى أرسل السلطان بعزل بلاط .

وفيه عين السلطان تجريدة ثقيلة الى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين يشبك دوادار كبير باش العسكر ، وتمر از التمشي ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك حديد الأشرفي ، وأزدمر الطويل الابراهيمى ولم يتم السفر ، ثم عين قانصوه الخفيف ولم يتم له السفر . وعين تمر حاجب الحجاب ولم يتم له السفر . وعين عدة أمراء طبخانات وعشراوات ، وعرض الجند وكتب منهم

عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر يكون بعد أن يربح الخيل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى خاير بك القصري بأن يستقر نائب حماه عوضا عن بلاط الشبكي ، فلما وصلت اليه الخلعة باستقراره في نيابة حماه مات فجأة قبل دخوله الى حماه . وكان أميراً جليلاً تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة القلعة بمصر ، ونيابة غزة ، ثم نيابة صفد ، ثم قرر في مقدمة ألف بدمشق ، ثم قرر في أتابكية طرابلس ، ثم في نيابة حماه ... فمات ولم يدخلها .

وفيه توفي قاضي القضاة الشافعي بحلب — وهو السيد الشريف تاج الدين عبد الوهاب بن عمر بن حسن بن علي بن حمزة الحسيني الحلبي الشافعي — وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه توفي الأمير شبك جن الاسحاقى الأشرفى أحد مقدمى الألوف بمصر — وكان يعرف بالبهلوان — ومات وله من العمر نحو من سبعين سنة . وكان حاد المزاج سيىء الخلق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قرق شبك الأشرفى الذى كان زردكاش بمصر ، ثم نفى ومات وهو مقدم ألف بدمشق . وكان علامة في لعب الرمح .

وفي جمادى الآخرة أنعم السلطان على برسباى قرا المحمدي بتقدمة ألف ، وهى مقدمة شبك جن ، وقرر في الخازندارية قجماز الاسحاقى الظاهري عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى التقدمة ، وكان قجماز هذا أغا السلطان قديما .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الخانقاه ، ثم سار الى العكرشا وهو راكب الهجن . ثم عاد الى القلعة بعد أيام

وفيه توفي جكم الأجرود الأشرفى نائب صفد .

وفي رجب نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قناطر العشرة وأقام هناك سبعة أيام ، وتوجه الى الأهرام وهو ماش وحوله الأمراء ، وكانت تلك الأيام مشهودة في القصف والفرجة ، ونصب له أشاير على رءوس الأهرام ، وعملت له هناك أسمطة فاخرة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى عمال في كل ليلة ، وبقية مغانى البلد ، وابتيع المجمع الحلوى هناك بنصفين ، والصحن الطعام الخاص بنصف فضة . ثم ان السلطان رحل من هناك بعد مضي سبعة أيام وتوجه الى الفيوم ، فلما دخلها زينت له وكان يوم دخوله الى الفيوم يوما مشهودا ، ودخل عليه جملة تقادم من الكاشف ومشايخ العربان ، فكانت مدة غيبته في هذه السقرة نحو من عشرين يوما ، وكان ذلك في قلب الشتاء في زمن الربيع ، ثم عاد السلطان الى القلعة .

وفيه وقع العدل والعطاء بالديار المصرية ، حتى بيعت البطة الدقيق بستة أنصاف ، والرطل الخبز بدرهم نقرة ، ويبيع الفدان البرسيم المخضر بدينار ، وكثرت اللحوم والأجبان ، وانحط سعر سائر البضائع .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه اليحياوى — نائب حلب — قد وقع بينه وبين نائب قلعة حلب ، فبعث يشكوه للسلطان ، فأ نصف السلطان نائب حلب على نائب القلعة .

وفيه خلع السلطان على قجماز الاسحاقى وقرره في نيابة الاسكندرية عوضا عن بلباى العلانى بحكم استقراره في نيابة صفد عوضا عن جكم الأشرفى المعروف بالأجرود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سوارا قد

استولى على سيس وقلعتها ، ففرع السلطان لهذا
الخبر .

وفي شعبان عزل قاسم شغيته عن نظر الدولة ،
ورسم عليه الأمير يشبك الدوادار وطلب منه مالا ،
وعين السلطان الأمير برسبای قرا أحد المقدمين بأن
يخرج جاليش العسكر الى سوار قبل خروج الأمير
يشبك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث اليه
السلطان أربعة آلاف دينار .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن السلطان أعاد
الى جماعة ما كان أخذه منهم من المال ، لما صادرهم
بسبب التجريدة الأولى ، فأعاد الى فارس الركنى
ألفا وخمسمائة دينار ، وأعاد الى الشهابى أحمد بن
أسنبغا الطيار ألف دينار ، وأعاد الى فارس السيفى
دولت باى ألف دينار ، وبعث لا بن العينى خمسة
عشر ألف دينار من بعض ما أخذه منه ، وأعاد الى
جماعة كثيرة ما كان أخذه منهم فى المصادرة ...
فتعجب الناس من ذلك لكونه فعل ذلك من تلقاء
نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى المنام ما أوجب
هذا من رد المال على أربابه ، فكان حال الناس معه
كما قال القائل فى هذا المعنى :

كنا نؤمل أن ننال بجاهكم
خيرا يكون على الزمان معينا

والآن تقنع بالسلامة منكم
لا تأخذوا منا ولا تعطونا

ولكن فعل بعد ذلك بالناس من المصادرات
وأخذ الأموال ما يعجز عنه الواصفون .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن العين
التي أجراها السلطان الى عرفات قد انتهى العمل
منها ، ووصل مأوها الى عرفات ، وحصل به غاية
النفع لأهل مكة المشرفة . وكان لهذه العين نحو من

مائة سنة وكسور وهي معطلة عن الجريان . وكان
حوبان أجرى ماءها فتعطلت من بعده حتى أجراها
السلطان .

وفي رمضان أنفق على الجند الكسوة وأنفق على
الماليك المعينين للتجريدة نفقة السفر لكل مملوك
عشرون دينارا وكسوة عشرة دنانير ، واستمر ينفق
عليهم ثلاثة أيام متتابة .

وفيه كانت وفاة الأديب البارع الفاضل الشهاب
الحجازى أحمد بن محمد بن على بن حسن بن
ابراهيم الأنصارى الخزر جى الشافعى . وكان عالما
فاضلا بارعا فى الأدب وله عدة مصنفات فى الآداب.
منها كتاب « روض الآداب » و « القواعد فى
المقامات » و « شرح المعلقات » و « وقلائد النحور
فى جواهر البحور » و « التذكرة » وغير ذلك من
الكتب النفسية . وكان ظريفا لطيف الذات ، كثير
النوادر ، عشير الناس ، حسن المحاضرة ، وله شعر
جيد . فمن ذلك قوله :

فى حندس الليل أتانا فتى
ونادم القوم فيئس النديم

قلت لأصحابى لما أتى
قد جاءنا فى جنح ليل بهيم

ومن قصائده :

قصدت رؤية خصر مذ سمعت به
فقال لى بلسان الحال ينشدنى :

انظر الى الردف تستغنى به وأنا
مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى
وكان مولده فى أوائل قرن الثمانمائة ، فلما
مرض الشهابى الحجازى بعث اليه الشهاب
المنصورى بهذين البيتين :

قيل الشهاب سقيم قلت وا أسفا
ما بال أحمد لا يخلو من العلل

وزن الرقائق من أضحي يجوزها

ووصفه بفنون العلم والعمل

ولما توفي الشهاب الحجازي رثاه الشهاب

المنصوري بهذه الأبيات :

زادني فقد الحجازي شجي

هل يطيب العيش فقدا الحجا

لو دري القمري أبدى نوحه

أو غراب البين أضحي مسحجا

صار في زورق نعش قاطعا

منك يا بحر المنايا لججا

وامتطى طرف الردى مستوقرا

طالباً من هم دنياه النجا

ان يكن في التراب أمسى هابطا

فسيرقى في الجنان الدرجا

أو يكن ليل الضريح عاكرا

فسيلقاه شهاباً أبلجا

فلتطب أرجاء قبر زارها

انها حاكته في حسن الرجا

فالحجازي مكة تبصره

والشهاب اشتاقه بدر الدجا

قلت كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في

عصر واحد ، وكل واحد يدعى بشهاب ، فكان

يقال السبعة الشهب ، وهم : الشهاب بن حجر

رحمه الله عليه ، والشهاب ابن الشاب التائب ،

والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب بن مبارك شاه

الدمشقي ، والشهاب بن صالح ، والشهاب

الحجازي ، والشهاب المنصوري . فلما مات الستة

رثاهم الشهاب المنصوري بهذه الأبيات :

خلت سماء المعاني من سنا الشهب

فالآن أظلم أفق الشعر والأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من

تجانبوا بالمعاني مركز القطب

تعطلت خرد الأيام من درر

كانت تحلى بها منهم ومن ذهب

لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت

بهم كما يبطر الانسان بالنسب

ولو دري المسك أن الأرض قبرهم

لود نشقة عرف من شذى التراب

وهذا اختصار من القصيدة التي لهم رحمة الله

عليهم أجمعين .

وفيه توفي كسبای الزيني المؤيدي الذي كان

نائب الاسكندرية وعزل عنها .

وفي شوال كان خروج العسكر المعين الى

سوار ، فخرج الأمير يشبك الدوادر الكبير ،

وأزدمر الاستادار ، وكاشف الكشاف ، وباش

العسكر ، فكان في غاية العز والعظمة ، وقد فوض

اليه السلطان أمور البلاد الشامية والحليية وغير

ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع

أحوال المملكة ، وكتب معه خمسمائة علامة ،

ويكتب على البياض ، وجعل له التصرف في جميع

النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام

فقط ... فكان له لما خرج يوم مشهود ، وطلب طلبا

حافلا بحيث لم يعمل مثله قط ، وجر في طلبه عدة

خيول ملبسة بركستونات فولاذ مكفتة بالذهب

وبركستونات مخمل ملون ، وصنع في رنكه صفة

سبع . وقد اقترح أشياء عجيبية غريبة لم يسبق

اليها ، ورسم لماليكه بأن تخرج في الطلب باللبس

الكامل ، وخرج صحبته الأمراء الذين تقدم

ذكرهم ، ومن الجند نحو من ألفي مملوك ،

فرجت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تمسحب

الى قريب الظهر . فلما كانت ليلة الرحيل ، نزل

والأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، بأن يخرجوا الى الشرقية بسبب فساد العربان . ورسم السلطان لهما بأن من وجدوه من بنى سعد وبنى وائل يقبضون عليه .

وفيه كان ابتداء عمارة الايوان الكبير الذى بالقلعة . فأمر السلطان بتجديده واصلاح ما فسد من بنائه . وكان الشاد على عمارته القاضى كاتب السر ابن مزهر ، والبدرى بدر الدين بن الكوين ومعلم المعلمين ، فصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار . وكان قصد السلطان أن تقام الخدمة على العادة القديمة ، ويركب منه ، فلم يتم له ذلك ... واستمر الأمر على حاله الى الآن .

وفيه توفى الاستاذ المغنى الموسيقى محمد المعروف بـبرقوق التونسى ، وكان بارعا فى الغناء والانشاد ، وكان له شهرة طائلة . قدم من الغرب يروم الحج فتوفى بالقاهرة .

سنة ست وسبعين وثمانمائة (١٤٧١/١٤٧٢ م) : فيها ، فى المحرم ، فى أول يوم كانت بشارة النيل ، فتفعل الناس بأنها سنة مباركة .

وفيه توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى الحنفى ، وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العيسى القيسى الحنفى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الاسطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السر ، وقضاء الحنفية ، ومشیخة الجامع المؤيدى ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه نحو شيبين القناطر ، وكان معه الأتابكى أزيك وجماعة من الأمراء ، فبينما هو سائر فى أثناء الطريق ، اذ شب فرس الأتابكى أزيك على فرس السلطان

السلطان عند يشبك ، وتكلم معه طويلا ، ثم أضافه الأمير يشبك وركب من عنده وتوجه الى الخاقاه ، ثم عاد الى القلعة . ثم فى ثانى ليلة نزل الأمير يشبك بعد العشاء ، ورحل من الريدانية قاصدا الشام . ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سد الفضاء ، وكانوا من أعيان الشجعان . فتفعل الناس بأن هذا العسكر ينتصر ، وأن سوارا مأخوذ لا محالة ، وكذا جرى ... وقد عيب على السلطان نزوله الى الأمير يشبك فى الوطاق مرتين ، وهذا بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . ولكن تأخر الى يوم عشره بسبب فرار غلمان أمير حاج .

وفى ذى القعدة ولد للأمير يشبك ولد من زوجته خوند ، ابنة الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف اينال ، قسموه منصورا . وكان له مهم حافل .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف سبع ابن ظافر ، وقرره فى امرية ينبوع عوضا عن ظافر . وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو صقيل ، وقد أضافه القاضى كريم الدين بن جلود كاتب الممالك ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية صقر بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن قريه عيسى بن بقر ، وسجن ابن بقر بالمقشرة ، بعد ما ضرب بين يدي السلطان ضربا مبرحا .

وفيه عين السلطان الأمير تمر حاجب الحجاب ،

ورفسه ، فجاءت الرفسة في قسبة ساق السلطان فانكسرت ، فنزل بشيين وهو في غاية الألم من ساقه ، وأرسل يطلب محفة حتى يعود فيها الى القاهرة . فلما وصل هذا الخبر الى القاهرة كثر بها القال والقليل بسبب عود السلطان في المحفة . فلما عاد طلع الى القلعة وهو في المحفة حتى نزل على باب البحرة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدمه . فلما طلع تحت الليل هدمت الزينة وأشيع أن السلطان على غير استواء ، حتى نزل المنادى ونادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وسلامة السلطان ، وان تعاد الزينة كما كانت ، فزينت القاهرة ثانيا . ثم ان السلطان خرج وجلس على الدكة ، وعلم المراسيم ، وجهاز مراسيم الى البلاد الحلبية بسلامته من هذا العارض ، حتى سكن ذلك الاضطراب ، وخمدت هذه الاشاعات من البلاد الشامية والحلبية .

وفيه توفي تغرى بردى بن يونس أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه حضر صحبة الحاج القاضي كمال الدين ابن ظهيرة قاضي جدة ، أخو القاضي برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة قاضي مكة المشرفة ، ليسعى لأخيه في عوده الى القضاء . وكان قد صرف عنه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار قتل قرقماس الصغير نائب ملطية ، وقد تقدم ما فعله قرقماس بجماعة سوار . فلما ظفر سوار بقرقماس قتله أشر قتلة . قيل انه أوقفه في مكان وبني عليه حائطا . وقيل بل علقه في شجرة واستمر يرمى عليه بالنشاب حتى مات . وكان قرقماس الصغير هذا أصله من ممالك الأشرف اينال ، وكان شجاعا بطلا مقداما في الحرب . وكان لا بأس به .

وفيه عين السلطان نيابة ملطية لاينال الحكيم عوضا عن قرقماس الصغير بعد قتله .

وفيه خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى وقرره في مشيخة الجامع المؤيدى عوصا عن برهان الدين الديرى بحكم وفاته . وكانت هذه الوظيفة مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف الملك المؤيد شيخ ، فأخرجها السلطان عنهم للشيخ سيف الدين ، ولم يلتفت الى شرط الواقف

وفي صفر جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سوارا أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة زمنوطو ، وصار عنده التتر من العسكر ، بخلاف العادة .

وفيه عاد الأمير حاجب الحجاب من الشرقية . وقد قبض على جماعة من العربان المفسدين ، وفيهم موسى بن عمران ، وآخر يقال له طاجن — وكان من أعيان العربان المفسدين — فرسم السلطان بتوسيط موسى ومعه جماعة من بنى سعد ، وبني حرام ، وبني وائل . فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان ، وأفسدوا في البلاد ... فرسم السلطان للأمير تمر باى بعوده الى الشرقية ، فعاد عن قريب .

وفيه ركب السلطان وصلى صلاة الجمعة بالقلعة ، وكان له مدة لم يركب بسبب كسر قسبة ساقه ، فلما ركب كان له يوم مشهود بالقلعة .

وفيه رسم السلطان لابن الطولونى بأن يحدد عمارة الميضاة التى بجامع القلعة ، فوسعها ورسم بعمارة الجامع ، فصرف على ذلك ألف دينار .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنه وطرسوس ،

وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة ، حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك في سادس عشرى مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى أسنبغا التترى الشبكى الناصرى أحد الأمراء العشاوات ، ورءوس النوب ، وكان لا بأس به .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكشف عما تهدم من حيطانه وسقوفه وأمر ببنائه من ماله ... وشرع في ذلك .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه نودى من قبل السلطان بألا يشكو أحد أحدا للسلطان الا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى ان امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطىء جارية فى ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة وشكته للسلطان بقصة .

وفيه خلع السلطان على الأمير يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل على عادته . وكان السلطان عين برسباى الشرفى ، فاستغفى من ذلك فعفا عنه .

وفي ربيع الآخر نزل السلطان الى نحو خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر لنهار ، فلما عاد ووصل الى الحسينية وجد فى

طريقه جنازة ، وهى امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحمالين ، فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها فى قارعة الطريق . وقدم الجماعة الذين حضروا الصلاة فعند ذلك من النوادر . وقد وقع مثل هذه الواقعة للأمير أحمد ابن طولون ، واستمر ماشيا قدام الميت حتى واره التراب .

وفيه بعث السلطان الى الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه وقرره فى نيابة عينتاب ، فنزل الى داره وهو مهموم ، وأقام على ذلك أياما حتى شفح فيه الأتابكى أزبك وأعفى من ذلك .

وفي جمادى الأولى حضر محمد بن نائب بهنسا بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يشبك ، وأن عسكر سوار قد فل عنه ، وهو خائف من العسكر . ثم أرسل الأمير يشبك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فان العليق كان هناك مشحوتا ، فبعث السلطان مائة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفي هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى ، وهو أحمد بن ابراهيم ابن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن اسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى ، وكان عالما فاضلا متواضعا فكه المحاضرة ، بقية الناس ، سمع على جماعة من العلماء وأجازوه ، وناب فى الحكم مدة ، ثم ولى القضاء الأكبر بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين البغدادى فى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة نحو من عشرين سنة ، وبأشر منصب القضاء بعفة ونزاهة ، وحمدت عند الناس سيرته ، واثبتت اليه رياسة مذهبه ، وولى عدة تداريس

جليلة ، وعاش من العمر مدة طويلة وقد قارب الثمانين سنة ، ومولده سنة ثمانمائة ، فلما مات استمر منصب القضاء شاغرا لم يتول به أحد ، فأقام نحو من أربعة أشهر . وكان السلطان أرسل خلف برهان الدين بن مفلح من الشام ليلى القضاء ، وكان السلطان رسم لبدر الدين السعدى تلميذ قاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، بأن ينظر فى الأحكام المتعلقة بمذهبه الى أن يحضر البرهان ابن مفلح من الشام . فلما عاد القاصد الذى توجه الى ابن مفلح أخبر بأن ابن مفلح مريض ، وأرسل يعتذر للسلطان فى عدم الحضور الى القاهرة ، وتعلل بأشياء تدل على عدم قبوله للولاية . فلما عاد هذا الجواب على السلطان أخذ القاضى كاتب السر ابن مزهر يسعى للسعدى فى أن يلى القضاء ، وكان يومئذ فى الحنابلة من هو أفضل من السعدى ، ولكن الحظوظ تختلف . فلما كان ختم البخارى فى رمضان أحضر السلطان خلعة ، وخلع على بدر الدين السعدى ، واستمر به قاضى القضاة الحنبلى بمصر عوضا عن القاضى عز الدين بحكم وفاته . فنزل من القلعة فى موكب حافل جدا ، وقد استكثر الناس غالبهم على السعدى ذلك ، وكان شابا لم يظهر البياض بلمته . وقد داعبه بعض الشعراء بهذه المداعبة وهى :

قاضيكم ما مثله فى حكمه

غفيف ذيل ليس يدعى زائيا

قد ساس أمر الناس فى أحكامه

فلم ترى أسوس منه قاضيا

وفيه أيضا :

حضرت فى الدرس على قاضى

نص على التقليد فى درسه

فيحسن البحث على وجهه

ويوجب الدخول على نفسه

وفيه خرج السلطان الى الرماية ببركة الحبش ، وكان معه الأتابكى أزبك وبقية الأمراء هناك ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، واصطاد فى ذلك اليوم ثلاثة كراكى وبلشون .

وفى جمادى الآخرة قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ، وأحضر على يده هدية الى السلطان ، والى الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على اقليم الهند عوضا عن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وفيه وصل قاصد من عند الأمير يشبك الدوادار وعلى يده مكاتبة من يشبك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون ، وجرح فيها الأمير تراز التمشى فى يده بسهم نشاب . وكان أول من ألقى نفسه فى النهر هو ... فلما بلغ العسكر رموا أنفسهم فى النهر خلفه ، فجرح تراز وأغوى عليه ، فحملوه ورجعوا به الى الوطاق . ثم ان الأمير يشبك تثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصي ، فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عده ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار كما قيل :

جيوشنا كالأسود أضحت

تقتحم الحرب بالعزائم

وسيف سلطاننا طويل

له بقوس العدا غنائم

فالنصر بالفتح مذ آتاه
صير قلب الحسود وارم
فياله في الوري مليك

لقمع أهل الفساد صارم

فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب في نفر
قليل من عسكره ، وطلع الى قلعة زمنوطو
واختفى . فلما بلغ الأمير يشبك أن سوارا في
قلعة زمنوطو ، حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى
عليها بالمدافع واستمر محاصرا لها حتى كان من
أمره ما سنذكره . فخلع السلطان على القاصد
الذي جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك الأمراء
خلعوا عليه ، وانشرح السلطان بهذا الخبر
وفيه نزل الى الرماية وغاب يوما وليلة ، فلما عاد
طلع من الصليبة في موكب حافل .
وفيه خسف جرم القمر جميعا ، وكان خسوفا
مهولا فاحشا

وفي رجب صار السلطان ينزل الى الاصطبل
ويحكم فيه بين الناس يوم السبت والثلاثاء .
فتكاثر عليه المحاكمات ، وتزايدت شكاوى
الناس اليه ، فوقف شخص يقال له محمد القليبي
واشتكى من ناظر الحاص تاج الدين أحمد بن
المنسي ، وكان السلطان متحاملا عليه فأمر بضربه
بالمقارع بين يديه ، فضرب نحو عشرين شبيبا حتى
أدمى ، وكان يوما شديد البرد جدا ، وأمر بسجنه
في البرج الذي في القلعة ، فطلع وهو ماش من باب
السلسلة الى البرج عريانا مكشوف الرأس ، والدم
يسيل من أجنابه ، فعد ذلك من مساوي قايتباي .
وفيه ضرب انسان من أولاد الناس امرأة
يسكن في جنبها وهي ماشية بين الناس في الطريق
فماتت في الحال ، فلما تحقق موتها هرب ولم يعلم
أسبب ذلك .

وفيه نزل السلطان الى نحو المطرية ، ثم عاد من
جهة قنطرة الحاجب ، فأذن عليه المغرب عندما
وصل الى المدرسة الجيعانية التي بالقرب من بركة
الرطلي ، فنزل وصلى المغرب هناك خلف من صلى
من العوام ، وكان الامام في ثاني ركعة ، فصلى مع
الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صبيا أمرد
فأعاد الصلاة ثانيا . ثم ركب من هناك وطلع الى
القلعة .

وفيه رسم السلطان ليشبك الجمالي المحتسب
بأن ينادى في القاهرة بأن امرأة لا تلبس عصابة
مقنزعة ، ولا سراقوس حرير ، وأن تكون العصابة
طولها ثلث ذراع ، وهي بختم السلطان من الجانبين .
وكتب بذلك قسائم على من يبيع عصابات النساء
وصمم السلطان على يشبك المحتسب في تكرير
المناداة في ذلك ، وصارت رسل المحتسب يطوفون
في الأسواق ، فإن وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة
أو سراقوس ، يضربونها ويجرسونها ، والعصابة
معلقة في رقبتها . فقلق النساء من ذلك ، وصارت
المرأة اذا خرجت لنحو حاجة خرجت من غير عصابة
مكببة رأسها ، أو تلبس عصابة طويلة . فلما طال
عليهن الأمر لبسن العصابات الطوال التي رسم
بها السلطان . وكن يلبسها اذا خرجن الى الأسواق
فقط على كره منهن . ويلبسن العصابات المقنزعة
في بيوتهن . وفي هذه الواقعة يقول الأديب
زين الدين بن النحاس الشاعر :

أمر الأمام مليكنا بعصائب
في لبسها عسر على النسوان

فقلقن ثم أظعنه ولبسها
ودخلن تحت عصابات السلطان

واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ، ثم رجعن
الى ما كن عليه من لبس العصابات المقنزعة

والسراقوس ، ولم يلتفتن الى تحجر السلطان في ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى الشرفى وقرره في امرية الحاج بالمحمل ، وكان قد أعفى من ذلك . وقرر يشبك الجمالى في امرية الحاج ، ثم بطل وقرر فيها برسباى الشرفى .

وفيه خلع السلطان على البدرى بدر الدين بن مزهر القاضى كاتب السر ، وقرره في نظر الخاص عوضا عن تاج الدين بن المقسى ، بحكم صرفه عنها . وكان بدر الدين بن مزهر صغير السن ، لم يلتج ، حين قرره في نظارة الخاص .

وفى شعبان نزل السلطان الى خليج الزعفران وقد أضافه الزينى أبو بكر بن عبد الباسط ، فأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه انتهت مواكب الاسطبل وضبط مافرقه السلطان على الفقراء وأرباب الديون في هذه المدة . فكان نحو من ثمانمائة دينار .

وفيه ظهر بالسماء نجم له ذنب مستطيل ، وكان يظهر من جهة الغرب ، ثم صار يظهر من الشرق . وفيه خرج الأمير قانى باى صلق وتوجه الى جهة حلب ، وعلى يده كوامل الشتاء للنواب ، وعدة خلع للأمير يشبك الدوادار ، وبرسم من يرد عليه من التركمان ، وأرسل على يده نحو من أربعين ألف دينار برسم توسعة للعسكر .

وفيه عرض السلطان محاييس المقشرة وأطلق منهم جماعة ، وكان بها شخص له نحو من ثلاثين سنة ، فعمل مصلحته ووزن عنه للمدينين مبلغ له صورة وأطلقه .

وفيه نزل السلطان وعدى الى بر الجزيرة ، فأضافه

شخص من عرب اليسار يقال له محمد بن برقع ، فمد له أسطة حافلة ، وبات عنده ، ثم عدى وتوجه الى شبرى ، وطلع من هناك وتوجه الى العباسية ، فأضافه هناك الشيخ بيبس بن شعبان شيخ العرب . وأقام بالعباسية أياما ثم عاد الى القلعة .

وفيه توفى الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيدى الذى كان زردكاش ، ونفى الى ثغر دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى القاهرة . ثم مات وهو بطل ، وكان لا بأس به .

وفى رمضان رسم السلطان للقاضى عبد الغنى بن الجيعان بأن يفرق على الفقهاء والعلماء توسعة في رمضان لعيالهم ، واستمر ذلك عمالا في كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى الى أن مات ، ثم تناقص ذلك من بعده .

وفيه رسم السلطان باحضار الأتابكى جرباش كرت ، وكان مقيما بثغر دمياط ، وكذلك الأمير يشبك المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا ، فتكلم لهما بعض الأمراء بأن يحضرا الى القاهرة ويكونا في دورهما بطالين ، الى أن تنقضى أعمارهما ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وأمر باحضارهما ، وكان الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه متمرضا ، فلما حضر أبوه أقام مدة يسيرة ومات ، وكان شابا حسنا حشما رئيسا شجاعا بطلا ، حوى أنواع الفروسية ، وساق من جملة الرماحة بالمحمل ، وكان الظاهر خشقدم أنعم عليه بامرية عشرة ، وكانت أمه خوند بنت المؤيد شيخ ، وكان نادرة في أبناء جنسه . ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده هدية للسلطان . وقد حضر يروم الحج . وفيه ختم البخارى وخلع في ذلك اليوم على

بدر الدين السعدى ، وقرره فى قضاء الحنابلة
عوضاً عن عز الدين الحنبلى .

وفيه سعد فى يوم عيد الفطر سيدى منصور بن
الظاهر خشددم الى القلعة ليهنىء السلطان بالعيد ،
وكان السلطان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير .
فلما وقف سيدى منصور بين يديه خلع عليه
متمراً ، ثم طلبه وأجلسه معه على الكرسى — وكان
صغير السن دون البلوغ — فعد جلوسه مع
السلطان على الكرسى من النوادر التى ما وقعت قط .
وفيه جاءت الأخبار من عند شبك الدواidar بأن
شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفل عنه غالب
عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك ،
وأن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درنده ، وأنه
يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فما وافق السلطان
على ذلك الا أن يحضر سوار بنفسه ، ويقابل
السلطان .

وفيه توفى القاضى نجم الدين العجلونى محمد
ابن عبد الله بن عبد الرحمن الزرعى الدمشقى
الشافعى مذهباً ، وكان عالماً فاضلاً ، قدم الى
القاهرة بطلب من السلطان ليلى القضاء ، فتوكل
فى جسده فمات ، ودفن بالقاهرة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب
المحمل برسباى الشرفى ، وأمير ركب الأول الشهابى
أحمد ابن الأتابكى تانى بك البرديكى الظاهرى
برقوق .

وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن نجارا كان
عمالا بالقلعة فى بعض طباق الممالك ، فسقط من
مكان فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو
فقير ، فوقف أولاده وعياله بقصة للسلطان
يلتمسون منه شيئاً من الصدقة ، فأمر لهم بمائة
دينار ، وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية

يجهزونه بها ، فعد ذلك من محاسن الأشرف
قايتباى .

وفيه رسم السلطان بشنق جارية بيضاء ومعها
غلام ، فشهر وهما فى القاهرة على جملين ، وكان
سبب ذلك أن الجارية اتفقت مع الغلام على قتل
سيدها ، وأخذ ماله ويهربان ، فقتلاه ودفناه فى
الاصطبل . فلما ظهر أمرهما ، رسم السلطان
بشنقهما فشنقا .

وفيه توفيت خوند مغل بنت البارزى زوجة
الملك الظاهر جقمق ، وكانت دينة خيرة ولها بر
ومعروف ، وهى التى عمرت جامع الشيخ مدين
بالمقس ، ووقفت عليه أوقافاً كثيرة ، وكانت ناظرة
الى فعل الخير .

وفيه كانت نهاية عمارة الجامع الذى قد أنشأه
تمراز أحد الأمراخورية بجوار قنطرة عمر شاه .

وفى ذى القعدة غرقت مركب ببحر النيل ، وكان
فيها بضائع كثيرة لتجار من الأروام ، ولم ينبج
منها سوى ثلاثة أنفار ، فعين السلطان شرف
الدين بن كاتب غريب ، ومعه القاضى جلال الدين
ابن الأمانة أحد نواب الشافعية ، الى المكان الذى
غرقت فيه المركب لضبط ما يظهر من تلك البضائع
التي غرقت هناك ، فلم يظهر من ذلك الا اليسير
وغرق الأكثر .

وفيه قدم قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى
يده هدية للسلطان ومكاتبة فيها أشياء سرا ، فلم
ينشرح السلطان لقدوم هذا القاصد ، ولم يعلم
ما فى المكاتبة .

وفيه توفى يوسف بن مغلطاي نائب ثغر دمياط
وكان لا بأس به .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين بنى حرام وبنى

وائل . وكثر الفساد من العربان بالشرقية ، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار الى الشرقية من كثرة القتل ، وقطع الطريق ، وسلب أثواب المسافرين .

وفي ذى الحجة وصل قاصد من عند يشبك الدوادار ومعه مكاتبة ، يخبر فيها أن سوارا أرسل يطلب الأمان لنفسه ، وأنه يقيم بقلعة زمنوطو هو وعياله . فقال له الأمير يشبك : « حتى نكتب السلطان بذلك » .

وفيه قدم اياس الطويل المحمدى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ورسم له بأن يعود الى طرابلس ، وأنعم عليه بامرية بطرابلس يأكلها وهو طرخان . وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه وصل الأتابكى جرباش كرت من ثغر دمياط هو ويشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا وشفع فيه بعض الأمراء بأن يكون بداره بطالا حتى ينتهى أجله . فرسم السلطان باحضاره هو ويشبك الفقيه ، فلما طلع الأتابكى جرباش الى السلطان عظمه ، وقام اليه وأجلسه الى جانبه . ثم ان الأتابكى جرباش قام وقبل يد السلطان فى أن يشفع فى جاني بك كوهيه ، بأن يحضر هو أيضا الى القاهرة ، وكان بشجر دمياط . فأجابه السلطان الى ذلك ، ورسم باحضاره ، ثم خلع على الأتابكى جرباش ويشبك الفقيه ، ونزلا الى دارهما .

وفيه أمر السلطان بإنشاء البرج العظيم بقرى ثغر رشيد ، فجاء غاية فى الحسن من البناء والاتقان وفيه تزايد فساد بنى حرام وبنى وائل ،

وفسدت أحوال الشرقية ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وكان بها من الأمراء الأتابكى أوزبك وجاني بك قلقسير أمير سلاح وأزدر الطويل ، أحد المقدمى الألوف ، وعين معهم جماعة كثيرة من الجند ، وأمرهم بالخروج الى الشرقية سريعا .

وسبب ذلك أن العربان من بنى وائل وبنى حرام ، هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى رأس خط الحسينية ، ونهبوا الدكاكين ، وسلبوا أثواب الناس . واستمر الحال على ذلك من بعد العصر الى ما بعد المغرب ، فرجعوا حيث جاءوا . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم هؤلاء الأمراء ، فخرجوا من يومهم سريعا ... ثم ان الأتابكى أوزبك عاد الى القاهرة بعد أيام ، ومعه بعض عربان ، فأودعهم فى المقشرة . وأما بقية الأمراء ، فرسم لهم السلطان بالاقامة فى الشرقية لرد العربان المفسدين .

وفيه ولدت امرأة أربعة أولاد فى بطن واحد وهم صبيان وبناتان ، وكان أبوهم فقيرا فحملهم الى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ، ورسم لأبيهم بعشرة دنانير ، وخمسة أراذب قمح . وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدر الصغير الابراهيمى الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، ورعوس النوب ، مات قتيلًا على حصار قلعة زمنوطو ، وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية . وتوفى حسن التميمى ابن بيرم بن ططر نائب القدس والخليل ، وكان لا بأس به .

وفى هذه السنة كانت الفتن الموهلة ببلاد فارس ، واستمرت الفتن عمالة حتى ملكها بنو أوطاس . وكانت الفتن ببلاد الشرق بين حسن الطويل وبين ملوك هراة وسمرقند . وكانت الفتن عمالة بسبب سوار . وخرجت السنة المذكورة عن شرور وفتن فى بلاد الشرق وغيرها .

سنة سبع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٢/١٤٧٣ م) :

فيها ، في المحرم ، وقع بين الأتابكي أذربك وتغرى بردى ططر بسبب ضرب الكرة ، وقد زاحم فرس تغرى بردى ططر ، فرس الأتابكي أذربك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرار وهو صابر له ، ثم حنق منه فضربه بالصولجان حتى تكسر على ظهره . وتغرى بردى يسب الأتابكي أذربك ، ويشتمه شتما فاحشا ، حتى وقف بينهما الأمير جاني بك قلقسير ، فثنى الأتابكي عنان فرسه ، ونزل الى داره كالغضبان . فتكد السلطان غاية النكد بسبب ذلك .

وفيه توفى قلمطاي الأشرفي الاسحاقى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية .

وفيه حضر قاني باى صلق وعلى يده مكاتبة الأمير يشبك الدوادار ، تتضمن القبض على شاه سوار ونزوله من قلعة زمنوطو ، وقد وصل قاني باى صلق من حلب الى مصر في ثلاثة عشر يوما . فلما صحت الأخبار عند السلطان سر بذلك ، وخلع على قاني صلق خلعة حافلة ، وكذلك سائر الأمراء خلعوا عليه حتى المباشرون . فحصل له جملة خلع سنية .

وكان من ملخص أخبار القبض على شاه سوار أنه لما طلع الى قلعة زمنوطو واختفى بها ، حاصره الأمير يشبك الدوادار أشد المحاصرة ، وقد فل عن سوار عسكره وأراد الله خذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تميز التمشى ، قريب السلطان ، فتلطف الأمير يشبك بالأمير تميز حتى وافقه الى طلوعه الى سوار ، فطلع الى قلعة زمنوطو وصحبته القاضي شمس الدين أجا الحلبي قاضي العسكر ، وهو والد القاضي كاتب السر الآن . فلما طلع الأمير تميز الى سوار واجتمع به ، تعلل سوار بأنه

يلبس خلعة السلطان ، ويبوس الأرض ولا يقابل الأمير يشبك . فما وافقه الأمير تميز على ذلك ، فقال له سوار : « أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى اذا نزلت اليهم يقتلونى » . فقال الأمير تميز : « ضمانك على فما يصيبك شيء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة . فقام الأمير تميز والقاضي شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مائع .

فلما عاد الأمير تميز بالجواب على الأمير يشبك ، لم يوافق على ذلك ، وحاصر سوارا ، وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع فما أطاق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تميز والقاضي شمس الدين بن أجا ثانيا ، على أنه ينزل صحبتهما ، فطلع اليه الأمير تميز وابن أجا ثانيا ، فطال بينهما المجلس ، وقيل ان سوارا أضاف الأمير تميز وابن أجا بقلعة زمنوطو . فلما طال جلوس الأمير تميز وابن أجا بقلعة زمنوطو عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سوارا قد قبض على الأمير تميز وابن أجا بقلعة زمنوطو ، فلما مضى من النهار النصف نزل الأمير تميز هو والقاضي ابن أجا وصحبتهما شاه سوار ، وهو في نفر قليل من عسكره ، فتوجه الى وطاق الأمير يشبك الدوادار ونزل عن فرسه ودخل على الأمير يشبك في الخيمة فقام اليه ورحب به وأحضر اليه خلعة وألبسها له . فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يشبك : « امض الى نائب الشام وسلم عليه » وكان يومئذ برقوق نائب الشام . فلما توجه اليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل الى برقوق نائب الشام ، وصحبته الأمير تميز . فلما وقف بين يدي برقوق قال له برقوق : « من أنت ؟ » قال له : « أنا سوار » . قال : « أنت سوار ؟ » قال : « نعم أنا سوار » .

فجعل يكرر عليه هذا الكلام فيقول له : « نعم أنا سوار » . ثم قال له برقوق : « أنت الذى قتلت الأمراء والعسكر ؟ » فسكت سوار . ثم قال برقوق : « أحضروا له خلعة » . فأتوا اليه بخلعة وفى ضمنها جنزير . فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير فى عنقه . فلما رأى جماعة سوار أنه وضع فى جنزير ، ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم . وكان برقوق أكن كميناً حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب ، فهجموا على جماعة سوار ، وقطعوه ثم قبضوا على سوار وأدخلوه فى بعض الخيام . فلما رأى الأمير تراز ذلك شق عليه وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة وحلفت له أنكم لا تشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » . فأخرق برقوق بالأمير تراز خرقاً فاحشاً ، وربما لكمه . فخرج تراز من عند برقوق وهو غضبان . وكان الأمير يشبك حلف للأمير تراز أنه اذا قابله سوار لا يقبض عليه ولا يشوش عليه . فلما نزل اليه سوار ندب برقوق الى مافعه بسوار . وكان هذا عين الصواب . ودع الأمير تراز يغضب . فلما تحقق العسكر القبض على سوار ، قاموا على حمية ، وقصدوا التوجه الى الديار المصرية . وهذا ملخص ما وقع فى أمر القبض على سوار . واستمر الأمير تراز غضبان من الأمراء حتى دخل القاهرة . فلما قبض على سوار خلع الأمير يشبك على شاه بضاع أخى سوار وقرره عوضاً عن أخيه فى امرية الأبلستين .

وفى صفر جاءت الأخبار بأن تانى بك السيفى ألماس الأشرى نائب البيرة ... (بياض بالأصل) . وفيه توجه الأتابكى أزبك الى نحو البحيرة فغاب أياماً ثم عاد من هناك ومعه جماعة من العربان

المفسدين ، وهم فى الحديد ، فرسم السلطان بسجنهم فى المقشرة .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا بالرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك ، ويعلم من يلعب بالرمح ، ومن لا يلعب .. فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ، ووبخهم بالكلام ، وربما قصد الاخراق بهم .

وفيه عزل السلطان قاضى القضاة سراج الدين ابن حريز المالكى ووكل به بالطبقة ، ثم خلع على برهان الدين اللقانى أحد نواب الحكم ، وقرره فى قضاء المالكية عوضاً عن ابن حريز . واستمر ابن حريز فى الترسيم .

وفيه كتب السلطان عدة فتاوى ، وأخذ عليها خطوط مشايخ العلم والقضاة فى أمر سوار فأفتوه بأنه خارجى ، وأنه لا يبقى فى قيد الحياة .

وفيه ضرب السلطان ثلاثة من مماليكه الجلبان ومعهم آخر من المماليك الخشقدمية ، فضربهم ضرباً مبرحاً ، وقد بلغه بأنهم سكروا وعربدوا على الناس . ثم نفى المملوك الخشقدمى الى البلاد الشامية .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو دمياط ورشيد وغير ذلك من البلاد ، فسار فى البحر فى عدة مراكب ، وكان صحبته الأتابكى أزبك والأمير أزبك اليوسفى ، وغير ذلك من الأمراء . واستمر السلطان غائباً فى هذه السفرة نحو من ثلاثة عشر يوماً ، وقد تنزه فى هذه السفرة ، وطاف عدة بلاد ، ثم عاد الى القلعة ..

وفيه أحضر الى القاهرة جماعة من الافرنج قبض عليهم نائب ثغر الاسكندرية ، وكانوا يعشون بسواحل البحر الملح . فلما عرضوا على السلطان

رسم بسجنهم في المقشرة ، فأسلم منهم جماعة ، وجماعة سجنوا بالمقشرة .

وفيه حضر الشيخ علاء الدين الحصنى ، وكان خرج بصحبة الأمير بشبك الدوادار فغضب عليه ، وحصلت له كائنة عظيمة مع يشبك ، فهرب منه وأتى الى القاهرة واختفى بها .

وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك دخل الى الشام وصحبته سوار ، فزينت له الشام زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها الى غزة . فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة ، وضرب عليهما الرنوك الذهب . ثم أخذ في أسباب ملاقاته الأمراء ، فكسا الأمراء المقدمين كل واحد أربع بدلات ، وجهاز لهم ملاقاته الى الصالحية . وفيه كان وفاء النيل المبارك حادى عشرى مسرى ، فنزل الأتابكى أزبك ، وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه دخل الأمير يشبك وبقية الأمراء والعسكر الى الخانقاه السرياقوسية ، وصحبته سوار واخوته وهم في زناجير . فلما وصل الأمير يشبك الى الخانقاه : خرج الأمراء وأرباب الدولة الى ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه ونزل الى الريدانية فخرج القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء . ثم ان السلطان نادى في القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار ، حتى بلغ أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، بسبب الفرجة على سوار . فخرجت البنت من خدرها تنظر الى سوار الذى قتل العباد ، ويتم الأطفال ، ونهب الأموال . فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول

سنة سبع وسبعين وثمانمائة ، دخل الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة ، وصحبته شاه سوار . وكان الأمير تراز التمشى دخل الى القاهرة وهو منفرد عن الأمراء ، لم يرافقهم ، واستمر غضبان بسبب ما حصل له مع برقوق نائب الشام ، لأجل قبضه على سوار . وقد تقدم ذكر ذلك ... ثم ان سوارا أدخل قدام الأمير يشبك وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو في زنجير كبير طويل ، وراكب الى جانبه شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له تنم الضبع من الظاهرية الجقمقية — وهو مشكوك مع سوار في الزنجير — وكان قدام سوار اخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليه من أمرائه ممن نزل معه من قلعة زمنوط ، فكانوا نحوا من عشرين انسانا ، وهم راكبون على أكادش ، وعليهم ملايط بيض ، وعلى رؤوسهم عمام ، وهم في زناجير ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالى . فشق الأمير يشبك من القاهرة وهو في موكب حافل ، وقدامه الأمراء ممن كان معه في التجريدة ، وممن كان مقيما بمصر . وسارت الأطلاب أمامه شيئا بعد شيء ، واصطففت الناس على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره في الفرجة ، وكان من نوادر الزمان . واستمر الأمير يشبك في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، فعمل السلطان الموكب في القصر الكبير ، وقبل الأمراء الأرض . ثم انتقل الى الايوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معاليمة لم يجلس به سوى ذلك اليوم ، قصدا أن يعرض سوارا هناك ، فتزاحمت عليه الناس ، فانتقل السلطان الى الحوش ، وجلس على الدكة ، وطلب سوارا هناك . فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام ،

وعاتبه عتاباً لطيفاً ، وسوار ساكت لم يتكلم . ثم ان السلطان رسم بتسليم سوار الى الوالى يشبك ابن حيدر ، فتسلمه هو واخوته . ثم أخرجوا أخاه يحيى كاور الذى كان فى البرج ، وقد قبض عليه قبل ذلك ، وكان مسجوناً فى القلعة ، وسلمه للوالى فلما تسلمهم والى القاهرة نزع الخلعة عنه فى الحال ، وأحضروا لهم جمالا ، فأركبوا سوارا على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد ، وفيه عمود من حديد طويل ، وفى رأس العمود جرس ، حسبما قد رسم السلطان له بذلك . ثم سمروا اخوته وأقاربه على جمال ، وهم غرايا ورءوسهم مكشوفة . واخوة سوار الأربعة هم : أردوانة الأحذب ، وحداد ، ويحيى كاور ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ... فلما سمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال ، نزلوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من بخامر على السلطان » . واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى باب زويلة ، فشنكلوا سوارا ، وغلقوه فى وسط باب زويلة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينه فى الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وغلقوا حداذا داخل الباب . وأما سلمان فكان أمرد مليح الشكل ، فرق الناس له ، فشفع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكلة . ثم توجهوا بالباقي الى باب النصر فوسطوهم بأجمعهم . واستمر سوار معلقا حتى مات هو واخوته ، فأقاموا معلقين يوما وليلة — والناس ينظرون اليهم — ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ، وتوجهوا بهم الى تل غال بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك ، ثم قلعوا الزينة .

وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهب عليها أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من

الأمراء ، وكسر الأمراء ثلاث مرات ، ونهب بركهم . وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى ان الفلاحين طمعوا فى الترك ، وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار . وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب ، وقد خطب له فى الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ... ولولا لطف الله تعالى بالناس ، واخذال سوار لفست أحوال المملكة جدا .

وكانت صفة سوار أنه جميل الصورة ، حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد . وكان فى عشر الأربعين من العمر ، وكانت مخايل الحشمة والراصة محصورة فيه ، يقرب فى الشكل من القاضى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان شجاعا بطلا ، وكان له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عسكر مصر غير ما مرة ، وكان من أعظم أولاد دلفادر ، وقد وقع له ما لم يقع لأحد من أجداده قبله ، وقد شق على الأمير تميز قتل سوار على هذا الوجه ، واستمر غضبان مدة . وفى واقعة سوار قال المنصورى :

ياأيها الملك الذى سطواته
تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة
ان كنت منه آخذا بالثار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم
ما كنت تتركه بغير سوار
وقوله أيضا فى الأمير يشبك لما حضر الى
القاهرة وصحبته سوار :
منذ وافى الأمير يشبك مصرا
حبذا مصر موطن الأوطار

لبست حجل نيلها وتحلى

زند بابى زويلة بسوار

وفيه حضر الى القاهرة كسباى الظاهري
الحشقدى ، الذى كان دوا دارا ثانيا ونفى الى الشام
فأرسل الأمير يشبك يشفع فيه ، فأجيب الى ذلك ،
فأحضر كسباى صحبته ، واستمر فى داره بطلا
حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على برسباى
الشرقى ، وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وقرر
الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكى
بامرية الركب الأول ، وكان متوعكا فى جسده
فأخذ يستغنى من السفر فما أعفى من ذلك .

وفيه توفى جاني بك الأبيض أحد الحجاب ،
وكان قد جاوز السبعين سنة وكان لا بأس به .

وفيه توجه القاضى شرف الدين الأنصارى الى
جهة الطينة ، وكان معه مائة مملوك من ممالك
الأمير يشبك الدوا دار ، فلما وصل الى هناك وجد
فى البحر الملح مراكب فيها أفرنج يعبثون بالمسلمين
المسافرين ، فقبض على مركب منها وأسر من فيها
من الفرنج ، وأحضرهم صحبته لما عاد .

وفيه عزل قاضى القضاة الحنفى ابن الشحنة ،
وأمر بالتوكيل به بطبقة الزمام ، وذلك بسبب
ما وقع فى عقد المجلس الذى كان بين خوند شقرا
وبين أختها خوند آسية ، بسبب وقف الظاهر
برقوق ، فتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا ،
فحنق السلطان منه وعزله ، وكان فى نفسه منه شيء
بسبب ولده عبد البر ، وكانت هذه آخر ولايته
للقضاء ، ولم يل بعدها القضاء . واستمر فى
الترسيم بطبقة الزمام بسبب تعلقات أوقاف
الحنفية . ثم ان السلطان خلع على الشمسى شمس
الدين محمد الامشاطى ، وقرره فى قضاء الحنفية

عوضا عن محب الدين بن الشحنة بحكم انفصالة
عن القضاء ، فأفيض عليه شعار القضاء ونزل من
القلعة فى موكب حافل ، وكان قد تمنع من الولاية
غاية التمتع ، فألزمه بذلك السلطان .

وفيه شفع الأتابكى فى قاضى القضاة محب الدين
ابن الشحنة ، فنقل الى بيت كاتب السر حتى يقيم
حساب أوقاف الحنفية .

وفى جمادى الأولى توفى دقماق الأشرفى
الايئالى نائب القدس ، وكان شابا حسن الشكل
موصوفا بالشجاعة .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
حسن بك الطويل ، ملك العراقين ، قد جمع من
العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد
السلطان ، وقد بعث ولده محمدا مع عسكر
ثقل ، وقد وصلوا الى الرها ... فكثر القتال
والقتل بين الناس بسبب ذلك ، فما صدق العسكر
أن خمدت عنهم فتنة سوار ، فانتشى لهم فتنة
حسن الطويل . وزاد الكلام بين الناس بأن هذا
ما هو مثل شاه سوار ، وأن هذا لا يطاق . فقلق
السلطان والعسكر لهذا الخبر فكان كما قيل فى
المعنى :

شكوت جلوس انسان ثقل

فجانا آخر من ذاك أثقل

فكنت كمن شكا الطاعون يوما

فجاء له على الطاعون دمل

وفى جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة الى
حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين
ثلاثة ، وهم : جاني بك قلقسیر أمير سلاح ،
وسودون الأفرم ، وقراجا الطويل الاينالى ، وعدة
من الأمراء الطبلخانات ، والعشراوات ، ومن

الجند نحو من خمسمائة مملوك . فلما عينهم أنفق عليهم وأمرهم بالمسير الى حلب بسرعة من غير تأخير .

وفيه وقع تشاجر عظيم بين الأمير يشبك الدوادار ، وبين الأمير خاير بك بن حديد ، وذلك بحضرة السلطان . وكان سبب ذلك صحصاح الكاشف ، فانه وقع بينه وبين الأمير خاير بك بسبب بلاده التى فى الفيوم ، فتعصب الأمير يشبك الصحصاح ، فوقع بينهما ما لا خير فيه .

وفيه أخرج السلطان مقدمة سودون الأفرم وقد استعفى من السفر الى حسن الطويل ، فلما أخرج عنه المقدمة أنعم بها على قجماس الاسحاقى ورتب لسودون الأفرم ما يكفيه ، وبقي طرخانا بمصر . وفيه شفع فى جاني بك المشد الأشرفى برسباى وكان مقيما بالقدس بطالا ، فحضر الى القاهرة ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر مقيما بداره مدة حتى مات .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد استولى على كحنا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب الى شاه بضاع صاحب الأبلستين ، بأن يسلم اليه القلاع التى حوله ولا يخرج عن طاعته . وأرسل له فى المكاتبة ألفاظا مزعجة بما معناه « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم هددته فى مكاتبته بأنه متى خالفه يحصل له منه ما هو كيت وكيت . فأرسل بضاع المكاتبة للسلطان ، فلما قرأها السلطان وعلم ما فيها ، انزعج لذلك ، وتأثر . ثم عين الأمير يشبك الدوادار باش العسكر . وعين تجريدة أعظم من الأولى التى عينها قبل ذلك . فعين بها من الأمراء المقدمين يشبك الدوادار ، واينال الأشقر ، وبرسباى قرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة . وكتب من

الجند فوق ألفى مملوك . ثم أنفق عليهم وأخذوا فى أسباب الخروج الى السفر ، فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك . وكان باش العسكر جاني بك قلقسير أمير سلاح ، ومن معه من الأمراء . فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يشبك ومن معه من الأمراء ، فرجت لهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

وفى رجب لما سعد القضاة للتهنئة بالشهر سعد معهم الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، فأخذ السلطان يتكلم معه بسبب حسن الطويل ، فتكلم الشيخ أمين الدين بكلام انزعج منه السلطان ، وقد تقدم له معه فى واقعة سوار بما تكلم به فى ذلك المجلس ، وقد تأثر منه السلطان فى الباطن . وفيه أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل الى السلطان ، وكان أرسل يهدده فى هذه المكاتبة ، ويأمره بأشياء لا يمكن شرحها . وكتب فى صدر المكاتبة « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ورديش نائب البيرة قد قبض على جماعة من عسكر حسن الطويل ، وكسر جاليشه ... فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه وصل الى القاهرة من بلاد جركس ، أخت السلطان واسمها جان كين ، ومعها ولدها ، فصعدت الى القلعة فى محفة وحولها الخدام ، وحضر معها عدة نساء جراكسة .

وفيه رحل الأمير يشبك هو وعسكره من الريدانية ، وكان مصروف السلطان على هذه التجريدة فيما أنفقته مبلغ أربعمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، خارجا عن أشياء كثيرة بعثها للأمراء . فلما وصل الأمير

يشبك الى الخاقاه ، نزل اليه السلطان وودعه هناك ، واجتمع به في خلوة ، وعرض عليه مكتابة حسن الطويل التي بعثها الى نائب الشام .

وفي شعبان ثارت جماعة من المماليك الجلبان ، على شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان متكلماً في الوزارة والاستدارية عن الأمير يشبك ، فتوجهوا الى داره ، وكسروا أبوابه ، فهرب واختفى . وكانت هذه أول حوادث الجلبان في الفتك . واستمرت الحوادث منهم تتزايد حتى كان منهم ما سنذكره في موضعه .

وفيه حضر قاصد نائب حلب وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك ، وشخص آخر كان استاداراً على مقدمة حسن الطويل التي كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين لحوا من أربعين نفراً ، وقد نسبوا الجميع الى المواطاة مع حسن الطويل ، وكانوا يكاتبونه بأخبار المملكة . فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفيه هلك بترك النصارى الملكية ، وهو فخر ابن الصيفي ، وكان في النصارى لا بأس به .

وفيه كانت وفاة الشيخ فخر الدين المقسمى ، وهو عثمان بن عبد الله بن عثمان بن عفان الشافعي . وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان عالماً فاضلاً بارعاً في الفقه ، دينا خيراً وافر العقل . وذكر بأن يلي القضاء الأكبر غير ما مرة . وولى عدة تداريس جليلة ، منها مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما مات قرر في مشيخة الحديث بالشيخونية الشيخ جلال الدين السيوطي عوضاً عن الفخر المقسمى .

وفي رمضان نزل السلطان الى دار ترمي عوده ، وكان نقطعاً عن الركوب ، فسلم عليه وعاد الى القلعة .

وفيه وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صحبتهم الحرة زوجة صاحب تونس . وحضر صحبتها قاضي الجماعة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عمر القلجاني ، وكان من فضلاء علماء المالكية ، فأكرمه السلطان والأمراء ، ورأى من العز والعظمة حظاً وافراً .

وفيه صلب على باب زويلة جارية سوداء قد قتلت ستمها ، فأمر القاضي اللقاني المالكى بصلبها حتى تموت .

وفيه توفي جاني بك قرا العلائي الأشرفي أحد الأمراء العشراوات وشاد الشون وكان لا بأس به .

وفيه توفي أيضاً أرغون شاه استادار الصحبة ونائب غزة . وكان هو الذي قبض على الظاهر تمرينغا لما تسحب من دمياط ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباي ، وكان محمود السيرة .

وفيه ختم البخاري بالقلعة ، وكان ختما حافلاً وخلع فيه السلطان على القضاة ومشايخ العلم . وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفي شوال جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصري الظاهري نائب الشام ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان شجاعاً بطلاً مقدماً في الحرب ، عارفاً بأنواع الفروسية في فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشربخانة ، ثم مقدمة ألف ، ثم نيابة الشام ، ومات بها — وكان قد جاوز الستين سنة من العمر — فلما حضر سيفه أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه ، وكان عنده بمنزلة الأخ . ثم أمر باحضار أولاده وعياله الى القاهرة ، ثم رسم بنقل جثته الى القاهرة ليدفن في تربته التي بباب القرافة ، وكان لبرقوق بر ومعروف . وهو الذي أنشأ القبة على ضريح العارف بالله

الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه .
وفيه توفي الأتابكي جرباش كرت المحمدي
الناصري وكان طرخانا الى أن مات بمصر . وكان
قد قارب التسعين سنة من العمر ، وأصله من
ممالك الناصر فرج . وكان أميراً جليلاً حشماً
رئيساً ، وولى عدة وظائف سنية ، منها الأمير آحورية
الكبرى وامرية مجلس ، وامرية سلاح . ثم بقى
أتابك العساكر بمصر ، وترشح أمره الى أن يلى
السلطنة لما وثبت جماعة الأشرفية على الظاهر
خشقدم ، كما تقدم ، وكان متزوجاً بخوند شقرا
بنت أستاذ الناصر فرج ثم نفى بعد ما وقع له
ما ذكر الى دمياط . ثم أحضر الى القاهرة ومات بها
وجرى عليه شذائد ومحن ، كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك في اعتدال

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك
الدوادار دخل الى حلب ، وكان له يوم مشهود ،
فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن
الطويل ، وعلى يده مكاتبة شرحها أنه أرسل
بطلب جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب ، وأنهم
إذا أطلقوهم يطلق من عنده من الأسرى . وكان
عنده دولات باى النجمى الذى كان نائب ملطية ،
وجماعة آخرون ، فلم يلتفت اليه يشبك ولا أجابه
عن ذلك بشيء .

وفيه توفي الزينى عبد الرحمن بن الكويز الذى
كان ناظر الخاص ، وهو عبد الرحمن بن داود بن
عبد الرحمن بن خليل . وكان أصلهم نصارى من
الشوبك ، وحضر جدهم داود صحبه المؤيد
شيخ لما قدم الى مصر . وكان عبد الرحمن رئيساً
حشماً فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية ،
منها نيابة الاسكندرية ، ثم ولى الاستادارية ونظر
الخاص . ثم جرى عليه شذائد ومحن ، وفر الى

بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وأقام هناك مدة ثم عاد
الى مصر . وكان يدعى أنه يعرف علم الحرف ، وكان
له نظم سافل ومولده فى سنة ثمانمائة .
وفيه توفي نوروز الأشرفى ، كاشف الوجه القبلى ،
وكان لا بأس به .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وكان الشهابى
أحمد ابن الأتابكى تانى بك أمير ركب الأول
مريضاً على غير استواء ، فلم يرق له السلطان ،
وخرج على غير استواء ، وهو فى محفة فى النزاع .
فلما وصل الى بركة الحاج مات ليلة الرحيل ، وكان
حشماً متأدباً رئيساً ، وكان من الأمراء العشراوات ،
وتوجه الى الحجاز أمير ركب الأول غير ما مرة .
وكان مولده بعد العشر والثمانمائة ، فلما بلغ
السلطان موته طلب جاني بك الأشقر أحد مماليكه
وخواصه ، ورسم له بأن يتوجه أمير ركب الأول
عوضاً عن الشهابى أحمد بن تانى بك ، فتسلم
جميع بركه وجماله ، وسافر على الركب الأول ، ثم
حمل الشهابى أحمد الى القاهرة وغسل وكفن وصلى
عليه ودفن ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم
يكن يمر الحج على بال جاني بك فى هذه السنة
فكان كما قيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

وفيه أرسل السلطان خلعتين : احداهما الى جاني
بك قلقيسر أمير سلاح ، بأن يستقر فى نيابة الشام
عوضاً عن برقوق بحكم وفاته — وكان المشار اليه
بالتجريدة — فتوجه الى الشام واستقر بها . وأما
الخلعة الثانية فبعث بها الى اينال الأشقر ، بأن
يستقر فى امرية سلاح عوضاً عن المذكور المتقدم .

وفى ذى القعدة طلع الخليفة المستنجد بالله

يوسف ومعه القضاة الأربعة ليهنوا السلطان بالشهر على العادة ، فتكلم الخليفة مع السلطان في أمر ابنه ست الخلفاء ، التي كان عقد عليها خشكدي السيني . فطال الكلام في ذلك وانفض المجلس على غير طائل . ثم فسح عقدها عن خشكدي فيما بعد . وفي هذا المجلس تكلم السلطان مع قاضي القضاة الحنفي شمس الدين الامشاطي ، في اقامة قاض برسم حل الأوقاف والاستبدالات ، فقال : « ان السلطان له ولاية التفويض الى من شاء من النواب ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل وقف ، ولا بعمل استبدال » وقام من المجلس كالغضبان . فتأثر السلطان منه في الباطن رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك بعث جماعة من العسكر الى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى الى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الافرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وهذا أول ابتداء عكسه لكونه أرسل يستعين بالافرنج على قتال المسلمين .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده الى الأمير يشبك ، بأن يكون عوناً للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد ، وأرسل صحبته القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده هدية حافلة ، ومكاتبة بأن ينشئ بينه وبين السلطان مودة ، بسبب أمر حسن الطويل .

وفيه وصل الى السلطان مكاتبة من عند ابن الصوا من حلب ، يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ، ورحلهم عن البيرة ، وأن والد حسن الطويل قد جرح جرحات

بالغة ، وآخر من أولاده أصيب في عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل في المعركة شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس المصارع ، المعروف بالعلائي أمير آخور رابع ، وكان صهر مؤلف هذا التاريخ ، زوج أخته ، وكان انساناً حسناً ديناً خيراً موصوفاً بالشجاعة والفروسية علامة في رمي الشباب والصراع ، أصيب بسهم في صدغه فمات لوقته . ولم يقتل في هذه المعركة أحد من العسكر سواه . ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة ، وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عدوا من الفرات ، وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها ، فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء في هذه النصرة عدة مقاطيع ، فمن ذلك قول شمس الدين القادري :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً
كأغنام وهن لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سواراً
وأنت لسببها لا شك خاتم
وقال المنصوري :

هل عارف بالخارجي المعتدي
يخبر الينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه
قالوا الطويل فقلت ليل شتاته
وقوله أيضاً :

أيها العسكر الذي سار قصدا
لقتال الطويل لا تنظروهم
لا تطيلوا مع العدو كلاماً
في وغى الحرب والطويل اقصروه
وقال محمد بن شادبك :

عروس الحرب تقطعها المواضي
بأرواح الأعراب والأعاجم

وقد جليت وفي يدها سوار
وها حسن لكف الحرب خاتم
وقوله أيضا :

أيا حسن الطويل قصرت عمرا
وفاتتك المعالي والمغانم

سوار قد سبكناه ابتداء
وأنت بناره للسبك خاتم
وفي هذا الشهر كسفت الشمس كسوفاً عاماً ،
وأظلمت الدنيا ، واستمر الكسوف نحواً من ثلاثين
درجة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ،
وقد أتى من جهة البحر الملح ، فأكرمه السلطان ،
وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى ملوك
الافرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر
من البحر ، وهو يمشى عليهم من البر ، وقد ظفر
هذا القاصد بقاصد حسن الطويل ، وهو قاصد
نحو بلاد الافرنج ، فقبض عليه في أثناء الطريق وهو
في مركب وأسره . ثم ان القاصد أقام بمصر أياماً
وأضافه السلطان وأذن له في السفر وخلع عليه . ثم
ان السلطان عين دولات باي حمام الأشرفي ، بأن
يتوجه قاصداً نحو ابن عثمان .

وفي ذي الحجة تغير خاطر السلطان على الأمير
خاير بك بن حديد الأشرفي ، وأمره بلزوم داره ،
وهذه أول كائنة وقعت له . ثم جرى عليه بعد ذلك
ما هو أعظم من ذلك ، فأقام بداره أياماً لا يركب .
ثم بعث السلطان خلفه إلى ضرب الكرة . فلما
طلع إلى القلعة وضرب الكرة ، إتفق أن السلطان
قد سقط من يده الصولجان ، فترجل خاير بك عن
فرسه وناوله للسلطان ، فخلع عليه وأركبه فرساً
من خيوله ، ونزل إلى داره وهو مكرم .

وفيه توفي جانب اللفاف المؤيدي ، وكان أمير
عشرة ولكن مات طرخانا .

وتوفي طوخ النوروزي وكان أمير عشرة ومات
طرخانا .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأنه لما وصل
المحمل العراقي ، ودخل المدينة الشريفة ، كان
أميرهم شخص يقال له رستم ، وصحبته قاض
يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة ،
وأمرهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل
حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . فلما خرجوا
من المدينة وقصدوا التوجه إلى مكة ، كاتب أهل
المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج اليهم
الشريف محمد ابن الشريف بركات ، ولما قام من
بطن مر قبل أن يدخلوا إلى مكة . وقبض على
رستم أمير ركب المحمل العراقي ، وقبض على
القاضي الذي صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ،
وأودعهم في الحديد ليعثهم إلى السلطان . ثم أطلق
بقية من كان في ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض
لهم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المسلك العارف
بالله تعالى سيدي ابراهيم بن علي بن عمر المتبولي
رحمه الله تعالى . توفي بأسدود بالمنوفية ، ودفن
بها . وكان خرج إلى زيارة بيت المقدس فأدركته
المنية هناك فمات . وكان خيراً ديناً مباركاً وللناس
فيه اعتقاد حسن . وكانت شفاعته عند السلطان
والأمراء لا ترد . وكان له بر ومعروف ، وأنشأ
بركة الحاج حوضاً وسبيلاً وبستاناً . وكان يأوي
الفقراء والمنقطعين ، وكان نادرة في عصره صوفي
وقته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند العلامة
الشيخ علاء الدين علي بن محمد الطوسي

البتاركانى الحنفى ، وكان له شهرة ببلاد سمرقند .
والف فى العلوم الجليلة ، وكان من أعيان علماء
الحنفية .

وفيه توفى اياس الطويل المسمى الناصرى ،
الذى كان نائب طرابلس ، الذى تقدم ذكره .

وفيه من الوقائع أن البرهان البقاعى وقاضى
الجماعة أبو عبد الله القلجانى المغربى المالكى وقع
بينهما بحث فى بعض المسائل ، فوقع من البرهان
البقاعى فى ذلك المجلس جواب ضبطه عليه قاضى
الجماعة ، وصرح بكفره وأشهد عليه وأراد أن
تقام عليه الدعوى عند قاضى القضاة المالكى . فلما
علم كاتب السر ابن مزهر بذلك ، طلب البقاعى
عنده ، وحكم بعض القضاة بحقن دمه . ولولا
كاتب السر ما حصل للبقاعى خير . والذى جرى
على البقاعى بسبب سيدي عمر بن الفارض رحمه
الله ورضى عنه ، فانه كان رأس المتعصبين عليه .
واستمر البقاعى فى عكس حتى مات .

سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (١٤٧٣ / ١٤٧٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، وقع الرخاء بالديار المصرية ،
حتى ابتاع الرطل اللحم السليخ بثمانية نقره ،
والبطنة الدقيق بأربعة أنصاف . ووقع الرخاء فى
سائر الجيوب ، وابتاع القنطار البطيخ العبدلاوى
بثلاثة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر المأكولات
قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن
الافرنج قد عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من
المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر
دمياط . فلما جرى ذلك عين لهم السلطان فى الحال
الأمير محمد بن قجماس الأسحاقى أحد مقدمى
الألوف ، وأمره بالخروج من يومه . فخرج بعد

العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب ، وأمره
السلطان أن يتبع الفرنج حيث ساروا .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نوى ،
وقد أضافه هناك ابن طفيش ضيافة حافلة ، وأقام
عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه رسم السلطان بعزل القاضى القمى المالكى ،
أحد نواب الحكم ، بسبب حكم حكمه . فشكاه
الخصم الى السلطان بأنه جار عليه ، فحقن منه
السلطان وأمر بعزله .

وفيه وصل الحاج وصحبته ابن أمير مكة ،
والقاضى برهان الدين بن ظهيرة الشافعى ، وولده
أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم
أمير الحاج العرقى . والقاضى اللذين بعث بهما
حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ،
وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم
العادل حسن الطويل ، فسجن السلطان رستم
والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، وتأخر الحاج فى
السنة المذكورة عن مياعده ثلاثة أيام ، بسبب موت
الجمال وقلة المياه . ثم أرسل خاير بك الخشقدمى
الذى سمي « سلطان ليلة » ، يسأل فضل السلطان
بأن ينقله من مكة الى القدس ليقيم بها حتى
يموت ، فشفع فيه الأمير يشبك الجمالى ، فأجيب
الى ذلك ، ونقل من مكة الى القدس . وحضر
صحبة الحاج الشيخ ساد الأذريجانى الحنفى ،
وهو شيخ تربة الأمير يشبك الدوادار .

وفى صفر خلع السلطان على القاضى ابراهيم بن
ظهيرة ، وإعادة الى قضاء الشافعية بمكة ، ونزل
من القلعة فى موكب حافل ومعه القضاة الأربعة ،
وأعيان الدولة .

وفيه خلع السلطان على تميزاز التمشى ، وقرره

في رأس النوبة الكبرى عوضا عن اينال الأشقر
بحكم انتقاله الى امرية سلاح .

وفيه عين السلطان برسباى الأشرفى استادار
الصحبة ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك
الروم وصحبته هدية سنية .

وفي ربيع الأول كان وفاء النيل المبارك ، وقد
أوفى خامس مسرى الموافق لخامس ربيع الأول .
فلما أوفى توجه الأمير لاجين الظاهري أمير مجلس
وفتح السد على العادة . وفي ذلك اليوم نودى
على النيل بزيادة اثني عشر اصبعاً بعد سبعة عشر
ذراعاً ، فكان زيادته ثلاثة أذرع في ستة أيام .
وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، فلم
يحضر فيه من الأمراء المقدمين سوى ثلاثة أنفار .
وكان أكثر الأمراء غائباً في التجريدة .

وفيه توفى القاضي زين الدين عبد القادر بن
عبد الرحيم بن الجيعان . وكان رئيساً حشماً كثير
العشرة للناس ، ومات وهو في عشر الخمسين .

وفيه جاءت الأخبار بهلاك صاحب قبرس ، وهو
جاكم بن جوان بن حينوس الكيتلانى ، وكان من
أعيان ملوك الافرنج ، وهو الذى حضر الى الديار
المصرية في دولة الأشرف اينال ، وكان شاباً حسناً
في شكله ، فلما هلك تولى من بعده أخوه .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكرياً
لمحاربة حسن الطويل ، فسر السلطان لذلك .

وفيه توفى الأمير يشبك الفقيه ابن سلمان شاه
المؤيدى الذى كان دوادرا كبيراً في دولة الظاهر
خشققدم ثم نفى الى دمياط . ثم شفع فيه وعاد الى
القاهرة ، وأقام بها بطلا حتى مات . وكان ديناً
خيراً ، وله اشتغال بالعلم . وكان قد شاخ سنه ،
وقاسى شدائد ومحناً ومات ولده قبله بمدة يسيرة ،

وغص عليه ، وكان ولده شاباً حسناً مليح الشكل
مشهوراً بالفروسية . وقد تقدم ذكر ذلك .

وفي ربيع الآخر أطلق السلطان رستم أمير الحاج
العراقى ، وأطلق القضاى الذى صحبه ، وخلع
عليهما وبعثهما الى بلادهما ترضياً لخاطر حسن
الطويل ، وقد أشار بذلك الأمير يشبك الدوادار .

وفي جمادى الأولى جاءت الأخبار بوفاة الأشرفى
استادار الصحبة ، الذى توجه قاصداً الى
بلاد ابن عثمان ، وكانت وفاته بحلب ، وكان لابأس
به في ذاته .

وفيه خلع السلطان على الماس الأشرفى أحد
خواصه ، وقرره في استدارية الصحبة عوضاً عن
برسباى الشرفى بحكم وفاته . وعين قاصداً الى
ابن عثمان .

وفيه خلع السلطان على جاني بك الأشقر
الدوادار ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ،
وخلع على قانصوه خمسمائة الخاصكى ، أحد
مماليك السلطان ، وقرره في امرية الركب الأول ،
وقانصوه هو الذى تسلطن ولم تتم له السلطنة .
وجرى له ما جرى .

وفيه أمر السلطان بتوسيط عبد صغير السن
قد ذبح سيده وأخذ مالها وهرب ، فقبض عليه من
ليلته .

وفي جمادى الآخرة ثار جماعة من المماليك
الجلبان ، على السلطان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء
من الصعود ، واستمر الحال على ذلك غد ذلك
اليوم ، حتى سكن الأمر قليلاً بعد ما قصدوا
جماعة من خواص السلطان .

وفيه من الوقائع الغريبة أن شحصاً حلبياً كان

التجريدة ، صحبة الأمير يشبك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ، ولم يظهروا .
وفيه وقعت نادرة غريبة : وهى أن أبا بكر بن مزهر كاتب السر ، عطس بحضرة السلطان ، فشتمه السلطان مرتين ، فعد ذلك من النوادر .

وفى رمضان أنعم السلطان على تغرى بردى ططر بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قجماس الاسحاقى ، مضافة الى تقدمة قراجا الطويل الاينالى ، وقد انتقل الى نيابة حماه .

وفيه قرر ملاح اليوسفى الظاهرى فى نيابة القلعة .

وفيه كان دخول الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة وقد عاد من التجريدة . فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وخلع فى ذلك اليوم على قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف بن يحيى العجلونى . وكان عالما فاضلا مفتيا من أعيان الشافعية . ومولده سنة تسع وثمانمائة .

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، حضر فى ذلك اليوم بالقلعة قاضى مكة البرهان بن ظهيرة وولده أبو السعود وأخو البرهان بن ظهيرة ، وكان الشريف بركات ابن أمير مكة حاضرا وجماعة من أعيان مكة . فخلع السلطان على الجميع فى ذلك اليوم .

عنده مسن من الرخام الأخضر له عنده نحو من ثلاثين سنة ، فاتفق أن ذلك المسن سقط من يد صاحبه فانكسر نصفين ، فخرجت منه دودة غريبة الشكل ، فمد الحلبي يده اليها ، وأخذها يقلبها فلدغته فى اصبعه ، فاضطرب ساعة ووقع لوقته ميتا . وهذا من غريب الاتفاق .

وفيه أرسل يشبك يسأل فى الحضور . فان العسكر قد قلق من قلة العليق ، فلما بلغ السلطان حنق واغتاظ . ثم أذن لهم بالحضور بعد ذلك .

وفى رجب نزل السلطان ، وتوجه الى الرماية ببركة الحبش ، فاصطاد ثلاثة كراكى ، وعاد من يومه ، وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفيه ثار جماعة من الجليان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى القلعة ، وكان رأس الفتنة شخصا من ممالك السلطان يقال له على باى الخشن . فلما خمدت هذه الفتنة ضربه السلطان نحو من ألف عصا ، ونفاه الى الشام . فجاءت الأخبار بعد مدة بأنه سقط عليه حائط ومات تحت الردم . ففرح فيه غالب الناس .

وفيه جاءت الأخبار باستقرار قراجا الطويل الاينالى فى نيابة حماه ، عوضا عن بلاط اليشبكى بحكم صرفه عنها . وحمل بلاط عقيب ذلك الى السجن بقلعة دمشق . ومات فى السجن بعد مدة يسيرة . وكان قد شاخ وجاوز السبعين سنة من العمر .

وفى شعبان عاد الأتابكى أزبك من البحيرة ، وخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان فى

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل جاني بك الأشقر ، وأمير ركب الأول قانصوه خمسمائة ، فالتزم الأمير يشبك بعمل بركة من ماله . وكان الأمير يشبك قد عقد على أخت قانصوه وصاهره ، وخرج صحبة الحاج شاهين نائب جدة ، وخرج القاضي ابراهيم بن ظهيرة وجماعته ، وابن أمير مكة قاصدين التوجه الى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها . وقد أوردوا للسلطان في هذه الخطرة نحو من مائة ألف دينار . فأكرمهم السلطان وأجلهم ، ورب لهم ما يكفيهم من الأسطة وغير ذلك . وأنزلهم في بيت أم ناظر الخاص يوسف الذي ببركة الرطلى ، ورأوا فيها بهجة أيام النيل . ثم بعد ذلك سافروا .

وفيه وقف الأمير يشبك الدوا دار الى السلطان ، واستغنى من الوزارة ومن الاستدارية ، فأجابه السلطان الى ذلك ، ولكن حتى يغلق سنته . وكان من أمره ما سذكركه .

وفي ذى القعدة رسم السلطان ليشبك الجمالى ، بأن يخرج قاصدا لابن عثمان ملك الروم ، وأبطل ألماس الذى كان قد تعين قبل ذلك .

وفيه تزوج أزدمر الطويل الاينالى بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان له مهم حافل .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى جهة بولاق فنهبوا ما فيها . ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوا دار ، فنهبوا ما فيها ، وصاروا يأخذون جمال السقايين ، ويحملونها ما نهبوه من الشعير . فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سائق ، ومعه مقدم المماليك ، ولكن ما نزل الا بعد هوات الأمر . وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الضرر

للناس ، من نهب وخطف بضائع الناس ، وغير ذلك . فبات السلطان تلك الليلة في جامع زين الدين الأستاذار الذى ببولاق ، فأضافه تلك الليلة بعض قصاة بولاق ، وهو القاضى تقي الدين البرماوى امام الجامع المذكور وخطيبه ، ضيافة حافلة ، فشكر له السلطان ذلك .

وفي ذى الحجة قصد جماعة من المماليك الجلبان الاخراق بالأمير يشبك الدوا دار ، وقصدوا قتله . ففر منهم ، وتوجه الى بواحي الجيزة حتى نحدد الفتنة . فاستمر غائبا نحو من خمسة عشر يوما . فعفى هذه المدة كثر القال والقييل بين الناس . وامتنع الأمراء من الصعود الى القلعة والسلطان مقيم بالدهيشة ، كالغضببان من ممالكه ، والأبواب مغلقة عليه . فطلع الأتابكى أزبك ، وأزبك اليوسفى ، وتمر حاجب الحجاب ، وكاتب السر ، وشرف الدين الأنصارى ، وآخرون من الأمراء ... على انهم يتلطفون بالسلطان ، ويمشون بينه وبين ممالكه بالصلح . فامتنع السلطان من ذلك ، وصمم على عدم الصلح مع المماليك . ثم خرج الى الحوش وجلس على الدكة ، وطلب من كان رأس الفتنة في هذه الحركة ، وهو شخص من المماليك يعرف بالأقطش ، فأمر بتوسيطه فجردوه من ثيابه في الحال ، فشفع فيه الأمراء فما أجاب الا بعد جهد كبير ، ثم ضرب ذلك المملوك فوق ألف عصا ، وسجنه بالبرج . وهذا كله جرى والأمير يشبك غائب في الجيزة لم يحضر الا بعد أيام ، حتى سكنت هذه الفتنة .

وفيه حضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق بطلب من السلطان — وهذه ثانى مرة حضرها الى القاهرة — فلما حضر أكرمه السلطان ، وخلع عليه ، ونزل في دار الأتابكى أزبك عند أخته . ثم أمره بالصعود الى القلعة لضرب الكرة مع الأمراء ،

الاشاعة . وقد ذكر موته غير ما مرة ، ثم يظهر أنه كذب .

وفي صفر أمر السلطان بقطع خصيتي شخص من الأتراك ، يقال له شاهين ، وهو خازن دار اينال الأشقر . وكان نقل عنه للسلطان أنه فعل الفاحشة ببعض مماليكه الأحداث ، وأنه كثير العشرة لهم . فخصاه السلطان بمصر العتيقة وبريء من ذلك بعد مدة . وعاش مدة طويلة ومات . وكان ذلك في أيام ظهور شخص يهودى بمصر العتيقة ، عارف بالالخصاء ، وفعل ذلك مع جماعة كثيرة من الناس ، وبرئوا من ذلك .

وفي ربيع الأول تغير خاطر السلطان على الأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، أحد مقدمى الألوف ، فرسم لنقيب الجيش بأن يتوجه الى داره ويخرجه منفيا الى دمياط ، فتوجه اليه وأخرجه من يومه . وحصل لقانصوه الخفيف منه غاية البهدة . وأخرجه خروج الشؤم . فكثر القال والقليل بسبب ذلك .

وفيه في ليلة الخميس عاشره ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك ، وهو في داره . فلما بلغ السلطان ذلك بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء أن يلبسوا آلة الحرب ، وأن يشبوا على المماليك الجلبان . فاضطربت الأحوال ، وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة . وأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود هذه الفتنة . وخشوا من أمر طائفة الاينالية ، لأنهم تأثروا لنفى قانصوه الخفيف . فبعث السلطان ألماس استادار الصحبة ، ومعه عدة وافرة من المماليك الجلبان ، الى دار الأمير يشبك الدوادار ، فقبلوا يده ،

وعومل معاملة السلاطين في ارخاء البند الأصقر ، وتغيير الفرس في مكان يغير فيه السلطان فرسه ، حتى عد ذلك من النوادر التى ما وقعت قط . وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو شهرين حتى عاد الى دمياط . وكان في غاية العز والاكرام . ووقع له أمور ما وقعت لأحد من أبناء الملوك قبله . وكان حضوره الأول بسبب الحج ، وهذه المرة بسبب زيارة السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة البدرى حسن بن المزلق ناظر جيش دمشق . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنية .

وفيه توفى الأمير سودون الأفرم الحمدي الظاهري ، وكان أحد مقدمى الألوف ، ولكن مات وهو طرخان . وكان بيده امرية عشرة يأكلها حتى مات .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى محمد الاسلامبولى رحمة الله تعالى عليه . وكان يعرف بالأقباعى ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ومكاشفات خارقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة ملك التكرور رحمه الله تعالى . وكان من أجل ملوك التكرور قدرا .

وفيه توفى عبد القادر بن جائم نائب الشام . وكان شابا حسنا لا بأس به . وتوفى في هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة

سنة تسع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٤/١٤٧٥ م) :

فيها ، في المحرم ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره . فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأظهر العفو عما جرى منه . وكان أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم ، ثم ظهر كذب هذه

واعتذروا له بما وقع منهم ، فأكرمهم وخلع على
ألماس كاملية بسمور ، وأرضى الجلبان بالكلام ،
وسكنت الفتنة قليلا .

وفيه أنعم السلطان على ورديش نائب البيرة
بتقدمة ألف . وهى مقدمة قانصوه الخفيف بحكم
نفيه الى دمياط .

وفيه توفى تهم العجمى بن ططخ الظاهرى ، أحد
الأمراء العشراوات . وكان خشداش الأتابكى أزبك
وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنفى سودون المؤيدى ،
فنفاه الى مكة . وكان قد نسب الى شىء من أمر
الفتنة الماضية مع المماليك الجلبان ، وقد وشى به
بعض المماليك عند السلطان فنفاه .

وفيه فى ليلة عيد ميكائيل نزلت النقطة ، وأمطرت
السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا ، حتى عد ذلك
من النواذر .

وفيه بعث الأمير يشبك الدوادار الى القاضى
علم الدين شاكر بن الجيعان ، يسأله فى استبدال
قاعات البرابخية التى بيولاق ، ودفع لهم الثمن من
ذلك خمسة آلاف دينار . وكان قاضى القضاة
الحنفى شمس الدين صمم على عدم الاستبدالات
قاطبة . فضيق عليه الأمير يشبك حتى استبدل له
البرابخية ، فقامت عليه الألسنة بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة خير بك
الظاهرى الخشقدمى ، الذى سموه سلطان ليلة ،
وكان رئيسا حشما ، وجرى عليه شذائد ومجن ،
ونفى فى عدة أماكن من البلاد ، وآخر الأمر توفى
بالقدس الشريف .

وفيه وفى النيل المبارك وقد توقف أياما ، وحصل
للناس غاية القلق ، حتى بعث الله تعالى بالوفاء ،
وكان لعشرين من مسرى . فلما وفى نزل الأتابكى

أزبك وفتح السد على العادة ، وسر الناس بذلك .
وفيه كان المولد النبوى وكان له يوم مشهود .

وفى ربيع الآخر ظهر بالسماء نجم له ذنب طويل .
وكان يظهر بعد العشاء ، واستمر على ذلك مدة ،
ثم اختفى .

وفيه كانت وفاة العلامة الشيخ زين الدين قاسم
ابن قطلوبغا السودونى الحنفى ، وكان عالما فاضلا
فقيها حاذقا كثير النواذر ، مفتيا من أعيان الحنفية ،
وكان مولده فى سنة احدى وثمانمائة وكان نادرة
عصره .

وفيه خلع السلطان على جاني بك الأشقر ، وقرره
فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر جاني بك
الخشن الاينالى فى امرية الركب الأول .

وفيه نفى السلطان جماعة كثيرة من مماليكه ،
منهم اينال الخفيف الذى ولى حاجب الحجاب
فيما بعد ، وغيره من المماليك السلطانية ، ممن أثار
تلك الفتن الماضية .

وفيه قدم للسلطان قاصد من عند ابن عثمان ملك
الروم ، وعلى يده مكاتبة تتضمن الشفاعة فى اينال
الحكيم ، وكان قد جرى عليه كائنة ، وفر الى ابن
عثمان ، فقبل السلطان شفاعته وأكرم ذلك القاصد
وخلع عليه ، وأقام بمصر مدة ثم عاد الى بلاده .

وفى جمادى الأولى ، فى ليلة الجمعة ، كانت وفاة
الامام العالم العلامة محيى الدين الكافيجى ، وهو
محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى ،
الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا بارعا فى العلوم ،
ماهر فى الفقه والحديث والعلوم العقلية وغير ذلك ،
واتتهت اليه رياسة مذهبه بمصر ، وصار مفتيها على
الاطلاق ، وألف فى العلوم الجليلة ، وكان مهيبا

معظما عند السلطان والأمراء ، ولى عدة وظائف
منها مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومشيخة تربة
الأشرف برسبای ، وغير ذلك ، وشهرته تغنى عن
مزيد التعريف به . ومولده سنة ثمان وثمانين
وسبعمائة وكان من أفاضل الحنفية رحمه الله تعالى .
وفيه يقول المنصوري وقد أضافه في خلوته بحلاوة
قرع فقال فيه :

يا عين أعيان الزمان ويا
محیی بمصر سنة الشرع

لم يقرع الباب امرؤ نحوكم
الا وذاق حلاوة القرع

ولما مات رثاه المنصوري بهذه الأبيات :

بكت على الشيخ محیی الدين كافيجی
عيوننا بدموع من دم المهج
كانت أساریر هذا الدهر من درر
تزهی فبدل ذاك الدر بالسبج
فكم ترى من سماح من مكارمه
فقري وقوم بالاعطاء من عوج
يانور علم أراه اليوم منطفئا
وكانت الناس تمشي منه في سرج
فلو رأيت الفتاوى وهی باکیة
رأيتها من نجيع الدمع في لجج
ولو سرت بثناء عنه ریح صبا
لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج
ياوحشة العلم من فيه اذا اعترکت
أبطاله فتواریت فی دجی الرهج
لم يلحقوا شأو علم من خصائصه
أتى ورتبته في أرفع الدرج
قد طال ما كان يقربنا ويقرئنا
في حالتيه بوجه منه مبتهج

سقيا له وكساه الله نور سنا
من سندس بسدا الغفران منتسج
وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو
طرا ، وأقام بها الى آخر النهار ، وعاد .
وفي عقيب ذلك رسم السلطان بنفي اثنين من
الاینالية ، وهذا أول الفتك بهم .

وفيه توفي سودون المنصوري مات قتيلًا ، سقط
من سطح ، وكان مشغول الرأس فمات لوقته ،
وكان شابا حسن الشكل ، كثير الاسراف على
نفسه ، فقصد السلطان أن يصلى عليه ، فلما علم
كيفية موته لم يصل عليه ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدی
الطواشي ، وقرره في الوزارة عوضا عن الأمير
يشبك الدوادار ، بحكم استعفائه عنها ، وقرر قاسم
شغيته في نظر الدولة . فلما أحضروا لخشقدم
الخلعة شرع يلطم بيديه على وجهه ويكي ، وصار
يدعى الفقر والعجز ، ويكرر الاستعفاء ، والسلطان
لم يلتفت لكلامه ، فلبس الخلعة ونزل الى داره .
وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، وعلى يده
هدية للسلطان ، ومن جملتها سبع عظيم الخلقة ،
وخيمة كبيرة ، وغير ذلك . فأكرمه السلطان ، وخلع
عليه .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ،
ونصب هناك تلك الخيمة التي أهداها له ملك الهند
وكانت غريبة . فأقام هناك ثلاثة أيام فصادف دخول
الأمير يشبك الجمالی ، الذي كان توجه الى ابن
عثمان ملك الروم ، فعاد من سفره ، وقابل السلطان
في خليج الزعفران ، وعليه خلعة ابن عثمان ،
ومكاتبة تتضمن التودد بينهما ، فانسر السلطان
بذلك .

وفيه أمر السلطان ببناء ما تهدم من جامع عمرو

ابن العاص رضى الله عنه ، ف قيل انه صرف عليه خمسة آلاف دينار .

وفي جمادى الآخرة خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرره فى مشيخه الخانقاه عوضا عن محبى الدين الكافيجى ، وخلع على ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى ، وقرره فى مشيخة الشيخونية ، وكانت مشيخة المؤيدية مع أولاد ابن الديرى بحكم شرط الواقف ، فعادت اليهم . وفيه أعيد السيد الشريف موفق الدين أحمد الحموى فى نظارة الجيش لدمشق ، عوضا عن ولد برهان الدين النابلسى ، وكان قد وليها بعد وفاة البدر بن مزلق .

وفيه وقعت تشحيطة صعبة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الدكاكين ، وتزاحم الناس على شراء القمح ، واستمر ذلك مدة حتى دخل المغل الجديد .

وفى رجب قرر السلطان الشيخ أبا عبد الله القلجاني المغربى ، قاضى الجماعة ، فى مشيخة تربة السلطان ، وقرر فى خطبتها الشيخ أبا الفضل الحرقى ، وقرر بها ثلاثين صوفيا ، يحضرون فى الخمسة أوقات ، وقرر فيها شيخ الميقاتية بدر الدين الماردينى ، وقرر فى قراءة المصحف بها ناصر الدين الأخمى ، وخازن الكتب بها العلائى على بن خاص بك ، وبني للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون وغير ذلك من أنواع البر والمعروف ، وخطب بها فى الشهر المذكور ، وحضر الأمراء والقضاة الأربعة وأرباب الدولة قاطبة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع على القاضى أبى الفتح المنوفى ، وقرره

فى نيابة جدة عوضا عن شاهين الجمالى ، وأضيف اليه الصرف أيضا ، عوضا عن محمد بن عبد الرحمن . وفيه غضب السلطان على شادبك أبازا الاينالى الأشرفى ، أحد العشراوات ، فألبسه زنا غنيقا وأمر بحمله الى خان الخليلى ليباع ، وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان بحكم أنه ورثه من قانى باى الجركسى . فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه الى الملك المنصور ، فشفع فيه الأتابكى أربك ، فما قبل منه . وآل الأمر الى أن حمل شادبك أبازا وآخر من الاينالية يقال له خاير بك ، وآخر يقال له سيباى ، فحملوا الى الملك المنصور فأشهد على نفسه بعقوبتهم . ثم نفى شادبك الى دمشق ، وخاير بك الى طرابلس ، وشفع فى سيباى بأن يقعد بمصر بطالا . وقد بلغ السلطان ما غير خاطره عليهم ، قيل انهم قصدوا الوثوب على السلطان لما وثب الممالك على الأمير يشبك الدوادار ، فأنكشف رخ جماعة الاينالية فى هذه الحركة ، وصار السلطان ينهى منهم جماعة بعد جماعة ، ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة .

وفيه طلع الى السلطان شخص من الفقهاء يقال له شهاب الدين القلقلى ، ورفع قصة يشكو فيها الشيخ عبد البر بن الشحنة ، بأنه سلب غلماناه وعبيده عليه ، فضربوه ضربا مبرحا . وذكر فى آخر القصة أن عبد البر جاهل ما يحسن قراءة الفاتحة ، وأن الصلاة خلفه لا تصح . فقال السلطان مع القلقلى على عبد البر ، فرسم السلطان باحضار عبد البر وجماعة من مشايخ القراء ، وقرأ عبد البر بحضرتهم والسلطان جالس ، والقلقلى حاضر . فلما سمعه المشايخ القراء شكروا قراءته ، فقال السلطان على القلقلى ، وكان قد حلف برأس السلطان أن عبد البر ما يحسن قراءة الفاتحة ، فلما ظهر للسلطان كذب القلقلى أمر بضربه ، فحضر بين يديه ضربا

ميرجا ، وأمر بحمله الى القاضى المالكى ليفعل به ما يوجبه الشرع . وانتصر عبد البر عليه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمد بن شاد بك التركمانى الجلبى نائب طرابلس .

وفيه توفى يشبك الظاهرى السيفى على باى نائب قلعة دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان للرماية ، فلما عاد شق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وخشقدم الوزير ، حتى صرح الأمير يشبك بعزل نفسه من الدوادارية وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى ركب اليه الأمير الكبير أزيك وجماعة من الأمراء ، وتلطفوا به حتى طلع معهم الى القلعة ، وخلع السلطان عليه كاملية بسمور ، وأصلح بينه وبين خشقدم الوزير ، وبأس خشقدم يد الأمير يشبك ، وخمدت هذه الفتنة التى بينهما .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بلباى العلائى الظاهرى نائب صفد ، وكان لا بأس به ، وولى نيابة الاسكندرية ، ثم نيابة صفد ، ومات وهو فى عشر الستين .

وفى شعبان توفى بكتمر البواب أبو بكرى الأشرقى ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى الاسطبل ، وحكم به ، وكاتب السرى بين يديه على دكة لأجل قراءة القصص . وحضر يشبك الدوادار وشكا كاتب السر ، وهو واقف بين يدى السلطان ، فأمره أن ينزل ويقف بين يديه بازاء خصمه ، حتى يدعى عليه ، وحضر وشكا جاني بك الفقيه ، ففعل به كذلك .

وفيه توفيت خوند بدرية بنت الأشرف اينال وكانت لا بأس بها ، وتركت عدة أولاد ذكور واثاث .

وفيه وصل قاضى القدس وهو فى الحديد ومعه جماعة من أعيان أهل القدس ، وهم فى الحديد بسبب هدم كنيسة هناك ، وقد ثار بسبب ذلك شر كبير بين العلماء ، وكتبت عدة فتاوى بسبب تلك الكنيسة ، وصار يفتى بعضهم بالهدم ، وبعضهم بالابقاء .

وفيه هجم طائفة من العربان المفسدين ، على جماعة من الناس فى أثناء طريق المنية ، واستمروا يعرفون الناس من المنية الى قنطرة الحاجب ، وكان ذلك بعد العصر ، وكان أول الربيع . وسلبوا أثواب المتفرجين ، وطلعوا من على قناطر الأوز ، وخرجوا الى الفضاء ، وكانوا نحوا من عشرين خيالا . فكان من جملة ما سلبوه أثواب شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له كسباى المغربى ، وكان راجعا من طريق المنية ، فأخذوا سلاريتته من فوقه .

وفيه توفى تانى بك الأزدمرى الحاجب الثانى وكان قد شاخ وبلغ من العمر نحوا من تسعين سنة .

وفيه عرض السلطان من فى السجون ، فأطلق منهم أربعة أنفار لا غير وأعاد البقية الى السجون .

وفى رمضان صعد القضاة الأربعة ومشايخ العلم ليهنئوا السلطان بالشهر ، فأمر السلطان بعقد مجلس بين يديه بسبب كنيسة اليهود التى هدمت بالقدس ، فأفتى الشيخ أمين الدين الأقصرائى بجواز هدمها . وكذلك شمس الدين الجوجرى ، وزين الدين الأبناسى . وأفتى الشيخ سراج الدين العبادى ، وقاضى الجماعة القلجاني المغربى المالكى ، وآخرون من العلماء بعدم جواز

الهدم ، وأنها تعاد الى ما كانت عليه ... فوقع في المجلس القال والقييل من العلماء ، وكثر الخطب ، وانفض المجلس على غير طائل . وأمر السلطان بعقد مجلس آخر في دار يشبك الدوادار ، وكان السلطان مائلا الى عدم هدم الكنيسة واعادتها الى ما كانت عليه ، وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان ، وحكم باعادتها الى ما كانت عليه ، ووقع بين قاضي القضاة المالكي اللقاني وقاضي الجماعة ما لا خير فيه . وكذلك سراج الدين العبادي والجوهرى . ومما هجى به السراج العبادي :

أيا سراج اليهود طرا
ومن لدين العزيز أفتى
عصبة أهل الكتاب قالوا
لن ترضى عنك اليهود حتى

وقيل في قاضي الجماعة من جملة أبيات في ذلك المعنى :

تفتى بعود كنيسة يامغربى ما أنت الا
وفيه توفى اينال الأشقر البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا شجاعا بطلا ، وكان ظالما غشوما عسوفيا ، كثير الاسراف على نفسه ، وكان عنده كرم زائد مع اتضاع ، وأصله من ممالك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ، ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير وامرية سلاح ، وغير ذلك من الوظائف . وكان في آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا .

وفيه قرر يشبك قرقماس. الأشرفى في نيابة دمياط .

وفيه توجه السلطان نحو الطرانة ، وكان معه الأتابكى أزبك ، فأقام هناك أياما وعاد .

وفيه قرر مغلباى سرق الأشرفى في حجوية الحجاب بدمشق .

وفيه فر من العربان من حبس الديلم شخص من بنى حرام يقال له عمر بن معروف ، وفر من سجن القاعة شخص يقال له محمد بن زامل ، وفر من سجن المتشرة أيضا شخص يقال له ابن صالح ... الكل فروا في مدة يسيرة من هذا الشهر .

وفي ثالث شوال خرج الأتابكى أزبك مسافرا الى الحجاز ، وصحبته زوجته بنت الملك الظاهر جقمق ، وخرج معهم الأمير أزبك اليوسفى ، ومعه زوجته خوند بنت عم الملك الظاهر جقمق وخرج معهم الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وولده أبو السعود ، فحج الشيخ أمين الدين في محفة ، وقد بعث له السلطان سبعمائة دينار يستعين بها على الحج . وخرج صحبتهم الكثير من الناس . وقد سبقوا الحاج بعشرين يوما .

وفيه خلع السلطان على قريبه أزدمر بن مزيد وقرره في نيابة صنفد عوضا عن بلباى العلائى الظاهرى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة . ولما حج الشيخ أمين الدين الأقصرائى في المحفة قال فيه بعض شعراء العصر هذين البيتين :

محفة الشيخ الأقصرائى
تشدد جدواه في المشاهد

تقول طوبى لمثل هذا

قد حج بالناس وهو قاعد

وكان أمير الركب في السنة المذكورة جاني بك

الأشقر ، أحد خواص السلطان . وبالركب الأول جاني باى الخشن الاينالى تاجر الممالك .

وفي السنة المذكورة حجت خوند فاطمة ، زوجة السلطان ، بنت العلائي علاء الدين بن خاص بك ، فكان يوم خروجها يوما مشهودا ، وكان لها موكب حافل ، وخرجت في محفة زركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بأنواع المعادن المثمنة ، وخرجت صحبتها أخت السلطان في محفة زركش . وخرج معها خمسون جملا من المحاير المخمل الملون ، ومشى قدام محفتها بالرميلة جميع أرباب الوظائف والدولة ، وغير ذلك من المباشرين . ومشى الزمام ومقدم المماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصي ، وقدامها من الحداة أربعة ، منهم ابراهيم بن الجندي المعنى ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك . فكان تجملا زائدا قل أن يقع لأحد من الخوندات مثله ، فعد ذلك من النوادر . وكان المتسفر عليها والدها العلائي على بن خاص بك ، وبرسباي المحمودي الخازندار .

وفيه من الحوادث أنه قبل خروج خوند الى السفر رسم السلطان بشنق جارية بيضاء جركسية فشنت على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة عند الأحواض التي بطريق مصر العتيقة . وكانت هذه الجارية حملت من بعض مماليك السلطان ، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية ، وأغرق المملوك ، وقيل بل خصاه ونفاه الى الشام . وفيه اضطربت أحوال الشرقية بسبب فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل ، فعين السلطان لهم الأمير يشبك الدوادار فخرج مبادرا .

وفي ذي القعدة هجم عرب غزاة على ضواحي الجيزة ، ونهبوا خيول المماليك ، وقتلوا جماعة من الغلمان ، وأطلقوا من كان في السجن . فتأكد السلطان لهذا الخبر ، وعين عدة من الأمراء

والجند ، فخرجوا على حمية . فأقاموا هناك أياما وعادوا ولم يظفروا بأحد من العربان المفسدين . وفيه توفي بيسر الطويل الأشقر بن ططخ أحد مقدمي الألوف بدمشق ، وكان لا بأس به . وفي ذي الحجة جاءت الأخبار من الاسكندرية بوفاة الملك الظاهر ترميغا ، أبي سعيد الظاهري الرومي ، مات بشعر الاسكندرية وقد جاوز الستين سنة من العمر . وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ، وافر العقل كامل الهيئة . واليه تنسب أشياء كثيرة من آلة الحرب ، ورمى الشباب ، ولعب الرمح . وكان من خيار الظاهرية ... اشتراه الملك الظاهر جقمق في سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأعتقه ، ثم آل أمره الى أن بقي سلطانا ، وجرى عليه شذائد ومحن ونفي عدة مرار وجرى عليه من المماليك الخشقدمية ما لا خير في اعادته . وخلع من السلطنة بعد ثمانية وخمسين يوما ، وآخر الأمر مات قهرا كما قيل في المعنى :

هي الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما في من مضى فعلت
وفيه أمر السلطان بتوسيط كاشف البحيرة ، وهو شخص يسمى خشقدم الزيني ، فوسطه هو وشخص من الكتاب يقال له ابن الطواب . وقد تجمد عليهما مال لم يقوما به .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا . ثم نودي عليها كل رطل بستة وثلاثين . ونودي على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين . فخر الناس في هذه الحركة ثلث أموالهم . وكانت الفلوس تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة . وكان المبشر يومئذ شخصا من الخاصكية يقال

يوم مشهود . ودخل اليها التقادم من أبواب الدولة وأعيان الناس .

وفيه في سابع عشره كانت وفاة شيخ الاسلام أمين الدين يحيى بن محمد الأقصرائى الحنفى رحمه الله تعالى . وكان قد نيف على الثمانين سنة من العمر ، وكان مولده سنة سبع وتسعين وسبعمئة . وكان اماما عالما فاضلا مفتيا به نفع للمسلمين ، من أجل علماء الحنفية ، بارعا في الفقه دينا خيرا قائما في الحق . يخاشن الملوك والساطين ويغلظ عليهم في القول ، ولا يخشى الا الله تعالى . وكان في سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنه منها مشيخة المدرسة الأشرفية ، ومشيخة المدرسة الصرغتمشية والأيتمشية والجانبكية ، وكان يده عدة تداريس ، وطلب ليلى القضاء غير ما مرة وهو يتنعم .

وفي صفر خلع السلطان على قريبه جانم الشريفي ، وقرره في نظر الجوالى ... وهذا أول استظهاره في الوظائف .

وفيه توفي الأمير قانى باى الساقى الطويل الظاهري أحد الأمراء الطلخانة ، والحاجب الثانى وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى طرا ، ومعه الأتابكى أزبك ، فبات هناك . ومد له الأتابكى أسمطة حافلة ، فبات وعاد من غده .

وفيه توفي الشيخ نجم الدين اسحق القرشى الحنفى ، كان من أعيان علماء الحنفية ، ومولده قبل التسعين وسبعمئة . وكان لا بأس به .

وفيه توفي تمر حاجب الحجاب ، وهو تمر بن محمود شاه الظاهري ، وكان ظالما غشوما عسوقا شديد القسوة . تولى ولاية القاهرة ، وحجوبية

له جان بلاط الغورى ، فأخبر بوفاة أبى السعود محمد ابن الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، مات وهو عائدا من مكة ، ودفن في أثناء الطريق ، وكان شابا حشما رئيسا من أهل العلم والفضل . وتوفي كاتب النسر الذى بطرابلس ، السيد الشريف تقى الدين أبو بكر بن أحمد ، وكان لا بأس به .

سنة ثمانين وثمانمئة (١٤٧٥/١٤٧٦ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وقرره في مشيخة تربة الأشرف برسباى ، عوضا عن الكافيحى بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بتوسيط عمر ابن أبى الشوارب شيخ قليوب ، وقد ضرب بالمقارع بين يدى السلطان ، وشهر على جمل ، ووسط بقلوب . وفيه في سابع عشره كان وصول الأتابكى أزبك من مكة المشرفة . وحضر صحبتته الشيخ أمين الدين ، وهو في غاية التشويش على فقد ولده أبى السعود ، وقد وقع له ما يشبه الذهول فلم يلبث بعد دخوله القاهرة سوى تسعة أيام ومات . فلما طلع الى السلطان خلع عليه ، وعلى الأتابكى أزبك ونزلا الى دورهما .

وفيه في رابع عشره دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر عن مياعده بأربعة أيام ، وحصل للحاج غطشة شديدة عند العود ، وكان الحاج في تلك السنة كثيرا . ثم دخلت خوند زوجة السلطان الى بركة الحاج وهى في تجمل زائد ، ولاقاها الأمراء قاطبة — حتى القضاة — وترجلوا اليها من فوق بغالهم وهى في المحفة ، ولاقتها المغانى من البيوت ومدت لها هناك أسمطة حافلة . فلما طلعت الى القلعة رفعت على رأسها القبة والظير ، ونشرت عليها صنائف الذهب والفضة . وكان لها بالقلعة

الحجاب ، وكان في أيام ولايته صارما على العبيد والغلما ن وغير ذلك ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، حتى قيل أحصى من قتله في أيام ولايته ، فكان زيادة على السبعمئة انسان ... فلما مات قال جماعة من أهل الصحراء انهم سمعوه يعوى في قبره كما تعوى الكلاب ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه طلع القلعة شخص من الأمراء العشروات — يقال له دولات باي حلاوة المحمودي — فبينما هو واقف بين الأمراء اذ اضطرب فحملوه الى تحت الكرمة التي بالحوش ، فمات لوقته ، فأحضر له تابوت ، وأنزلوه الى داره ، ودفن من يومه ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا ، وحضره القضاة الأربعة وأعيان الناس من الأمراء وغيرهم .

وفيه خلع السلطان على القاضي تاج الدين ابن المقسى ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقد نسي العلقه بالمقارع التي دخلت في أجنا به ، وانفصل عنها القاضي بدر الدين بن كاتب السر بن مزهر .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزدمر الابراهيمي الطويل الاينالي ، وقرر في حجوية الحجاب عوضا عن تمر بحكم وفاته .

وفيه قرر انسلطان في الحجوية الثانية سيباي الظاهري الذي كان أمير آخور ثاني . وقرر أزدمر المسرطن في الخازندارية الكبرى ، عوضا عن أربك اليوسفي ، بحكم انتقاله الى مقدمة ألف .

وفيه توفي الأمير يشبك جلس بن أقبردي الأشرفي أحد الأمراء العشروات . وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركي ، وقرره في مشيخة المدرسة

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركي ، وقرره في مشيخة المدرسة

الأشرفية ، عوضا عن الشيخ أمين الدين الأقصرائي بحكم وفاته . وفيه أشيع بين الناس أن السلطان يقصد السفر والخروج بنفسه الى البلاد الشامية ، فنزل بالميدان الكبير الذي بالناصرية ، وعرض هناك خيول الدشار . ثم توجه الى بولاق ، ونزل في بيت شرف الدين الأنصاري الذي ببولاق ، فأضافه الانصاري هناك ضيافة حافلة ، وكان الأنصاري قد أنشأ غرايا تحت داره . فنزل السلطان فيه ، وتوجه الى شبري ، ثم عاد قريب المغرب وطلع الى القلعة .

وفيه في ثاني عشر مسرى كان وفاء النيل المبارك . ونزل الأتابكي أربك وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أعزلو بن حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه ، وقد بعث يستتجد بنائب حلب على أبيه ، فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش اينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفي ، وجاني بك نائب جدة . وكان يومئذ نائب البيرة ، ودولت باي المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب فلما خرجوا الى عسكر حسن الطويل ، تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح محمد أعزلو جرحا بليغا ، ورجع الى حلب في خمسة أنفار ، وأن اينال الحكيم فقد في المعركة ، وأن دولت باي أسر في المعركة ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة . فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ، وعين جماعة من الأمراء . منهم الأتابكي أربك ، ويشبك الدوادار ، وتمرار رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباي قرا وخاير بك بن حديد وورديش ، وعين من الأمراء الطبلخانات والعشروات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يرد عليهم من

أمر حسن الطويل ما يكون ... فاضطربت أحوال
العسكر . فبينما هم على ذلك اذ ورد كتاب من ابن
الصوا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد الى
بلادهم ، ولم يحصل منه ضرر . فانشرح السلطان
لهذا الخبر ، وبطلت التجريدة التي تعينت الى
حسن الطويل فكان كما قيل :

وكم هم تساء به صباحا فتأتيت المسرة بالعشى
وفيه توفي عضد الدين السيرامي شيخ المدرسة
البرقوقية ، وهو عبد الرحمن بن يحيى بن سيف
ابن محمد بن عيسى ، الحنفى السيرامى . وكان
عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان علماء الحنفية ،
بارعا فى الفقه مفتيا ، وكان لا بأس به . فلما توفي
خلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين
الامشاطى ، وقرره فى مشيخة البرقوقية عوضا عن
السيرامى .

وفيه خلع السلطان على أزيك فشق الظاهرى ،
وقرره فى امرية الآخورية الثالثة عوضا عن سيباى
بحكم انتقاله الى الحجوية الثانية .

وفيه خلع السلطان على ولد برهان الدين
النايسى ، وأعيد الى نظارة الجيش بدمشق ،
وصرف عنها الشريف موفق الدين الحموى .

وفيه توفي جمال الدين الباعونى قاضى القضاة
الشافعية بدمشق . وكان عالما فاضلا رئيسا
حشما . وكان قد ترشح أمره ليلى قضاء مصر فلم
يتم له قضاء مصر . وكان مولده سنة خمس
وثمانمائة .

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على قجماس
الاسحاقى ، وقرره فى الأمير اخورية الكبرى ،
عوضا عن جاني بك الفقيه الظاهرى بحكم انتقاله

الى امرية سلاح عوضا عن اينال الأشقر بحكم
وفاته ، وخلع على قائم قشير الظاهرى أحد
العشراوات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا
عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى امرية
الآخورية الكبرى .

وفيه خلع على برد بك السيفى جرباش كوت ،
وقد ظهر أنه قريب السلطان ، فقرره فى نيابة صفد
عوضا عن أزدمر بن مزيد قريب السلطان أيضا ،
وفيه نقل أزدمر المذكور الى نيابة طرابلس عوضا
عن شبك البجاسى ، وكان برد بك السيفى يومئذ
شاد الطرانة ، فاستكثر عليه الناس نيابة صفد
دفعه واحدة .

وفيه توجه الى دمشق برهان الدين النابلسى ،
وكيل بيت المال ، وقد خرج فى بعض أشغال
السلطان .

وفيه وصل القاضى شمس الدين بن أجا قاضى
العسكر ، وكان قد توجه قاصدا الى حسن
الطويل ، فأخبر بأن الطاعون قد هجم فى بلاده
ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره .
فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت الى القاهرة زوجة حسن الطويل
أم ولده محمد أعزلو ، تستجير لولدها محمد
بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ، ويصلح بينهما .
فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم .
وفيه تقبعت قاعة الذهب ، وسرق منها عدة
سبائك وشريط ذهب . فلما بلغ السلطان ذلك
ضيق على والى القاهرة حتى يفحص عن فعل
ذلك . ثم بعد أيام ظهر أن شخصا يقال له
يوسف ، وكان من جملة صناع القاعة ، أنه هو

الفاعل لهذا فقبض عليه ، وعرض على السلطان ، وأخذ ما كان معه من السبائك الذهب ، وسجن بالمقشرة الى أن يرد أمر مولانا السلطان فيه بما يقتضيه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من دمشق بأن برهان الدين النابلسي وكيل السلطان ، لما دخل الى دمشق ، صدرت منه القبائح العظيمة بأهل دمشق ، فما أطاقوا ذلك ، ورجموه ورموا عليه بالسهم ، وأحرقوا داره بالنار ، وأرادوا قتله ، فركب نائب قلعة دمشق بنفسه ، وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وقد كادت أن تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي . وكان قد طغى على الناس وتجبر ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد في حقه ، حتى آل أمره الى ما سنذكره في موضعه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ، فأضافه هناك ابن البلاح ، وكان أحضر بين يديه قدورا مختومة بها شهد ، ففتحت منها قدرة بين يدي السلطان وهو جالس على السماط . فلما فتحت خرج منها نحلة كبيرة فقصدت وجه السلطان دون الجماعة الذين على السماط ، فلدغته في جفن عينه فورم وجهه في الحال ، وتشوش لذلك ورجع من وقته . فطلع الى القلعة ، فانقطع عن اقامة الخدمة أياما حتى شفى .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة بين شاه بضاع بن دلغادر ، وصاحب الأبلستين ، وبين ابن قرمان ، ووقع بينهما مقتلة عظيمة . ووقع أيضا بين حسن الطويل وبين أخيه أويس ، وبعث

اليه طائفة من عسكره بالرها فحاربوا أويسا وقتلوه ومن معه من العسكر .

وفيه توجه السلطان الى ثغر دمياط ، وقد توجه الى دمياط مرة أخرى قبل ذلك . وفي هذه السفرة الثانية توجه الى دمياط من البحر في عدة مراكب كثيرة نحو من مائة مركب ، وكان معه من الأمراء يشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، وجماعة من المباشرين والخاصكية من المماليك السلطانية . ووقع له وهو حادر في البحر ، أنه رمى على كركى من الكراكى بجزيرة في البحر ، فصرع الكركى ، فتحامل وألقى نفسه في البحر ، فبادر اليه بعض السلحدارية ، ونزل في البحر ليحضر الكركى ، فقوى عليه التيار ففرق من وقته . فتكد السلطان بسبب ذلك . فلما طلع الى ثغر دمياط لاقاه النائب ومد له مدة حافلة ، فأقام بها أياما وهو في أرغد عيش ، وتنزه في غيطان البلد ، وتوجه الى مكان يصاد فيه السمك البورى ، ونزل في مركب صغير وعابن كيف يصاد البورى ، وانشرح في هذه السفرة الى الغاية . فلما أراد العود الى القاهرة عاد في البحر أيضا ، ونزل في المركب قاصدا الديار المصرية . فلما أن وصلوا الى بولاق ، سيب النفطية صواريخ نبط ، فجاء منها صاروخ في مركب الأمير يشبك الدوادار ، فعملت النار في قلع المركب فاحترق . فاضطرب الأمير يشبك من ذلك ، وصار يدفع عن وجهه النار بالمخدة ، فأدركه طواشى يقال له مرجان الحبشى ، فبينما هو يطفىء النار اذ سقط عليه الصارى فمات لوقته ، هو وشخص من المماليك السلطانية . فكانت مدة غيبة السلطان في هذه

السفرة نحواً من خمسة عشر يوماً ، وطلع الى
القلعة في سلخ الشهر .

وفي رجب صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر
وقدوم السلطان من السفر ، فخلع في ذلك اليوم
على أبى البقا ابن قاضى القضاة ابن الشحنة ،
وقرر فى قضاة الشافعية بحلب ، عوضاً عن عز الدين
الحساوى ، بحكم صرفه عنها . وفى أثناء هذا
خرج السلطان على حين غفلة ، وقصد التوجه الى
القدس الشريف ، وكان معه الأتابكى أزبك ،
ويشيك الدوادار ، وآخرون من الأمراء
والخاصكية ، وجماعة من أعيان المباشرين وغيرهم .
فلما دخل الى القدس أظهر به العدل ، وأقام به
ثلاثة أيام . ثم زار الخليل عليه السلام ، وتصدق
فى القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال بهما
ما كان من المظالم التى كانت حادثة هناك . ولما مر
بالقرين أمر ببناء جامع وسبيل هناك ، وحصل له
جملة تقادم حافلة من أعيان الناس هناك . ولما دخل
الى غزة خلع على سيباى الظاهرى أحد العشراوات ،
وقرره فى نيابة غزة ، عوضاً عن يشيك العلائى ،
بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق . ثم ان القاضى
تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص قدم من عند
السلطان ، وأخبر أنه قد وصل الى قطيا ، فخرج
جماعة من الأمراء الى لقائه .

وفى عشرى شعبان وصل السلطان ودخل الى
القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش
والقماش . وخرج طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم
الشموع الموقدة ، وشق من القاهرة ، وكان له
يوم مشهود حتى طلع الى القلعة . وكان فيه ختان

بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ،
وكان له مهم حافل .

وفيه توفى القاضى محبى الدين الطوخى أحد
نواب الشافعية ، وهو عبد القادر بن محمد بن محمد
القاھرى الشافعى ، وكان عالماً فاضلاً وجيهاً عند
الناس ... ناب فى القضاء مدة طويلة ، وحمدت
سيرته ، وكان لا بأس به .

وتوفى السيد الشريف أمير جان تاجر الماليك ،
وكان رئيساً حشماً فى سعة من المال ، وكان وجيهاً
عند الناس والملوك والسلاطين ، وجلب غالب أمراء
عصرنا ، وصاروا يعرفون بالشريفى الى الآن .

وفيه حضر مهنا بن عطية بين يدى السلطان ،
وقد بعث اليه بمنديل الأمان ، وكان رأس العربان
المفسدين ، وقد أعيا الأمراء والكشاف ومشايخ
العربان ، ولم يقدرُوا على تحصيله ، فترامى مهنا بن
عطية على أحمد بن طفيش حتى قابل به السلطان ،
وخلع عليه خلعة الرضا ودخل تحت طاعة السلطان .

وفيه توفى جاني بك الأشقر الدوادار أحد خواص
السلطان ، وكان رئيساً حشماً عارفاً سيوساً توجه
الى الحجاز أمير حاج غير ما مرة ، وكان مقرباً عند
السلطان ، وكان أصله من مماليك قانى باى فرفور
واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ، ثم خدم الأشرف
قايتباى — من حين كان أمير طبلخاناه الى أن بقى
سلطاناً — فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة . وكان
فى سعة من المال .

وفيه توفى شاهين الفقيه الزينى وكان من أعيان
الخاصكية ، محمود السيرة ديناً خيراً لا بأس به .

وفى رمضان خلع السلطان على الأ
الظاهرى أمير مجلس ، وقرره أمير د

عوضاً عن جانى بك الأشقر المتوفى ، وكان قرره أمير ركب المحمل قبل موته .

وفيه وصل دولات باى المحوجب ، وكان قد أسر عند حسن الطويل ، فأطلقه وخلع عليه .

وفيه توفى سيباى أمير آخور ثالث ، وكان قد ولى حاجب ثان ، وأصله من مماليك الظاهر چقمق . وكان يعرف بسيباى بن بخشباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن بعض تجار الافرنج احتال على تجار الاسكندرية حتى أسروهم ، وكان فيهم تجار السلطان ، وهم ابن عليه يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى التمرأوى . فلما أسروهم خرجوا بهم من الاسكندرية فى الوقت والساعة ، وتوجهوا بهم الى بلاد الافرنج . فاضطربت أحوال الاسكندرية وكادت أن تخرب ، فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر ، وعين فى الوقت خاصكيا من خواصه يقال له قيت الساقى ، الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد . وكتب معه مراسيم شريفة لنائب ثغر الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الافرنج الذين بالاسكندرية . فلما توجه قيت الساقى هناك قبض على تجار الافرنج من سائر السواحل ، وضيق عليهم ، وأودعهم فى الحديد ، وألزمهم بأن يكتبوا ملوك الافرنج بما جرى عليهم من السلطان ، بسبب التجار . وقد قام السلطان فى هذه الحادثة قياماً تاماً ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الافرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وأتوا بهم الى الاسكندرية ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانى باى جشحة العلائى

الظاهرى الرماح ، وقرره فى الحجوية الثانية ، عوضاً عن سيباى الظاهرى بحكم وفاته . وخلع على دولات باى الحسنى ، وقرره فى شادية الشون عوضاً عن قانى باى جشحة .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن اسماعيل الكركى الحنفى ، والد برهان الدين امام السلطان ، وكان ديناً خيراً من صوفية خائفاً الشيخونية وكان لا بأس به .

وفيه توفى مقبل الدوادار وكان أصله من مماليك تغرى بردى المؤيدى ، وكان متكلماً على شعير الذخيرة .

وفيه قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى اينال الاسحاقى ، وكانت عادة مشيخة الحرم للخدام الطواشية من قديم الزمان . وقرر فى باشية الجند بمكة المشرفة قانى باى اليوسفى .

وفى شوال خلع السلطان على أبى الفتح المنوفى وقرره فى نيابة جدة على العادة .

وفيه خلع السلطان على شخص من النصارى يقال له ميخائيل من نصارى منفلوط وقرره بترك النصارى .

وفيه خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل لاجين الظاهرى ، أمير مجلس . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى ، وخرج صحبة الحاج شرف الدين الأنصارى . وكان الأمير يشبك الدوادار حاطاً عليه ، فخرج الى مكة المشرفة ، وكان آخر عهده بالقاهرة . وقد تسلط عليه برهان الدين النابلسى ، وأخذ منه وكالة بيت المال ، فضاق الأمر عليه فترك مصر ومضى عنها كما قيل فى المعنى :

لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفي ذي القعدة أشيع بين الناس أن خزانة
السلطان سرق منها مال له صورة ، فظهر بعد أيام
أن الفاعل لذلك جماعة من بوابي الدهيشة
الألواحية ، فقبض السلطان على بعضهم وضربه ،
فأحضر المال . فرسم بسجنه في المقشرة فسجن .
وفيه سافر السلطان الى الفيوم ، وهي السفرة
الثانية ، وكان معه الأتابكي أزبك ، ويشبك
الدوادر ، وجماعة من المقدمين والعشراوات .
وكان سبب توجهه الى الفيوم أن خاير بك بن
حديد أنشأ هناك ضيعة ، وجعل بها طاحونا تدور
بالماء ، وأنشأ بها بستانا هائلا ، فتوجه السلطان
ليرى ذلك .

وفيه خسف القمر خسوفا تاما حتى أظلم الجو .
وأقام الخسوف نحوا من أربعين درجة .

وفي ذي الحجة كان عيد النحر يوم الجمعة .
وخطب فيه خطبتان .

وفيه قدم قطب الدين الخضيرى من دمشق ،
وقد أتى يشكو من بدر الدين النابلسى وقد تزايد
ظلمه وجوره في حق الناس جدا .

وفيه كان ختان أولاد الملك المنصور عثمان بن
الظاهر جقمق ، وكان الختان بثغر دمياط ، فبعث
السلطان اليه بألفى دينار بسبب احتياج المهم ،
وتوجه بن رحاب المغنى ، وصار بخدمته حتى
انقضى مهمه ، وكان له مهم حافل .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن
والسلامة ، وأخبر بوفاة القاضى المالكى محيى

الدين عبد القادر بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد
ابن عبد الله بن عبد المعطى ، الأنصارى السعدى ،
المالكى ، قاضى مكة المشرفة ، وكان عالما فاضلا
فقيها نحويا ، ولى قضاء مكة مدة طويلة ، وكان
محمود السيرة .

وفيه توفى تهم الفقيه الأبو بكرى المؤيدى أحد
الأمراء العشراوات . وكان صهر الشيخ أمين الدين
الأقصرائى ، وكان لا بأس به .

وتوفى اينال الابراهيمى الحكيم الأشرفى أتابك
حلب ، وكان لا بأس به .

وتوفى جقمق المؤيدى أحد العشراوات ، وكان
دينا خيرا انسانا حسنا لا بأس به .

وفي هذه السنة المذكورة — أعنى سنة ثمانين
وثمانمائة (١٤٧٥ م) — كان ابتداء منشأ الأذربكية
على يد المقر الأتابكى أزبك بن ططخ الظاهرى ،
والذى نسبت الأذربكية اليه .

وكانت هذه البقعة أرض ساحة خرابا ، ذات
كيما في أرض سباخ ، وبها أشجار أثل وسنط ،

وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير ، وغيرهما من
الأولياء رضى الله عنهم ورحمهم . وكان في هذه
الأرض جامع الجاكى وهو باق الى الآن . وكانت
هذه الأرض قديما عامرة ، بها المناظر والبساتين ،
وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل .

ثم ان بعض الملوك حفر بها خليجا ، وأجرى اليه
الماء من فم الخور . وصار هذا الخليج يعرف بخليج
الذكر ، وبقي من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى
على هذا الخليج قنطرة وفوقها دكة للمتفرجين
يجلسون عليها للفرجة ، وفيها يقول ابراهيم
المعمار :

يا طالب التكة نلت المنى
وفزت منها ببلوغ الوطر

قنطرة من فوقها تكة

وتحتها تلقى خليج الذكر

واستمرت هذه البقعة على ما ذكرناه الى سنة
خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) . فلما تلاشى
أمرها ، وضعف جريان الماء في خليج الذكر ، وحفر
الملك الناصر بن قلاوون خليجه المسمى بالخليج
الناصرى ، وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة
(١٣٢٣ م) ، طم خليج الذكر ، وخربت مناظر
اللوق التى هناك ، وصارت هذه البقعة خربة
مقطع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم
يلتفت اليها أحد من الناس . ثم ان شخصا من
الناس عمر حماما كان هناك ، وفتح له بجمونا من
الخليج الناصرى ، فجرى فيه الماء في أيام زيادة
النيل . فلا زال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية ،
فصار يدخل اليها الماء في آخر الزيادة ، ويروى بها
بعض أراضيها ، ويزرع بها البرسيم والشعير ،
واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة
(١٤٧٥ م) في دولة الأشرف قايتباى . فحسن
بيال الأتابكى أزيك أنه يعمر هناك مناخا لجماله .
وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة . فلما أن عمر
المناخ ، حلت له العمارة هناك ، فبنى القاعات
الجليلة ، ثم الدوار والمقعد ، والمبيلات والحواصل ،
وغير ذلك . ثم انه أحضر أبقارا ومحاريث ، وجرف
الكيان التى كانت هناك ومهداها ، ثم حفر بها
هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى اليها الماء من
الخليج الناصرى وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر
التى كانت قديمة . ثم بنى على هذه البركة رصيفا
مختاطا بها ، وتعب في ذلك تعباً عظيماً حتى تم له
ما أراد من ذلك . وكان في قوة الحر يدور خلف
المحاريث في الكيمان وغيرها ، وصرف على ذلك
مالاً له صورة يزيد على مائتى ألف دينار ... وكان

ذلك في غير طاعة الله تعالى ، ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور
الفاخرة ، والأماكن الجليلة . ولا زالت تتزايد في
العمارة الى سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) وقد
رغب الكثير من الناس في سكنى الأزبكية
وصارت مدينة على انفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع
الكبير ، وجعل به خطبة ، وأنشأ به منارة عظيمة ،
فجاء غاية في الحسن والتزخرف والبناء .

وفيه يقول شمس الدين القادرى :

بنى جامعاً لله يلتمس الرضا
به ونجاة من أليم عقابه
وفكر في الحشر الذى عقباته
طوال يهول المرء قطع عقابه
فأكرم به من جامع من ثوى به
فلم يخل منشيه اذا من ثوابه
فيا فوز عبد مؤمن قد جنى به
ثمار أجور من رياض جنابه
عظيم أجور لا ينوب منابه
سواء لأجر نال كل المنى به

ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع ، والحمامات
والقيصر والطواحين والأفران ، وغير ذلك من
المنافع . وسكن في تلك القصور ، وتمتع بها مدة
طويلة ، حتى مات . وبقي له تذكارات الأزبكية على
مر الأيام والأوقات . وقال فيه شمس الدين
القادرى رحمه الله تعالى :

لأزبك مولانا المقر عمارة

بها السعد يسمو للنجوم الشوابك
بملكة الاسلام لم أر مثلاً
ولا الناس طرا في جميع الممالك
بنى جامعاً للحسن أصبح جامعاً
تقر به العينان من كل ناسك

وفيه توفي الشيخ تقي الدين الحصني الشافعي وهو أبو بكر بن محمد بن شادي ، وكان عالما فاضلا بارعا في الفقه والعربية وغير ذلك من العلوم ، وكان ديننا خيرا لا بأس به . ولى عدة وظائف ، أى تداريس ، منها تدريس المدرسة الصلاحية ، التى بجوار قبة الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه . فلما مات قرر بها الشيخ زين الدين زكريا الأنصارى عوضا عن الحصني .

وفيه توفي قاضى القضاة شهاب الدين أحمد المعروف بالمكيى ، وهو أحمد بن محمد بن بركوت الحبشى التاجر الكارمى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، ربيب قاضى القضاة صالح البلقينى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها حسبة القاهرة ، ثم ولى قضاء الشافعية ، وغرم بسببها مالا له صورة ، ولم يمكث فى القضاء سوى مدة يسيرة ، وعزل عنها .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر بوفاة القاضى شرف الدين الأنصارى ، وهو موسى بن على بن سليمان التتائى الشافعى ، وكان رئيسا حشما ، غير خال من فضيلة ، عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا حسن رأى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الجيش ، ونظر الخاص ، ووكالة بيت المال ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، حتى عد مدبر المملكة ، وكان مولده بعد العشرين وثمانمائة .

وفيه أرسل نائب الشام جاني بك قلقسیر ، هدية للسلطان ، من جملتها من الذهب النقد عشرة آلاف دينار ، وعدة حمالين ما بين سمور ، ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك .

وفى ربيع الآخر وقع حريق عظيم بباب السلسلة ، فاحترق من خيول السلطان الخاص ستة أرؤس .

وقد أعيا الممالىك طففيه . وهدم من سور باب السلسلة جانب عظيم .

وفيه فى ثالث مسرى كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفي نائب الاسكندرية قائم قشير الظاهرى ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى عاد الأمير يشبك من بلاد الصعيد ، ولم يظفر بأولاد ابن عمر .

وفيه قرر فى امرية الحاج بركب المحمل تانى بك الجمالى الظاهرى ، أحد مقدمى الألوف ، وقرر اقبردى الأشرفى أمير ركب الأول .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قانصوه اليحياوى نائب حلب ، وكان قد أشيع عنه أنه خرج عن الطاعة ، فلما حضر خلع عليه السلطان باستسرا ، وبطلت تلك الاشاعة عنه . وكان القائم فى أمر مساعدته الأتابكى أزبك أمير كبير .

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، لضيافة أبى بكر بن عبد الباسط ، فأضافه ضيافة حافلة . ثم ركب من خليج الزعفران وتوجه الى الخانقاه ، فصلى بها صلاة الجمعة . وأضافه هناك الأمير يشبك الدوادار ضيافة حافلة .

وفى رجب وقع بالقاهرة زلزلة فى الليل عظيمة ، وقع منها بعض أماكن ، ولو أنها دامت درجة أخرى لحصل منها غاية الضرر للناس .

وفيه تعطلت أسباب الناس لأجل القلوس العتق ،

وكثر الضرر منها على البائع ، وصار النصف الفضة
يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق ، وصارت
البضائع بسعرين : سعر الفضة ، وسعر الفلوس .
فحصل للناس بذلك غاية المشقة .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار الكبير وبين
خاير بك بن حديد تشاجر بالقلعة . فحنق منه الأمير
يشبك الدوادار ولكمه بيده ، فرمى تخفيفته عن
رأسه . فدخلت بينهما الأمراء ، وخلصوا بينهما .
واستمرت القلوب معمرة بالعداوة حتى كان من
أمر خاير بك بن حديد ما سنذكره .

وفي شعبان نزل السلطان الى الرماية ، وعاد في
موكب حافل ، ولكنه لم يشق من القاهرة ، وطلع
من بين التراب . وقد تكرر نزوله في الشهر المذكور
ثلاث مرات ، وهو يطلع من بين التراب ، ولا يشق
المدينة . وسبب ذلك الفلوس الجدد ، حتى لا
يشكو له الناس من ذلك .

وفي رمضان نودي على الفلوس بستة وثلاثين
الرطل ، وصارت بالميزان ، وأبطل عددها . ونودي
على الفضة المضروبة بالألا يتعامل بها الا بالميزان ،
وكذلك الذهب . وبطل أمر العادة .

وفيه أشيع بين الناس بأن السلطان يتزيا بزى
المغاربة وينزل الى الجامع الأزهر ويصلى به ، وكان
يسأل في بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ،
ووقع له بين الناس في هذا الأمر أشياء غريبة يطول
الشرح في ذكرها . وبعض الناس كان يحط عليه في
أفعاله ، وهو يسمع كلامه بأذنه ممن يسأله .

وفيه توفي جاني بك المشد ، وكان موته فجأة
بعد أن صلى التراويح . وكان قد شاخ وكبر سنه .
وأصله ممن مماليك الأشرف برسباي ، وولى
شمادية الشراب خافاه في دولة الأشرف اينال . ثم

بقي مقدم ألف ، ونفى الى دمياط في دولة الظاهر
خشددم ، ثم حضر الى القاهرة في دولة الأشرف
قايتباي ومات بها وهو طرخان .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة على العادة .
وفرت الخلع والصرر على الفقهاء .

وفيه فشا أمر الطاعون بالقاهرة . وهذا هو
الطاعون الثانى الذى وقع في دولة الأشرف قايتباي .

ومات به في الشهر المذكور القاضى عبد الكريم
ابن جلود ، وهو عبد الكريم بن أبى الفضل بن
اسحاق القبطى . وكان رئيسا حشما ، وولى كتابة
الممالك بعد أبيه ، وكان في حداثة سنه لم يلتج ،
وباشرها أحسن مباشرة . وكان له حرمة وافرة ،
وكان مولده قبل السبعين والثمانمائة .

وفيه توفي قانصوه رفر ، وكان من أعيان
الخاصكية مقربا عند السلطان ، شابا مليح الشكل ،
حسن الهيئة ، كثير الأدب والحشمة ، عارفا
بالفروسية ، وكان لا بأس به .

وفي شوال تزايد أمر الطاعون ، وفتك بالممالك
والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء فتكا ذريعا .
وكان طاعونا مهولا يموت فيه الانسان من يومه .

وفيه يقول الشهاب المنصوري رحمه الله تعالى :
لهقى على مصر وولداها
أضحوا الى الموت يساقونا

ما نشر الفصل سهام الردى

عليهم الا طواعينا

وفيه حضر دولات باى النجمى الأشرفى ، حاجب
الحجاب بدمشق ، وكان السلطان قد تغير خاطره
عليه . ولما حضر خلع عليه ، وأظهر له الرضا .

وفيه وصل السيد الشريف على بن بركات أخو
أمير مكة المشرفة . وكان حصر قبل ذلك الى

القاهرة ، فمضى السلطان به وبين أخيه بالصلح .
وتوجه الى مكة المشرفة ، فأقام بها مدة يسيرة ،
ووقع بينه وبين أخيه ثانيا ، فعاد الى القاهرة هو
وولده ، فأكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه ، وأقام
بمصر حتى مات .

وفيه خلع السلطان على قراجا السيفى جاني
بك نائب جدة ، وقرره فى نيابة جدة ، عوضا عن
أبى الفتح المنوفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة على عادته ، وكان
يوما مشهودا .

وفى ذى القعدة تناهى أمر زيادة الطاعون ، ومات
فيه من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم الشيخ المسلك
العارف بالله تعالى ، الولي الصالح محمد بن أحمد
ابن محمد التونسى الشاذلى الوفاى ، المعروف
بأبى المواهب رحمة الله عليه ، وكان أصله مغربيا
يعرف بابن رغدان . وكان عالما صوفيا محققا أخذ
عن أبى السعادات بن أبى الوفاء ، وألف عدة أجزاء
جليلة ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ،
ودفن بترية الشاذلية .

وتوفيت أخت السلطان ، خوند جان باى
الجزىكية وكانت لا بأس بها .

ومات جكم المصارع الأشرفى الخاصكى وكان
لا بأس به .

ومات طوغان المحمدى الأشرفى ، وكان فى عشر
الثمانين سنة ، وله اشتغال بالعلم .

ومات الشيخ عبد الكريم السيواسى الحنفى ،
وكان من أهل العلم والفضل .

ومات عيسى بك أخو شاه سوار ، وكان مقيما
بالقاهرة .

ومات كسباى بن ولى الدين الظاهرى

الخشقدمى ، الذى كان دوادارا ثانيا فى دولة
الظاهر تمرىغا .

ومات تمرىغا كاشف الشرقية وكان من مماليك
السلطان وكان أمير عشرة ، فلما مات قرر عوضه
على باى الذى ولى نيابة الإسكندرية فيما بعد .

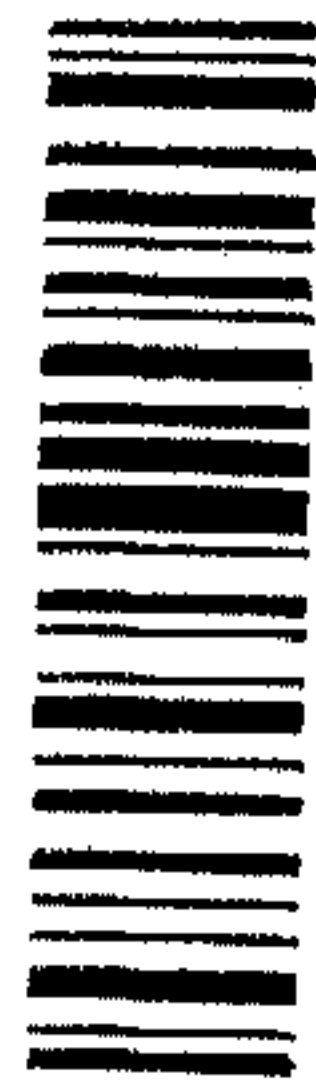
ومات كرتباى كاشف البحيرة وكان أصله من
مماليك جاني بك نائب جدة ، ثم ظهر أنه من قرابة
السلطان .

وفيه مات الامام العالم العلامة الشيخ سيف
الدين الحنفى . وهو محمد بن محمد بن عمر بن
قطلوبغا التركى القاهرى ، وكان عالما فاضلا ،
ورعا ، زاهدا ، خيرا ، دينا ، صالحا ، ماهرا فى
الفقه والحديث . ولى مشيخة الجامع المؤيدى ،
ومشيخة الخاققاء الشيخونية ، وغير ذلك من
التدريس . وكان متقشفا زاهدا عن أبناء الدنيا .
ومولده سنة ثلاث وثمانمائة . وكان من خيار
الحنفية ، ولما مات رثاه الشيخ العلامة العمدة
الجلال السيوطى بهذه الأبيات :

| | |
|-----------------------|----------------------|
| مات سيف الدين منفردا | وغدا فى اللحد منعندا |
| عالم الدنيا وصالحها | لم تزل أحواله رشدا |
| ناصر دين النبى اذا | ما أتاه ملحد كمدا |
| فى الذى قد كان من ورع | لم يخلف بعده أحدا |
| لم يكن فى دينه ضرر | لا ولا للكبر منه ردا |
| عمره أفناه فى نصب | لاله العرش مجتهدا |
| ليت شعرى من ثؤمله | بعد هذا الحبر ملتهدا |
| ثلمة فى الدين موتته | ما لها من جابر أبدا |
| قد روينا ذاك فى خير | وهو موصول لنا سندا |
| فعليه هاملات رضا | ومن الغفران سحب ندا |
| وبعثنا ضمن زمرة | مع أهل الصدق والشهدا |



 **Biblioteka Aleksandra**



0320342